شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الحادي عشر

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٩٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنيَا دَارُ مَجازٍ، وَالآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ؛ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ، عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ.

إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ! وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : مَا قَدَّمَ ! لِلّهِ آبَاؤُكُمْ ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ، وَلَا تُخَلِّفُوا كُلاً فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ.

* * *

الشَّرْحُ :

ذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى « الكامل »(١) عن الأصمعىّ ، قال : خطبنا أعرابىّ بالبادية ، فحمد الله واستغفره ، ووحّده وصلّى على نبيه صلّى الله عليه وسلّم ؛ فأبلغ فى إيجاز ، ثم قال : أيّها النّاس ، إنّ الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقرّكم من ممرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم، عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم . فى الدّنيا أنتم،

---

(١) الكامل ٤ : ١٠٨ (طبعة نهضة مصر) .

وأميرها خلقتم .أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، والمصلّى عليه رسول الله ،والمدعوّ له الخليفة[1]، والأمير جعفر بن سليمان

وذكر غيره الزيادة التى فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وهى : « إنّ المرء إذا هلك ... » ، إلى آخر الكلام .

وأكثر النّاس على أنّ هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام .

ويجوز أن يكونَ الأعرابىّ حفظه فأورده كما يورِد النّاسُ كلامَ غيرهم.

* * *

قوله عليه السلام : « دار مجاز » ، أى يُجَاز فيها إلى الآخرة ، ومنه سمِّىَ المجاز فى الكلام مجازاً ، لأنّ المتكلّم قد عَبَر الحقيقة إلى غيرها ، كما يَعبُر الإنسان من موضع إلى موضع .

ودار القرار : دار الاستقرار الذى لا آخر له .

فخذوا من ممرّكم ، أى من الدنيا . لمقرّكم ؛ وهو الآخرة .

قوله عليه السلام : « قال الناس : ماترك ! » ، يريد أنّ بنى آدم مشغولون بالعاجلة، لايفكّرون فى غيرها ، ولا يتساءلون إلّا عنها ، فإذا هلك أحدكم ، فإنّما قولهم بعضهم لبعض : ما الذى ترك فلان من المال ؟ ما الذى خلف من الولد ؟ وأما الملائكة فإنّهم يعرفون الآخرة ، ولا تستهويهم شهواتُ الدّنيا ، وإنّما هم مشغولون بالذِّكْر والتسبيح، فإذا هلك الإنسان ، قالوا : ماقدّم ؟ أى أىّ شىء قدّم من الأعمال ؟

ثم أمرهم عليه السلام ، بأنْ يقدّموا من أموالهم بعضها صدقة ، فإنّها تبقى لهم ، ونهاهم أن يخلِّفوا أموالَهم كلَّها بعد موتهم ، فتكون وبالًا عليهم فى الآخرة .

---

(١) يريد به أبا جعفر المنصور ؛ وقد ولى ابن عمه جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله بن العباس المدينة سنة ست وأربعين ومائة .

(١٩٧)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام كان كثيرا ماينادى به أصحابه :

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ ،وَأَقِلُّوا الْعَرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ؛ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَئُوداً ، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً ، لَابُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ [1] ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ ، وَمُضْلِعَاتُ [2] الْمَحْذُورِ .

فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا ، وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

***

وقد مضى شيء من هذا الكلامِ فيما تقدَّمَ يُخَالِف هذه الرِّوَايةَ .

***

الشَّـرْحُ :

تجهّزوا لكذا ، أى تهيّئوا له .

والعَرْجة:التعريج ، وهو الإقامة،تقول : مالى على ربعك عَرْجة[3]،أى إقامة،وعرّج فلان على المنزل ، إذا حبَس عليه مطيّته .

---

(١) مخطوطة النهج : « دانية » .

(٢) مخطوطة النهج : « المعضلات » .

(٣) فى اللسان : « مالى عندك عرجة [مثلثة العين مع إسكان الراء] ، ولا عرجة [بفتحتين] ، ولا تعريج ، ولا تعرج ، أى مقام ، وقيل : محبس » .

والعقبة الـكئود: الشاقّة المصعد. ودائبة: جادّة. والمخلب للسَّبُع بمنزلة الظّفر للإنسان.
وأفظع الأمرُ، فهو مفظع، إذا جاوز المقدار شدّة.
ومضلمات المحذور: الخطوب التى تُضلِـع، أى تجعل الإنسان ضليعاً، أى معوجًّا، والماضى ضَلِـع بالـكسر يَضلَع ضَلَعاً.
ومن رواها بالظاء، أراد الخطوب التى تجعل الإنسان ظالعا، أى يغمز فى مَشْيِه لثقلها عليه، والماضى ظَلَع بالفتح، يظلَع ظَلَعاً، فهو ظالع.

(١٩٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة ، وقد عتبا عليه [1] من ترك مشورتهما والاستعانة فى الأمور بهما :

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً ، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً . أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ ! أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ ! أَوْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ ، أَمْ جَهِلْتُهُ ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ !

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ ؛ وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ ، وَمَا اسْتَنَّ [2] النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَدَيْتُهُ . فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمَا ، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا .

وَأَمَّا مَاذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي ، وَلَا وَلِيتُهُ هَوًى مِنِّي ، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَاجَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ . فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللهِ عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَى .

أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ !

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) مخطوطة النهج « استسن » .

ثم قال عليه السلام :

رَحِمَ اللهُ رَجلًا رَأى حَقًّا فَأعَانَ عَلَيْهِ ،أوْ رَأى جَوْراً فرَدَّهُ ، وَكَانَ عَوْناً بالْحَقِّ عَلَى صاحِبِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

نَقَمت عليه ، بالفتح أنقِم ، هذه اللغة الفصيحة ، وجاء نقِمت بالكسر ، أنقَم .

وأرجأتما : أخّرتما ، أى نقَمتما من أحوالى اليسير ، وتركتما الكثير الذى ليس لكما ولا لغيركما فيه مطعَن ، فلم تذكراه ، فهلّا اغتفرتُما اليسير للكثير !

وليس هذا اعترافا بأنّ مانقَماه موضع الطّعن والعيْب ، ولكنّه على جهة الجدَل والاحتجاج ، كما تقول لمن يطعن فى بيتٍ من شعر شاعر مشهور : لقد ظلمتَه إذْ تتعلّق عليه بهذا البيت ، وتنسى ماله من المحاسن الكثيرة فى غيره !

ثم ذكر وجوه العتاب والاسترادة(١) ، وهى أقسام : إمّا أن يكونلهما حقٌّ يدفعهما عنه ، أو استأثر عليهما فى قَسْم ، أو ضَعُف عن السياسة ، أو جَهِل حُكْماً من أحكام الشريعة ، أو أخطأ بابه .

فإن قلت : أىّ فرق بين الأوّل والثانى ؟

قلت : أما دفعهما عن حقهما ، فمنعهما عنه ؛ سواء صار إليه عليه السّلام أو إلى غيره ، أو لم يصِرْ إلى أحد ، بل بقِىَ بحاله فى بيت المال .

---

(١) الاسترادة : طلب الرجوع واللين والانقياد ، ومنه الحديث : فاسترادَ لأمر الله ، أى رجع ولان وانقاد . (اللسان) .

وأما القسم الثانى فهو أن يأخُذَ حقَّهما لنفسه ، وبين القسمين فرق ظاهر ، والثانى أفحش من الأوّل .

فإن قلت : فأيّ فرق بين قوله : « أم جهلته » ، أو « أخطأت بابه » !

قلت : جَهْل الحكم أن يكونَ الله تعالى قد حكم بحرمة شيء ، فأحلّه الإمام أو المفتى، وكونه يخطئ بابه ؛ هو أن يصيب فى الحكم ويخطئ فى الاستدلال عليه .

ثم أقسم أنّه لم يكن له فى الخلافة رغبة ولا إرْبة ، بكسر الهمزة ، وهى الحاجة . وصدَق عليه السلام ! فهكذا نَقَل أصحابُ التواريخ وأرباب عِلْم السِّيَر كلُّهم ، وروى الطبرىّ فى التاريخ ورواه غيره أيضاً أنّ الناسَ غَشُوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته ، وهو يأبى ذلك ويقول : دعونى والتمسوا غيرى ، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لاتثبت عليه العقول ، ولاتقوم له القلوب. قالوا : نَنْشُدك الله ! ألَا تَرَى الفتنة ! ألا ترى إلى ما حدث فى الإسلام ! ألا تخاف الله ! فقال : قد أجبتكم لما أرى منكم ، واعلموا أنى إنْ أجبتُكم ركبتُ بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعُكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمرَكم إليه . فقالوا : مانحن بمفارقيك حتى نبايعَك . قال : إن كان لابدّ من ذلك ففى المسجد؛ فإن بَيْعتى لاتكون خَفِيّاً، ولاتكون إلا عن رضا المسلمين، وفى ملأ وجماعة . فقام والنّاس حوله ، فدخل المسجد ، وانثال عليه المسلمون فبايعوه ، وفيهم طلْحة والزبير(١) .

قلت : قوله : « إن بيعتى لا تكون خَفيا ، ولا تكون إلّا فى المسجد بمحضَر من جمهور النّاس » ، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للعبّاس لمّا سامَه مدّ يدِه للبيعة : إنّى أحبُّ أن أُصحِر بها(٢) ، وأكره أنْ أبايع من وراء رِتاج .

---

(١) تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٢ (المطبعة الحسينية) مع تصرف .
(٢) أصحر : من قولهم : أصحر الأمر وبه، إذا أظهره .

ثم ذكر عليه السلام أنّه لما بُويع عمِل بكتاب الله وسنة رسوله ، ولم يحتجْ إلى رأيهما ولا رأيِ غيرِهما ، ولم يقع حُكْم يجهله فيستشيرهما ، ولو وقع ذلك لاستشارهما وغيرهما ، ولم يأنفْ من ذلك .

ثم تكلّم فى معنى التّنْفيل فى العطاء ، فقال : إنى عملت بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك . وصدق عليه السلام ! فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله سوّى فى العطاء بين الناس ، وهو مذهب أبى بكر .

والعُتْبى : الرّضا ، أى لست أرضيكما بارتكاب مالا يحلّ لى فى الشرع ارتكابه .

والضمير فى « صاحبه » ، وهو الهاء المجرورة يرجع إلى الجوْر ، أى وكان عوناً بالعمل على صاحب الجوْر .

* * *

[من أخبار طلحة والزبير]

قد تقدّم منّا ذكرُ ماعتب به طلحة والزُّبير على أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنهما قالا : ما نراه يستشيرنا فى أمرٍ ، ولا يفاوضنا فى رأى ، ويقطع الأمرَ دوننا ، ويستبدّ بالحكم عنّا ! وكانا يرجوان غير ذلك ، وأراد طلحةُ أن يولّيَه البصرة ، وأراد الزّبير أن يولّيَه الكوفة ، فلما شاهدا صلَابتَه فى الدين ، وقوّته فى العزم ، وهَجْرَه الإدهان والمراقبة ، ورفضه المُدَالسة والمواربة ، وسلوكه فى جميع مسالكه منْهَج الكتاب والسنّة ، وقد كانا يعلمان ذلك قديماً من طبعه وسجيّته ، وكان عمر قال لهما ولغيرهما : إنّ الأجْلح[1] إن وَلِيَها ليحملنّكم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله

(١) الأجلح ، من الجلح ، وهو ذهاب الشعر من مقدم الرأس ، وكان رضى الله عنه كذلك .

من قبل قال : وإنّ تولّوها عليًّا ، تجدوه هاديًا مهديًّا » ، إلّا أنّه ليس الخبرُ كالعيان ، ولا القول كالفعل ، ولا الوعد كالإنجاز . وحالَا عنه ، وتنكّرا له ، ووقعا فيه ، وعاباه وغمَصاه(١) ، وتطلّبا له العلل والتأويلات ، وتنقّما عليه الاستبداد وترك المشاورة ، وانتقلا من ذلك إلى الوقيعة فيه بمساواة النّاس فى قسمة المال ، وأثنيا على عمرَ ، وحمِدا سيرته ، وصوّبا رأيه ، وقالا : إنّه كان يفضّل أهلَ السوابق ، وضلّلا عليًّا عليه السلام فيما رآه ، وقالا : إنّه أخطأ ، وإنّه خالف سيرة عمر ، وهى السيرة المحمودة التى لم تفضحها النبوّة ، مع قرب عهدنا منها ، واتصالها بها . واستنجدا عليه بالرّؤساء من المسلمين ، كان عمر يفضّلهم وينفّلهم(٢) فى القَسْم على غيرهم ـ والنّاس أبناء الدّنيا ، ويحبّون المال حُبًّا جمًّا ـ فتنكّرتْ على أمير المؤمنين عليه السلام بتنكّرهما قلوبٌ كثيرة ، ونغِلت(٣) عليه نيّاتٌ كانت من قبل سليمة ، ولقد كان عمر موفّقًا حيث منع قريشا والمهاجرين وذوى السّوابق من الخروج من المدينة ، ونهاهم عن مخالطة النّاس ، ونهى الناس عن مخالطتهم ، ورأى أنّ ذلك أُسّ الفساد فى الأرض ، وأنّ الفتوح والغنائم قد أبطرت المسلمين ، ومتى بَعُد الرءوس والكبراء منهم عن دار الهجرة ، وانفردوا بأنفسهم ، وخالَطهم النّاس فى البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسِّنوا لهم الوثوب ، وطلب الإمْرة ومفارقة الجماعة ، وحلّ نظام الألفة ، ولكنّه رضىَ الله عنه نقضَ هذا الرأى السّديد بما فعله بعد طعن أبى لؤلؤة له من أمْر الشورى ، فإنّ ذلك كان سبب كلّ فتنة وقعت ، وتقع إلى أن تنقضىَ الدنيا . وقد قدّمنا ذكر ذلك ، وشرحنا ما أدّى إليه أمرُ الشورى من الفساد بما حصل فى نفس كلّ من الستّة من ترشيحه للخلافة .

* * *

---

(١) غمصاه : تهاونا بحقه .

(٢) ينفلهم : يعطيهم النفل .

(٣) نغلت : فسدت .

وروى أبو جعفر الطبريّ في تاريخه ، قال : كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروجَ في البلدان إلاّ بإذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام فخطب ، فقال : ألا إني قد سننتُ الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنيًّا [١] ، ثم يكون رباعياً [٢] ، ثم سديساً ، ثم بازلاً [٣] . ألا فهل يُنتظر بالبازل إلا النقصان ! ألا وإنّ الإسلام قد صار بازلاً ، وإنّ قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات على ما في أنفسهم . ألا إنّ في قريش من يُضمِر الفرقة ، ويروم خلع الرِّبقة . أمّا وابنُ الخطاب حيّ فلا ؛ إنّي قائم دون شِعب الحرّة ، آخذ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتوا في النار .

وقال أبو جعفر الطبري في التاريخ أيضاً : فلما ولِّيَ عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدنيا ، ورآهم الناس ، خمل من لم يكن له طَوْل ولا قَدَمٌ في الإسلام ، ونُبِه أصحاب السوابق والفضل ، فانقطع إليهم الناس ، وصاروا أوزاعاً معهم ، وأمّلوهم ، وتقرّبوا إليهم ، وقالوا : يملكون فيكون لنا في مُلكهم حظوة ، فكان ذلك أوّل وَهَنٍ على الإسلام ، وأوّلَ فتنة كانت في العامة .

وروى أبو جعفر الطبريّ ، عن الشعبيّ ، قال : لم يمت عمر حتى ملّته قريش ، وقد كان حَصَرهم بالمدينة ، وسألوه أنْ يأذنَ لهم في الخروج إلى البلاد ، فامتنع عليهم ، وقال : إنّ أخوف ما أخافُ على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، حتى إنّ الرّجُلَ كان يستأذنه في غزو الروم أو الفرس ، وهو ممّن حبسه بالمدينة من قُريش ، ولاسيما من المهاجرين فيقول له : إنّ لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكفيك ويبلغك ويُحْسِبُك [٤] ، وهو خيرٌ لك من الغزو اليوم ، وإنّ خيراً لك ألّا ترى الدنيا ولا تراك .

---

(١) الثنيّ : الذي يلقي ثنيته .
(٢) الرباعي : هو الذي ألقى رباعيته ، والرباعية : السن التي بين الثنية والناب .
(٣) البازل : البعير فطر نابه وانشق ، ويكون ذلك في السنة التاسعة .
(٤) يقال : أحسبه إذا أرضاه أو أعطاه ما يرضيه وكفاه .

فلما مات عمر وولى عثمان خلّى عنهم فانتشروا فى البلاد واضطربوا ، وانقطع إليهم الناس وخالطوهم ، فلذلك كان عثمان أحبَّ إلى قريش من عمر .

فقد بان لك حسنُ رأى عمر فى منْع المهاجرين وأهل السّابقة من قُريش من مخالطة النّاس والخروج من المدينة ، وبان لك أنّ عثمان أرخى لهم فى الطّوَل[1] ، فخالطهم الناس ، وأفسدوهم ، وحبَّبوا إليهم المال والإمرة والرئاسة ، لاسيّما مع الثروة العظيمة التى حصلت لهم ، والثّراء مفسدة وأىّ مفسدة ! وحصل لطلحة والزبير منْ ذلك مالم يحصل لغيرهما ثروة ويسارا ، وقدما فى الإسلام ، وصار لهما لفيف عظيم من المسلمين يمنّونهما الخلافة ، ويحسّنون لهما طلب الإمْرة ، لاسيما وقد رشّحهما عمر لها ، وأقامهما مقام نفسه فى تحمّلها ، وأى امرئٍ منّى بها قطّ نفسَه ففارقها حتى يغيَّب فى اللّحد ! ولا سيّما طلحة ، قد كان يحدّث بها نفسه وأبو بكر حىّ ، ويروم أن يجعلها فيه ، بشبهة أنّه ابنُ عمّه ، وسخط خلافة عمر ، وقال لأبى بكر : ماتقول لربّك وقدولّيتَ علينا فظًّا غليظا ، وكان له فى أيام عمر قوم يجلسون إليه ، ويحادثونه سرًّا فى معنى الخلافة ، ويقولون له : لو مات عمر لبايعناك بَغْتَةً ، جلب الدّهرُ علينا ماجلب ! وبلغ ذلك عمر ، فخطب النّاس بالكلام المشهور ، إنّ قوما يقولون : إنّ بيعة أبى بكر كانت فَلْتَة ، وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا ، أما أنّ بيعة أبى بكر كانت فلتة ، إلّا إنّ الله وَقَى شرّها ، وليس فيكم من تنقطع إليه الرقاب كأبى بكر ، فأىّ امرئٍ بايع امرأً من غير مشورة من المسلمين ، فإنّهما بَغْرّة أن يقتلا ، فلما صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أنْ كان رضيها ، وأظهر مافى نفسه ، وألّب عليه حتى قُتل ، ولم يشكّ أنّ الأمر له ، فلمّا صارت إلى علىّ عليه السلام ، حدث منه ماحدث ، وآخر الدواء الكَىّ .

وأما الزّبير فلم يكن إلّا علوىّ الرأى ، شديد الوّلاء ، جاريا من الرّجل مجرى نفسه .

(١) الطول : الحبل ، يريد أنه لان وترك لهم الحبل على الغارب ، حتى عملوا ما عملوا .

ويقال : إنّه عليه السلام لما استنجد بالمسلمين عَقِيب يوم السّقيفة وما جرى فيه ،وكان يحمل فاطمة عليها السلام ليلا على حمار ، وابناها بين يدى الحمار ، وهوعليه السلام يسوقه فيطرُق بيوتَ الأنصار وغيرهم ، ويسألهم النّصْرة والمعونة ، أجابه أربعون رجلا،فبايعهم على الموت ، وأمرهم أن يصبحوا بكرةً محلّقى رءوسهم ومعهم سلاحهم ، فأصبح لم يوافِهِ منهم إلّا أربعة : الزبير ، والمقداد ، وأبوذَرّ ، وسَلْمان . ثم أتاهم من الليل، فناشدهم،فقالوا: نصبّحك غدوة ؛ فما جاءه منهم إلا أربعة ، وكذلك فى الليلة الثالثة ،وكان الزّبير أشدَّهم له نصرة ، وأنفذهم فى طاعته بصيرة ، حلَق رأسه، وجاء مرارا وفى عنقه سيفه ،وكذلك الثلاثة الباقون ، إلّا أنّ الزبير هو كان الرأس فيهم . وقد نقل النّاس خبر الزّبير لما هَجَم عليه ببيت فاطمة عليها السلام ، وكسر سيفه فى صخرة ضربت به ، ونقلوا اختصاصه بعلىّ عليه السلام ، وخلواته به . ولم يزل مواليا له ، متمسِّكا بحبّه ومودّته ، حتى نشأ ابنُه عبدالله وشبّ ، فنزع به عِرْقٌ من الأمّ ، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه ، ومحبّة الوالد للولد معروفة ، فانحرف الزّبير لانحرافه؛ على أنه قد كانت جرت بين علىّ عليه السلام والزّبير هَنَاتٌ فى أيام عمر كدّرت القلوب بعض التكدير ، وكان سببها قصّة موالى صفيّة ومنازعة علىّ للزبير فى الميراث ، فقضى عمر للزّبير ، فأذعن علىّ عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه ، لارجوعا عمّا كان يذهب إليه من حكم الشرع فى هذه المسألة وبقيت فى نفس الزّبير ، على أنّ شيخنا أبا جعفر الإسكافىّ رحمه الله ذكر فى كتاب "نقض العثمانية" عن الزبير كلاما ، إنْ صحّ ، فإنّه يدلّ على انحراف شديد ،ورجوع عن موالاة أمير المؤمنين عليه السلام .

قال : تفاخَر علىّ عليه السلام والزبير ، فقال الزبير : أسلمتُ بالغا ، وأسلمتَ طفلا ، وكنتُ أوّلَ مَنْ سلّ سيفا فى سبيل الله بمكّة وأنت مستخفٍ فى الشِّعب[1]، يكفُلك الرجال ،

(١) هو شعب أبى يوسف بمكة ؛ وانظر معجم البلدان ٥ : ٢٧٠

ويمونك الأقارب من بني هاشم . وكنتُ فارساً ، وكنتَ راجلا ، وفي هيئتي نزلت الملائكة ، وأنا حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال شيخنا أبو جعفر : وهذا الخبر مفتعل مكذوب ، ولم يجر بين عليّ والزبير شيء من هذا الكلام ، ولكنه من وضع العثمانية ، ولم يسمع به في أحاديث الحشويّة ، ولا في كتب أصحاب السِّيرة .

ولعليّ عليه السلام أن يقول : طفلٌ مسلم خير من بالغ كافر ، وأمّا سلّ السيف بمكّة ، فلم يكنْ في موضعه ، وفي ذلك قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ... ﴾(١) الآية ، وأنا على منهاج الرسول في الكفّ والإقدام ، وليس كفالة الرجال والأقارب بالشِّعب عارًا عليّ ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشِّعب يكفُله الرّجال والأقارب . وأمّا حربُك فارساً ، وحربي راجلا ، فهلّا أغنت فروسيّتُك يوم عمرو ابن عبدودّ في الخندق ! وهلّا أغنت فروسيّتُك يوم طلحة بن أبي طلحة في أحُد ! وهلّا أغنت فروسيّتك يوم مرحب بخيبر ! ما كانتْ فرسُك التي تحارب عليها في هذه الأيّام إلا أذلّ من العَنز الجرباء ، ومَنْ سلّمتْ عليه الملائكة أفضل ممّن نزلتْ في هيئته ، وقد نزلت الملائكة في صورة دِحْية الكلبيّ ، أفيجب من ذلك أن يكون دحْية أفضلَ منّي ! وأما كونك حواريّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فلو عددت خصائصي في مقابلة هذه اللّفظة الواحدة لك ، لاستغرقت الوقت ، وأفنيْت الزمان ، وربّ صمتٍ أبلغُ من نطق(٢) .

* * *

ثم نرجع إلى الحديث الأوّل ، فنقول : إنّ طلحة والزبير لما أيِسا من جهة عليّ عليه

(١) سورة النساء ٧٧ .

(٢) انظر رسالة العثمانية ٢٢٤ وما بعدها .

السلام ، ومن حصول الدنيا من قِبَله ، قَدَبا له ظهر المِجنّ ، فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لاذعا ، روى شيخنا أبو عثمان قال :

أرسل طلحةُ والزّبير إلى علىّ عليه السلام قبل خروجهما إلى مكّة مع محمد بن طلحة ، وقالا : لاتقل له : « يا أمير المؤمنين » ، ولكن قل له : « ياأباالحسن » ، لقد فالَ فيك رأيُنا ، وخاب ظنُّنا . أصلحنا لك الأمر ، ووطّدنا لك الإمْرة ، وأجلبنا على عثمان حتى قتِل ، فلمّا طلبك النّاس لأمرهم ، أسرعنا إليك ، وبايعناك ، وقُدْنا إليك أعناقَ العرب ، ووطئ المهاجرون والأنصار أعقابنا فى بَيْعتك حتى إذا ملكت عنانك ، استبدَدْت برأيك عنّا ، ورفضتنا رفض التّريكة [1] ، وأذلْتنا إذالة [2] الإماء ، وملّكت أمرَك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونزّاع الأمصار ، فكنّا فيما نرجوناه منك ، وأمّلناه من ناحيتك ، كما قال الأوّل :

فكُنْتَ كَمُهْرِيقِ الّذى فى سِقَائِهِ ... لرَقْراقِ آلٍ فوقَ رابيةٍ صَلْدِ

فلمّا جاء محمّد بن طلحة ، أبلغه ذاك ، فقال : اذهبْ إليهما ، فقل لهما : فما الذى يرضيكما ؟ فذهب وجاءه ، فقال : إنهما يقولان : وَلِّ أحدَنا البصرة والآخر الكوفة ! فقال : لاها الله ! إذَنْ يحلُم الأديم ، ويستشرى الفساد ، وتنتقض علىّ البلاد من أقطارها ، والله إنى لا آمنهما وهما عندى بالمدينة ، فكيف آمنهما وقد ولّيتهما العراقين ! اذهبْ إليهما فقل : أيها الشيخان ، احذرا من سَطْوة الله ونقْمته ، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيدا ، وقد سمعتما قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [3] . فقام محمد بن طلحة فأتاهما ، ولم يعد إليه ، وتأخّرا عنه أياما ، ثم جاءاه فاستأذناه فى الخروج إلى مكة للعمرة ، فأذِن لهما بعد أن أحلفهما

---

(١) التريكة : التى تترك فلا يتزوجها أحد . (٢) الإذالة : الإهانة .

(٣) سورة القصص ٨٣ .

ألّا ينقضا بيعتَه ، ولا يغـدرًا به ، ولا يشقّا عصا المسلمين ، ولا يُوقِعاَ الفرقة بينهم، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة ، فحلفا على ذلك كلّه ثم خرجا ففعلا مافعلا .

***

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : لمّا خرج طلحة والزبير إلى مكّة ،وأوهَمَا النّاس أنهما خرجا للعمْرة ، قال علىّ عليـه السلام لأصحابه : والله مايريدان العمرة ، وإنّمـا يريدان الغَدْرة ﴿ فَمَنْ نـكث فإنّما ينـكُث على نفسه ، ومَنْ أوفى بمـا عاهد عليه الله فـسيؤتيـه أجرا عظيما[1] ﴾ .

وروى الطّبرى فى التاريخ ، قال : لمّا بايع طلحة والزبير عليًّا عليه السلام ، سألاه أن يؤمّرهما على الـكُوفة والبصرة ، فقال : بل تـكونان عنـدى أتجمّل بكما ، فإنى أستوحش لفراقـكما .

قال الطبرىّ : وقد كان قال لهما قبل بيعتهما له : إنْ أحببتما أنْ تبايعانى ، وإنْ أحببتما بايعتـكما ؛ فقالا : لا ؛ بل نبايعك ؛ ثم قالا بعد ذلك : إنما بايعناه خشية على أنفسنا، وقد عرفنا أنّه لم يكن ليبايعنا . ثم ظهرا إلى مكة ، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر .

وروى الطبرىّ أيضا فى التاريخ قال : لمّا بايع النّاس عليـا ، وتمّ له الأمر ، قال طلحة للزبير : ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلّا كحِسّة[2] أنف الـكلب .

وروى الطبرىّ أيضا فى التاريخ ، قال : لمّـا بايَع النّاس عليا عليه السلام بعـد قتل عثمان ، جاء علىٌّ إلى الزّبير ، فاستأذن عليه . قال أبو حبيبة مولى الزبير :فأعلمتُه به ،فسلّ السيفَ ، ووضعه تحت فراشه ، وقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل فسلّم عَلَى الزّبير وهو واقف . ثم خرج ، فقال الزبير : لقد دخل لأمرٍ ماقضاه ، قم مقامه وانظر : هل ترى من

---

(١) سورة الفتح ١٠

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى ١ : ٣٠٦٩ (طبع أوربا) ، والـكلمة غير واضحة فى الأصول .

السيف شيئا ! فقمت فى مقامه ، فرأيت ذُباب السيف ، فأخبرتُه وقلت : إن ذُباب السيف لَيظهر لمن قام فى هذا الموضع ، فقال : ذاك أعجلَ الرجل.

وروى شيخُنا أبو عثمان ، قال : كتب مُصْعب بن الزبير إلى عبد الملك :

مِنْ مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان : سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

سَتَعْــــلَمُ يا فَتَى الزَّرْقاء أنّى ... سأهتِك عن حلائلك الحِجَابَا
وأترك بلدةً أصبحت فيهـــا ... تَهوَّر مـــن جَوانبهـا خَرَابا

أمَا إن لله علىّ الوفاء بذلك ؛ إلّا أن تتراجع أو تتوب ! ولعمرى ما أنت كعبدالله بن الزبير ، ولا مرْوان كالزّبير بن العوام ، حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمّته. فسلِّم الأمر إلى أهله ، فإنّ نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتين . والسلام .

فكتب إليه عبد الملك :

من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إلى الذّلول الذى أخطأ مَنْ سماه المُصْعَب ؛ سلام عليك ، فإنّى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

أتُوعِدُنِى وَلَمْ أَرَ مِثْلَ يومِى ... خَشاش الطّير يوعِدن العُقَابَا
مَتَى تَلْقَ العُقاب خَشَاشَ طير ... يهتِّك عن مقاتِلهــا الحِجَابا
أتوعِـــد بالذئاب أسودَ غابٍ ... وأسْــدُ الغاب تلتَهِم الذئابا !

أمّا ماذكرت من وفائك ، فلعمرى لقد وفّى أبوك لتيْم وعدىّ بعَداء قريش وزعانفها، حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان ، الشريف النسب ، الكريم الحسب ، بغاه الغوائل ، وأعدّ له المخاتل ، حتى نال منه حاجته ، ثم دعا النّاس إلى علىّ وبايعه ، فلما

دانت له أمور الأمّة ، وأجمعت له الكلمة ، وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف ، فنقض عهدَه ، ونكث بيعته بعد توكيدها ، و «فَـكّر وقدّر ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ» ؛ وتمزقت لحمه الضباع بوادي السباع . ولعمري إنّك تعلم ياأخا بني عبد العزّى بن قصيّ ؛ أنّا بنو عبد مناف لم نزل سادتَكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام ، ولكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت ، ولم ترث ذلك عن كلالة ، بل عن أبيك ، ولا أظنّ حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلّا إلى ما آل إليه حسدُ أبيكما من قَبل ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[١] ؛ ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[٢] .

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : دخل الحسن بن عليّ عليهما السلام على معاوية ، وعنده عبد الله بن الزبير — وكان معاوية يحبّ أن يغري بين قريش — فقال : ياأبا محمد ، أيّهما كان أكبر سنًّا ؛ عليّ أم الزبير ؟ فقال الحسن : ماأقرب ما بينهما ، وعليّ أسن من الزبير ، رحم الله عليا ! فقال ابن الزّبير رحم الله الزّبير — وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب ، فقال : ياعبد الله ، ومايهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه ! قال : وأنا أيضا ترحّمت على أبي ! قال : أتظنه نِدًّا له وكفؤا ؟ قال : وما يُعدَلُ به عن ذلك ! كلاهما من قريش ، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتمّ له . قال : دع ذاك عنك يا عبد الله ؛ إنّ عليا من قُريش ومن الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم ، ولمّا دعا إلى نفسه أتبِع فيه ، وكان رأساً ، ودعا الزّبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة ، ولما تراءت الفئتان نكص على عَقِبيه ، وولّى مدبراً قبل أنْ يظهر الحقّ فيأخذه ، أو يدحض الباطل فيتركه ، فأدركه رجل لو قيسَ ببعض أعضائه لكان أصغر ، فضرب عنقه ، وأخذ سَلَبه ، وجاء برأسه ، ومضى عليّ قُدُماً كعادته مع ابن عمّه ، رحم الله عليا !

---

(١) سورة فاطر ٤٣ .
(٢) سورة الشعراء ٢٢٧ .

فقال ابن الزبير : أما لو أنّ غيرك تــكلّمَ بهــذا يا أبا سعيد ، لعلم ! فقال : إنّ الذى تعرَّض به يرغب عنك . وكفّه معاوية ، فسكتوا .

وأخبِرتْ عائشة بمقالتهم ، ومرّ أبو سعيد بفِنائها ، فنادته : يا أبا سعيد ، أنت القائل لابن أختى كذا ؟ فالتفت أبو سعيد ، فلم ير شيئا ، فقــال : إنّ الشيطان يرانا ولا نراه ! فضحكت عائشة ، وقالت : لله أبوك ! ما أذلق لسانك !

(١٩٩)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ :

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ !

***

الشَّرْحُ :

السبّ : الشتم ، سبّه يسُبُّه بالضمّ ، والتّساب : التشاتم ، ورجلٌ مِسَبّ بكسر الميم : كثير السِّباب ، ورجلٌ سُبَّة ، أي يسبُّه الناس ، ورجل سُبَبَة ، أي يسبّ الناس ، ورجل سَبّ : كثير السباب ، وسِبُّك : الذي يسابّك ، قال :

لَا تَسُبَّنَّنِي فَلَسْتَ بِسِبِّي إِنَّ سِبِّي من الرجال الكريمُ[1]

والذي كرهه عليه السلام منهم ، أنهم كانوا يشتُمون أهلَ الشام ، ولم يكن يكره منهم لعنهم إياهم ، والبراءة منهم ، لا كما يتوهّمه قومٌ من الحشويّة ، فيقولون : لا يجوز

(١) لعبد الرحمن بن حسان ، وانظر الصحاح ١ : ١٤٥ .

لعن أحدٍ ممّن عليه اسم الإسلام ، وينكرون عَلَى مَنْ يلعن ، ومنهم مَنْ يغالى فى ذلك ، فيقول : لا ألعن الـكافر ، ولا ألعن إبليس ، وإن الله تعالى لا يقول لأحدٍ يوم القيامة : لم لم تلعن ؟ وإنما يقول : لِمَ لَعَنْتَ ؟

واعلم أنّ هذا خلاف نصّ الـكتاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْـكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ (٢) .

وقال فى إبليس : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ (٤) .

وفى الـكتاب العزيز من ذلك الـكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينـكر التبرّؤ ممّن يجب التبرّؤ منـــه ! ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَـكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنـكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِـكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَـكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً ﴾ (٥) وإنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله ؛ فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحقّ بهـا اللعن والبراءة ؛ فلا ضَيرَ على مَنْ يلعنه ويبرأ منه ، وإن لم يكن قد قارف كبيرة لم يَجُز لعنُه ، ولا البراءة منه .

وممّا يدلّ على أنّ مَنْ عليه اسم الإسلام إذا ارتـكب الـكبيرة يجوز لعنُه ، بل يجب فى وقت ، قول الله تعالى فى قصّة اللِّعَان : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّه

---

(١) سورة الأحزاب ٦٤ .
(٢) سورة البقرة ١٥٩ .
(٣) سورة ص ٧٨ .
(٤) سورة الأحزاب ٦١ .
(٥) سورة الممتحنة ٤ .

لَمِنَ الصَّادِقِين * وَٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ ٱللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْـكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى القاذف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فهاتان الآيتان فى المكلّفين من أهل القبلة، والآيات قبلهما فى الـكافرين والمنافقين ؛ ولهـذا قنَت أمير المؤمنين عليـه السلام على معاوية وجماعة من أصحـابه ، ولعنهم فى أدبار الصلوات .

فإن قلت : فما صُورة السبّ الذى نَهَى أمير المؤمنين عليه السلام عنه ؟

قلت : كانوا يشتمُونهم بالآباء والأمهـات ، ومنهم مَنْ يطعن فى نسب قوم منهم ، ومنهم مَنْ يذكرهم باللؤم ، ومنهم مَنْ يعيّرهم بالجبن والبخل وبأنواع الأهاجى التى يتهاجَى بها الشعراء ، وأساليبها معلومة ، فنهاهم عليه السلام عن ذلك ، وقال : إنى أكره لـكم أن تـكونوا سبّابين ؛ ولـكن الأصوب أن تصِفُوا لهم أعمـالهم ، وتذكروا حالهم ؛ أى أن تقولوا : إنّهم فسّاق ؛ وإنهم أهل ضلال وباطل .

ثم قال : اجعلوا عِوَض سبهم أن تقولوا : اللّهمّ احقنْ دماءنا ودماءهم !

حقنت الدم أحقُنه ، بالضمّ: منعت أن يسفَك ، أى ألهمهم الإنابة إلى الحقّ والعدول عن الباطل ؛ فإنّ ذلك إذا تمّ حقنت دماء الفريقين .

فإن قلت : كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله ؟ أليس من أصولـكم أنّ الله تعالى لا يضطر المـكلّف إلى اعتقاد الحق ، وإنما يكله إلى نظره ؟ !

قلت : الأمر وإن كان كذلك ، إلّا أنّ المـكلفين قد تُعبِّدُوا بأن يدعوا الله تعـالى

---

(١) سورة النور ٦ ، ٧ .

(٢) سورة النور ٢٣ .

بذلك ، لأنّ فِي دعائهم إياه بذلك لطفاً لهم ومصالح في أديانهم ؛ كالدعاء بزيادة الرزق وتأخير الأجل .

قوله : « وأصلح ذات بيننا وبينهم » ؛ يعني أحوالنا وأحوالهم . ولمّا كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : « ذات البين » ؛ كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة للصدور قيل : « ذات الصدور » ، وكذلك قولهم : اسقني ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابسا له ، ويقولون للمتبرّز قد وضع ذا بطنه ؛ وللحبلى تضع : ألقت ذا بطنها .

وارعوى عن الغيّ : رجع وكفّ .

لهِج به بالكسر ، يلهَج : أغرى به وثابر عليه .

(٢٠٠)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى بعض أيام صِفِّين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرّع إلى الحرب :

أَمْلِكُوا عَنِّى هٰذَا الْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِى ؛ فَإِنَّنِى أَنْفَسُ بِهٰذَيْنِ - يَعْنِى الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهما السلام - عَلَى الْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

* * *

قَالَ الرَّضِىُّ أَبُو الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ: قَوْله عليهِ السَّلَامُ : «أَمْلِكُوا عَنِّى هٰذَا الْغُلَامَ» من أعْلَى الْكَلَامِ وَأفْصَحه .

* * *

الشّرْحُ :

الألف فى « أَمْلِكُوا » ألف وصل ، لأن الماضى ثلاثىّ ، من ملكت الفرس والعبد والدار ، أملِك بالكسر ، أى احجُروا عليه كما يَحجُر المالك على مملوكه .

وعن ، متعلّقة بمحذوف تقديره : استولوا عليه وأبعدوه عنّى . ولما كان الملك سبَب الحجْر على المملوك عبّر بالسبب عن المسبّب ، كما عبّر بالنكاح عن العقد ، وهو فى الحقيقة اسم الوطء ، لما كان العَقْدُ طريقا إلى الوطء ، وسببا له .

ووجه علوّ هذا الكلام وفصاحته أنّه لما كان فى : « املكوا » معنى البعد ، أعقبه

بعن ، وذلك أنّهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلّا وقد أبعدوه عنه؛ ألا ترى أنّك إذا حجرت على زيد دون عمرو ، فقد باعدت زيدا عن عمرو ! فلذلك قال: املكوا عنّى هذا الغلام ، واستفصح الشارحون قول أبى الطيّب :

إذا كان شَمُّ الرَّوْحِ أَدْنَى إليكمُ فلا برِحتْنِي رَوْضَةٌ وقَبُول [1]

قالوا : ولمّا كان فى « فلا برحتنى » معنى « فارقتنى » عدّى اللفظة ، وإن كانت لازمة ، نظرا إلى المعنى [1] .

قوله : « لا يَهدّنى » أى لئلا يهدّنى ، فحذف كما حذف طَرَفة فى قوله :

* ألا أيُّهذا الزّاجرى أحضُرَ الوَغَى [2] *

أى لأن أحضر .

وأنفس : أبخل ، نفِسْت عليه بكذا ، بالكسر .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما : أبناء رسول الله وولد رسول الله ، وذريّة رسول الله ، ونسل رسول الله ؟

قلت : نعم؛ لأن الله تعالى سمّاهم «أبناءه» فى قوله تعالى: ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾[3] ، وإنما عَنَى الحسن والحسين ، ولو أوصى لولد فلان بمال دخل فيه أولاد البنات، وسمّى الله تعالى عيسى ذريّة إبراهيم فى قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [4] إلى أن قال : ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ ؛ ولم يختلف أهل اللغة فى أنّ وَلَدَ البنات من نسل الرجل .

---

(١) ديوانه ٣ : ٩٦ .

(٢) من المعلقة ــ بشرح التبريزى ٨٠ ، وبقيته :

* وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِى *

(٣) سورة آل عمران ٦١ .

(٤) سورة الأنعام ٨٤ .

فإن قلت : فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾؟قلت: أسألك عن أبوّته لإبراهيم بن مارية ؛ فـكما تجيب به عن ذلك ؛ فهو جوابى عن الحسن والحسين عليهما السلام .

والجواب الشامل للجميع أنه عَنَى زيدَ بن حارثة؛ لأنّ العرب كانت تقول: «زيد بن محمد» على عادتهم فى تبنّى العبيد ، فأبطل الله تعالى ذلك ، ونهى عن سنّة الجاهلية ، وقال: إنّ محمدا عليه السلام ليس أبًا لواحدٍ من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتزى إليه بالنبوّة ، وذلك لا ينفى كونه أبًا لأطفال ، لم تطلق عليهم لفظة الرجال ، كإبراهيم وحسن وحسين عليهم السلام .

فإن قلت : أتقول إنّ ابنَ البنتِ ابنٌ على الحقيقة الأصليّة أم على سبيل المجاز ؟

قلت : لذاهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصليّة ؛ لأنّ أصل الإطلاق الحقيقة ، وقد يكون اللفظ مشتركًا بين مفهومين وهو فى أحدهما أشهر ، ولا يلزم من كونه أشهر فى أحدهما ألا يكون حقيقة فى الآخر .

ولذاهبٍ أن يذهب إلى أنّه حقيقة عُرْفية ، وهى التى كثر استعمالها ؛ وهى فى الأكثر مجاز ؛ حتى صارت حقيقة فى العرف ، كالراوية للمزادة ، والسماء للمطر .

ولذاهب أن يذهب إلى كونه مجازا قد استعمله الشارع ، فجاز إطلاقه فى كلّ حال؛ واستعماله كسائر المجازات المستعملة .

ومما يدلّ على اختصاص ولد فاطمة دون بنى هاشم كافّة بالنبيّ عليه السلام ، أنّه ما كان يحلّ له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريتهما ، وإن بَعُدْن وطال الزمان ، ويحلّ له نكاح بنات غيرهم من بنى هاشم من الطالبيِّين وغيرهم ؛ وهذا يدلّ على مزيد الأقربيّة ، وهى كونهم أولاده ، لأنه ليس هناك من القُرْبى غير

هذا الوجه ، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أختــه ، ولا هناك وجه يقتضى حرمتهم عليه إلا كونه والداً لهم ، وكونهم أولاداً له ، فإن قلت.قد قال الشاعر :

بَنُونَا بنُو أبنائِنَا وبناتُنا * بنوهُنّ أبناء الرّجال الأباعد

وقال حكيم العرب أكثم بن صيفيّ فى البنـات يذمّهن : إنّهن يلدن الأعداء ، ويورّثن البُعداء .

قلت : إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر ، وليس فى قول أكثم ما يدلّ على نفى بنوّتهم ، وإنما ذكر أنهن يلدن الأعداء ؛ وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدواً ، قال الله تعالى : ﴿ إنّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾[٢] ، ولا ينفى كونه عدواً كونه ابناً ، قيل لمحمد ابن الحنفيّة عليه السلام : لِمَ يغرّر بك أبوك فى الحرب ، ولِمَ لا يغرر بالحسن والحسين ؟ فقال : لأنهما عيناه ؛ وأنا يمينه ، فهو يذبّ عن عينيه بيمينه .

---

(١) سورة التغابن ١٤ .

(٢٠١)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله لما اضطرب عليه أصحابه فى أمر الحـكومة :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِى مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ ، حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ وَاللهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ .

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً ، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً ، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً ، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيًّا . وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ ؛ وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ !

***

الشّـرْحُ :

نهِكتكم ، بكسر الهاء : أدنفتكم وأذابتكم ، ويجوز فتح الهاء ، وقد نُهك الرجل أى دنف وضَنِىَ ، فهو منهوك .وعليه نَهْكة المرض ، أى أثرة الحرب، مؤنثة .

وقد أخذتْ منكم وتركتْ ، أى لم تستأصلكم، بل فيكم بعدُ بقيّة ، وهى لعدوّكم أنهك ، لأنّ القتل فى أهل الشام كان أشدّ استحرارا ، والوهَن فيهم أظهر ، ولولا فساد أهل العراق برفْعِ المصاحف ، لاستؤصل الشام،وخلص الأشتر إلى معاوية ، فأخذه بعنقه، ولم يكن قد بقِىَ من قوّة الشام إلا كحرَكة ذَنَب الوزغةعند قتلها ، يضطرب يمينا وشمالا؛ ولـكن الأمورَ السماويّة لا تغالَب .

فأما قوله : « كنت أمس أميرا ، فأصبحتُ اليوم مأمورا » ، فقد قدّمنا شرح حالم من قبل ، وأنّ أهل العراق لمّا رفع عمرو بن العاص ومَنْ معه المصاحف على وجه المكيدة

حين أحسّ بالعطب وعلوّ كلمة أهلِ الحقّ ، ألزموا أمير المؤمنين عليه السلام بوضع أوزار الحرب ، وكفّ الأيدى عن القتال ، وكانوا فى ذلك على أقسام :

فمنهم مَنْ دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، وغلب على ظنّه أنّ أهل الشام لم يفعلوا ذلك خُدعة وحيلة ، بل حقّا ودعاء إلى الدين وموجب الكتاب ، فرأى أنّ الاستسلام للحجّة أولى من الإصرار عَلَى الحرب .

ومنهم مَنْ كان قد ملّ الحرب، وآثر السِّلْم ، فلمّا رأى شبهةً ما يسوغُ التعلّق بها فى رفض المحاربة وحبّ العافية أخلد إليهم .

ومنهم مَنْ كان يُبْغِض عليا عليه السلام بباطنه ، ويطيعه بظاهره ، كما يطيع كثير من النّاس السلطان فى الظاهر ويبغضه بقلبه ، فلمّا وجدوا طريقا إلى خذلانه وترك نصرته ، أسرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكره عليه ، وطالبوه بالكفّ وترك القتال ، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة ، وقال لهم : إنها حيلة وخديعة ، وإنّى أعرَفُ بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا دين ، قد صحبتهم وعرفتهم صغيرا وكبيرا ، فعرفت منهم الإعراض عن الدّين ، والركون إلى الدنيا ، فلا تُراعُوا برفع المصاحف ، وصمّموا على الحرب ، وقد ملكتموهم ، فلم يبق منهم إلّا حشاشة ضعيفة ، وذَماء قليل . فأبوا عليه ، وألحّوا وأصرّوا على القعود والخذلان ، وأمروه بالإنفاذ إلى المحاربين من أصحابه ، وعليهم الأشتر أن يأمرهم بالرجوع ، وتهدّدوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية . فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب ، فأبى عليه فقال : كيف أرجع وقد لاحت أمارات الظفر ! فقولوا له : «ليمهلنى ساعة واحدة» ، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت. فلمّا عاد إليه الرسول بذلك ، غضبوا ونفروا وشغبوا ، وقالوا : أنفذت إلى الأشتر سرّا وباطنا ، تأمره بالتصميم ، وتنهاه عن الكفّ ، وإن لم تعِدْهُ الساعة ، وإلّا قتلناك كما قتلنا عثمان ، فرجعت الرّسل إلى الأشتر فقالوا له : أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سُلّ عليه

خمسون ألف سيف ! فقال : ما الخبر ؟ قال ؛ إنّ الجيش بأسره قد أحدق به ، وهو قاعد بينهم على الأرض ، تحته نِطَع ، وهو مُطرِق، والبارقة تلمع على رأسه ، يقولون : لئن لم تُعِد الأشتر قتلناك ! قال : ويحكم ! فما سبب ذلك ؟ قالوا : رفْـع المصاحف ، قال : والله لقد ظننت حين رأيتها رُفعت أنّها ستوقع فرقةً وفتنة .

ثم كرّ راجعا على عَقِبيه ، فوجد أمير المؤمنين عليـه السلام تحت الخطر ، قد ردّده أصحابه بين أمريْن : إمّا أن يُسلِموه إلى معاوية ، أو يقتلوه ، ولا ناصر له منهم إلّا ولداه وابن عمّه ونفر قليل لا يبلغون عشرة ، فلما رآهم الأشتر سبّهم وشتمهم ، وقال : ويحكم ! أبعد الظَّفَر والنّصر صبّ عليـكم الخذلان والفرقة ! ياضعاف الأحلام ! يا أشباه النساء ! يا سفهاء العقول ! فشتموه وسبّوه ، وقهروه وقالوا : المصاحف المصاحف ! والرّجوع إليها ، لا نرى غير ذلك ! فأجاب أميرُ المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم ، دفعاً المحذور الأعظم بارتـكاب المحظور الأضعف ، فلذلك قال : « كنت أميراً فأصبحت مأموراً ؛ وكنت ناهيا فصرت منهيًّا » . وقدسبق من شرح حالِ التحكيم وما جرى فيه مايغنى عن إعادته.

(٢٠٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثى ؛ وهو من أصحابه يعوده ، فلما رأى سعة داره قال :

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِى الدُّنْيَا ، أَمَا أَنْتَ إِلَيْهَا فِى الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ ! وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ : تَقْرِى فِيهَا الضَّيْفَ ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا ، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ !

فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِى عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ .

قال : وماله ؟

قال : لَبِسَ الْعَبَاءَ ، وَتَخَلَّى مِنَ الدنيَا .

قال : عَلَىَّ بِهِ . فلما جاء ، قال :

يَا عُدَىَّ نَفْسِهِ ! لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ! أَتَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا ! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ !

قال :

يا أمير المؤمنين ، هَذَا أَنْتَ فى خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ ، وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ !

قال :

وَيْحَكَ إِنِّى لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْحَقِّ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ !

الشَّـرْحُ

كنت هاهنـا زائدة ، مثل قوله تعـالى : ﴿ كَيْفَ نُـكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (١) .

وقوله : « وبلى إن شئت بلغتَ بهـا الآخرة » ، لفظ فصيح ، كأنّه استـدرك ، وقال : وبلَى على أنّك قد تحتاج إليهـا فى الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخـرة . بأنْ تَقْرِىَ فيها الضيف ؛ والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع ، وقد يجمع فيقـال : ضيوف وأضياف . والرَّحِم : القرابة .

وتطلِع منها الحقوق مطالعها : توقعها فى مظانّ استحقاقها .

والعَباء جمع عَباءة ، وهى الـكِساء وقد تُليّن، كاقالوا:عَظاءة وعَظاية،وصلاءة وصلاية.

وتقول : علىّ بفلان ، أى أحضِره ، والأصل أعجلْ به علىّ ، فحذف فعـلَ الأمر ، ودلّ الباقى عليه .

ويا عُدَىّ نفسه ، تصغير « عدوّ » ، وقد يمـكن أن يراد به التّحقـير المحض هاهنا، ويمكن أن يراد به الاستعظام لعداوته لها ، ويمكن أن يخرج مخرج التحنّن والشّفقة ، كقولك : يابنىّ .

واستهام بك الخبيث ، يعنى الشيطان ، أى جعلك هائما ضالًّا ، والباء زائدة .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « أنت أهون على الله من ذلك » ؟

قلت : لأنّ فى المشاهد قد يحلّ الواحد منا لصاحبه فعلا مخصوصا ، محاباة ومراقبة له ،

---

(١) سورة مريم ٢٩ .

وهو يكره أن يفعله ، والبشر أهونُ على الله تعالى من أن يحِلّ لهم أمراً مجاملة واستصلاحا للحال معهم ، وهو يكره منهم فعله .

وقوله : « هذا أنت ! » ، أى فما بالنا نراك خشنَ الملبس ! والتقدير : « فها أنت تفعل كذا ، فكيف تنهى عنه ! »

وطعام جَشِب ، أى غليظ ، وكذلك مجشوب ، وقيل : إنّه الذى لا أُدْمَ معه .

قوله عليه السلام : « أن يقدّروا أنفسهم بضَعفة الناس » ، أى يشبّهوا ويمثّلوا .

وتبيّغ الدم بصاحبه ، وتبوّغ به ، أى هاج به ، وفى الحديث : « عليكم بالحجامة لايتبيّغ بأحدكم الدم فيقتله » ، وقيل : أصل « يتبيغ » يتبغّى ، فقلب ، جَذَب وجبَذ ، أى يجب على الإمام العادل أنْ يشبّه نفسَه فى لباسه وطعامه بضَعَفة الناس — جمع ضعيف — لكيلا يهلِك الفُقَراء من الناس ، فإنّهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطْعم ، كان أدعى لهم إلى سُلْوان لذّات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس .

***

[ذكر بعض مقامات العارفين والزُّهاد]

وروى أنّ قوماً من المتصوّفة دخلُوا خراسان على علىّ بن موسى الرضىّ ، فقالوا له : إنّ أمير المؤمنين فكّر فيما ولّاه الله من الأمور ، فرآكم — أهلَ البيت — أولَى النّاس أن تؤمُّوا النّاس ، ونظر فيك من أهل البيت ، فرآك أوْلَى الناس بالناس ، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك ، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشِب ، ويلبس الخشن ، ويركب الحمار ، ويعود المريض . فقال لهم : إنّ يوسف كان نبيًّا ، يلبس أقبية الديباج المزرّرة بالذهب ، ويجلس على متّكآت آل فرعون ، ويحكم ؛ إنّما يراد من الإمام قِسْطه وعدْله ؛ إذا قال صدق ،

وإذا حكم عدل ، وإذا وعد أنجز . إنّ الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعما ، ثم قرأ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ . . . . ﴾[1] الآية .

وهذا القول مخالف للقانون الذى أشار أمير المؤمنين إليه ، وللفلاسفة فى هذا الباب كلام لابأس به ، وقد أشار إليه أبو علىّ بن سينا فى كتاب " الإشارات " وعليه يتخرّج قولا أمير المؤمنين وعلىّ بن موسى الرضىّ عليهما السلام . قال أبو علىّ فى مقامات العارفين: « العارفون قد يختلفون فى الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر ، على حسب ما يختلف عندهم من دواعى العبَر ، فربّما استوى عند العارف القشَف والترف ، بل ربما آثر القشَف ، وكذلك ربما سوّى عنده التّفْل والعِطْر ، بل ربما آثر التّفل ، وذلك عند ما يكون الهاجس بباله ، استحقار ماعدا الحقّ ، وربما صغا إلى الزينة ، وأحبّ من كلّ شىء عقيلته[2] ، وكره الخِداج والسَّقَط ، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة ، فهو يرتاد إليهما فى كلّ شىء ، لأنه مزيّة خطوة من العناية الأولى ، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه ، وقد يختلف هذا فى عارفيْن ، وقد يختلف فى عارف بحسب وقتيْن .

واعلم أنّ الذى رويتُه عن الشيوخ ، ورأيته بخطّ عبد الله بن أحمد بن الخشاب رحمه الله ، أنّ الربيع بن زياد الحارثىّ ، أصابته نشّابة فى جبينه ، فكانت تنتقض عليه فى كلّ عام ، فأتاه علىّ عليه السلام عائداً ، فقال: كيف تجدك أباعبد الرحمن ؟ قال : أجِدُنى يا أميرَ المؤمنين لو كان لا يذهب ما بى إلا بذهاب بصرى لتمنيت ذهابه ، قال : وما قيمة بصرك عندك ! قال : لو كانت لى الدنيا لفديتُه بها ، قال : لاجرم ! لَيعطينّك الله على قدر ذلك . إنّ الله تعالى يُعطى على قدر الألم والمصيبة ، وعنده تضعيف كثير . قال الربيع :

---

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) العقيلة من كل شىء أكرمه ، جمعها عقائل .

يأمير المؤمنين،ألا أشكو إليك عاصمَ بن زياد أخى ؟ قال : ماله ، قال: لبس العَباء،وترك المُلاء ، وغمّ أهلَه ، وحزَن ولده .

فقال علىّ : ادعُوا لى عاصما ، فلما أتاه عبَس فى وجهه ، وقال : ويحك ياعاصم أترى الله أباح لك اللّذات،وهو يكره ماأخذت منها ! لأنتَ أهونُ على الله من ذلك.أوَ ماسمعته يقول:﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾(١)،ثم يقول:﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾(٢) وقال : ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾(٣) ، أما والله إنّ ابتذال نعم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال ، وقد سمعتَ الله يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، إنّ الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين ، فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ ﴾(٥) ، وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحًا ﴾(٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه : « مالى أراكِ شَعْثاء مرهاء سلْتاء ! »(٧) .

قال عاصم : فلِمَ اقتصرتَ يأمير المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشِب ؟ قال: إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام ، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره.

فما قام علىّ عليه السلام حتى نزع عاصم العَباء ، ولبس مُلاءة .

والرّبيع بن زياد هو الذى افتتح بعضَ خُراسان،وفيه قال عمر: دُلّونى على رجل إذا كان

---

(١) سورة الرحمن ١٩ .
(٢) سورة الرحمن ٢٢ .
(٣) سورة فاطر ١٢ .
(٤) سورة الضحى ١١ .
(٥) سورة البقرة ١٧٢ .
(٦) سورة المؤمنون ٥١ .
(٧) المرهاء : التى لا تكتحل . والسلتاء : التى لا تختضب .

فى القوم أميراً فكأنه ليس بأمير ، وإذا كان فى القوم ليس بأمير فكأنّه الأمير بعينه ! وكان خيّراً متواضعاً ، وهو صاحب الوقعة مع عمر لمـا أحضر العمال فتوحّش له الربيع ، وتقشّف وأكل معه الجشِب من الطعام ، فأقرّه على عمله ، وصرف الباقين ، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم .

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد ، وهو على قطعة من خراسان : إنّ أمير المؤمنين معاوية كتب إلىّ يأمرك أن تحرز الصّفْراء والبيضاء وتقسم الخُرْثِيّ [1] وما أشبهه على أهل الحرب . فقال له الربيع : إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ثم نادى فى الناس : أن اغدُوا على غنائمكم ، فأخذ الخمس وقسّم الباقى على المسلمين ، ثم دعا الله أن يميته ؛ فما جمع حتى مات .

وهو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك ابن أدد .

وأما العلاء بن زياد الذى ذكره الرضىّ رحمه الله فلا أعرفه ، لعلّ غيرى يعرفه .

---

(١) الخرثىّ : أردأ المتاع .

(٢٠٣)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع،وعما فى أيدى الناس من اختلاف الخبر ، فقال عليه السلام :

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَ بَاطِلاً ، وَصِدْقًا وَكَذِبًا ، وَنَاسِخًا وَمَنْسُوخًا ، وَعَامًّا وَخَاصًّا ، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا ، وَحِفْظًا وَوَهْمًا .

وَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَهْدِهِ ، حَتَّى قَامَ خَطِيبًا ، فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ :

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَه ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّ ، رَآهُ وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَلَقِفَ عَنْهُ ؛ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ، فَوَلَّوْهُمُ الْأَعْمَالَ ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ . فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ .

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَوَهِمَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ

كَذِباً فَهُوَ فِي يَدَيْهِ ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَوْ عَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ .

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً ، يَأْمُرُ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ ٱلْمَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ ٱلنَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ ، وَلَوْ عَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ .

وَآخَرُ رَابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى ٱللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ ٱللهِ ، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَهِمْ ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى سَمْعِهِ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ ٱلنَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ ، وَحَفِظَ ٱلْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ ٱلْخَاصَّ وَٱلْعَامَّ ، وَٱلْمُحْكَمَ وَٱلْمُتَشَابِهَ ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم ٱلْكَلَامُ ، لَهُ وَجْهَانِ ، فَكَلَامٌ خَاصٌّ ، وَكَلَامٌ عَامٌّ ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى ٱللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عليه وسلم ، فَيَحْمِلُهُ ٱلسَّامِعُ ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ ، وَمَا قَصَدَ بِهِ ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ ، وَيَسْتَفْهِمُهُ ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ ٱلْأَعْرَابِيُّ وَٱلطَّارِئُ ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، حَتَّى يَسْمَعُوا ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، وَحَفِظْتُهُ .

فَهَذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱخْتِلَافِهِمْ وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ .

* * *

الشـرح :

الـكلام فى تفسير الألفاظ الأصوليّة ؛ وهى العامّ والخاصّ ، والناسخ والمنسوخ ، والصدق والـكذب ، والمحـكَم والمتشابه ، موكول إلى فنّ أصول الفقه ، وقدذكرناه فيما أمليناه من الـكتب الأصولية ، والإطالة بشرح ذلك فى هذا الموضع مستهجَنة .

قوله عليه السلام : « وحفظا ووهَما » الهاء مفتوحة ، وهى مصدر وَهِمتُ ، بالـكسر، أوْهَم ، أى غلطت وسهوت ، وقد روى : « وَهْماً » بالتسكين ، وهو مصدر وهَمت بالفتح أوْهُم ، إذا ذهب وهْمك إلى شىء وأنت تريد غيره ، والمعنى متقارب .

وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « فليتبوّأ مقعده من النار » كلامٌ صيغته الأمر ، ومعناه الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾[1] ، وتبوّأت المنزلَ : نزلته ، وبوّأته منزلا : أنزلته فيه .

والتأثّم : الـكفّ عن موجب الإثم ، والتحرّج مثله ، وأصله الضِّيق ، كأنه يضيق على نفسه .

واقَمِفَ عنه : تناول عنه .

وجَنّب عنه : أخذ عنه جانبا .

و « إنْ » فى قوله : « حتى إنْ كانوا لَيحبّون » مخففة من الثقيلة ، ولذلك جاءت اللام فى الخبر .

والطارئ ، بالهمز : الطالع عليهم ، طَرَأ أى طلع ، وقد روى : « عللُهم » ، بالرفع عطفا على « وجوه » ، وروى بالجرّ عطفا على « اختلافِهم » .

***

---

(١) سورة مريم ٧٥ .

[ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد عليه السلام]

واعلم أن هذا التقسيم صحيح ، وقد كان فى أيّام الرسول الله صلى الله عليه وآله منافقون، وبقُوا بعده ، وليس يمكن أن يقال : إنّ النّفاق مات بموته ، والسبب فى استتار حالهم بعدَه أنه صلى الله عليه وآله كان لايزال يذكرهم بما ينزل عليه من القرآن ، فإنّه مشحون بذكرهم ، ألا ترى أنّ أكثر ما نزل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين ، فكان السبب فى انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن، فلما انقطع الوحىُ بموته صلّى الله عليه وآله لم يبقَ من ينعَى عليهم سقطاتِهم ويُوبّخهم على أعمالهم ، ويأمر بالحذَر منهم ، ويجاهرهم تارةً ، ويجاملهم تارة ، وصار المتولّى للأمر بعده يحمِلُ النّاس كلّهم على كاهل المجاملة ، ويعاملهم بالظاهر ، وهو الواجب فى حكم الشرع والسياسة الدنيويّة ، بخلاف حال الرسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه كان تكليفه معهم غيرَ هذا التكليف ،ألا ترى أنّه قيل له : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً ﴾[1] فهذا يدلّ على أنّه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلّا كان النّهىُ له عن الصّلاة عليهم تكليفَ مالا يطاق ، والوالى بعده لا يعرفهم بأعيانهم ، فليس مخاطباً بما خُوطب به صلّى الله عليه وآله فى أمرهم، ولسكوت الخلفاء عنهم بعده خَمَل ذكرُهم ، فكان قُصارَى أمرِ المنافق أن يُسِرّ مافى قلبه ،ويعاملَ المسلمين بظاهره ، ويعاملونه بحسب ذلك . ثم فُتِحت عليهم البلاد ، وكثرتِ الغنائم ، فاشتغلوا بها عن الحركات التى كانوا يعتمدونها أيّام رَسولِ الله ، وبعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والرّوم ، فألهتهم الدّنيا عن الأمور التى كانت تُنْقَم منهم فى حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنهم مَن استقام اعتقاده ، وخلصت نيّته ، لمّا رأوا الفتوح وإلقاءالدّنيا أفلاذَ كبدها من الأموال العظيمة ، والكنوز الجليلة إليهم ، فقالوا :لولم يكن هذاالدّين

(١) سورة التوبة ٨٤ .

حقًّا لما وصلنا إلى ماوصلها إليه . وبالجملة لمّا تَرَكُوا تُرِكُوا ، وحيث سُكِتَ عنهم سكتوا عن الإسلام وأهله ؛ إلّا فى دسيسة خفيّة يعملونها ، نحو الكذب ، الذى أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّه خالط الحديث كذبٌ كثيرٌ ، صدرَ عن قومٍ غيرِ صحيحِى العقيدة ، قصدوا به الإضلالَ وتخبيط القلوب والعقائد ، وقَصَدَ به بعضُهم التنويه بذكر قوم كان لهم فى التنويه بذكرِهم غرض دنيوىّ . وقد قيل : إنَّه افتُعِل فى أيّام معاوية خاصّة حديث كثير على هـذا الوجه ، ولم يسكت المحدّثون الراسخون فى علم الحديث عن هذا ، بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبيّنوا وضعها ؛ وأنّ رواتها غير موثوق بهم ، إلّا أن المحدّثين إنمـا يطعنون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتجاسرون فى الطعن على أحـدٍ من الصحابة ؛ لأنّ عليه لفظ « الصحبة » ؛ على أنهم قد طعنوا فى قومٍ لهم صُحْبة كبُسْر بن أرطاة وغيره .

فإن قلت : مَنْ هم أئمة الضلالة ، الّذين يتقرّب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليـه وآله ، وصحبوه للزور والبهتان ؟ وهل هـذا إلّا تصريح بمـا تذكره الإمامية ، وتعتقده !

قلت : ليس الأمر كما ظننت وظنّوا ، وإنمـا يعنى معاوية وعمرو بن العاص ومَنْ شايعهما على الضّلال ، كالخبر الذى رواه مَنْ رَوَاه فى حقّ معاوية : « اللهمّ قِهِ العـذاب والحساب ، وعلّمه الـكتاب » ؛ وكرواية عمرو بن العاص تقرُّباً إلى قلب معاوية : « إنّ آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء ، إنّما وليّى الله وصالح المؤمنين » وكرواية قوم فى أيّام معاوية أخبارا كثيرة من فضائل عثمان ، تقرُّبا إلى معاوية بها ، ولسنا نجحَدُ فضلَ عُثْمان وسابقته ، ولـكنّا نعلم أنّ بعض الأخبار الواردة فيه موضوع ، كخبر عمرو بن مرّة فيه وهو مشهور ، وعمرو بن مرّة ممّن له صحبة ، وهو شامىّ .

[ذكر بعض مامُنِي به آل البيت من الأذى والاضطهاد]

وليس يجب من قولنا : إنّ بعضَ الأخبار الواردة فى حقّ شخص فاضل مفتعَلة أن تكون قادحة فى فضل ذلك الفاضل ؛ فإنّا مع اعتقادنا أنّ علياً أفضلُ الناس ، نعتقد أنّ بعضَ الأخبار الواردة فى فضائله مفتعل ومختلق .

وقد رُوِى أنّ أبا جعفر محمد بن علىّ الباقر عليه السلام ، قال لبعض أصحابه : يافلان، مالقينا من ظلم قريش إيانا ، وتظاهرهم علينا ، ومالقى شيعتنا ومحبونا من الناس ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وقد أخبر أنّا أوْلى الناس بالناس ، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معْدِنه ، واحتجّت على الأنصار بحقّنا وحجّتنا . ثم تداولتْها قريش ، واحدٌ بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فنكثت بيعَتنا ، ونصبت الحرب لنا ، ولم يزل صاحبُ الأمر فى صعود كئود ، حتى قتِل ، فبويع الحسن ابنُه وعُوهِد ثم غدِر به ، وأسْلِم ، ووثب عليه أهلُ العراق حتى طعن بخنجر فى جَنْبه ، ونهبت عسكره ،وعولجت خلاليل أمهّات أولاده ، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته ، وهمْ قليلُ حقّ قليل . ثم بايع الحسينَ عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفا، ثم غدرُوا به ،وخرجوا عليه ، وبيعته فى أعناقهم وقتلوه ، ثم لم نزل — أهلَ البيتِ — نُسْتَذَلّ ونُستضام ، ونقصَى ونمتهَن ، ونحرَم ونقتَل ، ونَخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء فى كلّ بلدة ، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، وروَوْا عنّا مالم نقله وما لم نفعلْه، ليبغّضونا إلى النّاس ، وكان عُظْمُ ذلك وكُبره زمنَ معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقُتِلَتْ شيعتُنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدى والأرجل على الظِّنّة ، وكان مَنْ يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجِن أو نهِبَ ماله ، أو هُدِمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد ،

إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتلِ الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كلّ قِتلة ، وأخذهم بكلّ ظِنّة وتهمة ، حتى إنّ الرجل ليقال له : زنديق أو كافر ، أحبُّ إليه من أن يقال : شيعة علىّ ، وحتى صار الرّجل الذى يذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعًا صدوقًا ـ يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة ، من تفضيل بعض من قد سَلَف من الولاة ، ولم يخلق الله تعالى شيئا منها ، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنّها حقٌّ لكثرة مَنْ قد رَوَاها ممّن لم يعرف بكذب ولا بقلّة ورع .

وروَى أبو الحسن علىّ بن محمد بن أبى سيف المداينىّ فى كتاب « الأحداث » قال : كتب معاوية نسخة واحدةً إلى عمّاله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمّة ممن روى شيئًا من فضل أبى تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء فى كلّ كُورة ، وعلى كلّ منبر ، يلعنون عليا ويبرءون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته ؛ وكان أشدَّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ؛ لكثرة مَنْ بها من شيعة علىّ عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سُمَيّة، وضمّ إليه البصرة ، فكان يتتبع الشّيعة وهو بهم عارف ؛ لأنّه كان منهم أيّام علىّ عليه السلام؛ فقتلهم تحت كلّ حَجَر وَمَدَر ، وأخافهم ، وقطع الأيدىَ والأرجل، وسَمَل العيون، وصَلَبهم على جُذوع النّخل ، وطردهم وشرّدهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاويةُ إلى عُمّاله فى جميع الآفاق : ألاّ يجيزوا لأحدٍ من شيعة علىّ وأهل بيته شهادة . وكتب إليهم : أن انظروا مَن قِبلكم من شِيعَةِ عثمان ومحبّيه وأهل ولايته ؛ والذين يروون فضائله ومناقبه ؛ فأدنُوا مجالسَهم وقرّبُوهم وأكرمُوهم ، واكتبُوا إلىّ بكلّ ما يروِى كلّ رجل منهم ، واسمه واسم أبيه وعشيرته .

ففعلوا ذلك ، حتى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثُه إليهم معاوية من الصّلات والكِساء والحِباء والقطائع ، ويفيضه فى العرب منهم والموالى ؛ فكثر ذلك فى كلّ مصر ، وتنافسوا فى المنازل والدنيا ، فليس يجىء أحد مردود من النّاس عاملا من

عمال معاوية ، فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقربه وشفّعه . فلبثوا بذلك حينا .

ثم كتب إلى عمّاله أنّ الحديث فى عثمان قد كثُر وفشا فى كل مصر وفى كلّ وجه وناحية ؛ فإذا جاءكم كتابى هذا فادعُوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصّحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبرا يرويه أحدٌ من المسلمين فى أبى تراب إلّا وتأتونى بمناقضٍ له فى الصحابة ؛ فإن هذا أحبّ إلىّ وأقرُّ لعينى ، وأدحضُ لحجة أبى تراب وشيعته ، وأشدُّ إليهم من مناقب عثمان وفضله .

فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجدّ الناس فى رواية مايجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وأُلقِىَ إلى معلّمى الكتاتيب ؛ فعلّموا صبيانَهم وغلمانَهم من ذلك الكثير الواسع حتى رَووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن ، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدَمهم وحشَمهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا مَنْ قامت عليه البيّنة أنه يحبّ عليا وأهل بيته ، فامحُوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفَع ذلك بنسخة أخرى : مَن اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم ، فنكِّلُوا به ، واهدِمُوا داره . فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ؛ ولا سيما بالكوفة ، حتى إن الرجلَ من شيعة على عليه السلام لَيأتيه مَنْ يثق به ، فيدخل بيتَه ، فيلقى إليه سرّه ، ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ، ليكتُمَنّ عليه ، فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ؛ وكان أعظمَ الناس فى ذلك بليّةً القراء المراءون ، والمستضعَفون ، الّذين يُظهرون الخشوع والنُّسُك فيفتعلون الأحاديث ليحظوْا بذلك عند ولاتهم ، ويقرّبوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضّياع

والمنازل ؛ حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدى الديانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان ؛ فقبلوها ورَووها ، وهم يظنّون أنها حق ، ولو علمُوا أنّها باطلة لما رَووها ، ولا تديّنُوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسنُ بن علىّ عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحدٌ من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دَمه ؛ أو طريد فى الأرض .

ثم تفاقم الأمر بعد قتْل الُحسين عليه السلام ، ووَلِىَ عبد الملك بن مروان ، فاشتدّ على الشِّيعة ، ووُلِّىَ عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرّب إليه أهل النّسُك والصلاح والدّين ببغض على وموالاة أعدائه ، وموالاة مَنْ يدّعى من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه ، فأكثروا فى الرواية فى فضلِهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الغض من علىّ عليه السلام وعيبه ، والطعن فيه ، والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج — ويقال إنّه جدّ الأصمعىّ عبد الملك بن قُريب — فصاح به : أيُّها الأمير إن أهلِى عقُّونى فسمُّونى عليًّا ، وإنى فقير بائس ، وأنا إلى صلَة الأمير محتاج . فتضاحك له الحجاج ، وقال : لِلُطْفِ ما توسّلت به قد ولّيتك موضع كذا .

وقد روى ابنُ عرفة المعروف بنِفطويه — وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم — فى تاريخه ما يناسب هذا الخبر ، وقال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة فى فضائل الصحابة افتُعلت فى أيام بنى أمية ، تقرّباً إليهم بما يظنّون أنهم يُرغمون به أنوف بنى هاشم .

قلت : ولا يلزم من هذا أن يكون علىّ عليه السلام يسوءه أن يذكر الصحابة والمتقدمون عليه بالخير والفضل ، إلا أن معاوية وبنى أمية كانوا يبنُون الأمر من هذا على ما يظنّونه فى علىّ عليه السلام من أنه عدوّ مَنْ تقدم عليه ؛ ولم يكن الأمر فى الحقيقة كما

يظلمُّونه ، ولكنه كان يرى أنه أفضلُ منهم ، وأنّهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيق منه لهم ، ولا براءة منهم .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوهم فيه » ، فقد وقع ذلك . وقال أصحابنا فى الخبر الّذى رواه عبدالله بن عمر : « إنّ الميّت ليُعذّب ببكاء أهله عليه » : إن ابن عباس لمّا رُوِى له هذا الخبر ، قال : ذَهَل ابن عمر ، إنّما مَرّ رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر يهودىّ ، فقال : إن أهله ليبكون عليه ، وإنه ليعذّب .

وقالوا أيضاً : إن عائشة أنكرت ذلك ، وقالت : ذَهَل أبو عبد الرحمن ، كما ذهل فى خبر قَلِيب بدر ، إنّما قال عليه السلام : « إنهم ليبكون عليه ، وإنّه ليعذب بجرمه » .

قالوا : وموضع غلطه فى خبر القَلِيب أنه روى أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله وقف على قَلِيب بدر ، فقال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا » ؟ ثم قال : « إنهم يسمعون ما أقول لهم » ، فأنكرت عائشة ذلك ، وقالت: إنما قال : « إنهم يعلمون أن الذى كنت أقوله لهم هو الحق » ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (١) .

فأما الرّجل الثالث ، وهو الذى يسمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ ، فقد وقع كثيرا ، وكتُب الحديث والفقه مشحونة بذلك ، كالذين أباحوا لحوم الحُمُر الأهلية لخبر رووه فى ذلك ، ولم يرووا الخبر الناسخ .

وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون فى العلم .

وأما قوله عليه السلام : « وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له

---

(١) سورة النمل ٨٠ .

وجهان » ، فهذا داخلٌ فى القسم الثانى وغير خارج عنه ، ولكنّه كالنّوع من الجنس ، لأنّ الوهم والغلط جنس تحته أنواع .

* * *

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصاً من دون الصّحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ، لا يطّلع أحدٌ من النّاس على مايدور بينهما ، وكان كثيرَ السؤال للنبيّ صلى الله عليه وآله عن معانى القرآن وعن معانى كلامه صلّى الله عليه وآله ، وإذا لم يسأل ابتدأه النبىُّ صلى الله عليه وآله بالتّعليم والتثقيف ولم يكن أحدٌ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله كذلك ، بل كانوا أقساماً : فمنهم مَنْ يهابه أن يسأله ، وهم الذين يحبّون أن يجئ الأعرابىّ أو الطارئُ فيسأله وهم يسمعون ، ومنهم مَنْ كان بليدا بعيد الفهم قليل الهمّة فى النظر والبحث ، ومنهم مَنْ كانَ مشغولا عن طلب العلم وفهم المعانى ، إمّا بعبادة أو دنيا ، ومنهم المقلّد يرى أنّ فرضه السكوت وترك السؤال ، ومنهم المبغض الشّانئُ الذى ليس للدّين عنده من الموقع مايضيّع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه ؛ وانضاف إلى الأمر الخاص بعلىّ عليه السلام ذكاؤه وفطنته ، وطهارة طينته ، وإشراق نفسه وضوءها ، وإذا كان المحلّ قابلا متهيّئا ، كان الفاعل المؤثّر موجودا ، والموانع مرتفعة ، حصل الأثر على أتمّ مايمكن ؛ فلذلك كان علىٌّ عليه السلام — كما قال الحسن البصرىّ — ربّانىّ هذه الأمة وذا فضلها ؛ ولذا تسمّيه الفلاسفة : إمام الأئمة وحكيم العرب .

[فصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث]

واعلم أنّ أصلَ الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان من جهة الشّيعة ، فإنّهم وضعوا

فى مبدأ الأمر أحاديثَ مختلفة فى صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ، نحو حديث «السطل» وحديث «الرّمانة» وحديث غزوة البئر التى كان فيها الشياطين ، وتعرف كما زعموا بـ « ذات العلَم » ، وحديث غَسْل سلمان الفارسىّ ، وطىّ الأرض ، وحديث الجمجمة ، ونحو ذلك . فلما رأت البَكْرِيّة ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديثَ فى مقابلة هذه الأحاديث ، نحو «لو كنت متّخذا خليلا» ، فإنهم وضعوه فى مقابلة حديث الإخاء ، ونحو سدّ الأبواب ؛ فإنّه كان لعلىّ عليه السلام فقلبته البكْرية إلى أبى بكر ، ونحو « ائتونى بدواة وبياض أكتب فيه لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه اثنان » . ثم قال : « يأبَى الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر » ، فإنهم وضعوه فى مقابلة الحديث المروىّ عنه فى مرضه : « ائتونى بدواةٍ وبياض أكتب لكم مالا تضلّون بعده أبدا » ، فاختلفوا عنده . وقال قوم منهم : لقد غلبه الوجع ، حسْبنا كتاب الله ونحو حديث : « أنا راضٍ عنكَ فهل أنت عنّى راضٍ ! » ، ونحو ذلك . فلمّا رأت الشيعة ماقد وضعت البكْرية أوسعوا فى وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذى زعموا أنه فتله فى عُنق خالد ، وحديث اللّوح الذى زعموا أنه كان فى غدائر الحنفيّة أم محمد ، وحديث : « لا يفعلنّ خالد ما آمر به » ، وحديث الصحيفة التى علّقت عام الفتح بالكعبة ، وحديث الشيخ الذى صعد المنبر يوم بويع أبو بكر ، فسبق النّاس إلى بيعته ، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضى نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلىّ أدون الطبقات فيهم ، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة فى علىّ وفى ولديه ، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حبّ الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفريقان فى غُنْيَةٍ عمّا اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان فى فضائل علىّ عليه السلام الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبى بكر المحقّقة

المعلومة مايغني عن تكلّف العصبيّة لهما ، فإنّ العصبيّة لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساوئ والمقابح . ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبيّة ، وأن يجرينا على ماعوّدنا من حبّ الحقّ أين وجد وحيث كان ؛ سخط ذلك من سخط ، ورضى به من رضى ، بمنّه ولطفه !

(٢٠٤)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَكَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ ، يَبَساً جَامِداً ، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً ، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمٰوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا ، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ .

قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ ،وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ . وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا ، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا ، وَأَطْوَادَهَا ؛ فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا ، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَتَهَا ، فَمَضَتْ رُءُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا ، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا ، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا ، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا ، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا ، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً ، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً ، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا ، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا ، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا .

فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا ، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا ! فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً ، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً ، فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي ، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي ، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ ، وَتَمْخَضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى !

* * *

الشــرح :

أراد أن يقول : « وكان من اقتداره » فقال : « وكان من اقتدار جبروته »، تعظيما وتفخيما ، كما يقال للملك : أمرت الحضرةُ الشريفة بكذا .

والبحر الزاخر : الّذى قد امتد جدًّا وارتفع .

والمتراكم : المجتمع بعضُه على بعض .

والمتقاصف : الشديد الصوت ، قصفَ الرّعد وغيره قصيفا .

واليَبَس ، بالتحريك: المكان يكون رطبا ثم ييبس، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾[1]، واليبْس بالسكون: اليابس خِلْقة ، حطب يبْس، هكذا يقوله أهل اللغة وفيه كلام ، لأنّ الحطب ليس يابساً خلْقة بل كان رطبا من قبل ، فالأصوب أن يقال : لا تكون هذه اللفظة محرّكة إلّا فى المكان خاصّة .

وفطَر : خلق ، والمضارع يفطُر بالضمّ ، فَطْراً .

والأطباق : جمع طبَق ، وهو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جماد ، يقول : خلق منه أجساما مجتمعة مرتتقة، ثم فتقها سبع سموات . وروى : « ثم فطر منه طِبَاقا » أى أجساماً منفصلة فى الحقيقة متّصلة فى الصورة بعضها فوق بعض، وهى من ألفاظ القرآن[2] المجيد .

والضمير فى « منه » يرجع إلى ماء البحر فى أظهر النّظر ، وقد يمكن أن يرجع إلى اليَبس .

***

واعلم أنه قد تكرّر فى كلام أمير المؤمنين مايماثل هذا القول ويناسبه ، وهو مذهب

(١) سورة طه ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة الملك ٣ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ، وقوله فى سورة نوح ١٥ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ .

كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء، منهم ثاليس الملطى، قالوا: أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبده، والسماء من بخاره، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾(١). قال شيخنا أبو على وأبو القاسم رحمهما الله فى تفسيريهما: هذه الآية دالّة على أنّ الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض، قالا: وكان الماء على الهواء، قالا: وهذا يدلّ أيضا على أنّ الملائكة كانوا موجودين قبل خلق السموات والأرض، لأنّ الحكيم سبحانه لا يجوز أن يقدّم خلق الجماد على خلق المكلّفين، لأنه يكون عبثا.

وقال على بن عيسى الرمانىّ من مشايخنا: إنّه غيرُ ممتنع أن يخلق الجماد قبل الحيوان، إذا علم أنّ فى إخبار المكلّفين بذلك لطفا لهم، ولا يصحّ أن يخبرهم إلّا وهو صادق فيما أخبر به، وإنّما يكون صادقا إذا كان المخبر خبره على ما أخبر عنه، وفى ذلك حسن تقديم خلق الجماد على خلق الحيوان. وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنه كان يذهب إلى أنّ الأرضَ موضوعة على ماء البحر، وأنّ البحر حامل لها بقدرة الله تعالى، وهو معنى قوله: « يحملها الأخضر المثعنجِر، والقمقام المسخّر »، وأنّ البحر الحامل لها قد كان جاريًا فوقف تحتها، وأنّه تعالى خلَق الجبال فى الأرض، فجعل أصولها راسخة فى ماء البحر الحامل للأرض وأعاليها شامخة فى الهواء، وأنّه سبحانه جعَل هذه الجبال عِمادًا للأرض، وأوتادا تمنعها من الحركة والاضطراب، ولولاها لماجَتْ واضطربت، وأنّ هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتحرّكه حركة عنيفة، وتموج السحب التى تغترف الماء منه لتمطر الأرض به، وهذا كلّه مطابق لما فى الكتاب العزيز، والسنّة النبويّة، والنظر الحكمىّ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

(١) سورة هود ٧

كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[١]، وهذا هو صريح قوله عليه السلام : « ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها » ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[٢] ، وإلى ماورد فى الخبر من أنّ الأرض مدحوّة على الماء، وأنّ الرياح تسوق السحب إلى الماء نازلة، ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها ، ثم تمطر

وأما النّظر الحكَمِيّ فطابق لكلامه إذا تأمّله المتأمّل ، وحمله على المحمل العقلىّ ، وذلك لأنّ الأرض هى آخر طبقات العناصر ، وقبلها عنصر الماء ، وهو محيط بالأرض كلّها إلّا مابرز منها ،وهو مقدار الربع من كُرَة الأرض ، على ماذكره علماء هذا الفنّ وبرهنوا عليه ، فهذا تفسير قوله عليه السلام : « يَحْمِلُهَا الأخضر المثعنجِر » .

وأما قوله: « ووقف الجارى منه لخشيته » ، فلا يدلّ دلالة قاطعة على أنّه كان جاريًا ووقف ، ولكن ذلك كلامٌ خرج مخرج التعظيم والتبجيل، ومعناه أنّ الماء طبعه الجريان والسَّيَلان ، فهو جارٍ بالقوّة ، وإن لم يكن جاريا بالفعل ، وإنما وقف ولم يجرِ بالفعل بقدرة الله تعالى، المانعة له من السيلان ، وليس قوله: « ورست أصولها فى الماء » ممّا ينافى النظر العقلىّ ، لأنه لم يقل : « ورست أصولها فى ماء البحر » ، ولكنه قال : « فى الماء » ، ولا شبهة فى أنّ أصولَ الجبال راسية فى الماء المتخلخل بين أجزاء الأرض ، فإنّ الأرض كلّها يتخلخل الماء بين أجزائها على طريق استحالة البخار من الصّورة الهوائيّة إلى الصورة المائيّة .

وليس ذكره للجبال وكونها مانعةً للأرض من الحركة بمُنافٍ أيضا للنظر الحكمىّ لأنّ الجبال فى الحقيقة قد تمنع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة ، فيكون ثقلها مانعا من الهدّة والرجفة .

---

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) سورة الأنبياء ٣١

وليس قوله : « تكركره الرياح » منافياً للنظر الحكمىّ أيضا، لأنّ كرة الهواء محيطة بكرة ، وقد تعصف الرياح فى كرة الهواء للأسباب المذكورة فى موضعها من هذا العلم ، فيتموّج كثير من الكرة المائيّة لعصف الرياح .

وليس قوله عليه السلام : « وتمخضه الغمام الذّوارف » صريحا فى أنّ السحب تنزل فى البحر ، فتغترف منه ، كما قد يعتقد فى المشهور العامّى ، نحو قول الشاعر :

كالبحرِ تُمْطِرُه السحاب وَمَا لَهَا ... فَضْلٌ عليه لأنّها من مائِهِ

بل يجوز أن تكون الغمام الذّراف تمخضه وتحرّكه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها ، فقد ثبت أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام موجّه ؛ إن شئت فسرته بما يقوله أهلُ الظاهر ، وإنْ شئت فسّرتَه بما يعتقده الحكماء .

فإن قلت : فكيف قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ؛ وهل كان الّذين كفروا رائين لذلك ؛ حتى يقول لهم ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؟

قلت : هذا فى قوله : « اعلموا أنّ السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما »، كما يقول الإنسان لصاحبه : ألم تعلم أنّ الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه ؟ أى اعلم ذلك إن كنت غير عالم ؛ والرؤية هنا بمعنى العلم .

واعلم أنّه قد ذهب قوم من قدماء الحكماء — ويقال : إنه مذهب سقراط — إلى تفسير القيامة وجهنّم بما يبتنى على وضع الأرض على الماء ، فقالوا : الأرض موضوعة على الماء ، والماء على الهواء ، والهواء على النار ، والنار فى حشو الأفلاك ؛ ولما كان العُنصران الخفيفان، — وهما الهواء والنار — يقتضيان صعودَ ما يحيطان به، والعنصران الثقيلان اللّذان فى وسطهما، وهما

الماء والأرض ؛ يقتضيان النزول والهبوط ، وقعت الممانعة والمدافعة ، فلزم من ذلك وقوف الماء والأرض فى الوسط .

قالوا : ثم إنّ النار لاتزال يتزايد تأثيرها فى إسخان الماء، وينضاف إلى ذلك حرّ الشمس والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائىّ غايتهما فى الغَليان والفَوَران ، فيتصاعد بخارٌ عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة ، وينضاف إلى ذلك حرّ فَلَكَ الأثير الملاصق للأفلاك فتذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص ، وتتهافت وتتساقط وتصير كالمهْل الشّديد الحرارة .

ونفوس البشر على قسمين : أحدهما ما تجوْهَر وصار مجردا بطريق العلوم والمعارف وقطع العلائق الجسمانية حيث كان مدبّرا للبدن ، والآخر ما بقى على جسمانيته بطريق خلوّه من العلوم والمعارف ، وانغماسه فى اللّذات والشهوات الجسمانية ، فأمّا الأول فإنه يلتحق بالنّفس الكلّية المجردة ، ويخلص من دائرة هذا العالم بالكلّية . وأمّا الثانى فإنّه تنصبّ عليه تلك الأجسام الفلكية الذائبة ، فيحترق بالكلّية ، ويتعذب ويلقى آلاما شديدة .

قالوا : هذا هو باطن ماوردت به الرّواية من العذاب عليها ، وخراب العالم والأفلاك وانهدامها .

* * *

ثم نعود إلى شرح الألفاظ :

قوله عليه السلام : « فاستمسكت » ، أى وقفت وثبتت.

والهاء فى « حدّه » تعود إلى أمره ، أى قامت على حدّ ماأمرت به ؛ أى لم تتجاوزه ولا تعدّته .

والأخضر : البحر ، ويسمّى أيضا « خُضارة » معرفة غير مصروف ، والعرب تسميه بذلك ؛ إمّا لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر ، أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ

الأخضر؛ كما سمّوا الأخضر أسود، نحو قوله: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[1]، ونحو تسميتهم قرى العراق سوادا لخضرتها وكثرة شجرها، ونحو قولهم للديزج[2] من الدواب أخضر.

المثعنجر: السائل، ثعجرت الدّم وغيره فاثعنجر، أى صببته فانصبّ، وتصغير المثعنجر مُثَيْعِج ومُثَيْعِيج.

والقمقام، بالفتح: من أسماء البحر، ويقال لمن وقع فى أمر عظيم: وقع فى قمقام من الأمر، تشبيها بالبحر.

قوله عليه السلام: « وَجَبَل جلاميدَها »، أى وخلق صخورها؛ جمع جُلمود.

والنُّشُوز: جمع نَشْز، وهو المرتفع من الأرض. ويجوز فتح الشين.

ومتونها: جوانبها. وأطوادَها: جبالها: «ويروى»: «وأطوادِها» بالجر عطفا على متونها.

فأرساها فى مراسيها، أثبتها فى مواضعها، رسا الشئ يرسُو: ثبت. ورست أقدامُهم فى الحرب: ثبتت، ورست السفينةُ ترسُو رسوًّا ورسْوا، أى وقفت فى البحر. وقوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾[3]؛ بالضم من أجريت وأرسيت، ومن قرأ بالفتح فهو من « رست » هى، « وجرت » هى.

وألزمها قراراتها: أمسكها حيث استقرّت.

قوله: «فأنهد جبالها»، أى أعلاها. نهد ثدىُ الجارية ينهُد بالضمّ، إذا أشرف وكعَب، فهى ناهد وناهدة.

وسهولها: ما تطامن منها عن الجبال.

وأساخ قواعدها، أى غيّبَ قواعد الجبال فى جوانب أقطار الأرض، ساخت قوائم

---

(١) سورة الرحمن ٦٤.
(٢) فى اللسان: « يقال: فرس أخضر، وهو الديزج ».
(٣) سورة هود ٤١.

الفرس فى الأرض تَسُوخ وتَسِيخ ، أى دخلت فيها وغابت ، مثل ثاخت ، وأسختها أنا مثل أثختها .

والأنصاب: الأجسام المنصوبة ، الواحد نُصُب بضم النون والصاد ، ومنه سميت الأصنام نُصُبا فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾(١) ؛ لأنها نصبت فعبدت من دون الله ، قال الأعشى :

وذا النُّصُب المنصوب لا تنسكنّه   لعاقبةٍ ، واللهَ ربّك فاعْبُدا(٢)

أى وأساخ قواعد الجبالِ فى متون أقطار الأرض ؛ وفى المواضع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب الماثلة ، وهى الجبال أنفسها .

قوله : « فأشهق قِلالها » ، جمع قُلّةٍ وهى ما علا من رأسِ الجبل ، أشهقها : جعلها شاهقة ، أى عالية .

وأرّزَها : أثبتها فيها ، رزت الجرادة تَرُزُّرَزًّا ، وهو أن تدخِل ذَنَبها فى الأرض فتلقى بيضها ، وأرَّزَها الله: أثبت ذلك منها فى الأرض ، ويجوز « أرزت » ، لازما غير متعد ، مثلَ رزت ، وارتزّ السهم فى القرطاس : ثبت فيه . وروى « وآرزها » بالمد من قولهم : شجرة آرزة ، أى ثابتة فى الأرض ، أرَزَت بالفتح ، تأرِز بالكسر ، أى ثبتت ، وآرزها بالمد غيرُها ، أى أثبتها .

وتميد : تتحرك . وتَسِيخ : تنزل وتهوى .

فإن قلت : ما الفرق بين الثلاثة : تميد بأهلها ، أو تسيخ بحملها ، أو تزول عن مواضعها ؟

قلت : لأنّها لو تحركت لكانت إمّا أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها ،

---

(١) سورة المائدة ٣ .
(٢) ديوانه ١٠٣ .

والأوّل هو المراد بقوله : « تميد بأهلها » ، والثانى تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أولا تنزل إلى تحت ، فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله : « أو تسيخُ بحِمْلها » والقسم الثانى هو المراد بقوله : « أو تزول عن مواضعها » .

فإن قلت : ما المراد بـ « على » فى قوله : « فسكنت على حركتها » ؟ .

قلت : هى لهيئة الحال ، كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه ، ودخلت إليه على شربه ، أى سكنت ، على أن من شأنها الحركة ؛ لأنها محمولة على سائل متموّج .

قوله: « مَوَجان مياهها » ، بناء « فَعَلان » لما فيه اضطراب وحركة كالغليان والنزَوان والخفَقان ، ونحو ذلك .

وأجمدها ، أى جعلها جامدة . وأكنافها : جوانبها . والمِهاد : الفراش .

فوق بحر لجىّ : كثير الماء ، منسوب إلى اللّجّة ، وهى معظم البحر .

قوله : « يكركرة الرياح » ، الكركرة : تصريف الريح السّحاب إذا جمعته بعد تفريق وأصله «يكرّر» من التكرير ، فأعادوا الكاف ، كركرت الفارس عنّى أى دفعته ورددته .

والرياح العواصف : الشديدة الهبوب . وتمخَضه ، يجوز فتح الخاء وضمّها وكسرها ، والفتح أفصح ؛ لمكان حرف الحلق ، من مَخَضت اللبن ، إذا حركته لتأخذ زبده .

والغمام : جمع ، والواحدة غمامة ، ولذلك قال: « الذّوارف » ، لأنّ « فواعل » أكثر مايكون لجمع المؤنث ، ذرفت عينه أى دمعت ، أى السحب المواطر ، والمضارع من « ذرفت » عينه « تذرِف » بالكسر ، ذَرْفا وذَرَفا . والمذارف : المدامع .

(٢٠٥)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا ٱلْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَٱلْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ وَٱلدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ ، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَٱلْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً ، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ . ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَهُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ .

***

الشَّرحُ :

ما في « أيّما » زائدة مؤكّدة ، ومعنى الفصل وعيدُ مَن استنصره فقعد عن نصره ، ووصْف المقالَة بأنّها عادلة ، إمّا تأكيد ، كما قالوا : شعر شاعر ، وإمّا ذاتُ عَدْل ، كما قالوا : رجل تامر ولابن ، أى ذو تَمْر ولبن ، ويجوز أيضاً أن يريد بالعادلة المستقيمة التى ليست كاذبة ولا محرّفة عن جهتها ، والجائرة نقيضها وهى المنحرفة ، جارَ فلانٌ عن الطريق ، أى انحرف وعدل .

والنكوص : التأخّر .

قوله عليه السلام : « نستشهدُك عليه » ، أى نسألك أن تشهد عليه ، ووصفه تعالى

بأنه أكبرُ الشاهدين شهادة، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾[١]، يقول: اللّهمّ إنّا نستشهدك على خذلان من استنصرناه ،واستنفرناه إلى نُصرتك ،والجهاد عن دينك فأبى النّهوض ، ونكث عن القيام بواجب الجهاد، ونستشهد عبادك ،من البشر فى أرضك ، وعبادك من الملائكة فى سمواتك عليه أيضاً ، ثم أنت بعد ذلك المغنى لنا عن نصرته ونهضته ، بما تتيحه لنا من النصر ، وتؤيّدنا به من الإعزاز والقُوّة ، والآخذ له بذنبه فى القعود والتخلّف .

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[٢].

---

(١) سورة الأنعام ١٩

(٢) سورة محمد ٢٨

(٢٠٦)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ ؛ وَالْبَاطِنِ بِجَلاَلِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ . الْعَالِمِ بِلاَ اكْتِسَابٍ وَلَا ازْدِيَادٍ ؛ وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ بِلاَ رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ ، الَّذِى لَا تَغْشَاهُ الظُّلَمُ ، وَلَا يَسْتَضِىءُ بِالأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ وَلَا يَجْرِى عَلَيْهِ نَهَارٌ . لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالإِبْصَارِ ، وَلَا عِلْمُهُ بِالإِخْبَارِ .

* * *

الشّـرْحُ :

يجوز شَبَه وشِبْه ،والرواية هاهنا بالفتح ،وتعاليه سبحانه عن شَبَه المخلوقين ؛ كونُه قديما واجب الوجود ، وكلّ مخلوق محدَث ممكن الوجود .

قوله :« الغالب لمقال الواصفين »،أى إنّ كُنه جلاله وعظمته ،لا يستطيع الواصفون وصفه وإنْ أطنبوا وأسهبوا ، فهو كالغالب لأقوالهم لعجزها عن إيضاحه وبلوغ منتهاه ، والظاهر،بأفعاله ، والباطن بذاته ، لأنه إنّما يعلم منه أفعاله : وأما ذاته فغير معلومة .

ثم وصف علمه تعالى فقال :إنّه غيرُ مكتسَب كما يكتسِب الواحد منّا علومَه بالاستدلال والنّظر ، ولا هو علمٌ يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منّا ومعارفه ، وتكثر لكثرة الطُّرُق التى يتطرّق بها إليها .

ثم قال : « وَلا علم مُستفاد » ، أى ليس يعلم الأشياء بعلم محدث مجدّد كما يذهب إليه جَهْم وأتباعه وهشام بن الحكم ، ومن قال بقوله .

ثم ذكر أنه تعالى قدّر الأمور كلّها بغير رويّة،أى بغير فكر ولاضمير،وهو مايطويه الإنسان من الرأى والاعتقاد والعزم فى قلبه .

ثم وصفه تعالى بأنه لايغشاه ظلامٌ ، لأنه ليس بجسم،ولايستضىء بالأنوار ؛كالأجسام ذوات البصر . ولا يَرْهقه ليل ، أى لا يغشاه . ولا يجرى عليه نهار ، لأنه ليس بزمانىّ . ولا قابل للحركة ، ليس إدراكه بالإبصار ، لأنّ ذلك يستدعى المقابلة . ولا علمه بالإخبار مصدر أخبر ، أى ليس علمه مقصوراً على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلّفين ، بل هو يعلم كلّ شىء ، لأنّ ذاته ذات واجبٌ لها أن تعلم كلّ شىء لمجرّد ذاتها المخصوصة ، من غير زيادة أمر على ذاتها .

* * *

الأصْلُ :

منها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله :

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ ، وَقَدَّمَهُ فِي الاصْطِفَاءِ ، فَرَتَقَ بِهِ المَفَاتِقَ ، وَسَاوَرَ بِهِ المُغَالِبَ ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلاَلَ ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

* * *

الشّرْحُ :

أرسله بالضياء ، أى بالحقّ ، وسمّى الحقّ ضياء ، لأنه يهتدَى به ، أو أرسله بالضياء أى بالقرآن .

وقدّمه فى الإصطفاء ، أى قدّمه فى الاصطفاء على غيره من العرب والعجم ، قالت قريش : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ [١] ، أى على رجل من رجلين من القريتين عظيم ؛ أى إمّا على الوليد بن المغيرة من مكّة ، أو على عروة بن مسعود الثقفىّ من الطائف .

ثم قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [٢] ، أى هو سبحانه العالم بالمصلحة فى إرسال الرسل ، وتقديم من يرى فى الاصطفاء على غيره .

فرتق به المفاتق ، أى أصلح به المفاسد ، والرّتق ضدّ الفتق ، والمفاتق : جمع مَفْتَق ، وهو مصدر ؛ كالمضرب والمقتل .

وساور به المغالب : ساورتُ زيدا أى واثبته ، ورجل سَوار ، أى وثّاب ، وسَوْرة الخمر : وثوبها فى الرأس .

والحزونة ضدّ السهولة ، والحزْنُ : ماغُلظ من الأرض . والسّهل : مالان منها ، واستعير لغير الأرض كالأخلاق ونحوها .

قوله : « حتى سرح الضلال » ، أى طرده وأسرع به ذهابا .

عن يمين وشمال ، من قولهم : ناقة سَرْح ومنسرحة ، أى سريعة . ومنه تسريح المرأة ، أى تطليقها .

(١) سورة الزخرف ٣١
(٢) سورة الزخرف ٣٢

(٢٠٧)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ ، وَحَكَمٌ فَصَلَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا ، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ . أَلَا وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً ، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً ، وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ ، وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَفْئِدَةَ ؛ فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ ؛ يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ ، وَيَتَلَاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ ، وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ . لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ ؛ عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ ، فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ .

فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا ، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا ، وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً ؛ فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ .

فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ ،

وَتُقَطَّعَ أَسْبَابُهُ وَاسْتُفْتِحَ التَّوْبَةَ ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ .

* * *

الشَّرْحُ :

الضمير فى « أنّه » يرجع إلى القضاء والقدر المذكور فى صدر هذه الخطبة، ولم يذكره الرضىّ رحمه الله ؛ يقول : أشهد أنّ قضاءه تعالى عَدْل عَدلَ وحَكَم بالحقّ ، فإنّه حَكَمٌ فصْل بين العباد بالإنصاف ، ونسب العدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز ، وهو بالحقيقة منسوب إلى ذى القضاء ، والقاضى به هو الله تعالى .

قوله : « وسيّد عباده » ، هذا كالمجمع عليه بين المسلمين ، وإن كان قد خالف فيه شذوذٌ منهم ، واحتجّ الجمهور بقوله: « أنا سيّد ولد آدم ولا فخر » ، وبقوله : « ادعوا لى سيّدَ العرب عليًّا » ، فقالت عائشة : ألستَ سيّد العرب ! فقال : « أنا سيّد البشر، وعلىّ سيّد العرب » ، وبقوله : « آدم ومَنْ دونه تحت لوائى » .

واحتجّ المخالف بقوله عليه السلام : « لا تفضّلونى على أخى يونس بن متّى » .

وأجاب الأولون تارةً بالطعن فى إسناد الخبر ، وتارة بأنه حكاية كلام حكاه صلى الله عليه وآله عن عيسى بن مريم ، وتارة بأنّ النهى إنّما كان عن الغلوّ فيه كما غلت الأمم فى أنبيائها ، فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول : لا تأكل من الخبز ولا درهما ، وليس مراده تحريمَ أكل الدّرهم والدرهمين ، بل تحريم مايستضرّ بأكله منه .

قوله عليه السلام : « كلّما نسخَ الله الخلْق فرقتيْن جعله فى خيرهما » ، النَّسْخ: النقل، ومنه نسخ الكتاب ، ومنه نَسَخَت الرّيحُ آثار القوم ، ونسخت الشمس الظلّ ، يقول:

كلّما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين ، جعل خيرهما وأفضلهما لولادة محمد عليه السلام ، وسمّى ذلك نسخا ، لأنّ البطن الأول يزول ، ويخلُفه البطن الثانى ، ومنه مسائل المناسخات فى الفرائض .

وهذا المعنى قد وردَ مرفوعاً فى عدّة أحاديث ، نحو قولِه صلّى الله عليه وآله : « مافترقت فرقتان منذُ نَسل آدم ولدَه إلّا كنتُ فى خيرهما » .

ونحو قوله : « إنّ الله اصطفَى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل مُضَر ، واصطفى من مُضَر كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش هاشما ، واصطفانى من بنى هاشم » .

قوله : « لم يُسهِمْ فيه عاهر ، ولا ضرب فيه فاجر » ، لم يسهم : لم يضرب فيه عاهر بسهم ، أى بنصيب ، وجمعه سُهمان ، والعاهر : ذو العَهَر ، بالتحريك وهو الفجور والزنا ، ويجوز تسكين الهاء ، مثل نَهْر ونَهَر ، وهذا هو المصدر ، والماضى عَهَر بالفتح ، والاسم العِهْر ، بكسر العين وسكون الهاء ، والمرأة عاهرة ومعاهِرة وعَيْهرة ، وتعيْهَرَ الرّجل إذا زنى ، والفاجر كالعاهر هاهنا ، وأصلُ الفجور : المَيْلُ ، قال لَبيد :

فإنْ تتقدّمْ تَغشَ مِنهَا مقدّماً غليظاً ، وإن أخّرتَ فالكِفلُ فاجِرُ[1]

يقول : مقعد الرديف مائل .

* * *

[ذكر بعض المطاعن فى النسب وكلام للجاحظ فى ذلك]

وفى الكلام رمْز إلى جماعة من الصّحابة فى أنسابهم طعن ، كما يقال : إنّ آل سعد ابن أبى وقّاص ليسوا من بنى زُهرة بن كلاب ، وإنّهم من بنى عُذْرة من قحطان ،

(١) ديوانه ٢ : ٥

وكما قالوا : إن آل الزّبير بن العوام من أرض مصر من القِبْط ، وليسوا من بنى أسد بن عبد العُزّى . قال الهيثم بن عدىّ فى كتاب "مثالب العرب" : إنّ خُوَيلد بن أسَد بن عبد العُزّى كان أتى مصر ثم انصرف منها بالعوّام ، فتبنّاه ، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خُويلد :

بَنِى أسـدٍ مابالُ آل خويلدٍ   يحنون شَوْقاً كلّ يوم إلى القِبْطِ !(١)
مَتَى يذكروا قِهْقِى يحنّوا لذكرها   والرّمَث المقرون والسّمَك الرّقطِ
عيون كأمثال الزّجاج وضيعةٌ   تخالف كعبا فى لِحًى كَثّةٍ ثُطٍّ(٢)
يُرَى ذاك فى الشّبان والشيب منهمُ   مبيناً وفى الأطفال والجِلّة الشُّمْطِ
لَعَمْرُ أبى العوام إنّ خُوَيلداً   غَداة تبنّاه لَيُوثَق فى الشُّرْطِ(٣)

وكما يقال فى قوم آخرين : نرفع هذا الكتاب عن ذكر مايُطْعَنُ به فى أنسابهم ، كى لايظنّ بنا أنّا نحب المقالة فى النّاس .

قال شيخنا أبو عثمان فى كتاب "مفاخرات قريش" : لاخيرَ فى ذكر العيوب إلّا من ضرورة ، ولا نجد كتاب مثالب قطّ إلا لدعىّ أو شعوبىّ ، ولست واجدَه لصحيح النسب ، ولا لقليل الحسد ، وربّما كانت حكاية الفحش أفحشَ من الفحش ، ونقلُ الكذب أقبحَ من الكذب . وقال النبى صلى الله عليه وآله : « اعف عن ذى قَبْر » ، وقال : « لاتؤذوا الأحياء بسبّ الأموات » ، وقيل فى المثل : « يكفيك من شرّ سماعه » . وقالوا : أسمعك مَنْ أبلغك ، وقالوا : من طلَب عيبا وجده ، وقال النابغة :

وَلَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ ، أىُّ الرّجال المهذّبُ !(٤)

---

(١) ديوانه ٢٣٩ .
(٢) يقال : رجل ثط وأثط ؛ إذا عرى وجهه من الشعر إلا طاقات فى أسفل ضلعه .
(٣) يريد شرط الخليفة .
(٤) ديوانه ١٤ .

قال أبو عثمان : وبلغ عمـرَ بن الخطّاب أنّ أناسا من رُواة الأشعار وحَمَـلة الآثار يعيبون النّاس ، ويثلبونهم فى أسلافهم ، فقام على المنبر ، وقال : إيّاكم وذكر العيوب ، والبحث عن الأصول ، فلو قلت : لا يخرجُ اليوم من هذه الأبواب إلّا مَنْ لا وَصْمَة فيه لم يخرج منكم أحـد . فقام رجلٌ من قريش ـ نـكره أن نذكره ـ فقال : إذاً كنتُ أنا وأنت ياأمير المؤمنين نخرج ! فقال : كذبت ، بل كان يقال لك ، ياقين ابن قين ، اقعدا

قلت : الرّجل الذى قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ ، كان عمرُ يبغضه لبغضه أباه خالدا ، ولأن المهاجر كان عَلَوِيّ الرأى جدا ، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه ، شهد المهاجر صِفّين مع علىّ عليه السلام ، وشهدها عبدُ الرحمن مع معاوية ، وكان المهاجر مع علىّ عليه السلام فى يوم الجمل ، وفقئت ذلك اليوم عينُه . ولأنّ الـكلام الذى بلغ عمر بلغه عن المهاجر ، وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته فى قريش ـ وكونه يسمّى ريحانة قريش ، ويسمّى العدْل ، ويسمى الوحيد ـ حدّادا يصنع الدروع وغيرها بيده ، ذكر ذلك عنه عبدُ الله بن قتيبة فى كتاب " المعارف [1] " .

وروى أبو الحسن المدائنىّ هذا الخبَر فى كتاب " أمّهات الخلفاء " وقال : إنّه رُوِىَ عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة ، فقال : لاتلمه يابن أخى ، إنه أشفق أن يُحْدَجَ [2] بقضيّة نُفيل بن عبد العزى وصهاك أَمَة الزبير بن عبد المطلب . ثم قال : رحم الله عمر ! فإنه لم يعدُ السنّة ، وتلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [3] .

أمّا قول ابن جرير الآمُلىّ الطّبرستانىّ فى كتاب " المسترشد " : إنّ عثمان والد

---

(١) المعارف ٢٥٠

(٢) يقال : حدجه بذنب غيره ؛ أى عزاه إليه

(٣) سورة النور ١٩

أبي بكر الصديق كان نا كحاً أمّ الخير ابنة أخته ، فليس بصحيح ،ولكنّها ابنةُ عمّه،لأنها ابنة صخر بن عامر ، وعثمان هو ابن عمرو بن عامر ؛ والعجَب لمن اتّبعه من فضلاء الإماميّة على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب ، وكيف تتصور هذه الواقعة فى قريش ، ولم يكن أحدٌ منهم مجوسيًّا ولا يهوديًّا ، ولا كان من مذهبهم حِلّ نكاح بنات الأخ ولا بنات الأخت !

***

ثم نعود لإتمام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان ، قال : ومتَى يقدر الناس — حفظك الله — على رجل مسلمٍ من كلّ أُبنة ، ومبرّأ من كلّ آفة ؛ فى جميع آبائه وأمهاته وأسلافه وأصهاره ، حتى تسلم له أخواله وأعمامه ، وخالاته وعمّاته ، وأخَواته وبناته ، وأمّهات نسائه ، وجميع مَنْ يناسبه من قِبَل جدّاته وأجداده ، وأصهاره وأختانه ! ولو كان ذلك موجوداً لما كان لنَسب رسول الله صلّى الله عليه وآله فضيلة فى النّقاء والتّهذيب ، وفى التّصفية والتّنقيح ، قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « ما مسّنِي عِرْقُ سِفاحٍ قطّ ، ومازلت أُنقَلُ من الأصلاب السليمة من الوُصوم [1] ، والأرحام البريئة من العيوب » ، فلسنا نقضِي لأحدٍ بالنّقاء من جميع الوجوه ، إلّا لنسب من صدّقه القرآن ، واختاره الله على جميع الأنام ، وإلّا فلا بدّ من شيء يكون فى نفس الرجل أو فى طرفيْه ، أو فى بعض أسلافه ، أو فى بعض أصهاره ؛ ولكنّه يكون مغطًّى بالصلاح ، ومحجوبا بالفضائل ، ومغمورا بالمناقب .

ولو تأمّلت أحوالَ النّاس ، لوجدت أكثرهم عيوبا أشدّهم تعييباً ، قال الزِّبرقان من بدْر : ما استَبّ رجُلان إلّا غلب الأمُّهما . وقال : خَصْلتان كثيرتان فى امرئ السّوء :

---

(١) الوصوم : العيوب .

كثرة اللّطام ، وشدّة السِّباب ، ولو كان مايقوله أصحابُ المثالب حقًّا ، لما كان على ظهرها عربىّ ، كما قال عبد الملك بن صالح الهاشمىّ : إنْ كانَ مايقول بعضٌ فى بعض حقًّا ، فما فيهم صحيح ، وإن كان ما يقولُ بعضُ المتكلّمين فى بعض حقًّا ، فما فيهم مسلم !

* * *

قوله عليه السلام : « ألا وإنّ الله قد جَعل للخير أهلا ، وللحق دعائم ، وللطاعة عِصَماً » . الدعائم : مايدعَم بها البيت لئلا يسقُط ، والعِصَم : جمع عصْمَة ، وهو مايُحفظ به الشيء ويمنع ، فأهل الخير هم المتقون . ودعائم الحق : الأدِلّة الموصّلة إليه المثبتة له فى القلوب. وعِصَم الطّاعة : هى الإدمان على فعلها ، والتمرّن على الإتيان بها ، لأن المُرون على الفعل يكسب الفاعل ملَكةً تقتضى سهولته عليه . والعون هاهنا : هو اللطف المقرّب من الطاعة، المبعِد من القبيح .

ثم قال عليه السلام : « إنّه يقولُ على الألسنة ، ويثبّت الأفئدة » ، وهذا من باب التوسّع والمجاز ، لأنّه لما كان مسهلا للقول أطلق عليه أنّه يقول على الألسنة ،ولمّا كان الله تعالى هو الّذى يثبّت الأفئدة ، كما قال : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [1] ، نسب التّثبيت إلى اللّطف ، لأنّه من فعل الله تعالى ، كما ينسَب الإنبات إلى المطر ، وإنما المنبِت للزّرع هو الله تعالى ، والمطر فعله .

ثم قال عليه السلام : « فيه كِفاء لمكتفٍ ، وشفاء لمشتف »،والوجه فيه « كفاية »، فإنّ الهمز لا وجه له هاهنا ، لأنّه من باب آخر ؛ ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين « كِفاء »،

(١) سورة إبراهيم ٢٧ .

و « شفاء » كما قالوا : الغدايا والعشايا ، وكما قال عليه السلام : « مأزورات غير مأجورات » ، فأتى بالهمز ، والوجه الواو ، للازدواج .

* * *

[ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء]

ثم ذكر العارفين ، فقال : « واعلموا أنّ عباد الله المستحفظين علمه » ، إلى قوله : « وهذّبه التمحيص » .

واعلم أن الكلام فى العرفان لم يأخذه أهلَ المِلّة الإسلامية إلّا عن هذا الرّجل ، ولَعمرى لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات ، وأبعد النّهايات . والعارفون هم القوم الّذين اصطفاهم الله تعالى ، وانتخبهم لنفسه ، واختصّهم بأنسه ، أحبّوه فأحبّهم ، وقربوا منه فقرُب منهم . وقد تكلّم أرباب هذا الشأن فى المعرفة والعرفان ، فكلٌّ نطق بما وقع له ، وأشار إلى ماوجده فى وقته .

وكان أبو على الدّقاق يقول : منْ أمارات المعرفة حصولُ الهيبة من الله ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وكان يقول : المعرفة توجب السّكينة فى القلب ، كما أنّ العلم يوجب السّكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وسئل الشّبلىّ عن علامات العارف ، فقال : ليس لعارفٍ علامة ، ولا لمحبٍّ سكون ، ولا لخائف قرار .

وسئل مرّة أخرى عن المعرفة ، فقال : أوّلها الله ، وآخرها مالا نهاية له .

وقال أبو حفص الحدّاد : منذُ عرفت الله مادخل قلبى حقّ ولا باطل . وقد أشكل هذا الكلامُ على أرباب هذا الشأن ، وتأوّله بعضُهم ، فقال : عندالقوم أنّ المعرفة توجب

غَيْبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذِكْر الحق عليه ، فلا يشهد غير الله ، ولا يرجع إلّا إليه ، وكما أنّ العاقل يرجع إلى قلبه وتفكّره وتذكّره فيما يسنح له من أمر ، أو يستقبله من حال ، فالعارف رجوعه إلى ربّه ، لا إلى قلبه ، وكيف يدخل المعنى قلبَ مَنْ لا قلبَ له !

وسئل أبو يزيد البِسْطامىّ عن العِرْفان ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾(١) ، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفْص الحدّاد .

وقال أبو يزيد أيضاً : للخَلْق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنّه محيت رسومه وفنىَ هو ، وصارت هويّتُه هويّة غيره ، وغيبت آثاره فى آثار غيره .

قلت : وهذا هو القول بالاتحاد الذى يبحث فيه أهل النظر .

وقال الواسطىّ : لا تصحّ المعرفة وفى العبد استغناء بالله ، أو افتقار إليه . وفسّر بعضُهم هذا الكلام ، فقال : إنّ الافتقار والاستغناء من أمارات صَحْو العبد وبقاء رسومه على ما كانت عليه ، والعارف لا يصحّ ذلك عليه ، لأنّه لاستهلاكه فى وجوده ، أو لاستغراقه فى شهوده ؛ إنْ لم يبلغْ درجة الاستهلاك فى الوجود مختطف عن إحساسه بالغنى والفقر وغيرهما من الصّفات ، ولهذا قال الواسطىّ : مَنْ عَرَفَ الله انقطع وخرس وانقمع ، قال صلى الله عليه وآله : « لا أحصى ثناء عليك ، أنتَ كما أثنيْتَ على نفسك » .

وقال الُحسينْ بن منصور الحلّاج : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدّنيا والآخرة .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : غاية العرفان شيئان : الدّهَش والحيْرة .

وقال ذو النُّون : أعرَفُ النّاس بالله أشدُّهم تحيُّرا فيه .

وقيل لأبى يزيد : بماذا وصلت إلى المعرفة ؟ قال : ببدنٍ عارٍ ، وبطنٍ جائع .

---

(١) سورة النمل ٢٤ .

وقيل لأبي يعقوب السُّوسيّ: هل يتأسّف العارف على شيء غير الله؟ فقال: وهل يرى شيئاً غيره، ليتأسّف عليه!

وقال أبو يزيد: العارف طيّار، والزاهد سيّار.

وقال الجُنَيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يَطَؤُها البرّ والفاجر، وكالسحاب يُظلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقِي ماينبت ومالا ينبت.

وقال يحيى بن معاذ: يخرُج العارف من الدّنيا، ولا يقضى وطره من شيئين: بكائه على نفسه، وحبّه لربه.

وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأنس.

وقال بعضهم: العارف أَنِسَ بالله فأَوحَشه من خلْقه، وافتقر إلى الله فأغناه عن خَلْقه، وذلّ لله فأعزّه في خلْقه.

وقال بعضهم: العارِف فوق مايقول، والعالم دون مايقول.

وقال أبو سُليمان الدّارانيّ: إنّ الله يفتح للعارف على فراشِه، مالا يفتح للعابد وهو قائم يصلّي.

وكان رُوَيْم يقول: رياء العارفين أفضلُ من إخلاص العابدين.

وسئل أبو تراب النخشبيّ عن العارف، فقال: هو الّذى لا يكدّره شيء، ويصفُو به كلّ شيء.

وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتَحُطّ.

وسئل يحيى بن مُعاذ عن العارف، فقال: الكائن البائن.

وقيل: ليس بعارف مَنْ وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا!

وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله.

وسئل أبو سعيد الخرّاز: هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء؟ قال:

نعم ، إنّما البـكاء فى أوقات سيرهم إلى الله ، فإذا صاروا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصُول ، زال عنهم ذلك .

***

واعلم أنّ إطلاق أمير المؤمنين عليـه السلام عليهم لفظـة « الولاية » ، فى قوله : « يتواصَلُون بالولاية ، ويتلاقون بالمحبّة » يستدعى الخوْض فى مقامَيْن جليلين من مَقامات العارفين : المقام الأوّل الولاية ، وهو مقام جليل ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

وجاء فى الخبَر الصّحيح عن النبىّ صلّى الله عليه وآله ، يقول الله تعالى : « مَنْ آذى لى وليًّا فقد استحلّ محارِمى ، وما تقرّب إلىّ العبد بمثل أداء ما فرضتُ عليه ، ولا يزال العبد يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، ولا ترددت فى شىء أنا فاعله كتردّدى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بُدّ لَهُ منه » .

واعلم أنّ الولىّ له معنيان :

أحدهما « فَعِيل » بمعنى « مفعول » ، كقَتيل وجَريح ، وهو من يتولّى الله أمره كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ ﴾ (٢) ، فلا يكِله إلى نفسه لحظة عين ، بل يتولّى رعايته .

وثانيهما « فَعِيل » بمعنى « فاعل » كنَذِير وعَلِيم ؛ وهو الّذِى يتولّى طاعةَ الله وعبادته فلا يعصيه .

ومن شرط كون الولّى وليًّا ألّا يعصِىَ مولاه وسيّده ، كما أن من شرط كون النبىّ

---

(١) سورة يونس ٦٢ .
(٢) سورة الأعراف ١٩٦ .

نبيا العصمة ، فمن ظنّ فيه أنّه من الأولياء ، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض ، فليس بولىّ عند أصحاب هذا العلم . بل هو مغرور مخادع .

ويقال : إنّ أبا يزيدَ البِسْطامىّ قصد بعضَ مَنْ يوصف بالولاية ، فلما وافى مسجده، قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنخّم فى المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه ، وقال : هذا رجلٌ غير مأمون على أدبٍ من آداب الشريعة ، كيف يكون أميناً على أسرار الحق !

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أتحبّ أن تكون لله وليا ؟ قال : نعم ، قال: لا ترغب فى شىء من الدّنيا ولا من الآخرة ، وفرِّغ نفسك لله ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك .

وقال يحيى بن معاذ فى صِفَة الأولياء : هم عبادٌ تسربَلُوا بالأنس بعد المكابدة ، وادّرَعُوا بالرّوح بعد المجاهدة ، بوصولهم إلى مقام الولاية .

وكان أبو يزيدَ يقول : أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائسَ إلّا المحارم ، فهم مخدّرون عنده فى حجاب الأنس ، لا يراهم أحدٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقال أبو بكر الصّيْدلانىّ : كنت أصلِحُ لقبر أبى بكر الطمستانى لوحاً أنقر فيه اسمه، فيُسرَق ذلك اللوح، فأنقر له لوحا آخر وأنصبه على قبره ، فيُسرق، وتكرر ذلك كثيرا دون غيره من ألواح القبور ، فكنت أتعجبّ منه ، فسألت أبا علىّ الدّقاق عن ذلك ، فقال : إنّ ذلك الشيخ آثر الخفاء فى الدنيا ، وأنت تريد أن تشهره باللّوح الذى تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما هو ستّر نفسه .

وقال بعضهم : إنّما سمى الولىّ وليا ، لأنّه توالت أفعاله على الموافقة .

وقال يحيى بن معاذ: الولى لايرائى ولا ينافق ، وما أقلّ صديق من يكون هذا خلُقه !

* * *

المقام الثانى المحبّة قال الله سبحانه : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ مَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) ، والمحبّة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة .

قال أبو يزيدَ البسطاميّ : المحبّة استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك .

وقال أبو عبد الله القرشيّ : المحبّة أن تهب كلَّك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء . وأكثرهم على نفى صفة العشق ، لأنّ العشق مجاوزة الحدّ فى المحبّة ، والبارئ سبحانه أجلُّ من أن يوصف بأنّه قد تجاوز أحد الحدّ فى محبته .

سئل الشِّبْلىّ عن المحبّة ، فقال : هى أن تَغارَ على المحبوب أن يحبّه أحدٌ غيرك .

وقال سَمْنون : ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة ، لأنّ النبىّ صلىّ الله عليه وآله قال : « المرء مع من أحبّ » ، فهم مع الله تعالى .

وقال يحيى بن مُعاذ : حقيقة المحبّة مالا ينقُص بالجفاء ، ولا يزيد بالبرّ .

وقال : ليس بصادق من ادّعى محبتّه ولم يحفظ حدوده .

وقال الُجنيد : إذا صحّت المحبّة سقطت شروط الأدب .

وأنشد فى معناه :

إذا صَفَت المودّة بين قومٍ وَدَامَ ودادهم سَمُج الثّناء

وكان أبو علىّ الدقاق يقول : ألست ترى الأب الشفيق لايبجِّل ولده فى الخطاب ، والناس يتكلّفون فى مخاطبته ، والأب يقول له : يافلان ، باسمه .

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .

وقال أبو يعقوب السُّوسِى : حقيقة المحبّة أن ينسَى العبد حظَّه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

قيل للنصراباذىّ : يقولون : إنه ليس لك من المحبّة شىء . قال : صدقوا ، ولكن لى حسراتهم ، فهو ذو احتراق فيه .

وقال النصراباذىّ أيضا : المحبّة مجانبة السلوّ على كل حال ، ثم أنشد :

وَمَنْ كَانَ فى طَوْلِ الهوى ذاقَ سَلْوَةً فإنِىَ من ليلى لها غير ذائقِ
وأكثرُ شىء نلتُه فى وصالها أمانىّ لم تصدق كلمحةِ بارقِ

وكان يقال : الحب أوله خَبْل ، وآخره قتل .

وقال أبو على الدّقّاق فى معنى قول النبىّ صلّى الله عليه وآله : « حبّك الشىء يُعمى ويُصِمّ » ، قال : يعمى ويصمّ عن الغير إعراضا وعن المحبوب هَيْبة ، ثم أنشد :

إذَا مابدا لى تعاظمتُه فأصدر فى حال مَنْ لم يَرَه

وقال الُجنيد : سمعتُ الحارث المحاسبىّ ، يقول : المحبّة إقبالك على المحبوب بكليّتك ، ثم إيثارك له على نفسك ، ومالك وولدك ، ثم موافقتك له فى جميع الأمور سرًّا وجهرا ، ثم اعتقادك بعد ذلك أنّك مقصّر فى محبته .

وقال الجُنيد : سمعتُ السرىّ يقول : لاتصلح المحبّة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا .

وقال الشِّبلىّ : المحبّ إذا سكت هلك ، والعارف إذا لم يسكت هلك .

وقيل : المحبّة نار فى القلب تحرق ماسوى ودّ المحبوب .

وقيل : المحبّة بذلُ الجهد ، والحبيب يفعل مايشاء .

وقال الثّوْرىّ : المحبّة هَتْك الأستار ، وكشف الأسرار .

حبس الشِّبْلِي فى المارستان بين المجانين ، فدخل عليه جماعة، فقال : مَنْ أنتم؟ قالوا : محبُّوك أيُّهـا الشيخ . فأقبل يرميهم بالحجارة ، ففرُّوا ، فقـال : إذ ادعيتم محبتى فاصبروا على بلائى .

كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيدَ البِسطامىّ : قد سكرتُ من كثرة ما شربتُ من من كأس محبته . فكتب إليه أبو يزيد: غيرُك شربَ بحور السموات والأرض وما روِىَ بعد ، ولسانه خارج ، ويقول : هل من مزيد !

ومن شعرهم فى هذا المعنى :

عجبتُ لمنْ يقولُ ذكرتُ ربِّى وهَـــلْ أنسى فأذكر ما نَسِيتُ !
شربتُ الحبَّ كأساً بعـــد كأسٍ فما نَفِدَ الشَّراب ولا رَوِيتُ

ويقال : إنّ الله تعالى أوْحَى إلى بعض الأنبياء : إذا اطّلعت على قلب عَبْدٍ فلم أجد فيه حبّ الدنيا والآخرة ، ملأتُه من حبى .

وقال أبو علىٍّ الدّقاق : إنّ فى بعض الكتب المنزّلة: عبدى ، أنا وحقّك لك محبّ، فبحقّى عليك كن لى محبًّا .

وقال عبدالله بن المبـارك : مَنْ أعطِىَ قِسْطاً من المحبّة ، ولم يعطَ مثله من الخشية ، فهو مخدوع .

وقيل : المحبة ما تمحو أثرك ، وتسلُبك عن وجودك .

وقيل : المحبـة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم إنّ السّكر الذى يحصل عند المشاهدة لا يُوصف . وأنشد :

فأسكرَ القومَ دَوْرُ كأسٍ وكان سُكرى من المدِيرِ

وكان أبو علىّ الدقّاق ينشد كثيرا :

لى سكرتان وللندمان واحـــــدة   شيء خصصتُ به من بينهم وحدى

وكان يحيى بن معاذ يقول : مثقالُ خردلة من الحبّ أحبّ إلىّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يكونَ محبًّا ، فليكن كما حُكِىَ عن بعض الهند أنه أحبّ جاريةً ، فرحلت عن ذلك البلد ، فخرج الفتى فى وداعها ، فدمَعَتْ إحدى عينيْه دون الأخرى ، فغمض التى لم تدمع أربعا وثمانين سنة ولم يفتحْها ، عقوبة لأنها لم تبكِ على فراق حبيبته .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

بكتْ عينى غَـــداة البين دَمْعاً   وأُخْرى بالبكا بخلت عَلَيْنا
فعاقبتُ التى بخِلَتْ عَلَيْنـــاَ   بأن غمّضتها يومَ ٱلْتَقَيْـــناَ

وقيل : إنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبّى وحبّ غيرى .

وقيل : المحبة إيثارُ المحبوب على النفس، كامرأة العزيز لما أفرط بها الحبّ ، قالت: ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(١) ، وفى الابتداء ، قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ﴾(٢) فورّكت(٣) الذنب فى الابتداء عليـــه ، ونادت فى الانتهاء على نفسها بالخيانة .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيتُ النبىّ صلى الله عليه وآله فى المنام، فقلت : يا رسولَ الله ، اعذرنى ، فإنّ محبة الله شغلتنى عن حبّك ، فقال : يا مبارك ، مَنْ أحبّ الله فقد أحبّنى .

* * *

(١) سورة يوسف ٥١ .
(٢) سورة يوسف ٢٥ .
(٣) يقال : ورك الذنب عليه : حمله .

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل :

قوله عليه السلام : « يصونون مَصُونه » ؛ أى يكتمون من العلم الذى استحفظوه ما يجب أن يُكتم . ويفجّرون عيونه: يظهرون منه ماينبغى إظهاره؛ وذلك أنه ليس ينبغى إظهار كلّ ما استودِع العارف من الأسرار ؛ وأهلُ هذا الفنّ يزعمون أنّ قوماً منهم عجزوا عن أن يحمّلوا بما حُمّلوه ، فباحوا به فهلكوا ، منهم الحسين بن منصور الحلّاج . ولأبى الفتوح الجارُودىّ المتأخّر أتباعٌ يعتقدون فيه مثلَ ذلك .

والوَلاية ، بفتح الواو: المحبّة والنُّصرة، ومعنى « يتواصَلُونَ بالوَلاية » يتواصلون وهم أولياء ، ومثله : « ويتلاقوْن بالمحبّة » كما تقول : خرجت بسلاحى ، أى خرجت وأنا متسلّح ، فيكون موضع الجار والمجرور نصباً بالحال ، أو يكون المعنى أدقّ وألطف من هذا ، وهو أن يتواصلوا بالوَلاية ، أى بالقلوب لا بالأجسام ، كما تقول : أنا أراك بقلبى ، وأزورك بخاطرى ، وأواصلك بضميرى .

قوله : « ويتساقوْن بكأس رويّة »، أى بكأس المعرفة ، والأنس بالله ، يأخذ بعضهم عن بعض العلومَ والأسرار ، فكأنهم شَرْبٌ يتساقوْن بكأس من الخمر[1] .

قال : « ويصدُرون بريّة » يقال : من أين ريّتكم ؟ مفتوحة الراء ، أى[2] من أين ترتوون الماء ؟

قال : «لا تشوبهم الرِّيبة» ، أى لا تخالطهم الظِنّة والتُّهمة ، ولا تسرع فيهم الغِيبة ، لأن أسرارهم مشغولةٌ بالحقّ عن الخلق .

قال : « على ذلك عقَد خَلْقهم وأخلاقهم » ، الضمير فى «عقَد» يرجع إلى الله تعالى ، أى على هذه الصفات والطبائع عَقَد الخالق تعالى ، خِلْقتهم وخُلُقهم ، أى هم متهيئون لما صاروا إليه ، كما قال عليه السلام : « إذا أرادك لأمر هيأك له » .

(١) ب : « الخمرة » ، وما أثبته من ا (٢) ساقطة من ا .

وقال عليه السلام : « كلٌّ ميسّرٌ لما خلق له » .

قال : « فعليه يتحابون ، وبه يتواصلون » ، أى ليس حبهم بعضهم بعضاً إلّا فى الله ، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله ، لا للهوى ، ولا لغرضٍ من أغراض الدنيا ، أنشد منشدٌ عند عمر قولَ طَرَفة :

فلولا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى ... وَجَدِّكَ لم أحفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِى (١)

فمنهنَّ سَبقِى العاذلاتِ بشَرْبةٍ ... كُمَيتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تُزْبدِ (٢)

وَكَرِّى إذا نادَى المضاف مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضا نبهتَــــهُ المتورِّدِ (٣)

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ معجِبٌ ... ببَهْكَنَةٍ تحتَ الطِّرَافِ الممَدِّ (٤)

فقــال عمر : وأنا لولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى ، لم أحفِل متى قام عوّدى ؛ حُبّى فى الله ، وبغضى فى الله ، وجهادى فى سبيل الله .

قوله عليــه السلام : « فكانوا كتفاضل البَذْر » ، أى مَثلُهم مثل الحب الذى يُنتقى للبَذْر ، يستصلح بعضه ، ويسقط بعضه .

قد ميزّه التخليص : قد فرّق الانتقاء بين جيده ورديئه . وهذّبه التمحيص ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله : « إن المرض ليمحِّص الخطايا كما تمحِّص النار الذهب » ، أى كما تخلّص النار الذهب مما يشوبه .

ثم أمر عليه السلام المكلفين بقبول كرامة الله ونصحه ، ووعظه وتذكيره ، وبالحذر

---

(١) من المعلقة بشرح التبريزى ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الكميت من الخمر: التى تضرب إلى السواد . وقوله : متى ماتعل بالماء تزبد ؛ أى متى تمزج به تزبد لأنها عتيقة .

(٣) كرى : عطفى . والمضاف : الذى أضافته الهموم . والتحنيب : احديداب فى وظيفى يدى الفرس ، وليس ذلك بالاعوجاج الشديد ؛ وهو مما يوصف صاحبه بالشدة . والسيد : الذئب . والغضا : شجر ؛ وذئابه أخبث الذئاب . ونبهته : هيجته . والمتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٤) الدجن : إلباس الغيم السماء ، ومعجب : يعجب من رآه . والبهكنة : التامة الخلق .

مِنْ نزول القارعة بهم ، وهى هاهنا الموت ، وسمّيت الداهيـة قارعةً لأنهـا تقرع ، أى تصيب بشدّة .

قوله : « فليصنع لمتحوَّله » ؛ أى فليعدّ ما يجب إعداده للموضع الذى يتحوّل إليه ، تقول : اصنع لنفسك ، أى اعمل لها .

قوله : « ومعارف منتقَلِه » معارف الدّار : ما يعرفها المتوسّم بها واحـدها معرَّف، مثل معاهد الدار ، ومعالم الدار ، ومنه معارف المرأة ،وهو ما يظهر منها، كالوجْه واليدين. والمنتقَل ، بالفتح : موضع الانتقال .

قوله : «فطوبَى» هى « فُعْلَى » من الطّيب ، قلبوا الياء واوا للضمّة قبلها ، ويقال : طوبَى لك ، وطوباك ! بالإضافة .

وقول العامة : « طوبيك » بالياء غير جائز .

قوله : « لذى قلْب سليم » ، هو من ألفاظ الـكتاب العزيز [1] ، أى سليم من الغلّ والشك .

قوله : « أطاع مَنْ يهديه » ، أى قبل مشورة الناصح الآمر له بالمعروف ،والناهى له عن المنـكر .

وتجنّب مَنْ يُرْدِيه ، أى يهلـكه بإغوائه وتحسين القبيح له .

والباء فى قوله : « ببصرِ مَنْ بَصّره » ، متعلّقة بـ « أصاب » .

قوله : « قبل أن تغلق أبوابه » ، أى قبل أن يحضره الموت فلا تقبل توبته .

والحوبة : الإثم . وإماطته : إزالته ، ويجوز أمطتُ الأذى عنه ، ومِطت الأذى عنه، أى نحّيته ، ومنع الأصمعىّ منه إلّا بالهمزة .

(١) وذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء ٨٩: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، وقوله فى سورة الصافات ٨٤ : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

(٢٠٨)

الأصل:

ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيرا:

اَلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلَا سَقِيماً ، وَلَا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ ؛ وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي ، وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِي ، وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي ، وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّي ، وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي ، وَلَا مُلْتَبِساً عَقْلِي ، وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ ٱلْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي .

أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ، ظَالِماً لِنَفْسِي ؛ لَكَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيَّ ـ وَلَا حُجَّةَ لِي ـ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي ، وَلَا أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي .

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَٱلْأَمْرُ لَكَ !

ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي ، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي !

ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ ، أَوْ تَتَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ ٱلْهُدَى ٱلَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ !

* * *

الشَّـرْحُ :

قوله : « كثيرا » منصوب بأنه صفة مصـدر محذوف ، أى دعاء كثيرا . وميّتا منصوب على الحال ، أى لم يفلَق الصباح علىّ ميتا ، ولا يجوز أن تـكون « يصبح » ناقصة ، ويكون «ميتا» خبرها ، كما قال الراوندىّ ؛ لأنّ خبر « كان » وأخواتها، يجب أن يكونَ هو الاسم ، ألا ترى أنّهما مبتدأ وخبر فى الأصل واسم « يصبح » ضمير «الله» تعالى ، و « ميتا » ليس هو الله سبحانه .

قوله : « ولا مضروبا على عروق بسوء » ، أى ولا أبرَص ، والعرب تـكنِى عن البرص بالسّوء ، ومن أمثالهم : ما أنـكرُك من سوء ، أى ليس إنـكارى لك عن برَص حَدَث بك فغيّر صورتك .

وأراد بعروقه أعضاءه ، ويجوز أن يريد : ولا مطعونا فى نسبى ، والتفسير الأوّل أظهر .

« ولا مأخوذا بأسوإ عملى » ، أى ولا معاقبا بأفحش ذنوبى .

ولا مقطوعا دابرى ، أى عقبى ونسلِى . والدابر فى الأصل : التابع ، لأنّه يأتى دبُرا ، ويقال للهالك : قد قطع الله دابره ، كأنّه يراد أنه عفا أثره ، ومحا اسمه ، قال سبحانه : ﴿ أنَّ دَابِرَ هؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ (١) .

ولا مستوحشا ، أى ولا شاكًّا فى الإيمان ، لأنّ مَنْ شكّ فى عقيدةٍ استوحش منها .

ولا ملتبسا عقلى ، أى ولا مختلطا عقلى ، لَبَسْتُ عليهم الأمر بالفتح ، أى خلطته .

وعذاب الأمم من قبلُ المسخُ والزّلزلة والظلمة ونحو ذلك .

---

(١) سورة الحجر ٦٦ .

قوله : « لك الحجة علىّ ، ولا حجّة لى » ، لأنّ الله سبحانه قد كلّفه بعد تمكينه وإقداره وإعلامه قبحَ القبيح ووجوب الواجب وترديد دواعيه إلى الفعل وتركه ، وهذه حجّة الله تعالى على عباده ، ولا حجّة للعباد عليه ، لأنه ما كلّفهم إلّا بما يطيقونه ، ولا كان لهم لطف فى أمرٍ إلا وفعله.

قوله : « لا أستطيع أن آخذ إلّا ما أعطيتَنى ، ولا أتّقىَ إلا ما وقيتَنى » ، أى لاأستطيع أن أرزق نفسى أمرا ، ولكنك الرزاق ، ولا أدفع عن نفسى محذورا من المرض والموت إلا مادفعته أنتَ عنّى .

وقال الشاعر :

لَعَمْرُكَ مايَدْرِى الْفَتَى كَيفَ يتّقى … نوائبَ هذا الدّهر أم كيف يحْذَرُ !
يرى الشىء مِمّا يُتّقَى فيخافُهُ (١) … ومالا يرى ممّا يقِى اللهُ أكثرُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كفاية الله أجدَى مِنْ توَقّينا … وعادةُ الله فى الأعداء تكفِينا
كاد الأعادى فما أبقَوْا ولا تركُوا … عَيْباً وطعناً وتقبيحا وتهجينا
ولم نزد نحنُ فى سرّ وفى علَنٍ … عَلَى مقالتِنا : الله يكفينا
وكان ذاك ــ وردّ الله حاسدَنا … بغيظه ــ لم ينل مأمولَه فينا

قوله عليه السلام : « أنْ أفتقِر فى غناك » ، موضع الجار والمجرور نصب على الحال ، و « فى » متعلّقة بمحذوف ، والمعنى أن أفتقِر وأنت الموصوف بالغنى الفائض على الخلق ، وكذلك قوله : « أوأَضِلّ فى هداك » ، معناه : أو أضل وأنت ذو الهداية العامّة للبشر كافة ، وكذلك : « أو أضام فى سلطانك » ، كما يقول المستغيث إلى السلطان : كيف أظلم فى عدلك !

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « ويخافه » .

وكذلك قوله : « أو أُضطَهد والأمرُ لك »، أى وأنت الحاكم صاحبُ الأمر ،والطاء في « أضطهد » هي تاء الافتعال ، وأصل الفعل ضهدت فلانا ، فهو مضهود ، أى قهرته . وفلان ضُهَدَة لـكلّ أحد ، أى كلّ مَنْ شاء أن يقهره فعل .

قوله :« اللهمّ اجعلْ نفسى » ،هذه الدعوة مثل دَعْوة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهي قوله : « اللهمّ مَتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا ، واجعله الوارث منّا » ، أى لاتجعل موتنا متأخِّرا عن ذهاب حواسّنا . وكان علىّ بن الحسين يقول فى دعائه : اللهمّ احفَظْ علىّ سمعى وبصرى ، إلى انتهاء أجَلى .

وفسّرُوا قوله عليه السلام : « واجعلْه الوارث مِنّا » ، فقالوا : الضمير فى «واجعله» يرجع إلى الإمتاع .

فإن قلت : كيف يتّق الإمتاع بالسمع والبصر ، بعد خروج الرّوح ؟

قلت : هذا توسّع فى الـكلام ، والمراد : لاتبلُنا بالعمَى ولا الصَّمَم ، فنـكون أحياء فى الصورة ولسنا بأحياء فى المعنى ، لأنّ مَنْ فقدها لاخَـيْر له فى الحياة ، فحملته المبالغة على أن طلب بقاءهما بعد ذهاب النفس ، إيذاناً وإشماراً بحبّه ألّا يُبْلَى بفقدهما .

ونُفْتَتَن ، على مالم يسمّ فاعله : نصابُ بفتنة تُضِلّنا عن الدّين ، وروى : « نَفْتَتِن » بفتح حرف المضارعة على « نفتعل » ، افتتن الرجل أى فتن ، ولا يجوز أن يكون الافتتان متعديّاً كاذكره الراوندىّ،ولـكنه قرأفى '' الصحّاح '' للجوهرىّ:«والفتون:الافتتان،يتعدى ولا يتعدّى » ، فظنّ أنّ ذلك للافتتان وليس كما ظنّ ، وإنما ذلك راجع إلى الفُتون .

والتتابع : التّهافت فى اللّجاج والشرّ ،ولا يكون إلّا فى مثل ذلك ، وروى أو« تتابع» بطرح إحدى التاءات .

(٢٠٩)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ ٱلْحَقِّ مِثْلُ ٱلَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَٱلْحَقُّ أَوْسَعُ ٱلْأَشْيَاءِ فِي ٱلتَّوَاصُفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي ٱلتَّنَاصُفِ ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ . وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى ٱلْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ ٱلثَّوَابِ ، تَفَضُّلاً مِنْهُ ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ ٱلْمَزِيدِ أَهْلُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

الذى له عليهم من الحقّ هو وجوب طاعته ، والذى لهم عليه من الحقّ هو وجوب معدلته فيهم . والحقّ أوسع الأشياء فى التواصف ، وأضيقها فى التناصف ؛ معناه أنّ كلّ أحدٍ يصف الحقّ والعدل ، ويذكر حسنه ووجوبه ، ويقول : لو وُلّيت لعدلت ، فهو بالوصف باللسان وسيع ، وبالفعل ضيّق ، لأنّ ذلك العالَم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه ، ويعِدُون أنْ لو وُلّوا باعتماده وفعله ، لا تجدُ فى الألف منهم واحداً لو وُلّىَ لعدل . ولكنه قول بغير عمل .

ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول ، وهو وجوب الحقّ له وعليه ، فقال : إنّه لايجرى لأحدٍ إلّا بوجرى عليه ، وكذلك لايجرى عليه إلّا وجرى له ، أى ليس ولا واحد من الموجودين يرتفع عن أن يجرى الحقّ عليه ، ولو كان أحدٌ من الموجودين كذلك لكان أحقهم بذلك البارئ سبحانه ، لأنّه غايةُ الشرف ، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتمام ، وهو مالك الكلّ ، وسيّد الكلّ ، فلو كان لجواز هذه القضية وجهٌ ، ولصحّتها مساغ ، لكان البارئ تعالى أوْلَى بها ، وهى ألّا يُستحقّ عليه شىء ، وتقدير الكلام : لكنّه يُستحقّ عليه أمور ، فهو فى هذا الباب كالواحد منّا يَستحقّ ويُستحقّ عليه ، ولكنّه عليه السلام حذف هذا الكلام المقدّر ، أدباً وإجلالا لله تعالى أن يقول : إنه يُستحقّ عليه شىء .

فإن قلت : فما بالُ المتكلّمين لا يتأدّبون بأدبه عليه السلام ! وكيف يطلقون عليه تعالى الوجوب والاستحقاق !

قلت : ليست وظيفة المتكلّمين وظيفةَ أمير المؤمنين عليه السلام فى عباراتهم ، هؤلاء أربابُ صناعة ، وعلمٍ يحتاج إلى ألفاظ واصطلاح لابدّ لهم من استعماله ، للإفهام والجدل بينهم ، وأميرُ المؤمنين إمام يخطب على منبره ، يخاطب عرباً ورعيّة ليسوا من أهل النظر ، ولا مخاطبتُه لهم لتعليم هذا العلم ، بل لاستنفارهم إلى حرْب عدوّه ، فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقّى كلّ لفظة توهم ما يستهجنه السامع فى الأمور الإلهية وفى غيرها .

فإن قلت : فما هذه الأمور التى زعمتَ أنها تُستحقّ على البارئ سبحانه ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ ، واللفظ يقتضيها ؟

قلت : الثواب ، والعوض ، وقبول التوْبة ، واللّطف ، والوفاء بالوعد، والوعيد، وغير ذلك مما يذكره أهلُ العدل .

فإن قلت : فما معنى قوله : « لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه ، لقدرته على عباده ، ولعدله فى كلّ ماجرتْ عليه صروفُ قضائه » ؟ وهب أنّ تعليل عدم استحقاق شىء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح ، كيف يصحّ تعليلُ ذلك بعدله فى كلّ ماجرت عليه صروف قضائه ؟ ألا ترى أنّه ليس بمستقيم أن تقول لا يُستحقّ على البارئ شىء ، لأنّه عادل ، وإنّما المستقيم أن تقول لا يُستحقّ عليه شىء ، لأنّه مالك ، ولذلك علّلت الأشعريّة هذا الحكم بأنّه مالك الكلّ ، والاستحقاق إنّما يكون على مَنْ دونه .

قلت : التعليل صحيح ، وهو أيضا مما علّلت به الأشعريّة مذهبها ، وذلك لأنه إنما يتصوّر الاستحقاق على الفاعل المختار إذا كان ممّن يتوقّع منه أو يصحّ منه أن يظلم ، فيمكن حينئذ أن يقال : قد وجب عليه كذا ، واستُحقّ عليه كذا ، فأمّا من لا يمكن أن يظلم ، ولا يتصوّر وقوع الظلم منه ، ولا الكذب ، ولا خلف الوعد والوعيد ، فلا معنى لإطلاق الوجوب والاستحقاق عليه ، كما لا يقال : كذا الداعى الخالص يستحقّ عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعى ، ويجب عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعى ، مثل الهارب من الأسد ، والشديد العطش إذا وجد الماء ، ونحو ذلك .

فإن قلت : أليس يُشعر قوله عليه السلام : « وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلا منه » بمذهب البغداديين من أصحابكم ، وهو قولهم : إن الثواب تفضّل من الله سبحانه ، وليس بواجب !

قلت : لا ، وذلك لأنّه جعل المتفضَّل به ، هو مضاعفة الثواب ، لا أصل الثواب ، وليس ذلك بمستنكر عندنا .

فإن قلت : أيجوز عندكم أن يستحقّ المكلف عشرة أجزاء من الثّواب فيعطى عشرين جزءا منه ؟ أليس من مذهبكم أنّ التعظيم والتبجيل لا يجوز من البارئ سبحانه أن يفعلهما

فى الجنّة إلا على قدر الاستحقاق ، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل ؟ فكيف قلت : إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة !

قلت : مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقّة من النعيم واللذة الجسمانية خاصة فى الجنّة،فسمّى تلك اللذة الجسمانية ثوابًا لأنّها جزء من الثواب،فأمّا اللذة العقلية فلا يجوز مضاعفتها.

قوله عليه السلام : « بما هو من المزيد أهله » ، أى بما هو أهله من المزيد ، فقدّم الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال ، وفيه دلالة على أنّ حال المجرور تتقدّم عليه ، كما قال الشاعر :

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ الماء حَرّانَ صادياً   إلىّ حبيباً إنّها لحبيبُ

***

الأصلُ :

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحانَهُ مِن حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا ، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ .

وَأَعْظَمُ مَاٱفْتَرَضَ سُبْحانَهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ ٱلْوَالِي عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ ، وَحَقُّ ٱلرَّعِيَّةِ عَلَى ٱلْوَالِي ، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا ٱللهُ سُبْحانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ ٱلرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ ٱلْوُلَاةِ ، وَلَا تَصْلُحُ ٱلْوُلَاةُ إِلَّا بِٱسْتِقَامَةِ ٱلرَّعِيَّةِ ، فَإِذَا أَدَّتِ ٱلرَّعِيَّةُ إِلَى ٱلْوَالِي حقَّهُ ، وَأَدَّى ٱلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا ، عَزَّ ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ ٱلدِّينِ ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا ٱلسُّنَنُ ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ ٱلزَّمَانُ ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلْأَعْدَاءِ .

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا ، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ ؛ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ ، فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ .

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ،وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ،فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَى رِضَا اللهِ حِرْصُهُ ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ ، بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ؛مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ.وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ ، وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ، بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ مِنْ حَقِّهِ ؛ وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ ، بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

تتكافأ فى وجوهها : تتساوى وهى حقّ الوالى على الرعيّة،وحق الرعيّة على الوالى.

وفريضة ، قد روى بالنصب وبالرفع،فمن رفع فخبر مبتدأ محذوف،ومن نصب فبإضمار فعل ، أو على الحال .

وجرت على أذلالها السّنن ، بفتح الهمزة ، أى على مجاريها وطرقها .

وأجحف الوالى برعيّته : ظلمهم .

والإدغال فى الدين : الفساد .

ومحاجّ السنن: جمع محجّة، وهى جادّة الطريق .

قوله : « وكثرت عِلَل النفوس » ، أى تعلّلها بالباطل . ومن كلام الحجّاج : إيّاكم وعلل النفوس، فإنّها أدْوَى لكم من علل الأجساد .

واقتحمته العُيون : احتقرته وازدرته ، قال ابن دُريد :

وَمِنْـــهُ مَاتَقْتَحِمُ ٱلْعَيْنُ فإنْ ذُقْتَ جَنَاهُ سَاغَ عَذْباًفى اللَّها[1]

ومثل قوله عليه السلام : « وليس امرؤ وإن عظمت فى الحقّ منزلته » ، قول زيد ابن علىّ عليه السلام لهشام بن عبد الملك : إنه ليس أحدٌ وإنْ عظمت منزلته بفوقِ أن يُذَكَّر بالله ، ويحذّر من سطوته ، وليس أحدٌ وإن صغُر بدونِ أن يذكِّر بالله ويخوّف من نقمته .

ومثل قوله عليه السلام : « وإذا غلبت الرعيّة واليَها » قولُ الحكماء : إذا علا صوت بعض الرعيّة على الملك فالملك مخلوع ، فإن قال : نعم ، فقال أحدٌ من الرعيّة : لا ، فالملك مقتول .

* * *

[فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك]

وقد جاء فى وجوب الطاعة لأولى الأمر الكثير الواسع، قال الله سبحانه : ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْـكُمْ﴾[2] .

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : « السمع والطاعة على المرء

---

(١) من المقصورة ٢٣ (طبعة مصر سنة ١٣١٩) .

(٢) سورة النساء ٥٩ .

المسلم فيما أحبّ وكره مالم يؤمَر بمعصية ، فإذا أمِر بها فلا سمعَ ولا طاعة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « إن أُمِّرعليكم عبدٌ أسودَ مجدّع فاسمعوا له وأطيعوا».

ومن كلام على عليه السلام : « إنّ الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجَرة » .

بعث سعد بن أبى وقاص جَرير بنَ عبد الله البَجَلىّ من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة ، فقال له عمر : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم كقِداح الجَعْبة ، منها الأعصل[1] الطائش ، ومنها القائم الرائش . قال : فكيف سَعْدٌ لهم ؟ قال : هو ثِقَافها ، الّذى يقيم أَوَدَها ، ويغمز عَصَلها[2] . قال: فكيف طاعتهم؟ قال : يصلّون الصلاة لأوقاتها ، ويؤدون الطاعة إلى ولاتها . قال : الله أكبر ! إذا أقيمت الصلاة ، أدِّيت الزكاة ؛ وإذا كانت الطاعة ، كانت الجماعة .

ومن كلام أبَرْويز الملك : أطعْ مَنْ فوقك يُطعك مَنْ دونك .

ومن كلام الحكماء : قلوب الرعيّة خزائن واليها ، فما أودعه فيها وجَده .

وكان يقال : صِنفان متباغضان متنافيان : السلطان والرعيّة ؛ وهما مع ذلك متلازمان، إن صَلَحَ أحدهما صلح الآخر ، وإن فسد فسد الآخر .

وكان يقال : محلّ الملك من رعيّته محلّ الروح من الجسد ، ومحلّ الرعيّة منه محلّ الجسد من الرّوح ، فالروح تألَم بألم كلّ عضو من أعضاء البدن ، وليس كلّ واحد من الأعضاء يألم بألم غيره ، وفساد الروح فساد جميع البدن ، وقد يفسد بعضُ البدن وغيره من سائر البدن صحيح .

---

(١) السهم الأعصل : القليل الريش .

(٢) العصل : الاعوجاج والميل .

وكان يقال : ظلم الرعية استجلاب البليّة .

وكان يقال : العَجَب ممّن استفسد رعيته ، وهو يعلم أن عزّه بطاعتهم !

وكان يقال : موت الملك الجائر خِصْب شامل .

وكان يقال : لا قحْطَ أشدّ من جوْر السلطان .

وكان يقال : قد تعامَل الرعيـة المشمئزّة بالرفق ؛ فتزول أحقادها ، ويذلّ قيـادها ، وقد تعامَل بالخُرْق فتـكاشف بما غيبت ، وتقدم على ماعييت ؛ حتى يعود نفاقها شِقاقا ، ورذاذها سيلا بُعاقا(١) . ثم إن غَلَبت وقهرت فهو الدّمار، وإن غُلِبت وقُهِرت لم يكن بِغلَبها افتخار ، ولم يدرَك بقهرها ثار .

وكان يقال : الرعية وإن كانت ثمـارا مجتناة ؛ وذخائر مقتناة ، وسيوفا منتضاة ، وأحراسا مرتضاة؛ فإن لها نِفارا كنفار الوحوش ، وطغيانا كطغيان السيول ؛ ومتى قَدَرَتْ أن تقول ، قَدَرَتْ على أن تصول .

وكان يقال : أيدى الرعيّة تبع ألسنتها ؛ فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبهَا فتحبه ، ولن تحبه حتى يعدل عليها فى أحكامه عدلًا يتساوى فيه الخاصة والعامة ؛ وحتى يخفّف عنها المؤن والـكلف، وحتى يعفيها من رفع أوضاعها وأراذلها عليها ؛ وهذه الثالثة تحقدعلى الملك العِلْية من الرعية ، وتطمع السفلة فى الرتب السنية.

وكان يقال : الرعية ثلاثة أصناف : صِنْف فضلاء مرتاضون بحكم الرياسة والسياسة ، يعلمون فضيلة الملِك وعظيم غَنائه ، ويرثُون له من ثقل أعبائه ، فهؤلاء يحصِّل الملك مودّاتهم بالبِشْر عند اللقاء ، ويلقَى أحاديثهم بحسن الإصغاء . وصِنْف فيهم خير وشرّ ظاهران ، فصلاحهم يكتسَب من معاملتهم بالترغيب والترهيب ؛ وصِنْف من السفلة الرّعاع أتبـاع

---

(١) السيل البعاق . المتصبت بشدة .

لكلّ داعٍ ؛ لا يمتحنون فى أقوالهم وأعمالهم بنقد ، ولا يرجعون فى الموالاة إلى عقد .

وكان يقال : ترك المعاقبة للسفلة على صغار الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظائم ؛ ألا ترى أول نشُور المرأة كلمة سومحت بها ، وأوّل حِران الدابّة حَيْدة سوعدت عليها .

ويقال : إنّ عثمان قال يوما لجلسائه ، وهو محصور فى الفتنة : وددْت أنّ رجلا صدوقا أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء ! فقام إليه فتًى فقال : إنّى أخبرك ؛ تطأطأتَ لهم فركبوك ، وما جرّأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك . قال : صدقت ، فهل تعلم ما يُشبّ نيران الفتن ؟ قال: نعم ، سألتُ عن ذلك شيخاً من تَنُوخ كان باقعة ، قد نقّب فى الأرض وعلِم علما جمًّا ، فقال : الفتنة يثيرها أمران : أثَرَة تُضْغِنُ على الملك الخاصّة ، وحلم يجرّئ عليه العامّة . قال : فهل سألته عمّا يخمِدها ؟ قال : نعم ، زعم أنّ الذى يخمدها فى ابتدائها استقالة العَثْرة وتعميم الخاصة بالأثَرة ، فإذا استحكمت الفتنة أخمدها الصبر . قال عثمان : صدقت ؛ وإنّى لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ويقال : إن يَزْدَجرد بن بهرام سأل حكيما : ماصلاح الملك ؟ قال : الرفق بالرعيّة ، وأخذ الحقّ منها بغير عنف والتودّد إليها بالعدل وأمن السبُل وإنصاف المظلوم . قال : فما صلاح الملك ؟ قال : وزراؤه ؛ إذاصَلَحوا صَلَح . قال : فما الذى يثير الفتن ؟ قال : ضغائن يظهرها جرأة عامّة، واستخفاف خاصة ، وانبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق موسر ، وأمن مُعْسر، وغفلة مرزوق ، ويقظة محروم . قال : وما يسكِنُها ؟ قال:أخذ العدّة لما يخاف ، وإيثار الجد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم ، وادراع الصبر ، والرضا بالقضاء .

وكان يقال: خير الملوك مَنْ أشرَب قلوب رعيته محبتَه، كما أشعرها هيبتَه ، ولن يُنال ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء : إكرام شريفها ، ورحمة ضعيفها ، وإغاثة لهيفها ،

وكفّ عدوان عـدوّها ، وتأمين سبُل رواحها وغدُوّها ، فمتى أعدمها شيئاً من ذلك ، فقد أحقَدها[1] بقدر ماأفقدها .

وكان يقال : الأسباب التى تجرّ الهلك إلى الملْك ثلاثة :

أحدها من جهة الملِك ،وهو أن تتأمّرشهواتُه على عقله، فتَستهويه نَشَوات الشّهوات فلا تسنَح له لذّة إلا اقتنصها ، ولا راحة إلا افترصها .

والثانى من جهة الوزراء ، وهو تحاسدهم المقتضى تعارض الآراء ،فلا يسبق أحدُهم إلى حقّ إلّا كُويد وعُورض وعُوند .

والثالث من جهة الجند المؤهّلين لحراسة الملك والدّين،وتوهين المعاندين،وهو نُكولهم عن الجلاد ،وتضجيعهم فى المناصحة والجهاد ،وهم صنفان : صنف وسّع الملك عليهم فأبطرهم الإتراف ،وضنّوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف ،وصنف قَدّرعليهم الأرزاق،فاضطغنوا الأحقاد[2] واستشعروا النفاق .

***

[الآثار الواردة فى العدل والإنصاف]

قوله عليه السلام : « أو أجحف الوالى برعيّته » ،قد جاء من نظائره الكثير جداً، وقد ذكرنافيما تقدّم نكتا حسنة فى مدح العدل والإنصاف، وذمّ الظلم والإجحاف.وقال النبىّ صلى الله عليه وآله : « زيّن الله السماء بثلاثة : الشمس ، والقمر ، والكواكب . وزيّن الأرض بثلاثة : العلماء ، والمطر ، والسّلطان العادل » .

وكان يقال : إذا لم يعمّر الملك ملكه بإنصاف الرعيّة خرب ملكه بعصيان الرعيّة .

وقيل لأنوشروان :أىّ الجُنن أوقى؟ قال: الدّين، قيل:فأىّ العُدَد أقوى؟قال:العدل.

(١) يقال : أحقده ، أى صيره حاقداً . (٢) اضطغنوا الأحقاد : انطووا عليها .

وقّع جعفر بن يحيى إلى عامل من عمّاله : كَثُر شاكوك، وقلّ حامدوك، فإمّا عدلت، وإمّا اعتزلت .

وُجد فى خزانة بعض الأكاسرة سَفَط ، ففُتح فوجد فيه حبّ الرمان ، كلّ حبّة كالنواة الكبيرة من نوى المشمش ، وفى السَّفَط رُقعة فيها : هذا حبّ رمان عملنا فى خراجه بالعدل .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطّاب متظلّما ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، هذا مكان العائذ بك . قال له : عذتَ بمعاذ ، ماشأنك ؟ قال : سابقتُ ولد عمرو بن العاص بمصْرَ فسبقتُه ، فجعل يقنّعنى بسوطه، ويقول : أنا ابن الأكرمين ! وبلغ أباه ذلك ، فحبسنى خشية أن أقدُم عليك؛ فكتب إلى عمرو: إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وابنُك. فلمّا قدم عمرو وابنه ، دفع الدِّرة إلى المصرىّ ، وقال : اضرب به كما ضرَبك ، فجعل يضرب به وعمر يقول : اضرب ابن الأمير ، اضرب ابن الأمير ! يردّدها ، حتى قال : ياأميرَ المؤمنين قد استقدتُ منه ، فقال — وأشار إلى عمرو : ضعْها على صَلْعَته ، فقال المصرىّ : ياأمير المؤمنين ، إنما أضرب مَنْ ضربنى ، فقال : إنّما ضربك بقوّة أبيه وسلطانه ، فاضرب به إن شئت؛ فوالله لو فعلتَ لما منعك أحدٌ منه ، حتى تكون أنت الذى تتبرع بالكفّ عنه ! ثم قال : يابن العاص ، متى تعبّدتم الناسَ وقد ولدتهمْ أمّهاتهمْ أحرارا !

خطب الإسكندر جنده ، فقال لهم بالرومية كلاماً تفسيره : ياعبادَ الله ، إنما إلهُكم الله الذى فى السماء ، الذى نصرنا بعد حين ، الذى يسقيكم الغيث عند الحاجة ، وإليه مفزعكم عند الكرب . والله لايبلغنى أنّ الله أحبّ شيئاً إلا أحببتُه وعملت به إلى يوم أجلى ، ولا يبلغنى أنه أبغض شيئاً إلّا أبغضتُه وهجرته إلى يوم أجلى . وقد أُنبِئت أنّ الله يحبّ العدل فى عباده ، ويُبغض الجور ، فويل للظالم من سوطى وسيفى ! ومَنْ ظهر منه

العدل من عمّالى فليتكىء فى مجلسى كيف شاء ؛ وليتمن علىّ ما شاء ، فلن تخطئه أمنيتُه والله المجازى كلاً بعمله .

قال رجلٌ لسليمان بن عبد الملك وهو جالس للمظالم : يا أميرَ المؤمنين، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[1] ! قال : ما خطبك ؟ قال : وكيلك اغتصبنى ضيْعتى وضمّها إلى ضيعتك الفلانية . قال : فإنّ ضيعتى لك ، وضيعتك مردودة إليك . ثم كتب إلى الوكيل بذلك ، وبصرْفه عن عمله .

ورقِىَ إلى كسرى قُباذ أنّ فى بطانة الملك قوماً قد فسدت نياتهم ، وخَبُثت ضمائرهم، لأنّ أحكام الملك جَرَت على بعضهم لبعضهم ، فوقّع فى الجواب : أنا أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر .

وتظلم أهل الكوفة إلى المأمون مِنْ واليهم ، فقال: ما علمت فى عمالى أعدلَ ولا أقومَ بأمر الرعية ، ولا أعْودَ عليهم بالرفق منه . فقال له منهم واحد : فلا أحد أولَى منك يأمير المؤمنين بالعدلْ والإنصاف ، وإذا كان بهذه الصفة فمن عدل أمير المؤمنين أن يولّيَه بلدا بلدا ، حتى يلحق أهلَ كلّ بلدٍ من عدله ، مثل ما لحقنا منه ، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سواهم ، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثرُ من ثلاث سنين . فضحك وعزله .

كتب عدىّ بن أرْطاة إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن قِبَلنا قوماً لا يؤدّون الخراج إلا أن يمسّهم نَصَبٌ من العذاب ، فاكتب إلى أمير المؤمنين برأيك . فكتب : أما بعد، فالعجبُ لك كلّ العجب ! تكتب إلىّ تستأذننى فى عذاب البشر ، كأن إذنى لك جُنّة من عذاب الله ، أو كأنّ رضاى ينجيك من سَخَط الله ! فمَنْ أعطاك ما عليه عفوا

---

(١) سورة الأعراف ٤٤ .

نخذ منه ، ومن أبى فاستحلِفه ، وكِلْه إلى الله ، فلأن يلقَوُا الله بجرائمهم أحبُّ إلىَّ من أن ألقاه بعذابهم .

فُضَيل بن عياض : ما ينبغى أن تتكلّم بفيك كلّه ! أتدرى مَنْ كان يتكلم بفيه كلِّه ! عمر بن الخطاب كان يعدل فى رعيّته ، ويجور على نفسه ، ويطعمهم الطيب ، ويأكل الغليظ ، ويكسوهم اللين ويلبس الخشن ، ويعطيهم الحق ويزيدهم ، ويمنع ولده وأهله ، أعطى رجلا عطاءه أربعة آلاف درهم ، ثم زاده ألفا ، فقيل له : ألا تزيد ابنك عبد الله كما تزيد هذا ؟ فقال : إن هذا ثبَت أبوه يوم أُحُد ، وإنّ عبد الله فرّ أبوه ولم يثبت .

وكان يقال : لا يكونُ العُمْران ، إلّا حيث يعدل السلطان .

وكان يقال: العدل حصن وثيق ، فى رأس نِيق[1] ، لا يحطّمه سيلٌ ، ولا يهدمه منجنيق .

وقّع المأمون إلى عامل كثر التظلّم منه : أنصفْ مَنْ وليت أمرهم ، وإلّا أنصَفهم منك مَنْ ولىَ أمرَك .

بعض السلف : العدْل ميزان الله ، والجور مكيال الشيطان .

(١) النيق : أرفع موضع فى الجبل .

(٢١٠)

الأصل :

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ، ويذكر سمعه وطاعته له ، فقال عليه السلام :

إِنَّ مِنْ حَقِّ من عَظُمَ جَلَالُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ — لِعِظَمِ ذَلِكَ — كلُّ مَاسِوَاهُ ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعمَةُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ ٱللهِ عَلَى أَحَدٍ ، إِلَّا ٱزْدَادَ حَقُّ ٱللهِ عَلَيْهِ عِظَماً .

وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ ٱلْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ ٱلْفَخْرِ ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى ٱلْكِبْرِ . وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ ٱلْإِطْرَاءَ ، وَٱسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ ٱللهِ كَذَلِكَ ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً لِلهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَاهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ ٱلْعَظَمَةِ وَٱلْكِبْرِيَاءِ .

وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ ٱلْبَلَاءِ ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ ٱلْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا ، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا ، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ ٱلْجَبَابِرَةُ ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَادِرَةِ ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ ، وَلَا تَظُنُّوا بِيَ ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي ، وَلَا ٱلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي ، فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ ٱلْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ ، أَوِ ٱلْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ ، كَانَ ٱلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ .

فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي ، إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَاهُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي ، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَالَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَاصَلَحَنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى ، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلُها أن تشرح ، ففيه معانٍ مختلفة سبيلها أن تذكر وتوضّح ، وتذكر نظائرها وما يناسبها .

فمنها قوله عليه السلام : إنّ من حقّ مَنْ عَظُمت نعمة الله عليه أن تعظُم عليه حقوق الله تعالى ، وأنْ يعظِّم جلال الله تعالى فى نفسه ، ومن حقّ مَنْ كان كذلك ، أن يصغُر عنده كلُّ ماسوى الله .

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين ، وهو استحقار كلّ ماسوى الله تعالى، وذلك أنّ مَنْ عرف الله تعالى فقد عرف ماهو أعظمُ من كلّ عظيم، بل لا نسبة لشىء من الأشياء أصلاً إليه سبحانه . فلا يظهر عند العارف عظمةُ غيره البتّة ، كما أنّ مَنْ شاهد الشّمس المنيرة يستحقر ضوء القمر والسراج الموضوع فى ضوء الشمس، حال مشاهدته جرم الشمس، بل لا تظهر له فى تلك الحال صنوبرة السراج ، ولا تنطبع صورتُها فى بصره .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : منْ أسخَف حالاة الولاة أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويُوضع

أمرهم على الكِبْر . قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنّة مَنْ كان فى قلبه مثقال حبّة من كِبْر » .

وقال صلّى الله عليه وآله : « لولا ثلاث مهلِكات لصلح الناس: شحٌّ مطاع، وهوًى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وكان يقال : ليس لمعجَبٍ رأْى ، ولا لمتكبّر صديق .

وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول : ماتاه إلّا وضيع ، ولا فاخر إلّا لقيط ، ولا تعصّب إلا دخيل .

وقال عمر لبعض ولده : التمس الرفعة بالتّواضع ، والشّرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس . وإيّاك والخُيَلاء فتضعَ من نفسك ، ولا تحقِرنّ أحداً ، لأنك لاتدرى لعلّ مَنْ تزدَرِيه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : قد كرِهتُ أن تظنّوا بى حبّ الإطراء واستماع الثناء . قد روى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنه قال : «احثُوا فى وجوه المدّاحين التراب». وقال عمر: المدح هو الذبح .

وكان يقال : إذا سمعتَ الرّجُل يقول فيك من الخير ماليس فيك ، فلا تأمن أن يقول فيك من الشرّ ماليس فيك .

ويقال : إنّ فى بعض الكتب المنزّلة القديمة : عَجَباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! ولمن قيل فيه الشرّ وليس فيه كيف يغضب ! وأعجب من ذلك مَنْ أحبّ نفسه على اليقين ، وأبغض النّاس على الظنّ .

وكان يقال : لايغلبنّ جهلُ غيرِك بك علمَك بنفسك .

وقال رجل لعبد الملك : إنّى أريد أن أسِرّ إليك ياأمير المؤمنين شيئاً ، فقال لمنْ حولَه:

إذا شئتم فانهضوا ! فتقدّم الرجل يريد الكلام ، فقال له عبد الملك : قِفْ ، لا تمدحْنى فإنّى أعلمُ بنفسى منك ، ولا تكذبْنِى فإنّه لا رأْى لمكذوب ، ولا تغتبْ عندى أحدا ، فإنّى أكره الغيبة ، قال : أفيأذن أمير المؤمنين فى الانصراف ! قال : إذا شئت .

وناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجانىّ فى مسألةٍ كلاميّة ، فجعل النوشجانىّ يخضع فى الكلام ، ويستخذِى له ، فقال : يامحمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجّة لى عليك - وقد ساءنى منك ذلك ، ولو شئت أن أقتسر الأمور بعزّة الخلافة ، وهيبة الرياسة لصدِّقت وإن كنت كاذبا ، وعدِّلت وإن كنت جائرا ، وصوِّبت وإن كنت مخطئا ، ولكنّى لا أقنع إلاّ بإقامة الحجّة ، وإزالة الشّبهة ؛ وإن أنقص الملوك عقلا ، وأسخفهم رأيا مَنْ رضىَ بقولهم : صدق الأمير !

وقال عبد الله بن المقفّع فى " اليتيمة " : إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حبّ المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثلم يقتحمون عليك منها ، وبابا يفتتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ، ويسخرون منك لها . واعلم أنّ قابل المدح كادحٍ نفسه ، وأنّ المرء جديرٌ أن يكون حُبّه المدح هو الذى يحملُه على ردّه ، فإنّ الرادّ له ممدوح ، والقابِل له مَعيب .

وقال معاوية لرجل : مَنْ سَيّد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنتَ كذلك لم تقله .

وقال الحسن : ذمُّ الرّجل نفسَه فى العلانية مدحٌ لها فى السرّ .

كان يقال : مَنْ أظهر عيب نفسه فقد زكّاها .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من الكبرياء . فى الحديث المرفوع : « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومَنْ تكبر خفضه الله ».

وفيه أيضا : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمتُه .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « فلا تكلمونى بما تكلّم به الجبابرة ، ولا تتحفّظُوا منّى بما يتحفظ به عند أهل البادرة » .

أحسن ما سمعتُه فى سلطان لا تخافُ الرعية بادرتَه ، ولا يتلجلج المتحاكمون عنده ؛ مع سطوته وقوته ، لإيثاره العدل . قول أبى تمام فى محمد بن عبد الملك :

وزيرُ حَقٍّ ، ووالِي شُرْطَةٍ ورحَا ... ديوانِ مُلْكٍ ، وشيعيٌّ ، ومحتَسِبُ (١)
كالأرحبىّ المذكّى سَيْرُه المَرَطى ... والوخْدُ والمَلْعُ والتقْرِيبُ والخَبَبُ (٢)
عَوْدٌ تساجلُه أيامه فبها ... مِنْ مَسّه وبه مِنْ مَسِّها جُلَبُ (٣)
ثَبْتُ الخِطاب إذا اصطكّت بمظلمةٍ ... فى رَحْلِه ألسُنُ الأقوام والرُّكَبُ (٤)

---

(١) ديوانه ١ : ٢٥٣ .

(٢) قال شارح ديوانه : كان بعض الناس يقول لأبى تمام : أما أستحسن قول امرئ القيس :

وَتَعْرِفُهُ فيهِ من أبيهِ شَمَائِلًا ... وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ يَزِيدَ وَمِن حُجُرْ
سَمَاحَةَ ذَا ، وبِجودَ ذَا ، ووفاءَ ذَا ، ... ونائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذا سَكِرْ

فذكر أربعة وردّ عليها أربعة أصناف ؛ فنبه أبو تمام بعد مدة ، فقال له : أنشدنى بيتى امرئ القيس . وليحسن ذكره لأربعة ورده عليهم أربعة أصناف ، وقد ذكرت خمسة ورددت عليهم خمسة أصناف ، وأنشده هذين البيتين . الأرحبى ، يعنى به نجيبا من الإبل منسوبا إلى أرحب ، وهم حى من همدان . والمذكّى الذى قد تمّت سنه وذكاؤه ، يقال : فرس مذكّ ووحش مذك . والمرطى : ضرب من العدو سهل ، وقلما يستعمل إلا فى الإبل ، فأما الوخد واللمع فمجيئهما كثير فى وصف سير النوق والجمال ، ولا يكادون يقولون: وخد الفرس ، وقد حكى ذلك أبو نصر صاحب الأصمعى . والتقريب أيضاً لا يكاد يستعمل فى الجمال، يقول: هذا الممدوح جمع إصلاح الملك كما يجمع هذا الأرحبىّ هذه الضروب من السير .

(٣) العود : المسن من الإبل ، والمراد به هنا الرجل المجرب ، على الاستعارة . والجلب : جمع جلبة ، وهو الأثر فى ظهر البعير وغيره من أثر حمل أو نحوه ، يقول : قد جرّب الأمور ، خيرها وشرّها ؛ يكون الدهر مرة معه ومرة عليه ، فكأنه يساجله .

(٤) اصطكت : اضطربت ، وقوله : « بمظلمة » ، أى بخصلة مظلمة .

لا المنطِقُ اللَّغْوُ يزْكو في مَقَاوِمِهِ ... يوماً ، ولا حجة الملهوف تُستَلَبُ (١)
كأنّما هُوَ في نادى قَبيلَتِه ... لا القَلبُ يهفو ولا الأحشاءُ تَضطَرِبُ (٢)

ومن هذا المعنى قول أبي الجَهْم العَدَوِيّ ، في معاوية :

نُقَلِّبُهُ لِنَخْبُرَ حالتيه ... فنخبر منهما كَرَماً ولِينا
نميلُ على جوانبِه كأنّا ... إذا مِلْنا نميلُ على أبينا

***

ومنها قوله عليه السلام : لا تظنوا بي استثقالَ رفع الحقّ إليّ ، فإنه مَن استثقل الحق أن يقال له ، كان العملُ به عليه أثقلَ .

هذا معنى لطيف ، ولم أسمع فيه شيئاً منثورا ولا منظوماً .

***

ومنها قوله عليه السلام : ولا تكفّوا عن قول بحقّ أو مشورة بعدل .

قد ورد في المشورة شيء كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (٣) .

وكان يقال : إذا استشرت إنسانا صار عقله لك .

وقال أعرابيّ : ماغُبِنت قطّ حتى يُغبَن قومي ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا أفعل شيئاً حتى أشاورَهم .

وكان يقال : من أعطى الاستشارة لم يمنَع الصواب ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيَرة ، ومنْ أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أُعطى الشكر لم يمنَع المزيد .

وفي آداب ابن المقفّع : لا يَقْذِفنّ في رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك للناس حاجتك إلى رأى غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة ، فإنّك لا تريد الرأى للفخْر ؛

(١) المنطق اللغو : الهذر وما لا يحتاج إليه من الكلام . ويزكو : يروج وينمو ، مقاوم : جمع مقام .
(٢) لا القلب يهفو ؛ أى لا يزيغ عما يريد .
(٣) سورة آل عمران ١٥٩

ولكن للانتفاع به ؛ ولو أنك أردته للذكر لكان أحسنَ الذكر عند العقلاء أن يقال : إنه لا ينفرد برأيه دون ذوى الرأى من إخوانه .

* * *

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : عليه السلام : « وربّما استحلَى النّاسُ الثناء بعد البلاء ... » إلى قوله : « لا بدّ من إمْضائها »؟ فنقول : إنّ معناه أنّ بعض مَنْ يكره الإطراء والثناء ، قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاختبار ، كما قال مرْدَاس بن أديّة لزياد : إنّما الثناء بعد البلاء ، وإنما نثنى بعد أن نبتلى ؛ فقال : لو فرضنا أنّ ذلك سائغ وجائز وغير قبيح ، لم يجزْ لكم أن تثنوا علىّ فى وجهى ، ولا جاز لى أن أسمَعه منكم ؛ لأنه قد بقيتْ علىّ بقيّة لم أفرُغ من أدائها ، وفرائض لم أمْضِها بعد ، ولا بدّ لى من إمضائها ؛ وإذا لم يتمّ البلاء الذى قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده ، لم يحسن الثناء .

* * *

ومعنى قوله : « لإخراجى نفسى إلى الله وإليكم » أى لاعترافى بين يدى الله وبمحضر منكم أنّ علىّ حقوقا فى إيالتكم ، ورياستى عليكم ، لم أقم بها بعد ، وأرجو من الله القيام بها .

* * *

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : « فلا تخالطونى بالمصانعة » ؟ فنقول : إنّ معناه لا تصانعونى بالمدح والإطراء عن عمل الحق ، كما يصانَع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم الإطراء والثناء ، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأة لما صونعوا به من التقريظ والتزكية والنفاق .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « فإنّى لست بفوقِ أنْ أخطئ » ؛ هذا اعتراف منه عليه السلام بعَدم العصمة ، فإمّا أن يكون الكلام على ظاهره ، أو يكون قاله على سبيل هضم

النفس ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ولا أنا إلا أن يتداركني الله برحمته ».

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « أخرجنا مما كنا فيه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى » . ليس هذا إشارة إلى خاصّ نفسه عليه السلام ، لأنه لم يكن كافرا فأسلم ، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس ، فيأتي بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسّعا ، ويجوز أن يكون معناه : لولا ألطافُ الله تعالى ببعثه محمد صلى الله عليه وآله لكنت أنا وغيري على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام ، كما قال تعالى لنبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾ [1] ليس معناه أنه كان كافرا ، بل معناه : لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحدٍ من قومك . ومعنى « ووجدك ضالًّا » ، أى ووجدك بعُرْضة [2] للضلال ، فكأنه ضالّ بالقوة لا بالفعل .

---

(١) سورة الضحى ٧ .

(٢) كذا في ب ، وفي ا : « بعرضية الضلال » .

(٢١١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَئُوا إِنَائِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي ، وَقَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً ، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ .

* * *

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَقَدْ مَضَى هذا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ ، إِلَّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هاهنا لاخْتِلَافِ الرِّوَايَتَيْنِ .

* * *

الشرح :

العدوى : طلبك إلى والٍ ليعديك على مَنْ ظلمك ، أى ينتقم لك منه ، يقال : استعديتُ الأميرَ على فلان فأعداني ، أى استعنت به عليه فأعانني .

وقطعوا رحمي : وقطعوا قرابتي ، أى أجروني مجرى الأجانب ويجوز أن يُريد أنّهم عدّوني كالأجنبيّ من رسول الله صلى الله عليه وآله . ويجوز أن يريد أنّهم جعلوني كالأجنبيّ

منهم ؛ لاينصرونه ، ولا يقومون بأمره .

وأكفئوا إنائى : قلبوه وكبّوه ، وحذف الهمزة من أوّل الكلمة أفصح وأكثر ، وقد روى كذلك ، ويقال لمن قد أضيعت حقوقه : قد أكفأ إناءه ؛ تشبيها بإضاعة اللبن من الإناء

وقد اختلفت الرواية فى قوله : « ألا إنّ فى الحقّ أن تأخذه » ، فرواها قوم بالنون ، وقوم بالتاء . وقال الراوندى : إنها فى خطّ الرضىّ بالتاء . ومعنى ذلك أنّك إن وليت أنت كانت ولايتُك حقًّا ، وإن وُلِّى غيرُك كانت ولايته حقا ، على مذهب أهل الاجتهاد. ومن رواها بالنون ، فالمعنى ظاهر .

والرافد : المعين . والذابّ : الناصر .

وضننت بهم : بخلت بهم . وأغضيت على كذا : صَبَرت .

وجرِعت بالكسر . والشّجا : مايعترض فى الحلْق.

والوخز : الطعن الخفيف ، وروى « من حزّ الشفار » والحزّ : القطع .

والشِّفار : جمع شفْرة ، وهى حدّ السيف والسكّين .

* * *

واعلم أن هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام مايناسبه ، ويجرى مجراه ، ولم يؤرّخ الوقت الذى قاله فيه ، ولا الحال التى عَناها به ، وأصحابنا يحملون ذلك على أنّه عليه السلام قاله عَقِيب الشّورى وبيعة عثمان ، فإنه ليس يرتاب أحدٌ من أصحابنا عَلَى أنه تظلّم وتألّم حينئذ .

ويكره أكثر أصحابنا حملَ أمثال هذا الكلام على التألّم من يوم السقيفة .

ولقائل أن يقول لهم : أتقولون إنّ بيعة عثمان لم تكن صحيحة؟ فيقولون : لا ، فيقال

لهم : فعلى ماذا تحملون كلامه عليه السلام ، مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله ؟ فيقولون: نحملُ ذلك على تألّمه وتظلّمه منهم إذا تركوا الأولى والأفضل . فيقال لهم : فلاتنكروا قول مَنْ يقولُ من الشّيعة وغيرهم : إنّ هذا الكلام وأمثاله صدَر عنه عقيب السقيفة، وحملوه على أنّه تألم وتظلّم من كونهم تركوا الأولى والأفضل ،فإنكم لستم تنكرون أنّه كان الأفضلَ والأحقّ بالأمر ، بل تعترفون بذلك ، وتقولون : ساغت إمامة غيره ،وصحّت لمانع كان فيه عليه السلام ، وهو ماغلب على ظنون العاقدين للأمر من أنّ العرب لا تطيعه ، فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولِيَ الخلافة لأسباب يذكرونها ، ويعدّونها ، وقد روى كثير من المحدّثين أنّه عقيب يوم السّقيفة تألّم وتظلّم ، واستنجد واستصرخ ،حيث ساموه الحضور والبيْعة ،وأنّه قال وهو يشير إلى القبر :﴿ يَا بْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ [1] وأنّه قال : واجعفراه ! ولا جعفر لى اليوم ! واحمزتاه ولا حمزة لى اليوم !

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدّم ، وكلّ ذلك محمول عندنا على أنّه طلب الأمر من جهة الفضل والقرابة ، وليس بدالٍّ عندنا على وجود النصّ ، لأنه لو كان هناك نصّ لكان أقلّ كلفةً وأسهلَ طريقا ، وأيسرَ لِمَا يريدُ تناولاً أن يقول : ياهؤلاء إنّ العهد لم يَطُلْ ، وإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أمرَكم بطاعتى ، واستخلفنى عليكم بعده ، ولم يقع منه عليه السلام بعد ماعلمتموه ونصّ ينسخ ذلك ، ولا يرفعه ، فالموجب لتركى ، والعدول عنى !

فإن قالت الإمامية : كان يخاف القتل لو ذكر ذلك ، قيل لهم : فهلا يخاف القتل وهو يعتلّ ويدفع ليبايع ، وهو يمتنع ، ويستصرخ تارة بقبر رسول الله صلّى الله عليه وآله،

---

(١) سورة الأعراف ١٥٠ .

وتارة بعمّه حمزة وأخيه جعفر — وهما ميتان — وتارة بالأنصار ، وتارة ببنى عبدمناف، ويجمع الجموع فى داره ، ويبثّ الرسل والدّعاة ليلا ونهارا إلى الناس ، يذ كّرهم فضله وقرابته ، ويقول للمهاجرين : خَصَمْتُم (١) الأنصار بكونكم أقربَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وأنا أخصِمكم بما خَصَمْتُم به الأنصار ، لأنّ القرابة إن كانت هى المعتبرة ، فأنا أقربُ منكم .

وهلّا خاف من هذا الامتناع ، ومن هذا الاحتجاج ، ومن الخلوة فى داره بأصحابه ، ومِنْ تنفير الناس عن البيعة التى عقدت حينئذ لمن عقدت له !

وكلّ هذا إذا تأمّله المنصِف علم أنّ الشيعة أصابتْ فى أمرٍ ، وأخطأت فى أمرٍ ، أمّا الأمرُ الذى أصابت فيه فقولها : إنه امتنع وتلكّأ ، وأراد الأمر لنفسه ، وأمّا الأمرُ الذى أخطأت فيه ، فقولُها : إنه كان منصوصاً عليه نصًّا جليًّا بالخلافة ، تعلمهُ الصّحابة كلّها أو أكثرها ، وإنّ ذلك النّصّ خولف طلباً للرئاسة الدنيويّة ، وإيثاراً للعاجلة . وإنّ حال المخالفين للنصّ لاتعدُو أحدَ أمرين : إمّا الكفر أو الفسق ، فإنّ قرائن الأحوال وأماراتها لاتدلّ على ذلك ، وإنّما تدلّ وتشهد بخلافه ، وهذا يقتضى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان فى مبدأ الأمر يظنّ أنّ العقد لغيره كان عن غير نظر فى المصلحة ، وأنّه لم يقصَدْ به إلا صرفُ الأمرِ عنه ، والاستئثار عليه ، فظهر منه ماظهر من الامتناع والقعود فى بيته ، إلى أن صحّ عنده ، وثبت فى نفسه ، أنهم أصابوا فيما فعلوه ، وأنّهم لم يميلوا إلى هوًى ، ولا أرادوا الدنيا ، وإنما فعلوا الأصلح فى ظُنونهم ، لأنه رأى من بغض الناس له، وانحرافهم عنه ، وميلهم عليه ، وثوران الأحقاد التى كانت فى أنفسهم ، واحتدام النيران التى كانتْ فى قلوبهم ، وتذكّروا التّرات التى وَتَرَاهم فيما قبل بها ، والدماء التى سفكها منهم ، وأرقها .

---

(١) خصمكم الأنصار : غلبوكم .

وتعلّل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغر سنّه ، واستهجانهم تقديمَ الشّباب على الكهول والشيوخ .

وتعلّل طائفـــة أخرى منهم بكراهيّة الجمع بين النبوّة والخلافة فى بيت واحد ، فيجفخون[1] على الناس كما قاله من قاله . واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تعدّيه وشدته ، وعلمهم بأنّه لا يداجى ولا يحابى ، ولا يراقب ولا يجامل فى الدّين ، وأن الخلافة تحتاج إلى مَنْ يجتهـد برأيه ، ويعمل بموجب استصلاحه ، وانحراف قوم آخرين عنه ، للحسد الذى كان عندهم له فى حياة رسول الله صلى الله عليـه وآله ، لشدة اختصاصه له ، وتعظيمه إياه ، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالّة على رفعة شأنه وعلو مكانه ، وما اختصّ به من مصاهرته وأخوّته ، ونحو ذلك من أحواله معه ، وتنكّرُ قوم آخرين له لنسبتهم إليه العجْب والتيه ، كما زعموا ، واحتقاره العرب ، واستصغاره الناس كما عددوه عليه ، وإن كانوا عندنا كاذبين ، ولـكنّه قولٌ قيل ، وأمر ذكر ، وحال نسبت إليه ، وأعانهم عليها ما كان يصدُر عنه من أقوال توهِم مثل هذا ، نحو قوله : « فإنا صنائعُ ربّنا ، والناس بعد صنائع لنا » ، وماصحّ به عنده[2] أنّ الأمر لم يكن ليستقيم له يوما واحداً ، ولا ينتظم ولا يستمرّ ، وأنه لو ولى الأمر لفتقت العرب عليه فتقا يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه ، فأذعن بالبَيْعة ، وجنَح إلى الطاعة وأمسك عن طلب الإمْرة ، وإن كان على مَضَض ورَمَض .

وقد روى عنه عليه السلام أنّ فاطمةَ عليها السلام حرّضته يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوتَ المؤذّن : « أشهد أن محمدا رسول الله » ، فقال لها : أيسرّكِ زوال هذا النداء من الأرض ! قالت : لا ، قال : فإنه ما أقول لك .

(١) يجفخون : يفخرون ويتكبرون .
(٢) ب : « عنده » ، وما أثبته من ا .

وهـذا المذهب هو أقصَدُ المذاهب وأصحّها ، وإليه يذهب أصحابنا المتأخّرون من البغداديين ، وبه نقول .

واعلم أنّ حال علىّ عليه السلام فى هذا المعنى أشهرُ من أن يحتاج فى الدّلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب ، فقد رأيت انتقاضَ العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسٍ وعشرين سنة ، وفى دون هـذه المدّة تُنسَى الأحقاد ، وتموت التّرات، وتبرُد الأكباد الحامية ، وتسلُو القلوب الواجدة ، ويعدَم قرْنٌ من الناس ، ويوجـد قرْن ، ولا يبقى من أرباب تلك الشّحناء والبغضاء إلّا الأقلّ ، فـكانت حاله بعد هذه المدّة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابنِ عمّه صلى الله عليه وآله ، من إظهار مافى النفوس ، وهَيَجان مافى القلوب ، حتى إنّ الأخلافَ من قريش ، والأحداث والفتيان الّذِين لم يشهدوا وقائعه وفتـكاته فى أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به مالو كانت الأسـلاف أحياء لقصّرت عن فعله ، وتقاعست عن بلوغ شأوِه ، فـكيف كانت تـكونُ حاله لو جلس على مِنْبَر الخلافة ، وسيفه بعد يقطُر دما من مُهج العرب ، لاسيا قريش الذين بهم كان ينبغى ـلودهمه خطبـ أن يعتضد ، وعليهم كان يجب أن يعتمد ! إذن كانت تدرُس أعلام الملّة وتنعفِى رسومُ الشريعة ، وتعود الجاهليّة الجهلاء على حالها ، ويفسدُ ماأصلحه رسول الله صلى الله عليـه وآله فى ثلاث وعشرين سنة فى شهر واحد، فـكان من عناية الله تعالى بهذا الدّين أنْ ألهم الصحابة مافعلوه، والله متمّ نوره ولو كره المشركون .

* * *

[فصل فى أنّ جعفراً وحمزة لو كان حيّين لبايعا عليا]

وسألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى يزيد رحمه الله ، قلت له : أتقول: إنّ حمزة وجعفراً لو كانا حيّين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكانا يبايعانه بالخلافة ؟ فقال : نعم ، كانا أسرع إلى بيعته من النّار فى يَبَس العَرْفج . فقلت له : أظنّ أنّ جعفراً كان يبايعه ويتابعه ، وما أظنّ حمزة كذلك ، وأراه جبّاراً ، قوىّ النفس ، شديدَ الشّكيمة ، ذاهبا بنفسه ، شجاعا بُهْمَةً ، وهو العمّ والأعلى سِنًّا ، وآثاره فى الجهاد معروفة ، وأظنّه كان يطلب الخلافة لنفسه !

فقال : الأمر فى أخلاقه وسجاياه كما ذكرتَ ، ولكنّه كان صاحب دين متين ، وتصديقٍ خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولو عاش لرأى من أحوال علىّ عليه السلام مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله مايوجبُ أن يكسر له نخوته ، وأن يقيمَ له صَعَره ، وأن يقدّمه على نفسه ، وأن يتوخّى رضا الله ورضا رسوله فيه ، وإن كان بخلاف إيثاره.

ثم قال: أين خُلُق حمزة السَّبُعىّ من خُلُق علىّ الروحانىّ اللطيف ، الذى جمع بينه وبين خُلُق حمزة ، فاتّصفت بهما نفسٌ واحدة ! وأين هَيُولانيّة نفس حمزة ، وخلوها من العلوم من نفس علىّ القُدْسيّة التى أدركت بالفطرة لابالقوة التعليمية مالم تدركه نفوس مدقّقى الفلاسفة الإلهيّين ! لو أنّ حمزة حيَ حتّى رأى مِنْ علىٍّ ماراَه غيره ، لكان أتبع له من ظلّه ، وأطوع له من أبى ذرّ والمقداد !

وأما قولك : هو العمّ والأعلى سِنًّا ، فقد كان العباس العمّ والأعلى سنًّا ، وقد عرفت مابذله له وندبه إليه ، وكان أبو سفيان كالعمّ ، وكان أعلى سنًّا ، وقد عرفت ماعرضه عليه. ثم قال : مازالت الأعمام تخدُم أبناء الإخوة ، وتكون أتباعا لهم ؛ ألست ترى داود بن

على ، وعبد الله بن على ، وصالح بن على ، وسليمان بن على ، وعيسى بن على ، وإسماعيل ابن على ، وعبد الصمد بن على خدمُوا ابن أخيهم ـ وهو عبد الله السفّاح بن محمد بن على ـ وبايعوه وتابعوه ، وكانوا أمراء جيوشه وأنصاره وأعوانه ! ألستَ ترى حمزة والعباس اتّبعا ابن أخيهما صلوات الله عليه ، وأطاعاه ورضيا برياسته ، وصدّقا دعوته ! ألستَ تعلم أن أبا طالب كان رئيس بنى هاشم وشيخَهم ، والمطاع فيهم ، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمه ومكفوله ، وجاريا مجرى أحد أولاده عنده ، ثم خضع له ، واعترف بصدقه ، ودان لأمره ، حتى مدحه بالشعر كما يمدحُ الأدنى الأعلَى ، فقال فيه :

وَأَبيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بوجْهِهِ ثِمَالُ اليتامَى عصمةٌ للأراملِ (١)
يُطِيفُ به الهُلاَّكُ من آل هاشمٍ فهمْ عندَه فى نعمةٍ وفواضل

وإن سرًّا اختصَّ به محمّد صلى الله عليه وآله ، حتى أقام أبا طالب ـ وحاله معه حاله ـ مقام المادح له ، لسرٌّ عظيم وخاصيّة شريفة ، وإنّ فى هذا لِمُعْتَبِرٍ عِبْرَةً أن يكون هذا الإنسان الفقير الذى لا أنصارَ له ولا أعوان معه ، ولا يستطيع الدّفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يقهر غيره ، تعمل دعوته وأقواله فى الأنفس ما تعمله الخمر فى الأبدان المعتدلةِ المزاج ، حتى تطيعه أعمامُه ويعظّمه مربّيه وكافله ، ومَنْ هو إلى آخر عمره القيّم بنفقته ، وغذاء بدنه ، وكسوة جسده ، حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشُّعراء الملوك والرؤساء ! وهذا فى باب المعجزات عند المنصِف أعظمُ من انشقاق القمر ، وانقلاب العصا ، ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدّخرون فى بيوتهم .

ثم قال رحمه الله : كيف قلت : أظنّ أن جعفراً كان يبايعه ويتابعه ، ولا أظنّ فى حمزة ذلك ! إنْ كنت قلت ذلك لأنه أخوه ، فإنّه أعلى منه سنًّا ، هو أكبر من على بعشر

---

(١) ديوانه ١١٣ . ثمال اليتامى : عمادهم وملاذهم .
عصمة للأرامل : حافظ للمساكين .

سنين ، وقد كانت له خصائصُ ومناقب كثيرة ، وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله قولا شريفا اتفق عليه المحدّثون ، قال له لما افتخر هو وعليّ وزيد بن حارثة ، وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي » فحجل فرحا ، ثم قال لزيد : « أنت مولانا وصاحبنا » ، فحجل أيضا ، ثم قال لعليّ : « أنت أخي وخالصتي » ، قالوا : فلم يحجل ، قالوا : كأنّ ترادف التعظيم له وتكرّره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع ، وكان غيره إذا عُظِّم عُظِّم نادرا ، فيحسن موقعه عنده . واختلف الناس في أي المدحتين أعظم .

فقلت له : قد وقفتُ لأبي حيّان التوحيدي في كتاب " البصائر " على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه ، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب : سمعت قاضيَ القضاة أبا سعد بشر بن الحسين — وما رأيت رجلا أقوى منه في الجدل — في مناظرة جرت بينه وبين أبي عبد الله الطبريّ وقد جرى حديث جعفر بن أبي طالب ، وحديثُ إسلامه ، والتفاضل بينه وبين أخيه عليّ ، فقال القاضي أبو سعد : إذا أنعم النظر عُلِم أنّ إسلام جعفر كان بعد بلوغ ، وإسلامُ البالغ لا يكون إلا بعد استبصار وتبيّن ومعرفةٍ بقبح ما يخرج منه ، وحسن ما يدخل فيه ؛ وإنّ إسلام عليّ مختلف في حاله ، وذلك أنه قد ظنّ أنه كان عن تلقين لا تبيين إلى حين بلوغه ، وأبوان تعقّبه ونظره . وقد علم أيضاً أنهما قتلا ، وإن قِتْلة جعفر شهادة بالإجماع ، وقتلة عليّ فيها أشدّ الاختلاف . ثم خصّ الله جعفرا بأنْ قبضَه إلى الجنّة قبل ظهور التباين ، واضطراب الحبل ، وكثرة الهرْج ، وعلى أنّه لو انعقد الإجماع ، وتظاهرَ جميع الناس على أنّ القتلتين شهادة ، لكانت الحال في الذي رفع إليها جعفر أغلظ وأعظم ، وذلك أنه قتِل مقبلًا غيرَ مدبر ، وأمّا عليّ فإنه اغتيل اغتيالا ، وقصِد من حيث لا يعلم ؛ وشتّان ما بين مَنْ فوجئ بالموت وبين مَنْ عاين مخايل الموت !

وتلقاه بالنّحر والصدر ، وعجل إلى الله بالإيمان والصدق ! ألا تعلم أنّ جعفراً قطعت يمناه ، فأمسك اللواء بيسراه ، وقطعت يسراه ، فضمّ اللواء إلى حشاه ، ثم قاتله ظاهر الشرك بالله وقاتِل علىّ ممن صلّى إلى القبلة ، وشهد الشهادة ، وأقدم عليه بتأويل ، وقاتِل جعفر كافر بالنصّ الذى لاخلاف فيه ! أما تعلم أنّ جعفرا ذو الجناحين ، وذو الهجرتين إلى الحبشة والمدينة !

قال النقيب رحمه الله : اعلم — فِداك شيخك — أن أباحيّان رجلٌ ملحِدزنديق ، يحبّ التلاعب بالدّين ، ويخرِجُ مافى نفسه فيعزوه إلى قوم لم يقولوه . وأقسِم بالله أنّ القاضىَ أبا سعد لم يَقُلْ مِنْ هذا الكلام لفظة واحدة ، ولكنّها من موضوعات أبى حيان وأكاذيبه وترّهاته ؛ كما يسند إلى القاضى أبى حامد المرورّوذىّ كلّ منكَر ، ويروى عنه كلّ فاقرة .

ثم قال : ياأبا حيّان ! مقصودُك أن تجعلها مسألة خلاف تثير بهافتنةً بين الطالبيّين ، لتجعل بأسهم بينهم ! وكيف تقلّبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم !

ثم ضحك رحمهُ الله حتى استلقى ومدّ رجليه ، وقال : هذا كلام يُستغنى عن الإطالة فى إبطاله بإجماع المسلمين ، فإنّه لاخلافَ بين المسلمين فى أنّ عليا أفضلُ من جعفر ؛ وإنّما سرق أبو حيان هذا المعنى الذى أشار إليه من رسالة المنصور أبى جعفر إلى محمد بن عبد الله ، النفس الزكيّة ، قال له : وكانت بنو أميّة يلعنون أباك فى أدبار الصلوات المكتوبات ، كما تلعن الكفرة ، فعنّفناهم وكفّرناهم ، وبيّنّافضلهوأشدّنابذكره، فاتخذتَ ذلك علينا حجّة ، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أنا قدّمناه علَى حمزةوالعباسوجعفر ، أولئك مضوْا سالمين مسلمين منهم ، وابتلى أبوك بالدماء!

فقلت له رحمه الله : وإذاً لا إجماع فى المسألة ؛ لأنّ المنصور لم يقلْ بتفضيله عليهم ،

وأنت ادّعيت الإجماع ، فقال : إنّ الإجماع قد سبق هـذا القائل ، وكلّ قول قد سبقه الإجماع لا يعتدّ به .

فلمّا خرجت من عند النقيب أبى جعفر بحثتُ فى ذلك اليوم فى هذا الموضوع مع أحمد ابن جعفر الواسطىّ رحمه الله — وكان ذا فضل وعقل ، وكان إمامىّ المذهب — فقال لى : صدق النقيب فيما قال ! ألست تعلم أنّ أصحابكم المعتزلة على قولين : أحدهما أنّ أكثر المسلمين ثوابًا أبو بكر ، والآخر أنّ أكثرهم ثوابًا علىّ ، وأصحابنا يقولون : إنّ أكثرَ المسلمين ثوابًا علىّ ، وكذلك الزيدية . وأمّا الأشعريّة والكرّامية وأهل الحـديث ، فيقولون : أكثر المسلمين ثوابًا أبو بكر ، فقد خلَص من مجموع هذه الأقوال أنّ ثواب حمزة وجعفر دون ثواب علىّ عليه السلام ؛ أمّا علَى قول الإماميّة والزيديّة والبغداديين كافّة ، وكثير من البصريين من المعتزلة ، فالأمر ظاهر ، وأمّا الباقون فعندهم أنّ أكثرَ المسلمين ثوابًا أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علىّ ؛ ولم يذهب ذاهبٌ إلى أنّ ثواب حمزة وجعفر أكثرُ من ثواب علىّ من جميع الفِرَق . فقد ثبت الإجماع الذى ذكره النقيب ، إذا فسرنا الأفضليّة بالأكثرية ثوابًا ، وهو التفسير الذى يقع الحجاج والجـدال فى إثباته لأحـد الرجلين . وأمّا إذا فسرنا الأفضليّة بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالّة على التعظيم ، فمعلوم أنّ أحـدًا من النّاس لا يقارب عليا عليـه السلام فى ذلك ، لا جعفر ، ولا حمزة ولا غيرهما .

ثم وقع بيدى بعـد ذلك كتابٌ لشيخنا أبى جعفر الإسكافى ، ذكر فيه أنّ مذهب بِشْر بن المعتمِر ، وأبى موسى ، وجعفر بن مُبَشِّر ، وسائر قدماء البغداديّين أنّ أفضلَ المسلمين علىٌّ بن أبى طالب ، ثمّ ابنهُ الحسن ، ثم ابنهُ الحسين ، ثم حمزةُ بن عبد المطلب ، ثم جعفرُ بن أبى طالب ، ثم أبو بكر بن أبى قُحافة ، ثم عمرُ بن الخطاب ، ثم عثمان ابن عفّان .

قال : والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله ، وأكثرهم ثواباً ، وأرفعهم فى دار الجزاء منزلةً .

ثم وقفت بعد ذلك على كتابٍ لشيخنا أبى عبد الله البصرىّ يذكر فيه هذه المقالة ، وينسبها إلى البغداديين ، وقال : إنّ الشيخ أبا القاسم البلخىّ كان يقول بها ، وقبله الشيخ أبو الحسين الخياط ، وهو شيخ المتأخّرين من البغداديين ، قالوا كلّهم بها ، فأعجبنى هذا المذهب ، وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه ، ونظمته فى الأرجوزة التى شرحت فيها عقيدة المعتزلة ، فقلت :

وخير خلْق الله بعد المصطفَى ... أعظمهم يوم الفخار شَرَفا
السيّد المعظَّم الوصىّ ... بَعْلُ البتول المرتضَى علىّ
وابناه ثم حمزةٌ وجعفرُ ... ثم عتيق بعدهم لا ينكَرُ
المخلص الصدّيق ثم عمرُ ... فاروق دين الله ذاك القَسْوَرُ
وبعده عثمان ذو النُّورينِ ... هذا هوَ الحقّ بغير مَيْن

(٢١٣)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام :

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مالِ الْمُسلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي ، وَعَلَى بَيْعَتِي ؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَماعَتَهُمْ ، وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي فَقَتَلُوا طائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً ، وَطائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيافِهِمْ ، فَضارَبُوا بِها ، حَتَّى لَقُوا اللهَ صادِقِينَ .

* * *

الشَّرحُ :

عَضُّوا على أسيافهم ، كناية عن الصَّبْر فى الحرب وترك الاستسلام ، وهى كناية فصيحة ، شبّه قبضهم على السيوف بالعضّ ، وقد قدمنا ذكر ما جرى ، وأنّ عسكر الجمل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة بعد أن أمّنوهم غدرا ، وأنّ بعض الشيعة صبر فى الحرب ولم يستسلم ، وقاتل حتى قتل ، مثل حكيم بن جبلة العبدىّ وغيره . وروى : « وطائفةٌ عضّوا على أسيافهم » بالرفع ، تقديره : ومنهم طائفة .

قرأت فى كتاب " غريب الحديث " لأبى محمد عبد الله بن قتيبة فى حديث حُذَيفة بن اليمان ، أنّه ذكر خروج عائشة ، فقال : « تقاتل معها مُضَر ، مضّرها الله فى النار[1] » ،

(١) قال ابن الأثير فى شرحه للحديث : « أى جعلها فى النار ، فاشتق لذلك لفظاً من اسمها ؛ يقال : مضرنا فلانا فتمضر ؛ أى صيرناه كذلك ، أى نسبناه إليها . وقال الزمخشرى : مضرها : جمعها كما يقال : جند الجنود ، وقيل : مضرها : أهلكها ، من قولهم : ذهب دمه خضراً مضراً ، أى هدراً » . النهاية ٤ : ٩٨ .

وأَزد عُمان سلَت الله أقدامها [١] ، وإنّ قيساً لن تنفكّ تبغى دين الله شرًّا ، حتى يركبها الله بالملائكة ، فلا يمنعوا ذَنَب تَلْعة » [٢] .

قلت : هذا الحديث من أعلام نبوّة سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله ، لأنه إخبار عن غيب تلقّاه حُذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله ؛ وحُذَيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات فى الأيّام التى قتل عثمان فيها أتاه نعيُه وهو مريض ، فمات وعلىٌّ عليه السلام لم يتكامل بيعة الناس ، ولم يدرك الجمل .

وهذا الحديث يؤكّد مذهب أصحابنا فى فسق أصحاب الجمل ، إلّا مَنْ ثبتت توبتُه منهم ، وهم الثلاثة .

(١) سلت الله أقدامها : قطعها . النهاية ٢ : ١٧٤ .

(٢) التلاع : مسايل الماء ، من علو إلى سفل ، واحدها تلعة ، وذنب التلعة : أسفلها ؛ قال الزمخشرى : « أى يذلها الله حتى لا تقدر على أن تمنع ذنب تلعة . الفائق ٣ : ٣٢ .

(٢١٣)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما مرّ بطلحة بن عبيد الله وعبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً ! أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَتْنِي أَعْيَارُ بَنِي جُمَحٍ ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ !

***

الشّرحُ :

[عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد]

هو عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أميّة بن عبد شمس . ليس بصحابيّ ، ولكنه من التابعين، وأبوه عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أميّة بن عبد شمس ، من مُسلِمة الفتح ، ولما خرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من مكّة إلى حُنَين ، استعمله عليها ، فلم يزل أميرَها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبقي على حاله خلافة أبي بكر الصديق ، ومات هو وأبو بكر في يوم واحد ، لم يعلم أحدُهما بموت الآخر ، وعبد الرحمن هذا هو الّذي قال أمير المؤمنين فيه ، وقد مرّ به قتيلا يوم الجمل : لهفي عليك يعسوب قريش ! هذا فتى الفتيان ، هذا اللّباب المحض من بني عبد مناف ، شفيتُ نفسي ، وقتلت معشري ، إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي ! فقال له قائل : لَشدّ ما أطريتَ

الفتى ياأمير المؤمنين منذ اليوم ! قال : إنه قطع عنى وعنده نسوة لم يقص عنك وعبد الرحمن هذا هو الذى احتملت العُقاب كفه يوم الجمل وفيها خاتمه، فألقتها باليمامة فعرفت بخاتمه، وعلم أهل اليمامة بالوقعة .

***

ورأيت فى شرح " نهج البلاغة " للقطب الراوندى فى هذا الفصل عجائب وطرائف، فأحببت أن أوردها هاهنا . منها أنه قال فى تفسير قوله عليه السلام « أدركت وترى[1] من بنى عبد مناف » ، قال : يعنى طلحة والزبير ، كانا من بنى عبد مناف ، وهذا غلط قبيح، لأن طلحة من تيم بن مرة ، والزبير من أسد بن عبد العزى بن قصى ، وليس أحد منهما من بنى عبد مناف، وولد عبد مناف أربعة: هاشم ، وعبد شمس، ونوفل، وعبد المطلب، فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة ، فليس من ولد عبد مناف .

ومنها أنه قال : إن مروان بن الحكم ، من بنى جُمَح ،ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله بعيداً عن معرفة الأنساب ! مروان من بنى أمية بن عبد شمس ، وبنو جُمَح من بنى هُصَيص بن كعب بن لؤى بن غالب، واسم جُمَح تيم بن عمرو بن هُصيص ، وأخوه سهم بن عمرو بن هُصَيص رهط عمرو بن العاص ، فأين هؤلاء ، وأين مروان ابن الحكم !!

ومنها أنه قال : « وأفلتتنى أغيار بنى جُمح » بالغين المعجمة ، قال : هو جمع « غير » الذى بمعنى « سوى » ، وهذا لم يُرْوَ، ولا مثله مما يتكلم به أمير المؤمنين لركته وبعده عن طريقته، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول : «ولم يفلتنى إلا بنو جُمح » إلى مثل هذه العبارة الركيكة المتعسفة .

***

---

(١) الوتر : الذحل والثأر .

[بنو جُمَح]

واعلم أنّه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج الذمّ لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبيّ صلّى الله عليه وآله من بنى جُمَح ، فقال : « وأفلتتْنِي أعيارُ بنى جُمَح » ، جمع عَيْر وهو الحمار ، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا ، ولم يقتل منهم إلّا اثنان ، فممّن هرب ونجا بنفسه : عبد الله الطويل بن صفوان بن أميّة بن خلَف بن وهب بن حُذافة ابن جُمح ، وكان شريفا وابن شريف ، وعاش حتى قُتِل مع ابن الزبير بمكة .

ومنهم يحيى بن حكيم بن صَفْوان بن أميّة بن خلف ، عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكّة ، لما جمع له بين مكة والمدينة ، فأقام عمرو بالمدينة ، ويحيى بمكة .

ومنهم عامر بن مسعود بن أميّة بن خلف ، كان يسمّى دُحروجة الجُعَل ، لقصره وسواده ، وعاش حتى ولّاه زياد صَدَقاتِ بكْر بن وائل ، وولّاه عبد الله بن الزّبير بن العوّام الكوفة .

ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعةَ بن الأعور بن أُهَيب بن حُذافة بن جُمَح ، عاش حتى قتل بقُديد ، قتلته الخوارج .

فهؤلاء الذين أعرف حضورهم الجمل مع عائشة من بنى جُمَح ، وقتل من بنى جُمَح مع عائشة عبدالرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، وعبد الله ابن ربيعة بن دَرّاج العَنْبس بن وهبان بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، لا أعرف أنه قتِل من بنى جُمح ذلك اليوم غيرهما ، فإنْ صحّت الرواية : « وأفلتنى أعيان بنى جُمَح » ، بالنون ، فالمراد رؤساؤهم وساداتهم .

* * *

وأتلعوا أعناقهم : رفعوها ، ورجل أتْلَع : بيّن التَلع ، أى طويل العنق ، وجِيدٌ تليع أى طويل ، قال الأعشى :

يوم تُبْدِي لنا قُتَيلَةُ عَنْ جِيـ ـدٍ تَليعٍ تزينُهُ الأطواقُ (١)

ووُقِص الرّجل ، إذا اندقّت عنُقه ، فهو موقوص ، ووَقصتُ عنقَ الرّجل أقِصُها وَقصاً ، أى كسرتها ، ولا يجوز وقصت العنق نفسها .

والضمير فى قوله عليه السلام : « لقد أتلعوا » يرجع إلى قريش ،أى راموا الخلافة فقتِلوا دونها .

فإن قلت : أتقول إنّ طلحة والزبير لم يكونا من أهل الخلافة ؟ إن قلتَ ذلك تركت مذهبَ أصحابِك ، وإن لم تقله خالفت قول أمير المؤمنين « لم يكونوا أهله » !

قلت : هما أهلٌ للخلافة مالم يطلبها أميرُ المؤمنين ، فإذا طلبَها لم يكونا أهلاً لها ، لا هما ولا غيرهما ، ولولا طاعته لمن تقدّم وما ظهر من رضاه به لم نحكم بصحّة خلافته .

---

(٢) ديوانه ١٤٠ .

(٢١٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ؛ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ ، وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ ، وَأَرْضَى رَبَّهُ .

***

الشرح :

يصف العارفَ ، يقول : قد أحيا قلبه بمعرفة الحقّ سبحانه ، وأمات نفسه بالمجاهدة ورياضة القوّة البدنية بالجوع والعطش ، والسهر ، والصّبْر عَلَى مشاقّ السفر ، والسياحة .

حتى دقّ جليله ، أى حتى نَحَل بدنهُ الكثيف .

ولطف غليظُه ، تلطفت أخلاقه وصفتْ نفسه ، فإن كَدر النفس فى الأكثر إنّما يكون من كَدَر الجسد ، والبطنة — كما قيل — تذهب الفطنة .

***

[فصل فى مجاهدة النفوس وما ورد فى ذلك من الآثار]

وتقول أرباب هذه الطريقة : مَنْ لم يكن فى بدايته صاحبَ مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمّة .

وقال عثمان المغربى الصوفىّ : مَنْ ظَنّ أنه يُفتَحُ عليه شىء من هذه الطريقة ، أو يكشف له عن سرٍّ من أسرارها من غير لزوم المجاهدة ، فهو غالط .

وقال أبو على الدقّاق : مِنْ لم يكن فى بدايته قَوْمة ، لم يكن فى نهايته جِلْسة .

ومن كلامهم : الحركة بركة . حركاتُ الظّواهر ، توجب بركات السرائر .

ومن كلامهم : مَنْ زيّن ظاهرَه بالمجاهدة حسّن الله سرائرَه بالمشاهدة .

وقال الحسن القزازىّ : هذا الأمر على ثلاثة أشياء : ألّا تأكل إلّا عند الفاقة ، ولا تنام إلا عند الغَلبة ، ولا تتكلّم إلاّ عند الضرورة .

وقال إبراهيم بن أدْهَم : لن ينال الرّجل درجة الصّالحين حتى يغلق عن نفسه باب النّعمة ، ويفتحَ عليها باب الشّدّة .

ومن كلامهم : من كَرُمَتْ عليه نفسه ، هان عليه دينه .

وقال أبو على الرّوذْبارىّ : إذا قال الصوفىّ بعد خمسة أيام : أنا جائع ، فألزموه السوق ، ومُروه بالكسب .

وقال حبيب بن أوس أبو تمام ؛ وهو يقصد غيرَ ما نحن فيه ، ولكنه يصلح أن يستعمل فيما نحن فيه :

خُذِى عَبَرَاتِ عينكِ عن زِمَاعِى ... وصُونى ما أزلتِ من القِناع[1]
أقِلّى قد أضاقَ بُكاكِ ذَرْعى ... وما ضاقتْ بنازلةٍ ذِرَاعى
أآلِفَةَ النّحيبِ كم افتراقٍ ... أظلّ فكان داعيةَ اجتماعِ !

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٣٦ ، قال فى شرحه . يقول لها : نحى عن عزمى بكاءك . وزماع اسم من أزمعت ، وتقنعى بالقناع الذى ألقيته عن رأسك .

فليستْ فرحةُ الأوْباتِ إلّا لموقوفٍ على ترَحِ الوداعِ[١]
تعجّبُ أنْ رأت جسمِى نحيلاً كأنّ المجدَ يُدْرَكُ بالصِّراعِ[٢]
أخو النّكباتِ مَنْ يأوِى إذا ما أطافَ به إلى خُلُقٍ وساعِ[٣]
يثيرُ عجاجةً فى كلِّ فجّ يَهيمُ به عدِيُّ بن الرِّقاعِ[٤]
أبِنّ مع السباعِ الماءَ حتّى تَخَالُه السِّباعُ من السِّباعِ

وقال أيضاً :

فاطلُبْ هُدُوءاً بالتقلْقُلِ واستثِرْ بالعِيسِ مِنْ تحتِ السُّهادِ هُجُوداً[٥]
ما إنْ ترى الأحسابَ بيضاً وُضّحاً إلّا بحيثُ ترى المنايا سُوداً[٦]

وجاء فى الحديث أنّ فاطمة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بكِسْرة خُبْزٍ ، فقال : ما هذه ؟ قالت : قُرْص خبزته ، فلم تطِبْ نفسى حتى أتيتُك منه بهذه الكِسْرة ، فأكلها ، وقال : « أمَا إنّها لأوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث » .

وكان يقال : ينابيع الحِكْمة من الجوع ، وكسر عادية النفس بالمجاهدة .

---

(١) قال فى شرحه : « أى لمن يعرف ترح الوداع ، من قولهم : وقفت فلاناً على أمرى ، فهو موقوف عليه ، أى من لم يجد ألماً للفراق لم يجد فرحاً باللقاء » .

(٢) الديوان : « توجم أن رأت » .

(٣) رواية الديوان :

فتَى النّكباتِ من يأوِى إذا ما قطفن بهِ إلى خلقٍ وساعِ

وقال فى شرحه : « قطفن : من قولهم : دابة قطوف ، ويروى : « أطفن به » . ويروى : « أضفن به » يقول : هو صاحب النكبات والشدائد يرتكبها ، ويأوى إلى خلق واسع ؛ إذا ضيقن من مذاهبه وأحطن به » .

(٤) فى الديوان : « فى كل ثغر » .

(٥) ديوانه ١ : ٤١٦ ، ٤٢٢ ، قال فى شرحه : « أى اطلب بالحركة فى الأسفار سكوناً ودعة فيما بعد ، وبالأرق نوماً . وقوله : « بالعيس » أى بركوب العيس . ومن تحت السهاد ؛ أى من تحت الصبر على السهاد .

(٦) أى من لم يصبر فى معركة الأبطال لم يذكر .

وقال يحيى بن مُعاذ : لو أنّ الجوعَ يُباع في السوق لما كان ينبغي لطلّاب الآخرة إذا دخلوا السُّوق أن يشتروا غيره .

وقال سهل بن عبدالله : لمّا خَلق الله الدّنيا جعل في الشِّبَع المعصيةَ والجهل ، وجعلَ في الجوع الطاعة والحكمة .

وقال يحيى بن مُعاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزّهّاد سياسة ، وللعارفين تكرِمة .

وقال أبو سليمان الدّارانيّ : مفتاح الدّنيا الشِّبَع ، ومفتاح الآخرة الجوع .

وقال بعضهم : أدب الجوع ألّا ينقصَ من عادتك إلا مثل أذن السِّنّور ، هكذا على التدريج ، حتّى تصل إلى ما تريد .

ويقال : إنّ أبا تُراب النّخشبيّ خرج من البصرة إلى مكّة ، فوصل إليها على أكلتين : أكلةٍ بالنِّبَاج ، وأكلةٍ بذات عِرْق .

قالوا : وكان سهل بن عبدالله التُّسْتَريّ إذا جاع قوِيَ ، وإذا أكل ضعف .

وكان منهم مَنْ يأكلُ كلّ أربعين يوماً أكْلة واحدة ، ومنهم مَنْ يأكل كلّ ثمانين يوماً أكْلة واحدة .

قالوا : واشتهى أبو الخير العسقلانيّ السمك سنين كثيرة ، ثم تهيأ له أكلُه من وجهٍ حلال ، فلما مدّ يدَه ليأكل أصابت أصبعه شوْكة من شوْك السمك ، فقام وترك الأكل، وقال : يارِبِّ، هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى الحلال ، فكيف بمن مدّ يدَه بشهوة إلى الحرام !

وفي الكتاب العزيز : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (١) ، فالجملة الأولى هي التقوى ، والثانية هي المجاهدة .

---

(١) سورة النازعات ٤٠ ، ٤١ .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « أخوَفُ ماأخاف على أمّتى اتّباع الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأمّا طول الأمل فيُنسِى الآخرة » .

وسئل بعضُ الصوفيّة عن المجاهدة ، فقال : ذَبْح النّفس بسُيوف المخالفة .

وقال : منْ نجمَتْ طوارقُ نفسِه ، أفلتْ شَوارق أنسه .

وقال إبراهيم بن شيبان : مابتّ تحت سقفٍ ولا فى موضع عليه غَلَق[1] أربعين سنة. وكنت أشتهى فى أوقاتٍ أن أتناول شُبْعَةَ[2] عدس فلم يتفق ، ثم حُملتْ إلىّ وأنابالشّام غَضَارة[3] فيها عدسيّة ،فتناولت منها وخرجت، فرأيت قوارير معلّقة فيهاشبه أنموذجات، فظننتها خَلًّا ، فقال بعض الناس : أتنظر إلى هـذه وتظنّها خَلًّا ! وإنّما هى خمر ، وهى أنموذجات هذه الدنان ــلدنان هناك ــ فقلت : قد لزِمَنى فرضُ الإنــكار،فدخلت حانوت ذلك الخمّار لأكسِرَ الدّنان والجرار ، فحُمِلتُ إلى ابن طُولون ، فأمر بضربى مائتى خَشَبة ، وطرحِى[4] فى السِّجْن ، فبقيت مدّة ، حتى دخل أبو عبد الله الوبانى المغربىّ أستاذ ذلك البلد ، فعلم أنّى محبوس ، فشفع فىّ ، فأخرِجت إليـه ، فلمّا وقع بصرُه علىّ قال : أىّ شىء فعلت ؟ فقلت : شُبعة عـدس ومائتى خشبـة ، فقـال : لقـد نجوتَ مجّانًا .

وقال إبراهيم الخوّاص : كنتُ فى جبلٍ ، فرأيت رُمّانًا فاشتهيته ، فدنوت فأخذت منه واحدةً ، فشققتها فوجدتها حامِضَةً ،فمضيت وتركت الرمّان ، فرأيت رجلاً مطروحا قد اجتمع عليه الزّنابير ، فسلّمت عليه ، فردّ علىّ باسمى ، فقلت : كيف عرفتَنِى ؟ قال : مَنْ عرَف الله لم يَخْفَ عليه شىء ، فقلت له : أرى لك حالًا مع الله ، فلو سألته أن يحميَك ويقيَك من أذى هـذه الزّنابير ! فقال : وأرَى لك حالًا مع الله ، فلو سألته أن يقيَك من شهوة الرّمّان ، فإنّ لذع الرّمان يجـد الإنسـان ألمه فى الآخرة ، ولذع الزنابير

(١) الغلق هنا : الباب .

(٢) الشبعة من الطعام : قدر ما يشبع به .

(٣) الغضارة : القصعة الكبيرة .

(٤) كذا فى ا ، وفى ب : وطرحنى » .

يجد الإنسان ألمه فى الدنيا ، فتركته ومضيت على وجهى .

وقال يوسف بن أسباط : لايمحو الشَّهَوات من القلب إلّا خوفٌ مزعج ، أوشَوْق مقلِق .

وقال الخوّاص : مَنْ ترك شهوة فلم يجد عِوَضها فى قلْبِهِ فهو كاذب فى تركها .

وقال أبو علىّ الرّباطىّ : صحبت عبد الله المروزىّ ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد ؛ فلما صحبتُه قال لى : أيُّما أحبُّ إليك ؟ تكون أنتَ الأمير ، أم أنا ؟ قلت : بل أنت ، فقال : وعليك الطاعة ؟ قلت : نعم ، فأخذ مِخْلَاةً ووضع فيها زادا ، وحملها على ظهره ، فكنت إذا قلت له : أعطنى حتى أحملها ، قال : الأمير أنا ، وعليك الطاعة، قال : فأخذَنا المطرُ ليلة ، فوقف إلى الصّباح على رأسى ، وعليه كساء يمنع عنّى المطر ، فكنت أقول فى نفسى : ياليتنى متّ ولم أقل له : أنت الأمير ! ثم قال لى : إذا صحبت إنسانا فاصحبه كما رأيتَنى صحبتك .

أبو الطيّب المتنبّى :

ذرِينِى أنلْ مالا يُنَال من العُــلَا ... فصعبُ العُلَا فى الصَّعْبِ والسَّهلُ فى السهلِ (١)

تريدينَ إدراكَ المعالى رخيصــةً ... ولا بُدّ دونَ الشَّهْدِ من إبَرِ النَّحــلِ (٢)

وله أيضا :

وإذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً ... تعبتْ فى مُرادِها الأجسـامُ (٣)

ومن أمثال العامة : مَنْ لم يَغْلِ دماغُه فى الصّيف لم تَغْلِ قِدْرُه فى الشتاء .

مَنْ لم يركَب الأخطَار ، لم ينل الأوطار .

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٩٠ .

(٢) فى الديوان : « تريدين لقيان المعالى » .

(٣) ديوانه ٣ : ٣٤٥ .

إدراك السُّول وبُلوغ المأمول ، بالصبرِ على الجوع ، وفقدِ الهُجوع ، وسَيَلانِ الدموع

* * *

واعلم أنّ تقليلَ المأكول لاريب فى أنّه نافعٌ للنفس والأخلاق ، والتّجْربة قد دلّتْ عليه ، لأنّا نرى المكثِرَ من الأكل يغلبه النّومُ والكَسل وبلادة الحواسّ وتتبخّر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة ، فتتصاعد إلى الدّماغ فتفسد القوَى النّفسانية . وأيضا فإنّ كثرَة المأكل تُزِيل الرِّقّة ، وتورث القَساوة والسَّبُعية ، والقياس أيضا يقتضى ذلكَ ؛ لأنّ كثرة المأكولات ، سببٌ لحصولِ المَلكات ، فالنّفس إذا توفّرت على تدبير الغِذَاء وتصريفه ، كان ذلك شغلا شاغلا لها ، وعائقا عظيما عن انصبابها إلى الجهة الرُّوحانية العالية ، ولكن ينبغى أن يكون تقليل الغذاء إلى حَدّ يوجب جوعاً قليلا ، فإنّ الجوع المفرِط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها ، واختلال قُواها ، وذلك يقتضى تشويشَ النّفْس واضطراب الفكر ، واختلال العقل ، ولذلك تعرض الأخلاط السَّوْداوِية لمن أفرط عليه الجوع ، فإذَنْ لابدّ من إصلاح أمر الغذاء ، بأن يكون قليلَ الكَمّيّة ، كثير الكيفيّة ، فتؤثِّر قلة كميّته فى أنّه لايشغل النفس بتدبير الهضْم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية ، وتؤثّر كثرة كيفيته فى تدارُك الخلل الحاصل له من قلّة الكمية ، ويجب أن يكون الغِذاء شديدَ الإمداد للأعضاء الرئيسَة ، لأنها هى المهمّة من أعضاء البَدَن وما دامت باقيةً على كال حالها لا يظهر كثير خللٍ من ضعف غيرها من الأعضاء .

* * *

[فصل فى الرياضة النفسية وأقسامها]

واعلم أنّ الرّياضة والجوع هى أمرٌ يحتاج إليه المريد الذى هو بعدُ فى طريق السّلوك إلى الله .

وينقسم طالبُو هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة :

أحدها : الّذين مارَسُوا العلومَ الإلٰهيّة، وأجهدُوا أنفسَهم فى طلبها والوصول إلى كنهها، بالنّظر الدقيق ، فى الزمان الطويل ، فهولا يحصُلُ لهم شوق شديد ، وميلٌ عظيم إلى الجهة العالية الشريفة ، فيحملهم حبُّ الكمال عَلَى الرّياضة .

وثانيها : الأنفُس التى هى بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الرُّوحانيّة من غير ممارسة عِلْم ولا دربة بنظر وبحث ، وقد رأينا مثلَهم كثيرا ، وشاهدنا قوماً من العامّة متى سَنَح لهم سانح مشوق ، مثل صوت مطرب ، أو إنشاد بيت يقع فى النفس ، أو سماع كلمةٍ توافق أمراً فى بواطنهم ، فإنّه يستولِى عليهم الوجْد ، ويشتدّ الحنين ، وتغشاهم غواشٍ لطيفة روحانيّة ، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيات .

وثالثها : نفوس حَصَل لها الأمْران معاً : الاستعدادُ الأصليّ ، والاشتغال بالعلوم النظريّة الإلهيّة .

ورابعها : النفوس التى لا استعداد لها فى الأصْل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهيّة ، ولكنهم [1] قومٌ سمعوا كمالَ هذه الطريقة ، وأنّ السعادَة الإنسانيّة ليستْ إلّا بالوصول إليها، فمالت نحوها ، وحصل لها اعتقاد فيها .

فهذه أقسام المريدين ؛ والرياضة التى تليقُ بكلّ واحدٍ من هذه لأقسام غير الرياضة اللائقة بالقسم الآخر .

---

(١) ا : « وكان » .

ونحتاج قبل الخوض فى ذلك إلى تقديم أمرين :

أحدهما : أنّ النفحات الإلهية دائمة مستمرّة ، وأنه كل مَنْ توصّل إليها وصل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1] وقال النبىّ صلىّ الله عليه وآله : « إنّ لربّكم فى أيّام عصركم نفحات ، ألا فتعرّضوا لنفحاته » .

وثانيهما : أنّ النفوسَ البشريّة فى الأكثر مختلفةٌ بالنّوع ، فقد تكون بعض النفوس مستعدّة غاية الاستعداد لهذا المطلب ، وربّما لم تكن البتّة مستعدّة له ، وبين هذين الطرَفين أوساط مختلفة بالضّعف والقوّة .

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ القسمين الأوّلين أمّا اختلافا فيما ذكرناه لاجرم ، اختلافى الكسب والمكتسب .

أمّا الكسب فإنّ صاحب العِلْم الأولَى به فى الأكثر العُزلة والانقطاع عن الخلْق ، لأنه قد حصلت له الهداية والرّشاد ، فلا حاجة له إلى مخالطة أحدٍ يستعين به على حصول ماهو حاصل . وأمّا صاحبُ الفِطْرة الأصليّة من غير عِلْم فإنّه لا يليقُ به العُزْلة ، لأنه يحتاج إلى المعلّم والمرشِد ، فإنه ليس يكفى الفطرة الأصليّة فى الوصول إلى المَعَالم الإلٰهية والحقائق الربّانية ، ولا بدّ من موقف ومرشد فى مبدأ الحال ، هذا هو القول فى الكسب بالنظر إليهما .

وأمّا المكتَسب ، فإنّ صاحب العلم إذا اشتغل بالرّياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كمّيةً ، وأقل كيفية ممّا لصاحب الفطرة المجردة ، أما كثرة الكمية ، فلأنّ قوّته النظريّة تُعينه على ذلك ، وأمّا قلّة الكيفية ، فلأنّ القوّة النفسانية تتوزّع على تلك الكثرة ؛ وكلّما كانت الكثرة أكثر ؛ كان توزّع القوّة إلى أقسامٍ أكثر ، وكان كلّ واحدٍ منها

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

أضعف مما لو كانت الأقسامُ أقلَّ عددا ، وإذا عرفتَ ذلك عرفت أنّ الأمر فى جانب صاحب الفِطْرة الأصليّة بالعكس من ذلك ، وهو أنّ مشاهداته ومكاشفاته تكون أقلّ كميّة ، وأكثرَ كيفية .

وأمّا الاستعداد الثّالث ، وهو النفس الّتى قد جمعت الفِطْرة الأصليّة والعلوم الإلٰهيّة النظريّة بالنظر ، فهى النفس الشريفة الجليلة الكاملة .

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة فى أنّ رياضتَها القلبية يجب أن تكون زائدة فى الكمّ والكيْف على رياضتها البدنيّة ، لأن الغرض الأصلىّ هو رياضةُ القلب وطهارة النفس ، وإنّما شرعت الرياضات البدنّية ، والعبادات الجسمانية ، لتكون طريقا إلى تلك الرياضة الباطنة ، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرّياضة البدنية عبثًا ؛ لأنّ الوسيلة بعد حصول المتوسَّل إليه فضلةٌ مستغنًى عنها ، بل ربّما كانت عائقة عن المقصود . نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصّة ، لئلّا تعتاد النّفْسُ الكسل ، وربما أفضى ذلك إلى خَلَلٍ فى الرياضة النفسانيّة ؛ ولهذا حُكى عن كثير من كُبراء القوم قلّة الاشتغال بنوافل العبادات .

وأما القسم الرابع ، وهو النفس التى خلت عن الوصْفَيْن معا ؛ فهذه النفْس يجب ألا تكون رياضتها فى مبدأ الحال إلّا بتهذيب الأخلاق بما هو مذكور فى كُتب الحكمة الخلقية ، فإذا لانت ومَرَنت واستعدّت للنفحاتِ الإلٰهيّة حصل لها ذوق ما ، فأوجب ذلك الذّوْق شوقًا ، فأقبلت بكلّيتها على مطلوبها .

* * *

[فصل فى أنّ الجوع يؤثر فى صفاء النفس]

واعلم أنّ السّبب الطبيعى فى كون الجوع مؤثرا فى صفاء النفس ، أنّ البلغم الغالبَ على مزاج البدن يوجب بطبعه البلادة ، وإبطاء الفَهْم لكثرة الأرضيّة فيه ، وثقلِ جوهره ، وكثرة مايتولّد عنه من البخارات التى تسدّ المجارى ، وتمنع نفوذ الأرواح ، ولا ريبَ أن الجوع يقتضى تقليل البلغم ، لأنّ القوّة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه ، عمِلَتْ فى الرطوبة الغريبة الكائنة فى الجَسَد ، فكلّما انقطع الغذاء استمرّ عملها فى البلغم الموجود فى البدن ، فلا تزال تعمل فيه وتُذيبه الحرارة الكائنة فى البدن ، حتى يفنى كلُّ ما فى البدن من الرطوبات الغريبة ، ولا يبقى إلّا الرطوبات الأصليّة ، فإن استمرّ انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوّة الهاضمة فى تنقيص الرطوبات الأصليّة من جوهر البدن؛ فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدّ ليس بمفرط ، لم يضرّ ذلك بالبدن كلّ الإضرار ، وكان ذلك هو غايةَ الرّياضة التى أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله: « حتى دقّ جليلُهُ ولطفَ غليظه » ، وإن أفرطَ وقع الحيْف والإجحاف على الرطوبة الأصليّة، وعطِب البدن ووقع صاحبه فى الدّقّ والذبول ، وذلك منهىٌّ عنه ؛ لأنّه قتل للنفس ، فهو كمن يقتل نفسَه بالسّيف أو بالسّكين .

* * *

[كلام للفلاسفة والحكماء فى المكاشفات الناشئة عن الرياضة]

واعلم أن قوله عليه السلام : « وبرق له لامعٌ كثير البرق » ، هو حقيقة مذهبِ الحكماء ، وحقيقة قول الصوفيّة أصحاب الطريقة والحقيقة ؛ وقد صرّح به الرئيس أبو علىّ ابن سينا فى كتاب " الإشارات " فقال فى ذكر السالك إلى مرتبة العرفان : ثم إنّه

إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدًّا ما عَنَّتْ له خُلْسات من اطّلاع نور الحق إليه لذيذة كأنها بروقٌ تُومِضُ إليه ثم تخمَد عنه ، وهى التى تسمّى عندهم أوقاتا ، وكلّ وقتٍ يكتنفه وجْدٌ إليه ، ووجد عليه . ثمّ إنّه لتكثر عليه هذه الغواشى إذا أمعَن فى الارتياض ، ثمّ إنّه ليتوغّل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض ، فكلّما لَمح شيئًا عاج منه إلى جانب القدْس ، فتذكّر من أمره أمرًا فغشِيَهُ غاشٍ ، فيكاد يرى الحقّ فى كلّ شىء ؛ ولعلّه إلى هذا الحدّ تستولى عليه غواشِيه ، ويزول هو عن سكينته ، ويتنبّه جليسه لاستنفاره عن قراره ، فإذا طالت عليه الرّياضة لم تستنفره غاشية؛ وهُدِىَ للتأنّس بما هو فيه. ثم إنّه لتبلغ به الرياضة مبلغًا ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوبُ مألوفا ، والوميض شِهابا بيّنا، ويحصل له معارف مستقرّة ؛ كأنّها صحبة مستمرّة ؛ ويستمتع فيها ببهجته ، فإذا انقلب عنها انقلب حيران آسفا .

فهذه ألفاظ الحكيم أبى على بن سينا فى "الإشارات" ، وهى كما تراها مصرّح فيها بذكر البُرُوق اللامعة للعارف .

وقال القشيرىّ فى الرّسالة لمّا ذكر الحال والأمور الواردة على العارفين ، قال : هى بروق تلمع ثم تخمد ، وأنوار تبدو ثم تخفى ، ماأحلاها لو بقيت مع صاحبها ! ثم تمثّل بقول البحترىّ[1] :

خَطَرَتْ فِي النَّوْمِ مِنْهَا خطرةٌ ... خطرة البرق بدَا ثم اضمحلّْ
أىّ زَوْرٍ لك لو قَصْداً سَرَى ... وملمٍّ بك لو حقا فَعَلْ !

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حَسْبما ذكره الحكيم ، وكلاهما يتّبع ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه حكيم الحكماء، وعارف العارفين ، ومعلّم الصوفيّة ، ولولا أخلاقه

---

(١) ديوانه ٢ : ١٨١ .

وكلامه وتعليمهُ للناس هذا الفن تارةً بقوله ، وتارة بفعله ، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة ، ولا عِلم كيف يُورد ، ولا كيف يصدِر .

وقال القشيرىّ أيضا فى الرسالة : المحاضرة قبل المكاشفة ؛ فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة .

وقال : وهى أرفع الدرجات . قال : فالمحاضرة حضُور القلب ، وقد تكون بتواتر البرهان ، والإنسان بعد وراء الستر ، وإن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر .

وأما المكاشفة فهى حضور البيّن غير مفتقر إلى تأمّل الدليل ، وتطلّب السبيل، ثمّ المشاهدة ، وهى وجود الحق من غير بقاء تهمة .

وأحسن ما ذكر فى المشاهدة قول الُجنيد : هى وجود الحق مع فقدانك .

وقال عمرو بن عثمان المكىّ : المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلّى على القلب من غير أن يتخلّلها ستر ولا انقطاع ، كما لو قدّر اتّصال البروق فى الليلة المظلمة ؛ فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام له التجلّى مع النهار فلا ليل .

وأنشدوا شعرا :

لَيْـلِى بوجهكَ مُشرقٌ ‌ ‌ ‌ ‌ وظلامُهُ فى الناس سارِ
فالناس فى سَدَفِ الظّلا ‌ ‌ ‌ ‌ م ونحن فى ضوء النهـار

وقال الثورىّ : لا تصحّ للعبد المشاهدة وقد بقى له عِرْق قائم .

وقالوا : إذا طلع الصباح ، استغنى عن المصباح .

وأنشدوا أيضا :

فلما استنار الصبْح طوّح ضوءه ‌ ‌ ‌ ‌ بأنوارِه أنوارَ ضوءِ الكواكب

فجرعهم كأسا لو ابتليت لظى   بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

كأس وأي كأس، تصطلمهم عنهم، وتفنيهم وتخطفهم منهم ولا تبقيهم، كأس لا تبقى ولا تذر، تمحو بالكلية، ولا تبقى شظية من آثار البشرية، كما قال قائلهم:

* ساروا فلم يبق لا عين ولا أثر (١)

وقال القشيري أيضا: هي ثلاث مراتب: اللوائح، ثم اللوامع، ثم الطوالع. فاللوائح كالبروق؛ ما ظهرت حتى استترت، كما قال القائل:

فافترقنا حولا فلما التقينا   كان تسليمه على وداعا

وأنشدوا:

ياذا الذي زار وما زارا   كأنه مقتبس نارا
مر بباب الدار مستعجلا   ماضره لو دخل الدارا!

ثم اللوامع، وهي أظهر من اللوائح؛ وليس زوالها بتلك السرعة؛ فقد تبقى وقتين وثلاثة، ولكن كما قيل:

* العين باكية لم تشبع النظرا *

أو كما قالوا:

وبلائي من مشهد ومغيب   وحبيب مني بعيد قريب
لم ترد ماء وجهه العين حتى   شرقت قبل ريها برقيب

فأصحاب هذا المقام بين روح وفوح؛ لأنهم بين كشف وستر يلمع ثم يقطع، لا يستقر لهم نور النهار؛ حتى تكر عليه عساكر الليل، فهم كما قيل:

والليل يشملنا بفاضل برده   والصبح يلحفنا رداء مذهبا

ثم الطوالع؛ وهي أبقى وقتا، وأقوى سلطانا، وأدوم مكثا، وأذهب للظلمة، وأنفى للتهمة (٢).

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٣ .
(٢) الرسالة القشيرية ٤٣ ، ٤٤ .

أفلا ترى كلام القوم كلّه مشحون بالبروق واللمعان !

وكان مما نقم حامد بن العباس وزير المقتدر وعليّ بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على الحلاج أنهما وجدا فى كتبه لفظ « النور الشعشعانىّ » ، وذلك لجهالتهمـا مراد القوم واصطلاحهم ، ومَنْ جهل أمرا عاداه .

* * *

ثم قال عليه السلام : « وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة » أى لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه ، حتّى وصل ، وتلك المقامات معروفة عند أهلها ، ومَنْ له أنس بها ، وسنذكرها فيما بعد .

ثم قال : « وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه فى قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه » ، أى كانت الراحة الكلّية والسعادة الأبديّة مستثمرة من ذلك التعب الذى تحمّله لما استعمل قلبه ، وراض جوارحه ونفسه ، حتى وصل ، كما قيل :

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى ... وَتَنْجَلِي عَنَّا غَيَابَاتُ الكَرَى (١)

وقال الشاعر :

تقولُ سُلَيْمَى لَوْ أقمتَ بأرْضنا ... وَلَمْ تدرِ أنّى للمقام أطوّفُ

وقال آخر :

ما ابيضّ وجهُ المرء فى طلب العُلَا ... حتّى يسوّدَ وجهُهُ فى البيدِ

وقال :

فاطلب هُدُوءًا بالتقلقل واستثر ... بالعِيسِ من تحت السهاد هجودًا (٢)

ما إن ترى الأحسابَ بيضًا وُضّحًا ... إلا بحيث ترى المنـايا سودا

---

(١) مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ؛ وأول من قاله خالد بن الوليد فى أبيات ذكرها الميدانى عند الكلام على مضرب المثل ومورده : (٢ : ٢) .

(٢) لأبى تمام ، ديوانه ١ : ٤١٦ .

(٢١٥)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد:

وَاللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ، وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَمْدُودٍ لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ. فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ، لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ! وَأَمْحَى الظُّلَمَ، لِتَذَاكِيرِ الْهِمَمِ!

* * *

الشرح:

مستأديكم شكره، أى طالبٌ منكم أداء ذلك والقيام به، استأديت دَيْنى عند فلان، أى طلبته.

وقوله: «ومورّثكم أمره»، أى سيرجع أمر الدولة إليكم، ويزول أمر بنى أميّة.

ثم شبّه الآجال التى ضُرِبَتْ للمكلّفين ليقوموا فيها بالواجبات، ويتسابقوا فيها إلى الخيرات، بالمضمار الممدود لخيل تتنازع فيه السبق.

ثم قال: «فشدّوا عُقَد المآزر»، أى شمّروا عن ساق الاجتهاد. ويقال لمن يوصَى بالجدّ والتشمير: اشدد عُقْدة إزارك، لأنّه إذا شدّها كان أبعَد عن العثار، وأسرع للمشى.

قوله: «واطووا فُضُول الخواصر»، نهى عن كثرة الأكل، لأنّ الكثير الأكل لا يطوى فضول خواصره لامتلائها، والقليل الأكل يأكل فى بعضها ويطوى بعضها، قال الشاعر:

كلُوا في بعض بطنِكُمُ وعفُّوا فإن زمانكمْ زَمنٌ خميصُ

وقال أعشى باهلة :

طاوِى المَصِير على العزّاء مُنصَلتٌ بالقوم ليلة لا ماء ولا شَجَر[1]

وقال الشنفَرى :

وأطوِى على الخُمص الحوايا كما انطوتْ خُيوطَة مارىّ تُغار وتفتَل[2]

***

ثم أتى عليه السلام بثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها ، وإن كان قد سبق بمعناها ، وهى قوله: « لا تجتمع عزيمة ووليمة ». وقوله : « ما أنقض النوم لعزْم اليوم ! » . وقوله : « وأمحى الظلم لتذاكير الهمم ! » .

فما جاء للمحدثين من ذلك ما كتبه بعض الكتاب إلى ولده :

خِدْمَةُ السُّلطان والكا سات فى أيدى الملاح

ليس يلتامان فاطلب رفعةً أو شرب راح

ومثله قول آخر لولده :

ما للمطيعِ هواهُ من الملامِ ملاذُ

فاختر لنفسك هَذَا مَجْدٌ ، وهذا التِذاذُ

وقال آخر :

وَلَيْسَ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ رَاحَ واغتَدَى لشربِ صَبُوحٍ أو لشربِ غَبُوقِ

ولكن فتَى الفِتيان مَنْ راحَ واغتدَى لضرّ عدوٍ أو لنفعِ صديقِ

---

(١) الكامل للمبرد ٤ : ٦٥ ، قال فى شرحه : « طاوى المصير » يقال لواحد المصران مصير ، والعزاء : الأمر الشديد ، يقال : سيف منصلت وصلت ؛ إذا جرد من غمده .

(٢) من لاميته ؛ وهى فى نوادر القالى ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

وهذا كثير جدا يناسب قوله : « لا تجتمع عزيمة ووليمة » .

ومثل قوله : « ما أنقضَ النوم لعزائم اليوم » قولُ الشاعر :

فتًى لا ينامُ على عزمِهِ ومَن صمَّمَ العزم لم يرقدِ

وقوله : «وأمحى الظّلم لتذاكير الهمم» ، أى الظلم التى ينام فيها ، لا كل الظلم ، ألا ترى أنه إذا لم ينم فى الظلمة بل كان عنده من شدّة العزم وقوة التصميم مالا ينام معه ، فإن الظلمة لا تمحو تذاكير همه . والتذاكير : جمع تَذْكار .

والمثلان الأوّلان أحسن من الثالث ، وكأن الثالث من تتمة الثانى .

وقد قالت العرب فى الجاهلية هذا المعنى ، وجاء فى القرآن العزيز: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١) .

وهذا مثل قوله : « لا تجتمع عزيمة ووليمة » ، أى لا يجتمع لكم دخول الجنة والدّعة، والقعود عن مشقّة الحرب .

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

(٢١٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

يالَهُ مَرَاماً ماأَبْعَدَهُ ! وَزَوْراً ما أَغْفَلَهُ ! وَخَطَراً ماأَفْظَعَهُ ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ ،وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيد.

أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ !

* * *

الشّـرح :

قد اختلف المفسرون فى تأويل هاتين الآيتين، فقال قوم : المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم فى التكاثر بالأموال والأولاد ، حتى أتاكم الموت ، فكنَى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر .

وقال قوم : بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم ، وتعدّى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات ، فقالوا : منّا فلان وفلان ـ لقوم كانوا وانقرضوا .

وهذا هو التفسير الذى يدلّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « ياله مراماً ! » ، منصوب على التمييز .

ما أبعده ! أى لافخر فى ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد ؛ وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته .

وزورًا ما أغفله ! إشارة إلى القوم الذين افتخروا ؛ جعلهم بتذكّر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم . والزّوْر : اسم الواحد والجمع ، كالخصْم والضّيْف . قال : ما أغفلهم عمّا يراد منهم ! لأنهم تركوا العبادة والطاعة ، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى .

ثم قال: «وخطرًا ما أفظعه!» إشارة إلى الموت أى: ماأشدّه افَظُع الشيء بالضم، فهو فظيع، أى شديد شنيع مجاوز للمقدار .

قوله : « لقد استخْلَوْا منهم أىّ مدكر » ؛ قال الراونديّ : أى وجدوا موضع التذكّر خاليا من الفائدة ، وهذا غير صحيح ، وكيف يقول ذلك وقد قال : « وخطرا ماأفظعه !» وهل يكون أمر أعظم تذكيرا من الاعتبار بالموتى ! والصحيح أنه أراد بـ«استخلَوْا» ذكر من خلا من آبائهم ؛ أى مَنْ مضى ، يقال: هذا الأمر من الأمور الخالية ، وهذا القرن من القرون الخالية ، أى الماضية .

واستخلى فلان فى حديثه ؛ أى حدّث عن أمور خالية ، والمعنى أنّه استعظم مايوجبه حديثُهم عمّا خلا وعمّن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير ، فقال : أىّ مدّكر[1] وواعظ فى ذلك ! وروى أىّ مذكَّر بمعنى المصدر ، كالمعتقد بمعنى الاعتقاد ، والمعتبر بمعنى الاعتبار .

« وتناوشوهم من مكان بعيد» أى تناولوهم، والمراد ذكروهم وتحدثوا عنهم ؛ فكأنهم تناولوهم، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[2] ؛ وأنّى لهم تناولُ الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر !

* * *

(١) ا : « تذكر » ، وما أثبته من ب .

(٢) سورة سبأ ٥٢ .

الأَصْـلُ :

يَرْتَجِعُونَ[١] مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ . وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَرًا ، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً ؛ وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ .

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ .

وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَقَالَتْ : ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً ، تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا ، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا ؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ .

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكاً وَسُوَقاً .

* * *

الشَّـرح :

« يرتجعون منهم أجسادا » ، أى يذكرون آباءهم ، فكأنّهم ردّوهم إلى الدنيا ، وارتجعوهم من القبور . وخَوَتْ : خلت .

قال : وهؤلاء الموتى أحقُّ بأن يكونوا عبرة وعظةً من أن يكونوا فخرا وشرفا ، والمفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلّة منهم بالقيام مقام العزّ .

وتقول : هذا أَحْجَى من فلان ، أى أَوْلَى وأجدر . والجناب : الفِناء .

---

(١) ب : « يرتجعون » .

ثم قال : « لقد نظروا إليهم بأبصار العَشْوة » ، أى لم ينظروا النّظر المفضىَ إلى الرؤية ؛ لأنّ أبصارَهم ذات عَشْوة ، وهو مرض فى العين ينقص به الإبصار ، وفى عين فلان عَشاَا وعَشْوة بمعنًى ، ومنه قيل لكلّ أمرٍ ملتبس يركبه الرّاكب على غير بيان أمر عَشْوة ، ومنه أوطأتنى عُشْوة ، ويجوز بالضّم والفَتح .

قال : « وضربوا بهم فى غَمْرة جهالة » ، أى وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى فى بحر جهلٍ . والضرب هاهنا : استعارة ، أو يكون من الضّرب بمعنى السير ، كقوله تعالى : ﴿ وإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (١) ، أى خاضوا وسبحوا من ذكرهم فى غمرة جهالة ، وكلٌّ هذا يرجع إلى معنى واحد ، وهو تسفيه رأى المفتخرين بالموتى ، والقاطعين الوقت بالتكاثر بهم ؛ إعراضا عمّا يجب إنفاقه من العمر فى الطاعة والعبادة .

ثم قال : « لو سألوا عنهم ديارهم التى خلت منهم » ، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور ، « لقالت ذهبوا فى الأرض ضُلّالا » ، أى هالكين ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) .

وذهبتم فى أعقابهم ؛ أى بعدهم « جهالا » ؛ لغفلتكم وغروركم .

قوله عليه السلام : « تَطئون فى هامهم » ، أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعرّى؛ فقال:

خَفِّفِ الوطْءَ ما أظنّ أديمَ الـ أرضِ إلاّ مِنْ هَذِه الأجْسَادِ (٣)
رُبَّ لحدٍ قَدْ صار لحداً مِرَاراً ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضْدَادِ

---

(١) سورة النساء ١٠١ .
(٢) سورة السجدة ١٠ .
(٣) ديوانه ؛ سقط الزند ٩٧٤، ٩٧٥ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات وأديم الأرض: ظاهرها.

ودفـــين على بقـايا دفـــين ... مِنْ عهـود الآباء والأجـــدادِ (١)

صاحِ هـــذى قبورنا تملأ الأرْ ... ضَ ، فأين القبورُ من عهد عادِ ! (٢)

سِرْ إن اسطعْت فى الهـواء رُوَيْداً ... لا اختيـــالاً عَلَى رُفاتِ العبـــادِ

قوله : « وتستنبتون فى أجسادهم » ، أى تزرعون النبات فى أجسادهم، وذلك لأنّ أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى ، فالزّرع لامحالة يكون نابتا فى الأجزاء الترابية التى هى أبدان الحيوانات . وروى : « وتستثبتون » ، بالثاء ؛ أى وتنصبون الأشياء الثابتة كالعَمد والأساطين للأوطان فى أجساد الموتى .

ثم قال : « وترتعون فيما لفظوا » ، لَفَظْتُ الشىء بالفتح : رميتُــه من فمى ، ألفِظه بالكسر ، ويجوز أن يريد بذلك أنــكم تأكلون ماخلّفوه وتركوه . ويجوز أن يريد أنّــكم تأكلون الفواكه التى تنبت فى أجـزاء ترابيّة خالطها الصـديد الجارى من أفواههم .

ثم قال : « وتسكنون فيما خرّبوا »، أى تسكنون فى المساكن التى لم يعمروها بالذكر والعبادة ، فكأنهم أخربوها فى المعنى ، ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم . ويجوز أن يريد أنّ كلّ دار عامرة قد كانت من قبل خربة ، وإنّما أخربها قوم بادوا وماتوا، فإذن لاساكن منّا فى عمارة إلّا ويصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خرابا من قبل ، والذين أخربوه الآن موتى . ويجوز أن يريد بقوله : « وتسكنون فيما خربوا »؛ وتسكنون فى دورٍ فارقوها وأخلوْها ، فأطلقَ على الخلوّ والفراغ لفظ « الخراب » مجازا .

قوله : « وإنّما الأيّام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم » ؛ يريد أنّ الأيام والليالى تشيّع رائحا إلى المقابر وتبكى وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب .

---

(١) الديوان :

* فى طويل الأزمانِ والآبادِ *

(٢) الديوان : « تملأ الرحب » .

قوله : « أولئـكم سلف غايتِـكم » ،السلف : المتقدمون . والغاية :الحدّ الذى ينتهى إليه . إمّا حسّيا أو معنويا ، والمراد هاهنا الموت .

والفرَط : القوم يسبقون الحىّ إلى المنهل .

ومقاوم العزّ : دعائمه ، جمع مقوم ، وأصلها الخشبة التى يمسكها الحرّاث . وحلَبات الفخر : جمع حَلْبة ، وهى الخيل تجمع للسباق .

والسُّوَق ، بفتح الواو : جمع سُوقة ؛ وهو مَنْ دون الملِك .

***

الأصْل :

سَلَكُوا فِي بُطُونِ ٱلْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ ٱلْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ ٱلْأَهْوَالِ ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ ٱلْأَحْوَالِ ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ . غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا ، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا .

وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً ، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً ، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً ، فَكَأَنَّهُمْ فِي ٱرْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ .

جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ . بَلِيَتْ[1] بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ ٱلْإِخَاءِ ؛ فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ ، وَبِجَانِبِ ٱلْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ .

لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً ، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً . أَيُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ

(١) كذا فى ا ، فى ب : « وبليت » .

عَلَيْهِمْ سَرْمَداً ، شاهَدُوا مِنْ أَخْطارِ دارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آياتِها أَعْظَمَ مِمّا قَدَّرُوا ، فَكِلَا الْغايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَباءَةٍ فاتَتْ مَبالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجاءِ .

فَلَوْ كانُوا يَنْطِقُونَ بِها لَعَيُّوا بِصِفَةِ ما شاهَدُوا وَما عايَنُوا . وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبارُهُمْ ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصارُ الْعِبَرِ ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذانُ الْعُقُولِ ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهاتِ النُّطْقِ ، فَقالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّواضِرُ، وَخَوَتِ الْأَجْسامُ النَّواعِمُ ، وَلَبِسْنا أَهْدامَ الْبِلَى ، وَتَكاءَدَنا ضِيقُ الْمَضْجَعِ ، وَتَوارَثْنا الْوَحْشَةَ ، وَتَهَدَّمَتْ عَلَيْنا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ ، فَانْمَحَتْ مَحاسِنُ أَجْسادِنا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعارِفُ صُوَرِنا ، وَطالَتْ فِي مَساكِنِ الْوَحْشَةِ إِقامَتُنا ، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً ، وَلا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً .

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطاءِ لَكَ ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْماعُهُمْ بِالْهَوامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصارُهُمْ بِالتُّرابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْواهِهِمْ بَعْدَ ذَلاقَتِها ، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِها ، وَعاثَ فِي كُلِّ جارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَها ، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْها . مُسْتَسْلِماتٍ فَلا أَيْدٍ تَدْفَعُ ، وَلا قُلُوبٌ تَجْزَعُ — لَرَأَيْتَ أَشْجانَ قُلُوبٍ ، وَأَقْذاءَ عُيُونٍ ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظاعَةٍ صِفَةُ حالٍ لا تَنْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لا تَنْجَلِي .

فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ ؛ كانَ فِي الدُّنْيا غَذِيَّ تَرَفٍ وَرَبِيبَ شَرَفٍ ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي ساعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ؛ ضَنًّا بِغَضارَةِ عَيْشِهِ ، وَشَحاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ ؛ فَبَيْنا هُوَ يَضْحَكُ إِلى الدُّنْيا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ ؛ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ ؛ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ، وَنَقَضَتِ الْأَيّامُ قُواهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ ؛ فَخالَطَهُ بَثٌّ لا يَعْرِفُهُ ، وَنَجِيُّ هَمٍّ

مَا كَانَ يَجِدُهُ ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ . فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الحَارِّ بِالقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ البَارِدِ بِالحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ ؛ حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ ؛ فَقَائِلٌ : هُوَ لِمَا بِهِ ؛ وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى المَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ .

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا ؛ وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ ؛ إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ .

فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ ! وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ ! مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ .

وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ ، أَو تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا .

***

الشرح :

هذا موضع المثل : « مَلْعاً[1] ياظليم وإلّا فالتَّخْوِيَةُ » ، مَنْ أراد أن يعظ ويخوّف ، ويقرع صَفَاةَ القلب ، ويعرّف الناس قدر الدنيا وتصرّفها بأهلها، فليأتِ بمثل هذه الموعظة فى مثل هذا الكلام الفصيح وإلّا فليمسك ، فإنّ السكوت أستر ، والعيّ خير من منطق يفضح صاحبه . وَمَنْ تأمّل هذا الفصل ، علم صدق معاوية فى قوله فيه : «والله ما سنّ

---

(١) الملع : السير السريع ، ويقال : خوّى الطائر ؛ إذا أرسل جناحيه .

الفصاحة لقريش غيره » . وينبغى لو اجتمع فصحاء العرب قاطبةً فى مجلس، وتُلِىَ عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدىّ بن الرّقاع :

* قلم أصابَ من الدّواة مِدَادها (١) *

فلما قيل لهم فى ذلك ، قالوا : إنا نعرف مواضع السجود فى الشعر ؛ كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن .

وإنى لأطيل التعجّب من رجل يخطب فى الحرْب بكلام يدلّ على أن طبعه مناسب لطباع الأُسُود والنمور وأمثالها من السباع الضارية ، ثم يخطب فى ذلك الموقف بعينه ، إذا أراد الموعظة بكلام يدلّ على أنّ طبعه مشاكل لطباع الرّهبان لابسى المُسوح الذين لم يأكلوا لحما ، ولم يريقوا دما ؛ فتارة يكون فى صورة بِسْطام بن قيس الشيبانىّ وعُتَيبة ابن الحارث اليربوعىّ ، وعامر بن الطّفيل العامرىّ ، وتارةً يكون فى صورة سُقراط الحَبْر اليونانىّ ، ويوحَنَّا المعمَدان الإسرائيلىّ ، والمسيح بن مريم الإلٰهىّ .

وأقسم بمن تُقَسِم الأمم كلّها به ؛ لقد قرأتُ هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ، ما قرأتها قط إلّا وأحدثتْ عندى روعة وخوفاً وعظة ، وأثَّرتْ فى قلبى وجيباً ، وفى أعضائى رِعْدة ، ولا تأملتُها إلّا وذكرت الموتى من أهلى وأقاربى ، وأرباب ودّى ، وخيّلت فى نفسى أنى أنا ذلك الشخص الذى وصف عليه السلام حالَه .

وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء فى هذا المعنى ! وكم وقفت على ماقالوه وتكرّر وقوفى عليه ! فلم أجد لشىء منه مثل تأثير هذا الكلام فى نفسى ؛ فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتى فى قائله ، أو كانت نية القائل صالحة ، ويقينه كان ثابتا ، وإخلاصه كان محضاً

---

(١) صدره :

* تُزْجِى أغَنّ كأن إبرة روقه *

خالصا ، فكان تأثير قوله فى النفوس أعظم ، وسريان موعظته فى القلوب أبلغ .

* * *

ثم نعود إلى تفسير الفصل :

فالبرزخ : الحاجز بين الشيئين ، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ، فيجوز أن يكون البرزخ فى هذا الموضع القبر ، لأنه حاجز بين الميّت وبين أهل الدنيا ، كالحائط المبنىّ بين اثنين ، فإنّه برزخ بينهما ، ويجوز أن يريد به الوقت الذى بين حال الموت إلى حال النّشور ، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام ، لأنه قال : «فى بطون البرزخ » ولفظة «البطون» تدلّ على التفسير الأولّ . ولفظتا «أكلت الأرض من لحومهم وشربت من دمائهم » مستعارتان.

والفَجَوات : جمع فَجْوة وهى الفُرْجة المتّسعة بين الشيئين ، قال سبحانه: ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ (١) ؛ وقد تفاجَى الشىء ؛ إذا صارت له فجوة .

وجمادا لاينمون ، أى خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجماد الذى لا ينمِى ولا يزيد . ويروى : « لاينِمّون » بتشديد الميم ، من النميمة وهى الهمس والحركة ، ومنه قولهم : أسكت الله نامّته ، فى قول من شدّد ولم يهمز .

وضِمارا ، يقال لكلّ مالا يرجى من الدّيْن والوعد ، وكلّ مالا تكون منه على ثقة : ضِمار .

ثم ذكر أنّ الأهوال الحادثة فى الدنيا لاتفْزِعهم ، وأنّ تنكّر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لايحزنهم . ويروى « يُحْزِنهم » على أنّ الماضى رباعىّ .

ومثله قوله : « لايحفِلون بالرواجف » أى لايكترثون بالزلازل .

---

(١) سورة الكهف ١٧ .

قوله : « ولا يأذنُونَ للقواصف » أى لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لـكذا، أى سمعته .

وجمع الغائب غُيَّب وغَيَب ، وكلاهما مرويٌّ هاهنا، وأراد أنهم شهود فى الصورة، وغير حاضرين فى المعنى .

والآلاف ، على فُعَّال: جمع آلف ؛ كالطُّرَّاق جمع طارق ، والسُّمَّار : جمع سامر، والـكُفَّار جمع كافر .

* * *

ثم ذكر أنه لم تَنْمِ أخبارهم ، أى لم تستبهم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم ، ولا عن بعد منزل لهم ، وإنما سُقوا كأسَ المنون التى أخرستهم بعد النطق ، وأصَمَّتْهُمْ بعد السمع ، وأسكنتهم بعد الحركة .

وقوله : « وبالسَّمع صما » ، أى لم يسمعوا فيها نداء المنادى ، ولا نوح النائح ، أو لم يسمع فى قبورهم صوت منهم .

قوله : « فكأنهم فى ارتجال الصِّفة » ، أى إذا وصفهم الواصف مرتجلا غير متروٍّ فى الصفة ، ولا متهيئٍ للقول .

قال: « كأنهم صرعى سُبات » ؛ وهو نوم؛ لأنه لا فرق فى الصورة بين الميِّت حال موته والنائم المسبوت .

* * *

ثم وصفهم بأنهم جيران إلا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا ، وأنهم أحبَّاء إلا أنهم لا يتزاورون كالأحباب من أهل الدنيا .

وقوله « أحبَّاء » جمع حبيب، كخليل وأخلاء ، وصديق وأصدقاء .

ثم ذكر أنَّ عُرا التعارف قد بليَتْ منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء؛ وهذه كلها استعارات لطيفة مستحسنة .

ثم وصفهم بصفـة أخرى ، فقال : كلّ واحدٍ منهم موصوف بالوحْدة ؛ وهم مع ذلك مجتمعون ، بخلاف الأحيـاء الذين إذا انضمّ بعضهم إلى بعض انتفى عنـه وصف الوحدة .

ثم قال : « وبجانب الهجر وهم أخلّاء » أى وكلّ منهم فى جانب الهجر وهم مع ذلك أهل خُلّة ومودة ، أى كانوا كذلك. وهذا كله من باب الصناعة المعنوية ، والمجاز الرشيق.

ثم قال : إنّهم لا يعرفون للنهار ليلا ولا لليل نهارا ، وذلك لأنّ الواحد من البَشَر إذا مات نهارا لم يعرف لذلك النهار ليلا أبدا ، وإن مات ليلا لم يعرف لذلك الليل صباحا أبدا . وقال الشاعر :

لا بد من يومٍ بلا ليـلةٍ أو ليـلة تأتى بلا يومِ

وليس المراد بقوله : « أىّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا » أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذى ماتُوا فيه ولا يشعرون بما يتعقّبه من الأوقات، بل المراد أن صورةَ ذلك الوقت لو بقيتْ عندهمْ لبقيت أبداً من غير أن يزيلها وقتٌ آخر يطرأ عليهـا . ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقـاء الأنفس ، فيقال : إن النفس التى تفـارق ليلا تبقى الصورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبدا لا تزول بطرآنِ نهار عليها ، لأنهـا قد فارقت الحواس ، فلا سبيل لها إلى أن يرتسم فيها شىء من المحسوسات بعد المفارقة ، وإنّما حصل ما حصل من غير زيادة عليه ، وكذلك الأنفس التى تفارق نهارا .

***

[بعض الأشعار والحكايات فى وصف القبور والموتى]

واعلم أنّ الناس قد قالوا فى حال الموتى فأكثروا ؛ فمن ذلك قول الرضىّ أبى الحسن رحمه الله تعالى :

أعزِزْ عَلَيّ بأنْ نزَلْت بمنزلٍ ... متشابهِ الأمجـادِ بالأوْغادِ ! (١)
فى عصبـة جُنِبُوا إلى آجالهم ... والدّهر يعجلهم عن الإرْوَادِ
ضربوا بمدرجة الفنـاء قبابَهُمْ ... من غير أطنـــاب ولا أعمادِ
ركبٌ أناخُوا لا يُرَجَّى منهمُ ... قَصْدٌ لإتهام ولا إنجــــادِ
كَرِهُوا النُّزول فأنزلتهم وقعـةٌ ... للدهر باركة بكلِّ مفـادِ
فتهافتُوا عن رَحْلِ كل مذلّلٍ (٢) ... وتطاوحُوا عن سرج كلّ جوادِ
بادون فى صُوَرِ الجميع وإنّهم ... متفرّدون تفرُّدَ الآحاد

قوله : « بادون فى صور الجميع » مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليـه السلام : « فـكلهم وحيد وهم جميع » .

وقال أيضا :

ولقد حفظت له فأين حِفاَظُـه ... ولقـد وفيتُ له فأين وفاؤه؟(٣)
أوَعَى الدعاء فلم يجبه قطيعـةً ... أم ضَلّ عنه من البعـاد دعاؤهُ
هيهات أصبح سَمْعُه وعيانه ... فى الترب قد حجبتْهما أقذاؤُهُ
يمسى ولينُ مهادِه حصباؤُه ... فيه ، ومؤنسُ ليـله ظلمـاؤُهُ
قد قُلِّبَتْ أعيانُه وتنـكّرَتْ ... أعلامُه ، وتـكسّفتْ أضواؤهُ

---

(١) من مرثيته لأبى إسحاق الصابى ، ومطلعها :

أعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأعوادِ ... أرَأيتَ كيفَ خبا ضياء النّادِى

ديوانه لوحة ١٢٩ .

(٢) الديوان : « عن ظهر كل مذلل » .

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ ، من مرثية لبعض أصدقائه .

مُغفٍ وليس للذّةٍ إغفاؤه ، مغضٍ وليس لفكرةٍ إغضاؤهُ
وجهٌ كلمع البرق غاض وميضُه قلبٌ كصدر العَضْب فُلَّ مَضاؤُهُ
حَكَمَ البلى فيه فلو تلقى به أعداءه لرثى له أعداؤُهُ

وقال أبو العلاء :

أستغفر الله ما عندى لكم خبرٌ وما خطابىَ إلّا معشرا قُبِروا
أصبحتمُ فى البلى غُبْراً ملابسكمْ من الهَباء ، فأين البُرْدُ والقِطر (١)
كنتم على كلّ خطب فادح صبُراً فهل شعرتم؛وقدجادتكم الصَّبَرُ ا(٢)
وما درى يوم أُحْدٍ بالذين ثَوَوْا فيه ، ولا يوم بدر أنّهم نُصِرُوا

وقال أبو عارم الكلابىّ :

أجازعــةٌ رُدَيْنَةُ أنْ أتاها نعيّى أمْ يكون لها اصطبارُ !
إذا ما أهــلُ قبرى ودّعونى وراحوا والأكفّ بها غُبَارُ
وغودر أعظُمِى فى لحدِ قَبْرٍ تراوِحُهُ الجنــائب والقِطَارُ
تهبّ الريح فوق محطّ قبرى ويرعى حوله اللّهق النوار (٣)
مقيم لا يكلّمهُ صــديقٌ بقــبر ، لا أَزور ولا أُزار
فذاك النأى لا الهجران حَوْلاً وحولا ثم تجتمع الدّيار !

مرّ الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا ، فسأل : هل بقىَ من نسلهم أحد ؟ قالوا : بقى واحد ، وهو يلزم المقابر ، فدعا به فسأله : لم تلزم المقابر؟ قال : أردت أن أميّز عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدتها سواء ، قال : هل لك أن تلزمنى حتىأنيلك بغيتك ؟ قال :لو علمتُ أنك تقدر على ذلكالزمتك . قال :ومابغيتك؟

---

(١) القطر : من البرود .

(٢) الصبر : السحابة البيضاء .

(٣) اللهق : الثور الأبيض ، والنوار : النافر .

قال : حياة لا موت معها ، قال : لن أقـــدرَ على ذلك ، قال : فدعنى أطلبه ممن يقدر عليه .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مارأيت منظرا إلّا والقبر أفظع منه » .

وقال صلّى الله عليه وآله : « القبر أوّل منزلٍ من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر ، ومن لم ينج فما بعده شرٌّ له » .

مرّ عبد الله بن عمر رضى الله عنه بمقبرةٍ فصلّى فيها ركعتين ، وقال : ذكرت أهل القبور وأنّه حيل بينهم وبين هذا ، فأحببت أنْ أتقرّب بهما إلى الله .

* * *

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « وبجانب الهجر » ؟ وأى فائدة فى لفظة « جانب » فى هذا الموضع ؟

قلت : لأنّهم يقولون : فلان فى جانب الهجر ، وفى جانب القطيعة ، ولا يقولون : « فى جانب الوصل » ، وفى « جانب المصافاة » ، وذلك أنّ لفظة « جنب » فى الأصل موضوعة للمباعدة ، ومنه قولهم : « الجار الجُنُب » ، وهو جارك من قوم غرباء . يقال : جنبت الرجل ، وأجنبته ، وتجنّبته ، وتجانبته ، كلّه بمعنًى ، ورجل أجنبيّ ، وأجنب ، وجُنب ، وجانب ، كلّه بمعنى .

قوله عليه السلام : « شاهدوا من أخطار دارهم » ، المعنى أنه شاهد المتقون من آثار الرحمة وأماراتها ، وشاهد المجرمون من آثار النقمة وأماراتها عند الموت ، والحصول فى القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنّون أيّام كونهم فى الدنيا .

ثم قال : « فكلا الغايتين مدّت لهم » ، المعنى مدّت الغايتان : غاية الشقىّ منهم وغاية السعيد .

إلى مباءة ، أى إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف ،أورجاء راج؛وتلك المباءة هى النّار أو الجنة . وتقول : قد استباء الرجل أى اتّخذ مباءة،وأبأت الإبل:رددتها إلى مباءتها ؛ وهى معاطنها .

ثم قال : « فلو كانوا ينطقون بها لعيُّوا » ، بتشديد الياء ، قال الشاعر :

عَيُّوا بأمرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ ببيضَتِها الحَمَامَهْ

جَعَلَتْ لها عودين مِنْ نَشَمٍ وآخر من ثُمَامَهْ

وروى « لَعَيُوا » بالتخفيف ، كما تقول : « حَيُوا » قالوا : ذهبت الياء الثانية لالتقاء الساكنين لأنّ الواو ساكنة ، وضمّت الياء الأولى لأجل الواو ، قال الشاعر :

وَكُنَّا حَسِبْناهم فَوَارِسَ كَهْمَسٍ حَيُوا بعدما ماتوا من الدهر أعصرا

قوله : « لقد رَجَعَتْ فيهم » يقال :رجع البصر نفسُه ، ورجع زيد بصره ؛يتعدّى ولا يتعدى ، يقول : تكلّموا معنًى لاصورة ،فأدركت حالهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسّية . وكَلَحت الوجوه كلُوحا وكُلاحا ، وهو تكشّر فى عُبوس .

والنواضِر : النواعم ، والنّضرة : الحسن والرونق .

وخوت الأجساد النواعم : خلت من دمها ورطوبتها وحشوتها . ويجوز أن يكون خوتْ أى سقطت . قال تعالى : ﴿ فهيَ خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشها ﴾ [1] ، والأهدام : جمع هِدْم ، وهو الثوب البالى ، قال أوس .

وَذَاتِ هِدْمٍ عارٍ نواشرُها تُصْمِت بالماء تَوْلَباً جَدِعَا [2]

---

(١) سورة الحج ٤٥ .

(٢) ديوانه ٥٥ النواشر : عصب الذراع ، الواحد ناشرة ؛ وبها سمى الرجل ، وأراد بالتولب طفلها اوالجذع : السيّء الغذاء ؛ تصمته بالماء لأنه ليس لها لبن من شدة الفقر .

وتكاءدَنا : شقّ علينا ، ومنه : عقبة كؤود . ويجوز تكأّدنا، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها « تفعّل وتفاعَل » بمعنًى ، ومثله تعهّد الضّيعة ، وتعاهدها .

ويقال : قوله : « وتوارثْنا الوحشة » . كأنّه لمّا مات الأب فاستوحش أهله منه ، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضا ، صار كأنّ الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تُورث الأموال ، وهذا من باب الاستعارة .

قوله : « وتهدّمت علينا الربوع » ، يقال : تهدّم فلان على فلان غضبا ؛ إذا اشتدّ غضبه ، ويجوز أن يكون تهدّمت أي تساقطت وروى « وتهكمت » بالكاف، وهو كقولك: « تهدمت » بالتفسيرين جميعا ، ويعنى بالرّبوع الصّمُوت، القبور ، وجعلها صُموتًا لأنّه لا نطق فيها ، كما تقول : ليل قائم ونهار صائم ، أي يقام ويصام فيهما ، وهذا كلّه على طريق الهزّ والتحريك وإخراج الكلام في معرِض غير المعرِض المعهود ، جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم [لأتَوْا] بما وصفه من أحوالهم . وورد في الحديث أنّ عمر حضر جنازة رجل ، فلما دفن قال لأصحابه : قفوا ، ثم ضرب فأمعن في القبور ، واستبطأه الناس جدا ثم رجع وقد احمرّت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، فقيل : أبطأت يا أمير المؤمنين ، فما الذى حبسك ؟ قال : أتيت قبورَ الأحبّة ، فسلّمتُ فلم يردّوا علىّ السلام، فلما ذهبت أقفّى ناداني التراب ، فقال : ألا تسألني يا عمر مافعلتُ باليدين ؟ قلت : مافعلتَ بهما ؟ قال : قطعتُ الكفّين من الرُّسغين ، وقطعت الرّسغين من الذراعين ، وقطعت الذراعين من المرفقين، وقطعت المرفقين من العضُدين ، وقطعت العضُدين من المنكبين ، وقطعت المنكبين من الكتفين، فلمّا ذهبت أقفّى ناداني التراب ، فقال: ألا تسألني يا عمر مافعلتُ بالأبدان والرجلين؟ قلت : مافعلتَ ؟ قال : قطعت الكتفين من الجنبين ، وقطعت الجنبين من الصّلب ، وقطعت الصلب من الورِكين ، وقطعت الورِكين من الفخذين ، وقطعت الفخِذين من الرّكبتيْن،

وقطعت الرّكبتين من الساقين ، وقطعت الساقين من القدمين ، فلمّا ذهبت أقفى نادانى التراب ، فقال : ياعمر ، عليك بأكفانٍ لاتبلَى ؟ فقلت : وما أكفانٌ لاتبلى ، قال : تقوى الله ، والعمل بطاعته . وهذا من الباب الذى نحن بصدده ، نسب الأقوال المذكورة إلى التراب وهو جماد ،ولم يكن ذلك ، ولكنّه اعتبر فانقدَحَتْ فى نفسه هذه المواعظ الحكمية ، فأفرغها فى قالب الحكاية ، ورتّبها على قانون المسألة والإجابة ، وأضافها إلى جماد موات ، لأنّه أهزُّ لسامعها إلى تدبّرها ، ولو قال : نظرت فاعتبرت فى حال الموتى ،فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظته المبلغ الذى بلغته حيث أودعها فى الصورة التى اخترعها.

***

قوله عليه السلام : « فلو مثّلتَهم بعقلك ،أو كشف عنهم محجوبُ الغطاء لك» إلى آخر جواب «لو» . هذا الكلام أخذه ابن نُباتة بعينه فقال : فلو كشفتم عنهم أغطيةَ الأجداث ، بعد ليلتين أو ثلاث ، لو جدتم الأحداق على الخدود سائلة ، والألوانَ من ضيق اللُّحود حائلة ، وهوامّ الأرض فى نواعم الأبدان جائلة ، والرءوس الموسّدة على الأيمان زائلة، ينكِرُها مَنْ كان لها عارفا ، ويفرّ عنها مَنْ لم يزل لها آلفا .

قوله عليه السلام: « ارتسخت أسماعهم » ليس معناه ثبتتْ كما زعمه الراونديّ ،لأنّها لم تثبت ، وإنما ثبتت الهوامّ فيها ، بل الصحيح أنّه من رسخ الغدير إذا نشّ ماؤه ونضب ، ويقال : قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعته حتى يلتقى الثَّرَيان .

واستكّت ، أى ضاقت وانسدّت ، قال النابغة :

وَنُبِّئتُ خيرَ الناسِ أنَّكَ لُمْتَنِي وتلك التى تَسْتَكّ منها المسامعُ[1]

***

(١) ب « فيها » ، والبيت فى ديوانه ٥٣ ، وروايته :

* أتانِي أبيتَ اللّعنَ أنّكَ لُمْتَنِي *

قوله : « واكتحلتْ أبصارهم بالتراب نخسفت » ، أى غارت وذهبت فى الرأس .

وأخذ المتنبى قوله : « واكتحلت أبصارهم بالتراب » ، فقال :

يُدَفِّنُ بعضُنا بعضاً ويَمْشِى   أواخِرُنا على هامِ الأوالِى (١)

وكَمْ عينٍ مقبّلةِ النَّواحِى   كحيلٍ بالجنادلِ والرّمالِ !

ومغضٍ كان لا يغضى لخطْبٍ   وبال كان يُفَكِّرُ فى الهزالِ

وذَلاقة الألسن : حدّتها ، ذَلِق اللسان والسّنان يذلَق ذَلَقاً ، أى ذرِبَ ؛ فهو ذلِق ، وأذلق .

وهَمَدت ، بالفتح : سكنتْ وخمدتْ . وعاث : أفسد . وقوله : « جديد بلًى »، من فنّ البديع ، لأنّ الجِدّة ضدّ البلى ؛ وقد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال :

يادارُ غادَرنى جديدُ بلاكِ   رثّ الجديدُ فهل رثيت لذاكِ !

وسَمّجها : قبّح صورتها ، وقد سَمُج الشىء بالضمّ فهو سَمْج ، بالسكون ، مثل ضَخْم فهو ضخم ، ويجوز : فهو سَمِج ، بالكسر ، مثل خَشُن فهو خشِن .

قوله : « وسهّل طرق الآفة إليها » ؛ وذلك أنّه إذا استولى العنصر الترابىّ على الأعضاء ، قوى استعدادها ، للاستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها .

ومستسلمات ، أى منقادة طائعة غير عاصية ؛ فليس لها أيدٍ تدفع عنها ، ولا لها قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها .

والأشجان : جمع شَجَن ، وهو الحزن .

والأقذاء : جمع قَذًى ، وهو مايسقط فى العين فيؤذيها .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٨ . والأوالى : الأوائل ، ولكنه قلب .

قوله : « صفة حال لا تنتقل » ، أى لا تنتقل إلى حسن وصلاح، وليس يريد: لا تنتقل مطلقا ، لأنها تنتقل إلى فساد واضمحلال .

ورجل عزيز ، أى حدث ، وعزيز الجسد ، أى طرىّ ، وأنيق اللون: معجب اللون.

وغَذِىُّ تَرَف : قد غُذِى بالترف ، وهو التنعّم المطغى.

ورَبِيبُ شَرَف ، أى قد ربِّىَ فى الشرف والعزّ . ويقال : ربّ فلان ولدَه يَرُبّه ربًّا، وربّاه يربِّيه تربيةً .

ويتعلّل بالسرور : يتلهّى به عن غيره . ويفزع إلى السّلْوة : يلتجىء إليها. وضَنًّا، أى بخلا . وغضارة العيش : نعيمه ولينه .

وشحاحة ، أى بخلا ، شحِحْتُ بالكسر أشِحّ . وشحَحْتُ أيضا بالفتح ، أشُح وأشِحُّ ؛ بالضم والكسر ، شُحًّا وشَحاحةً . ورجل شحيح وشَحاح بالفتح . وقوم شِحاحٌ وأشِحّة .

ويضحك إلى الدنيا وتضحكُ إليه ؛ كناية عن الفرَح بالعمر والعيشة ، وكذا كلّ واحدٍ منهما يضحك إلى صاحبه لشدّة الصفاء ، كأنّ الدّنيا تحبّه وهو يحبُّها .

وعيش غَفول : قد غفل عن صاحبه ، فهو مستغرق فى العيش لم ينتبه له الدّهر ، فيكدّر عليه وقته ، قال الشاعر :

وكان المرء فى غفلاتِ عيشٍ كأنّ الدّهْرَ عَنْها فى وَثاق

وقال آخر :

ألَا إنّ أحْلَى العيش ما سَمَحَتْ به صروفُ اللّيالى ، والحوادثُ نُوَّمُ

قوله : « إذ وَطِئَ الدهر به حَسَكه » ، أى إذ أوطأه الدهر حَسَكه . والهاء فى « حَسَكه » ترجع إلى الدّهر ، عدّى الفعل بحرف الجرّ ، كما تقول : قام زيد بعمرو ، أى أقامه .

وقُواه : جمع قوّة وهى المِرّة من مرائر الحبل . وهذا الـكلام استعارة .

ومن كَثَب : من قرب . والبث : الحزن . والبثّ أيضا : الأمر الباطن الدخيل ونجىّ الهمّ : ما يناجيك ويسارّك . والفَتَرات : أوائل المرض .

وآنس ما كان بصحته ، منصوب على الحال . وقال الراوندىّ فى الشرح : هذا من باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » . ثم ذكر أن العامل فى الحال « فترات » ، قال : تقديره : « فترات آنس ما كان » . وما ذكره الراوندىّ فاسد ، فإنّه ليس هذا من باب : « أخطب ما يكون الأمير قائمـا ، لأنّ ذلك حال سدّ مسدّ خبر المبتدأ ، وليس هاهنا مبتدأ . وأيضا فليس العامل فى الحال « فترات » ولا « فتر » ، بل العامل : « تولّدت » . والقارّ : البارد .

فإن قلت : لم قال : « تسكين الحار بالقارّ ، وتحريك البارد بالحار » ؟ ولأىّ معنى جعل الأول التسكين والثانى التحريك ؟ قلت : لأنّ من شأن الحرارة التهييج والتثوير ، فاستعمل فى قهرها بالبارد لفظة « التسكين » ، ومن شأن البرودة التخدير والتجميد ، فاستعمل فى قهرها بالحارّ لفظة « التحريك » .

قوله : « ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلّا أمدّ منها كل ذات داء » ، أى ولا استعمل دواء مفردا معتدل المزاج أو مركبا كذلك إلا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض زائد على الأول .

وينبغى أن يكون قولُه : « ولا اعتدل بمُمازج » ، أى ولا رام الاعتدال لممتزج ، لأنه لو حصل له الاعتدال لـكانَ قد بَرِئَ من مرضه ، فَسمّى محاولة الاعتدال اعتدالا ، لأنه باستدلال المعتدلات قدْ تهيّأ للاعتدال ، فـكان قد اعتدل بالقوّة .

وينبغى أيضا أن يكون قد حذف مفعول « أمدّ » ، وتقديره « بمرضٍ » كما قدّرناه نحن ، وحذف المفعولات كثير واسع .

قوله : « حتّى فَتَرَ معلّله » ، لأنّ معلّلى المرض فى أوائل المرض يكون عندهم نشاط، لأنّهم يرجُون البُرْء ، فإذا رأوْا أمارات الهلاك فترت همّتهم .

قوله :« وذَهَلَ ممرّضُه » ، ذَهَل بالفتح، وهذا كالأوّل ، لأن الممرّض إذا أعيا عليه المرض ، وانسدّت عليه أبواب التدبير يذهَل .

قوله : « وتمايا أهله بصفـة دائه » ، أى تماطوا العِىّ وتساكتوا إذا سُئِلوا عنه ، وهذه عادة أهل المريض المُثقَل ؛ يجمْجِمون إذا سئلوا عن حاله .

قوله : « وتنازعوا دونه شَجَى خبر يكتمونه » ، أى تخاصموا فى خبر ذى شجى ، أى خبر ذى غُصّة يتنازعونه وهم حول المريض ستراً دونه ، وهو لا يعلم بنجواهم ، وبما يُفيضون فيه من أمره .

فقائل منهم : هو لمآبه ، أى قد أشفى على الموت . وآخر يمنّيهم إياب عافيته ، أى عَوْدَها ، آب فلان إلى أهله ، أى عاد .

وآخر يقول : قد رأينـا مثل هذا ، ومَنْ بلغ إلى أعظم من هذا ثمّ عوفِىَ ، فيمنّى أهلَه عَوْد عافيته .

وآخر يصبر أهله على فقـده ، ويذكر فضيلة الصّبْر ، وينهاهم عن الجزع ، ويروى لهم أخبار الماضين .

وأُسى أهليهم ، والأُسَى : جمع أُسْوة ، وهو ما يتأسّى به الإنسان . قالت الخنساء :

وما يبكون مِثْـلَ أخِى ولـكِنْ أسلّى النَّفْسَ عنْـهُ بالتأسِّى[(١)]

قوله : « على جناح من فراق الدنيا » ، أى سَرْعان ما يفارقها ؛ لأنّ مَنْ كان على جناح طائر ، فأوشِكْ به أن يسقط !

---

(١) ديوانها ١٥٣ ، وروايته « وما يبكين » .

قوله : « إذْ عَرَض له عارض » يعنى الموت ومن غُصصه : جمع غُصّة . وهو مايعترض مَجْرى الأنفاس . ويقال : إنّ كلّ ميّتٍ من الحيوان لايموت إلّا خنقا ، وذلك لأنّه من النّفَس يدخل ، فلا يخرج عِوَضه ، أو يخرج فلا يدخل عِوَضه ، ويلزم من ذلك الاختناق ، لأنّ الرّئة لاتبقى حينئذٍ مَرْوَحةً للقلب ، وإذا لم تُرَوّحه اختنق .

قوله : « فتحيّرت نوافذ فطنته » ، أى تلك الفطنة النافذة الثاقبة تحيّرت عند الموت ، وتبلّدت .

قوله : « ويبست رطوبةُ لسانِه » ؛ لأنّ الرّطوبة اللّعابيّة الّتى بها يكون الذوق تنشف حينئذٍ ، ويبطل الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة .

قوله : « فكم من مهمٍّ من جوابه عرفه فعىّ عن ردّه ! » نحو أن يكون له مالٌ مدفونٌ يُسأل عنه حال مايكون محتضَراً ، فيحاول أن يعرّف أهلَه به فلا يستطيع ، ويعجز عن ردّ جَوابِهم ، وقد رأينا مَنْ عَجَزَ عن الكلام فأشار إشارةً فهموا معناها ، وهى الدّواة والكاغَد ، فلمّا حضر ذلك أخذ القلم وكتب فى الكاغد مالم يُفْهَم ، ويده تُرْعَد . ثم مات .

قوله : « ودعاء مؤلمٍ لقلبه سمعه فتصامّ عنه » ، أظهر الصّمم ، لأنّه لاحيلة له .

ثم وصف ذلك الدعاء فقال : « من كبيرٍ كان يعظّمه » ، نحو صُراخ الوالد على الولد والولد يسمع ولا يستطيع الكلام . « وصغير كان يرحمه » ، نحو صراخ الولد على الوالد ، وهو يسمع ولا قدرة له على جوابه .

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال : إنها أفظَع من أن تحيط الصفاتُ بها . وتستغرقَها ، أى تأتى على كُنْهِها ، وتُعبّر عن حقائقها .

قوله : « أو تعتدل على عقول أهل الدنيا » ، هذا كلام لطيف فصيح غامض ، ومعناه

أنّ غمرات الموت وأهواله عظيمة جدًّا لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها ووصفت كما هى على الحقيقة ، بل تنبو عنها ، ولا تصدق بما يقال فيها ، فعبّر عن عدم استقامتها على العقول بقوله : « أو يعتدل » ، كأنه جعلها كالشىء المموجّ عند العقل ، فهو غير مصدّق به .

* * *

[إيراد أشعار وحكايات فى وصف الموت وأحوال الموتى]

ومما يناسب ماذكر ، من حال الإنسان قول الشاعر :

بينا الفتى مَرِحُ الْخطَا فرحًا بما يسْعى له إذْ قيل قد مَرِضَ الفتَى
إذْ قيل باتَ بليلةٍ ما نامَها إذْ قيل أصْبَح مُثْقَلًا ما يُرتجَى
إذْ قيل أمسى شاخصًا وموجَّهًا إذْ قيلَ فارقَهُمْ وحلّ به الرّدَى

* * *

وقال أبو النّجم العجلىّ :

والمرء كالحالم فى المنامِ يقول إنّى مدركٌ أمامِى
فى قابلٍ مافاتنى فى العامِ والمرء يُدْنيهِ إلى الحِمَامِ
مرُّ الليالى السُّودِ والأيّامِ إنّ الفتى يُصبحُ للأسقامِ
كالغَرضِ المنصُوب للسِّهامِ أخطأ رامٍ ، وأصاب رامِ

* * *

وقال عمران بن حِطّان :

أفى كلّ عام مَرْضَةٌ ثم نقهةٌ ويُنْعَى، ولا ينعَى ، مَتَى ذَا ؟ إلى متى !

ولا بدّ من يوم يجيء وليـلةٍ ... يَسُوقان حتفاً راحَ نحوكَ أو غدا

* * *

وجاء فى الحديث أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلّم مرّ بمقبرةٍ فنادى : يا أهلَ القبور الموحِشة، والرُّبُوع المعطّلة، ألا أخبرُكم بما حدَث بعدكم ؟ تزوّجَ نِساؤكم ، وتُبُوِّئت مساكنكم ، وقُسِمت أموالُكم . هلْ أنتم مخبِرون بما عاينتمْ ! ثم قال : ألا إنّهم لوْ أُذِن لهم فى الجوابِ لقالوا : وجدنا خيرَ الزّاد التّقوى .

ونظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال : إنّ أمراً هـذا آخرُه ، لجديرٌ أن يُزْهَد فى أوّله ، وإن أمراً هذا أوّله لجديرٌ أن يُخاف آخره .

* * *

وقال عَبَدة بن الطبيب — ويعجبنى قوله على الحال التى كان عليها ؛ فإنه كان أسود لصا من لصوص بنى سعد بن زيد مناة بن تميم — :

ولقد علمتُ بأن قصرىَ حفرةٌ ... غبراء يحملنى إليهـا شرجَعُ (١)
فبكى بناتِى شَجْوَهُنّ وزوْجتِى ... والأقربُون إلىّ ، ثم تصدّعوا
وتُركتُ فى غبراء يُكرَه وِرْدُها ... تسفِى علىّ الريح ثم أودَّعُ
إنّ الحوادث يخترمْن وإنّمـا ... عُمر الفتى فى أهـله مستودَعُ

ونظير هذه الأبيات فى رَوِيّها وعَروضها قول متمّم بن نويرة اليربوعىّ :

ولقـد علمتُ ولا محالةَ أنّنِى ... للحادثات ، فهل تريْنِى أجزعُ (٢) !
أهلكْنَ عاداً ثم آلَ مُحـرّقٍ ... فتركْنَهم بَلَداً وما قد جمَّعُوا (٣)

---

(١) من مفضليته ١٤٥ — ١٤٩ ، والشرجع : خشب يشد بعضه إلى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى.
(٢) من مفضليته ٤٨ — ٥٤ .
(٣) بلداً ، أى تراباً .

ولهنَّ كان الحـــارثان كلاهما ... ولهنَّ كان أخـــو المصانع تبَّعُ (١)
فعـــددت آبائي إلى عِرْق الثَّرَى ... فدعوتُهم فعلمتُ أنْ لم يَسْمَعُوا
ذهبـــوا فَلَمْ أدرِكهمُ ودعتْهُمُ ... غُـــولٌ أتوْها والطَّريق المَهْيَعُ
لا بدَّ من تلفٍ مصيب فانتظِرْ ... أبأرض قومك أم بأخرى تُصْرَعُ !
وليأتينَّ عليــــك يومٌ مرّةً ... يُبكَى عليك مُقنعاً لا تَسْمَعُ (٢)

* * *

لمّا فتح خالد بن الوليد عَيْن التمر ، سأل عن الُحرَقَة بنت النّعمان بن المنذر ، فدُلَّ عليها ، فأتاها — وكانت عَمْيـاء — فسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعتْ علينا الشمس ماشيء يدبّ تحت الخورنق إلّا تحت أيدينا ، ثم غربت وقد رحمنا كلُّ مَنْ يدورُ به ، وما بيت دخلته حَبْرة ، إلّا دخلته عَبْرة ؛ ثم قالت :

وَ بَيْنَا نَسُوسُ النّاسَ والأمْرُ أمرُنا ... إذا نحن فيـــه سُوقَةٌ نتنصّفُ
فأفٍّ لدنيـــا لا يدومُ نعيمُها ... تقلّبُ تاراتٍ بنـــا وتَصرّفُ !

فقال قائل ممّن كان حول خالد : قاتل الله عديَّ بن زيد ! لكأنّه ينظر إليها حين يقول :

إنّ للدهر صَرْعةً فاحذرنْها ... لا تبيتنّ قد أمِنْت الدّهورا (٣)
قد يبيت الفـتى معافى فيردَى ... ولقـــد كان آمناً مسروراً

* * *

دخل عبدُ الله بن العبّاس على عبد الملك بن مروان يوم قرّ ، وهو على فُرُش

---

(١) الحارثان : هما الحارث الأصغر ، والحارث الأكبر الأعرج : المصانع . القصور . تبع : ملك من ملوك اليمن .
(٢) مقنع : ملفف في أثوابه .
(٣) الأغاني ٢ : ١٣٨ — ١٤٠ .

يكاد يغيب فيها ، فقال : يابنَ عباس ، إنّى لأحسِب اليوم بارداً ! قال : أجلْ ، وإنّ ابن هند عاش فى مثل ماترَى ؛ عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، ثم هو ذاك على قبره ثمامةٌ تهتزُّ .

فيقال : إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابتة .

* * *

كان محمّد بن عبد الله بن طاهر فى قصره ببغداد على دِجْلة ، فإذا بحشيش على وجه الماء فى وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فأمر بها فوجد هذا :

تاه الأُعيرجُ واستولى به البَطرُ ... فقل له خير ما استعملته الحـــذَرُ
أحسنتَ ظنّك بالأيّام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخفْ سوء ما يأتى بهِ القَدَرُ
وسالمتْك الليالى فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالى يحدُث الكدر

فلم ينتفع بنفسه أياماً .

* * *

عدىّ بن زيد :

أيّها الشامت المعيّر بالدهـ ... ـرِ أأنت المـــبرأ الموفور !
أم لديك العهد الوثيق من الأيـــا ... مِ ، بل أنتَ جاهلٌ مغرور
مَنْ رأيت المنُون خلّدْنَ أم مَنْ ... ذا عليه من أن يُضام خفـــير !
أين كسرى كسرى الملوك أنو شر ... وان أم أين قبْـلَهُ سابور (١) !
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ... ـرّوم ولم يبق منهمُ مذ كورُ

(١) سابور الجنود ، هو ابن أردشير ، وسابور ذو الأكتاف ، هو سابور بن هرمز ، وكلاهما من ملوك العجم .

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ لة تجبى إليـــه والخابور(١)
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ملك عنـــه فبابه مهجور
شاده مرمراً وجلله كلـ ساً فللطير فى ذراه وكور(٢)
وتبين رب الخورنق إذ أشـ رف يوماً وللهدى تفكير(٣)
سره حاله وكـــثرة ما يمـــلك والبحر معرضاً والسدير(٤)
فارعوى قلبه وقال : فما غبـ طة حى إلى الممات يصـــير!
ثم بعد الفلاح والملك والأمـــة وارتهم هناك القبور(٥)
ثم أضحوا كأنهم ورق جـ ف فألوت به الصبا والدبور(٦)

قد اتفق الناس على أن هذه الأبيات أحسن ما قيل من القريض فى هذا المعنى، وأن الشعراء كلهم أخذوا منها، واحتذوا فى هذا المعنى حذوها .

* * *

وقال الرضى أبو الحسن رضى الله عنه :

انظر إلى هـذا الأنام بعـبرة لا يعجبنك خلقـه ورواؤه(٧)
فتراه كالورق النضير تقصفت أغصانه، وتسلبت شجراؤه(٨)
أنى تحاماه المنون، وإنمـا خلقت مراعى للردى خضراؤه
أم كيف تأمل فلتـة أجساده من ذا الزمان وحشوها أدواؤه !

(١) الخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
(٢) الكلس : الصاروج ، وأخلاطها التى تصرج (تطلى) بها النزل وغيرها .
(٣) فى الأغانى : « وتذكر » .
(٤) فى الأغانى : « سره ماله » .
(٥) الأمة : النعمة .
(٦) ألوت به : أى ذهبت به .
(٧) ديوانه لوحة ١١٦ .
(٨) ديوانه : « فبيناه » .

لا تعجبنّ فما العجيب فناؤهُ ‏ ‏ ‏ ‏ بيدِ المنون ، بل العجيب بقاؤهُ
إنّا لنعجب كيف حُمّ حِمامُه ‏ ‏ ‏ ‏ عَن صحةٍ ، ويغيبُ عنّا داؤه
مَنْ طاح فى سبل الرّدَى آباؤه ‏ ‏ ‏ ‏ فليسلكنّ طريقَهمْ أبناؤه
ومؤمَّرٍ نزلوا به فى سُوقة ‏ ‏ ‏ ‏ لا شكله فيهم ولا نظراؤه (١)
قد كان يَفْرَق ظلّه أقرانُه ‏ ‏ ‏ ‏ ويَغُضّ دُون جلاله أكفاؤه (٢)
ومُحجّبٍ ضُربت عليه مهابةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ يَعْشِى العيون بهاؤه وضياؤهُ
نادَتْه من خلف الحجاب منيّةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ أمَمٌ فكان جوابَها حوباؤهُ (٣)
شقّت إليه سيوفه ورِماحَه ‏ ‏ ‏ ‏ وأمِيطَ عنه عبيدُه وإماؤه
لم يُغْنِه مَنْ كان ودّ لو أنّه ‏ ‏ ‏ ‏ قَبْلَ المنون مِنَ المنون فداؤه
حَرَمٌ عليه الذلّ إلّا أنّه ‏ ‏ ‏ ‏ أبدا لَيشهدُ بالجلال بِناؤه (٤)
متخشّع بعد الأنيس جنابُه ‏ ‏ ‏ ‏ متضائلٌ بعد القَطين فناؤه
عُريان تطرد كلّ ريح تُرْبه ‏ ‏ ‏ ‏ ويطيع أوّل أمرِها حصباؤه
ولقد مررت بِبَرْزَخٍ فسألتُه ‏ ‏ ‏ ‏ أين الأُلى ضَمّتهمُ أرجاؤه !
مثل المطىّ بوارِكاً أجداثهُ ‏ ‏ ‏ ‏ تَسْفِى عَلَى جنَباتِها بَوْغاؤه (٥)
ناديته فَخَفِى علىّ جوابُه ‏ ‏ ‏ ‏ بالقولِ إلّا مازَقَتْ أصداؤه (٦)

---

(١) الديوان : « قرناؤه » .
(٢) يفرق : يخاف ويهاب .
(٣) أمم : قريبة ، والحوباء : النفس .
(٤) حرم عليه : حرام عليه .
(٥) بواركا : جمع بارك أو باركة . البوغاء : التراب .
(٦) زقت : صاحت : الأصداء : جمع صدى ، وهو حكاية الصوت فى الجبال والكهوف والأماكن العالية .

مِنْ ناظر مطروفةٍ ألحاظه أو خاطرٍ مظلولة سوداؤه (١)
أو واجدٍ مكظومة زفراتُه أو حاقدٍ منسيّةٍ شحناؤه (٢)
ومسنَّدين على الجنوب كأنّهم شَرْبٌ تخاذل بالطِّلا أعضاؤه
تحت الصّعيد لغير إشفاق إلى يوم المَعاد يضمُّهم أحشاؤه
أكلتهمُ الأرض التى ولدتهمُ أكلَ الضّروس حلَتْ له أكلاؤه

* * *

وقال أيضا :

وتفرّقُ البُعداء بعد تجمّعٍ صَعْبٌ، فكيف تفرّق القُرباءِ؟ (٣)
وخلائقُ الدّنيا خلائق مُومسٍ، للمنع آونةً، وللإعطاء (٤)
طَوْراً تبادلك الصّفاء وتارة تلقاك تنكرُها من البغضاء
وتداوُل الأيام يُبلينا كما يُبلى الرّشاء تطاوُحُ الأرجاء (٥)
وكأنّ طولَ العمْر رَوْحة راكبٍ قضّى اللُّغوبَ وَجدّ فى الإسراء (٦)
لهفِى على القَوم الأولى غادرتهمْ وعليهمُ طَبَقٌ من البَيْداء (٧)

---

(١) مطروفة ، من قولهم : طرق فلان بصره ؛ إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر . ومطلولة ، من قولهم : طل دم فلان ، إذا ذهب هدراً .

(٢) واجد ، من الوجد ؛ وهو الحزن .

(٣) من مرثيته لوالدته فاطمة بنت الناصر ، وأولها :

أبكيك لو نقعَ الغليلُ بكائى وأقولُ لَوْ ذَهبَ المقالُ بدائى

ديوانه لوحة ١١٥ .

(٤) المومس : المرأة الفاجرة .

(٥) الرشاء : الحبل يستقى به من البئر ، والأرجاء : جمع رجا ؛ وهو ناحية البئر .

(٦) روحة راكب : راحته . واللغوب : الإعياء . والإسراء : سير الليل .

(٧) الطبق : وجه الأرض ؛ أو غطاء كل شىء .

متوسِّدين على الخـدودِ كأنّمـا ... كَرَعُوا على ظَمَإٍ من الصَّهْبَاءِ

صُوَرٌ ضَنِنتُ على العُيُون بلحظِها ... أمسيتُ أوقِرُها من البَوْغَاءِ (١)

ونواظرٌ كَحَل التّراب جفونَها ... قد كنت أحرُسُها من الأقذاءِ

قَرُبت ضَرَائِحُهُمْ عَلَى زُوّارِها ... ونأوْا عن الطُّـلاب أىّ تنـاءِ (٢)

ولبئس ما يلقى بعُقْرِ ديارهمْ ... أذُنُ المصيخِ بهـا وعينُ الرّائى (٣)

(١) البوغاء : التربة الرخوة .
(٢) الضرائح : جمع ضريح ؛ وهو القبر .
(٣) عقر ديارهم : وسطها .

(٢١٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[١] :

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْقَادُ بِهِ بعد الْمُعَانَدَةِ . وَمَا بَرِحَ لِلَّهِ ـ عَزَّتْ آلَاؤُهُ ، فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ ـ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ، فاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ . مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطريقَ ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ .

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَاوَرَاءَ ذَلِكَ ، فَكَأَنَّمَا

---

(١) سورة النور ٣٦ ، ٣٧

اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا ، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ .

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ ؛ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا ، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا ؛ وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلَالِ بِهَا ؛ فَنَشَجُوا نَشِيجاً ، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً ، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ ـ لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَصَابِيحَ دُجًى ، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ؛ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ .

يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ ، جَرَحَ طُولُ الأَسَى قُلُوبَهُمْ ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ .

لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ .

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ .

***

الشرح :

من قرأ ﴿ يسبَّح له فيها ﴾ بفتح الباء[1] ارتفع « رجال » عنده بوجهين :

---

(١) هي قراءة ابن عامر وأبي بكر بن مجاهد؛ والباقون بكسرها ؛ وانظر أيضا إتحاف فضلاء البشر ٣٢٥

أحـدهما أنْ يُضمَر له فعل يكون هو فاعله ، تقديره « يسبحه رجال » ، ودلّ على « يسبّحه » يسبّح ، كما قال الشاعر :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تُطيح الطوائحُ(١)

أى يبكيه ضارع ، ودلّ على « يبكيه » ا « يبْكِ » .

والثانى أن يكونَ خبر مبتدأ محذف ، تقديره : « المسبّحون رجال » . ومَنْ قرأ : « يسبِّح له فيها » بكسر الباء ، فـ « رجال » فاعل ، وأُوقع لفظ « التجارة » فى مقابلة لفظ « البيع » إمّا لأنه أراد بالتجارة هاهنا الشراء خاصّة ، أو لأنه عمم بالتجارة المشتملة على البيع والشراء ، ثم خصّ البيع ، لأنه أدخلُ فى باب الإلهاء ، لأنّ البيع يحصل ربحه بيقين ، وليس كذلك الشراء ، والذكْر يكون تارةً باللسان ، وتارةً بالقلب ، فالّذى باللسان نحو التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء ، والذى بالقلْب؛ فهو التعظيم والتبجيل والاعتراف والطاعة .

وجلوت السيف والقلْب جِلاء ، بالكسر ، وجلوت اليهودَ عن المدينةِ جَلاء بالفتح.

والوَقْرة : الثقل فى الأذن . والعَشْوة ، بالفتح : فَعْلة ، من العشا فى العين . وآلاؤه : نعمه .

فإن قلت : أىّ معنى تحت قوله : « عزت آلاؤه » وعزّت بمعنى . «قلّت» ؟وهل يجوز مثل ذلك فى تعظيم الله ؟

قلت : عَزّت هاهنا ليس بمعنى « قلّت » ولكن بمعنى : « كرمت وعظمت » ، تقول منه : عَزَزْتُ على فلان بالفتح ، أى كرُمْت عليه ، وعظُمت عنده ، وفلان عزيز علينا ، أى كريم معظم .

---

(١) البيت من شواهد مغنى اللبيب ٦٢٠ .

والبُرهة من الدهر : المدّة الطويلة ، ويجوز فتح الباء .

وأزمان الفترات : ما يكون منها بين النَّوْبتين .

وناجاهم فى فكرهم : ألهمهم ، بخلاف مناجاة الرّسل ببعث الملائكة إليهم ، وكذلك « وكلّمهم فى ذات عقولهم » ، فاستصبحوا بنور يقظة » : صار ذلك النور مصباحا لهم يستضيئون به .

قوله : « مَنْ أخذ القصد حَمِدوا إليهم طريقه » ، إلى هاهنا : هى التى فى قولهم : أحْمَد الله إليك ؛ أى مُنهياً ذلك إليك ، أو مفضياً به إليك ؛ ونحو ذلك ، وطريقة العرب فى الحذف فى مثل هذا معلومة ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً ﴾(١) ؛ أى لجعلنا بدلا منكم ملائكة . وقال الشاعر :

فليس لنا من ماء زمزم شربة مبرّدة باتت على طَهيانِ

أى عِوَضاً من ماء زمزم .

قوله : « ومَن أخذ يمينا وشمالا » ، أى ضلّ عن الجادّة .

و « إلى » فى قوله : « ذمّوا إليه الطريق » مثل « إلى » الأولى .

ويهتفون بالزواجر : يصوّتون بها ، هتفت الحمامة تهتِف هتْفا ، وهتف زيد بالغنم هِتافاً بالكسر ، وقوس هتافة وهتفى ، أى ذات صوت .

والقسْط : العدل . ويأتمرون به : يمتثلون الأمر .

وقوله : « فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة » ، إلى قوله : « ويسمعون مالا يسمعون » ؛ هو شرح قوله عن نفسه عليه السلام : « لو كشِف الغطاء ما ازددت يقينا » .

والأوْزار : الذنوب . والنشيج : صوت البكاء . والمقعد : موضع القعود .

---

(١) سورة الزخرف ٦٠ .

ويد قارعة : تطرق باب الرحمة ، وهذا الكلام مجاز .

والمنادح : المواضع الواسعة .

و « على » فى قوله : « ولا يخيب عليه الراغبون » متعلقة بحذوف مثل « إلى » المتقدّم ذكرها ، والتقدير « نادمين عليه » .

والحسيب : المحاسب .

***

واعلم أنّ هذا الكلام فى الظاهر صفة حال القصّاص والمتصدّين لإنكار المنكرات، ألا تراه يقول: « يذكّرون بأيام الله » ! أى بالأيام التى كانت فيها النقمة بالعصاة ، ويخوّفون مقامه من قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (١) ثم قال : فمن سلك القَصْد حمِدُوه، ومَنْ عدل عن الطريق ذمُّوا طريقه، وخوفوه الهلاك . ثم قال : يهتفون بالزواجر عن المحارم فى أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط وينهون عن المنكر .

وهذا كله إيضاح لما قلناه أولا ؛ أنّ ظاهرَ الكلام شرحُ حالِ القصّاص وأرباب المواعظ فى المجامع والطرقات ، والمتصدّين لإنكار القبائح ؛ وباطن الكلام شرح حال العارفين ، الذين هم صَفْوة الله تعالى من خلقه ، وهو عليه السلام دائما يكنى عنهم ، ويرمز إليهم ، على أنه فى هذا الموضع قد صرح بهم فى قوله : « حتّى كأنّهم يرون ما لا يرَى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون » .

وقد ذكر من مقامات العارفين فى هذا الفصل الذكر ، ومحاسبة النفس ، والبكاء والنحيب ، والنّدم والتّوبة ، والدعاء والفاقة ، والذلة ، والحزن ، وهو الأسى الذى ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله .

***

(١) سورة الرحمن ٤٦ .

[بيان أحوال العارفين]

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدّم ، وهذا موضعه ، فنقول : إنّ أول مقام من مقامات العارفين ، وأوّل منزل من منازل السالكين التوبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « التائبُ من الذّنب كمنْ لا ذنْب له » .

وقال عليّ عليه السلام : « مامن شيء أحبّ إلى الله من شابّ تائب » .

والتوبة فى عرف أرباب هذه الطريقة النّدَم على ماعمل من المخالفة وترك الزلّة فى الحال والعزم على ألّا يعودَ إلى ارتكاب معصية ، وليس النّدم وحده عند هؤلاء توبة ، وإن جاء فى الخبر : «الندم توبة» ، لأنّه على وِزان قوله عليه السلام : «الحجّ عرفة» ليس على معنى أنّ غيرها ليس من الأركان ، بل المراد أنّه أكبر الأركان وأهمّها . ومنهم من قال: يكفى الندم وحده ، لأنه يستتبع الرّكنين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ماهو مصرٌّ على مثله ، أو ماهو عازم على الإتيان بمثله .

قالوا : وللتوبة شروط وترتيبات :

فأوّل ذلك انتباه القلب من رَقْدة الغفلة ، ورؤية العبد ماهو عليه من سوء الحالة ، وإنّما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى مايخطر بباله من زَواجر الحقّ سبحانه ؛ يسمع قلبه ، فإنّ فى الخبر النبوىّ عنه صلى الله عليه وآله : « واعظ كلّ حالٍ الله فى قلب كلّ امرئٍ مسلم » .

وفى الخبر : « إنّ فى بدن المرء لَمُضغةً إذا صلَحت صلَح جميع البدن ؛ ألا وهى القلب ، وإذا فسدت فسد جميع البدن ، ألا وهى القلب » .

---

(١) سورة النور ٣١ .

وإذا أفكر العبدُ بقلبه فى سوء صنيعه ، وأبصر ماهو عليه من ذميم الأفعال ، سَنَحت فى قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة ، فيمدّه الحقّ سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ فى طرق الرجوع والتأهّب لأسباب التوبة .

وأوّل ذلك هِجران إخوان السوء ؛ فإنّهم الذين يحملونه على ردّ هذا القصْد ، وعكس هذا العزم ، ويشوّشون عليه صحّة هذه الإرادة ، ولا يتمّ ذلك له إلّا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التى تزيده رغبة فى التوبة ، وتوفّر دواعيه إلى إتمام ماعَزَم عليه ، ممّا يقوّى خوفَه ورجاءه ، فعند ذلك تنحلّ عن قلبه عُقْدة الإصرار على ماهو عليه من قبيح الفعال ، فيقف عن تعاطى المحظورات ، ويكبَح نفسَه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات ، فيفارق الزلّة فى الحال ، ويلزم العزيمة على ألّا يعود إلى مثلها فى الاستقبال ، فإنْ مَضَى على موجب قصدِه ، ونفذ على مقتضى عزمِه ، فهو الموفّق حقا ، وإن نقضَ التوبة مرةً أو مرات ، ثم حملته إرادته عَلَى تجديدها ، فقد يكون مثل هذا كثيرا ، فلا ينبغى قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإنّ لكلّ أجلٍ كتابا . وقد حكِىَ عن أبى سليمان الدّارانىّ أنه[1] قال: اختلفْتُ إلى مجلس قاصّ ، فأثر كلامه فى قلبى ، فلمّا قمت لم يبق فى قلبى شىء ، فعدت ثانيا ، فسمعت كلامَه ، فبقِىَ من كلامه فى قلبى أثر فى الطريق ثم زال ، ثم عدتُ ثالثا فوَقَر كلامُه فى قلبى ، وثبتّ حتى رجعتُ إلى منزلى ، وكسرت آلات المخالفة ، ولزمت الطريق .

وحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ ، فقال : عصفور اصطاد كُرْكيًّا — يعنى بالعصفور القاصّ ، وبالكركىّ أبا سليمان .

ويحكى أنّ أبا حفصٍ الحدّاد ذكر بدايته ، فقال : تركت ذلك العمل — يعنى المعصية — كذا وكذا مرّة ، ثم عدت إليها ، ثم تركنى العمل ، فلم أعدْ إليه .

---

(١) ساقط من : ب .

وقيل إنّ بعض المريدين تابَ ، ثم وقعت له فترة ، وكان يفكّر ويقول : أترى لو عدتُ إلى التوبة كيف كان يكون حكمى ! فهتف به هاتف : يافلان ، أطعتنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، وإن عدتَ إلينا قبلناك ؛ فعاد الفتى إلى الإرادة .

وقال أبو على الدقّاق : التوبة عَلَى ثلاثة أقسام . فأوّلها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوْبة ، فجعل التوبة بداية ، والأوْبة نهاية ، والإنابة واسطة بينهما . والمعنى أنّ مَنْ تاب خوفا من العقاب فهو صاحب التوبة ، ومَنْ تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب الإنابة ، ومَنْ تاب مراعاة للأمر فقط ، فهو صاحب الأوْبة .

وقال أبو علىّ أيضا : التوبة صفة المؤمنين ، قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . والإنابة صفة الأولياء ، قال سبحانه : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (٢) ، والأوْبة صفة الأنبياء ، قال سبحانه : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٣) .

وقال الجُنيد : دخلت عَلَى السّرِىّ يوما ، فوجدته متغيّرا ، فسألته فقال : دخل علىّ شابٌّ ، فسألنى عن التوبة ، فقلت : ألاّ تنسى ذنبَك ! فقال : بل التوبة ألاّ تذكر ذنبك . قال الجنيد : فقلتُ له : إنّ الأمر عندى ماقاله الشابّ ، قال : كيف ؟ قلت : لأنى إذا كنتُ فى حال الجفاء فنقلنى إلى حال الصفاء ، فذِكْر الجفاء فى حال الصّفاء جفاء . فسكت السّرىّ .

وقال ذو النّون المصرىّ : الاستغفار من غير إقلاع توبةُ الكذّابين .

وسئل البوشنجىّ عن التوبة ، فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فذاك حقيقة التوبة .

---

(١) سورة النور ٣١ .
(٢) سورة ق ٣٣
(٣) سورة ص ٣٠ .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرضُ بما رَحُبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وقيل لأبى حفص الحدّاد : لمَ تُبغِضُ الدّنيا ؟ فقال : لأنّى باشرتُ فيها الذّنوب ، قيل : فهلّا أحبَبْتَها لأنك وُفّقت فيهـا للتوبة ! فقال : أنا من الذّنب عَلَى يقينٍ ، ومن هذه التوبة عَلَى ظَنّ .

وقال رجل لرابعة العدوية : إنّى قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصى ، فهلْ يتوبُ علىّ إن تبتُ ؟ قالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

قالوا : ولمّا كان الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ ﴾ دلّنا ذلك عَلَى محبّته لمن صحّت له حقيقة التوبة ، ولا شبهة أنّ مَنْ قارف الزّلة فهو من خطئه عَلَى يقين ، فإذا تاب فإنّه من القبول عَلَى شكّ ، لاسيما إذا كان مِنْ شرط القبول محبّة الحقّ سبحانه له ، وإلى أن يبلُغ العاصى محلًّا يجدُ فى أوصافه أمارة محبّة الله تعالى إيّاه مسافة بعيـدة ، فالواجب إذاً عَلَى العبد إذا علـم أنّه ارتـكب مايجب عنـه التوبة دوام الانـكسار ، وملازمة التنصّل والاستغفار ، كما قيل : استشعار الوَجل إلى الأجَل .

وكان من سنّته عليه السلام دوام الاستغفار . وقال : « إنَّه لَيُغَانُ عَلَى قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرّة » (٢) .

---

(١) سورة التوبة ٢٥ .

(٢) أورده ابن الأثير فى النهاية ٣ : ١٨٠ ، وقال : الغين : الغيم ، وغينت السماء تغان : إذا أطبق عليهـا الغين ، وقيل : الغين : شجر ملتف ؛ أراد ما يغشاه من السهو الذى لا يخلو منه البشر ؛ لأن قلبـه أبداً كان مشغولا بالله تعـالى ؛ فإن عرض له وقتاً ما عارض بشرى يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار » .

وقال يحيى بن معاذ : زلّة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها .

ويحكى أنّ عليّ بن عيسى الوزير ركب فى موكب عظيم ، فجعل الغرباء يقولون : مَنْ هذا ؟ مَنْ هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على السطح : إلى متَى تقولون : من هذا ، من هذا ! هذا عبد سقط من عينِ الله ، فابتلاه بما ترَوْن . فسمع عليّ بن عيسى كلامها ، فرجع إلى منزله ولم يزل يتوصّل فى الاستعفاء من الوزارة حتى أُعفِيَ ، وذهب إلى مكّة فجاور بها .

***

ومنها المجاهدة ، وقد قلنا فيها ما يكفى فيما تقدّم .

***

ومنها العزلة والخلوة ، وقد ذكرنا فى جزء قبل هذا الجزء مما جاء فى ذلك طرفا صالحا .

***

ومنها التّقوى ، وهى الخوف من معصية الله ، ومن مظالم العباد ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١)، وقيل : إنّ رجلاً جاء إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، فقال : يارسول الله أوصِنِي، فقال: « عليك بتقوى الله ، فإنه جماع كلّ خير،وعليك بالجهاد ، فإنّه رهبانيّة المسلم ، وعليك بذكر الله ، فإنّه نور لك » .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾(٢): أن يُطاع فلا يعصى ، ويُذكَر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفَر .

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٢ .

وقال النّصر اباذىّ : من لزم التّقوى بادرَ إلى مفارقة الدّنيا ، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾(١) .

وقيل : يستدلّ على تقوى الرجل بثلاث: التوكّل فيما لم ينلْ ، والرضا(٢) بما قد نال، وحسن الصبر على مافات .

وكان يقال : مَنْ كان رأس ماله التّقوى كَلّت الألسُنُ عن وصف ربحه .

وقد حكَوْا من حكايات المتقين شيئاً كثيرا ، مثل مايحكى عن ابن سيرين ، أنّه اشترى أربعين حُبًّا(٣) سمنا ،فأخرج غلامه فأْرةً من حُبّ ؛ فسأله :من أى حبٍّ أخرجَها؟ قال : لا أدرى ، فصبّها كلَّها .

وحكى أنّ أبا يزيد البِسطامىّ غسل ثوبَه فى الصّحراء ومعه مصاحب له ، فقال صاحبه : نضرِب هذا الوتِد فى جدار هذا البُستان ، ونبسط الثّوب عليه ، فقال : لايجوز ضرب الوتِد فى جدار النّاس قال : فنعلقّه على شجرة حتى يجفّ، قال : يكسر الأغصان، فقال : نبسطه على الإذخر(٤) قال : إنه علف الدوابّ لايجوز أن نستره منها . فولّى ظهره قِبَل الشمس ، وجعل القميص على ظهره حتى جفّ أحـدُ جانبيه ، ثم قلبه حتى جفّ الجانب الآخر .

* * *

ومنها الورع ، وهو اجتناب الشُّبهات ، قال صلى الله عليه وآله لأبى هريرة : « كنْ ورِعاً تـكنْ أعبد النّاس » .

وقال أبو بـكر : كنا نَدَعُ سبعين باباً من الحـلال مخافة أن نقع فى باب واحـد من الحرام .

---

(١) سورة الأنعام ٣٢ .
(٢) ب : « الشكر » ، وما أثبته من : ا .
(٣) الحب هنا : الجرة .
(٤) الإذخر : الحشيش الأخضر .

وكان يقال : الورع فى المنطق أشدّ منه فى الذّهب والفضة، والزّهد فى الرياسة أشدّ منه فى الذّهب والفِضّة ، لأنك تبذلهما فى طلب الرياسة .

وقال أبو عبد الله الجلاّء : أعرِف مَنْ أقام بمكّة ثلاثين سنة لم يشربْ من ماء زمزم إلّا ما استقاه برَكْوتِهِ ورِشائه .

وقال بشر بن الحارث : أشدّ الأعمال ثلاثة : الجود فى القلّة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحقّ عند من يُخاف ويرجَى .

ويقال : إنّ أخت بشر بن الحارث (١) جاءت إلى أحمد بن حنبل ، فقالت : إنّا نغزِل على سطوحنا فتمرّ بنا مشاعل الطّاهرية ، فيقع شعاعها علينا ، أفيجوز لنا الغزل فى ضوئها ؟ فقال أحمد : مَنْ أنتِ ياأمَةَ الله ؟ قالت : أختُ بشر الحافى ، فبكى أحمد ، وقال : من بيتكم خرج الورَع ، لا تغزلى فى ضوء مشاعلهم .

وحكى بعضهم ، قال : مررت بالبَصْرة فى بعض الشوارع؛فإذا بمشايخ قُعود وصبيان يلعبون،فقلت : أماتستحيون من هؤلاء المشايخ ؟ فقال غلام من بينهم : هؤلاء المشايخ قلّ ورعُهم ، فقلّت هيبتُهم .

ويقال : إنّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، ماصحّ له أن يأ كل من تمر البصرة ولا من رُطَبها حتى مات ولم يذقه.وكان إذا انقضى أوان الرُّطَب يقول:ياأهل البصْرة ، هذا بطنى مانقص منه شيء ، سواء علىّ أ كلت من رُطَبكم أو لم آ كل !

وقال الحسن : مثقالُ ذَرّة من الورَع خيرٌ من ألف مثقال من الصّوْم والصلاة .

ودخل الحسن مكّة ، فرأى غلاما من ولَدِ علىّ بن أبى طالب ، قد أسندَ ظهره إلى

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر الحافى تاريخ بغداد ٧ : ٦٧ .

الكعبة وهو يعظ الناس ، فقال له الحسن : ما مِلاك الدين ؟ قال : الورَع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطمع ، فجعل الحسن يتعجّب منه .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ لم يصحبْه الورع ، أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وحُمِل إلى عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ من الغنائم ، فقبض على مشمّه ، وقال : إنما ينتفع مِنْ هذا بريحه ، وأنا أكره أن أجدَ رِيحه دون المسلمين .

وسئل أبو عثمان الحيرىّ عن الورع فقال : كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو فى النزْع ، فمات الرجل ، فنفث أبو صالح فى السِّراج فأطفأه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إلى الآن كان الدهن الذى فى المسْرجة له ، فلما مات صار إلى الورثة .

* * *

ومنها الزهد، وقد تكلّموا فى حقيقته، فقال سفيان الثورىّ: الزهد فى الدنيا قصرُ الأمل.

وقال الخوّاص : الزهْد أن تتركَ الدُّنيا فلا تبالِى مَنْ أخذها .

وقال أبو سُلَيمان الدّارانىّ : الزهدُ تركُ كلّ ما يشغل عن الله .

وقيل : الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾(١) .

وكان يقال: مَنْ صدق فى زهده أتته الدنيا وهى راغمة، ولهذا قيل : لو سقطت قلنسُوة من السماء لما وقعتْ إلّا عَلَى رأس من لا يريدها .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد يُسْعطُك (٢) الخلّ والخردل ، والعِرفان يُشِمّك المسك والعنبر .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٢) سعطه الدواء وغيره : أدخله فى أنفه .

وقيل لبعضهم : ما الزّهد فى الدنيا ؟ قال : تَرْكُ مافيها على مَنْ فيها .

وقال رجل لذى النون المصرىّ : متى ترانى أزهد فى الدنيا ؟ قال : إذا زهدتَ فى نفسك .

وقال رجل ليحيي بن معاذ : متى ترانى أدخلُ حانوتَ التوكّل ، وألبس رداء الزهد ، وأقعد بين الزاهدين ؟ فقال : إذا صرتَ من رياضتِك لنفسك فى السرّ إلى حدّ لو قطعَ اللهُ عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك ولا فى يقينِك ، فأمّا مالم تبلغ إلى هذه الدرجة فقعودك على بساط الزاهدين جهل ؛ ثم لا آمن أن تفتضح .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد العوامّ ، وترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواصّ ، وترك كلّ مايشغلك عن الله ، وهو زهد العارفين .

وقال يحيي بن معاذ : الدنيا كالعَرُوس ، فطالبها كما شِطتها تحسِّن وجهها وتعطّر ثوبها ، والزاهد فيها كضَرَّتها تُسَخِّم وجهها ، وتنتف شعرها ، وتحرق ثوبها . والعارف مشتغل بالله ، لايلتفت إليها ، ولا يشعر بها .

وكان النّصراباذىّ يقول فى مناجاته : يامن حقَنَ دماء الزاهدين ، وسفَكَ دماء العارفين !

وكان يقال : إنّ الله تعالى جعل الخير كلّه فى بيت ، وجعل مفتاحه الزّهد ، وجعل الشرّ كلّه فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .

* * *

ومنها الصمت ، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نكتا نافعة فى هذا المعنى ، ونذكر الآن شيئاً آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذينّ جاره ، ومَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفه ، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت » .

وقال أصحاب هذا العلم : الصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ (١) .

وقال مخبرا عن الجن : ﴿ فلمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى مخبرا عن يوم القيامة : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (٣) .

وقالوا : كم بين عبد سكت تصوّنا عن الكذب والغيبة ، وعبدٍ سكت لاستيلاء سلطان الهيبة !

وأنشدوا :

أرتّبُ ما أقولُ إذَا افْتَرَقْنَا ... وأُحْكِم دَائمًا حُجَجَ الْمَقَالِ

فأنساها إذا نحن التقينا ... وأنطقُ حين أنطق بالمحَالِ

وأنشدوا :

فيا ليلُ كم من حاجةٍ لى مهمّةٍ ... إذا جئتكم لم أدرِ بالليل ماهيا !

قالوا : وربما كان سبب الصّمت والسكوت حيرة البديهة ؛ فإنّه إذا ورد كشف بغتة ، خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد فلا علم ولا حسّ ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٤) ، فأمّا إيثار أرباب المجاهدة الصمت فلمَا علموا فى الكلام من الآفات ، ثم مافيه من حظّ النفس وإظهار صفات المدح ، والميل إلى أن يتميّز من بين أشكاله بحسن النطق ، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام . وهذا نعت أرباب

---

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ .

(٢) سورة الأحقاف ٢٩ .

(٣) سورة طه ١٠٨ .

(٤) سورة المائدة ١٠٩ :

الرياضة ، وهو أحَدُ أركانهم فى حكم مجاهدة النفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق .

ويقال : إن داود الطائىّ لما أرادأن يقعد فى بيته ، اعتقد أن يحضر مجلس أبى حنيفة، لأنه كان تلميذا له ويقعد بين أضرابه من العلماء ، ولا يتكلم فى مسألةٍ على سبيل رياضته نفسه ، فلما قويَتْ نفسُه على ممارسة هذه الخصلة سنةً كاملة ، قعد فى بيته عند ذلك ، وآثر العزلة .

ويقال : إنّ عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتابا فاستحسن لفظه ، مزّق الكتاب وغيّره .

وقال بشر بن الحارث : إذا أعجبك الكلام فاصمُت ، فإذا أعجبَك الصمتُ فتكلّم .

وقال سهل بن عبدالله : لا يصحّ لأحَدٍ الصّمت حتى يُلزِم نفسَه الخلوة ، ولا يصحّ لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .

***

ومنها الخوف ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ وإيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴾[(٢)] .

وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[(٣)] .

وقال أبو على الدقاق : الخوف على مراتب : خوف ، وخشية ، وهيبة .

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[(٤)] .

والخشية من شروط العلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[(٥)] .

(١) سورة السجدة ١٦ .
(٢) سورة البقرة ٤٠ .
(٣) سورة النحل ٥٠ .
(٤) سورة آل عمران ١٧٥ .
(٥) سورة فاطر ٢٨ .

والهيبة من شروط المعرفة ، قال سبحانه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ﴾ (١) .

وقال أبو عمر الدمشقيّ : الخائف مَنْ يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضهم : مَنْ خاف من شيء هرب منه ، ومَنْ خاف الله هَرَب إليه .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : ما فارق الخوفُ قلباً إلا خرب .

* * *

ومنها الرجاء، وقد قدّمنا فيما قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحا؛ قال سبحانه : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ﴾ (٢) .

والفرق بين الرجاء والتمنّي ، وكون أحدهما محمودا والآخر مذموما ؛ أنّ التمنى ألا يسلك طريق الاجتهاد والجدّ ، والرجاء بخلاف ذلك ، فلهذا كان التمنّي يورث صاحبَه الكسل .

وقال أبو على الرُّوذباريّ : الرجاء والخوف كجناحَيِ الطائر ، إذا استويا استوى الطائر وتمّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حدّ الموتِ .

وقال أبو عثمان المغربيّ : من حَمَل نفسه على الرّجاء تعطّل، ومَنْ حمل نفسه على الخوف قنَط ، ولكن مِنْ هذا مرّة ومن هذا مرة .

ومن كلام يحيى بن معاذ ـ ويروى عن علىّ بن الحسين عليهما السلام : يكاد رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى لك مع الأعمال ؛ لأنى أجدُنِى أعتمد فى الأعمال على

---

(١) سورة آل عمران ٢٨ .
(٢) سورة العنكبوت ٥ .

الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك ! وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف .

* * *

ومنها الحزن ، وهو من أوصاف أهل السّلوك .

وقال أبو علىّ الدّقاق : صاحب الحزن يقطع من طريق الله فى شهر ما لا يقطعه مَنْ فقد الحزن فى سنتين .

وفى الخبر النبوى صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يحبّ كلّ قلبٍ حزين » .

وفى بعض كتب النبوّات القديمة : « إذا أحبّ الله عبداً نصب فى قلبه نائحة ، وإذا أبغض عبداً جعل فى قلبه مِزْماراً » .

وروى أن رسول الله صلّى الله عليه وآله كان متواصلَ الأحزان ، دائم الفِكْر .

وقيل : إنّ القلب إذا لم يكن فيه حزن خَرِب ؛ كما أنّ الدار إذا لم يكن فيها ساكن خرِبت .

وسمعت رابعة رجلاً يقول : واحُزْناه ! فقالت : قُلْ واقلّة حُزْناه ! لو كنتَ محزونا ماتهيّأ لك أن تتنفّس !

وقال سُفْيان بن عُيينة : لو أن محزوناً بكَى فى أمّة ، لرحِم الله تلك الأمّة ببكائه .

وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحدٌ من أصحابه يقول : إذا رأيت محزونا فأقرئه عنّى السّلام .

وكان الحسن البصرىّ لايراه أحدٌ إلاّ ظنّ أنه حديث عهد بمصيبة .

وقال وكيع يوم مات الفُضَيل : ذهب الحُزن اليوم من الأرض .

وقال بعض السّلَف : أكثر مايجدُه[1] المؤمن فى صحيفته من الحسنات الحزنُ والهمّ .

---

(١) ب : « يوجده » ، وما أثبته من ا .

وقال الفُضَيْل : أدركت السلفَ يقولون : إنّ لله فى كلّ شىء زكاةً ، وزكاة العقل طول الحزن .

* * *

ومنها الجوعُ وتركُ الشهوات ، وقد تقدّم ذكر ذلك .

* * *

ومنها الخشوع والتواضع ، قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[1] .
وفى الخبر النبوىّ عنه صلّى الله عليه وآله : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ فى قلبه مثقال ذرّة من كِبْر ، ولا يدخل النار مَنْ فى قلبه مثقال ذَرّة من إيمان » ، فقال رجل : يارسولَ الله ، إنّ المرء ليُحِبّ أن يكون ثوبُه حسناً ، فقال : « إنّ الله جميل يحبّ الجمال ؛ إنّما التكبّر مَنْ بطر الحقّ ، وغمص الناس » .
وروى أنس بن مالك ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يعود المريضَ ، ويشيّع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبْد .
وكان يوم قُرَيظة والنّضير على حمار مخطوم بحبل من ليفٍ ، عليه إكاف من ليف .
ودخل مكة يوم فتحها راكب بعيرٍ ، برَحْل خَلَق ، وإنّ ذقنه لتمسّ وسط الرَّحْل خضوعاً لله تعالى وخشوعا ، وجيشه يومئذ عشرة آلاف .
قالوا فى حدّ الخشوع : هو الانقياد للحقّ . وفى التواضع : هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم .
وقال بعضهم : الخشوع قيام القلب بين يدى الحقّ بهمّ مجموع .
وقال حُذَيفة بن اليمَان : أوّل ماتفقدون من دينكم الخشوع .

---

(١) سورة المؤمنين ٢ .

وكان يقال: منْ علامات الخشوع أنّ العبد إذا أُغضِب أو خولف أو رُدَّ عليه استقبل ذلك بالقبول .

وقال محمد بن على التِّرمذىّ : الخاشع مَنْ خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم فى قلبه . فماتت حواسه وحَيِىَ قلبه ، وتطامنت جوارحه .

وقال الحسن : الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب .

وقال الجُنَيْد : الخشوع تذلل القلوبِ لعلام الغُيوب ، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أى خاشعون متواضعون .

ورأى بعضهم رجلًا منقبِض الظاهر ، منكسر الشاهد ، قد زوى منكبيه ، فقال : يا فلان ، الخشوع ها هنا ـ وأشار إلى صدره ، لا ها هنا ـ وأشار إلى منكبيه .

ورُوِىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رأى رجلًا يعبث بلحيته فى صلاته ، فقال: « لو خشع قلب هذا لخشعتْ جوارحه » .

وقيل : شرط الخشوع فى الصّلاة ألا يعرف مَنْ على يمينه ، ولا مَنْ على شماله .

وقال بعض الصوفية : الخشوع قُشَعْريرة تردُ على القَلْب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

وكان يقال : مَنْ لم يتّضِعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

وقيل : إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التراب .

وكان عمر بن الخطاب يُسرع فى المشى ، ويقول : هو أنجح للحاجة ، وأبعد من الزّهْو .

كان رجاء بن حَيْوة ليلةً عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فضعُف المصباح ، فقام رجل ليصلحه ، فقال : اجلس ، فليس من الكرم أن يستخدِم المرء ضيفَه ، فقال :

أنبه[1] الغلام ، قال : إنها أوّل نومة نامها ، ثم قام بنفسه فأصلح السراج فقال رجاء : أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ! قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر ابن عبد العزيز .

وفى حديث أبى سعيد الخدرىّ أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله كان يعلِفُ البعير ويقمُّ البيتَ ، ويخصِف النّعل ويرقع الثوب ، ويحلُب الشاة ، ويأكل مع الخادم . ويطحن معها إذا أعيت . وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السُّوق إلى منزل أهله ، وكان يصافح الغنىّ والفقير ، ويسلّم مبتدئا ، ولا يحقِر ما دُعىَ إليه ولو إلى حَشَف التّمر .

وكان هين المؤنة ، لَين الخُلق، كريم السجيّة ، جميل المعاشرة ، طلْق الوجه، بساماً من غير ضحك ، محزونا من غير عُبوس، متواضعا من غير ذلّة، جواداً من غير سَرَف، رقيق القلب ، رحيما لكلّ مسلم ، ما تجشّأ قطّ من شبع ، ولا مدّ يدَه إلى طَبَع .

وقال الفُضيل : أوحَى الله إلى الجبال أنى مكلّم على واحد منكم نبيا ، فتطاولت الجبال ، وتواضع طور سيناء ، فكلم الله عليه موسى لتواضعه .

سئل الجُنيد عن التواضع ، فقال : خَفْض الجناح ، ولين الجانب .

ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع .

وقيل لأبى يزيد : متى يكونُ الرّجل متواضعا ؟ قال : إذا لم يرَ لنفسه مقاما ولا حالا، ولا يرى أنّ فى الخلْق مَنْ هو شرٌّ منه .

وكان يقال : التواضُع نعمة لا يحسد عليها ، والتكبر محنْة لا يرحَم منها ، والعزّ فى التواضع ، فمن طلبه فى الكْبر لم يجده .

وكان يقال : الشّرف فى التواضع ، والعزّ فى التقوى ، والحرّية فى القناعة .

يحيى بن معاذ : التواضع حَسَنٌ فى كلّ أحد ؛ لكنّه فى الأغنياء أحسن ، والتكبر سمِجٌ فى كلّ أحد ، ولكنه فى الفقراء أسمج .

---

(١) ب : « انتبه » تصحيف .

وركب زيد بن ثابت ، فدنا ابنُ عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يا ابن عمّ رسول الله! فقال : إنّا كذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرجها فقبّلها، فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا .

وقال عُروة بن الزبير : رأيتُ عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقه قِرْبة ماء ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّه لا ينبغى لمثلك هذا ! فقال : إنّه لما أتتنى الوفود سامعةً مطيعةً ، دخلتْ نفسى نخوة ، فأحببت أن أكسرها . ومضى بالقربة إلى حُجْرة امرأة من الأنصار ، فأفرغها فى إنائها.

أبو سليمان الدارانىّ : مَنْ رأى لنفسه قيمة ، لم يذق حلاوة الخدْمة .

يحيى بن مُعاذ : التكبّر على مَنْ تكبّر عليك تواضع .

بِشْر الحافى : سلّموا على أبناء الدّنيا بترك السلام عليهم .

بلغ عمرَ بن عبد العزيز أنّ ابناً له اشترى خاتما بألف درهم ، فكتب إليه : بلغنى أنك اشتريت خاتما وفصُّه بألف درهم ، فإذا أتاك كتابى فبِعْ الخاتم ، وأشْبِع به ألف بطن ، واتّخذْ خاتماً من درهمين ، واجعل فصّه حديدا صينيًّا ، واكتب عليه : «رحم الله امرأ عَرَف قدره » .

قُوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطُب أيام خلافته باثنى عشر درهما، وهى: قَبَاء، وعمامة ، وقميص ، وسراويل ، ورداء ، وخُفّان ، وقلنسوة .

وقال إبراهيم بن أدهم : ماسررت قطّ سرورى فى أيام ثلاثة : كنت فى سفينة ، وفيها رجل مضحِك ، كان يلعَبُ لأهل [1] السفينة ، فيقول : كنّا نأخذ العِلْج من بلاد الترك هكذا ، ويأخذ بشعر رأسى فيهزّنى ، فسرّنى ذلك ، لأنه لم يكن فى تلك السفينة أحقر منّى فى عينه . وكنت عليلا فى مسجد ، فدخل المؤذن وقال : اخرج ، فلم أطق ، فأخذ

(١) فى الأصول : « أهل » .

برجْلى وجرّنى إلى خارج المسجد . وكنت بالشام وعلىّ فَرْو، فنظرت إليه فلم أميّز بين الشعر وبين القمْل لكثرته .

عُرِض على بعض الأمراء مملوكٌ بألوف من الدراهم ، فاستكثر الثمن ؛ فقال العبد : اشترنى يامولاىَ ، ففىّ خصلة تساوى أكثر من هذا الثمن . قال : ماهى ؟ قال : لو قدّمتنى على جميع مماليكك وخوّلتنى بكلّ مالك لم أغالط فى نفسى ، بل أعلم أنّى عبدُك . فاشتراه .

تشاجر أبو ذرّ وبلال ، فعيّر أبو ذرّ بلالا بالسّواد ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ياأبا ذرّ ، ماعلمتُ أنه قد بَقِىَ فى قلبك شىء من كِبْر الجاهليّة . فألقى أبو ذرّ نفسه ، وحلَف ألاّ يحمل رأسه حتى يطأ بلال خدّه بقدمه ؛ فما رفع رأسه حتى فَعَل بلال ذلك .

مرّ الحسنُ بن علىّ عليهما السلام بصبيان يلعبون ، وبين أيديهم كِسَر خبز يأكلونها ، فدعوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : الفضل لهم ، لأنّهم لم يجدوا غيرَ ما أطعمونى ، ونحن نجد أكثر ممّا أطعمناهم .

***

ومنها مخالفة النفْس ، وذكر عيوبها ، وقد تقدم ذكر ذلك .

***

ومنها القناعة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (١) ، قال كثير من المفسرين : هى القناعة .

وفى الحديث النبوى — ويقال إنّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لاينفد » .

(١) سورة النحل ٥٧ .

وفى الحديث النبوى أيضا : « كن ورِعاً تكنْ أعبَدَ النّاس، وكن قنوعا تكنْ أشكَر الناس ، وأحبّ للناس ماتحبّ لنفسك تكن مؤمنا ، وأحسن مجاورة مَنْ جاورك تكن مسلما ، وأقلّ الضَّحِك ، فإنّ كثرة الضحك تميتُ القلب » .

وكان يقال : الفقراء أمواتٌ إلّا مَنْ أحياه الله تعالى بعزّ القناعة .

وقال أبو سليمان الدارانىّ : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزّهد ، هذا أول الرضا، وهذا أول الزهد .

وقيل : القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا(١) ﴾ : إنّه القناعة .

وقال أبو بكر المراغىّ : العاقل مَنْ دبّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ؛ وأنكر أبو عبد الله بن خفيف ، فقال : القناعة ترك التسويف بالمفقود ، والاستغناء بالموجود .

وكان يقال : خرج العزّ والغنى يجولان ، فلقيا القناعة ، فاستقرّا .

وكان يقال : مَنْ كانت قناعته سمينةً طابت له كلُّ مرَقة .

مرّ أبو حازم الأعرج بقصّاب ، فقال له : خذ ياأبا حازم ، فقال : ليس معى درهم ، قال : أنا أنظِرُك ، قال : نفسى أحسن نظِرةً لى منك .

وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع : العزّ فى الطاعة ، والذلّ فى المعصية ، والهيبة فى قيام الليل ، والحكمة فى البطن الخالى ، والغنى فى القناعة .

وكان يقال : انتقِم من فلان بالقناعة ، كما تَنْتَقِم من قاتلك بالقصاص .

ذو النون المصرى : مَنْ قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .

وأنشدوا :

وَأَحْسَنُ بالفتى من يوم عارٍ ... يُنَالُ به الغنى ، كَرَمٌ وجُوعُ

---

(١) سورة الحج ٥٨ .

ورأى رجل حكيما يأكل ماتساقط من البقل على رأس الماء ، فقال له : لو خدمت السلطان لم تحتجْ إلى أكل هـذا ! فقال : وأنت لو قنعتَ بهـذا لم تحتج إلى خدمة السلطان .

وقيل : العُقاب عزيزٌ فى مطاره ، لا تسمو إليه مطامع الصيادين ، فإذا طمع فى جيفةٍ علقت على حبالة ، نزل من مطاره فنشب فى الأحبولة .

وقيل : لما نطق موسى بذكر الطمع ،فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجراً ﴾[1] ، قال له الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[1]

وفسّر بعضُهم قوله : ﴿ هَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾[2]، فقال : مقاما فى القناعه لايبلغه أحد .

* * *

ومنها التوكّل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[3].

وقال سهل بن عبد الله : أوّلُ مقامٍ فى التوكّل أن يـكونَ العبد بين يدى الله تعالى ، كالميت بين يدى الغاسل ، يقلّبه كيف يشاء ، لايـكون له حركة ، ولا تدبير .

وقال رجل لحاتم الأصمّ : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَـكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[4].

وقال أصحاب هـذا الشأن : التوكّل بالقلب ، وليس ينافيه الحركة بالجسد ، بعدأن يتحقّق العبد أنّ التقدير من الله ، فإنْ تعسّر شىء فبتقديره ، وإنْ تسهّل فبتيسيره .

---

(١) سورة الكهف ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة ص ٣٥ .

(٣) سورة الطلاق ٣ .

(٤) سورة المنافقون ٧ .

وفى الخبر النبوى أنّه عليه السلام قال للأعرابىّ الذى ترك ناقته مهملة فندّت، فلمّا قيل له، قال: توكّلت فتركتها، فقال عليه السلام: «اعقِلْ وتوكّلْ».

وقال ذُو النّون: التوكّل الانخلاع من الحول والقوّة، وترك تدبير الأسباب.

وقال بعضُهم: التوكّل ردّ العيش إلى يوم واحدٍ بإسقاط همّ غدٍ.

وقال أبو علىّ الدقاق: التوكُّل ثلاثُ درجات: التوكّل وهو أدناها، ثم التسليم، ثم التّفويض؛ فالأولى للعوامّ، والثانية للخواصّ، والثالثة لخواصّ الخواصّ.

جاء رجلٌ إلى الشِّبْلِيّ يشكو إليه كثرة العيال، فقال: ارجع إلى بيتك، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت.

وقال سهل بن عبدالله: مَنْ طَعَن فى التوكّل فقد طعَن فى الإيمان، ومَنْ طَعَن فى الحرَكة، فقد طعن فى السنة.

وكان يقال: المتوكّل كالطفل لايعرف شيئايأوِى إليه إلّا ثدى أمّه، كذلك المتوكل لايهتدى إلا إلى ربه.

ورأى أبوسليمان الدارانىّ رجلا بمكّة لايتناول شيئا إلاشربةً من ماء زمزم، فمضت عليه أيام، فقال له يوما: أرأيت لو غارت — أى زمزم — أىّ شىء كنت تشرب! فقام وقبّل رأسه، وقال: جزاك الله خيرا حيث أرشدتنِى؛ فإنّى كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وقيل: التوكل نفى الشُّكُوك، والتفويض إلى مالك الملوك.

ودخل جماعة على الُجنيد، فقالوا: نطلب الرزق! قال: إن علمتم فى أىّ موضع هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله ذلك، قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه، قالوا: ندخل البيت فنتوكّل، قال: التجربة شكّ، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

وقيل : التوكّل الثقة بالله واليأس عمّا فى أيدى الناس .

***

ومنها الشّكر ، وقد تقدّم منّا ذكر كثير مما قيل فيه .

***

ومنها اليقين وهومقام جليل ، قال الله : تعالى ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(١) .

وقال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقينا .

وقال سهل بن عبد الله : حرام عَلَى قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه شكوى إلى غير الله .

وذكر للنبى صلى الله عليه وآله ما يقال عن عيسى بن مريم عليه السلام أنّه مشى على الماء ، فقال : لو ازداد يقينا لمشى عَلَى الهواء .

وفى الخبر المرفوع عنه صلى الله عليه وآله ، أنه قال لعبدالله بن مسعود : « لا ترضين أحداً بسخط الله ، ولا تحمَدَنّ أحداً عَلَى فضل الله ، ولا تذمن أحداً عَلَى ما لم يؤتك الله . واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يردّه كراهة كاره ، وأنّ الله جعل الرّوْح والفرَج فى الرِّضا واليقين ، وجعل الهمّ والحزن فى الشكّ والسخط » .

***

ومنها الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ ﴾(٢) .

وقال علىّ عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وسئل الفُضَيل عن الصبر ، قال : تجرّع المرارة من غير تعبيس .

وقال رويم : الصّبْر ترك الشكوى .

---

(١) سورة البقرة ٤ .

(٢) سورة النحل ١٢٧ .

وقال عليّ عليه السلام : الصَّبْر مطيّة لا تـكبو .

وقف رجل على الشِّبْليّ ، فقال : أىّ صبرٍ أشدّ عَلَى الصابرين ؟ قال الشِّبليّ : الصَّبر فى الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فالصبر لله ، فقال : لا ، قال : فالصبر مع الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فأى شىء ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشِّبليّ صرخة عظيمة ، ووقع .

ويقال إنّ الشِّبليّ حُبِس فى المـارستان ، فدخـل عليه قوم ، فقال : مَنْ أنتم ؟ قالوا : محبّوك جئناك زائرين ، فرماهم بالحجارة فهربوا ، فقال : لو كنتم أحبّاىَ ، لصبرتم على بلائى .

وجاء فى بعض الأخبار ، عن الله تعالى : بعينى ما يتحمّل المتحمّلون من أجلى .

وقال عمر بن الخطاب : لو كان الصَّبر والشكر بعيرين لم أبالِ أيّهما ركبت .

وفى الحديث المرفوع : « الإيمان الصّبر والسخاء » .

وفى الخبر : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قائده ، والرفق والده ، والبرّ أخوه ، والصبر أمير جنوده . قالوا : فناهيك بشرف خصلة تتأمّر عَلَى هذه الخصال ! والمعنى أنّ الثبات عَلَى هذهِ الخصال واستدامة التخلّق بها إنما يكون بالصبر ، فلذلك كان أمير الجنود .

* * *

ومنها المراقبة ، جاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليـه وآله : أنّ سائلا سأله عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنّك تراهُ ، فإن لم تـكن تراهُ ، فإنه يراك » .

وهذه إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الربّ عليه ، فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة لِلحقّ ، وهو أصل كلّ خير ، ولا يـكاد يصل[1] إلى هذه الرّتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة ، فإذا حاسب نفسَه على ما سلف ، وأصلح حالَه فى الوقت ،

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « يوصل » .

ولازم طريق الحقّ ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب ، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس ، راقبه تعالى فى عموم أحواله ، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه ، يعلم أحواله ، ويرى أفعالَه ، ويسمع أقواله . ومَنْ تغافل عن هذه الجملة ، فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة !

ويحكى أنّ ملكا كان يتحظّى جارية له ، وكان لوزيره ميل باطنٌ إليها ؛ فكان يسعى فى مصالحها ، ويرجّح جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه . فاتّفق أن عرض عليها الملك حَجَرَيْن من الياقوت الأحمر : أحدهما أنفس من الآخر ، بحضر من وزيره، فتحيّرت أيّهما تأخذ ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس ، وحانت من الملك التفاتة ، فشاهد عين الوزير وهى مائلة إلى ذلك الجانب ، فبقِىَ الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسرا عينه نحو الجانب الذى كان طرفُه مائلا إليه ذلك اليوم ، أى كانَ[(١)] ذلك خِلقة . وهذا عزم قوىٌّ فى المراقبة ، ومثله فليكن حالُ من يريد الوصول .

ويحكى أيضا أنّ أميرا كان له غلام يُقبِل عليه أكثر من إقباله على غيره من مماليكه، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، فقيل له فى ذلك ، فأحبّ أن يبيّن لهم فضل الغلام فى الخدْمة على غيره ، فكان يوما راكبا ، ومعه حشمه ، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج فنظر الأمير إلى الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم الغلمان لماذا ركض ! فلم يلبث إلا قليلا حتى جاء ومعه شىء من الثلج ، فقال الأمير : ما أدراك أنى أردت الثلج ! فقال : إنك نظرت إليه ، ونظرُ السلطان إلى شىء لا يكون إلا عن قصد . فقال الأميرُ لغلمانه : إنما أختصّه بإكرامى وإقبالى ، لأن لكلٍّ واحد منكم شغلاً ، وشغله مراعاة لَحَظَاتى ، ومراقبة أحوالى .

---

(١) ب : « أن » .

وقال بعضهم : منْ راقب الله فى خواطره ، عصمه الله فى جوارحه .

***

ومنها الرضـا ، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصـائب التى يقضيها الله تعالى عليه ، وليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصى والفواحش ، أو نسبتها إلى الربّ تعالى عنها ؛ فإنه سبحانه لا يرضاها ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٢) .

قال رويم : الرّضا أن لو أدخلك جهنّم لمـا سخطت عليه .

وقيل لبعضهم : متى يـكون العبد راضياً ؟ قال : إذا سرّته المصيبة ، كما سرّته النعمة .

قال الشبلىّ مرة ـ والجنيد حاضر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الجنيد : أرى أنّ قولك هذا ضيقُ صَدْر ، وضيق الصدر يجىءُ من ترك الرضا بالقضاء .

وقال أبو سليمان الدارنىّ : الرضا ألاّ تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذ به من النار .

وقال تعالى فيمن سخط قسمته : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا منها إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٣) .

ثم نبّـه على ما حرمُوه من فضيلة الرضا ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُه إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (٣) ، وجواب « لو » ها هنا محذوف لفهْم المخاطب وعلمه به .

---

(١) سورة الزمر ٧ .
(٢) سورة الإسراء ٣٨ .
(٣) سورة التوبة ٥٨ ، ٥٩

وفى حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره « ارضى الله عنهم » ، ولمّا كان رضاه عن عباده مقاما جليلا جداً حذف ذكره ؛ لأنّ الذكر له لاينبئ عن كنهه ، وحقيقة فضله ، فكان الإضراب عن ذكره أبلغ فى تعظيم مقامه .

ومن الأخبار المرفوعة أنه صلّى الله عليه وآله قال : « اللهمّ إنّى أسألك الرضا بعد القضاء » ؛ قالوا : إنَّما قال : « بعد القضاء » لأنّ الرّضا قبل القضاء لا يتصوّر ، وإنما يتصوّر توطين النفس عليه ، وإنما يتحقق الرضا بالشىء بعد وقوع ذلك الشىء .

وفى الحديث أنّه قال لابن عباس يوصيه : « اعمل لله باليقين والرّضا ؛ فإن لم يكن فاصبر ، فإنّ فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا » .

وفى الحديث أنّه صلى الله عليه وآله رأى رجلاً من أصحابه ، وقد أجهده المرض والحاجة ، فقال : ما الّذى بلغ بك ما أرى ؟ قال : المرض والحاجة ، قال : أولا أعلّمك كلاما إن أنت قلته أذهب الله عنك ما بك ! قال : والّذِى نفسى بيده ما يسرّنى بحظّى منهما أنْ شهدت معك بدراً والحديبية ! فقال صلى الله عليه وآله « وهل لأهل بدْرٍ والحديبية ما للراضى والقانع ! » .

وقال أبو الدرداء : ذِروة الإيمان الصّبْر والرضا .

قدم سعد بن أبى وقاص مكّة بعد ما كُفّ بصره ، فانثال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم ، فقال له عبد الله بن السائب : يا عمّ إنك تدعُو للنّاس فيُستجاب لك ، هلا دعوت أن يردّ عليك بصرك ! فقال : يابن أخى ، قضاء الله تعالى أحبُّ إلىّ من بصرى .

عمر بن عبد العزيز : أصبحتُ ومالى سرور إلا فى مواقع القدَر .

وكان يقال : الرضا اطراح الاقتراح على العالم بالصلاح ، وكان يقال : إذا كان القدَر حقّا كان سخطه حمقا .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ حَظِيَ . ومنْ اطّرح الاقتراح ، أفلح واستراح .

وكان يقال : كنْ بالرّضا عاملًا ، قبل أن تكون له معمولا ، وسر إليه عادلا وإلا سرْت نحوه معدولًا .

وقيل للحسن : من أين أُتِيَ الخلق ؟ قال : مِنْ قلّة الرضا عن الله ، فقيل : ومِنْ أين دخلَتْ عليهم قلّة الرضا عن الله ؟ قال : من قلّة المعرفة بالله .

وقال صاحب(١) " سُلْوان المطاع " في الرّضا(٢) :

يا مفزعي فيما يجيء وراجِيِ فيما مضَى
عندي لما تقضيه ما يرضيك من حُسْنِ الرضا
ومن القطيعة أستعيذ مصرّحا ومعرّضا

وقال أيضا(٣) :

كُنْ من مدبّرك الحكيم عَلَا وَجَلّ على وَجَلْ
وارْضَ القضاء فإنّهُ حتم أجل ، وله أجلْ

وقال أيضا(٤) :

يامن يرى حالي وأن ليس لي ... في غير قربي منه أوْطَارُ(٥)
وليس لي ملتحَدٌ دونهُ ... ولا عليه لي أنصارُ
حاشا لذاك العزّ والفضل أنْ ... يهلك مَنْ أنت له جارُ
وإن تشأ هُلْكِي فهبْ لي رضًا ... بكلّ ما تقضي وتختارُ

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله عبد الله محمد بن محمد بن ظفر المكى ، المتوفى سنة ٥٦٥ .
(٢) سلوان المطاع ص ٦٦
(٣) سلوان المطاع ص ٦٦
(٤) سلوان المطاع ص ٦٦ ، ٦٧
(٥) في سلوان المطاع : في غير ما يرضيه أوطار .

عنـدى لأحكامِك يامالـكِى قلب كما أنعمت صبّـــارُ (١)
كلّ عذاب منـك مستعذَبٌ مالم يـكن سخطك والنّارُ (٢)

***

ومنها العبودية ، وهى أمر وراء العبادة ؛ معناها التعبّد والتذلّل .قالوا:العبادةللعوامّ من المؤمنين ، والعبوديّة للخواصّ من السالـكين.

وقال أبو على الدّقاق : العبادة لمن له علم اليقين ، والعبوديّة لمن له عين اليقين .

وسئل محمد بن خفيف : متى تصحّ العبودّية ؟ فقال : إذا طرح كلّه على مولاه ، وصَبَر معه على بلواه .

وقال بعضهم : العبوديّة معانقة ما أمرت به ، ومفارقة مازجرتعنه .

وقيل : العبوديّة أن تسلّم إليه كُلّك ، وتحمل عليه كَلّك .

وفى الحديث المرفوع : « تعس عبدُ الدّينار ، وتَعِس عبدُ الخميصة » .

رأى أبو يزيد البِسطامىّ رجلا، فقال له :ماحرفتُك ؟ قال خَرْبنده ، قال : أمات الله حِمارك ؛ لتـكون عبداً لله ، لا عبداً للحمار.

وكان ببغـداد فى رِباط شيخ الشّيوخ ، صوفىّ كبير اللّحيـة جدًّا ، وكان مغرًى ، ومعنًى بها أكثر زمانه ، يدهنها ويسرّحها ،ويجعلها ليلاً عند نومه فى كيس ،فقام بعض المريدين إليه فى الليل ، وهو نائم ، فقصّها من الأذن إلى الأذن ، فأصبحت كالصَّرِيم . وأصبح الصوفىّ شاكيا إلى شيخ الرّباط ، فجَمع الصوفيّةوسألهم، فقال المريد :أناقصصْتُها، قال : وكيف فعلت ، ويلك ذلك ! قال : أيّها الشيخ ، إنها كانت صنمَه ، وكان يعبدها من دون الله ، فأنـكرت ذلك بقلبى ، وأردتُ أن أجعلَه عبداً لله لا عبداً لِلّحية .

---

(١) هذا البيت ساقط من السلوان .
(٢) فى السلوان : بعدك والنار .

قالوا : وليس شيء أشرفَ من العبوديّة ، ولا اسم أتمّ للمؤمن من اسمه بالعبوديّة ، ولذلك قال سبحانه فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله ليلة المعراج ، وكان ذلك الوقت أشرفَ أوقاته فى الدنيا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾(١). وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾(٢)؛ فلو كان اسم أجلّ من العبودية لسمّاه به .

وأنشدوا :

لاتدعُنى إلّا بيـاعَبْدهَا فـإنّه أشرَفُ أسْمائى

***

ومنها الإرادة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾(٣).

قالوا : الإرادة هى بَدْء طريق السّالكين ، وهى اسم لأوّل منازل القاصدين إلى الله ، وإنّما سُمِّيت هذه الصفة إرادة ، لأنّ الإرادة مقدِّمة كلّ أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلمّا كان هذا الشأن أوّل الأمر لمن يسلك طريق الله سمّى إرادة ، تشبيهاً له بالقصد إلى الأمور التى هو مقدّمتها .

قالوا : والمريد على موجب الاشتقاق: مَنْ له إرادة ؛ ولكنّ المريد فى هذا الاصطلاح مَنْ لا إرادة له، فما لم يتجرّد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أنّ من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريدا .

وقد اختلفوا فى العبارات الدالّة على ماهيّة الإرادة فى اصطلاحهم ، فقال بعضهم : الإرادة ترْك ما عليه العادة ، وعادة النّاس فى الغالب التّعريج على أوْطان الغفلة ،

---

(١) سورة الإسراء ١ .
(٢) سورة النجم ١٠ .
(٣) سورة الأنعام ٥٢ .

والركون إلى اتّباع الشهوة ، والإخلاد إلى مادعتْ إليه المنيّـة ، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة .

وقال بعضهم : الإرادةُ نهوض القلب ،فى طلب الربّ ؛ ولهذا قيل : إنّها لوعةتهوّن كلّ روعة .

وقال :أبو علىّ الدقّاق : الإرادةلوعةٌ فىالفؤاد ،ولذعةٌ فى القلب، وغرامٌ فىالضمير، وانزعاج فى الباطن ، ونيران تأجّج فى القلوب .

وقال ممشاذ الدينورىّ : مذعلمت أنّ أحوالَ الفقراءجِدٌّ كلّها لم أمازح فقيراً،وذلك أنّ فقيراً قدم علىّ ، فقال : أيّها الشيخ ، أريد أن تتّخذ لى عصيـدة ، فجرى على لسانى «إرادة وعصيدة» ، فتأخر الفقير ولم أشعر ،فأمرتُ باتّخاذعصيدة ،وطلبتهفلم أجده،فتعرّفتُ خبرَه، فقيل:إنّه انصرفمن فوره ،وهويقول «إرادة وعصيدة، إرادة وعصيدة!»،وهامَ علَى وجهِه ، حتّى خرج إلى البادية ، وهو يكرّر هذه الـكلمة ، فما زال يقول ويردّدها حتى مات .

وحكى بعضُهم ، قال : كنتُ بالباديةِ وحدى ، فضاق صدْرى ، فصحتُ : ياإنْس كلّمونى ، ياجنّ كلّمونى ! فهتف هاتفٌ : أىّ شىء ناديت ؟ فقلت : الله ، فقال الهاتف: كذبتَ ، لو أردته لما ناديتَ الإنس ، ولا الجنّ .

فالمريد هو الّذى لايشغلـه عن الله شىء ، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهـار ، فهو فى الظّاهر بنعت المجاهدات، وفى الباطن بوصف المـكابدات ، فارق الفراش ،ولازم الانـكماش، وتحمّل المصاعب ،وركب المتاعب ،وعالج الأخلاق ، ومارس المشاقّ ،وعانق الأهوال ، وفارق الأشـكال ، فهو كما قيل :

ثمّ قطعتُ اللّيـلَ فى مَهْمَهٍ لاأسداً أخشى ولا ذِيبا

يغلبنى شوقى فأطوى السُّرَى ولم يزلْ ذو الشّوق مغـــلوبا

وقيل : من صفات المريدين التحبّب إليه بالتوكّل ، والإخلاص فى نصيحة الأمة ، والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود فى محبّته ، والتعرّض لكلّ سبب يوصّل إليه ، والقناعة بالخمول ، وعدم الفرار من القلْب ، إلى أن يصلَ إلى الربّ .

وقال بعضهم : آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج ، وكَتْبه الحديث ، والأسفار .

وقيل : من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومُه غَلبة ، وأَكلُه فاقة ، وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة أن يشيرَ إلى الله فيجده مع الإشارة ، فقيل له : وأىّ شيء يستوعِبُ الإرادة ؟ فقال : أن يجد الله بلا إشارة .

وسئل الجُنَيد : ماللمريدين وسماع القصص والحكايات ؟ فقال : الحكايات جندٌ من جند الله تعالى ، يقوّى بها قلوبَ المريدين . فقيل له : هل فى ذلك شاهد ؟ فتلا قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾(١) .

وقال أصحابُ الطريقة : بين المريد والمُراد فَرْق ، فالمريد مَنْ سلك الرياضة طلبا للوُصول ، والمراد مَنْ فاضت عليه العناية الإلهية ابتداء ، فكان مخطوبا لا خاطبا ، وبين الخاطب والمخطوب فرق عظيم .

قالوا : كان مُوسى عليه السلام مريداً ، قال : ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾(٢) وكان محمد صلى الله عليه وسلم مُرادا ، قال له : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾(٣) ؛ وسئل الجنيد عن

---

(١) سورة هود ١٢٠ .
(٢) سورة طه ٢٥ .
(٣) سورة الشرح ١ .

المريد والمراد ، فقال : المريد سائر ، والمراد طائر ، ومتى يلحقُ السائرُ الطائرَ !

أرسل ذو النّون المصرىّ رجلا إلى أبى يزيد ، وقال له : إلى متى النّومُ والرّاحة ! قد سارت القافلة ! فقال له أبو يزيد : قل لأخى : الرّجُل مَنْ ينامُ اللّيل كله ، ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة . فقال ذو النون : هنيئا له ! هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا .

وقد تكلّم الحكماء فى هذا المقام ، فقال أبو علىّ بن سينا فى كتاب "الإشارات" : أوّل درجات حركات العارفين مايسمّونه همّ الإرادة ، وهو مايعترى المستبصر باليقين البرهانىّ ، أو الساكن النفس إلى العقد الإيمانىّ ، من الرغبة فى اعتلاق العروة الوثقى ، فيتحرّك سرّه إلى القدس ، لينال من روح الاتّصال ، فما دامت درجته هذه ، فهو مريد .

ثم إنه ليحتاجُ إلى الرّياضة ، والرّياضة ، موجّهة إلى ثلاثة أغراض :

الأوّل : تنحية مادون الحقّ عن سَنَن الإيثار .

والثانى : تطويع النّفس الأمّارة للنفس المطمئنة ، لتنجذب قوى التخيّل والوهم إلى التوهّمات المناسبة للأمر القدسىّ ، منصرفة من التوهّمات المناسبة للأمر السفلىّ .

والثالث : تلطيف السرّ لتنفسه .

فالأول يعين عليه الزهد الحقيقىّ ، والثانى يعينُ عليه عِدّة أشياء : العبادة المشفوعة بالفكرة ، ثم الألحان المستخدَمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القَبول من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكىّ ، بعبارة بليغة ، ونغمة رخيمة ، وسمتٍ رشيد . والثالث يعين عليه الفكر اللطيف ، والعشق العفيف ، الذى تتأمّر فيه شمائل المعشوق ، دون سلطان الشهوة .

***

ومنها الاستقامة ، وحقيقتها الدوام والاستمرار على الحال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ (١) .

وسئل بعضهم عن تارك الاستقامة ، فقال : قد ذكر الله ذلك فى كتابه ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ (٢) .

وفى الحديث المرفوع : « شَيَّبَتْنِى هُود » ، فقيل له فى ذلك ، فقال قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (٤) ، فلم يقل « سقيناهم » بل ﴿ أَسْقَيْنَاهُمْ ﴾ ، أى جعلنا لهم سُقيا دائمة ، وذلك لأنّ مَنْ دام عَلَى الخدمة دامت عليه النعمة .

* * *

ومنها الإخلاص ، وهو إفراد الحقّ خاصّة فى الطاعة بالقَصْد والتقرّب إليه بذلك خاصة ، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شيء آخر من تصنّع لمخلوق ، أو اكتساب مَحْمَدَة بيْن النّاس ، أو محبّة مدح ، أو معنًى من المعانى ، ولذلك قال أربابُ هذا الفنّ : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

وقال الخواصُّ من هؤلاء القوم : نقصانُ كل مخلِصٍ فى إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلّص إخلاص عبد أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلَصا لا مخلِصا .

وجاء فى الأثر عن مكحول : ما أخلص عبدٌ لله أربعينَ صباحاً ؛ إلا ظهرتْ ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه

* * *

(١) سورة فصلت ٣٠ .
(٢) سورة النحل ٩٢
(٣) سورة هود ١١٢ .
(٤) سورة الجن ١٦ .

ومنها الصدق ، ويطلق على معنيين : تجنّب الـكذب ، وتجنّب الرياء ، وقد تقدّم القول فيهما .

***

ومنها الحياء ، وفى الحديث الصحيح : « إذا لم تستحْى فاصنَعْ ماشئت » .

وفى الحديث أيضا : « الحياء من الإيمان » ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾[1] ، قالوا : معناه ألم يستحى !

وفى الحديث أنه قال لأصحابه : « استحيوا من الله حقّ الحياء » قالوا : إنا لنستحيي ونحمد الله . قال : « ليس كذلك ؛ من استحيا من الله حقّ الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليذكر الموت وطول البِلى ، وليترك زينَة الحياة الدنيا ، فمن فعَل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وقال ابنُ عطاء : العلم الأكبر الهيبة والحياء ، فإذا ذهبا لم يبق خير .

وقال ذو النون : الحبّ ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يقْلق .

وقال السرىّ : الحياء والأنس يطرُقان القلب ، فإن وجدا فيه الزّهد والورع حطّا ، وإلّا رَحَلا .

وكان يقال : تعامل القرن الأوّل من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقّ الدين ، ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فَنِيَت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قلّ الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرّغبة والرهبة .

---

(١) سورة العلق ١٤ .

وقال الفضيل : خمسٌ من علامات الشقاء : القسوة فى القلب ، وجمود العين ، وقلّة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل .

وفسّر بعضُهم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾(١) إنّها كان لها صنم فى زاوية البيت ، فمضتْ فألقت على وجهه ثوباً ، فقال يوسف : ماهذا ؟ قالت : أستحيي منه ، قال : فأنا أولى أن أستحيي من الله !

وفى بعض الكتب القديمة : ماأنصفنى عبدى ! يدعونى فأستحيي أن أردّه، ويعصينى وأنا أراه ، فلا يستحيي منى .

* * *

ومنها الحرية ؛ وهو ألّا يكون الإنسان بقلبه رقّ شيء من المخلوقات ؛ لامن أغراض الدنيا ، ولا من أغراض الآخرة ؛ فيكون فرداً لفرد لا يسترقّه عاجل دنيا ، ولا آجل مُنى ، ولا حاصل هوى ، ولا سؤال ، ولا قصد ، ولا أرَب .

قال له صلّى الله عليه وآله بعضُ أصحاب الصُّفّة : قد عزفتْ نفسى يارسولَ الله عن الدّنيا ، فاستوى عندى ذهبُها وحَجَرُها . قال : صرتَ حرًّا .

وكان بعضهم يقول : لو صحّتْ صلاة بغير قرآن ، لصحّت بهذا البيت :

أتمنّى عَلَى الزّمانِ (٢) مُحالًا أَنْ ترى مقلتاىَ طَلْعةَ حُرِّ

وسئل الجُنيد عمّن لم يبق له من الدّنيا إلا مقدار مصّ نواة ! فقال :المكاتب عبد ما بَقِى عليه درهم .

* * *

ومنها الذكر ، قال الله تعالى : ﴿ يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف ٢٤ .

(٢) ب : « من الزمان » ، وما أثبته من ا .

(٣) سورة الأحزاب ٤١ .

وروى أبو الدّرداء أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله، قال: ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند خالقكم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير من إعطائكم الذهب والفضّة فى سبيل الله، ومن أن تلقَوْا عدوّكم فتضربوا أعناقَهم، ويضربوا أعناقكم؟ »، قالوا: ما ذلك يارسول الله؟ قال: « ذكر الله ».

وفى الحديث المرفوع: « لاتقوم السّاعة على أحدٍ يقول: الله الله ».

وقال أبو علىّ الدقاق: الذكر منشور الوِلاية، فمن وفّق للذكر فقدأعطىَ المنشور، ومن سلِب الذكر فقد عزل.

وقيل: ذكْر الله تعالى بالقلب سيف المريدين، به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم، وإنّ البلاء إذا أظلّ العبدَ ففزع بقلبه إلى الله حاد عنه كلُّ ما يكرهه.

وفى الخبر المرفوع: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها» ،قيل: ومارياض الجنة؟ قال: « مجالس الذكر ».

وفى الخبر المرفوع: «أنا جليسُ مَنْ ذكرنى ».

وسمع الشِّبلىّ وهو يُنشد:

ذكرتُك لا أنّى نسيتُك لمحةً ... وأيسر مافى الذّكْر ذكرُ لِسانى
فكدت بلا وجدٍ أموت من الهوَى ... وهامَ علىّ القلبُ بالخفَقانِ
فلمّا أرانى الوجد أنك حاضِرى ... شهدتك موجودا بكلّ مكانِ
فخاطبت موجوداً بغير تكلُّمٍ ... ولاحظتُ معلوماً بغير عِيانِ

* * *

ومنها الفتوة ، قال سبحانه مخبراً عن أصحاب الأصنام ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٢) .

وقد اختلفوا فى التعبير عن الفتوّة ما هى ؟ فقال بعضهم : الفتوّة ألّا ترَى لنفسك فضلا على غيرك .

وقال بعضهم : الفتوة الصفح عن عَثرات الإخوان .

وقالوا : إنّما هتف الملَك يوم أحد بقوله :

لا سيفَ إلا ذو الفقا ر ، ولا فتًى إلّا علِيّ

لأنه كسر الأصنام ، فسمّى بما سمِّىَ بِه أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جُذَاذاً .

قالوا : وصنمَ كلّ إنسان نفسُه ، فمن خالفَ هواه فقد كسر صنَمَه ، فاستحقّ أن يطلق عليه لفظ الفتوّة .

وقال الحارث المحاسبىّ : الفتوّة أن تنصف ولا تُنتصف .

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل : سئل أبى عن الفتوة ، فقال : ترك ما تهوَى لما تخشى .

وقيل : الفتوة ألّا تدخر ولا تعتذر .

سأل شقيق البلخى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن الفتوة ، فقال : ماتقول أنت ؟ قال : إن أُعطِينا شكرنا ، وإن مُنِعنا صَبَرْنا . قال : إنّ الكلابَ عندنا بالمدينة هذا شأنها ، ولكن قل : إن أُعطِينا آثرْنا ، وإن مُنِعنا شكرنا .

* * *

(١) سورة الأنبياء ٦٠ .

(١) سورة الكهف ١٣ .

ومنها الفراسة ، قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[١]. أى للمتفرسين . وقال النبى صلى الله عليه وآله : «اتقوا فراسة المؤمن ، فإنها لاتخطئ» .

قيل : الفراسة سواطع أنوار لمعت فى القلوب، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدها الحقُّ إياها ، وكلّ مَنْ كان أقوى إيماناً كان أشد فراسة .

وكان يقال : إذا صحت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة .

***

ومنها حسن الخلق ، وهو من صفات العارفين، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه ، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٢] .

وقيل له صلى الله عليه وآله : أىّ المؤمنين أفضل إيماناً ؟ فقال : أحسنهم خُلُقاً ، وبالخلُق تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخلْقه مشهور بخَلْقِهِ .

وقال بعضهم : حسن الخُلق استصغار ما مِنْك ، واستعظام ما إليك .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « إنكم لن تسعُوا النّاس بأموالكم ، فسعُوهم بأخلاقكم » .

قيل لذى النون : مَنْ أكبر الناس همًّا ؟ قال : أسوؤهم خُلُقاً .

وكان يقال : ما تخلّق أحد أربعين صباحا بخُلُقٍ إلا صار ذلك طبيعة فيه .

قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[٣] أى وخلقك فحسن .

شتم رجلُ الأحنف بن قيس ، وجعل يتبعه ويشتمه ، فلما قرب الحىّ وقف ، وقال: يا فتى ، إن كان قد بقىَ فى قلبك شىء فقله ، كيلا يسمعك سفهاء الحىّ فيجيبوك .

---

(١) سورة الحجر ٧٥ .
(٢) سورة القلم ٤ .
(٣) سورة المدثر ٤ .

ويقال : إن معروفاً الكرخيّ نزل دِجلة ليسبّح ، ووضع ثيابه ومصحفه ، فجاءت امرأة فاحتملتهما،فتبعها ، وقال : أنا معروف الكرخيّ ، فلا بأس عليك! ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : أفلك بعل ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف ، وخذي الثياب .

قيل لبعضهم : ما أدَب الخلُق ؟ قال : ما أدب الله به نبيّه في قوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

يقال : إنّ في بعض كتب النبوّات القديمة : ياعبدي اذكرني حين تغضَب،أذكرك حين أغضب .

قالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائي ! فقال : لقد وجدتِ اسمي الّذي أضلّه أهل البصرة .

قال بعضهم ـ وقد سئل عن غلام سوء له : لِمَ يُمسِكُه ؟ قال : أتعلّم عليه الحِلْم .

وكان يقال : ثلاثة لا يعرَفُون إلا عند ثلاثة : الحليمُ عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والصديق عند الحاجة إليه .

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(٢):الظاهرة تسوية الخلْق ، والباطنة تصفية الخلُق .

الفُضَيل : لأنْ يصحبني فاجر حَسَنُ الخلق أحبُّ إليّ مِنْ أنْ يصحبَني عابد سيئُ الخلق .

خرج إبراهيم بن أدْهم إلى بعض البراريّ ، فاستقبله جنديّ فسأله : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة،فضرب رأسه فشجّه وأدماه ، فلمّا جاوزه قيل له:إنّ ذلك إبراهيم بن أدهم

(١) سورة الأعراف ١٩٩ .
(٢) سورة لقمان ٢٠ .

زاهدُ خراسان ! فردّ إليه يعتذر . فقال إبراهيم : إنّك لمّا ضربتَنى سألتُ الله لك الجنة . قال : لِمَ سألت ذلك ؟ قال : علمتُ أنّى أُوجر على ضربك لى ، فلم أرد أن يكون نصيبى منك الخير ، ونصيبك منّى الشر .

وقال بعض أصحاب الُجنيد : قدِمْتُ من مكّة ، فبدأت بالشيخ كى لا يتعنّى إلىّ ، فسلّمت عليه ، ثم مضيت إلى منزلى ، فلمّا صلّيت الصبح فى المسجد ، إذا أنا به خَلْفى فى الصفّ ، فقلت : إنّما جئتك أمس لئلا تتعنّى ! فقال : ذلك فضلُك ، وهذا حقُّك .

كان أبو ذرّ عَلَى حوضٍ يسقى إبله ، فزاحمه إنسانٌ فكسر الحوض ، فجلس أبو ذرّ ثم اضطجع فقيل له فى ذلك ، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا غضب الرجل وهو قائم فلْيجلس ؛ فإن ذهب عنه ، وإلا فليضطجع » .

دعا إنسانٌ بعض مشاهير الصوفيّة إلى ضيافة ، فلمّا حضر باب داره ردّه واعتذر إليه . ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة ، والصوفىّ لا يغضب ، ولا يضجر ، فمدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الُخلُق ، فقال : إنما تمدحنى على خلُقٍ تجد مثلَه فى الكلب ؛ إن دعوته حضر ، وإن زجرته انزجر .

مرّ بعضُهم وقت الهاجرة بسكّة ، فأُلقِىَ عليه من سطح طست رماد ، فغضب مَنْ كان فى صحبته ، فقال : لا تغضبوا ، من استحقّ أن يُصَبّ عليه النّار فصولح على الرماد ، لم يَجُزْ له أن يغضب .

كان لبعض الخياطين جارٌ يدفع إليه ثيابا فيخيطها ، ويدفع إليه أجرتها دراهم زُيوفا ، فيأخذها ، فقام يوماً من حانوته ، واستخلف ولَده ، فجاء الجار بالدّراهم الزائفة ، فدفعها إلى الولد فلم يقبلْها ، فأبدلها بدراهم جيّدة ، فلمّا جاء أبوه دفع إليه الدّراهم ، فقال : وَيْحك ! هل جرى بينك وبينه أمر ؟ قال : نعم ، إنه أحضَر الدّراهم زُيوفا ، فرددتها فأحضر هذه ،

فقال : بئس ماصنعت ! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملنى بالزائف وأصبر عليه ، وألقيها فى بئر ، كى لا يغرّ غيرى بها !

وقيل : الخلُق السّيئ هو أن يضِيقَ قلبُ الإنسان عنْ أن يتّسع لغير ماتحبُّه النفس وتؤثره ، كالمكان الضيّق لا يسع غير صاحبه .

وكان يقال : منْ سوء الخلق أن تقف على سُوء خُلُق غيرك وتعيبه به .

قيل لرسول الله : ادعُ الله علَى المشركين ، فقال : « إنما بعثتُ رحمةً ، ولم أبعث عذاباً » .

دعا علىّ عليه السلام غلاماً له مرارا ؛ وهو لا يجيبه ، فقام إليه فقال : ألا تسمع ياغلام ! قال : بلى ، قال:فما حملك على ترك الجواب ؟ قال : أمْنِى لعقوبتك ، قال:اذهب فأنت حرّ .

* * *

ومنها الكتمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على أمورِكم بالكتمان » .

وقال السرىّ : علامة الحبّ الصبر والكتمان ، ومن باح بسرّنا فليس منّا .

وقال الشاعر :

كتمتُ حُبّكَ حتّى مِنكَ تكرِمةً ... ثم استوَى فيك إسرارى وإعلانِى

كأنه غاض حتى فاض عن جَسَدِى ... فصار سقمى به فى جسم كِتمانى

وهذا ضدّ مايذهب إليه القوم من الكتمان ؛ وهو عذر لأصحاب السرّ والإعلان.

وكان يقال : المحبّة فاضحة ؛ والدمع نمّام .

وقال الشاعر :

لا جزَى الله دمع عينِىَ خيْراً ... وجزى الله كلّ خيرٍ لسانى.

فاض دمعي فليس يكتمُ شيئًا   ووجدتُ اللسانَ ذا كتمانِ

يقال : إن بعض العارفين ، أوصى تلميذه بكتمان مايطّلع عليه من الحال ، فلمّا شاهد الأمر غلب، فكان يطلع فى بئر فى موضع خالٍ ، فيحدّثها بما يشاهد ، فنبتت فى تلك البئر شجرة سمع منها صوت يحكى كلام ذلك التلميذ ، كما يحكى الصدا كلام المتكلّم ، فأسقط بذلك من ديوان الأولياء .

وأنشدوا :

أبدا تحنّ إليكمُ الأرواحُ   ووصالكمْ ريحانُها والرّاحُ
وقلوب أهلِ ودادكم تشتاقكمْ   وإلى لقاء جمالكم ترتاحُ
وارحمةً للعاشقين تحمّلوا   ثقلَ المحبّة والهوى فضّاحُ
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهمْ   وكذا دماء البائحين تباحُ

وقال الحسين بن منصور الحلاّج :

إنى لأكتمُ من علمى جواهرَه   كى لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدّمنى فيه أبو حسن   إلى الحسين ، وأوصى قبله الحسَنا
يارُبّ مكنونِ علمٍ لو أبوحُ به   لقيل لى أنتَ ممّن يعبدُ الوثنا !
ولاستحلّ رجالٌ صالحونَ دمى   يرون أقبحَ ما يأتونَهُ حسنا

***

ومنها الجود والسّخاء والإيثار ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) :

وقال النبى صلى الله عليه وآله : السّخىّ قريبٌ من الله ، قريب من النـاس ،

---

(١) سورة الحشر ٩ .

والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيد من النّاس. وإنّ الجاهل السخيّ أحبُّ إلى الله من العابد البخيل.

قالوا : لا فرق بين الجود والسَّخاء في اصطلاح أهل العربية ، إلّا أنّ الباري سبحانه لا يوصَف بالسّخاء ، لأنه يشعر بسماح النفس عَقِيب التردّد في ذلك ، وأمّا في اصطلاح أرباب هذه الطريقة ، فالسّخاء هو الرتبة الأولى ، والجود بعده ، ثم الإيثار ، فمَنْ أعْطَى البعض وأبقى البعض فهو صاحب السَّخاء ، ومَنْ أعطَى الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود ، والذي قاسى الضّرّاء وآثر غيره بالبُلْغَة فهو صاحب الإيثار .

قال أسماء بن خارجة الفزاريّ : ماأحبّ أنْ أردّ أحداً عن حاجة طَلبها ؛ إن كان كريماً صُنْتُ عِرْضَه عن الناس ، وإن كان لئيماً صُنْتُ عنه عرضى .

كان مؤرّق العجليّ يتلطّف في برّ إخوانه ، يضع عندهم ألف درهم ، ويقول : امسكوها حتى أعودَ إليكم ، ثم يرسِل إليهم : أنتم منها في حلّ .

وكان يقال : الجود إجابة الخاطر الأول .

وكان أبو الحسن البوشنجيّ في الخلاء ، فدعا تلميذا له ، فقال انزع عنّي هذا القميص وادفعْه إلى فلان ، فقيل له : هلاّ صبرت ! فقال : لم آمن على نفسي أن تغير عَلَى ماوقع لي من التخلّق معه بالقميص .

رُئِيَ عليّ عليه السلام يوما باكيا ، فقيل له . لم تبكي ؟فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ؛ أخاف أن يكون الله قد أهانني.

أضاف عبد الله بن عامر رجلا فأحسن قِرَاه ، فلما أراد أن يرتحل لم يُعنه غلمانه.فسئل عن ذلك ، فقال إنهم إنما يعينون مَنْ نزل علينا ، لا من ارتحل عنا .

* * *

ومنها الغَيْرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا أحدَ أغيرُ من الله ،إنّما حرّم الفواحش ماظهر منها وما بطن لغيْرته » .

وفى حديث أبى هريرة : « إنّ اللّهَ ليغار وإنّ المؤمن ليغار » .

قال : والغَيْرة هى كراهية المشاركة فيما هو حقك .

وقيل : الغَيْرة الأنفَة والحميّة .

وحكى عن السرىّ أنه قرئ بين يديه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا[1] ﴾ .

فقال لأصحابه : أتدرون ماهذا الحجاب ؟ ؟ هذا حجاب الغَيْرة ، ولا أحد أغير من الله.

قالوا : ومعنى حجاب الغَيْرة ، أنّه لما أصرّ الكافرون على الجحود عاقبهم بأن لم يجعلْهم أهلاً لمعرفة أسرار القرآن .

وقال أبو على الدقّاق : إنّ أصحاب الكسل عن عبادته ، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان ، فاختار لهم البعد ، وأخّرهم عن محل القرب ، ولذلك تأخّروا .

وفى معناه أنشدوا فقالوا :

أَنَا صَبٌّ بِمَنْ هَوِيتُ وَلٰكِنْ　　　مااحتيالى فِى سُوءِ رأى ٱلْمَوَالِى !

وفى معناه قالوا : سقيمٌ لا يعاد ، ومريد لا يراد .

وكان أبو على الدّقاق : إذا وقع شىء فى خلال المجلس يشوّش قلوبَ الحاضرين ، يقول : هذا من غَيْرة الحق ؛ يريد به ألاّ يتم ماأمّلناه من صفاء هذا الوقت .

وأنشدوا فى معناه :

هَمّتْ بإتياننا حتى إذا نظرت　　　إلى المِراة نهاها وجهُها الحسنُ

وقيل لبعضهم : أتريد أن تراه ؟ قال : لا ، قيل : لم ؟ قال أنزّه ذلك الجمال عن نَظر مثلى . وفى معناه أنشدوا :

إنّى لأحْسُدُ ناظرىّ عَلَيْكَ　　　حتى أغضّ إذا نظرتُ إليكَ

---

(١) الإسراء : ٤٥ .

وأراكَ تخطِر فى شمائِلِكَ الّتِى هى فتنتى ، فأغار منك عليكَا

وسُئِل الشِّبْلِىّ : متى تستريح ؟ قال : إذا لم أر له ذاكرا .

وقال أبو على الدقّاق فى قول النبىّ صلى الله عليه وآله عند مبايعته فرساً من أعرابىّ وأنه استقاله فأقاله ، فقال الأعرابى : عمّرك الله ، فمن أنت ؟ قالَ صلى الله عليه وآله : « أنا امرؤ من قريش » ، فقال بعضُ الصحابة من الحاضرين للأعرابىّ : كَفَاكَ جَفَاءً ألّا تعرِف نبيّك ! فكان أبو علىّ يقول : إنما قال : « امرؤ من قريش » غَيْرةً ونوعا من الأنَفَة ، وإلّا فقد كان الواجب عليه أن يتعرّف لكل أحد أنه مَنْ هو ، لكن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابىّ التعريف للأعرابىّ بقوله : « كفاكَ جفاء ألّا تعرف نبيك ! »

وقال أصحاب الطريقة : مساكنة أحدٍ من الخلق للحقّ فى قلبك تُوجِب الغَيْرة منه تعالى .

أذّن الشِّبلىّ مرة ، فلما انتهى إلى الشهادتين ، قال : وحقّك لولا أنك أمرتنى ما ذكرتُ معك غيرك .

وسمع رجلٌ رجلاً يقول : جلّ الله ! فقال له : أحبّ أن تجلّه عن هذا .

وكان بعض العارفين يقول : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من قُرْط الأذن .

وقيل لأبى الفتوح السهروردىّ — وقد أخِذ بحلَب ليصلب على خشبة : ما الذى أباحهم هذا منك ؟ قال : إنّ هؤلاء دعونى إلى أن أجعل محمداً شريكا لله فى الربوبية ، فلم أفعل ، فقتلونى .

* * *

ومنها التفويض ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، فاستوقف مَنْ عقل أمره عن الاقتراح عليه ، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه ، فالعاقل تارك للاقتراح ، على العالم بالصلاح .

وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢) ؛ فبعث على تأكيد الرّجاء بقوله : ﴿ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

ولمّا فوّض مؤمن آل فرعون أمرَه إلى الله وقاه ﴿ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٣) كما ورد فى الكتاب العزيز .

وحقيقة التفويض هى التسليم لأحكام الحقّ سبحانه ، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) ، فأسّ التفويض والباعث عليه هو اعتقاد العجز عن مغالبة القدر ، وأنّه لا يكون فى الخير والشر — أعنى الرُّخَص والصحّة وسعة الرزق والبلايا ، والأمراض والعِلل وضيق الرزق ، إلا ما أراد الله تعالى كونه ، ولا يصحّ التفويض ممّن لم يعتقد ذلك ولم يعلمه علم اليقين .

وقد بالغ النبى صلى الله عليه وآله فى التصريح به والنصّ عليه بقوله لعبد الله بن مسعود : « ليقلّ همُّك ؛ ما قدِّر أتاك وما لم يقدّر لم يأتِك ؛ ولو جهد الخلق أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جَهِدوا أن يضرُّوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك » .

---

(١) سورة البقرة ٢١٦ .
(٢) سورة النساء ١٩ .
(٣) سورة غافر ٤٥
(٤) سورة التوبة ٥١

وفى صحيح مسلم بن الحجّاج أنه قال لأبى هريرة فى كلام له : « فإنْ أصابَكَ شىء فلا تقل : لَوْ فعلت كذا لكان كذا ، فإنّ « لو » تفتح عمل الشيطان، ولكن قل: ماقدر الله وما شاء فعل » .

وفى صحيح مسلم أيضاً عن البَرَاء بن عَازب : « إذا أخذت مضجَعك فقل كذا...» إلى أن قال : « وجّهت وجهى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبةورهبة إليك، لامنجى ولا ملجأ منك إلا إليك » .

وكان يقال : معارضة المريض طبيبَه ، توجب تعذيبَه . وكان يقال: إنّما الكيّس الماهر من أمسى(١) فى قبضة القاهر .

وكان يقال : إذا كانت مغالبة القَدَر مستحيلة ، فما من أعوان تقوده إلى الحيلة .

وكان يقال : إذا التبست المصادر ، ففوّض إلى القادر .

وكان يقال : من الدّلالة على أنّ الإنسان مصرّف مغلوب ، ومدبَّر مربوب ، أن يتبلّد رأيُه فى بعض الخطوب ، ويعمَى عليه الصواب المطلوب .

وإذا كان كذلك ، فربّما كان تدميره فى تدبيره ، واغتيالُه من احتياله ، وهلكته من حَرَكته .

وفى ذلك أنشدوا :

أيا مَنْ يعوّلُ فِى الْمُشكِلَاتِ ... عَلَى ما رآه وما دَبَّرَهْ (٢)
إذا أعضلَ الأمرُ فافزعْ به ... إلى مَنْ يرى منه مالم تَرَهْ
تكن بين عطفٍ يقيل الخطوبَ ... ولطفٍ يهوّن ماقدَّرَهْ
إذا كنت تجهل عُقْبَى الأمورِ ... ومالك حولٌ ولا مقدرهْ
فلِمْ ذَا العَنَا ، وعلام الأسى ... وممّ الحِذار ، وفيم الشَّرهْ !

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « استسلم » .
(٢) الأبيات لابن ظفر ؛ وهى فى كتابه سلوان المطاع ٨ .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

يارب مغتبط ومغبوطٍ بأمرٍ فيه هلكه [1]
ومُنافسٍ فِى مُلْكِ مَا يُشْقِيه فى الدّارَيْن مُلْكه
علمُ العواقبِ دُونَهُ سِتْر ، وليس يرامُ هتكُهْ
ومُعارضُ الأقدارِ بالآراء سَيّئ الحالِ ضَنْكُهْ
فكن امرأ محض اليقين وزيفّ الشبهات سَبْكُهْ
تفويضه توحيدُهُ وعِنادُه الِقْدار شِرْكُهْ

***

ومنها الولاية والمعرفة ، وقد تقدم القول فيهما .

ومنها الدّعاء والمناجاة ، قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [2] .

وفى الحديث المرفوع : « الدعاء مخّ العبادة » .

وقد اختلف أربابُ هذا الشأن فى الدعاء ، فقال قوم : « الدعاء مفتاح الحاجة ، ومستروَح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرّين ، ومتنفّس ذوى المآرب .

وقد ذمّ الله تعالى قوماً فقال : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [3] فسّروه وقالوا : لا يمدّونها إليه فى السؤال .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرىّ : خلق الله الخلق ، وقال : تاجروا فىّ ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منّى ، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بى .

قالوا : وقد أثنى الله علَى نفسه ، فقال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [4] ، قالوا : الدعاء إظهار فاقة العبودية .

---

(١) لابن ظفر ، سلوان المطاع ٨
(٢) سورة غافر ٦٠
(٣) سورة التوبة ٦٧ .
(٤) سورة النمل ٦٢

وقال أبو حاتم الأعرج : لأن أحرَم الدّعاء أشد علىّ من أن أحرَم الإجابة .

وقال قوم : بل السكوت والجمود تحتَ جريان الحكْم والرّضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح أولى ؛ ولهذا قال الواسطىّ : اختيار ماجَرَى لك فى الأزَل، خيرلك من معارضة الوقت .

وقال النبى صلى الله عليه وآله إخباراً عن الله تعالى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين » .

وقال قوم : يجب أن يكون العبدُ صاحب دعاء بلسانه ، وصاحب رضاً بقلبه، ليأتىَ بالأمرين جميعاً .

وقال قوم: إنّ الأوقاتَ تختلف،ففى بعض الأحوال يكون الدّعاء أفضل من السكوت، وفى بعض الأحوال يكون بالعكس،وإنّما يعرَف هذا فى الوقت ،لأنّ علم الوقت يحصل فى الوقت ، فإذا وجد فى قلبه الإشارة إلى الدّعاء فالدعاء أولى ، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتمّ وأولى .

وجاء فى الخبر : « إنّ اللهَ يُبغِض العبدَ فيسرع إجابته بغضاً لسماع صوته ، وأنّه يحب العبد فيؤخّر إجابتهُ حبًّا لسماع صوته » .

* * *

ومن أدب الدعاء حضورُ القلب ، فقد روى عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله لا يستجيب دعاء قلب لاهٍ » .

ومن شروط الإجابة طِيب الطُّعمة وحلّ المكسب ؛ قال صلّى الله عليه وآله لسعد ابن أبى وقّاص : « أطِبْ كسبك تُسْتَجَبْ دعوتك » .

وينبغي أن يكون الدعاء بعد المعرفة ، قيل لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : مابالُنا ندْعو فلا يستجاب لنا ! قال : لأنّكم تدعون مَنْ لا تعرفونه .

كان صالح المرّيّ يقول كثيرا : ادعوا : فمن أدْمَن قَرْع الباب يوشك أن يفتح له ، فقالت له رابعة العدوية : ماذَا تقول ؟ : أغْلِق هذا الباب حتى يستفتح ! فقال صالح : شيخ جَهِل ، وامرأة علمت .

وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلْق ، وإلّا فالرّب يفعل ما يشاء .

وقيل : دعاء العامّة بالأقوال ، ودعاء العابد بالأفعال ، ودعاء العارف بالأحوال .

وقيل : خير الدعاء ماهيّجه الأحزان والوجد .

وقيل : أقربُ الدعاء إلى الإجابة دعاء الاضطرار ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطرّ إذَا دعَاه ﴾ .

قال أصحاب هذه الطريقة : ألسنة المبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء ، وألسنة المحققين الواصلين قد خرست عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك يقول : مادعوتهُ منذُ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعوَ لي أحد .

وقيل : الدعاء سلَّم المذنبين .

وقال من قال بنقيض هذا : الدعاء مراسلة ، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد.

وقالوا : ألسنة المذنبين دمُوعهم .

وكان أبو علي الدّقاق يقول : إذا بكى المذنب فقد راسل الله .

وفي معناه أنشدوا :

دُمُوعُ ٱلْفَتَى عَمّا يجنّ تترجمُ   وأنفاسه تبدين ما القلبُ يَكْتُمُ

وقال بعضهم لبعض العارفين : أُدعُ لى ، فقال : كفاكَ من الإجابة ألّا تجعل بينك وبينه واسطة .

* * *

ومنها التأسى، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(١) أى فى مصابه وما نيل منه فى نفسه وفى أهله يوم أُحُد ، فلا تجزعوا إن أصيب بعضكم .

وجاء فى الحديث المرفوع : لاتنظروا إلَى مَنْ فَوْقَكُم ، وانظروا إلى مَنْ دونكم ، فإنّه أجدر ألّا تزدروا نِعَم الله عليكم .

وقالت الخنساء ترثى أخاها :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ ٱلْبَاكِين حَوْلِي ... عَلَى إخوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِى (٢)

وَمَا يَبكُونَ مِثْلَ أخِي ولَكِنْ ... أُعَزِّى النَّفسَ عَنْهُ بالتأسّى

وحقيقة التأسىّ تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك ، ومن هو أرفَعُ محلًّا منك .

وقد فسّر العلماء قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾(٣) ؛ قال : إنّه لايهون على أحدٍ من أهل النار عذابه ، وإنْ تأسّى بغيره من المعذّبين ، لأنّ الله تعالى جعل لهم التأسّى نافعاً فى الدنيا ، ولم يجعله نافعا لأهل النار مبالغة فى تعذيبهم ، ونفياً لراحة تصل إليهم .

* * *

---

(١) سورة الأحزاب ٢١ .
(٢) ديوانها ١٥٢
(٣) سورة الزخرف ٣٩

ومنها الفقر ، وهو شعار الصالحين ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « اللّهمّ أحْيِنِي مِسْكِيناً ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى مع المساكين » .

قال لعلىّ عليه السلام : « إنّ الله قد زيَّنك بزينة لم يزيِّن العبادَ بأحسنَ منهـا ، وهَبَ لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعا ، ويرضونْ بك إماما » .

وجاء فى الخبر المرفوع : « الفقراء الصُّبُرُ جُلساء الله يوم القيامة » .

وسئل يحيى بن مُعاذ عن الفقرِ فقال : ألّا تستغنى إلا بالله .

وقال أبو الدّرداء : لأن أقعَ من فوق قصرٍ فأتحطّم أحبّ إلىّ من مجالسة الغنىّ لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إياكمْ ومجالسةَ الموتى » ، فقيل له : وما الموتى ؟ قال : الأغنياء .

قيل للربيع بن خثيم : قَدْ غَلا السّعر ، قال : نحنُ أهونُ على الله من أن يُجيعنا ، إنّما يجيع أولياءه .

وقيل ليحيى بن معاذ : ما الفقرُ ؟ قال : خوف الفقر .

وقال الشِّبْلِىّ : أدنى علاماتِ الفقير أن لوْ كانت الدّنيا بأسرها لواحدٍ فأنفقها فى يوم واحِد ، ثم خطر بباله : « لو أمسكت منها قوت يوم آخر ! » ، لم يصدق فى فقره .

سئل ابن الجلاء عن الفَقْر ، فسكت ثم ذهب قليلا ، وعاد فقال : كانت عندى أربعة دوانيق فضّة ، فاستحييت من الله أن أتكلّم فى الفقر وهى عندى ، فذهبت فأخرجتها ، ثم قعد فتكلّم فى الفقر .

وقال أبو على الدّقاق فى تفسير قوله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِىّ ذهب ثلثا دينه ، إنّ المرء بقلبه ولسانه وجوارحه ، فمن تواضع لغنىّ بلسانه وجوارحه ، ذهب ثلثا دينه ، فإن تواضع له مع ذلك بقلبه ذهب دينه كلّه .

* * *

ومنهـا الأدب ، قالوا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَى ﴾(١) : حفظ أدب الحضرة .

قيل إنه عليه السلام لم يمدّ نظره فوق المقام الّذى أوصل إليه ليلة شاهد السِّدرة ، وهى أقصى مايمكن أن ينتهى إليه البشريّون .

وفى الحديث المرفوع : « أدّبنِى ربّى فأحسنَ تأديبى » .

وقيل : إنّ الجنيد لم يمدّ رجلَه فى الخلوة عشرين سنة ، وكان يقول : الأدب مع الله أوْلَى من الأدب مع الخلق .

وقال أبو على الدقاق : مَنْ صاحب الملوك بغير أدبٍ ، أسلمه الجهلُ إلى القتل .

ومن كلامه عليه السلام : ترك الأدب يوجب الطّرد ، فمن أساء الأدب على البساط ، ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ، ردّ إلى ساحة الدّوابّ .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر النّاس فى الأدب ، وعندى أنّ الأدب معرفة الإنسان بنفسه .

وقال الثورىّ : من لم يتأدّب للوقت ، فوقته مقْت .

وقال أبو على الدّقاق فى قوله تعالى ، حكايةً عن أيوب : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾(٢). قال : لم يقل : « فارحمْنِى » لأنه حفظ آداب الخطاب ، وكذلك قال فى قول عيسى : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾(٣) ، قال: لم يقل: « لم أقل » رعايةً لأدب الحضرة .

* * *

(١) سورة النجم ١٧
(٢) سورة الأنبياء ٨٣
(٣) سورة المائدة ١١٦

ومنها المحبّة ، وهى مقام جليل ، قالوا : المحبة أن تهبَ كُلَّك لمن أحببتَ ، فلا يبقى لك منك شىء .

قيل لبعض العرب : ماوجدت من حبّ فلانة ؟ قال : أرى القمر على جدارِها أحسنَ منه على جُدْران الناس .

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ : المحبّة أن تغار على محبوبك أن يحبّه غيرُك .

وقال النصراباذى : المحبّة نوعان : نوع يُوجب حَقْنَ الدّماء ، ونوع يوجب سَفْك الدماء .

وقال يحيى بن معاذ : المحبّة الخالصة ألّا تنقص بالجفاء ، ولا تزيد بالبرّ .

وقيل للنصر اباذى : كيف حالك فى المحبّة ؟ قال : عدمتُ وصال المحبّين ، ورزقتُ حسبراتهم ، فهو ذا أنا أحترق فيها . ثم قال : المحبّة مجانبة السلوّ على كلّ حال .

وأنشدوا :

وَمَنْ كان فى طول الهوى ذاق سَلْوةً … فإنّىَ من لَيـــلَى لها غـير ذائق

وأكثر شىء نلتُــه مِنْ وصالها … أمانىّ لم تصـدُقْ كلمحـة بارق

وجاء فى الحديث المرفوع : «المرء مَعَ مَنْ أحبّ» ؛ ولما سمِعَ سمنون هذا الخبر ، قال : فاز المحبّون بشرَف الدنيا والآخرة ، لأنّهم مع الله تعالى .

وفى الحـديث المرفوع : «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ اللهَ ورسوله ، ويحبّه اللهُ ورسولُه» ، وهذا يتجاوز حدّ الجلالة والشرف .

وكان يقال : الحبّ أوّله خَتْلٌ ، وآخره قتل .

قيل : كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد : سكرت من كثرة ماشربت من محبّته ، فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرِب بحور السّموات والأرض ، وما روى بعد ، ولسانه خارج ، وهو يقول : هل من مزيد !

وأنشد :

عَجِبْتُ لمن يقولُ ذكرتُ حِبّي وهَـــلْ أنسَى فأذكر مانسيتُ !
شربتُ الحبّ كأساً بعد كأسٍ فمـــا نَفِد الشّراب ، ولا رَويتُ

وقيل : المحبّة سكر لا يصحو صاحبه إلّا بمشاهدة محبوبه ؛ ثمّ السكر الذى يحصلُ عند المشاهدة لا يوصف .

وأنشدوا :

فأسكرَ القـــومَ دَوْرُ كأسٍ وكان سكرِى مِن ٱلْمُديرِ

* * *

ومنهـا الشوق ، جاء فى الخـبر المرفوع : إنّ الجنـة لتشتـاق إلى ثلاثة : علىّ ، وسَلمان ، وعَمّار .

الشوق مرتبة من مراتب القوم ، ومقام من مقاماتهم . سئل ابن عَطاء : الشّوق أعلَى أم المحبة ؟ فقال : المحبّة ، لأنّ الشوق منها يتولّد .

ومن الأدعية النبويّة المأثورة الدّعاء الذى كان يدعُو به عمّار بن ياسر رضى الله عنه : « اللّهمّ بعلمك بالغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ماعلمت الحياةَ خيراً لى ، وتوفّنِى ما كانت الوفاة خيرا لِى . اللهمّ إنى أسألُك خشيَتك فى الغيْب والشّهادة ، واسألك كَلِمَةَ الحقّ فى الرّضا والغضب ، وأسألك القصد فى الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا يَبيد، وقرة عينٍ لا تنقطع ، وأسألك الرّضا بعد القضاء ، وبَرْد العيش بعد الموت . وأسألك النّظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، من غير ضرّاء مضرّة . اللهمّ زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » .

قالوا : الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب ، وعَلَى قدْر المحبّة يكون الشوق ، وعلامة الشّوق حب الموت .

وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] أى أنّ مَنْ كان صاحب محبة يتمنّى لقاء محبوبه ، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة .

قيل لبعض الصّوفية : هل تشتاق إليه ؟ فقال : إنّما الشّوق إلى غائب ، وهو حاضر لا يغيب .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللهِ لَآتٍ ﴾[2] : إنه تطييب لقلوب المشتاقين .

ويقال : إنّه مكتوب فى بعض كتب النبوّات القديمة : شوّقناكم فلم تشتاقوا ، وزَمَرْنا لكم فلم ترقُصوا ، وخوّفناكم فلم ترهبوا ، ونُحْنَا لكم فلم تحزنوا .

وقيل : إن شعيبا بكى حتّى عمىَ ، فردّ الله إليه بصره ، ثم بكى حتى عمِىَ ، فردّ عليه بصره ، ثم كذلك ثلاثا ، فقال الله تعالى : « إنْ كان هذا البكاء شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتُها لك ، وإن كان خوفاً من النار فقد أجرْتُك منها » . فقال : وحقّك لا هذا ولا هذا ، ولكن شوقاً إليك ، فقال له : « لأجل ذلك أخدمتك نبيّى وكليمى عشر سنين » .

* * *

ومنها الزهد ورفض الدنيا ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[3] .

وجاء فى الخبر أنّ يوسف عليه السلام كان يجوع فى سِنِى الجدْب ، فقيل له : أتجوعُ وأنت على خزائن مصر ! فقال : أخاف أن أشبَع فأنسى الجياع .

وكذلك قال علىّ عليه السلام ، وقد قيل له : أهذا الباسُك ، وهذا مأكولك ، وأنت أمير

---

(١) سورة البقرة ٩٤
(٢) سورة العنكبوت ٥
(٣) سورة طه ١٣١

المؤمنين ! فقال : نعم ، إن الله فرضَ عَلَى أئمة العدل أن يقدّروا لأنفسهم كضَعَفة النّاس، كيلاَ يتبيّغ [١] بالفقير فقره .

ومنع عمر بن الخطاب نفسَه عام الرّمادة الدّسم ، وقال : لا آكله حتى يصيبَه المسلمون جميعا .

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تنعُّما ؛ قبْل أن يلِيَ الخلافة ، قوّمت ثيابه حينئذ بألف دينار ، وقُوّمت وهو يخطب النّاس أيام خلافته بثلاثة دراهم .

* * *

واعلم أنّ بعض هذه المراتب والمقامات التى ذكرناها لقوم قد يكون متداخلا فى الظاهر ، وله فى الباطن عندهم فرق يعرفه مَنْ يأنس بكتبهم ، وقد أتينا فى تقسيم مراتبهم وتفصيل مقاماتهم فى هذا الفصل بما فيه كفاية .

---

(١) يتبيغ به فقرة : أى يغلبه ويحمله على الشر .

(٢١٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[1].

أَدْحَضُ مَسْئُولٍ حُجَّةً ، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً . لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ يَأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا أَنسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ !

أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقَظَةٌ ! أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ! فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ !

فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ ، وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ، وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنفُسِ عَلَيْكَ ؛ وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ ؛ وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ !

فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ ، وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعاً ، وَبِذِكْرِهِ آنِساً .

وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ ، إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .

---

(١) سورة الانفطار ٦

فتعالى مِنْ قَوِيٍّ ما أَكْرَمَهُ ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ ما أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ! وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ ! فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْنٍ ؛ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ .

وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَسَاوِئِ الْأَعْمَالِ .

وَحَقًّا أَقُولُ ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ ، وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ .

وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ . وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ .

وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ ، وَالشَّحِيحِ بِكَ ! وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً ، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلًّا !

وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ ، إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ ، وَعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ !

فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ ؛ وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ ، وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ .

* * *

الشرح :

لقائل أن يقول: لو قال : «ماغرك بربك العزيز أو المنتقم» أو نحو ذلك، لكان أولى لأنّ للإنسان المعاتب أن يقول : غرّنى كرمُك الّذى وصفتَ به نفسك !

وجواب هذا أنْ يقال : إنّ مجموع الصفات صار كشىء واحد ، وهو الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركّبك . والمعنى : ماغرّك بربٍّ هذه صفته ، وهذا شأنه، وهو قادر على أن يجعلك فى أى صورة شاء ! فما الذى يؤمّنك من أن يمسخك فى صورة القرَدة والخنازير ونحوها من الحيوانات العجم . ومعنى الكريم هاهنا: الفيّاض على المواد بالصور ، ومَنْ هذه صفته ينبغى أن يُخاف منه تبديل الصورة .

قال عليه السلام : « أدحض مسئول حُجّة » المبتدأ محذوف ، والحجة الداحضة : الباطلة .

والمعذِرة بكسر الذال : العذر .

ويقال : لقد أبرح فلان جهالةً ، وأبرح لؤماً ، وأبرح شجاعة، وأتى بالبرْح من ذلك، أى بالشّديد العظيم . ويقال : هذا الأمر أبرحُ من هذا ، أى أشدّ ، وقتلوه أبْرَح قَتْل . وجهالةً منصوب على التمييز .

وقال القطب الرّاوندىّ : مفعول به ، قال معناه : جلب جهالةً إلى نفسه ، وليس بصحيح ؛ وأبرح لا يتعدّى هاهنا وإنّما يتعدّى « أبرح » فى موضعين : أحدهما أبرحه الأمر ، أى أعجبه ، والآخر أبرحَ زيدٌ عمْرا ، أى أكرمه وعظّمه .

قوله : « ماجرّأك » بالهمزة ، وفلان جرئ القوم ، أى مقدّمهم .

وما أنَّسك بالتشديد ، وروى: « ما آنسك » بالمدّ ؛ وكلاهما من أصل واحد، وتأنّست

بفلان واستأنستُ بمعنًى ، وفلان أنيسى ومؤانسى ، وقد أنّسنى وآنسنى كلّه بمعنى ، أى كيف لم تستوحش من الأمور التى تؤدى إلى هلكة نفسك .

والبُلُول : مصدر بلّ الرجل من مرضه، إذا برئ ، ويجوز « أبلّ » ، قال الشاعر :

إذا بلّ من داء به ظنّ أنه نجا وبه الدّاء الذى هو قاتلُهْ (١)

والضّاحى لحرّ الشمس: البارز . وهذا داء ممضّ ، أى مؤلم ، أمضنى الجرح إمضاضاً، ويجوز « مَضّنِى » .

وروى : وجلّدك عَلَى مَصَائبك » ، بصيغة الجمع .

وبَيَات نقْمة بفتح الباء : طروقُها ليلا ، وهى من ألفاظ القرآن العزيز (٢) .

وتورّط : وقع فى الورْطة ، بتسكين الرّاء ، وهى الهلاك ، وأصل الورطة أرضٌ مطمئنّة لا طريق فيها ، وقد أورَطَه ، وورطه توريطا ، أى أوقعه فيها .

والمدارج : الطرق والمسالك ، ويجوز انتصاب « مدارج » ها هنا ، لأنها مفعول به صريح ، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه ، أى فى مدارج سطواته .

قوله : و « تَمثّل » أى وتصوّر .

ويتغمّدك بفضله ، أى يسترك بعفوه ، وسُمِّىَ العفو والصفح فضلًا ؛ تسمية للنّوع بالجنس .

قوله : « مَطْرَف عين » بفتح الراء ، أى زمان طرف العين ، وطرْفها : إطباق أحدِ

---

(١) الصحاح ٤ : ١٦٤٠ (من غير نسبة) .

(٢) منه قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ . ٤ سورة الأعراف .

جفنيها على الآخر ، وانتصابُ «مطرف» هاهنا على الظرفية، كقولك : وردت مقدمَ الحاجّ ، أى وقت قدومهم .

قوله : « متوازِيَيْن فى القُدرة » ، أى متساويين ، وروى : « متوازنين » بالنون .

والعظات: جمع عِظَة ، وهو منصوب على نزع الخافض، أى كاشفتك بالعظات، وروى « العظاتُ » بالرفع على أنّه فاعل . وروى : « كاشفتك الغطاء » .

وآذنْتك ، أى أعلمتك .

وعلى سواء ، أى على عَدْل وإنصاف ، وهذا من الألفاظ القرآنية (١) .

والراجفة : الصيْحة الأولى، وحقّتْ بجلائلها القيامة ، أى بأمورها العظام . والمنسِك: الموضع الذى تذبح فيه النسائك ، وهى ذبائح القربان ويجوز فتح السين ، وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً ﴾ (٢) .

فإن قلت : إذا كان يلحَق بكلّ معبود عَبَدتُه ؛ فالنصارى إذن تلحق بعيسى ، والغلاة من المسلمين بعليّ ، وكذلك الملائكة ، فما القول فى ذلك ؟

قلت ، لا ضرر فى التحاق هؤلاء بمعبوديهم ، ومعنى الالتحاق أن يؤمَر الأتباع فى الموقف بالتحيّز إلى الجهة التى فيها الرؤساء ، ثم يقال للرؤساء : أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم ؟ فحينئذ يتبرءون منهم ، فينجو الرؤساء ، وتهلك الأتباع ، كما قال سبحانه : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، أى إنّما كانوا يطيعون الشياطين المضلّة لهم ، فعبادتهم فى

---

(١) منه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ـ ٥٨ سورة الأنفال .

(٢) سورة الحج ٦٧ .

(٣) سورة سبأ ٤١ .

الحقيقة للشياطين لالنا ، وإنهم ما أطاعونا ، ولو أطاعونا لكانوا مهتدين ، وإنما أطاعوا شياطينهم .

ولا حاجة فى هذا الجواب إلى أن يقال ماقيل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾(١) من تخصيص العموم بالآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾(٢) .

فإن قلت : فما قولك فى اعتراض ابن الزِّبعرَى على الآية ، هل هو وارد ؟

قلت : لا ، لأنه قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ و « ما » لما لا يعقل ، فلا يردُ عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة : والذى قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تكلّف غير محتاج إليه .

فإن قلت : فما الفائدة فى أن قَرَن القوم بأصنامهم فى النّار ؟ وأى معنى لذلك فى زيادة التعذيب والسخط ؟

قلت : لأنّ النظر إلى وجه العدوّ باب من أبواب العذاب ، وإنّما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التى ضلُّوا بها ، فكلّما رأوها معهم زاد غمّهم وحسرتهم .

وأيضا فإنهم قدّروا أن يستشفعوا بها فى الآخرة ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شىء أبغضَ إليهم منها .

قوله : « فلم يَجْر » قد اختلف الرّواة فى هذه اللفظة ، فرواها قوم « فلم يَجْر » وهو مضارع « جَرى يجرى » ، تقول : ماالذى جرى للقوم ؟ فيقول مَنْ سألته : قَدِم الأمير من السفر ، فيكون المعنى على هذا : فلم يكن ولم يتجدّد فى ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلّا بالحقّ والإنصاف. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

---

(١) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

الحساب ﴾[1]، ورواها قوم « فلم يجز » ،مضارع « جازَ يجوز » ، أى لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحدمن المكلّفين فى حركة من الحركات المحقرات المستصغرات ؛ إلا إذا كانت قد فعلها بحق ، وعلى هذا يجوز فعل مثلها .ورواها قوم : «فلم يَجُرْ» من «جار»،أى عدل عن الطريق ، أى لم يذهب عنه سبحانه ، ولم يضلّ ولم يشذّ عن حسابه شىء من أمر محقّرات الأمور إلّا بحقه ، أى إلا مالا فائدة فى إثباته والمحاسبة عليه ، نحو الحركات المباحة والعبثيّة التى لاتدخل تحت التكليف .

وقال الراوندىّ :« خَرْقُ بصَرٍ » مرفوع لأنه اسم مالم يسمّ فاعله ، ولا أعرف لهذا الكلام معنى .

والهمس : الصوت الخفى .

قوله : « فتحرّ منْ أمرك » ، تحرّيت كذا ، أى توخّيته وقصدته واعتمدته .

قوله : « وتيسّر لسفرك » ، أى هيئْ أسباب السّفر ، ولا تترك لذاك عائقا .

والشّيْم : النظر إلى البرق .

ورحلت مطيتى ، إذا شددت على ظهرها الرّحل ، قال الأعشى :

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غَـدْوَةً أَجْمَالَهَا غَضْبَى عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَالَها[2]

والتّشْمير : الجدّ والانكماش فى الأمر .

ومعانى الفصل ظاهرة ، وألفاظه الفصيحة تعطيها وتدلّ عليها بما لوأراد المفسّر أن يعبّر عنه بعبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أوْلَى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسّر .

---

(١) سورة غافر ١٧

(٢) مطلع قصيدته ، ديوانه ٢٢ .

(٢١٩)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْـدَانِ مُسَهَّداً ، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلَالِ مُصَفَّـداً ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَـداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِـلَى قُفُولُهَا ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا !

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيـلًا وَقَدْ أَمْلَقَ حَـتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً ، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ ، غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ ، كَأَنَّمَـا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً ، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً ، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي ، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي ، وَأَتَّبِـعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَـتِي ، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا ، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا ، وَكَادَ أَنْ يَحْـتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : ثَـكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَاعَقِيـلُ ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ ! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى !

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا ، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا ؛ كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّـةٍ أَوْ قَيْئِهَا ، فَقُلْتُ : أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ! فَقَالَ : لَاذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَلَـكِنَّهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ : هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ ! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي ! أَمُخْتَبِطٌ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ ! وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا ، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ

مَافَعَلْتُهُ ؛ وَإِنَّ دُنْيَا كُمْ عِنْدِى لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا .

مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى ؛ وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى ! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ .

* * *

الشَّرْحُ :

السَّعْدَان : نبتٌ ذو شوك ؛ يقال له : حَسَك السَّعْدان وحَسَكة السعْدان ؛ وتشبّه به حلَمة الثّدى ، فيقال : سَعْدانة الثنْدُوَة ، وهذا النّبت من أفضل مراعى الإبل ، وفى المثل « مَرْعًى ولا كالسَّعْدان » ؛ ونونه زائدة ، لأنه ليس فى الكلام « فَعْلال » غير مضاعف ، إلّا « خَزْعال » وهو ظَلْع يلحق الناقة ، و « قهقَار » ، وهو الحجر الصلب ، و « قَسْطال » وهو الغبار .

والمسهّد : الممنوع النوم ، وهو السهاد .

والأغلال : القيود . والمصفّد : المقيّد . والحُطَام : عروض الدنيا ومتاعها ، شبّه لزواله وسرعة فنائه بما يتحطّم من العيدان ويتكسّر .

ثم قال : كيف أظلم الناس لأجل نَفْسٍ تموت سريعاً ـ يعنى نَفْسه عليه السلام !

فإن قلت : أليس قوله : « عن نَفْسٍ يسرِع إلى البِلى قُفُولها » يشعر بمذهب من قال بقدم الأنفس ، لأنّ القفول الرجوع ، ولا يقال فى مذهبه للمسافرة : قافلة إلا إذا كانت راجعة .

قلت : لا حاجةَ إلى القول بقدَم الأنفس محافظةً على هـذه اللفظة ، وذلك لأن النفس إذا كانت حادثة فقد كان أصلها العدم ، فإذا مات الإنسان عدمت نفسه فرجعت إلى العدم الأصلىّ ، وهو المعبّر عنه بالبلى .

وأملق : افتقر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ (١) .

واستماحني : طلب منّي أن أعطيَه صاعا من الحنطة ، والصاع أربعة أمداد ، والمُدّ رطل وثلث ، فمجموع ذلك خمسة أرطال ، وثلث رطل ، وجمع الصاع أصوع ، وإن شئت همزت . والصُّواع لغة فى الصاع ، ويقال : هو إناء يشرب فيه .

والعِظْلِم ، بالكسرة فى الحرفين : نَبْت يصبغ به ما يراد اسوداده ، ويقال : هو الوَسْمة :

وشعث الألوان ، أى غُبْر .

وأصغيت إليه : أملتُ سمعى نحوه .

وأتّبع قياده : أطيعه وأنقاد له .

وأحميت الحديدة فى النار ، فهى محماة ، ولا يقال : حَمِيت الحديدة .

وذى دَنف ، أى ذى سقم مؤلم .

ومن ميسمها : من أثرها فى يده .

وثكلتك الثّواكلُ ، دعاء عليه ، وهو جمع ثاكلة ، وفواعل لا يجىء إلا جمع المؤنث إلا فيما شذّ ، نحو فوارس ، أى ثكلتك نساؤك .

قوله : « أحماها إنسانُها » ، أى صاحبها ، ولم يقل « إنسان » ، لأنّه بريد أن يقابل هذه اللفظة بقوله : « جبّارها » .

وسَجَرها ، بالتخفيف : أوقدها وأحماها ، والسَّجور ما يسجر به التّنور .

قوله : « بملفوفة فى وعائها » ، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الحَلْواء تأنّق فيه ، وكان عليه السلام يُبغض الأشعث ، لأنّ الأشعث كان يُبغضه ، وظنّ الأشعث أنّه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوىّ كان فى نفس الأشعث ، وكان أمير المؤمنين

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

عليه السلام يفطِن لذلك ويعلمه ، ولذلك ردّ هديّة الأشعث ، ولولا ذلك لقبِلها ، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قبل الهديّة ، وقد قِبل عليّ عليه السلام هدايا جماعةٍ من أصحابه، ودعاه بعضُ مَنْ كان يأنس إليه إلى حَلْوَاء عملها يوم نوروز فأكل وقال : لِمَ عَمِلْتَ هذا ؟ فقال : لأنه يوم نوروز ، فضحك . وقال : نَوْرِزُوا لنا في كلّ يوم إن استطعتم .

وكان عليه السلام من لطافة الأخلاق وسجاحة الشيَم على قاعدة عجيبة جميلة ، ولكنه كان ينفر عن قومٍ كان يعلم من حالهم الشنآن له ، وعمّن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين ، وهيهات حتى يلين لِضرْس الماضغ الحجر !

وقال : بملفوفة في وعائها ، لأنّه كان طبق مغطىً .

ثم قال : « ومعجونة شَنِئْتُها » ، أي أبغضتها ونفرت عنها . كأنها عجنت بريق الحيّة أو بقيئها ، وذلك أعظم الأسباب للنفرة من المأكول .

وقال الراونديّ : وصفها باللطافة فقال : كأنها عُجِنَتْ بريق الحيّة ، وهذا تفسير أبعد من الصحيح .

قوله : « أصِلَةٌ ، أم زكاة أم صدقة ؛ فذلك محرم علينا أهل البيت ! » ، الصِّلة : العطيّة لا يراد بها الأجر ، بل يراد وصلة التقرب إلى الموصول ، وأكثر ما تُفعَل للذِّكْر والصّيت . والزّكاة : هي ما تجب في النّصاب من المال .

والصدقة ها هنا هي صدقة التّطوّع ، وقد تسمّى الزكاة الواجبة صدقة ، إلّا أنها هنا هي النافلة .

فإن قلت : كيف قال : « فذلك محرّم علينا أهل البيت » ، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة ، ولا يحرم عليهم صدقة التطوّع ، ولا قبول الصِّلات ؟ قلت : أراد بقوله : « أهل البيت » الأشخاصَ الخمسة : محمدا ، وعليًا ، وفاطمة ، وحسنا ؛ وحسينا

عليهم السلام،فهؤلاء خاصّة دون غيرهم من بني هاشم،محرّم عليهم الصلة وقبول الصدقة،وأمّا غيرهم من بنى هاشم فلا يحرُم عليهم إلّا الزكاة الواجبة خاصّة .

فإن قلت : كيف قلت : إنّ هؤلاء الخمسة يحرُم عليهم قبول الصِّلات ، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صِلَة معاوية ؟

قلت : كلاّ لم يقبلا صلته ، ومعاذ الله أن يقبلاها ! وإنما قبلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال ، فإنّ سهم ذوى القربى منصوص عليه فى الكتاب العزيز ، ولهما غير سهم ذوى القربى سهم آخر للإسلام من الغنائم .

***

قوله : « هبلتك الهَبُول » أى ثكلتك أمّك،والهَبُول التى لها عادة بثكل الولد.

فإن قلت : ماالفرق بين مختبِط ، وذى جِنّة ، ويهجُر ؟

قلت : المختبط:المصروع من غَلَبة الأخلاط السوداويّة أو غيرها عليه،وذو الجِنّة مَنْ به مسٌّ من الشيطان . والذى يهجُر هو الذى يهذِى فى مرض ليس بصرَع كالمحموم والمبرسَم ونحوهما .

وجُلب الشّعيرة ، بضم الجيم : قشرها ، والجُلب والجُلبة أيضا جليدة تعلو الجرح عند البرء ، يقال منه : جلب الجرح يجلِب ويجلُب ، وأجلب الجرح أيضا ، ويقال للجليدة التى تجعل على القتب جُلْبة أيضا .

وتقضَمها بفتح الضاد ، والماضى قَضِم بالكسر .

***

[نبذ من أخبار عَقِيل بن أبي طالب]

وعَقِيل ، هو عَقِيل بن أبي طالب — عليه السلام — بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف ، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمّه وأبيه ، وكان بنو أبي طالب أربعة : طالب ، وهو أسنّ من عَقِيل بعشر سنين ، وعَقِيل وهو أسنّ من جعْفر بعشر سنين ، وجعفر وهو أسنّ من عليّ بعشر سنين ، وعليّ وهو أصغرهم سِنًّا ، وأعظمهم قَدْراً ، بل وأعظم النّاس بعد ابن عمّه قَدْراً .

وكان أبو طالب يحبّ عقِيلاً أكثر من حبّه سائرَ بنيه ، فلذلك قال للنبيّ صلى الله عليه وآله وللعباس حين أتَيَاه ليقتسِما بَنِيه عامَ المحْل ، فيخفّفا عنه ثقَلهم : « دَعُوا لى عَقِيلاً ، وخذوا مَنْ شئتم » ، فأخذ العبّاس جعفراً ، وأخذ محمّد صلّى الله عليه وآله عليا عليه السلام .

وكان عَقِيل يكنَى أبا يزيد ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « ياأبا يزيد ، إنّى أحبّك حُبّين : حبًّا لقرابتك منّى ، وحبًّا لما كنت أعلم من حبّ عمّى إياك » .

أخرِج عَقِيلٌ إلى بدر مكرَهاً كما أخرِج العبّاس ، فأسِرَ وفُدِىَ ، وعاد إلى مكّة ، ثم أقبل مسلماً مهاجرا قبل الحديبية ، وشهد غزاة مُؤْتة مع أخيه جعفر عليه السلام ، وتوفّى في خلافة معاوية فى سنة خمسين ، وعمره ست وتسعون سنة .

وله دارٌ بالمدينة معروفة ، وخرج إلى العراق ، ثم إلى الشّام ، ثم عاد إلى المدينة ، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئا من حروبه أيّام خلافتـه ، وعرض نفسَه وولده عليه فأعفاه ، ولم يكلّفه حضور الحرب .

وكان أنسَب قريشٍ وأعلمَهم بأيامها ، وكان مبغّضاً إليهم ، لأنه كان يعدّ مساوئهم .

وكانت له طِنْفِسة تطرَحُ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيصلّى عليها ، ويجتمع إليه الناس فى علم النسب وأيّام العرب ، وكان حينئذ قد ذهب بصرُه ، وكان أسرع النّاس جوابا ؟ وأشدّهم عارضةً .

كان يقال : إنّ فى قريش أربعةً يُتحاكم إليهم فى علم النّسب وأيام قريش ، ويرجع الى قولهم : عَقِيل بن أبى طالب ، ومَخْرَمة بن نَوْفل الزّهرىّ ، وأبو الجهم بن حُذَيفة العدوىّ ، وحويطب بن عبد العُزّى العامرىّ .

واختلف الناس فى عَقِيل ؛ هل التحق بمعاوية وأمير المؤمنين حىّ ؟ فقال قوم : نعم، وروَوْا أنّ معاوية قال يوما وعقيل عنده : هذا أبو زيد ، لولا علمه أنّى خيرٌ له من أخيه لما أقام عندنا وتركه . فقال عَقِيل : أخى خيرٌ لى فى دينى ، وأنت خيرٌ لى فى دنياى ، وقد آثرتُ دنياى ، أسأل الله خاتمة خير .

وقال قوم : إنه لم يَفِدْ إلى مُعاوية إلّا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ واستدلّوا على ذلك بالكتاب الذى كتبه إليه فى آخر خلافته ، والجواب الذى أجابه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم ، وسيأتى ذكره أيضا فى باب كتبه عليه السلام ، وهذا القول هو الأظهر عندى .

* * *

وروى المدائنى ، قال : قال معاوية يوما لعَقِيل بن أبى طالب: هل مِن حاجة فأقضيها لك ؟ قال : نعم جارية عُرِضت علىّ وأبى أصحابُها أن يبيعوها إلّا بأربعين ألفا ، فأحبّ معاويةُ أن يمازحَه فقال : وما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفا وأنت أعمى تجتزىء بجارية قيمتها خمسون درهما ! قال : أرجو أن أطأها فتلد لى غلاما إذا أغضبتَه يضرب عنقك بالسيف . فضحك معاوية : وقال : ما زحناك ياأبا يزيد ! وأمر فابتِيعَت له الجارية

التي أولد منها مُسلماً ، فلما أتت على مسلم ثماني عشرة سنة ـ وقد مات عَقِيل أبوه ـ قال لمعاوية : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ لي أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإني أُعطيتُ بها مائة ألف ، وقد أحببت أن أبيعَك إياها ، فادفع إليّ ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ، ودفع الثمن إليه .

فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية : أما بعدُ ، فإنك غررتَ غلاماً من بني هاشم ، فابتعتَ منه أرضا لا يملكها ، فاقبض من الغلام ما دفعتَه إليه ، واردد إلينا أرضَنا .

فبعث معاوية إلى مسلم ، فأخبره ذلك ، وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : ارْدُدْ علينا مالنا ، وخذ أرضك ، فإنّك بعتَ مالا تملك ، فقال مسلم : أمّا دونَ أن أضربَ رأسك بالسيف فلا ، فاستلقى معاوية ضاحكا يضرب برجليه ، فقال : يا بنيّ ، هذا والله كلام قاله لي أبوك حين ابتعتُ له أمّك .

ثم كتب إلى الحسين : إني قد رددت عليكم الأرض ، وسوّغتُ مسلما ما أخذ . فقال الحسين عليه السلام : أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرَما !

***

وقال معاوية لعَقِيل : يا أبا يزيد ، أين يكون عمّك أبو لهب اليوم ؟ قال : إذا دخلت جهنم ، فاطلبه تجده مضاجعا لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية .

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة : يابني هاشم ، لايحبّكم قلبي أبدا ، أين عمّي؟ أين أخي ؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة ، ترى آنافهم الماء قبل شفاههم ، قال : إذا دخلت جهنم ، فخذي عَلَى شمالك .

سأل معاوية عَقيلا عن قصّة الحديدة المحمّاة المذكورة ، فبكى وقال : أنا أحدّثك يامعاوية عنه ، ثم أحدّثك عمّا سألت ، نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستسلف درهما اشترى به خبزا ، واحتاج إلى الإدام فطلب من قَنْبر خادمهم ، أن يفتح له زِقّا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن ، فأخذ منه رطلا ، فلمّا طلبها عليه السلام ليقسمها ، قال : ياقنبر ، أظنّ أنه حدث بهذا الزقّ حدث ! فأخبره ، فغضب عليه السلام ، وقال : عليّ بحسين ! فرفع عليه الدّرة ، فقال : بحقّ عمّي جعفر — وكان إذا سئل بحقّ جعفر سكن — فقال له : ما حملك أنْ أخذت منه قبل القسمة ؟ قال : إنّ لنا فيه حقا ، فإذا أعطيناه رددناه ، قال : فداك أبوك ! وإن كان لك فيه حقّ ، فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم ! أما لولا أنّى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّل ثنيّتك لأوجعتُك ضربا . ثم دفع إلى قنبر درهما كان مصرورا فى ردائه ، وقال : اشترِ به خير عسلٍ تقدر عليه .

قال عقيل : والله لكأنى أنظر إلى يدىْ عليّ ، وهى على فم الزّق ، وقنبر يقلب العسل فيه ، ثم شدّه وجعل يبكى ، ويقول : اللهمّ اغفِرْ لحسين فإنه لم يعلم !

فقال معاوية : ذكرتَ من لا ينكر فضله ، رحم الله أبا حسن ، فلقد سبق مَنْ كان قبله ، وأعجز مَنْ يأتى بعده ! هلمّ حديث الحديدة .

قال : نعم ؛ أقويت وأصابتنى مخمصة شديدة ، فسألته فلم تندَ صَفَاتُه ، فجمعت صبيانى وجئته بهم ، والبؤس والضرّ ظاهران عليهم ، فقال : ائتنى عشيةً لأدفع إليك شيئا ، فجئته يقودنى أحد ولدى ، فأمره بالتنحّى ، ثم قال : ألا فدونك ، فأهويت — حريصا قد غلبنى الجشع ، أظنها صرّة — فوضعتُ يدى على حديدة تلتهب نارا ، فلمّا قبضتها نبذتها ، وخُرْتُ كما يخور الثور تحت يد جازره ، فقال لى : ثكلتك أمّك ! هذا من حديدة

أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبي غداً إن سُلِكنا في سلاسل جهنم ! ثم قرأ :
﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾(١) .

ثم قال : ليس لك عندي فوق حقّك الذي فرضه الله لك إلاّ ماترى ، فانصرف إلى أهلك .

فجعل معاوية يتعجّب ، ويقول : هيهات هيهات ! عَقِمت النساء أن يلدْن مثله !

---

(١) سورة غافر ٧١ .

(٢٢٠)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللهمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسارِ ، وَلا تَبْذُلْ جاهِي بِالإِقْتارِ ،فأَسْتَرْزِقَ طالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرارَ خَلْقِكَ ، وَأُبْتَلى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطانِي ، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي ، وَأَنتَ مِنْ وَراءِ ذلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الإِعْطاءِ وَالْمَنْعِ ؛ ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

* * *

الشرح :

صُنْ وجهي باليسار ، أي استره بأن ترزقني يَساراً وثروة ، أستغني بهما عن مسألة الناس .

ولا تبذل جاهي بالإقتار ، أي لا تسقط مروءتي وحرمتي بين النّاس بالفقر الذي أحتاج معه إلى تكفّف الناس .

* * *

وروى أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رقّت حاله في آخر عمره ، لأنّ عبد الملك جفاه ، فراح يوما إلى الجمعة ، فدعا فقال : اللهمّ إنك عوّدتني عادة جريتُ عليها ، فإن كان ذلك قد انقضى ، فاقبضني إليك . فلم يلحق الجمعة الأخرى .

وكان الحسنُ بن عليّ عليه السلام يدعو فيقول : « اللهمّ وسِّعْ عليّ فإنه لا يسعني إلّا الكثير » .

* * *

قوله: « فأسترزقَ » منصوبٌ لأنه جواب الدعاء ، كقولهم: ارزقني بعيرا فأحجَّ عليه. بيّن عليه السلام كيفية تبذّل جاهه بالإفتار ، وفسّره فقال : بأن أطلب الرزق ممّن يطلب منك الرزق .

وأستعطف الأشرار من النّاس ، أي أطلب عاطفتهم وإفضالهم ، ويلزم من ذلك أمران محذوران :

أحدهما أن أبتلى بحمد المعطى .

والآخر أن أفتتن بذمّ المانع .

قوله عليه السلام : « وأنت من وراء ذلك كلّه » مثل يقال للمحيط بالأمر ، القاهر له ، القادر عليه ، كما تقول للملك العظيم: هو من وراء وزرائه وكتّابه ، أي مستعدّ متهيّئ لتتبّعهم وتعقّبهم ، واعتبار حركاتهم ، لإحاطته بها وإشرافه عليها .

وولىّ ، مرفوع بأنّه خبر المبتدأ ، ويكون خبراً بعد خبر ، ويجوز أن يكون « ولىّ » هو الخبر ، ويكون « من وراء ذلك » ، جملة مركّبة من جار ومجرور منصوبة الموضع ؛ لأنّه حال .

(٢٢١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

دَارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ . لاتَدُومُ أَحْوَالُهَا ، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا . أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَالأَمَانُ مِنْهَا(١) مَعْدُومٌ ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدِفَةٌ ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا ، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَـذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَعْمَرَ دِيَارًا ، وَأَبْعَدَ آثَارًا ؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً ، فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ ؛ الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا ، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا ، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ ، وساكِنُهَا مُغْتَرِبٌ ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ ؛ وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطَانِ ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ ، وَدُنُوِّ الدَّارِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى ، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى !

وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ .

فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ

(١) ب : « فيها » .

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [1] .

***

الشــرح :

بالبلاء محفوفة : قد أحاط بها من كلّ جانب.

وتارات : جمع تارة ، وهى المرّة الواحدة . ومتصرّفة : منتقلة متحوّلة .

ومستهدِفة بكسر الدال: منتصبة مهيّأة للرمى،وروى : « مستهدَفة » بفتح الدال على المفعولية ، كأنها قد استهدفها غيرُها ، أى جعلها أهدافا .

ورياحهم راكدة : ساكنة . وآثارهم عافية : مندرسة .

والقصور المشيّدة . العالية ، ومن روى : « المَشيدة » بالتخفيف وكسر الشين،فمعناه المعمولة بالشِّيد ، وهو الجِصّ .

والنمارق : الوسائد .

والقبور المُلْحَدَة : ذوات اللحود .

وروى : « والأحجار المسنّدة » بالتشديد .

قوله عليه السلام : « قد بُنِى على الخراب فناؤها »؛أى بنيت لالتسكن الأحياء فيها كما تبنى منازل أهل الدنيا .

والسكلكل : الصدر ؛ وهو هاهنا استعارة .

والجنادل : الحجارة . وبعثرت القبور : أثيرت .

وتبلو كلّ نفس ما أسلفت : تخبر وتعلم جزاء أعمالها ، وفيه حذف مضاف ، ومن

---

(١) سورة يونس ٣٠ .

قرأ : «تتلو» بالتاء بنقطتين ، أى تقرأ كلّ نفس كتابها . وضلّ عنهم ما كانوا يفترون: بطل عنهم ما كانوا يدّعونه ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء .

* * *

[ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة فى ذم الدنيا]

ومن كلام بعض البلغاء فى ذم الدنيا : أمّا بعد ،فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرّفها ، وأنبأت عن مساوئها بما أظهرت عن مصارع أهلها ، ودلت على عوراتها بتغيّر حالاتها ، ونطقت ألسنةُ العِبَر فيها بزوالها ، وشهد اختلافُ شئونها على فنائها،ولم يبق لمرتاب فيها ريب ، ولا ناظر فى عواقبها شكّ ، بل عرَفها جلُّ مَنْ عرفها معرفة يقين ، وكشفوها أوضحَ تكشيف ، ثم اختلجتهم الأهواءعن منافع العلم ، ودلّتهم الآمال بغرور ، فلجّجت بهم فى غمرات العجز ، فسبحوا فى بحورها موقنين بالملَكة ، ورتعوا فى عِراصها عارفين بالخدْعة ، فكان يقينهم شكاً ، وعلمهم جهلا ، لا بالعلم انتفعوا ، ولا بما عاينوا اعتبروا . قلوبهم عالمة جاهلة ، وأبدانهم شاهدة غائبة ، حتى طرقتهم المنيّة ، فأعجلتهم عن الأمنيّة ، فبغتَتْهم القيامة ، وأورثتهم الندامة ، وكذلك الهوى حلت مذاقَتُه ، وسمّت عاقبتُه ، والأمل يُنْسَى طويلا ، ويأخذ وشيكا ،فانتفع امرؤ بعلمه ، وجاهد هواه أن يضلّه ،وجانب أمله أن يغرّه ، وقَوِيَ يقينه على العمل ، ونفى عنه الشكّ بقطع الأمل ، فإنّ الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين صرَعاه ، وإذا تعاونا على ذى غفلة خدعاه ، فصريعهما لا ينهض سالما، وخديعهما لا يزال نادما ، والقويّ مَنْ قوِيَ عليهما ، والحازم من احترس منهما . ألبسنا الله وإياكم جُنّة السلامة ، ووقانا وإياكم سوء العذاب !

* * *

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾[١] .

قال منصور بن عمّار لأهل مجلسه : ما أرى إساءة تكبُرُ على عفو الله فلا تيأس ، وربما آخذ اللهُ على الصّغير فلا تأمن ، وقد علمتَ أنّك بطول عفو الله عنك عمّرت مجالس الاغترار به ، ورضيت لنفسك المقام على سخطه ، ولو كنت تعاقِبُ نفسَك بقدر تجاوُزه عن سيئاتك ، مااستمرّ بك لجاج فيما نُهيتَ عنه ، ولا قصرت دون المبالغة فيه ، ولكنك رهين غفلتك ، وأسير حَيْرتك .

* * *

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب : قدم علينا بعبّادان راهبٌ من الشام ، ونزل دير ابن أبي كَبْشة ، فذكروا حكمة كلامه ، فحملني ذلك على لقائه ، فأتيته وهو يقول : إن لله عباداً سمَتْ بهم همُمهم نحو عظيم الذخائر ، فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقا يُبلِغهم سُمُوَّ الهمم فإن استطعتم أيها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعض أمرهم ، فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبَهم ، فلم تجد الدنيا فيها ملبساً ، فالحزن بثهم ، والدمع راحتهم ، والدءوب وسيلتُهم ، وحسن الظنّ قربانهم ، يحزنون بطول المكث فى الدنيا إذا فرح أهلها ، فهم فيها مسجونون ، وإلى الآخرة منطلقون .

فما سمِعت موعظة كانت أنفعَ لى منها .

* * *

ومن جيد شعر أبى نواس فى الزهد[٢] :

يابنى النّقْصِ والغِيَرْ　　وبنى الضّعْفِ والخوَرْ
وبنى البعْدِ فى الطّبا　　ع على القُرْبِ فى الصُّوَرْ

(١) سورة الشعراء ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٢) ديوانه ١٩٥

والشُّكول الّتي تبــا ينُ في الطُّول والقِصَرْ
أينَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ مِنْ ذَوِي البأسِ والخطَرْ
سائلوا عنهمُ المــدَا ئِنَ واستبحثُوا الخبرْ
سبقونا إلى الرّحيــلِ وإنّا لبالأثرْ
مَنْ مَضَى عِبرَةٌ لَنَا وَغَداً نَحْنُ مُعْتَبرْ
إنّ للموت أخْذَةً تسبِق اللّمْح بالبَصَرْ
فكأنّي بكم غَدًا في ثيابٍ من المَدَرْ
قد نُقِلْتُم من القُصُو رِ إلى ظُلْمَةِ الحُفَرْ
حيث لا تضرب القبا ب عليكم ولا الحُجَرْ
حيث لا تطربون منـه لِلَهوٍ ولا سَمَرْ (١)
رحِمَ الله مسلمًا ذَكر الموت فازدَجَرْ !
رحم الله مؤمنًا خاف فاستشعر الحذَرْ !

* * *

ومن جيّد شعر الرضيّ أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها (٢) :

وهل نحن إلا مرامي السّها م يحفزها نابلٌ دائبُ (٣)
نُسَرُّ إذا جازنا طائشٌ ونجزعُ إنْ مسّنا صائبُ
ففي يومِنا قدَرٌ لابدٌ وعند غدٍ قدَرٌ واثبُ (٤)

---

(١) رواية الديوان :

حيثُ لا تظهرون فيـهِ لِلَهوٍ ولا سَمَرْ

(٢) ديوانه لوحة ٧١١ ، من قصيدة يرثي فيها عميد الجيوش أبا عليّ الحسن بن جعفر .
(٣) النابل : صاحب النبل . والدائب : المجد .
(٤) لابد : مقيم .

طرائد تطردُهـا النائبات ولا بدّ أنْ يدركَ الطّالبُ
أرى المرء يفعل فعل الحديـد وهْو غداً حَمَأٌ لازبُ (١)
عواريُّ من سَلَبِ الهالكينَ يمدّ يداً نحوهـا السالبُ
لنا بالردى موعـد صادقٌ ونيل المُنى موعـدٌ كاذبُ
حبائـلُ للدهرِ مبثوثةٌ يُرَدّ إلى جذبِهَا الهـاربُ
وكيف نجـاوز غاياتنا وقد بلغ المَوردَ القاربُ (٢)
نصبِّح بالكأسِ مجدحةً (٣) ذُعافاً ، ولا يعلم الشاربُ (٤)

***

وقال أيضا ، وهى من محاسن شعره :

ما أقلّ اعتبارنَا بالزّمَانِ وأشدّ اغترارنا بالأمانى ! (٥)
وقفاتٌ على غرورٍ ، وإقدا م على مُزْلقٍ من الحدَثَانِ
فى حروب مع الردى فكأنا الـ يومَ فى هُدْنةٍ مع الأزمانِ
وكفانا مذكِّراً بالمنـايا عِلْمُنَا أننا من الحَيَوانِ
كلّ يوم رزيةٌ بفـلانٍ ووقوعٌ من الرَّدَى بفُلانِ
كم ترانى أُضِـلُّ نفساً وألهُو فـكأنى وثِقْتُ بالوجدانِ
قل لهذى الهوامل استوفِى السَّيـر أو استنشِدِى عن الأعطانِ
واستقيمى قد ضمّكِ اللَّقَمُ النَّهْـج ، وغنّى وراءكِ الحادِيانِ (٦)

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . واللازب : الصلب اللازق .
(٢) المورد : مكان ورود الماء . والقارب : الذى يطلب الماء .
(٣) نصبح : نؤتى بها وقت الصبح . ومجدوحة : مخلوطة .
(٤) رواية الديوان :

* ولا علمَ لى أينّـا الشاربُ *

(٥) ديوانه لوحة ١٠٥ ، يرثى صديقاً له من بنى العباس اسمه أبو عبد الله بن الإمام .
(٦) اللقم : معظم الطريق .

كم تحيدا عن الطريق وقد صـــرّح خَلْجُ البُرَى وجذب العِرَان

ننثنى جازعين من عَـدْوة الدهـ ـرِ ونرتاع للمنايا الرَّوانى

جفلة السِّرب فى الظلام وقد ذُعـ ـذع روعاً من عَـدوة الذُّؤبانِ

ثم نَنْسَى جرحَ الحِمَامِ وإنْ كا ن رغيباً يا قُرْبَ ذا النسيانِ !

كلّ يوم تَزايلٌ مـن خَليطٍ بالرّدى ، أو تباعدٌ من دانِ (١)

وسواء مضى بنا القـــدر الجِـــدّ عَجُولا ، أو ماطل العَصْرانِ

* * *

وأيضا من هذه القصيدة :

قـد مررنا على الدّيار خُشـوعاً ورأينا البنا ، فأينَ البانى !

وجَهِلنا الرُّســـومَ ثم عَلِمنا فذكَرْنا الأوْطارَ بالأوْطانِ

التفاتاً إلى القُرون الخـوالِى هل ترى اليوم غير قَرْنٍ فانِ !

أين رب السّدير فالحـيرة البيـــضاء ، أم أين صاحبُ الإيوان !

والسّيوف الحداد من آل بدرٍ والقَنا الصمّ من بنى الرَّيّانِ

طردتْهمْ وقائع الدّهر عـن لمـــلم طرد السَّفَاف عن نجرانِ

والمواضِى من آل جفنـة أرْسَى طُنُبا ملكِهمْ على الجولانِ

يـكرعون العُقار فى فلق الإبـــريز كَرْع الظِّماء فى الغُدْرانِ (٢)

من أباة اللّعنِ الذين يُحيّو ن بها فى معـــاقِدِ التيجانِ

تتراءاهمُ الوفود بعيـــداً ضاربين الصُّـــدُور بالأذْقانِ

(١) الخليط : الصديق ، والدانى : القريب

(٢) الفلق : القطعة من الجمان

فى رياضٍ من السَّماح حَـوالٍ وجبال من الُحلـــوم رِزانِ
وهمُ المـاء لَذَّ للنـــاهل الظَّمْـــآنِ بَرْداً والنَّارُ للحـــيران
كُلُّ مستيقظِ الجنان إذا أظْـــلَمَ ليـــلُ النَّوَّامة المِبْطَان
يغتدى فى السِّبَاب غـيرَ شجاع ويُرى فى النِّزَال غـير جَبان
مانثنت عنهم المنون يداً شو كاء أطرافُها من المرَّانِ (١)
عَطَف الدَّهرُ فَرْعَهُمْ فرآه بُعد بعـــد الذرا قريب الجانى
وثنتهمْ بعـــدَ الجماح المنـايا فى عِنَانِ التَّسليم والإذعان
عُطِّلت منهم المفارى وباخَتْ فى حمامْ مواقِدُ النِّيران (٢)
ليس يَبْقى على الزَّمانِ جرىء فى إباء ، أو عاجز فى هَوَانِ
لا شبوب من الصوار ولا أعـــنق يرعى منابِتَ العِلْجَانِ
لا ولا خاضب من الرُّبْدِ يختـا ل بريْطٍ أحمّ غـيرَ يمانِ (٣)
يرتمى وِجهةَ الرئال إذا آ نَس لون الإظلام والإدجان
وعُقاب اللاعِ تُلحم فَرْخَـيْهَا بإزليقـــةٍ زلول القِمَانِ
نائلا فى مطامح الجوّ هاتيـ ك وذا فى مهـابط الغيطان

وهذا شعر فصيح نادر معرق فى العربية .

* * *

---

(١) المران : الرماح .
(٢) باخت : خمدت .
(٣) الربط : جمع ربطة .

ومن شعره الجيد أيضا فى ذكر الدنيا ومصائبها [1] :

أو ما رأيت وقائع الدَّهْرِ ... أفـــلا تسىء الظّنَّ بالعُمْرِ !
بينـــا الفتى كالطَّوْدِ تـكنفُهُ ... هضباته ، والعضب ذى الأَثْرِ
يأبَى الدنيــــة فى عشيرته ... ويجاذِبُ الأيدى على الفَخْرِ
وإذا أشارَ إلى قبــــائله ... حُشِدت عليـــه بأوجهٍ غُرٍّ
يترادفون على الرماح فَهُمْ ... سيل يعبُّ وعارضٌ يسرى
إن نُهْنِهوا زادوا مقاربةً ... فـكأنّمـــا يُدعَوْنَ بالزَّجْرِ
عـــدد النجوم إذا دُعِى بهمُ ... يتزاحمون تزَاحُم الشَّمر
عقـــدوا على الجلّى مآزرَهُمْ ... سَبْطى الأنامل طَيبى النَّشْرِ
زل الزمانُ بوطء أخمصِهِ ... ومواطئُ الأقدام للعــــثر
نزع الإباء وكان شملتَه ... واقر إقرارا عَلَى صُغْرِ
صَــدع الردى ، أعيـا تلاحمه ... من ألحم الصدَفين بالقَطْرِ
جر الجيـاد على الوَجَى ومَضَى ... أمِمـــاً يدق السَّهْل بالوَعْرِ
حتى التَقى بالشمس مُنْمَدَةً ... فى قَفْر منقطعٍ من البَحْرِ
ثم انثنتْ كفُّ المنون بهِ ... كالضِّغْث بين النّاب والظُّفْرِ
لم تشتجرْ عنـه الرماح ولا ... ردّ القضاء بماله الدَّثْرِ
جَمع الجنود وراءه فـكأنّمـا ... لاقتْـه وهْو مضيّع الظَّهْرِ
وبنَى الحصون تمنُّعاً فـكأنّمـا ... أمسى بمَضيَعـةٍ وما يدرى
وبَرى المعابل للعِدا فـكأنّما ... لحمامِهِ كانَ الّذى يبرى

* * *

---

(١) من قصيدة يرثى بها أبا الحسن عبدالله بن محمد ، ديوانه لوحة ١٣٢ .

إن التوقّى فرط مَعْجزةٍ فدع القَضَاء يَقُدّ أو يَفرِى
وحمى المطاعم للبقا وذِى الْـــآجال ملء فُروجها تَجْرِى
لو كان حفظ النفس ينفعُنا كانَ الطّبيب أحقّ بالعُمْرِ
الموت داء لا دواء له سِيّانِ ما يوبى وما يُمْرِى

وهذا من حر الـكلام وفصيحه ونادره ، ولا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة ، وهذا القبس من تلك النار !

(٢٢٢)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

أَللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لأَوْلِيَائِكَ ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ،وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ ،إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ؛ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الاسْتِجَارَةِ بِكَ ؛ عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ .

أللهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ ، وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ .

أللهمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ .

* * *

الشرح :

أنست : ضدّ وحشت ، والإيناس : ضدّ الإيحاش ، وكان القياس أن يقول : إنّك آنس المؤنسين ، لأن الماضى « أفعل » وإنما الآنسون جمع آنس ، وهو الفاعل من أنست بكذا ، لا من « آنست »؛ فالرواية الصحيحة، اذن « بأوليائك »أى أنت أكثرهم أنساً بأوليائك وعطفا وتحنّنا عليهم .

وأحضرهم بالكفاية ، أى أبلغهم إحضارا لكفاية المتوكّلين عليهم ، وأقومهم بذلك

تشاهدهم فى سرائرهم ، أى تطلع على غيبهم ، والبصائر : العزائم ، نفذت بصيرته فى كذا ، أى حقّ عزمه .

وقلوبهم إليك ملهوفة ، أى صارخة مستغيثة .

وفهِهت عن مسألتى ، بالكسر : عَيِيت ، والفهّة والفَهاهةُ : العىّ ، رجل أ فهُّ ، ورجل فَهّ أيضا ، وامرأة فَهِهة ، قال الشاعر :

فلم تُلفنى فَهًّا ولم تُلفِ حاجتى ملجلَجةً أبغى لها مَنْ يقيمها (١)

وقد فَهِهْتَ يا رجل فَهَهًا ، أى عييت ، ويقال سفيه فهيه ، وفههه الله ، وخرجت لحاجة فأفهّنى عنها فلان ، أى أنسانيها .

ويروى : «أو عمهت» بالهاء والميم المكسورة ، والعَمَه : التحيّر والتردّد ، عَمِه الرجل ، فهو عَمِه وعامِهٌ والجمع عُمّهٌ ، وأرض عَمْهاء : لا أعلام بها .

والنكر . العجب والبِدْع المبتدع ، ومنه قوله تعالى . ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ ﴾ (٢) ؛ أى لم آت بما لم أسبق إليه .

ومثل قوله عليه السلام . « اللهم احمِلْنِى على عفوك ، ولا تحملنى على عَدْلك» قولُ المرْوانية للهاشميّة لما قُتل مروان فى خبرٍ قد اقتصصناه قديما . ليسَعنا عدْلُكم ، قالت الهاشمية . إذنْ لا نُبقِى منكم أحداً ، لأنكم حاربتم عليا عليه السلام ، وسَممتم الحسن عليه السلام ، وقتلتم الحسين وزيدا وابنه ، وضربتم علىّ بن عبد الله ، وخنقتم إبراهيم الإمام فى جراب النورة .

قالت . قد يسعنا عفوكم ، قالت . أما هذا فنعم .

---

(١) الصحاح ١٢٤٥ من غير نسبة .

(٢) سورة الأحقاف ٩ .

[أدعية فصيحة من كلام أبى حيان التوحيدى]

ومن الدعوات الفصيحة المستحسَنة فصولٌ من كلام أبى حيان التوحيدىّ نقلتها .

فنها : اللهمّ إنّى أبرأ من الثقة إلّا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلّا لك ، ومن التفويض إلّا إليك ، ومن التوكُّل إلّا عليك ، ومن الطلب إلّا منك ، ومن الرّضا إلّا عنك ، ومن الذلّ إلا فى طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعلَ الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكرَ على نعمك شعارى ودثارى ، والنّظَر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشُغْلى ، والخوف منك أمْنى وإيمانى ، واللّياذَ بذكرك بَهْجتى وسرورى .

اللهمّ تتابع برُّك ، واتّصل خيرُك ، وعَظُم رِفْدُك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدُك ، وبرّ قَسَمُك ، وعمّت فواضلك ، وتمت نوافلك ، ولم تبق حاجةٌ إلّا وقد قضيتَها ، أو تكفّلْت بقضائها ، فاختِم ذلك كلّه بالرضا والمغفرة ؛ إنّك أهلُ ذلك ، والقادر عليه ، والمليّ به .

* * *

ومنها : اللهمّ إنى أسألك خفايا لطفك ، وفواتحَ توفيقك ، ومألوفَ برّك ، وعوائد إحسانك ، وجاه المقدّسين من ملائكتك ، ومنزلة المصطفَيْن من رسلك ، ومكاثرة الأولياء من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك .

وأسألك القناعة برزقك ، والرّضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورَع فى شبهاتك والقيامَ بحجتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليمَ لما أخفيت ، والإقبالَ على ما أمرت ، والوقوف عمّا زجرت ، حتى أتّخذ الحقّ حجة عندما خَفّ وثقل ، والصدق سنة فيما عَسُر وسَهل ، وحتى أرى أنّ شعار الزهد أعزّ شعار ، ومنظر الباطل أشوَه منظر ،

فأتبختر فى ملكوتك بفضفاض الرداء بالدّعاء إليك ، وأبلغَ الغاية القصوى بين خلقك بالثناء عليك .

* * *

ومنها : اللهمّ إليك أرفع عُجَرى وبُجَرى ، وبك أستعين فى عُسْرى ويُسرى ، وإيّاك أدعو رَغَباً ورَهَباً ، فإنّك العالم بتسويل النّفْس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ، وصرْف الدهر ، وتلون الصديق ، وبائقة الثّقة ، وقنوط القلب ، وضعف المُنّة ، وسوء الجزَع .

فقِنى اللّهم ذلك كلّه ، واجمع من أمرى شمله ، وانظِمْ من شأنى شتيتَه ، واحرُسْنى عند الغنى من البَطَر ، وعند الفقر من الضّجَر ، وعند الكفاية من الغَفْلَة ، وعند الحاجة من الحسْرة ، وعند الراحة من الفُسُولة ، وعند الطّلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان ، وعند البحث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التّهمة لك .

وأسألُك أن تجعل صدرى خِزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خَدَم طاعتك ؛ فإنه لا عزّ إلا فى الذلّ لك ، ولا غنَى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمْنَ إلا فى الخوف منك ، ولا قرار إلا فى القَلَق نحوك ، ولا رَوح إلا فى الكرْب لوجهك ، ولا ثقةَ إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقَسْمك ، ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك .

* * *

ومنها : اللهم ببرهانك الصادع ، وبنور وجهك الساطع ؛ صلّ على محمد نبيّك نبي الرحمة ، وقائد الأمّة ، وإمام الأئمة ، واحرس علىّ إيمانى بك بالتسليم لك ، وخفف عنّى مؤنة الصبر على امتحانك ، وواصل لى أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقيّة عمرى فى غنًى عن خلقك ، ورضا بالمقدّم من رزقك .

اللهم إنك إن آخذتنا بذنوبنا خَسَفْت الأرض بنا ، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابرنا،فإنك قلت: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[1].

اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا؛ وغلّ صدورنا؛ وفتنةَ أنفُسنا،وطموحَ أبصارنا،ورفَث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، وفُحْش لجاجنا ،وقبح دعوانا،ونَتْن أشرارنا، وخُبْث أخيارنا ، وتلزّق ظاهرنا ، وتمرّق باطننا .

اللهم فارحمنا ، وارأفْ بنا ، واعطف علينا ، وأحسِن إلينا،وتجاوز عنّا،واقبل الميسورَ منّا ، فإننّا أهلُ عقوبة ، وأنت أهل مغفرة ، وأنتَ بما وصفت به نفسَك أحقّ منّا بما وَسَمْنا به أنفسنا ، فإن فى ذلك ما اقترن بكرَمك ، وأدّى إلى عفوك . ومن قبل ذلك وبعده ، فأَ ربْ عيشنا بنعمتك ، وأرحْ أرواحَنا من كَدّ الأمل فى خلقك ، وخذ بأزمّتنا إلى بابك ، وألْهِ قلوبنا عن هذه الدار الفانية ، وازرع فيها محبّة الدار الباقية ، وقلِّبْنا على بساط لطفك ، وحُثّنا بالإحسان إلى كَنَفك ، ورفِّهنا عن التماس ماعند غيرك ، واغضض عيونَنا عن ملاحظة ماحُجِب من غيرك ، وصِلْ بيننا وبين الرّضا عنك ، وارفع عنامؤنة العَرْض عليك ، وخفّف علينا كلّ ما أوصلَنا إليك ، وأذِقْنا حَلاوة قُربك ، واكشف عن سرائرنا سواتر حُجُبك ، ووكّل بنا الحفَظة ، وارزقنا اليقَظة ، حتى لا نقترف سيِّئة ، ولا نفارق حسنة ،إنّك قائم على كلّ نفس بما كسبت ، وأنت بما نخفى ومانعلن خبير بصير .

* * *

ومنها : اللهمّ أنت الحىّ القيّوم ، والأوّل الدائم ، والإله القديم ، والبارئ المصوّر، والخالق المقدّس ، والجبّار الرفيع ، والقهّار المنيع ، والملك الصَّفُوح ، والوهّاب المَنُوح ،

---

(١) سورة الأنعام ٤٥ .

والرحمن الرءوف ، والحنّان العَطُوف ، والمنّان اللطيف ، مالك الذوائب والنّواصى ، وحافظ الأدانى والأقاصى ، ومصرّف المطيع والعاصى .

اللهمّ أنت الظّاهر الذى لا يجحدك جاحد إلا زايلتْه الطُّمأنينة ، وأسلمه اليأس ، وأوحشه القُنوط ، ورحلتْ عنه العصْمة ، وتردّد بين رجاء قد نأى عنه التّوفيق ، وأمل قد حقّت به الخيبة ، وطمع يحوم على أرجاء التّكذيب ، وسرّ قد أطاف به الشّقاء ، وعلانية قد أناف عليها البلاء ، موهون المِنّة ، منسوخ العقدة ، مسلوب العدّة ، تشنؤه العين ، وتقليه النفْس ، عَقْلُه عقلٌ طائر ، ولبّه لُبٌّ حائر وحكمه حكم جائر ، لا يروم قرارا إلا أزعِج عنه ، ولا يستفتح بابا إلا أرتِج دونه ، ولا يقتبس ضَرَماً إلا أجّج عليه ، عثرتُه موصولة بالعَثْرة ، وحسرته مقرونة إلى حسرة ، إن سمع زيّف ، وإن قال حرّف ، وإن قضى خرّف ، وإن احتجّ زخرف ، وَلَوْ فاء إلى الحقّ لوجد ظلّه ظليلًا ، وأصاب تحته مثوًى ومقيلا ،

وأنت الباطن الذى لا يرومك رائم ، ولا يحوم على حقيقتك حائم ، إلا غشيَه من نور إلٰهيّتك ، وعزّ سلطانك ، وعجيب قدرتك ، وباهر برهانك ، وغرائب غيوبك ، وخفيّ شأنك ، ومخوف سطوتك ، ومرجوّ إحسانك ، مايردّه خاسئا من مزحزَحه عن الغاية ، خجِلا مَبْهوراً ، ويردّه إلى عجزه ، ملتحفاً بالندم ، مرتديا بالاستكانة ، راجعاً إلى الصّغار ، موقوفا مع الذلّة . فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطرار ، وباطنك يحيّر فيك لسعة فضاء الاعتبار ، وفعلك يدلّ عليك الأسماع والأبصار ، وحكمتك تعجب منك الألباب والأسرار . لك السلطان والملكة ، وبيدك النّجاة والهالكة ، فإليك المفرّ ، ومعك المقرّ ، ومنك صنوف الإحسان والبر ، أسألك بأصحّ سرّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة ، وأتمّ إخلاص ، وأشرف همّة ، وأفضل نيّة ، وأطهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تصدّ عنى

كلّ مايصدّ عنك ، وتصلنى بكلّ مايصل بك ، وتحبّب إلىّ كلّ مايحبّب إليك ، فإنك الأوّل والثانى ، والمشار إليه فى جميع المعانى ، لا إله إلا أنت .

***

ومنها : اللهمّ إنى أسألك جدًّا مقرونا بالتوفيق ، وعلماً بريئا من الجهل ، وعملا عريًّا من الرياء ، وقولًا موشّحا بالصواب ، وحالًا دائرة مع الحقّ ، وفطنةَ عقل مضروبة فى سلامة صدور ، وراحةَ جسم راجعةً إلى روح بال ، وسكونَ نفس موصولا بثبات يقين ، وصحّة حجّةٍ بعيدة من مرض شبهة ، حتى تكون غايتى فى هذه الدنيا موصولةً بالأمثل فالأمثل ؛ وعاقبتى عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ؛ من حياة طيّبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلّغ إليه .

اللهم لا تخيّب رجاء هو منوطٌ بك ، ولا تُصفِرْ كفًّا هى ممدودة إليك ، ولا تعذِّب عيناً فتحتَها بنعمتك ، ولا تذلَّ نفسا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلُبْ عقلا هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تُخرس لسانا عودّته الثّناء عليك ، فكما كنت أوّلًا بالتفضّل فكن آخراً بالإحسان .

الناصيةُ بيدك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقَّعٌ منك ، والمصير على كلّ حال إليك .

البِسنى فى هذه الحياة البائدة ثوبَ العِصْمة ، وحَلِّنى فى تلك الدّار الباقية بزينة الأمن ، وافطم نفسى عن طلب العاجلة الزائلة ، وأجْرِنى على العادة الفاضلة ، ولا تجعلنى ممّن سها عن باطن مالَك عليه ، بظاهر مالَك عنده ، فالشقىّ مَنْ لم تأخذ بيده ، ولم تؤمّنه من غده ، والسعيد من آويته إلى كَنَف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقَشٍ فى الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنّك على ذلك قدير .

***

ومنها : اللّهمّ اجعل غدوّنا إليك مقروناً بالتوكّل عليك ، ورواحَنا عنك موصولاً

بالنجاح منك ، وإجابتنا لك راجعةً إلى التهالك فيك ، وذكْرَنا إيّاك منوطاً بالسكون معك ، وثقتنا بك هاديةً إلى التفويض إليك ، ولا تخلِنا من يدٍ تستوعب الشُّكر ، ومن شكر يمترى خِلْف المزيد ، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترحين ، وصنع يفوق ذَرْع الطالبين ، حتى نلقاك مبشَّرين بالرّضا ، محكَّمين فى المُنَى ، غير مناقَشين ولا مطرودين .

اللهم أعِذْنا من جَشَع العقير ، وريبة المنافق ، وتجليح[1] المعاند ، وطيشة العَجُول ، وفَتْرة الكَسْلان ، وحيلة المستبدّ وفتور العقل[2] ، وحَيْرة المُخرَج ، وحَسْرة المحوَج ، وفلْتة الذُّهول ، وحُرْقة الثُّكول[3] ، ورقّة الخائف ، وطمأنينة المغرور ، وغفلة الغرور .

واكفنا مؤنة أخ يرصدُ مسكوناً إليه ، ويمكُر موثوقاً به ، ويخيس[4] معتمَداً عليه .

وصِل الكفاية بالسَّلْوة عن هذه الدّنيا ، واجعل التهافنا عليها حنيننا إلى دار السلام ، ومحلّ القرار ، وغلِّب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان ، واحرسنا من أنفسنا ، فإنّها ينابيعُ الشَّهْوة ، ومفاتيح البلوى .

وأرِنا من قُدْرتك مايحفظ علينا هيبتَك ، وأوضِحْ لنا من حكمتك ما يقلِّبُنا فى ملَكوتك ، وأسبِغْ علينا من نعمتك مايكون لنا عوْناً على طاعتك ، وأشِعْ فى صدورنا من نورك ماتتجلّى به حقائق توحيدك .

واجعل ديدَننا ذكرك ، وعادتنا الشَّوْق إليك ، وعلِّمْنا النُّصح لخلْقك ، واجعل غايتنا الاتّصال بك ، واحجبنا عن قول يبرئْ من رضاك ، وعَمَل يُعمِى صاحبه عن هداك ، وألِّفْ بيننا وبين الحقّ ، وقرّبنا من معادن الصِّدْق ، واعصمنا من بوائق الخلْق ، وانقلنا من مضايق الرّقّ ، واهدنا إلى فوائد العِتْق .

اللهم إنّك بدأت بالصُّنْع وأنت أهله ، فعُدْ بالتّوفيق فإنّك أهلُه .

(١) جلح فى الأمر : ركب رأسه
(٢) ا : « الفعل » .
(٣) ب : « الشكول » ، وما أثبته من ا
(٤) يخيس : يغدر .

اللهمّ إنا نتضاءلُ لك عند مشاهدة عظمتك، ونذلّ عليك عند تواتر برّك، ونذلّ لك عند ظهور آياتك، ونلحّ عليك عند علمنا بجودك.

ونسألك من فضلك مالا يرزؤك ولا ينكؤك، ونتوسّل إليك بتوحيد لا ينتمى إليه خَلْق، ولا يفارقه حقّ.

ومنها: اللهمّ عليك أتوكّل، وبك أستعين، وفيك أوالى، وبك أنتسب، ومنك أفرَق، ومعك أستأنس، ولك أمجّد، وإياك أسأل: لسانا سَمْحاً بالصدق، وصدراً قد ملئ من الحقّ، وأمَلًا منقطعا عن الخلق، وحالًا مكنونها يبوّئ الجنة، وظاهرها يحقّق المنّة، وعاقبةً تنسى ما سلف، وتتصل بما يُتمنّى ويُتوكّف.

وأسألك اللهمّ كبداً رجوفاً خشوعا، ودَمْعا نَطُوفاً شوقاً إليك، ونفساعزوفاً إذعاناً لك، وسرّا ناقعاً ببَرْد الإيمان بك، ونهارا مشتملا على ما كُسِب من مرضاتك، وليلا مالئاً بما أزلف لديك.

أشكو إليك اللهمّ تلهّفى على ما يفوتنى من الدّنيا، وأنّى فى طاعة الهوى؛ جاهلًا بحقّك، ساهيا عن واجبك، ناسياً ماتكرره من وعظِك وإرشادك، وبيانك وتنبيهك، حتى كأنّ حلاوة وعدِك لم تلِج أذنى، ولم تباشر فؤادى، وحتى كأنّ مرارة عتابك ولا ثمتك لم تهتِك حجابى، ولم تعرض علىّ أوصابى.

اللهمّ إليك المفرّ من دارٍ منهومُها لا يشبع، وحائمها لا ينقع [1]، وطالبها لا يربع، وواجدها لا يقنع، والعيش عنك رقيق، وللأمل فيك تحقيق.

اللهمّ كما ابتليت بحكمتك الخفيّة التى أشكلَت على العقول، وحارت معها البصائر، فعاف برحمتك اللطيفة التى تطاولت إليها الأعناق، وتشوّفت نحوها السرائر، وخذ معنا بالفضل الذى إليك هو منسوب، وعنك هو مطلوب؛ وافطِم نفوسنا من رضاع الدّنيا،

---

(١) الحائم: العطشان. ولا ينقع: لا يروى.

والطف بما أنت له أهلٌ ؛ إنّك على كلّ شيء قدير .

اللهم قُدْنا بأزمّة التوحيد إلى محاضر طاعتك ، واخلِطنا في زُمْرة المخلصين لذكرك ، واجعل إجابتك من قبيل مايتصل بكرم عفوك ، ولاتجعل خيبتنامن قِبَل جهلنا بقدْرك ، وإضرابنا عن أمرك ؛ فلا سائل أحوجُ منا ، ولا مسئول أجودُ منك .

اللهم احجر بيننا وبين كلّ ما دلّ على غيرك ببيانك ، ودعا إلى سواك ببرهانك ، وانقلنا عن مواطن العجز ، مرتقيًا بنا إلى شرفات العزّ ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت النفس ، وساءت العادة ، وكثر الصادّون عنك ، وقلّ الداعون إليك ، وذهب المراعون لأمرك ، وفقد الواقفون عند حُدودك ، وخلتْ ديار الحق من سُكّانها ، وبيع دينك بَيْع الخَلَق ، واستهزئ بمباشر مجدك ، وأُقْصِيَ المتوسل بك .

اللهم فأعد نضارةَ دينك ، وأفِضْ بين خلقك بركاتِ إحسانك ، وامدد عليهم ظلّ توفيقك ، واقمع ذوى الاعتراض عليك ، واخسف بالمقتحمين فى دقائق غيبك ، واهتِك أستار الهاتكين لستْر دينك ، والقارعين أبوابَ سرك ؛ القائسين بينك وبين خلقك .

اللهمّ إنى أسألك أن تخصّنى بإلهامٍ أقتبس الحق منه ، وتوفيق يصحبنى وأصحبه ، ولطفٍ لايغيب عنى ولا أغيب عنه ؛ حتى أقول إذا قلت لوجهك ، وأسكت إذا سكت بإذنك ، وأسأل إذا سألتُ بأمرك ، وأبين إذا أبنتُ بحجتك ، وأبعُدُ إذا بعدت بإجلالك ، وأقرُبُ إذا قربت برحمتك ، وأعبُد إذا عبدت مخلصًا لك ، وأموت إذا متّ منتقلا إليك .

اللهمّ فلا تكلنى إلى غيرك ، ولا تؤيّسنى من خيرك .

***

ومنها : اللهمّ إنا بك نعزّ كما أنّا بغيرك نذلّ ، وإياك نرجو كما أنّا من غيرك نيأس ، وإليك نفوّض ، كما أنّا من غيرك نعرض ، أذنت لنا فى دعائك ، وأدنيتنا إلى فِنائك ، وهيّأتنا لِعطائك ، وخصصتَنا بحبائك ، ووسمتنا بولائك ، وعمّمتَنا بآلائك ، وغمستَنا فى نعمائك ، وناغيتَنا بألسُنِ ملكوتك عن دقائق ما فى عالمك ؛ ولاطَفتنا بظاهر قولك

وتولّيتنا بباطنِ فملك ، فسمَتْ نحوك أبصارُنا ، وشامت بروق جودك بصائرُنا، فلمّا استقرّ ما بيننا وبينك ، أرسلْت علينا سماء فضلك مدرارا ، وفتحت لنا منّا أسماعاوأبصارا، فرأينا ماطاح معه تحصيلنا ، وسمعنا مافارقنا عنده تفضيلنا ، فلمّا سِرْنا إلى خلقك من ذلك ذَرْوا[1] ،اتخذونا من أجله لعبا وهزوا . فبقدرتك على بلوانا بهم ، أرِنا بك الغِنَى عنهم .

اللهم قيّض لنا فرجاً من عندك ، وأتِح لنا مخلَصا إليك ، فإنا قد تعبنا بخلقك ، وعجزنا عن تقويمهم لك ،ونحن إلى مقاربتهم فى مخالفتك أقربُ منّا إلى منابذتهم فى موافقتك، لأنّه لا طاقةَ لنا بدهائهم ، ولا صَبْرَ لنا على بلوائهم ، ولا حيلَة لنا فى شفائهم ، فنسألك بالضّراعة التامّة وبالإخلاص المرفود ، إلّا أخذتَ بأيدينا ، وأرسلت رحمتك علينا ، فما أقدرك على الإجابة ، وما أجودك بكل مصون ؛ ياذا الجلال والإكرام !

***

ومنها : اللهمّ إنّا قرُبنا بك فلا تُدْنِنا عنك ، وظهرنا لك فلا تبطنّا دونك، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعرفنا عن كلّ مالوانا عن بابك ، ووثقنا بكلّ ماوعدتنا فى كتابك ، وتوكّلنا بالسرّ والعَلَن على لطيف صنعك .

اللهم إليك نظرت العيون فعادت خاسئةً عَبْرَى ، وفيك تقسّمت الظنون فانقلبت يائسة حَسْرى ، وفى قدرتك حارت الأبصار ، وفى حكمتك طاحت البصائر ، وفى آلائك غرقت الأرواح ، وعلى ما كان منك تقطّعت الأنفاس ، ومن أجْلِ إعراضك التهبت الصدور ، ولذكر مامَضى منك هملت الدموع .

اللهم تولّنا فيما وليّتنا حتى لا نَتولّى عنك ، وأمِّنّا ممّا خوّفتَنا حتى نقرّ معك ، وأوسِعنا رحمتك ، حتى نطمئنّ إلى ماوعدتنا فى كتابك ، وفرّق بيننا وبين الغلّ حتى لانعامل به خلقك ، وَأغننا بك حتى لانفتقر إلى عبادك ، فإنّك إذا يسّرت أمراتيسّر ؛ ومهما بلوتنا فلا تبلُنا بهجرك ، ولا تجرّعنا مرارة سُخطك . قد اعترفنا بربوبيتك

(١) ذروا : طرفاً .

عبوديّة لك ، فعرّفنا حقيقتها بالعفو عنا ، والإقبال علينا ، والرفق بنا ، يارحيم !

* * *

ومنها: اللهم إنّ الرغبات بك منوطة، والوسائل إليك متداركة، والحاجات ببابك مرفوعة، والثقة بك مستحصفة (أى مستحكمة)، والأخبار بجودك شائعة، والآمال نحوك نازعة، والأمانىّ وراءك منقطعة، والثناء عليك متّصل، ووصفك بالكرم معروف، والخلائق إلى لطفك محتاجة، والرجاء فيك قوىّ ، والظنون بك جميلة، والأعناق لعزّك خاضعة ، والنّفوس إلى مواصلتك مشتاقة ، والأرواح لعظمتك مبهوتة ؛لأنك الإله العظيم، والربّ الرّحيم، والجواد الكريم، والسميع العليم ، تملك العالم كلّه ، وما بعده وماقبله ، ولك فيه تصاريف القدرة ، وخفيّات الحكمة ، ونوافذ الإرادة ، ولك فيه مالا ندريه ممّا تخفيه ولا تبديه ، جَللت عن الإجلال ، وعظمت عن التعظيم ، وقد أزف ورودُنا عليك، ووقوفُنا بين يديك ، وظنُّنا ماقد علمت ، ورجاؤنا ماقد عرفت، فكن عند ظنِّنا بك ، وحقق رجاءنا فيك ، فما خالفناك جرأة عليك ، ولا عصيناك تقحّما فى سخطك ، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك ، ولكن غلبت علينا جواذب الطّينة التى عجنتَنا بها ، وبذور الفِطْرة التى أنبتنا منها ، فاسترخت قيودنا عن ضبط أنفسنا ، وعزبت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا ، ولسنا ندّعى حُجّة ، ولكن نسألك رأفة ، فبسترك السّابغ الذّيال ، وفضلك الذى يستوعب كلّ مقال ، إلا تممت ماسلَف منك إلينا ، وعطفتَ بجودك الفيّاض علينا ، وجذبت بأضباعنا ، وأقررت عيوننا ، وحققت آمالنا ؛ إنك أهل ذلك ، وأنت على كل شىء قدير !

* * *

تم الجزء الحادى عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الثانى عشر

فهرس الخطب*

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الثاني عشر

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

لله بلاد فلان ؛ فَلَقَدْ قوّمَ الأَوَدَ ، وَدَاوَى الْعَمَدَ ، وَأَقَامَ السُّنَّة ، وَخَلَّف الفِتْنَةَ ! ذَهَبَ نَقِيّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ ، أَصَابَ خَيْرَهَا ، وَسَبَقَ شَرَّهَا .

أدّى إلى اللهِ طاعته ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ . رَحَل وتركَهُمْ فِي طرق مُتَشَعِّبَةٍ ، لَا يَهْتدِى بِهَا الضَّالّ ، ولا يستيقنُ الْمُهْتَدِى .

***

الشـرحُ :

العرب تقول : لله بلادُ فلانٍ ، ولله درُّ فُلان ، ولِلّهِ نادِى فُلَانٍ ، وَلِلّهِ نائِحُ فلَانٍ ! والمراد بالأول : لِلّهِ الْبِلَادُ الَّتِى أنشأتْهُ وأنبتَتْهُ ، وبالثّانى : لِلّهِ الثّدْىُ الذى أرْضعهُ وبالثالثِ : لِلّهِ الْمجْلِسُ الَّذِى رُبِّىَ فيهِ ، وبالرابع :للهِ النَّائِحَةُ الَّتى تَنُوحُ عَلَيْهِ وتَنْدَبه ! ماذا تَعْهَدُ من مَحَاسِنِهِ

ويُروى : «لله بلاء فلان » ، أى لله ماصنع ! وفلان المكنّىّ عنه عمر بن الخطّاب؛ وقد وجدتُ النّسخة الّتى بخطّ الرضىّ أبى الحسن جامع "نهج البلاغة" ، وتحت «فلان» «عمر»،

حدّثني بذلك نخار بن معدّ الموسوى الأودىّ الشاعر ، وسألتُ عنه النّقيب أبا جعفر يحيى ابن أبي زيد العلَوِىّ ، فقال لى : هو عمر ، فقلت له أَيُثنى عليه أميرُ المؤمنين عليه السّلام هذا الثناء ؟ فقال : نعم ؛ أمّا الإماميّة فيقولون : إنّ ذلك من التَّقيّة واستصلاح أصحابه. وأمّا الصّالحيّون[1] من الزيْديّة فيقولون : إنه أثنى عليه حقّ الثناء ، ولم يضع المدح إلّا فى موضعه ونصابه . وأمّا الجارودية[2] من الزيديّة فيقولون : إنّه كلام قاله فى أمر عثمان أخرجه مُخرَجَ الذّمِّ له ، والتنقّص[3] لأعماله ، كما يُمدَحُ الآن الأميرُ الميّت فى أيام الأمير الحىّ بعده ، فيكون ذلك تعريضاً به .

فقلت له : إلّا أنّه لا يجوز التعريض والاستزادة للحاضر بمدح الماضى ، إلّا إذا كان ذلك المدح صدقاً لا يخالطه ريبٌ ولا شبهة . فإذا اعترف أميرُ المؤمنين بأنّه أقام السنّةَ ، وذهب نِقِىّ الثوْب ، قليلَ العيْب ، وأنّه أدّى إلى الله طاعتَه ، واتّقاه بحقّه ، فهذا غايةُ مايكون من المدح . وفيه إبطالُ قول مَنْ طعن على عثمان بن عفّان .

فلم يجبنى بشىء ، وقال : هو ماقلت لك !

فأمّا الراوندىّ ، فإنّه قال فى الشرح : إنّه عليه السلام مدح بعض أصحابه بحسن السيرة ، وأنّ الفتنة هى التى وقعت بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الاختيار والأثَرة.

وهذا بعيد ؛ لأنّ لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهراً بأنه يمدح والياً ذا رعيّة وسيرة، ألا تراه كيف يقول : « فلقدْ قوّم الأود ، وداوَى العمَد ، وأقام السّنة ، وخلّف الفتنة »!. وكيف يقول : « أصاب خيرها وسبق شرها » ! وكيف يقول : « أدّى إلى الله طاعته »! وكيف يقول : « رَحَل وتركهم فى طرق متشعّبة » !

---

(١) الصالحيون من الزيدية : أصحاب الحسن بن صالح . وانظر آراءهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١٤٢

(٢) الجارودية من الزيدية ؛ أصحاب أبى الجارود زياد بن أبى زياد . الملل والنحل للشهرستانى ١٤٠

(٣) كذا فى ب ، وفى ا : « النقض » .

وهذا الضّمير ، وهو الهاء والميم فى قوله عليه السلام : « وتركهم » ، هل يصحّ أنْ يعود إلّا إلى الرعايا ! وهل يسوغُ أن يقال هـذا الـكلام لسوقة مِنْ عُرْض النـاس ! وكلّ من مات قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله كان سوقةً لا سلطان له ، فلا يصحّ أن يُحمَل هذا الكلام على إرادةِ أحدٍ من الّذين قُتِلوا أوماتوا قبل وفاةِ النبى صلى الله عليه وآله؛ كعثمان بن مظعون، أو مُصعب بن عمير، أو حمزة بن عبد المطلب، أو عبيدة بن الحارث، وغيرهم من الناس . والتأويلاتُ البارِدة الغثّة لا تعجبنى ، على أنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبريّ قد صرح أو كاد يصرّح بأنّ المعنىّ بهذا الـكلام عمر ، قال الطبريّ: لما مات عمر بكته النّساء، فقالت إحـدى نوادبه : واحَزَناه على عمر ! حزناً انتشر ، حتى ملأ البشر (١) . وقالت ابنة أبى حثمة : واعمراه ! أقام الأوَد ، وأبرأ العَمَـد ، وأمات الفتن ، وأحيـا السّنن . خرج نقىّ الثّوب ، بريئا من العيب (٢) .

قال الطبريّ : فروى صالح بن كيسان ، عن المغيرة بن شعبة (٣) ، قال : لمّا دفن عمر أتيتُ عليًّا عليه السلام، وأنا أحبّ أن أسمعَ منه فى عمر شيئا ، فخرج ينفُض رأسه ولحيته، وقد اغتسل ، وهو ملتحِفٌ بثوب لا يشكّ أنّ الأمر يصير إليـه ، فقال : رحم الله ابن الخطاب ! لقد صدقت ابنَةُ أبى حَثْمة: « ذهب بخيرها، ونجا من شرها »، أما والله ماقالت، ولـكن قُوّلت ! » .

وهذا كما ترى يقوّى الظنّ ؛ أن المراد والمعنىّ بالـكلام إنّما هو عمر بن الخطاب .

* * *

(١) الطبرى : « واحزنى على عمر ، حرا انتشر فلأ البشر » . وبعده : وقالت أخرى : « واحرى على عمر ، حرا انتشر حتى شاع فى البشر » .

(٢) تاريخ الطبرى ٤ : ٢١٨ (طبعة دار المعارف) .

(٣) فى الطبرى : « حدثنى عمر ، قال : حدثنى على ، قال: حدثنا على ، قال : حدثنا ابن دأب وسعيد ابن خالد عن صالح بن كيسان عن المغيرة بن شعبة ... » .

قوله : « فلقد قَوّم الأَوَد »،أى العِوَج ؛ أوِد الشيء بالكسر يأوَدُ أَوَداً،أى اعوجّ، وتأوّد العود ، يتأوّد .

والعَمَد : انفضاخُ [(١)] سنام البعير ، ومنه يقال للعاشق : عَمِيد القلب ومعموده .

قوله : « أصاب خيرَها » أى خير الولاية ، وجاء بضميرها ولم يجرِ ذكرها لعادة العرب فى أمثال ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [(٢)] .

وسبق شرّها،أى مات أو قتل قبل الأحداث والاختلاط الذى جرى بين المسلمين.

قوله : « واتّقاه بحقّه » ، أى بأداء حقه والقيام به .

فإن قلت:وأىّ معنى فى قوله : «واتقاه بأداء حقّه»؟وهل يتقى الإنسان الله بأداءالحق! إنماقد تكون التقوى علّة فى أداء الحقّ ، فأما أن يتقى بأدائه فهو غير معقول .

قلت : أراد عليه السلام أنّه اتقى الله ، ودلّنا على أنه اتّقى الله بأدائه حقه ، فأداء الحقّ علّة فى علمنا بأنه قد اتّقى الله سبحانه .

ثم ذكر أنّه رَحَل وترك النّاس فى طرق متشعّبة متفرّقة ، فالضالّ لا يهتدى فيها ، والمهتدى لا يعلم أنه على المنهج القويم ، وهذه الصفات إذا تأمّلها المنصف ، وأماط عن نفسه الهوى ، علم أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يَعْنِ بها إلّا عمر ؛ لو لم يكن قد روى لنا توقيفاً ونقلا أنّ المعنىّ بها عمر ، فكيف وقد رويناه عمّن لا يتّهم فى هذا الباب !

* * *

[نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه]

ونحن نذكر فى هذا الموضع نُكتا من كلام عمر وسيرته وأخلاقه .

---

(١) انفضخ سنام البعير : انشدخ .
(٢) سورة ص ٣٢ .

أُتِيَ عمرُ بمالٍ ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : ياأميرَ المؤمنين ، لو حبستَ من هذا المال فى بيت المال لنائبةٍ تكون ، أو أمرٍ يحدث ! فقال : كلمة ماعرَض بها إلّا شيطان كفانى حُجّتها ، ووقانى فتنتها . أعصى الله العامَ مخافة قابل ! أعدّ لهم تقوى الله ، قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَلْ لَه مَخْرَجاً ويَرْزُقْه مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (١) .

* * *

استكتب أبو موسى الأشعرىّ نصرانيًّا ، فكتب إليه عمر : اعزله واستعمل بدلَه حَنيفيًّا ، فكتب له أبو موسى : إنّ من غَنائه وخيره وخبرته كَيْت وكَيْت . فكتب له عمر : ليس لنا أنْ نأتمِنَهم ، وقد خوّنهم الله ، ولا أنْ نرفعَهم وقد وضعهم الله ، ولا أن نستنصِحَهم فى الدّين وقد وتَرهم الإسلام ، ولا أن نعِزَّهم وقد أُمِرنا بأن يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

فكتب أبو موسى : إنّ البلد لا يصلح إلّا به . فكتب إليه عمر : مات النصرانىّ والسلام .

* * *

وكتب إلى معاوية : إيّاك والاحتجاب دون الناس ، وائذن للضّعيف ، وأدْنِه حتّى ينبَسط لسانه ، ويجترئَ قلبه ، وتعهّد الغريب (٢) ، فإنه إذا طال حبسه ودام إذنه ، ضعُف قلبهُ ، وترك حقّه .

* * *

عزل عمر زياداً عن كتابة أبى موسى الأشعرىّ فى بعض قَدَماته عليه ، فقال له : عن عَجْزٍ أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن واحدةٍ منهما ، ولكنّى أكره أن أحمِل على العامّة فضلَ عقلك .

---

(١) سورة الطلاق ٣ .

(٢) ب : « القريب » .

وقال : إنّى والله لا أدعُ حقا لله لشكاية تظهر، ولا لضِبّ يحتمل ، ولا لمحاباة لبَشر. وإنّك والله ماعاقبتَ مَنْ عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

* * *

وكتب إلى سعد بن أبى وقّاص : ياسعد سعد بنى أُهَيْب ! إنّ الله إذا أحبّ عبداً حبّبه إلى خلقه ، فاعتبرْ منزِلَتك من الله بمنزلتك من الناس . واعلمْ أنّ مالَك عند الله مثل مالله عندك .

* * *

وسأل رجلاً عن شىء ، فقال : الله أعلم ، فقال : قد شقِينا إن كنّا لا نعلم أنّ الله أعلم ! إذا سئِل أحدُكم عمّا لا يعلم ، فليقلْ : لا أدرى .

* * *

وقال عبدالملك [على المنبر][1]:أنصِفونا يامعشر الرّعية،تريدون منّا سيرةَ أبى بكر وعمر ، ولم تسيروا فى أنفسكم ولا فينا سيرة أبى بكر وعمر ! نسأل الله أن يعين كلًّا على كلّ .

* * *

ودخل عمرُ على ابنه عبد الله ، فوجد عنده لحما عَبيطا معلّقا[2]،فقال : ماهذا اللحم؟ قال : اشتهيتُ فاشتريت ، فقال : أوَكُلّما اشتهيتَ شيئا أكلتَه ! كفى بالمرء سَرَفًا أنْ أكلَ كلَّ ماشتهاه .

* * *

مرّ عمر على مزبلة ، فتأذّى بريحها أصحابُه ، فقال : هـذه دنياكم الّتِى تحرِصون عليها .

---

(١) من ا (٢) لحم عبيط : طرى .

ومن كلامه للأحنف: ياأحنف ، مَنْ كثُرضحِكُه قلّت هيبتُه، ومَنْ مَزَح استُخِفَّ به ، ومَنْ أكثر من شيء عرِف به ، ومَنْ كثر كلامه كثر سقطُه ، ومَنْ كثر سقطُه قلّ حياؤه ، ومن قَلّ حياؤه قلّ ورعُه ، ومَنْ قلّ ورعُه مات قلبه .

وقال لابنه عبد الله : يابنيّ اتقِ الله يقِكَ ، وأقرِض الله يجزِكَ ، واشكره يزِدْكَ . واعلم أنّه لامال لمن لا رِفق له ، ولا جديد لمن لاخُلق له ، ولا عمل لمن لانيّة له .

* * *

وخطب يوم استخلِف ، فقال : أيّها النّاس ، إنّه ليس فيكم أحدٌ أقوَى عندى من الضّعيف حتى آخذ الحقّ له ، ولا أضعف من القوىّ حتّى آخذ الحقّ منه .

وقال لابن عبّاس : ياعبدَ الله ، أنتم أهلُ رسولِ الله وآله وبنو عمّه ، فما تقول مَنع قومكم منكم ؟ قال : لاأدرى علّتها ، والله ماأضمرنا لهم إلّا خيرا . قال : اللّهمّ غَفْراً ، إنّ قومَكم كرهوا أن يجتمع لكم النبوّة والخلافة ، فتذهبوا فى السماء شمخا وبَذخاً ، ولعلكم تقولون : إنّ أبا بكر أوّل مَنْ أخّركم ،أمَا إنّه لم يقصد ذلك ، ولكن حضرأمرٌ لم يكن بحضرته أحزم ممّا فعل ، ولولا رأى أبى بكر فىّ لجعلَ لكم من الأمر نصيبا ، ولو فعل ماهنّأكم مع قومكم . إنّهم ينظارون إليكم نظرَ الثّور إلى جازره .

* * *

وكان يقول : ليت شعرِى مَتَى أشْفَى من غيظى ! أحين أقدر فيقال لى : لو عفوتَ، أم حين أعجّلُ فيقال: لوصبرت !

* * *

ورأى أعرابيًّا يصلّى صلاة خفيفةً ، فلمّا قضاها قال : اللهمّ زوّجنى الحورَ العِين . فقال له : لقد أسأت النَّقد ، وأعظمتَ الخِطْبة !

وقيل له : كان الناس فى الجاهليّة يدعُون على مَن ظَلَمهم فيُستجاب لهم ، ولسنا نرى

ذلك الآن . قال : لأنّ ذلك كان الحاجزَ بينهم وبين الظلم ، وأمّا الآن فالساعة موعدُهم والساعة أدْهى وأمرّ.

* * *

ومن كلامه : مَنْ عرّض نفسه للتّهمة فلا يلومنّ مَنْ أساء به الظنّ ، ومَنْ كتم سرّه كانت الخِيَرة بيده.

ضع أمرَ أخيك على أحْسَنِه ، حتّى يأتيَك منه مايغلِبك ، ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم شرًّا وأنت تجد لها فى الخير محملا .

وعليك بإخوان الصِّدْق وكيِّسِ أكياسهم ، فإنّهم زينة فى الرخاء ، وعُدّة عند البلاء ،ولا تتهاونَنّ بالحلْق فيهينك الله، ولا تعترض بما لا يعنيك، واعتزل عدوّك،وتحفّظْ من خليلك إلا الأمين ، فإنّ الأمين من الناس لايعادله شىء ، ولا تصحب الفاجرَ فيعلّمك من فجوره ، ولا تُفْشِ إليه[1] سرّك ،واستشرْ فى أمرك أهْل التقوى ، وكفى بك عيباً أن يبدُوَ لك من أخيك مايخفى عليك من نفسك ، وأن تؤذىَ جليسك بما تأتى مثله .

وقال : ثلاث يُصْفِين لك الوُدّ فى قلب أخيك : أن تبدأه بالسّلام إذا لقيتَه ، وأنْ تدعُوَه بأحبّ أسمائه إليه ، وأن توسّع له فى المجلس .

وقال : أحبّ أن يكون الرجل فى أهلِه كالصبىّ ، وإذا أصِيخ إليه كان رجلا .

* * *

بينا عُمر ذات يوم إذ رأى شابًّا يخطر بيديه ، فيقول: أنا ابنُ بَطْحاء مكةَ كُدَيِّها وكُدَاها[2] . فناداه عمر ، فجاء فقال : إن يكن لك دِينٌ فلك كرم، وإن يكن لك عقل فلك مروءة ، وإن يكن لك مال فلك شرف ، وإلّا فأنت والحمار سواء .

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) كدى وكدا : موضعان ، وقيل: هما جبلان بمكة ، وقد قيل : كدأ بالقصر . (اللسان) .

وقال : يامعشَر المهاجرين ، لا تكثروا الدخولَ على أهل الدنيا وأرباب الإمرة والولاية ، فإنه مسخَطَة للربّ ، وإياكم والبِطْنة ؛ فإنّها مَكْسلة عن الصلاة ، ومَفْسدة للجسد ، مورّثة للسَّقَم ، وإن الله يُبغِض الحَبْرَ السَّمين ، ولكنْ عليكم بالقصد فى قوتكم ، فإنّه أدنى من الإصلاح ، وأبعد من السَّرف ، وأقوى على عبادة الله ، ولن يهلِك عبد حتى يؤثر شهوتَه على دينه .

وقال : تعلّمُوا أنّ الطمع فقر ، وأن اليأس غِنًى ، ومن يئس من شىء استغنَى عنه ، والتُّؤَدة فى كلّ شىء خير إلّا ما كان من أمر الآخرة .

وقال : مَن اتّقى الله لم يشفِ الله غيظَه ، ومَنْ خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون .

وقال : إنّى لأعلم أجودَ الناس ، وأحلم الناس ، أجودُهم مَنْ أعطى مَنْ حَرَمَه ، وأحلمُهم مَنْ عفا عمّن ظلمه .

وكتب إلى ساكنى الأمصار : أمّا بعدُ ، فعلّموا أولادَكم العَوْمَ[1] والفروسيَّة ، ورؤّوهم ماسار من المَثل وحَسُن من الشعر .

وقال : لا تزالُ العربُ أعزّة ما نزعت فى القَوْس ، ونزَت[2] فى ظهور الخيل .

وقال وهو يذكر النساء : أكثروا لهنّ من قول : «لا» فإنّ «نعم» مفسدة تغريهن على المسألة .

وقال : مابالُ أحدكم يثْنِى الوسادة عند امرأة مِعْزبة[3] ، إنّ المرأة لحم على وَضَم إلا ماذُبّ عنه .

* * *

(١) ب : « العلوم » تصحيف .

(٢) نزت : وثبت .

(٣) المعزبة : المرأة المتزوجة .

وكتب إلى أبى موسى : أما بعد ، فإنّ للنّاس نفرةً عن سلطانهم ، فأعوذُ بالله أن يدركَنى وإياك عَمْياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متّبعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود؛ واجلس للمظالم ولو ساعة من نهار ، وإذا عرَض لك أمران : أحدُهما لله ، والآخر للدنيا ، فابدأ بعمل الآخرة ، فإنّ الدّنيا تفنى ، والآخرة تبقى . وكن من مال الله عزّ وجلّ على حَذَرٍ ، واخِفْ الفُسّاق ، واجعلهمْ يدا ويدا ، ورجلا ورجلا ، وإذا كانت بين القبائل نائرة(١) يالفلان يالفلان ! فإنّما تلك نجوى الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وتكون دعواهم إلى الله ، وإلى الإسلام . وقد بلغنى أن ضبّة تدعو : ياللضَبّة ! وإنى والله أعلم أنّ ضبّة ماساق الله بها خيرا قطّ ، ولا منَع بها من سوء قطّ . فإذا جاءك كتابى هذا فانهكْهم(٢) ضربا وعقوبة ، حتى يفرَّقوا إن لم يفقهوا ، والصق بغيلان بن خرَشة من بينهم . وَعُدْ مرضَى المسلمين ، واشهد جنائزَهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورَهم بنفسك ، فإنّما أنت رجلٌ منهم ، غير أنّ الله قد جعلك أثقلَهم حملا . وقد بلغنى أنّه فشالك ولأهل بيتك هيئةٌ فى لباسك ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلُها ، فإيّاك ياعبد الله بن قيس أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرّت بواد خصيب ، فلم يكن لها همة إلّا السِّمَن ، وإنّما حتفُها من السِّمن لغيرها . واعلم أنّ للعامل مردًّا إلى الله ، فإذا زاغ العامل زاغت رعيّته ، وإن أشقَى الناس مَنْ شقيَتْ به نفسه ورعيّته . والسلام .

***

وخطب عمر ، فقال : أما بعد ، فإنّى أوصيكم بتقوى الله الّذِى يبقَى ويفنى ماسواه ، والّذى بطاعته ينفع أولياءه ، وبمعصيته يضرُّ أعداءه . إنّه ليس لهالك هلك عذر فى تعمّد ضلالة حسبها هدًى ، ولا ترْك حقٍّ حسبه ضلالة . قد ثبتت الحجّة ، ووضحَت الطرق، وانقطع العذر ، ولا حجّة لأحدٍ على الله عزّ وجلّ . ألَا إنّ أحقّ ماتعاهد به الراعى

---

(١) النائرة : العداوة والدعوة للشر .

(٢) نهكه : بالغ فى ضربه وعقوبته .

رعيّته أن يتعاهدهم بالّذى لله تعالى عليهم فى وظائف دينهم الذى هداهم به ، وإنّما علينا أنْ نأمرَكم بالّذى أمركم الله بِهِ من طاعته ، وننهاكم عمّا نهاكم الله عنه من معصيته ، وأن نقيم أمر الله فى قريب النّاس وبعيدهم ، ولا نبالى على من قال الحق ، ليتعلّم الجاهل ، ويتّعظ المفرط ؛ ويقتدىَ المقتدى . وقد علمت أنّ أقواماً يتمنَّوْن فى أنفسهم ، ويقولون: نحن نصلّى مع المصلّين ، ونجاهد مع المجاهدين . ألَا إنّ الإيمان ليس بالتمنّى ولكنّه بالحقائق. ألَا مَنْ قام على الفرائض ، وسدّد نيّتَه ، واتّقى الله ، فذلكم الناجى . ومَنْ زاد اجتهادا وجد عندالله مزيدا .

وإنّما المجاهدون الذين جاهدوا أهواءهم ، والجهاد اجتناب المحارم. ألَا إنّ الأمر جِدٌّ، وقد يقاتل أقوام لايريدون إلّا الذّكْر ، وقد يقاتل أقوام لايريدون إلا الأجر ، وإن الله يرضىَ منكم باليسير ، وأثابكم على اليسير الكثيرَ .

الوظائف الوظائف ! أدّوها تؤدّكم إلى الجنّة . والسنّة السّنّة ! الزموها تُنْجِكم من البدْعة .

تعلّموا ولا تَعجزوا ، فإنّ مَنْ عجز تكلّف ؛ وإن شرار الأمور محدَثاتها . وإن الاقتصاد فى السنّة خيرٌ من الاجتهاد فى الضلالة ، فافهموا ماتوعَظون به ، فإنّ الحرِيبَ من حُرِب (١) دينه ، وإنّ السّعيد مَنْ وعظ بغيره .

وقال : وعليكم بالسّمع والطاعة ، فإنّ الله قضى لهما بالعزّة ، وإياكم والتفرّق والمعصية ، فإنّ الله قضى لهما بالذّلّة .

أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

* * *

بعث سعد بن أبى وقاص أيام القادسيّة إلى عمر قَباء كسرى وسيفَه ، ومِنْطقته ،

(١) حرب دينه : أى سلب .

وسراويله ، وتاجه ، وقميصه ، وخفّيه ؛ فنظر عمر في وجوه القوم عنده ، فكان أجسمهم وأمدّهم قامة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجيّ . فقال : ياسراق ، قُمْ فالبس ، قال سراقة : طمعت فيه فقمت فلبست ، فقال : أدبِرْ فأدبرت ، وقال : أقْبِل ، فأقبلت ، فقال : بخٍ بخٍ ! أعرابيٌّ من بني مُدْلج ، عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخُفّاه ! ربّ يومٍ ياسراقُ لو كان فيه دون هذا من متاع كسرى وآل كسرى لكان شرفاً لك ولقومك . انزِعْ ! فنزعتُ ، فقال : اللهمّ إنك منعت هذا نبيّك ورسولك ، وكان أحبّ إليك منّي وأكرم ، ومنعته أبا بكر وكان أحبّ إليك منّي وأكرم ؛ ثم أعطيتنيه ، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكُر بي . ثم بكى حتّى رحمه من كان عنده .

وقال لعبد الرحمن بن عوف : أقسمتُ عليك لمَا بعتَه ثم قسمتَه قبل أن تُمسِي ، فما أدركه المساء إلّا وقد بيع وقُسِم ثمنه على المسلمين .

***

جيء بتاج كِسْرى إلى عمر ؛ فاستعظم الناس قيمتَه ، للجواهر التي كانت عليه ، فقال : إنّ قوماً أدّوْا هذا لأمناء ! فقال عليّ عليه السلام : إنّك عَفَفْتَ فعفُّوا ؛ ولو رتعْتَ لرتعُوا[1] .

***

كان عمر يَعُسّ ليلاً ، فنزلت رفقة من التجار بالمصلّى ، فقال لعبد الرحمن بن عوف : هلْ لك أن تحرسهم الليلة من السَّرَق ؟ فباتا يحرُسانهم ، ويصلّيان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبيّ ، فأصغى نحوه ، فطال بكاؤه ، فتوجّه إليه ، فقال لأمّه : اتقي الله وأحْسِني إلى صبيّك . ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إلى أمّه ، فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فأتى أمّه ، فقال : ويحك ! إنّي لأراك أمّ سوء ! لا أرى ابنك يقرّ منذ الليلة ! فقالت : ياعبد الله ، لقد آذيتني منذ الليلة ، إنّي أُريغه

---

(١) يقال : رتع فلان : إذا أكل وشرب ما شاء .

على الفطام فيأبى ؛ قال : ولم ؟ قالت : لأنّ عمر لا يفرض لرضيع ، وإنما يفرض للفطيم ، قال : وكم له؟ قالت : اثنا عشر شهرا ، قال : ويحك لا تعجليه ! فصلّى الفجر وما يستبين النّاس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلمّا سلّم قال : يابؤسا لعُمَرِكم ! كم قتل من أولاد المسلمين ، فطلب مناديا فنادى : ألا لا تُعجلوا صبيانكم عن الرّضاع ؛ ولا تفطموا قبل أوان الفطام ، فإنّا نفرض لكلّ مولود فى الإسلام .

وكتب بذلك إلى سائر الآفاق(١) .

***

مرّ عمر بشابّ من الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاه ، فخاض له عسلًا ، فردّه ولم يشرب وقال : إنّى سمعتُ الله سبحانه ، يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾(٢) فقال الفتى : إنّها والله ليست لك ، فاقرأ ياأمير المؤمنين ماقبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أفنحن منهم ! فشرب ، وقال : كلّ النّاس أفقه من عمر !

***

وأوصى عمر حين طعنه أبو لؤلؤة مَنْ يستخلفه المسلمون بعده من أهل الشورى ، فقال : أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتَهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ؛ اقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم . وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردء العدوّ ، وجُباة الفيء ، لا تحمل فيئهم إلى غيرهم إلّا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنّهم أصلُ العرب ، ومادّة الإسلام ؛ أنْ يؤخذ من حواشى أموالهم ، فيردّ على فقرائهم ؛ وأوصيك بأهل الذمّة خيرا ، أن تقاتل

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف ٢٠ .

مِن ورائهم ، ولا تكلّفهم فوق طاقتهم إذا أدّوا ماعليهم للمسلمين طوعا أو عن يدٍ وهم صاغرون .

وأوصيك بتقوى الله ، وشدّة الحَذَر منه ومخافة مقته ؛ أن يطّلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشَى الله فى الناس ، ولا تخشى النّاس فى الله ، وأوصيك بالعدْل فى الرعيّة ، والتفرّغ لحوائجهم وثغورهم ، وألّا تعين غنيَّهم على فقيرهم ، فإنّ فى ذلك بإذن الله سلامةً لقلبك ، وحطًّا لذنوبك ، وخيراً فى عاقبة أمرك . وأوصيك أن تشتدّ فى أمر الله وفى حدوده ، والزّجر عن معاصيه ، على قريب النّاس وبعيدهم ، ولا تأخذْك الرأفة والرحمة فى أحدٍ منهم ، حتى تنتهكَ منه مثل جُرْمه ، واجعل النّاس عندك سواء ، لا تبالِ على مَنْ وجب الحقّ ، لا تأخذك فى الله لومةُ لائم . وإيّاك والأثَرة والمحاباة فيما ولاك الله ممّا أفاء الله على المسلمين ، فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ماقد وسّعه الله عليك ، فإنّك فى منزلة من منازل الدنيا ، وأنت إلى الآخرةِ جدٌّ قريب ، فإن صدقت فى دنياك عِفّةً وعدلا فيما بسط لك ، اقترفت رضوانا وإيمانا ، وإن غَلبك الهوى ، اقترفت فيه سخط الله ومقته .

وأوصيك ألّا ترخّصَ لنفسك ولا لغيرك فى ظلْم أهل الذمّة .

واعلم أنّى قد أوصيتُك وخصصتُك ونصحت لك ، أبتغى بذلك وجهَ الله والدار الآخرة ، ودللتُك على ما كنتُ دالًّا عليه نفسى ، فإنْ عملت بالذى وعظتك ، وانتهيت إلى الّذي أمرتُك ؛ أخذتَ منه نصيبا وافرا ، وحظا وافياً ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم تعمل ولم تترك معاظم الأمور عند الّذى يرضى الله به سبحانه عنك ، يكن ذلك بك انتقاصا ، ويكن رأيك فيه مدخولا ، فالأهواء مشتركة ، ورأس الخطيئة إبليس الداعى إلى كلّ هَلَكة ، قد أضلّ القرون السالفة قبلك ، وأوردهم النّار ، ولبئس الثمن أن يكون حظُّ امرئٍ من دنياه موالاةَ عدوّ الله ، الداعى إلى معاصيه !

اركب الحقّ ، وخض إليه الغمراتِ ، وكن واعظا لنفسك .

وأنشدك لَمَا ترحّمت إلى جماعة المسلمين ، وأجْلَلْتَ كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، وقرّبت عالمهم . لا تضربْهم فيذلّوا ، ولا تستأثر عليهم بالفىء فتُغضِبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلّها فتُفقرَهم ، ولا تجمّرهم (١) فى البعوث فتقطع نسلَهم ، ولا تجعل الأموال دُولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلِق بابك دونَهم ، فيأكل قويُّهم ضعيفَهم .

هذه وصيّتى إياك ؛ وأشهد الله عليك . وأقرأ عليك السلام ، والله على كلّ شىء شهيد .

***

وخطاب عمر فقال :

لا يَبْلغنى أنّ امرأةً تجاوز صداقها صداقَ زوْجات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ارتجعتُ ذلك منها. فقامت إليه امرأة ، فقالت : والله ماجعل الله ذلك لك ، إنه تعالى يقول : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ (٢) . فقال : عمر : ألا تَعجَبُون من إمام أخطأ ، وامرأة أصابت ! ناضلَتْ إمامَكم فنضَلَتْه (٣) !

***

وكان يَعُسُّ ليلةً ، فمرّ بدارٍ سمع فيها صوتا ، فارتاب وتسوّر ، فرأى رجلا عند امرأة وزِقّ خمر ، فقال : ياعدوّ الله ، أظننت أنّ الله يستُرك وأنت على معصيته ! فقال : لا تَعْجلْ ياأمير المؤمنين ، إن كنتُ أخطأتُ فى واحدة فقد أخطأتَ فى ثلاث : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ (٤) وقد تجسّستَ، وقال : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (٥).

---

(١) جمر الجيش : حبسه فى أرض العدو ولم يقفلهم من الثغر . وفى الحديث : لا تجمروا الجيش فتفتنوهم .

(٢) سورة النساء ٢٠

(٣) نضلته : سبقته وغلبته .

(٤) سورة الحجرات ١٢

(٥) سورة البقرة ١٨٩ .

وقد تسوّرتَ ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا ﴾[١] وماسلّمت . فقال : هل عندك من خير إن عفوتُ عنك ؟ قال : نعم ، والله لا أعوّد ، فقال : اذهب فقد عفوت عنك .

* * *

وخطب يوما ، فقال : أيّها النّاس، ما الجزع ممّا لا بدّ منه ! وما الطّمع فيما لا يرجَى! وما الحيلة فيما سيزول ! وإنّما الشيء من أصله،وقد مضت قبلكم الأصول ونحن فروعها، فما بقاء الفَرْع بعد ذهاب أصله !

إنّما الناس فى هذه الدّنيا أغراضٌ تنتبِل فيهم المنايا نُصُب المصائب ، فى كلّ جرعة شَرَق ، وفى كلّ أكلةٍ غَصَص ، لا تنالون نعمة إلّا بفراق أخرى ، ولا يستقبِل معمّر من عُمره يوما إلّا بِهدم آخر من أجله ، وهم أعوان الحُتوف على أنفسهم ، فأين المهرب ممّا هو كائن ! ماأصغر المصيبة اليوم، مع عظم الفائدة غدا ! وما أعظم خَيْبة الخائب،وخسران الخاسر ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا مَنْ أتى الله بقلب سليم ﴾ !

وأكثر النّاس روى هذا الكلام لعليٍّ عليه السلام ، وقد ذكره صاحب " نهج البلاغة " وشرحناه فيما سبق .

* * *

حُمِل من العراق إلى عمر مالٌ فخرج هو ومولًى له ؛ فنظر إلى الإبل فاستكثرها،فجعل يقول : الحمد لله ؛ يكرّرها ويردّدها ، وجعل مولاه يقول : هذا من فضل الله ورحمته . ويكررها ويرددها .

فقال عمر : كذبتَ لا أمّ لك ! أظنُّك ذهبت إلى أنّ هـذا هو ماعناه سبحانه ،

---

(١) سورة النور ٦١ .

بقوله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ؛ وإنما ذلك الهدى ، أما تسمعه يقول : ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [١] ! وهذا مما يجمعون .

***

وروى الأحنف بن قيس ، قال : قدمنا على عمر بفتح عظيم نبشّره به ، فقال : أين نزلتم ؟ قلنا : فى مكان كذا ، فقام معنا حتى انتهينا إلى مُنَاخ ركابنا ، وقد أضعفها الكلال ، وجهَدها السير ، فقال : هلاّ اتقيتم الله فى ركابكم هذه ؟ أمَا علمتم أن لها عليكم حقًّا ! هلّا أرحتُمُوها ؟ هلاّ حللتم بها فأكلتْ من نبات الأرض ! فقلنا : ياأمير المؤمنين ، إنّا قَدِمنا بفتح عظيم ، فأحببنا التسرّع إليك وإلى المسلمين بما يسرّهم .

فانصرف راجعا ونحن معه ، فأتى رجل فقال : ياأميرَ المؤمنين إنّ فلانا ظلمنى ، فأعْدِنى [٢] عليه ، فرفع فى السماء دِرّته ، وضرب بها رأسه ، وقال : تدَعُون عمر وهو معرّض لكم ، حتى إذا شغل فى أمر المسلمين أتيتموه : أعْدِنى أعْدِنى ! فانصرف الرّجل يتذمّر ، فقال عمر : علىّ بالرجل ، فجىء به فألقى إليه المخفقة [٣] ، فقال : اقتصّ ، قال : بل أدعه لله ولك ، قال : ليس كذلك ، بل تدَعُه إمّا لله وإرادة ماعنده ، وإما تدَعُه لى ، قال : أدعُه لله ، قال : انصرف . ثم جاء حتى دخل منزله ، ونحن معه ، فصلّى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس فقال : يابن الخطاب ، كنتَ وضيعا فرفعك الله ، وكنتَ ضالًّا فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزّك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، فجاء رجلٌ يستعديك على مَنْ ظلمه . فضربتَه ، ماذا تقول لربِّك غدا ! فجعل يعاتبُ نفسه معاتبةً ظننت أنه من خير أهل الأرض .

***

---

(١) سورة يونس ٥٨ .

(٢) أعدنى عليه : انصرنى وأعنى .

(٣) المخفقة : الدرة يضرب بها .

وذكر أبو عبيد القاسم بن سلاّم فى " غريب الحديث " أن رجلا أتى عمر يسأله ، ويشكو إليه الفقر ، فقال : هلكتُ ياأمير المؤمنين ، فقال : أَهلكْتَ وأنت تَنِثُّ نَثِيثَ الحميت[1]! أعطوه . فأعطوه رُبَعة[2] من مال الصّدقة ، تبعها ظئراها. ثم أنشأ يحدّث عن نفسه ، فقال : لقد رأيتُنى وأختاً لى نرعَى على أبوينا ناضحا[3] لنا ، قد ألبستنا أمّنا نُقبتَها[4]، وزوّدتنا بمَنْتَيْهَا هَبيدا[5] فنخرج بناضحنا ؛ فإذا طلعت الشمس ، ألقيت النقبة إلى أختى ، وخرجت أسعى عُريانَ ، فنرجع إلى أمّنا ، وقد جعلت لنا لَفِيتة[6] من ذلك الهبيد ، فياخِصْباه !

* * *

وروى ابنُ عباس رضى الله عنه ، قال : دخلتُ على عُمَر فى أوّل خلافته ، وقد أُلقِىَ له صاعٌ من تمر على خَصَفة[7] ، فدعانى إلى الأكل ، فأكلت تمرة واحدة ، وأقبل يأكل حتّى أتى عليه، ثم شرب من جَرٍّ[8] كان عنده ، واستلقى على مِرْفقةٍ له، وطفق يَحْمَدُ الله يكرر ذلك ، ثم قال : من أين جئتَ ياعبدالله ؟ قلتُ : من المسجد ، قال : كيف خلّفت ابن عمك ؟ فظننته يعنى عبد الله بن جعفر ، قلت : خلّفتُه يلعب مع أترابه ، قال : لم أعْنِ ذلك ، إنّما عنيتُ عظيمكم أهلَ البيت ، قلت : خلّفته يمتح بالغَرْب[9] على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال : ياعبد الله، عليك دماء البُدْن إن كتمتنيها ! هل بقِىَ فى نفسه

---

(١) قال ابن الأثير : نث الزق ينث: إذا رشح مافيه من السمن. أراد : أتهلك وجسدك كأنه يقطر دسماً! والنثيث : أن يرشح ويعرق من كثرة لحمه . ويروى : « تمث » بالميم . والحميت : الزق والنحى .

(٢) الربعة : مؤنث الربع ، وهو الفصيل ينتج فى الربيع .

(٣) الناضح : البعير يستقى عليه ؛ ثم استعمل فى كل بعير وإن لم يحمل الماء .

(٤) النقبة : ثوب كالإزاء ، يجعل له حجزة مخيطة . (٥) الهبد : حب الحنظل .

(٦) اللفيتة : العصيدة المغلظة ؛ لأنها تلفت ، أى تلوى .

(٧) الخصفة ، محركة : الجلة تعمل من الخوص للتمر .

(٨) الجر بفتح الجيم وتشديد الراء : آنية من خزف ، الواحدة جرة .

(٩) الغرب : الدلو .

شيء من أمر الخلافة ؟ قلت : نعم ، قال : أيزعم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ عليه ؟ قلت : نعم ، وأزيدك ، سألت أبي عمّا يدّعيه ، فقال : صدَق ، فقال عمر : لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمره ذَرْوٌ[1] من قول لا يُثبتُ حُجّة ، ولا يقطع عذرا ، ولقد كان يربَع في أمره وقتاً ما ، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقا وحيْطة على الإسلام ، لاوربّ هذه البنيّة لاتجتمع عليه قريش أبدا ! ولو وليها لانتقضتْ عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أنّى علمت ما في نفسه ، فأمسك ، وأبى الله إلّا إمضاء ما حتم .

ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه ، مسندا .

* * *

ابتنى أبو سفيان داراً بمكة فأتى أهلُها عمر ، فقالوا : إنه قد ضيّق علينا الوادى ، وأسالَ علينا الماء ، فأتاه عمر فقال : خذْ هذا الحجر فضعه هناك ، وارفع هذا واخفِض هذا ، ففعل ، فقال : الحمدُ لله الّذي أذلّ أبا سفيان بأبْطح مكّة .

* * *

وقال عمر : والله لقد لان قلبي في الله حتى لَهُوَ ألين من الزّبد ، ولقد اشتدّ قلبي في الله حتى لهوَ أشدّ من الحجَر .

* * *

كان عمر إذا أتاه الخصمان برَك على ركبتيه وقال : اللهمّ أعنّي عليهما . فإنّ كلًّا منهما يريدني عن ديني .

* * *

(١) ذرو : طرف .

وخطب عمر ، فقال : أيّها الناس ، إنما كنا نعرفكم والنبيّ صلى الله عليه وآله بين أظهرِنا ، إذ ينزلُ الوحى ، وإذ ينبِّئنا الله من أخباركم ، ألَا وإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم قد انطلَق، والوحى قد انقطع ، وإنما نعرِفكم بمايبدُو منكم . مَنْ أظهر خيرا ظننّا به خيرا، وأحببناه عليه ،ومن أظهر شرًّا ظننّا به شرًّا ،وأبغضناه عليه .سرائركم بينكم وبين ربكم . ألا إنّه قد أتى علىّ حينٌ ، وأنا أحسب أنه لا يقرأ القرآن أحدٌ إلّا يريدُ به وجه الله وما عند الله ، وقد خُيِّل إلىَّ بأخَرة ، أنّ رجالًا قد قرءوه يريدون به ماعند الناس ، فأريدُوا الله بقراءتكم ، وأريدوا اللهَ بأعمالكم .

ألا وإنّى لا أرسلُ عُمّالى إليكم أيها الناس ليضربُوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالَكم ، ولكن أرسلُهم إليكم ليعلّموكم دينَكم وسنّتكم ، فمن فُعِل به سوى ذلك فليرفعْه إلىّ لأقتصّ له ، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقتصّ من نفسه .

ألا لاتضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقوقَهم فتفقروهم ، ولا تُنزلوهم الغِياضَ فتضيّعوهم .

* * *

وقال مرّة : قد أعيانى أهلُ الكوفة ، إن استعملت عليهم ليّناً استضعفوه ، وإن استعملتُ عليهم شديداً شكوْه ! ولوددت أنّى وجدْتُ رجلا قويا أمينا أستعمله عليهم . فقال له رجل : أنا أدلّك ياأميرَ المؤمنين على الرّجل القوىّ الأمين ، قال : مَنْ هو ؟ قال: عبد الله بن عمر ، قال : قاتلك الله ! والله ماأردتَ الله بها ، لاها الله ! لاأستعمله عليها ولا على غيرها ، وأنت فقم فاخرج ، فمذ الآن لا أسمّيك إلا المنافق . فقام الرجل وخرج.

وكتب إلى سعد بن أبى وقّاص أن شاور طُليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب فإنّ كلّ صانع أعلم بصنعته ، ولا تولّهما من أمر المسلمين شيئا .

* * *

وغضب عمر على بعض عمّاله ، فكلّم امرأة من نساء عمر فى أن تسترضيَه له ، فكلّمته فيه ، فغضب ، وقال : وفيمَ أنت من هذا ياعدوة الله ؟ إنما أنتِ لعبة نلعب بك وتُفَرَّكِين[1] .

* * *

ومن كلامه : أشكو إلى الله جَلَد الخائن ، وعجزَ الثقة .

قال عمرو بن ميمون : لقد رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يُصاب بأيّام واقفا على حُذيفة بن اليمان ، وعثمان بن حُنيف ، وهو يقول لهما : أتخافان أن تكونا حمّلتما الأرض مالا تطيقه ؟ فقالا : لا ؛ إنّما حمّلناها أمراً هى له مُطيقة ، فأعاد عليهما القول : انظرا أن تكونا حمّلتما الأرض مالا تطيقه ! فقالا : لا ، فقال عمر : إن عشتُ لأدعَنّ أرامل العراق لا يحتجْن بعدى إلى رجل أبدا ، فما أتت عليه رابعة حتى أصيب .

* * *

كان عمر إذا استعمل عاملا كتب عليه كتابا ، وأشهد عليه رهطاً من المسلمين ألّا يركب بِرْذَوناً ، ولا يأكل نِقْياً[2] ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول : اللهمّ اشهد .

* * *

واستعمل عمر النعمانَ بن عدىّ بن نضلة على مَيْسان ، فبلغه عنه الشعر الذى قاله ، وهو :

وَمَنْ مبلغ الحسناء أن حَليلَها ... بمَيسانَ يُسْقَى من زُجاج وحَنتَمِ ! [3]
إذا شئتُ غنّتنى دَهاقينُ قريةٍ ... وصنّاجةٌ تحدُو على كلّ منسِم

---

(١) تفركين : تبغضين .
(٢) النقى : الشحم .
(٣) الحنتم : الجرة الخضراء .

فإن كنتَ ندْمانى فبالأكبر اسْقِنِى ولا تسقنى بالأصغر المتثلّم
لعلّ أميرَ المؤمنين يسوءهُ تنادُمُنا بالجوْسق المتهدّم

فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ * ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(١) أما بعد ، فقد بلغنى قولك :

* لعلّ أمير المؤمنين يسوءه * البيت

وايمُ الله إنه ليسوءنى ، فاقدَم فقد عزلتُك .

فلما قدم عليه ، قال : ياأميرَ المؤمنين ، والله ماشربتُها قطّ ، وإنّما هو شعر طَفَح على لسانى وإنى لشاعر .

فقال عمر : أظنّ ذاك ، ولكن لا تعمل لى على عمل أبدا .

* * *

استعمل عمر رجلا من قريش على عملٍ ، فبلغه عنه أنّه قال :

اسقِنِى شَرْبةً تُروِّى عِظَامى واسقِ بالله مثلَها ابنَ هشامِ

فأشخصه إليه ، وفطِن القرشىّ ، فضم إليه بيتا آخر ، فلما مثل بين يديه ، قال له أنت القائل :

* اسقِنى شَرْبةً تروّى عظامى *

قال : نعم ياأمير المؤمنين ، فهلّا أبلغك الواشى مابعده ؟ قال : ما الذى بعده ؟ قال :

عسلًا بارداً بماءِ غمامِ إننى لا أحبُّ شُرْبَ المُدامِ

قال: آللهِ آللهِ ! ثم قال : ارجع إلى عملك .

* * *

(١) سورة غافر ١ — ٣ .

قال عمر : أيّما عامل من عُمّالى ظلم أحـدا ؛ ثم بلغتنى مظلمته ، فلم أغيّرها ، فأنا الذى ظلمتُه .

* * *

وقال للأحنف بن قيس ، وقد قدم عليه فاحتبسه عنده حَوْلًا : ياأحنف ، إنّى قد خبرتُك وبلوتُك ، فرأيت علانيتَك حسنة ، وأنا أرجو أن تـكون سريرتك مثلَ علانيتك ، وإن كنّا لنحدّث أنّه إنما يُهلك هذه الأمّة كلّ منافق عليم .

* * *

وكتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص : إن « مترس »(١) بالفارسية هو الأمان ، فمن قلتم له ذلك ممن لا يفقهُ لسانـكم فقد أمّنتموه .

* * *

وقال لأمير من أمراء الشام : كيف سيرتُك ؟ كيف تصنع فى القرآن والأحكام ؟ فأخبره ، فقال : أحسنتَ ، اذهب ، فقد أقررتك على عَمَلِك . فلما ولّى رجع فقال : ياأمير المؤمنين ، إنّى رأيت البارحَة رؤيا أقصّها عليك ، رأيت الشّمس والقمر يقتتلان ، ومع كلّ واحد منهما جنود من الـكواكب ، فقال : فمع أيّهما كنت ؟ قال : مع القمر ، فقال : قد عزلتُك ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾(٢)

* * *

كان عمر جالسا فى المسجد ، فمرّ به رجل ، فقال : ويل لك ياعمر من النار ! فقال : قرّبوه إلىّ ، فدنا منه ، فقال : لم قلت لى ما قلت ؟ قال : تستعمل عمالك ، وتشترط عليهم

---

(١) فى الألفاظ الفارسية لأدى شبر ١٤٣ : « المتراس : ما يتستر به من حائط ونحوه من العـدو ، وخشبة توضع خلف الباب » .

(٢) سورة الإسراء ١٢ .

ثم لا تنظر هل وَفَّوْا لك بشروطٍ أم لا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : عاملك على مصر اشترطت عليه ، فترك ما أمرته به ، وارتكب ما نهيته عنه ، ثم شرح له كثيرا من أمره . فأرسل عمر رجلين من الأنصار ، فقال لهما : انتهيا إليه ، فاسألا عنه ، فإن كان كذب عليه فأعلمانى ، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تملكاه من أمره شيئا حتى تأتيا به ، فذهبا فسألا عنه ، فوجداه قد صدق عليه ، فجاءا إلى بابه ، فاستأذنا عليه ، فقال حاجبه : إنه ليس عليه اليوم إذن ، قالا : ليخرجَنّ إلينا أو لنحرقنّ عليه بابه . وجاء أحدُهما بشعلة من نار ، فدخل الآذن ، فأخبره فخرج إليهما ، قالا : إنّا رسولا عمر إليك لتأتيه ، قال : إنّ لنا حاجةً ؛ تمهلاننى لأتزوّد ، قالا : إنّه عزم علينا ألّا نمهلك ، فاحتملاه ، فأتيا به عمر ، فلمّا أتاه سلّم عليه فلم يعرفه ، وقال : مَنْ أنت ؟ — وكان رجلا أسمر ، فلمّا أصاب من ريف مصر ابيضّ وسمن — فقال : أنا عاملك على مصر ، أنا فلان ، قال : ويحك ! ركبت ما نُهيتَ عنه ، وتركت ما أُمِرتَ به ! والله لأعاقبنّك عقوبةً أبلغ إليك فيها ، آتونى بكساء من صوف ، وعصا وثلاثمائة شاة من غنم الصدقة ، فقال : البَسْ هذه الدُّرّاعة [1] ، فقد رأيت أباك وهذه خير من دراعته ، وخذ هذه العصا فهى خير من عصا أبيك ، واذهب بهذه الشياه فارعها فى مكان كذا — وذلك فى يوم صائف — ولا تمنع السابلة من ألبانها شيئا إلا آل عمر ، فإنى لا أعلم أحداً من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئا .

فلمّا ذهب ردّه ، وقال : أفهمت ما قلت ! فضرب بنفسه الأرض ، وقال يا أمير المؤمنين ، لا أستطيع هذا ، فإن شئت فاضربْ عنقى ، قال : فإن رددتُك فأىّ رجل تكون ؟ قال : والله لا يبلغُك بعدها إلّا ما تحبّ . فردّه ، فكان نعم الرجل . وقال عمر : والله

---

(١) الدراعة ، كرمانة : جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من صوف .

لأنزعنّ فلانا من القضاء حتى أستعمل عِوَضه رجلا إذا رآه الفاجرُ فَرِق .

***

وروى عبد الله بن بريدة ، قال : بينا عمر يعُسّ ذَات ليلة انتهى إلى باب متجافٍ ، وامرأةٍ تغنّى نسوة :

هَــلْ مِنْ سبيــلٍ إلى خَمْرٍ فَأَشْرَبهَا   أَمْ هَل سَبِيلٌ إلى نَصْرِ بن حَجّاجِ

فقال عمر : أمّا ماعشت فلا .

فلمّا أصبح دعا نصر بن حجاج ـ وهو نصر بن الحجاج بن عُلابط البهزىّ السُّلَمىّ ـ فأبصره وهو من أحسن الناس وجهاً ، وأصبحهم وأملحهم حسنا ، فأمر أن يُطَمّ[١] شعره ، فخرجت جبهته فازداد حسنا ، فقال له عمر : اذهب فاعتمّ ، فاعتمّ فبدت وفْرَته[٢] ، فأمر بحلْقها فازداد حسنا ، فقال له : فتنت نساء المدينة يابن حجّاج ! لاتجاورْنى فى بلدة أنا مقيمٌ بها ، ثم سيّره إلى البصرة .

فروى الأصمعىّ ، قال : أبرَد عمر بريداً إلى عُتبة بن أبى سفيان بالبصرة ، فأقام بها أيّاماً ، ثم نادى منادى عتبة : مَنْ أراد أن يكتُب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً ، فليكتب ، فإنّ بريد المسلمين خارجٌ .

فكتب النّاس ، ودسّ نصر بن حجاج كتاباً فيه :

لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نَصْر بن حجّاج ، سلام عليك ، أمّا بعد ، ياأمير المؤمنين :

لَعَمْرى لئن سيّرْتَنى أو حرمْتَنى   لَما نلتَ من عِرْضِى عليك حَرامُ

أئِنْ غنّتِ الّذلفاء يوماً بمُنْيــةٍ   وبعضُ أمــانِىّ النّســاء غَرامُ

---

(١) طم شعره : عقصه .
(٢) الوفرة : ما سال على الأذنين من الشعر .

ظننتَ بى الظَّنَّ الّذى ليس بعده بقاءٌ فمالى فى النَّدِىّ كلامُ
وأصبحتُ منفيًّا على غير ريبةٍ وقَدْ كانَ لى بالمكّتَيْنِ مُقامُ(١)
سيمنعنى ممّا تظنُّ تكرُّمى وآباء صدقٍ سالفُون كِرامُ
ويمنعها ممَّا تمنَّتْ صَلاتُها وحالٌ لها فى دينها وصِيَامُ
فهاتانِ حالَا نا فهل أنت راجعٌ فقد جُبَّ مِنّى كاهِلٌ وَسَنامُ(٢)

فقال عمر : أمّا ولى ولاية فلا . وأقطعه أرضا بالبصرة ودارا .

فلما قتِل عمر ركب راحلته ولحق بالمدينة .

وذكر المبرّد محمد بن يَزِيد الثُّمالِىّ، قال : كان(٣) عمر أصلع ، فلمّا حلَق وفرةَ نصر ابن حجّاج(٤)، قال نصر ، وكان شاعرا :

تَضِنّ ابنَ خَطّابٍ علىّ بجُمّةٍ إذا رُجِّلَتْ تَهْتزُّ هزَّ السَّلاسِلِ
فصَلَّع رأساً لم يصلِّعْه ربُّهُ يرفّ رفيفاً بعد أسود جائلِ(٥)
لقد حَسَد القرْعَانَ أصلعُ لم يكنْ إذا ما مَشَى بالفرع بالمتخايِلِ(٦)

محمد بن سعيد ، قال : بينا يطوف عمر فى بعض سِكَكِ المدينة ، إذ سمع امرأة تهتف من خِدْرِها :

هَلْ من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربَها أمْ هَلْ سبيلٌ إلى نَصْرِ بن حَجّاجِ

---

(١) أى مكة والمدينة ؛ مثنى على التغليب .

(٢) جب : قطع .

(٣) الكامل ٢ : ١٧٦ .

(٤) فى الكامل ٢ : ١٧٦ ، وفيه : « وكان نصر بن حجاج السلمى ثم البهزى جميلا ؛ فعثر عليه عمر بن الخطاب رحمه الله فى أمر — الله أعلم به — فحلق رأسه ، وكان عمر أصلع لم يبق من شعره إلا حفاف ؛ كذلك قال الأصمعى ؛ فقال نصر بن حجاج » ، وأورد الأبيات .

(٥) الجائل : الشعر الكثير الملتف .

(٦) الفرعان : جمع أفرع ؛ وهو الوافى الشعر . قال المبرد : قوله : « بالفرع بالمتخايل » ليس أنه جعل « بالفرع » من صلة المتخايل ؛ فيكون قد تدم الصلة على الموصول ؛ ولكنه جعل قوله : « بالفرع » تبييناً ، فصار بمنزلة « بك » التى تقع بعد « مرحباً » للتبيين .

إلى فتًى ماجد الأعْراق مقتبلٍ سهل المحيّا كريمٍ غير مِلْجَاجٍ[1]
تنميه أعراقُ صدقٍ حين تنسبه أخى قداحٍ عن المكروب فرّاجِ
سامِى النَّوَاظرِ من بَهْزٍ له قَدَمٌ تضىء صورته فى الحالك الدّاجِى

فقال عمر : ألا لا أدرى معى رجلا يهتف به العواتق فى خدورهنّ ! علىّ بنصر ابن حجاج ، فأُتى به ، فإذا هو أحسنُ الناس وجها وعينا وشعرا ، فأمر بشعره فجزّ ، فخرجت له وَجْنتان كأنّه قمر ، فأمره أن يعتمّ فاعتمّ، ففتن النساء بعينيه ، فقال عمر : لا والله لا تساكننى بأرض أنابها ، قال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو ما أقول لك ، فسيّره إلى البصرة .

وخافت المرأة[2] التى سمع عمر منها ماسمع أن يبدر إليها منه شىء ، فدسّت إليه أبياتا:

قل للأمير الّذى تُخْشَى بوادرُه مالى وللخمْرِ أو نصر بن حَجّاج
إنى بُليتُ أبا حفص بغيرِهما شربِ الحليبِ وطرفٍ فاترٍ ساج
لا تجعل الظنّ حقًّا أو تبيَّنَه إنّ السبيل سبيلُ الخائف الراجى
مامُنْيَةٌ قلتُها عرضاً بضائرةٍ والنّاس من هالكٍ قِدْماً ومن ناج
إنّ الهوى رِعْيَةُ التّقوى تقيّدُه حَتَّى أقرّ بإلجامٍ وإسراجِ

فبكى عمر ، وقال : الحمدُ لله الذى قيّد الهوى بالتقوى .

وأتته يوماً أمّ نصر حين اشتدّت عليها غيبة ابنها، فتعرّضت لعمر بين الأذان والإقامة، فقعدتْ له على الطّريق ، فلما خرج يريد الصلاة هتفتْ به ، وقالت : يا أمير المؤمنين لأجاثينّك[3] غداً بين يدىِ الله عز وجل ، ولأخاصمنّك إليه ، يبيتُ عاصم وعبدالله إلى

---

(١) الملجاج : من الملاجة ، وهى التمادى فى الخصومة .
(٢) ذكروا أن المرأة المتمنية هى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى .
(٣) الجثو : الجلوس على الركبتين للخصومة .

جانبيك وبيني وبين ابني القَيافي والقفار ، والمفاوز والجبال ! قال : مَنْ هـذه ؟ قيـل : أمّ نصر بن حجّاج ، فقـال : ياأمّ نصر ، إن عاصما وعبد الله لم تهتِفْ بهما العواتق من وراء الخدور .

ويروى أنّ نصر بن الحجاج لما سيّره عمر إلى البصرة نزل بها على مُجاشع بن مسعود السُّلَمِيّ ،وكان خليفة أبي موسى عليها،وكانت له امرأة شابّة جميلة فهويتْ نصرا ،وهويَها فبينا الشيخ جالس ونصر عنـده إذ كتب في الأرض شيئاً ، فقرأته المرأة ، فقـالت : « أنا والله » ، فقال مجاشع : ماقال لك ؟ قالت : إنه قال : ما أصفَى لَقْحتكم هذه ؟ فقال مجاشع : إنّ الـكلمة التي قلتِ ليست أختاً لهذا الـكلام ، عزمت عليك لمَا أخبرتني ! قالت : إنه قال : ما أحسن سوار ابنتكم هذه ؟ قال : ولا هذه ، فإنه كتب في الأرض ، فرأى الخط فدعا بإناء فوضعه عليـه ، ثم أحضر غلاما من غِلْمانه ، فقال : اقرأ ، فقرأه وإذا هو : أنا والله أحبّك ،فقال : هـذه لهذه ، اعتدِّي أيتهـا المرأة ، وتزوّجْها يابن أخي إن أردت .

ثم غدا على أبي موسى ، فأخبره ، فقال أبو موسى : أقسم ما أخرجه عمر عن المدينة من خير ، ثم طرده إلى فارس وعليها عثمان بن أبي العاص الثقفيّ ، فنزل على دهقانة ، فأعجبها فأرسلت إليه ، فبلغ خبرها عثمان ، فبعث إليه أن اخرج عن أرض فارس ، فإنك لم تخرج عن المدينة والبصرة من خـير ، فقال : والله لئن أخرجتموني لألحقنّ ببلاد الشرك ، فـكتب بذلك إلى عمر ، فـكتب أن جزُّوا شعرَه وشمِّروا قميصـه ، وألزموه المساجد .

***

وروى عبد الله بن بُريدة أنّ عمر خرج ليلا يعسُّ ، فإذا نسوة يتحدّثن ، وإذا هنّ

يقلن : أيّ فتيان المدينة أصبح ؟ فقالت امرأة منهنّ : أبو ذؤيب والله . فلما أصبح عمر سأل عنه ، فإذا هو من بنى سُليم ، وإذا هو ابن عمّ نصر بن حَجّاج ، فأرسل إليه، فحضر، فإذا هو أجملُ الناس وأملحُهم ، فلمّا نظر إليه قال : أنتَ والله ذئبها ! يكرّرها ويردّدها ، لا والذى نفسى بيده لا تجامعْنى بأرض أبدا .

فقال : ياأميرَ المؤمنين إن كنت لابدّ مسيّرى فسيّرنى حيث سيّرت ابن عمّى نصر ابن حجاج ، فأمر بتسييره إلى البصرة ، فأُشخص إليها .

* * *

خطب عمر فى الليلة التى دُفن فيها أبو بكر ، فقال : إنّ الله تعالى نهج سبيله، وكفانا برسوله ، فلم يبْقَ إلّا الدعاء والاقتداء . الحمد لله الذى ابتلانى بكم وابتلاكم بى ، وأبقانى فيكم بعد صاحبى، وأعوذ بالله أنْ أزلّ أو أضلّ، فأعادى له وليًّا، أو أوالى له عدوا. ألا إنّى وصاحبى كنفرٍ ثلاثة قفلُوا من طيبة ، فأخذ أحدهم مهلة إلى داره وقراره فسلك أرضا مضيئة متشابهة الأعلام ، فلم يزلّ عن الطريق ، ولم يحرَم السبيل ، حتى أسلمه إلى أهله ، ثم تلاه الآخر فسلك سبيله ، واتّبع أثره ، فأفضى إليه ولقىَ صاحبه ، ثم تلاهما الثالث ، فإن سلك سبيلهما واتبع أثرهما أفضى إليهما ولاقاهما ، وإن زلّ يمينا أو شمالا لم يجامعْهما أبدا .

ألا وإنّ العرب جَمَل أَنِفٌ[1] قد أُعطيتُ خِطامه ، ألا وإنى حاملُه على المحجّة ومستعين بالله عليه .

إلا وإنّى داعٍ فأَمِّنوا ، اللهمّ إنّى شحيح فسخّنى. اللهمّ إنى غليظٌ فليّنّى . اللهمّ إنى ضعيف فقوّنى. اللهمّ أوجب لى بموالاتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعونتك، وأبرئنى

---

(١) البعير الأنف : الذلول الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلا .

من الآفات بمعاداة أعدائك ، وتوفّني مع الأبرار،ولا تحشرني في زمرة الأشقياء . اللهمّ لا تُكثِرْ لي من الدنيا فأطغَى ، ولا تقلّل لي فأشقَى ، فإن ماقلّ وكفى خير مما كثُر وألْهى .

***

وفد على عمر قوم من أهل العراق ،منهم جرير بن عبد الله ، فأتاهم بجَفْنة قد صُبِغت بخلّ وزيت ، وقال: خذوا ، فأخذوا أخذا ضفيفا ، فقال : مابالكم تقرمون[(١)] قَرْم الشاة الكسيرة ! أظنّكم تريدونَ حُلواً وحامضا ، وحارًّا وباردا ، ثم قذفًا في البطون،لوشئتُ أن أدهمق [(٢)] لكم لفعلت،ولكنا نستبقي من دُنيَانا مانجده في آخرتنا ، ولو شئنا أن نأمر بصغار الضّأن فتسمط [(٣)]،ولبّات الخبز فيخبَز ، ونأمر بالزبيب فينْبذ لنا[(٤)] في الأسعان[(٥)] حتى إذا صار مثل عين اليعقوب [(٦)]،أكلنا هذا وشربنا هذا لفعلت ! والله إنّي ماأعجز عن كراكر [(٧)] وأسنمة وصلائق [(٨)] وصناب [(٩)] ، لكن الله تعالى قال لقوم عيّرهم أمراً فعلوه ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنيَا ﴾ [(١٠)]. وإني نظرتُ في هذا الأمر ،

(١) القوم : الأكل .

(٢) في اللسان : « دهمق الطحين : دققه ولينه ، وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو شئت أن يدهمق لي لفعلت ؛ ولكن الله تعالى عاب قوماً فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ ، معناه : لو شئت أن يلين لي الطعام ويجود » .

(٣) يقال : سمط الجدي والحمل يسمطه ـ أي نتف عنه الصوف ونظفه من الشعر .

(٤) النبذ في الأصل : طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك ، قالوا : وإنما سمي النبيذ نبيذاً ، لأن الذي يتخذه يأخذ تمراً أو زبيباً فينبذه ، أي يطرحه في وعاء أو سقاء عليه الماء ويتركه حتى يفور .

(٥) الأسعان : جمع سعن ، وهو قربة أو إداوة يقطع أسفلها ويشد عنقها وتعلق إلى خشبة أو جذع نخلة ثم ينبذ فيها ، ثم يبرد ، وهو شبيه بدلو السقائين . قال في اللسان : ومنه حديث عمر : أمرت بصاع من زبيب فجعل في سعن .

(٦) اليعقوب : ذكر الحجل .

(٧) الكركرة : الصدر من ذي الخف .

(٨) الصلائق : ما عمل بالنار طبخاً وشياً .

(٩) الصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب .

(١٠) سورة الأحقاف ٢٠ .

فجعلت إن أردتُ الدنيا أضررت بالآخرة ، وإن أردتُ الآخرة أضررتُ بالدنيا ، وإذا كان الأمر هكذا ؛فأضرُّوا بالفانية .

***

خرج عمرُ يوماً إلى المسجد ، وعليه قميص فى ظهره أربع رقاع ، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾[١] ،فقال : ماالأبُّ ؟ ثم قال:إنّ هذا لهو التكلّف!وماعليك يابن الخطّاب ألّا تدرِى ما الأبّ !

***

وجاء قوم من الصحابة إلى حفصة فقالوا : لو كلّمتِ أباكِ فى أن يليِّن من عيشه ، لعلّه أقوى له على النَّظرِ فى أمور المسلمين ! فجاءته فقالت : إنّ ناساً من قومكَ كلّمونى فى أنْ أكلّمك فى أن تليِّن من عيشك . فقال: يابنيّة ، غششتِ أباكِ ، ونصحتِ لقومك .

***

وروى سالم بن عبد الله بن عمر ، قال : لمّا وُلِّىَ عمر قعد على رِزْقِ أبى بكر الّذِى كان فرضه لنفسه ،فاشتدّت حاجته؛ فاجتمع نفرٌ من المهاجرين ؛منهم على وعثمان وطلحة والزبير، وقالوا : لوقلنا[٢] لِعُمَر يزيد فى رزقه ! فقال عثمان : إنّه عمر ، فهلمّوا فلْنستبرِئْ[٣] ماعنده من وراء وراء ؛ نأتى حفصة فنكلّمها ونستكتِمُها أسماءنا . فدخلُوا عليها ، وسألوها أن تكلِّمَه ولا تخبره بأسماء مَنْ أتاها إلّا أن يقبل . فلقيتْ عمر فى ذلك ، فرأت الغضبَ فى وجهه ، وقال : مَنْ أتاكِ ؟ قالت : لاسبيلَ إلى ذلك ، فقال : لو علمتُ مَنْ هم لسؤت أوجههم ، أنت بينى وبينهم ! نشدتكِ الله ما أفضلُ ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وآله فى بيتِك من الملبس ؟ قالت : ثوبان ممشّقان[٤]، كان يلبسهما للوفد ، ويخطب

(١) سورة عبس ٣١ . وفى الكشاف ٤ : ٥٦٣ « الأب : المرعى ، لأنه يؤب ، أى يؤم وينتجع . وروى عن أبى بكر أنه سئل عن الأب ، فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به » !

(٢) ا : « كلمنا عمر »

(٣) ب : « فلنستبرئ »

(٤) ثوب ممشق : مصبوغ .

فيهما فى الجُمع ، قال : فأيّ طَعامٍ ناله عنــدك أرفع ؟ قالت : خبزْنا مرة خَبْزة شعير ، فصببت عليها ــ وهى حارّة أسفلها ــ عُــكّة(١) لنا كان فيها سَمْن وعسل ، فجعلتها هشّة حُلْوة دسِمة ، فأكل منها فاستطابهــا ، قال : فأىّ مبسط كان يبسط عندك أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين كنَّا نرقّعه فى الصَّيْف فنجعله ثخيناً ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه ، وتدثّرْنا بنصفه ، قال : فأبلغيهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدّر فوضع الفُضُول مواضعَها، وتبلّغ ماأبَرّ ؛ وإنّى قدرت فوالله لأضعنَّ الفضولَ مواضعها ، ولأتبلّغن ما أُبِرُّ حبّةً .

* * *

وفد على عمر وَفْدٌ فيه رجال الناس من الآفاق ، فوضع لهم بسطا من عَباء ، وقدّم إليهم طعاما غليظا ، فقالت له ابنتُه حفصة أمّ المؤمنين : إنّهم وجوهُ النّاس وكرام العرب ، فأحسِنْ كرامتهم . فقال : ياحفصة ، أخبريني بألْيَنِ فراش فرشتِه لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأطيبِ طعام أكلَه عندك ؟ قالت : أصبنا كساء ملبَّداً عام خَيْبر ، فكنت أفرشه له فينام عليه ، وإنّى رفعته ليلة ، فلمّا أصبح قال : ما كان فراشِى الليلة ؟ قلت : فراشك كلّ ليلة ؛ إلّا أنّى الليلة رفعته لك ليكون أوطأ ، فقال : أعيدِيه لحالته الأولى ، فإن وطاءته منعتْنى اللّيلة من الصلاة .

وكان لنا صاع من دقيق سُلْتٍ(٢) ، فنخلته يوما وطبختته له ، وكان لنا قعب من سمن فصببتُه عليه ، فبينا هو عليــه السلام يأكلُ إذ دخل أبو الدّرداء ، فقال : أرى سمْنَــكم قليلا ، وإنّ لنا لقَعْباً من سمن ، قال عليه السلام : فأرسِلْ فأت به ، فجاء به فصبّه عليه فأكل ، فهذا أطيبُ طعام أكله عندِى رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم .

فأرسل عمر عينيه بالبكاء ، وقال لها : والله لأأزيدُهم على ذلك العَباء وذلك الطعام

---

(١) العكة : للسمن ، كالشكوة للبن ، وقيل : العكة أصغر من القربة للسمن ، وهى زقيق صغير .
(٢) السلت ، بالضم : ضرب من الشعير ، أو هو الشعير بعينه .

شيئا وهذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وهذا طعامُه .

* * *

لما قدِم عُتْبة بن مرثد أذْرَبيجان أُتِىَ بالخبِيص[1] ، فلمّا أكله وجد شيئا حلوا طيّبا، فقال : لو صنعتُ من هذا لأمير المؤمنين ! فجعل له خبيصاً فى منقلين عظيمين ،وحملهما على بعيريْن إلى المدينة ، فقال عمر : ماهذا ؟ قالوا الخبيص[2] ، فذاقه فوجده حُلْواً ، فقال : للرسول : ويحك ! أكلّ المسلمين عندكم يشبع من هذا ؟ قال : لا ، قال : فارددها . ثم كتب إلى عُتْبة : أمّا بعدُ ، فإن خَبِيصَك الذى بعثته ليس من كَدّ أبيك ولا من كَدّ أمّك ، أشبِع المسلمين مما تشبع منه فى رَحْلك ولا تستأثر ؛ فإنّ الأَثَرة شرّ والسلام .

* * *

وروى عُتْبة بن مَرْثَد أيضا ، قال : قدمتُ على عمر بحَلْواء من بلاد فارس ، فى سِلالٍ عظام ، فقال : ماهــذه ؟ قلت : طعام طيّب ، أتيتك به ، قال : ويْحك ! ولِمَ خصصتَنى به ؟ قلت : أنت رجلٌ تقضى حاجاتِ النّاس أوّلَ النهار ، فأحببتُ إذا رجعت إلى منزلك أن ترجع إلى طعامٍ طيّب ، فتصيبَ منه فتقوَى على القيام بأمرك . فكشف عن سَلّةٍ منها فذاق فاستطاب ، فقال : عزمتُ عليكَ ياعُتْبة إذا رجعت إلّا رزقت كلّ رجل من المسلمين مثله ! قلت : والّذى يصلحك يا أمير المؤمنين لو أنفقتُ عليه أموال قيس كلّها لما وسع ذلك ، قال : فلا حاجة لى فيه إذاً . ثم دعا بقَصْعةٍ من ثريد ، ولحم غليظ ، وخبز خَشِن ، فقال : كلْ ، ثم جعل يأكل أكلاً شهيًّا ، وجعلت أهوى إلى البَضْعة البيضاء أحسبها سناما ، وإذا هى عَصَبة ، وأهوى إلى البَضْعــة من اللحم أمضُغها ،

---

(١) الخبيص : ضرب من الحلواء .

(٢) ا : « هذا الخبيص » .

فلا أسيغُها ، وإذا هى من عِلْباء العنق(١) ، فإذا غفل عنّى جعلتُها بين الخِوان والقَصْعة ، فدعا بعُسٍّ(٢) من نبيذ كاد يكون خَلًّا ، فقال : اشرَب ، فلم أستطِعْه ولم أسِغْه أن أشرب ، فشرب ، ثم نظر إلىّ وقال : ويْحك ! إنه ليس بدَرْمك(٣) العراق وَوَدَكه(٤) ، ولكن ماتأكله أنت وأصحابك .

ثم قال : اسمع إنّا ننحر كلّ يوم جَزورا ، فأمّا أوراكُها وَوَدَكُها وأطايبها فلِمَنْ حضرنا من المهاجرين والأنصار ، وأما عُنُقها فلآل عمر ، وأمّا عظامها وأضلاعها فلفقراء المدينة ، نأكل من هذا اللحم الغثّ، ونشرب من هذا النبيذ الخاثر(٥) ، وندع ليِّن الطعام ليوم تذهَلُ كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعتْ ، وتضع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملها .

* * *

حضر عند عمر قومٌ من الصحابة ، فأثنوا عليه ، وقالوا : والله مارأينا ياأميرَ المؤمنين رجلًا أقضى منك بالقِسط ، ولا أقوَلَ بالحقّ ، ولا أشدّ على المنافقين منك ! إنّك لخيرُ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

فقال عوف بن مالك : كذبتمْ والله ، أبو بكر بعد رسول الله ، خيرُ أمته رأينا أبا بكر .

فقال عمر : صدق عوف والله وكذبتم ! لقد كان أبو بكر والله أطيَبَ من ريح المِسك ، وأنا أضلّ من بعير أهلى .

* * *

لما أتى عمرَ الخبرُ بنزول رستمَ القادسية، كان يخرج فيستخبر الركبان كلّ يوم عن أهل القادسيّة من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ، فلمّا جاء البشيرُ بالفتح،

(١) العلباء عصبة صفراء فى صفحة العنق .
(٢) العس : القدح الكبير .
(٣) الدرمك : دقيق الحوارى .
(٤) الودك ، محركة : الدسم من اللحم والشحم .
(٥) خثر النبيذ : ثخن واشتد .

لقيَه كما يلقى الركبان من قبل ، فسأله فأخبره ، فجعل يقول : ياعبد الله ، إيه ! حدّثني ! فيقول له : هزم الله العدوّ ، وعمر يحثّ معه ، ويسأله وهو راجل ، والبشيرُ يسير على ناقته ولا يعرفه ، فلمّا دخل المدينَة إذا الناس يسلّمون عليه باسمه بإمْرَة المؤمنين ويهنئونه ؛ فنزل الرجل ، وقال : هلّا أخبرتني ياأمير المؤمنين رحمك الله ! وجعل عمر يقول: لاعليك يابنَ أخي ، لا عليك يابن أخي !

***

وروى أبو العالية الشاميُّ ، قال : قدم عمر الجابيَة ، على جمل أوْرَق[1] ، تلوحُ صلعته؛ ليس عليه قلنسوة ؛ تصل رجلاه بين شعبتيْ رحله ، بغير ركاب ، وطاؤه كِساءأنبجانيّ[2] كثير الصوف ، وهو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، وحقيبته نمِرة محشوّة ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميصٌ من كَرَابيس[3] قد دسم وتخرّق جيبه ، فقال : ادعوا إليّ رأسَ القرية . فدعوْه له ، فقال : اغسلوا قميصي هذا وخيّطوه ، وأعيروني قميصا ريثَما يجفّ قميصي ، فأتوْه بقميص كتّان ، فعجب منه ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : كتّان . قال وما الكتّان ؟ فأخبروه ، فلبسه ثم غسل قميصَه ، وأُتِيَ به فنزعَ قميصهم ولبس قميصه ، فقال له رأس القرية : أنت ملك العرب ، وهذِه بلاد لا يصلح بها ركوب الإبل ، فأُتِيَ ببرذَوْن[4] ، فطرحت عليه قطيفة بغير سَرج فركبه ، فهمْلَج[5] ، تحته ، فقال للناس : احبسوا ، فحبسوه ، فقال : ما كنت أظنّ الناس يركبون الشيطان قبل هذا ! قدّموا لى جملي . فجيء به فنزل عن البِرْذَون وركبه .

***

---

(١) الأورق من الإبل : ما فى لونه بياض إلى سواد . وقالوا : هو من أطيب الإبل لحماً ، لا سيرا وعملا.
(٢) أنبجانى ، منسوب إلى منبج ، على غير قياس .
(٣) الكرابيس : جمع كرباس ؛ وهو الثوب الخشن ؛ معرب « كرباس » بالفارسية .
(٤) البرذون : ضرب من الدواب دون الخيل وأقدر من الحمر ؛ يقع على الذكر والأنثى .
(٥) هملج البرذون : مشى مشية سهلة فى سرعة ، والهملجة : حسن سير الدابة .

قدم عمرُ الشّام ، فلقيَه أمراء الأجناد وعظماء تلك الأرض ، فقال : وأين أخى ؟، قالوا : مَنْ هو ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا : سيأتيك الآن ، فجاء أبو عبيدة على ناقةمخطومة بحَبْل ، فسلّم عليه ، وردّ له، ثم قال للناس : انصرفوا عنّا ، فسار معه حتى أتى منزله، فنزل عليه ، فلم ير فيه إلّا سيفا وتِرْساً ، فقال له : لو اتخذتَ متاع البيت ! قال : حسبي هـذا يبلّغنى المقيل .

* * *

وروى طارق بن شهاب ، أنّ عمر لما قدِم الشّام عرَضتْ له مخاضة[1] ، فنزل عن بعيره ، ونزع جُرْموقيْه[2] فأمسكهما بيده ، وخاض الماء وزمام بعيره فى يده الأخرى ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليومَ صنيعاً عظيما عند أهلِ هـذه الأرض ! فصكّ فى صدره ، وقال : لو غيرُكَ قالها ياأبا عبيدة ! إنّـكم كنتم أذلّ الناس ، وأحقَر الناس، وأقلّ الناس ، فأعزّكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزّ بغيره يرجعْـكم إلى الذلّ .

* * *

وروى محمد بن سعد صاحب الواقدىّ ، أنّ عمر قال يوماً على المنبر : لقد رأيتُنى ومالى من أكال[3] يأكله الناس ؛ إلّا أنّ لى خالات من بنى مخزوم ، فكنت أستعذِب[4] لهنّ الماء ، فيقبضْنَ لى القبضات من الزّبيب ، فلمّا نزل قيل له : ماأردتَ بهذا؟ قال: وجدتُ فى نفسى بأواً[5] ؟ فأردت أن أطأطئ منها .

* * *

---

(١) المخاضة : موضع الخوض من الماء .
(٢) الجرموق : ما يلبس فوق الخف وقاية له .
(٣) الأكال ، كسحاب : الطعام ، ويقولون : « ما ذقت أكالا » .
(٤) يستعذب الماء : أى يطلب الماء العذب . (٥) البأو : العجب والخيلاء .

ومن كلام عمر : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى .

* * *

قدم عمرو بن العاص على عُمر ، وكان واليا لمصر ، فقال له : فى كَمْ سرت ؟ قال: فى عشرين ، قال عمر : لقد سرت سير عاشقٍ ! فقال عمرو : إنى والله ما تأبّطتْنِى الإماء ، ولا حملتنى فى غُبّرات المـآلى ، فقال عمر : والله ماهذا بجواب الكلام الذى سألتُك عنه ! وإنّ الدجاجة لتفحص فى الرّماد فتضعُ لغير الفحل؛ وإنما تنسب البَيْضة إلى طِرْقها. فقام عمرو مربدّ الوجه .

قلت : المـآلِى : خِرَقٌ سودٌ يحملها النوائح ، ويشِرْنَ بها بأيديهنّ عند اللطم ، وأراد خرَق الحيض هاهنا ، وشبّهها بتلك ، وأنكر عمر فخره بالأمّهات، وقال : إنّ الفخر للأب الذى إليه النسب . وسألت النقيب أبا جعفر عن هذا الحديث فى عمر ، فقال : إنّ عمراً فَخَر على عمر ، لأنّ أمّ الخطاب زنجيّة ، وتعرف بباطحلى ، تسمّى صُهاك . فقلت له : وأمّ عمرو النّابغة أَمَةٌ من سَبايا العرب ، فقال : أمّه عربية من عَنَزة ، سُبِيت فى بعض الغَارات ، فليس يلحقها من النقص عندهم مايلحق الإماء الزنجيات . فقلت له : أكان عمرٌو يُقدِم على عمرَ بمثل ماقلت ؟ قال : قد يكون بلغه عنه قولٌ قدح فى نفسه فلم يحتمله له ، ونفث بما فى صدره منه ، وإن لم يكن جواباً مطابقا للسؤال .

وقد كان عمر مع خشونته يحتمل نحو هذا ، فقد جَبَهه الزبير مرّة ، وجعل يحكى كلامه يمطّطه ، وجبَهه سعدُ بن أبى وقاص أيضا ، فأغضى عنه . ومرّ يوما فى السوق على ناقةٍ له فوثب غلام من بنى ضَبّة ، فإذا هو خلفه ، فالتفت إليه ، فقال : فمّن أنت ؟ قال : ضَبِّىّ ، قال : جَسُورٌ والله، فقال الغلام : على العدوّ ، قال عمر : وعلى الصَّدِيق أيضا، ماحاجتك؟ فقضى حاجتَه ، ثم قال : دع الآن لنا ظهر راحلتنا .

* * *

ومن كلام عمر : اخشع عند القبور إذا نظرْت إليها ، واستعصِ عند المعصية ، وذلّ عند الطاعة ، ولا تبذلَنّ كلامك إلّا عنـد من يشتهيه ويتّخِذه غُنْماً ، ولا تستعنْ على حاجتك إلّا بمن يحبّ نجاحها لك ، وآخِ الإخوانَ على التقوى ، وشاورْ فى أمرِك كلّه ؛ وإذا اشترى أحدكم بعيرا فليشترِه جسيما ، فإنْ أخطأته النَّجابة لم يخطئه السّوق .

***

أَوفَدَ بشر بن مروان وهو على العراق رجلا إلى عبد الملك ، فسأله عن بِشْر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، هو اللَّيّن فى غير ضَعْف ، الشديد فى غير عُنْف ، فقال عبد الملك : ذاك الأحوذىّ [1] ابن حِنْتمة [2] الذى كان يأمن عنده البرىء ، ويخافه السقيم ، ويعاقب على الذَّنْب ، ويعرف موضع العقوبة ، لا بشر بن مروان !

***

أذن عمر يوما للناس ، فدخل شيخ كبير يعرُج ، وهو يقود ناقة رجيعاً [3] يجاذبها ، حتى وقف بين ظهرانَي الناس ، ثم قال :

وإنّك مسترعًى وإنّا رَعيَّـةٌ ‏ وإنّك مدعـوّ بسيماك ياعمرْ

لَدَى يومِ شرّ شرّه لشرارِه ‏ وخـير لمن كانت مؤانسَه الخيرْ

فقال عمر : لاحول ولا قوّة إلّا بالله؛مَنْ أنت ؟ قال : عمرو بن برّاقة ، قال:ويحك! فما منعك أن تقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [4] . ثم قرأها إلى آخرها ؛ وأمر بناقته فقبضت ، وحَمَله على غيرها ، وكساه وزوّده .

***

(١) الأحوذى : الرجل الذى يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها .
(٢) حنتمة : أم عمرو بن الخطاب .
(٣) ناقة رجيع سفر ، أى رجعت فيه مرات .
(٤) سورة الأنفال ٤١ .

بينا عمر يسير فى طريق مكة يوما إذا بالشَّيخ بين يديه يرتجزُ ؛ ويقول :

ما إنْ رأيتُ كفَتَى الخطّابِ أبرّ بالدّين وبالأحساب

* بعد النبيّ صاحب الكتاب *

فطعنه عمرُ بالسّوط فى ظهره ، فقال : ويلك ! وأين الصّدّيق ! قال : مالِى بأمره علمٌ يا أميرَ المؤمنين ، قال : أما إنّك لو كنت عالماً ، ثم قلت هذا لأوجعتُ ظهرك.

* * *

قال زيد بن أسلم : كنت عند عمر ، وقد كلّمه عمرو بن العاص فى الُحطيئة ، وكان محبوساً ، فأخرجه من السجن ، ثم أنشده :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَرخٍ زُغْبِ الحواصِلِ لا ماء ولا شجَرُ (١)

ألقيتَ كاسبهمْ فى قعرِ مُظْلمةٍ فاغفِرْ عليك سلامُ الله ياعمرُ

أنت الإمام الّذِى من بعد صاحبِه ألقت إليه مقاليدَ النُّهى البشَرُ

ما آثروك بها إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأَثَرُ (٢)

فبكى عمر لمّا قال له : « ماذا تقول لأفراخ » ! فكان عمرو بن العاص بعد ذلك يقول : ما أقلّتِ الغبراء ولا أظلّت الخضراء أتقى من رجل يبكى خوفاً من حَبْس (٣) الحطيئة! ثم قال عمر لغلامه يرفأ : علىّ بالكرسىّ ، فجلس عليه ، ثم قال : علىّ بالطّست ، فأُتِىَ بها ، ثم قال : علىّ بالمِخْصف ، لا بلْ علىّ بالسكين ، فأُتِىَ بها ، فقال : لا بل علىّ بالموسى ؛ فإنها أوجى ، فأُتِىَ بموسى ، ثم قال : أشيروا علىّ فى الشاعر ، فإنه يقول الهُجْر ، وينسب بالُحرَم ، ويمدح الناس ويذمّهم بغير مافيهم ، وما أرانى إلّا قاطعا لسانه ! فجعل الحطيئة يزيد خوفاً ، فقال من حضر : إنّه لا يعود ياأميرَ المؤمنين ، وأشاروا إليه قل : لا أعود ياأمير المؤمنين ، فقال : النّجاء النّجاء ! فلمّا ولّى ناداه : ياحطيئة ! فرجع مرعوبا ، فقال : كأنّى بك ياحُطَيئة

(١) ديوانه ٨ . (٢) أى الخلافة . وفى الديوان : « لم يؤثروك » .

(٣) كذا فى ا ، وفى ب : « حبسه » .

عند فتًى من قريش ، قد بسط لك نُمرقة ، وكسر لك أخرى، ثم قال: غَنِّنا ياحطيئة،فطفقت تغنّيه بأعراض النّاس . قال : ياأميرَ المؤمنين ، لا أعود ، ولا يكون ذلك .

قال زيد بن أسلم : ثمّ رأيتُ الحطيئة يوماً بعد ذلك عند عُبيد الله بن عمر ، قد بسط له نُمرقة وكسر له أخرى ، ثم قال : تغنّينا ياحطيئة ، وهو يغنّيه ، فقلت : ياحُطيئة ، أمَا تذكر قول عمر لك ! ففزع ، وقال : رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حيًّا مافعلنا هذا . قال : فقلت لعُبيد الله بن عمر : سمعت أباك يذكر كذا ، فكنتَ أنت ذلك الفتى .

* * *

كان عمر يصادرُ خوَنة العمّال ، فصادر أبا موسى الأشعَرىّ ، وكان عاملهُ على البَصرة، وقال له : بلغنى أنّ لك جاريتيْن ، وأنّك تُطعم النّاس من جَفْنتين ، وأعاده بعد المصادرة إلى عمله .

وصادر أبا هريرة ، وأغلظ عليه ، وكان عاملَه على البحرين ، فقال له : ألا تعلم أنّى استعملتُك على البحريْن ، وأنت حافٍ لا نعل فى رجلك ! وقد بلَغنى أنّك بعتَ أفراساً بألف وستمائة دينار . قال أبو هريرة : كانت لنا أفراسٌ فتناتجتْ ، فقال : قد حبستُ لك رزقك ومؤنتك ، وهذا فضل . قال أبو هريرة : ليس ذلك لك ، قال : بلى ،والله وأوجعُ ظهرَك ! ثم قام إليه بالدرّة فضرب ظهره ، حتى أدماه ، ثم قال : ائتِ بها ،فلمّا أحضرها ، قال أبو هريرة : سوف أحتسبُها عند الله ، قال عمر : ذاك لو أخذتَها من حِلّ ، وأدّيتَها طائعا ، أما والله مارَجَتْ فيك أُمَيمة أن تجبِيَ أموال هَجَرو اليمامةوأقصى البحرين لنفسك؛ لا لله ولا للمسلمين ، ولم ترجُ فيك أكثر من رِعْيَة الحُمُر . وعزَله .

وصادر الحارث بن وهب أحدُ بنى ليث بكر بن كنانة ، وقال له : ماقِلاصٌ وأعبُدٌ بعتَها بمائة دينار ؟ قال : خرجتُ بنفقةٍ لى فاتّجرْتُ فيها ، قال : وإنّا والله مابعثناك للتّجارة ،

أدِّها، قال : أما والله لاأعمل لك بعدها . قال : أنا والله لاأستعملك بعدها. ثم صعدالمنبر، فقال:يامعشرَ الأمراء ، إنّ هذا المال لو رأينا أنه يحلُّ لنا لأحللناه لكم،فأمّا إذْ لم نره يحلّ لنا وظَلَفْنا[1] أنفسنا عنه،فاظلفوا عنه أنفسكم،فإنى والله ماوجدتُ لكم مثلا إلا كعطشان ورد اللُّجّة ، ولم ينظر الماتح ، فلمّا روى غرِق .

* * *

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو عامله فى مصر :

أمّا بعد ؛ فقد بلغَنى أنه قد ظهر لك مالٌ من إبلٍ وغنمٍ وخدمٍ وغلمان ، ولم يكن لك قبله مال ، ولا ذلك من رزقك ، فأنَّى لك هذا ! ولقد كان لى من السابقين الأوّلين من هو خير منك ، ولكنى استعملتك لغَنائك ، فإذا كان عملُك لك وعلينا ، بم نؤثرك على أنفسنا ! فاكتب إلىّ من أين مالك ؟ وعجّل . والسلام .

فكتب إليه عمرو بن العاص:قرأتُ كتابَ أمير المؤمنين،ولقد صدق، فأمّا ماذكره من مالِى ، فإنِّى قدمت بلدة ؛ الأسعار فيها رخيصة ، والغزو فيها كثير ، فجعلت فضولَ ماحصل لى من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين . والله ياأميرَ المؤمنين ، لوكانت خيانتُك لنا حلالاً ماخنّاك ؛ حيث ائتمنتَنا، فأقصِرْ عنا عناك ، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتْنا عن العمل لك ، وأمّا مَنْ كان لك من السابقين الأوّلين ، فهلا استعملتهم ! فوالله مادققتَ لك باباً .

فكتب إليه عمر : أمّا بعد ، فإنّى لست من تسطيرك وتشقيقك الكلام فى شىء ! إنكم معشرَ الأمراء أكلتم الأموال،وأخلدتم إلى الأعذار ، فإنما تأكلون النار،وتورّثون العار ، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرَك على مافى يديْك . والسلام .

---

(١) ظلف نفسه عن الشىء : منعها .

فلمّا قدم إليه محمد اتّخذ له طعاماً وقدّمه إليه ، فأبى أن يأكل ، فقال : مالك لا تأكل طعامنا ؟ قال : إنك عملت لى طعاماً هو تقدمة الشرّ، ولو كنت عملت لى طعام الضّيف لأكلته ، فأبعدْ عنّى طعامك ، وأحضر لى مالك . فلمّا كان الغد وأحضر ماله ، جعل محمد يأخذ شطرا ، ويعطى عمرا شطرا ، فلمّا رأى عمرو ماحاز محمد من المال ، قال : يامحمّد ، أقول ؟ قال : قل ماتشاء ، قال : لعن الله يوما كنتُ فيه واليا لابن الخطّاب ! والله لقد رأيته ورأيت أباه ، وإنّ على كلّ واحد منهما عباءة قطوانية ، مؤتزرا بها ، ماتبلغ مأبِض (١) ركبتيه ، وعلى عنق كلّ واحد منهما حُزمة من حطب ، وإنّ العاص ابن وائل لفى مزرّرات الديباج . فقال محمد: إيها ياعمرو ! فعمر والله خير منك، وأمّا أبوك وأبوه ففى النار ، ووالله لولا مادخلتَ فيه من الإسلام لألفيت معتلفا شاة يسرّك غَزْرها، ويسوءك بكؤها . قال : صدقت ؛ فاكتم علىّ . قال : أفعل .

***

جاءت سُرِّيّة لعبيد الله بن عمر إلى عمر تشكوه ، فقالت : ياأمير المؤمنين، ألاتعذرنى من أبى عيسى ؟ قال : ومَنْ أبو عيسى ؟ قالت : ابنك عبيد الله ، قال : ويحك ! وقد تكنّى بأبى عيسى ! ودعاه ، وقال : إيهاً اكتنيت بأبى عيسى ! فحذر وفزع ، فأخذ يده فعضّها حتى صاح، ثم ضربه وقال : ويلك ! هل لعيسى أب ! أما تدرى ما كنَى العرب ؟ أبو سلمة ، أبو حنظلة ، أبو عرفطة ، أبو مرّة .

كان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يشتفِ حتى يعضّ يده، وكان عبدالله بن الزبير كذلك يقال : إنه لم يلِ ولاية من ولد عمر والٍ عادل .

***

(١) المأبض : كل ما يثبت عليه فخذك . ، وقيل : المأبضان ما تحت الفخذين .

وقال مالك بن أنس : إنّ عمر بن الخطاب استفرغ كلّ عدلٍ فى ولده ، فلم يعدل بعده أحدٌ منهم فى ولاية وليَها .

كان عمر ومن بعده من الولاة إذا أخذوا العُصاة نزعُوا عمائمهم ، وأقاموهم للناس ، حتى جاء زياد فضربهم بالسِّياط ، فجاء مُصعب فحلق مع الضرب ، فجاء بشر بن مروان ، فكان يصلب تحت الإبطين ، ويضرب الأكفّ بالمسامير . فكتب إلى بعض الجند قوم من أهله يستزيرونه ، ويتشوّقونه ، وقد أخرجه بشر إلى الرىّ فكتب إليهم :

لولا مخافةُ بشرٍ أوْ عقوبتُه ... أو أن يرى شانئٌ كفّى بمسمارِ
إذاً لعطّلتُ ثَغرِى ثمّ زُرتُكمُ ... إنّ المحِبَّ المعنَّى جِدُّ زَوّارِ

فلمّا جاء الحجاج قال : كلّ هذا لَعِبٌ ، فقتل العُصاةَ بالسّيف .

* * *

زيد بن أسلم ، عن أبيه ، قال : خلا عُمَرُ لبعضِ شأنه ، وقال : أمْسِكْ علىّ الباب ، فطلع الزُّبير ، فكرهتُه حين رأيتُه ، فأرادَ أن يدخُلَ ، فقلتُ : هُو على حَاجةٍ ، فلمْ يلتفتْ إلىّ ، وأهْوَى ليدخُل ، فوضعتُ يدى فى صدْرِه ، فضرب أنفى فأدْماه ، ثم رجع ، فدخلتُ على عمر ، فقال : مابلُكَ ؟ قلت : الزُّبير !

فأرسل إلى الزُّبير ، فلمّا دخلَ جئتُ فقمتُ لأنظُر مايقول له ، فقال : ماحملك على ماصنعت ، أدْمَيْتَنِى للناس . فقال الزُّبير يحكيه ويمطّط فى كلامه : « أدْميتَنِى ! » ، أتحتجب عنّا يابن الخطاب ! فوالله ما احتجب منّى رسول الله ، ولا أبُو بكر ! فقال عمر كالمعتذِر : إنّى كنتُ فى بعض شأنى !

قال أسْلَمَ : فلمّا سمعتُه يَعتذِر إليه ، يئِستُ من أنْ يأخُذَ لِى بحقِّى منه .

فخرج الزُّبير ، فقال عمر : إنّه الزبير وآثاره ماتعلَم ! فقلت : حقّى حقّك !

* * *

وروى الزبير بن بكّار فى كتاب "الموفّقيات" ، عن عبد الله بن عباس قال : إنّى لأمَاشى عمر بن الخطاب فى سكّة من سِككَ المدينة ، إذ قال لى : يابن عباس ، ما أرى صاحبَك إلّا مظلوما ، فقلت فى نفسى : والله لا يسبقُنى بها ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، فارددْ إليه ظُلامته ، فانتزعَ يدَه من يدى ، ومضى يُهَمْهِم ساعة ، ثمّ وقف فلحقتُه ، فقال : يابنَ عباس ؟ ماأظنّهم منعهم عنه إلّا أنّه استصغره قومُه ! فقلت فى نفسى : هذه شرٌّ من الأولى ! فقلت : والله ما استصغره الله ورسوله حين أمَرَاه أن يأخذ براءة من صاحبك[1] .

فأعرض عنّى وأسرَع ، فرجعت عنه .

* * *

وقال ابن عباس : قلت لعمر ، لقد أكثرتَ التمنّى الموت ، حتى خشيت أن يكون عليك غير سهل عند أوانِه ! فماذا سئمتَ من رعيّتك ؛ أن تعين صالحا ، أو تقوّم فاسدا !

قال : يابنَ عبّاس ، إنّى قائلٌ قولا نخذه إليك ، كيف لا أحبّ فراقهم ، وفيهم من هو فاتحٌ فاه للشّهوة من الدّنيا ، إمّا لحقٍّ لا ينوء بهِ ، وإمّا لباطلٍ لا يناله ! والله لولا أنْ أُسْألَ عنكم لبرئتُ منكم فأصبحت الأرض منى بلاقع ، ولم أقل : مافعل فلان وفلان !

* * *

جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب ، فقالت : ياأَميرَ المؤمنين ، إنّ زوجى يصومُ

---

(١) انظر الرياض النضرة ٢ : ١٧٣ .

النّهار ويقوم الليل ،وإنّى أ كرَهُ أنْ أشكُوَه وهو يعمل بطاعة الله ! فقال : نِعْمَ الزّوج زوجُكِ ! ؛ فجعلتْ تكرّر عليه القول ، وهو يكرّر عليها الجواب .

فقال له كعب بن سَوْر : ياأميرَ المؤمنين ، إنها تشكو زوجَها فى مباعدته إياها عن فراشه ، ففطِن عمر حينئذٍ ، وقال له : قد ولّيتُك الحكْمَ بينهما !

فقال كعب : علىّ بزوْجها ، فأُتِىَ به ، فقال : إنّ زوجتك هذه تشكوك ، قال : فى طعام أو شراب ؟ قال : لا ، قالت المرأة :

أيُّها القاضِى الحكيمُ رشَدُهْ ... ألْهى خليلى عن فراشِى مَسْجِدُهْ
زهّدَهُ فى مضجعِى تَعَبُّدُهْ ... نهارُه وليلُهُ مايرقدُهْ

* فلستُ فى أمرِ النّساء أحمَدُهْ *

فقال زوجها :

زهّدنى فى فَرْشِها وفى الحجَلْ ... أنّى امرؤٌ أذهَلَنِى ماقدْ نزَلْ
فى سُورةِ النمل وفى السبع الطُّوَلْ ... وفِى كتابِ اللهِ تخويفٌ جَلَلْ

قال كعب :

إنّ لَهَا حقًّا عَلَيْكَ يارَجُلْ ... نصيبُها من أرْبَع لمن عَقَلْ

* فأعْطِهاَ ذاكَ ودَعْ عَنْكَ العِلَلْ *

فقال لعمر : ياأمير المؤمنين ، إنّ الله أحلّ له من النّساء مَثْنَى وثلاثَ ورُبَاع ، فله ثلاثة أيامٍ ولياليهنّ ، يعبُد فيها ربّه ، ولها يومٌ وليلة .

فقال عمر : والله ما أعلم من أىّ أمريْك أعجب! أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما ! اذهب فقد ولّيتُك قضاء البصرة .

* * *

وروى زيد بن أسْلَمَ ، عن أبيه، قال : خرجتُ مع عمر بن الخطاب وهو يطوف بالليل،

فنظر إلى نار شرقيّ حَرّة المدينـة ، فقـال : إن هؤلاء الرّكب لم ينزلوا هاهنـا إلّا اللّيـلة ! ثمّ أهْوَى (١) لهم ، فخرجت معه حتى دنونا ، فسمعنـا تضاغِيَ (٢) الصّبيان وبكاءهم .

فقال : السّلام عليكم ياأصحابَ الضوء ، هل ندنو منـكم ! واحتبسنا قليلا ، فقالت امرأة منهم : ادنُوَا بسلاَم ! فأقبلنا حتى وقفنا عليها ، فقال : مايُبـكِى هؤلاء الصبيان ؟ قالت : الجوع ، قال : فما هذا القِدْر على النار ؟ قالت : ماء أعلّلهم به ، قال : انتظريني فإني بالغك إن شاء الله ! ثم خرج يُهَرْوِل وأنا معه ، حتّى جئنا دار الدّقيق — وكانت داراً يطرح فيها مايجيء من دقيق العراق ومصر . وقد كان كتب إلى عمرو بن العاص وأبي موسى حين أمحلت السَّنَة : الغوث ، الغوث ! احملوا إليّ أحمَال الدقيق ، واجعلوا فيهـا جمائد الشحم . فجاء إلى عِدْلٍ منهـا ، فطأطأ ظهره ، ثم قال : احملْه على ظهرى ياأسْلَمَ ! فقلت : أنا أحمله عنك ! فنظر إليّ وقال : أنت تحمل عنّي وزرِى يومَ القيامة ؟ لا أبالك ! قلت : لا ، قال : فاحمله على ظهرى إذاً ، ففعَلتُ ، وخرج به يُدْلِـجُ (٣) وأنا معه ؛ حتّى ألقـاه عند المرأة .

ثم قال لى : ذُرّ (٤) عَلَيّ ذَرُور الدقيق لا يتعرّد وأنا أخْزِر (٥) ، ثم أخذ المِسْواط (٦) يخزر ، ثم جعل ينفخ تحت البُرْمة ، وأنا أنظر إلى الدّخَان يخرج من خَلَل لحيتـه ، ويقول : لا تعجـل حتى ينضج ، ثم قال : ألقِ عليّ من الشحم ، فإن القَفـار يُوجع البطن .

---

(١) أهوى لهم : نزل عليهم . (٢) التضاغى : الصياح والتضور من الجوع .
(٣) الإدلاج : السير أول الليل . (٤) ذر الشيء : أخذه بأطراف أصابعه ، ثم نثره على الشيء .
(٥) الخزيرة . العصيدة .
(٦) السوط : خلط الشيء بعضه ببعض ، والمسوط والمسواط : ما سيط به .

ثم أنزل القِدْر ، وقال المرأة : لا تَعجلى ، لا تعطيهم حارًّا ، وأنا أسطِّح لك ، فجعل يسطِّح بالمسْوَاط ، ويبرّد طعامهم ، حتى إذا شبِعُوا ترك عندها الفضل ، ثم قال لها : ائتِى أميرَ المؤمنين غدا ، فإنكِ عَسيتِ أن تجدِينى قريباً منه ، فأشفعَ لك بخير ؛ وهى تقول : مَنْ أنتَ يرحمك الله ! وتدعُو له وتقول : أنت أوْلَى بالخلافة من أمير المؤمنين ؛ فيقول: قولِى خيرا يرحمُك الله ! لا يزيدُ على هذا .

ثم انصرف حتى إذا كان قريبـا جلس فأقْعى ، وجعل يسمَع طويلا ، حتى سمـع التَّضَاحُك منها ومن الصبيان ، وأنا أقول : ياأمير المؤمنين ، قد فرَغت من هذه ، ولك شغل فى غيرِها ، ويقول : لا تـكلِّمنى ، حتى إذا هدأ حسُّهم قام فتمطَّى وقال ؛ ويحك ! إنّى سمعتُ الجوع أسهرهم ، فأحببتُ ألّا أبرَح حتى أسمع الشِّبَـع أنامَهم !

***

ومن كلامه : الرجال ثلاثة : الـكامل ، ودون الـكامل ، ولا شىء . فالـكامل ذو الرأى يستشير الناس ، فيأخذ من آراء الرجال إلى رأيه ، ودون الـكامل من يستبدّ به ولا يستشير . ولا شىء مَن لا رأى له ولا يستشير .

والنساء ثلاث : تعين أهلَها على الدهر ولا تعين الدهر على أهلها ، وقلَّما تجدها. وامرأة وعاء للولد ليس فيها غيره . والثالثة غُلٌّ قَمِلٌ (١) يجعله الله فى رقبة مَنْ يشاء، ويفكّه إذا شاء

***

لما أخرج عُمَر الحطيئةَ من حَبْسه قال له : إيّاكَ والشعر ! قال : لا أقدر على تركه ياأمير المؤمنين ؛ مأكلةُ عيالى ، ونملة تدِبّ على لسانى . قال : فشبِّبْ بأهلك ، وإياك

(١) فى اللسان : « فى حديث عمر فى صفة النساء : منهن غل قمل ؛ أى ذو قمل ، كانوا يغلون الأسير بالقد وعليه الشعر فيقمل ، ولا يستطيع دفعه عنه بحيلة » .

وكل مدحة مُجحِفة . قال : وما المُجحفة ؟ قال : تقول : إن بنى فلان خير من بنى فلان، امْدحْ ولا تفضّل أحداً ، قال : أنت والله ياأميرَ المؤمنين أشعر منّى!

***

وروى الزّبير فى ،، الموفّقيات ،، عن عبدالله بن عباس ، قال : خرجت أريد عمر بن الخطاب ، فلقيتُه راكباً حماراً ، وقد ارتسنه بحَبْل أسود ، فى رجليه نعلان مخصوفتان ، وعليه إزار وقميص صغير ، وقد انكشفت منه رجلاه إلى ركبتيْه ، فمشيت إلى جانبه ، وجعلت أجذب الإزارَ وأسوّيه عليه ، كلّما سترتُ جانبا انكشف جانب ، فيضحك ويقول : إنّه لا يطيعك ، حتى جئنا العالية ، فصلّينا ، ثمّ قدّم بعض القوم إلينا طعاما من خبز ولحم ، وإذا عمرُ صائم ، فجعل ينبِذ(٢) إلىّ طيّب اللحم ، ويقول : كلْ لى ولك ، ثمّ دخلنا حائطا فألقى إلىّ رداءه ، وقال اكفنيه ، وألقى قميصه بين يديه ، وجلس يغسله ، وأنا أغسل رداءه ، ثمّ جففْناهما وصلّينا العصر ، فركب ومشيت إلى جانبه ، ولا ثالث لنا .

فقلت : ياأمير المؤمنين ، إنى فى خِطْبة فأشرْ علىّ ، قال : ومَنْ خطبتَ ؟ قلت : فلانة ابنة فلان ، قال : النّسب كما تحبّ ، وكما قد علمت ، ولكن فى أخلاق أهلها دِقّة(٣) لا تعدمك أن تجدَها فى ولَدِك ! قلت : فلا حاجة لى إذاً فيها ، قال : فلمَ لا تخطبُ إلى ابنِ عمّك ـ يعْنى عليا ؟ قلت : ألم تسبقْنى إليه ؟ قال : فالأخرى ، قلت : هى لابن أخيه . قال : يابن عباس ، إنّ صاحبَكم إن ولِىَ هذا الأمر أخشى عُجْبه بنفسِه أن يذهب به ، فليتَنِى أراكم بعدى !

قلتُ : ياأميرَ المؤمنينَ ، إن صاحبَنا ماقد علمت ؛ إنّه ماغيّر ولا بدّل ، ولا أسخط رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أيّام صحبته له .

---

(١) ينبذ : يطرح .

(٢) الدقة : الخساسة .

قال : فقطع عليّ الـكلام ، فقال : ولا فى ابنة أبى جهل ، لمَّا أراد أن يخطبها على فاطمة !

قلت : قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ له عَزْماً ﴾ [1] ، وصاحبُنا لم يعزِم على سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولـكن الخواطرَ التى لا يقدر أحدٌ على دفعها عن نفسه ، وربما كان من الفقيه فى دين الله ، العالم العامل بأمر الله .

فقال : يابنَ عباس ، مَنْ ظنّ أنه يردُ بحوركم فيغوص فيها معـكم حتى يبلغ قعرها فقد ظنّ عجزا ! أستغفر الله لى ولك ، خذ فى غيرها .

ثم أنشأ يسألنى عن شىء من أمور الفُتْيا وأجيبه فيقول : أصبتَ أصاب الله بك ! أنت والله أحقُّ أن تُتّبع !

* * *

أشرف عبدُ الملك على أصحابه ، وهم يتذاكرون سيرةَ عمر ، فغاظه ذلك ، وقال : إيهاً عن ذِكرِ سيرة عمر ! فإنها مَزراة على الولاة ، مفسدة للرعيّة .

* * *

قال ابن عباس : كنت عند عمر ، فتنفّس نفساً ظننتُ أنّ أضلاعه قد انفرجت ، فقلت : ما أخرج هذا النَّفسَ منك يا أميرَ المؤمنين إلا همٌّ شديد ! قال : إى والله يا بنَ عباس ! إنى فـكّرتُ فلم أدرِ فيمَنْ أجعلُ هذا الأمرَ بعدى ! ثم قال : لعلّك ترى صاحبَك لها أهلا ! قلت : وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه ! قال : صدقت ، ولـكنه امرؤ فيه دُعابة ، قلت . فأين أنت عن طلحة ! قال : ذو البَأْو [2] ، وبإصبعه المقطوعة ! قلت : فعبد الرحمن ؟ قال : رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه فى يد امرأته . قلت : فالزّبير ؟ قال : شكِسٌ لَقِسٌ [3] يُلاطم فى النقيع فى صاعٍ

---

(١) سورة طه ١١٥ .   (٢) البأو : العجب والتفاخر .

(٣) اللقس الشكس : سيء الخلق ؛ كذا فسره صاحب اللسان ؛ وأورد الخبر .

من بُرّ ! قلت : فسعد بن أبى وقّاص ؟ قال : صاحب سلاح ومِقْنَب[١] ، قلت : فعثمان ؟ قال : أوّه ! ثلاثا ، والله لئن وليَها ليحملَنَّ بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس ، ثم لتنهض العرب إليه .

ثم قال : يابن عباس ، إنه لا يصلُح لهذا الأمر إلاّ خَصِيف[٢] العقدة ، قليل الغرّة ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ثم يكون شديدا من غير عنف ، ليّنا من غير ضعف ، سخيًّا من غير سرف ، ممسكاً من غير وكَف[٣] . قال ابن عباس : وكانت والله هى صفات عمر .

قال : ثمّ أقبل علىّ بعد أن سكت هُنَيهَةً ، وقال : أجرؤهم والله إن وليَها أن يحملهم على كتاب ربّهم وسنّةِ نبيّهم لَصاحبُك ! أما إن ولىَ أمرهم حملهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم .

* * *

وروى عبد الله بن عمر قال : كنت عند أبى يوماً ، وعنده نفر من الناس ، فجرى ذكر الشعر ، فقال : مَنْ أشعرُ العَرب ؟ فقالوا : فلان وفلان ، فطلع عبد الله بن عباس ، فسلم وجلَس ، فقال عمر : قد جاءكم الخبير ! مَنْ أشعرُ النّاس يا عبدَ الله ؟ قال : زهير ابن أبى سلمى ، قال : فأنشدْنى مما تستجيده له . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّه مدح قوماً من غطفان ، يقال لهم بنو سِنان ، فقال :

لو كان يقْعُد فوق الشمس من كرمٍ قومٌ بأوّلهمْ أو مجدِهمْ قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تَنْسِبُهُمْ طابوا وطاب من الأولاد ما وَلَدُوا
إنسٌ إذا أمِنوا ، جنٌّ إذا فزعوا مُرَزَّءون بهاليلٌ إذا جُهِدوا

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .
(٢) قال المحب الطبرى فى الرياض النضرة ٢ : ٦٠ : « خصيف العقدة : مستحكمها ؛ واستخصف الشىء : استحكم ، والخصيف : الرجل المحكم العقل؛ وكنى بذلك عمر عن الاشتداد فى دين الله وقوة الإيمان به
(٣) الوكف : العيب .

محسّدون على ما كان من نعمٍ لا ينزع الله منهم ماله حُسِدوا

فقال عمر : والله لقد أحسن ، وما أرى هذا المدح يصلح إلّا لهذا البيت من هاشم ؛ لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن عباس : وفّقك الله ياأمير المؤمنين ، فلم تزل موفّقا ، فقال : يابن عباس ، أتدرى ما منع الناس منكم ؟ قال : لا ياأمير المؤمنين ، قال : لكنى أدرى ، قال : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : كرهتْ قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فيجخفوا جَخْفاً(١)، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت.(٢)

فقال ابن عباس : أيميط أمير المؤمنين عنّى غضبه فيسمع ! قال : قل ما تشاء ، قال : أمّا قول أمير المؤمنين : إن قريشا كرهت ، فإن الله تعالى قال لقوم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٣) .

وأمّا قولك : « إنّا كنّا نجخف » ، فلو جَخَفْنا بالخلافة جَخَفْنا بالقرابة ، ولكنّا قوم أخلاقنا مشتقة من خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٤) ، وقال له : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

وأما قولك : « فإن قريشا اختارت » ، فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ (٦) ، وقد علمتَ يا أمير المؤمنين أنّ الله اختار مِنْ خلقه لذلك مَن اختار ، فلو نظرتْ قريش من حيث نظر الله لها لوفّقت وأصابت قريش .

فقال عمر : على رِسْلِك يابْنَ عباس ، أبتْ قلوبُكم يابنى هاشمٍ إلّا غِشًّا فى أمر قريش لا يزُول ، وحقدًا عليها لا يحُول ، فقال ابن عباس : مَهْلًا يا أمير المؤمنين !

---

(١) جخف : تكبر .
(٢) الشعر والخبر إلى هنا، فى ديوان زهير وشرحه ٢٨١–٢٨٣
(٣) سورة الأحزاب ١٩
(٤) سورة ن ٥
(٥) سورة الشعراء ٢١٥
(٦) سورة القصص ٦٨ .

لا تنسُب هاشِماً إلى الغشّ ، فإنّ قلوبهم من قلب رسول الله الذى طهّره الله وزكّاه ، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(١) ؛ وأما قولك : «حقداً» فكيف لايحقد من غُصِبَ شيئه، ويراه فى يد غيره !

فقال عمر : أما أنت يابن عباس ، فقد بلَغنى عنك كلامٌ أكره أن أخبرك به ، فتزولَ منزلتُك عندى ، قال : وما هوَ يا أمير المؤمنين ؟ أخبرنى به ، فإنْ يكُ باطلاً فمثلى أماطَ الباطلَ عن نفسه ، وإنْ يكُ حقًّا فإنَّ منزلتى عندك لا تزولُ به .

قال : بلغنى أنّك لا تزال تقول: أُخِذَ هذا الأمر منك حسداً وظلما . قال: أمّاقولك يا أمير المؤمنين : « حسداً » ، فقد حسد إبليس آدم ، فأخرجه من الجنّة ، فنحن بنو آدم المحسود .

وأما قولك : « ظلما » فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحقّ من هو !

ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، ألم تحتجّ العرب على العَجم بحقّ رسول الله ، واحتجّت قريش على سائر العرب بحقّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فنحن أحقٌّ برسول الله من سائر قريش .

فقال له عمر : قم الآن فارجع إلى منزلك . فقام ، فلمّا ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، إنّى على ما كان منك لراعٍ حقك !

فالتفت ابن عباس فقال : إنّ لى عليك يا أمير المؤمنين وعلى كلّ المسلمين حقًّا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فمن حفظه فحقّ نفسه حفِظ ، ومَنْ أضاعه فحقّ نفسه أضاع . ثم مضى .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

فقال عمر لجلسائه : واهاً لابن عباس ! مارأيته لاحَى أحداً قطّ إلّا خصَمه !

* * *

لما توفِّيَ عبد الله بن أُبيّ ، رأس المنافقين فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،جاء ابنه وأهله ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلِّيَ عليه ، فقام بين يدى الصفّ يريد ذلك ، فجاء عمر فجذبه من خلفه ، وقال : ألم يَنْهكَ الله أن تصلّىَ على المنافقين ! فقال: إنى خُيِّرت فاخترت ، فقيل لى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[1] ، ولو أنّى أعلم أنّى إذا زدت على السبعين غفر له لزدت . ثم صلى رسول الله عليه ومشى معه ، وقام على قبره .

فعجب الناس من جراءة عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فلم يلبث الناس إلّا أن نزل قوله تعالى : ﴿ ولَا تُصَلِّ عَلَى أحدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِه.. ﴾[1] فلم يصلِّ عليه السلام بعدها على أحدٍ من المنافقين[2] .

* * *

وروى أبو هريرة، قال : كنا قعوداً حولَ رسولِ الله صلى الله عليهوسلم فى نفرٍ،فقام من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا ، وخشينا أن يقطع دوننا فقُمْنا ـ وكنت أولَ مَنْ فزع ـ فخرجت أبتغيه حتى أتيتُ حائطاً[3] للأنصار لقوم من بنى النّجار ، فلم أجدله بابا إلّا ربيعا، فدخلت فى جوف الحائط ـ والربيع الجدول ـ فدخلت منه بعد أن احتفرْتُه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أبو هريرة ! قلت : نعم ، قال : ماشأنك ؟ قلت : كنتَ بين أظهرنا ، فقمت فأبطأت عنّا ، فخشينا أن تقتطع دوننا ، ففزعنا ـ وكنتُ أوّل من فزع ـ فأتيتُ هذا الحائطفاحتفرْتُه كما يحتفرُ الثعلب ، والناس من ورائى .

---

(١) سورة التوبة ٨٠، ٨٤
(٢) الرياض النضرة ١ : ١٤٠
(٣) الحائط هنا : البستان .

فقال : ياأبا هريرة ، اذهب بنعليّ هاتين ، فمن لقيته وراءهذا الحائط يشهد أن لا إلٰه إلا الله ، مستيقنا بهـا قلبُه ، فبشّره بالجنّة . فخرجت ، فـكان أولَ من لقيت عمر ، فقال : ماهذان النعّلان ؟ قلت : نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى بهمـا ، وقال : مَنْ لقيته يشهد أن لا إلٰه إلّا الله مستيقناً بها قلبُه ، فَبَشِّرْه بالجنة .

فضرب عمر فى صدرى فخررت لاسْتِي ، وقال : ارْجِـعْ إلى رسولِ الله صـلّى الله عليه وسلّم .

فأجهشتُ بالبـكاء راجعاً ، فقال رسول الله : مابالك ؟ قلت : لقيتُ عمر فأخبرته بالذى بعثتَنِي به ، فضرب صـدرِى ضربةً خررت لاسْتِي ، وقال : ارجـع إلى رسول الله .

فخرج رسولالله ، فإذا عمر ،فقال : ماحَمَلك ياعمر على مافعلت؟ فقال عمر : أنت بعثت أبا هريرة بكذا ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفعَلْ ، فإنّى أخْشَى أن يتّـكل الناس عليهـا فيتركوا العمل ، خَلّهم يعملون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلّهم يعملون .

* * *

وروى أبو سعيد الُخدْرىّ ، قال : أصابت النّاسَ مجاعةٌ فى غزاة تبوك ، فقالوا : يارسول الله ، لوأذنتَ لنا فذبحنا نواضِحَنا[1] ، وأ كلنا شحمَها ولحمَا ! فقال : افعلوا ، فجاء عمر فقال : يارسول الله ، إنهم إن فعـلوا قلّ الظّهْر ، ولـكن ادعهم بفضَلات أزْوادهم فاجمعها ، ثم ادعُ لهم عليها بالبركة ، لعل الله يجعل فى ذلك خيرا .

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه ؛ ثم استعمل فى كل بعير ، وإن لم يحمل الماء .

ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأكل الخلق الكثير من طعام قليل ، ولم تذبح النواضح .

***

وروى ابن عباس رضى الله عنه أن رجلا أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكر له ذنبا أذنبه ، فأنزل الله تعالى فى أمره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾(١) فقال : يارسول الله ، لى خاصّة ، أم للناس عامّة !

فضرب عمر صدره بيده وقال : لا ، ولا نُعمىعين ! بل للنّاس عامّة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل للناس عامة .

***

وكان عمر يقول : وافقنى ربّى فى ثلاث : قلت : يارسول الله ، لو اتّخذنا من مقام إبراهيم مصلّى ؟ فنزلت : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(٢) .

وقلت : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهنّ البرّ والفاجر ، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن ! فنزلت آية الحجاب .

وتمالأ عليه نساؤه غيرة ، فقلت له : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾(٣) ؛ فنزلت بهذا اللفظ(٤) .

***

وقال عبد الله بن مسعود : فَضَل عمر النّاس بأربعٍ : برأيه فى أسارى بدر ، فنزل القرآن بموافقته : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾(٥) ، وبرأيه فى حجاب نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ

(١) سورة هود ١١٤
(٢) سورة البقرة ١٢٥
(٣) سورة التحريم ٥
(٤) الرياض النضرة ١ : ٢٤٠
(٥) سورة الأنفال ٦٧

مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[1] وبدعوة النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم أيّد الإسلام بأحدِ الرجلين » ، وبرأيه فى أبى بكر ، كان أول مَنْ بايعه[2].

***

وروت عائشة قالت : كنتُ آكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حَيْساً[3] قبل أن تنزل آية الحجاب ، ومرّ عمر فدعاه فأكل ، فأصابت يده إصبعى ، فقال : حَسِّ[4] لو أطاعُ فيكنّ مارأتكنّ عين ! فنزلت آية الحجاب[5].

***

جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبى بكر ، فقالا : ياخليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سَبِخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإنْ رأيت أن تُقطعناها ، لعلّنا نحرثُها أو نزرَعها ! ولعلّ الله أن ينفَع بها بعداليوم ! فقال أبو بكر لمن حوله من الناس المسلمين: ماترَوْن ؟ قالوا : لابأس ، فكتب لهما بها كتابا ، وأشهد فيه شهودا . وعمر ما كان حاضرا ، فانطلقا إليه ليشهد فى الكتاب ، فوجداه قائما يهنأ[6] بعيرا ، فقالا : إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لنا هذا الكتاب ، وجئناك لتشهد على مافيه ، أفتقرؤه أم نقرؤه عليك ؟ قال : أعلى الحال التى تريان ! إن شئتما فاقرآه ، وإن شئتما فانتظرا حتّى أفرغ .

قالا : بل نقرؤه عليك ، فلمّا سمع مافيه ، أخذه منهما ، ثم تفَل فيه ، فمحاه ، فتذامرا وقالا مقالة سيّئة .

---

(١) سورة الأحزاب ٥٣

(٢) الرياض النضرة ١ : ٢٠٢ (٣) الرياض النضرة : « حيساً فى قصب » .

(٤) قال المحب الطبرى : « حس ، هى بكسر السين والتشديد : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ماءمضه وأحرقه كالجمرة والضربة ونحوها . (٥) الرياض النضرة ١ : ٢٠٢

(٦) يهنأ بعيره : يطلبه بالقطران علاجاً له من الجرب .

فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يتألّفكما والإسلام يومئذ ذَليل ، وإنّ الله تعالى قد أعزّ الإسلام ، فاذهبا فاجْهَدا جهدكما ، لا رَعى الله عليكما إن رعيتما !

فذهبا إلى أبى بكر ، وهما يتذمران ، فقالا : والله ماندرى أنت أميرٌ أم عمر ؟ فقال : بل هو لو شاء كان .

* * *

وجاء عمر وهو مغضَب ، حتى وقف على أبى بكر ، فقال : أخبرْنى عن هذه الأرض التى أقْطعتَها هذين الرّجُلين ، أهى لك خاصّة ، أم بين المسلمين عامّة ! فقال : بين المسلمين عامّة ، قال : فما حَمَلك على أن تخصّ بها هذين دون جماعة المسلمين : قال : استشرتُ الذين حولى ، فأشاروا بذلك ، فقال: أفكلّ المسلمين أوسعتَهم مشورة ورضاً ! فقال أبو بكر : فلقد كنتُ قلت لك : إنك أقوى على هذا الأمر منّى ، لكنّك غلبتَنى !

* * *

لمّا كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلم كتابَ الصُّلح فى الحديبية بينَه وبين سُهيل ابن عمرو ، كان فى الكتاب أنّ من خَرَج من المسلمين إلى قريش لا يُرَدّ ، ومَنْ خرج من المشركين إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يُرَدّ عليهم ، فغضِب عمر وقال لأبى بكر : ماهذا يا أبا بكر ! أيردّ المسلمون إلى المشركين ! ، ثم جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فجلس بين يديْه ، وقال يارسولَ الله ، ألستَ رسولَ الله حقًّا ! قال : بلى ، قال : ونحن المسلمون حقًّا ! قال : نعم ، قال : وهم الكافرون حقًّا ! قال : نعم ، قال : فعلامَ نعطِى الدنيّة فى ديننا ! فقال رسول الله : أنا رسول الله ، أفعل مايأمرُنى به ، ولن يضيّعَنى .

فقام عمر مغضَبا ، وقال : لو أجد أعوانا ما أعطيتُ الدنيّة أبدا . وجاء إلى أبى بكر

فقال له : ياأبا بكر ، ألم يكن وعدنا أننا سندخل مكّة ، فأين ماوعدنا به ؟ فقال أبو بكر : أقال لك : إنّه العام يدخلها ؟ قال : لا ، قال : فسيدخلها، فقال : فما هذه الصحيفة التى كتبت ؟ وكيف نعطى الدنيّة من أنفسنا ! فقال أبو بكر : ياهذا ، الزم غرزه[١]، فوالله إنّه لرسولُ الله ، وإن الله لا يضيّعهُ .

فلما كان يوم الفتح وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم مفتاح الكعبة ، قال : ادعوا لى عمر ، فجاء فقال : هذا الذى كنتُ وعدتُكم به[٢] !

* * *

لمّا قُتِل المشركون يوم بدر أُسِرَ منهم سبعون أسيراً ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر : يارسولَ ، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان ، وأرى أن تأخذ منهم الفِدْية ، فيكون ماأخذنا منهم قوة لنا على المشركين ، وعسى أن يهديَهم الله بعد اليوم ، فيكونوا لنا عنداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ماتقول أنت ياعمر ؟ قال : أرى أن تمكننى من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عَقِيل ، فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنة ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين. اقتلهم يارسول الله ، فإنّهم صناديدهم وقادتهم. فلم يهوَ رسول الله ماقاله عمر .

قال عمر : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قاعداً وأبو بكر ، وهما يبكيان ، فقلت : مايبكيكما ؟ حدّثانى ، فإن وجدت بكاء بكيت وإلّا تباكيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى لأخذ الفداء ، لقد عرض علىّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة منه .

---

(١) الزم غرزه ، أى أمره ونهيه (٢) الرياض النضرة ٢ : ٤٤

قال عبد الله بن عمر : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كِدْنا أن يصيبنا شرٌّ فى مخالفة عمر .

* * *

وقال عُمر فى خلافته : لئن عشتُ إن شاء الله لأسيرنّ فى الرعيّة حولًا ، فإنى أعلمُ أنّ للناس حوائجَ تقتطع دونى ، أمّا عمّا لهم فلا يرفعونها إلىّ ، وأمّا هم فلا يصلُون إلىّ . أسيرُ إلى الشام فأقيم بها شهريْن ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيمُ بها شهريْن ، ثم أسيرُ إلى مصر فأقيمُ بها شهرين ، ثم أسير إلى البحريْن فأقيم بها شهريْن ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيمُ بها شهريْن ، ثم إلى البصرة فأقيمُ بها شهريْن ، والله لنعم الحول هذا !

* * *

وقال أسْلَمَ : بعثنى عمر بإبل من إبل الصّدقة إلى الحِمَى ، فوضعت جهازى على ناقةٍ منها كريمة ، فلمّا أردتُ أن أصدِرها قال : اعرضها علىّ ، فعرضتها عليه ، فرأى متاعى على ناقة حسناء ، فقال : لا أمّ لكَ ! عَمَدت إلى ناقة تُغْنى أهلَ بيت من المسلمين ! فهلّا ابن لَبون[1] بوّال ، أو ناقة شَصوص[2] !

* * *

وقيل لعمر : إنّ هاهنا رجلاً من الأحبار نَصرانيًّا ، له بصر بالديوان ، لو اتّخذته كاتبا ! فقال : لقد اتّخذتُ إذاً بطانةَ من دون المؤمنين !

* * *

قال ، وقد خطب الناس : والذى بعث محمداً بالحق لو أنّ جملا هَلك ضَيَاعا بشطّ الفرات ، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب .

---

(١) ابن اللبون : ولد الناقة إذا كان فى العام الثانى .

(٢) الشصوص : الناقة القليلة اللبن .

قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى بآل الخطاب نفسه ، مايعنى غيرها .

* * *

وكتب إلى أبى موسى : إنه لم يزل للناس وجوه من الأمر ، فأكرم مَنْ قبلك من وجوه النّاس ، وبحسب المسلم الضعيف من بين القوم أن ينصَف فى الحكم وفى القَسْم .

* * *

أتى أعرابىّ عمر ، فقال : إنّ ناقتى بها نَقَباً ودَبَراً ، فاحمِلْنى ، فقال له : واللهِ ما ببعيرك من نَقَبٍ[1] ولا دَبَرٍ[2] ، فقال:

أقْسَم بالله أبو حفصٍ عُمَرْ   مامَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبَرْ

* فاغفر له اللهمّ إن كان فَجَرْ *

فقال عمر : اللهم اغفر لى ، ثم دعاه فحمله .

* * *

جاء رجل إلى عمر وكانت بينهما قرابة يسأله ، فزَبره[3] وأخرجه ، فكُلِّمَ فيه، وقيل : يا أميرَ المؤمنين زبرتَه وأخرجتَه . قال :إنّه سألنى من مال الله ، فما معذرتى إذا لقيتُه ملكا خائنا ؟ فلو سألَنِى من مالى !

ثم بعث إليه ألف درهم من ماله .

* * *

---

(١) نقب البعير : حفى ، وقيل : رقت أخفافه .
(٢) الدبر : إصابة البعير بالدبرة ، وهى قرحة من الرحل .
(٣) زبره : نهره .

وكان يقول فى عمّاله : اللهمّ إنّى لم أبعثهم ليأخذوا أموال المسلمين ، ولا ليضربوا أبشارهم ، مَنْ ظلَمه أميرُه فلا إمْرة عليه دونى !

* * *

بينا عمر ذات ليلة يُعسّ ، سمع صوت امرأة من سطح وهى تنشد :

تَطَاوَلَ هذا اللّيل وازْوَرَّ جانِبُهْ — وليس إلى جنْبِى خليلٌ ألاعِبُهْ

فــوالله لولا اللهُ تُخشى عواقبُهْ — لَزُعْزِعَ من هَذَا السَّرِير جوانبُهْ

مخافة رَبِّى والحيـاء يصـدُّنِى — وأُكرم بَعْلى أن تُنَال مراكبُهْ

[ولـكنّنِى أخْشَى رقيباً موكَّلًا — بأنفسنا لا يفترُ الدّهرَ كاتِبُهْ][1]

فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ماذا صنعت ياعمر بنساء المدينة !

ثم جاء فضرب على حَفْصة ابنته ، فقالت : ماجاء بك فى هذه الساعة ؟ قال : أخبرينى كم تصبر المرأة المُغيبة عن بعلها ؟ قالت : أقصاه أربعة أشهر .

فلمّا أصبح كتب إلى أمرائه فى جميع النواحى ألّا تجمّر[2] البعوث ، وألّا يغيب رجلٌ عن أهله أكثر من أربعة أشهر[3] .

* * *

وروى أسلم ، قال : كنتُ مع عمر ، وهو يُعسُّ بالمدينة ، إذ سمع امرأةً تقول لبنتها : قومى يا بنيَّة إلى ذلك اللبن بعد المشرقين فامذُقيه[4] ، قالت : أو ماعلمت ما كان من عزْمة أمير المؤمنين بالأمس ؟ قالت : وماهو ؟ قالت : إنّه أمر مناديا فنادى ألّا يُشاب اللبن بالماء ، قالت : فإنك بموضع لا يراك أمير المؤمنين ولا منادى أمير المؤمنين ! قالت :

(١) من الرياض النضرة
(٢) تجمر : تحبس فى الغزو
(٣) ابن الجوزى ٦٠ ، والرياض النضرة ٢ : ٥٨
(٤) امذقيه ، أى اخلطيه بالماء .

والله ما كنت لأطيعه في الملأ ، وأعصيه في الخلاء — وعمر يسمع ذلك — فقال : يا أسلم ، اعرف الباب ، ثم مضى في عسّه ، فلما أصبح ، قال : يا أسلم ، امض إلى الموضع ، فانظر مَن القائلة ومَن المقول لها ؟ وهل لهما من بَعْل ؟

قال أسلم : فأتيت الموضع ، فنظرت فإذا الجارية أيّم ، وإذا المتكلّمة بنت لها ، ليس لهما رجل .

فجئت فأخبرته ، فجمع عمر ولده ، وقال : هلْ يريدُ أحدٌ أن يتزوّج فأزوّجه امرأة صالحة فتاةً ، ولو كان في أبيكم حركة إلى النساء لم يسبقه أحد إليها ؟ فقال عاصم ابنه : أنا ، فبعث إلى الجارية فزوّجها ابنه عاصماً ، فولدت له بنتاً هي المكنّاة أمّ عاصم ، وهي أمّ عمر بن عبد العزيز بن مروان .

* * *

حجّ عمر فلما كان بضجْنان (1) قال : لا إله إلا الله العليّ العظيم ، المعطي ما يشاء لمن يشاء ، أذكر وأنا أرعى إبل الخطّاب بهذا الوادي في مَدْرعة صوف — وكان فظًّا يُتعبني إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت — وقد أمسيت اليوم وليس بيني وبين الله أحدٌ ثم تمثّل :

لا شيء مِمّا يُرَى تَبقَى بشاشتُه ... يبقى الإله ، ويودِي المالُ والولَدُ (2)
لم تُغْنِ عن هرمزٍ يوما خزائنُه ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلدُوا
ولا سليمان إذ تجري الرّياحُ له ... والإنس والجنّ فيما بينها يردُ
أين الملوكُ التي كانت منازلُها ... مِنْ كلّ أوبٍ إليها راكبٌ يفِدُ
حوضٌ هنالكَ موْرودٌ بلا كَذِبٍ ... لابدّ من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

* * *

(١) ضجنان : موضع بناحية مكة .
(٢) الرياض النضرة ٢ : ٥٠

وروى محمد بن سيرين أنّ عمرَ فى آخر أيامه اعتراه نسيان حتى كان ينسى عددَ ركعات الصلاة ؛ فجعل أمامه رجلًا يلقّنه ، فإذا أومَى إليه أن يقوم أو يركع ، فعل .

***

وسمع عمر منشدا ينشد قول طَرَفة :

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عيشةِ الْفَتَى ... وَجَدِّكَ لَمْ أَحفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِى[(١)]

فمنهنّ سَبقِي العاذلاتِ بشَرْبةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ[(٢)]

وكَرّى إذا نادى المُضافُ محنّبا ... كسيدِ الغَضَا نبّهته المتوسِّدِ[(٣)]

وتقصيرُ يوم الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعجِبٌ ... ببهكَنةٍ تحتَ الطّرافِ المُمَدَّدِ[(٤)]

فقال : وأنا لولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى ، لم أحفِلْ متى قام عُوّدى ؛ أن أجاهدَ فى سبيل الله ، وأن أضع وجهى فى التراب لله ، وأن أجالس قوماً يلتقطون طيّب القول كما يُلتقط طيّب التمر .

***

وروى عبد الله بن بُريدة ، قال : كان عمر ربّما يأخذ بيد الصبىّ ، فيقول : ادعُ لى ، فإنّك لم تُذْنب بعد !

***

وكان عمر كثير المشاورة ، كان يشاور فى أمور المسلمين حتى المرأة .

***

وروى يحيى بن سعيد ، قال : أمر عمر الحسينَ بن على عليه السلام أن يأتيه

(١) المعلقة — بشرح التبريزى ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الكميت من الخمر : التى تضرب إلى السواد .

(٣) كرى : عطفى . والمحنب : من التحنيب ، وهو احديداب فى وظيفى يدى الفرس . والسيد : الذئب . والغضا : شجر ، وذئابه أخبث الذئاب .

(٤) الدجن : إلباس الغيم السماء . والبهكنة : التامة الخلق .

فى بعض الحاجة ، فلقىَ الحسين عليه السلام عبدَ الله بن عمر ، فسأله من أين جاء ؟ قال : استأذنت على أبى فلم يأذن لى ، فرجع الحسين ولقيَه عمر من الغد ، فقال : مامنعك ياحسينُ أن تأتيَنى ؟قال : قد أتيتُك ،ولكن أخبرَنى ابنُك عبد الله أنّه لم يؤذَن له عليك، فرجعتُ ، فقال عمر : وأنت عندى مثله ! وهل أنبت الشَّعر على الرأس غيرُكم !

* * *

قال عمر يوما ، والناس حوله : واللهِ ماأدرى أخليفة أنا أم ملِك ! فإن كنتُ ملِكاً ، فقد وُرّطتُ فى أمرٍ عظيم ، فقال له قائل : يا أميرَ المؤمنين إنّ بينهما فرقا ، وإنك إن شاء الله لعلى خير ، قال : كيف ؟ قال[1] : إن الخليفة لايأخذ إلا حقّا ولايضعه إلا فى حقّ ، وأنت بحمد الله كذلك ، والمَلِك يعسِف النّاس ويأخذ مال هذا فيعطيه هذا .

فسكت عمر وقال : أرجو أن أكونه .

* * *

وروى مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، أن عمر تعلّم سورة البقرة فى اثنتى عشرة سنة، فلمّا ختمها نحر جَزُوراً .

وروى أنس ، قال : كان يُطرح لعمر كلّ يوم صاعٌ من تمر ، فيأكله حتى حشَفه .

* * *

وروى يوسف بن يعقوب الماجشون ، قال: قال لى ابن شهاب ولأخ لى وابن عمٍّ لنا، ونحن صبيان أحداث : لاتحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإنّ عمر كان إذا نزَل به الأمر المعضل ، دعا الصبيان فاستشارهم، يبتغى حِدّة[2] عقولهم .

* * *

---

(١) ب : « قلت » : والصواب ما أثبته من ا .　　(٢) ساقطة من ب .

وروى الحسن ، قال : كان رجل لا يزال يأخذ من لحية عمر شيئاً فأخذ يوماً من لحيته؛ فقبض على يده فإذا فيها بشيء ، فقال : إن المَلَق من الكذِب ثم عَلاه بالدِّرّة.

* * *

انقطع شِسْع نعل عمر ، فاسترجع (١) وقال : كلّ ماساءك فهو مصيبة .

* * *

وقف أعرابىّ على عمر ، فقال له :

يابن خطّابٍ جُزيتَ الجنّهْ اكْسُ بُنَيّاتِي وأُمَّهُنّهْ

* أقسم باللهِ لتفعلنّه *

فقال عمر : إن لم أفعل ، يكون ماذا ؟

قال :

* إذاً أبا حَفْصٍ لأمضينّهْ *

فقال : إذا مضيت يكون ماذا ؟

قال :

تكون عن حالي لتُسْألنّهْ يوم تكونُ الأعطياتُ جُنَّهْ
والواقف المسئولُ يُبْهَتنّهْ إمّا إلى نارٍ وإمّا جَنَّهْ

فبكى عمر ، ثم قال لغلامه : أعطه قميصى هذا لذلك اليوم، لا لِشعره ، والله ماأملك ثوباً غيره .

* * *

وروى ابن عباس قال : قال لى عمر ليلة : أنشِدْنى لشاعر الشعراء ، قلت : ومَنْ هو ؟ قال : زهير الذى يقول :

---

(١) استرجع أى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

إذَا ابْتَدَرَتْ قيسُ بن عَيلان غايةً من المجـدِ مَنْ يسبق إليها يسوّدِ (١)

فأنشدته حتى برَق الفجر ، فقال : إيهاً الآن ! اقرأ ياعبد الله ، قلت : ما أقرأ؟ قال: سورة الواقعة .

* * *

سمع عمر صوت بكاء فى بيت ، فدخل وبيده الدِّرّة ، فمال عليهم ضربا حتى بلغ النائحة ، فضربها حتى سقط خِمارها ، ثم قال لغلامه : اضرب النائحة ، ويلك ! اضربها فإنها نائحةٌ لاحرمةَ لها ، لأنها لاتبكى بشجوِكم ، إنّها تُهَريق دموعَها على أخذ دراهمكم ، إنها تؤذى أمواتـكم فى قبورهم ، وأحياءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر ، وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه .

* * *

ومن كلامه : من اتّجَر فى شىء ثلاث مرات فلم يصِب فيه ؛فليتحوّل عنه إلى غيره.

ومن كلامه : لو كنتُ تاجرا لما اخترت على العطر شيئاً ،إن فاتنى ربحُه لم يفتنى ريحه.

ومن كلامه : تفقّهوا قبل أن تسوّدُوا .

ومن كلامه : تعلّموا المهنة ، فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى مهنته .

ومن كلامه : مكسبة فيها بعض الدناءة ، خير من مسألة الناس .

ومن كلامه : أعقلُ الناس أعْذَرُهم لهم .

* * *

رأى عمر ناسا يتبعون أُبىّ بن كعب ، فرفع عليه الدرّة ، فقال: ياأميرَ المؤمنين،اتق الله ، قال : فما هذه الجموع خلفك يابن كعب ! أما علمتَ أنها فتنة للمتبوع ، مذلّة للتابع.

* * *

جاء رجلٌ إلى عمر ، فقال : إنّ بنتاً لى واريتُها فى الجاهليّة ، فاستخرجناها قبل أن

(١) ديوانه ٢٣٤ .

تموتَ ، فأدركت معناَ الإسلام ، فأسلمت ، ثم قارفتْ حدًّا من حـدود الله ، فأخذت الشّفرة لتذبحَ نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها ، فداويناها حتى برئت ، وتابت توبةً حسنة ، وقد خطبها قوم ، أفأخبرهم بالذى كان من شأنها ؟ فقال عمر : أتعمِد إلى ماستره الله فتبديَه ، والله لئن أخبرتَ بشأنها أحداً لأجعلنّك نَـكالا لأهل الأمصار! أنـكِحْها نـكاح العفيفة السليمة .

* * *

أسلم غيلان بن سلَمة الثقفىّ عن عشر نسوة ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : اختَرْ منهنّ أربعا ، وطلّق ستا ، فلمَّا كان على عهد عمر طلّق نساءه الأربع ، وقسّم ماله بين بنيه ، فبلَغ ذلك عمر ، فأحضره فقال له : إنّى لأظنّ الشيطان فيما يسترق من السمع،سمع بموتك فقذفه فى نفسك ، ولعلك لا تمـكث إلا قليلا ! وايمُ الله لتراجعنّ نساءك ، ولترجعنّ فى مالك ، أو لأورّثنهن منك ، ولآمرنَّ بقبرك فيرجَم ، كما رجِم قبر أبى رِغال .

* * *

وقال عمر : إن الجزْف فى المعيشة أخْوَف عندى عليـكم من العِيال ، إنّه لا يبقى مع الفساد شىء ، ولا يقلّ مع الإصلاح شىء .

وكان عمر يقول : أدِّبُوا الخيـل ، وانتضِلوا ، واقْعدوا فى الشمس ، ولا يجاورنّـكم الخنازير ، ولا تقعدوا على مائدةٍ يُشرب عليها الخمر ، أو يرفع عليهـا الصليب ، وإياكم وأخلاقَ العجم ، ولا يحلّ لمؤمنٍ[1] أن يدخل الحمّام إلّا مؤتزراً ، ولا لامرأة أن تدخُلَ الحمّام إلا من سَقَم ، فإذا وضعت المرأة خِمارها فى غير بيت زوجها ، فقد هتـكت السِّتر بينها وبين الله تعالى .

---

(١) ا : « لأحد » .

وكان يكره أن يتزيّا الرّجال بزِيّ النساء ، وألّا يزال الرّجل يُرى مكتحلا مُدَّهنًا ، وأن يَحُفّ لحيتَه وشاربَه كما تَحُفّ المرأة .

* * *

سمع عمر سائلا يقول : مَنْ يعشّي السائل ؟ فقال : عَشّوا سائلكم ، ثم جاء إلى دار إبل[1] الصّدقة يعشّيها ، فسمع صوته مرة أخرى : من يعشّي السائل؟ فقال : ألم آمركم أن تعشوه ! فقالوا : قد عشّيناه ، فأرسل إليه عمر ، وإذا معه جرابٌ مملوء خبزا ، فقال: إنّك لست سائلا ، إنما أنت تاجر تجمع لأهلك ، فأخذ بطَرَف الجراب فنبذَه بين يدَيِ الإبل.

* * *

وقال عمر : من مَزَح استُخِفّ به ، وقال : أتدرُون لم سمّى الْمزاح مُزاحا ؟ لأنه أزاح الناس عن الحقّ .

ومن كلامه : لن يعطَى أحدٌ بعد الكفر بالله شرًّا من زوجةٍ حديدة اللسان ، سيّئة الخلْق ، عقيم . ولن يعطَى أحدٌ بعد الإيمان بالله خيرا من زوجةٍ كريمة ودود وَلُود ، حَسَنة الخلْق .

وكان يقول : إن شقاشق الكلام من شقاشق اللسان ، فأقلّوا ما استطعتم .

ونظر إلى شابّ قد نكّس رأسه خشوعا ، فقال : ياهذا ، ارفع رأسك ، فإنّ الخشوع لا يزيد على مافى القلب ، فمن أظهر للخلْق خشوعا فوق مافى قلبه ، فإنما أظهر نفاقا .

ومن كلامه : إنّ أحبّكم إلينا مالم نركم أحسنكم أسماء ، فإذا رأيناكم فأحبّكم إلينا أحسنكم أخلاقا ، فإذا بلوناكم فأحبكم إلينا أعظمكم أمانة ، وأصدقكم حديثا .

* * *

وكان يقول : لا تنظروا إلى صلاة امرئ ولا صيامِه ، ولكن انظروا إلى عقله وصِدْقه .

(١) ب : « أهل » تحريف ، وصوابه من ا .

ومن كلامه: إنّ العبد إذا تواضع لله رفع حَكَمَته(١)، وقال له: انتعش نعشك الله ! فهو فى نفسه صغير، وفى أعين الناس عظيم. وإذا تكبّر وعتا وهَصَه(٢) الله إلى الأرض، وقال: اخْسأ، خَسَأك الله ! فهو فى نفسه عظيم، وفى أعين الناس حقير، حتى يكون عندهم أحقر من الخنزير.

وقال: الإنسان لا يتعلّم العلم لثلاث، ولا يتركه لثلاث: لا يتعلّمه ليمارِىَ به، ولا ليباهىَ به، ولا ليرائىَ به. ولا يتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل بدلا منه.

وقال: تعلّموا أنسابكم تَصِلوا أرحامكم.

وقال: إنّى لا أخاف عليكم أحد الرّجُلين، مؤمنا قد تبيّن إيمانُه، وكافرا قد تبيّن كفره، ولكن أخاف عليكم منافقا يتعوّذ بالإيمان ويعمل بغيره.

ومن كلامه: إن الرّجف(٣) من كثرة الزنا، وإن قحوط المطر من قضاة السوء وأئمة الجوْر.

وقال فى النساء: استعينوا عليهنّ بالعُرْىِ، فإن إحداهُنّ إذا كثرتْ ثيابها، وحسنت زينتها، أعجبها الخروج.

ومن كلامه: إن الجِبْت السّحر، وإنّ الطاغوت الشيطان، وإنّ الجبن والشجاعة غرائز تكون فى الرجال، يقاتل الشجاع عمّن لا يعرف، ويفرّ الجبان عن أمّه، وإن كَرَم الرّجل دينه، وحسبَ الرّجُل خُلُقه، وإن كان فارسيًّا أو نَبَطيًّا.

وقال: تفهّموا العربيّة، فإنّها تشحذ العقل، وتزيد فى المروءة.

وقال: النّساء ثلاث: امرأة هيّنة ليّنة عفيفة، وَدُود ولود، تعين بعلها على الدّهر، ولا تعينُ الدّهر على بعلها، وقلّما تجدها. وأخرى وِعاء للولد لا تزيد على ذلك شيئا، والثالثة غلٌّ قَمِلٌ، يجعله الله فى عُنُق مَنْ يشاء، وينزعه إذا شاء.

(١) الحكمة، بالتحريك: الشأن والأمر. (٢) الوهصة: المطمئن من الأرض (٣) الرجف: الاضطراب.

والرجال ثلاثة : رجل عاقلٌ يُورِد الأمور ويُصدِرها، فيحسن إيراداً وإصداراً، وآخر يشاورُ الرجال ، ويقف عند آرائهم ، والثالث حائر بائر، لا يأتمر رشداً، ولا يُطيع مرشداً.

***

وقال : مايمنعكم إذا رأيتم السّفيه يخرق أعراضَ النساء أن تُعرِّبوا [١] عليه ، قالوا : نخاف لسانه ، قال : ذاك أدْنَى ألّا تكونوا شهداء .

ورأى رجلاً عظيمَ البطن ، فقال : ماهذا ؟ قال : بركة من الله .

وقال : إذا رُزِقت مودّة من أخيك فتشبَّث بها مااستطعت .

وقال لقوم يحصدون الزرع : إنّ الله جعل ماأخطأت أيديكم رحمةً لفقرائكم ، فلا تعودوا فيه .

وقال : ماظهرت قطُّ نعمة على أحدٍ إلا وجدتَ له حاسداً ، ولو أنّ امرأً كان أقوم من قِدْحٍ ، لوجدتَ له غامزا .

وقال : إيّاكم والمدحَ ، فإنه الذّبح .

وقال لقَبيصة بن ذؤيب : أنت رجل حديثُ السنّ ، فصيح اللسان . وإنه يكون فى الرجل تسعة أخلاق حسنة ، وخلُق واحد سيّئ ، فيغلب الواحد التسعة ، فتوقّ عثراتِ [٢] السّيئات .

وقال : بحسب امرئ من الغيّ أن يؤذىَ جليسه ، أو يتكلّف مالا يعنيه ، أو يعيب الناس بما يأتى مثله ، ويظهر له منهم مايخفى عليهم من نفسه .

وقال : احترسوا من النّاس بسوء الظنّ .

وقال فى خطبة له : لا يعجبنّكم من الرجل طنطنته ، ولكن مَنْ أدّى الأمانة ، وكفَّ عن أعراض الناس فهو الرّجل .

وقال : الراحة فى مُهاجرة خلَطاء السوء .

(١) التعريب : أن يتكلم بالكلمة فيفحش فيها أو يخطىء ، فيقول له الآخر: ليس كذا ولكنه كذا للذى هو أصوب . كذا فسره صاحب اللسان ، وذكر قول عمر .

(٢) ب : « عشرات » ؛ وما أثبته من ا .

وقال : إنّ لؤماً بالرجل أن يرفع يديه من الطعام قبل أصحابه .

وأثنى رجل على رجل عند عمر ، فقال له : أعاملتَه ؟ قال :لا ، قال : أصحبتَه فى السفر ؟ قال : لا ، قال : فأنت إذاً القائل مالا يعلم .

وقال : لأن أموت بين شُعبتى رَحْلى ، أسعى فى الأرض ،أبتغى من فضل الله كَفاف وجهى ، أحبّ إلى من أن أموت غازياً .

* * *

وكان عمر قاعداوالدّرّة معه ، والناس حوله ،إذ أقبل الجارودالعامرىّ ، فقال رجل: هذا سيّد ربيعة ، فسمعها عمر ومَن حوله ، وسمعها الجارود ، فلمّا دنا منه ، خفقَه بالدّرّة ! فقال : مالى ولك ياأمير المؤمنين ! قال : ويلك ! سمعتَها ! قال : وسمعتُها فمه ! قال : خشيت أن تخالط القوم ويقال : هذا أمير ، فأحببتُ أن أطأطئ منك .

وقال : من أحبّ أن يصل أباه فى قبره ، فليصلْ إخوان أبيه من بعده .

وقال : إنّ أخوَف ماأخاف أن يكون ، إعجابُ المرء برأيه ، فمن قال : إنّى عالم فهو جاهل ، ومن قال : إنّى فى الجنّة فهو فى النار .

* * *

وخرج للحجّ فسمع غناء راكبٍ يغنّى وهو مُحرِم ، فقيل : ياأمير المؤمنين ، ألاتنهاه عن الغناء وهو محرِم ؟ فقال : دعوه ، فإنّ الغناء زادُ الراكب .

* * *

وقال : يُثْغِر(١) الغلام لسبع ، ويحتلم لأربع عشرة ، وينتهى طوله لإحدى وعشرين، ويكمل عقله لثمانٍ وعشرين ، ويصير رجلا كاملا لأربعين .

* * *

---

(١) أثغر الغلام : أى سقطت أسنانه .

وروى سعيد بن المسيّب ، أنّ عمر لما صدَر من الحجّ فى الشهر الذى قتل فيه ، كوّم كَوْمةً من بطحاء ، وألقى عليها طرف ثوبه ، ثمّ استلقى عليها ؛ ورفع يديه إلى السّماء ، وقال : اللهمّ كبِرت سنّى ، وضعفت قُوّتى ، وانتشرت[1] رعيّتى ، فاقبضنى إليك غيرَ مضيّع ولا مفرّط .

ثم قدم المدينة فخطب الناس ، فقال :

أيّها النّاس قد فرضْتُ لكم الفَرائض ، وسنَنْتُ لكم السُّنَن ، وتركتكم على الواضحة ، إلّا أن تضِلّوا بالناس يمينا وشمالا . إيّاكم أن تنتهوا عن آية الرّجْم ، وأن يقول قائل : لانجد ذلك حدًّا فى كتاب الله ، فقد رأيت رسول الله رجم ورجَمْنا بعده ، ولولا أن يقول الناس : إنّ ابن الخطاب أحدث آيةً فى كتاب الله لكتبتُها ، ولقد كنا نقرؤها : « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة » ؛ فما انسلخ ذو الحجة حتى طُعِن.

* * *

دُفع إلى عمرَ صكٌّ[2] محلّه فى شعبان ، فقال : أىّ شعبان ؟ الّذى مضى أم الذى نحن فيه ؟ ثمّ جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : ضَعُوا للنّاس تاريخا يرجعون إليه ، فقال قائل منهم : اكتبُوا على تاريخ الرّوم ، فقيل : إنّه يطول ، وإنّه مكتوبٌ من عهد ذى القرنين . وقال قائل : بل اكتبُوا على تاريخ الفُرْس ، [فقيل إن الفرس][3] كلّما قام ملك طرحوا ما كان قبله . فقال علىّ عليه السلام : اكتبُوا تاريخكم منذ خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم من دَار الشّرك إلى دار النُّصرة ، وهى دار الهجرة ، فقال عمر : نعم ماأشرت به ، فكتب للهجرة ، بعد مضىّ سنتين ونصف من خلافة عمر[4].

(١) انتشرت الرعية : أى تفرقت فى شتى النواحى .

(٢) الصك : كتاب الإقرار بالمال . (٣) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٤) الخبر فى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٣ (الحسينية) ، وفيه : « فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فوجدوه عشر سنين ، فكتب التاريخ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم » .

قال المؤرخون : إنّ عمر أوّل مَنْ سنّ قيام رمضان فى جماعة ، وكتب به إلى البلدان ، وأقام الحـدّ فى الخمر ثمانين ، وأحرق بيت رُوَيشِد الثقفىّ ، وكانَ نبّاذاً ، وأقام فى عمله بنفسه . وأوّل مَنْ حمل الدِّرّة وأدّب بها . وقيل بعده : كانت دِرّة عمر أهيَب من سيف الحجاج .

وهو أوّل مَنْ فتح الفتوح ، فتح العراق كلّه : السّواد والجبال وأذرَبيجان، وكوَر البصرة ، وكوَر الكوفة والأهواز ، وفارس ، وفتح الشّام كلّها ماخلا أجنادِين ، فإنّها فُتِحت فى خلافة أبى بكر . وفتح كُور الجزيرة والموصل ومصر والإسكندرية ، وقتله أبو لؤلؤة وخيلُه على الرّىّ .

وهو أوّل مَنْ مَسَح السّواد ووضع الخراج على الأرض ، والجزْية على جماجم أهل الذّمة فيما فتحه من البلدان ، وبلغ خراجُ السّواد فى أيامه مائة ألف ألف درهم وعشرين ألف ألف درهم بالوافية ، وهى وزن الدّينار من الذهب . وهو أوّل مَنْ مصّر الأمصار ، وكوّف الكوفة[1] ، وبصّر البصرة ، وأنزلها العرب ، وأوّل مَن استقضى القُضاة فى الأمصار ، وأوّل مَنْ دوّن الدواوين ، وكتب النّاس على قبائلهم ، وفرضَ لهم الأعطية ، وهو أوّل مَنْ قاسم العمّال وشاطرهم أموالهم ، وكان يستعمل قوماً ويدَع أفضل منهم لبصرهم بالعَمل ، وقال : أكره أن أدنّس هؤلاء بالعمل . وهو الّذِى هَدَم مسجد رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وزاد فيه ، وأدخل دار العباس فيما زاد . وهو الّذِى أخرج اليهود من الحجاز ، وأجْلَاهم عن جزيرة العرب إلى الشام. وهو الّذِى فتح البيت المقدس، وحضَر الفتح بنفسه . وهو الذى أخّر المقام إلى موضعه اليوم ، وكان مُلْصَقاً بالبيت. وحجّ بنفسه خلافتَه كلّها إلّا السّنَة الأولى ، فإنّه استخلف على الحجّ عبد الرحمن بن عوف. وهو

(١) فى اللسان عن المفضل : يقال : كوفوا هذا الرمل ، أى نحوه ، ومنه سميت الكوفة .

الّذى جاء بالحصى من العقيق فبسطه فى مسجد المدينة ، وكان النّاسُ إذا رفعوا رءوسهم من السجود نفضوا أيديَهم .

* * *

وروى أبو هريرة ، قال : قدِمْتُ على عمر من عند أبى موسى بثمانمائةألف درهم؛ فقال لى : بماذا قدمت ؟ قلت : بثمانمائةألف درهم ، فقال : ألم أقل لك إنّك يمانٍ أحمق، ويحك! إنّما قدمتَ بثمانين ألف درهم ، فقلت : ياأمير المؤمنين إنما قدِمت بثمانمائة ألفِ درهم ، فجعل يعجّب ويكرّرها ، فقال : ويحك! وكم ثمانمائة ألف درهم ؟ فعدَدْتُ مائة ألف ، ومائة ألف حتى بلغت ثمانية ، فاستعظم ذلك، وقال: أطيّبٌ هو ويْحكَ ! قلت : نعم، فبات عمر ليلته تلك أرِقًا حتّى إذا نُودى لصلاة الصبح ، قالت له امرأته : مانمتَ هذه الليلة، قال: وكيف أنام وقد جاء الناسَ مالم يأتهم مثله منذ قام الإسلام ، فظنّت المرأة أنّها داهية ، فسألته ، فقال : مالٌ جَمّ ، حمله أبو موسى ، قالت : فما بالك ؟ قال : مايؤمِّنُنى لو متّ وهذا المال عندى لم أضعْه فى حقه ! فخرج يصلِّى الصبح ، واجتمع النّاسُ إليه ، فقال لهم: قد رأيتُ فى هذا المال رأيًا فأشيروا علىّ ، رأيت أن أَكيله للناس بالمكيال ، قالوا : لا ياأمير المؤمنين، قال : لا بل أبدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأهله ، ثم الأقرب فالأقرب ، فبدأ ببنى هاشم ، ثم ببنى المطّلب ، ثم بعبد شمس ونوفل ، ثمّ بسائر بطون قريش .

* * *

قسّم عمر مُروطًا بين نساء المدينة فبقى مِرْطٌ (١) جيّد له فقال بعض من عنده : أعْطِ هذا ياأمير المؤمنين ابنةَ رسول الله التى عندك ــ يعنون أمّ كلثوم ابنَة علىّ عليه

(١) المرط ، بالكسر : كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به ، وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفع به .

السلام ـ فقال : أمّ سليط أحقّ به ، فإنها مِمّن بايع رسول الله صلى عليه وسلم ، وكانت تزْفِر لنا(١) [القِرب](٢) يوم أُحُد .

* * *

وروى زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : خرجتُ مع عمر إلى السوق ، فلحِقتْه امرأة شابة، فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، هَلَكَ زوجي ، وترك صِبْيَةً صغارا لا يُنْضِجون كُراعا(٣)، لا زرع لهم ولا ضَرْع ، وقد خَشِيت عليهم الضَّيْعة ، وأنا ابنه خِفاف بن أسماء الغِفَارِيّ ، وقد شهد أبي الحديبِيَة . فوقف عمر مَعها ولم يمضِ ، وقال: مرحبا بنسيبٍ قريب ! ثم انصرف إلى بعير ظهير(٤) كان مربوطا فى الدّار ، فحمل عليه غِرَارتين ملأهما طعاما ، وجعل بينهما نفقة وثيابا ، ثم ناولها خِطامه وقال : اقتاديه فلن يفنَى هذا حتى يأتيَكم الله بخير . فقال له رجل : لقد أكثرتَ لها ياأمير المؤمنين ! فقال : ثكلتك أمّك ! والله لكأنّى أرى أبا هذه وأخاها ، وقد حاصرا حصنا فافتتحاه . فافترقنا ، ثم أصبحنا نستقرِئ سُهْمانَنَا فيه .

* * *

وروى الأوزاعيّ أنّ طلحة تبع عمر ليلةً ، فرآه دخل بيتا ثم خرج، فلمّا أصبح ذهب طلحة إلى ذلك البيت ، فرأى امرأةً عمياء مقعَدة ، فقال لها : مابال رجُلٍ أتاك الليلة ؟ قالت : إنّه رجلٌ يتعاهدنى منذ كذا وكذا ، يأتينى بما يصلِحُنى ، فقال طلحة: ثكلتْك أمّك ياطلحة ! تريد تَتَبُّع عمر !

خرج عمر إلى الشام ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابُه ، فأخبروه أنّ الوباء قد وقع بالشّام ، فقال لابن عباس : ادْعُ لى المهاجرين ، فدعاهم فسألهم ، فاختلفوا عليه ، فقال بعضهم : خرجتَ لأمرٍ ولا نرى أن

(١) تزفر القرب : أى تحمل القرب مملوءة بالماء لتسق الناس . نهاية ابن الأثير واللسان ـ زفر .
(٢) من اللسان والنهاية .
(٣) الكراع : مستدق الساق : ويقال للضعيف الدفاع عن نفسه : ما ينضج كراعاً .
(٤) بعير ظهير : قوى .

ترجعَ عنه. وقال بعضهم : معك بقيّة النّاس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن تقدِمَهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عنّى ، ثم قال لابن عباس : ادعُ لى الأنصار ، فدعاهم فاستشارهم ، فاختلفوا عليه اختلافَ المهاجرين ، فقال لابن عباس : ادعُ لى مَنْ كان من مَشْيَخة قريش من مهاجِرة الفتح ، فدعاهم فقالوا بأجمعهم : نرى أن ترْجِع بالنّاس ولا تقدِمهم على هـذا الوباء ، فنادى عمر فى الناس : إنى مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ ، فأصبحوا عليه ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قَدَر الله تعالى ! فقال عمر : لو غيرُك قالها ياأبا عبيدة ! نعمْ نفِرّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله ، أرأيت لو كان لك إبلٌ فهبطت واديًا له عُدْوتان ، إحدَاهما خِصْبة ، والأخرى جَدْبة ، أليس إنْ رعيتَ الخصْبة رعيتَها بقدَر الله ، وإن رعيت الجدْبة رعيتَها بقدر الله ! فجاء عبد الرحمن بن عَوْف ـ وكان متغيّبا فى بعض حاجته ـ فقال : إنّ عندى مِنْ هذا علمًا ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : «إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تُقدِموا عليه ، وإذا وقع بأرْضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » . فحمد عمرُ اللهَ عَزّ وجلّ وانصرف إلى المدينة .

* * *

ورَوَى ابن عبّاس ، قال : خرجتُ مع عمر إلى الشّام فى إحـدى خرجاته ، فانفرد يومًا يسير على بعيره فاتّبعتهُ ، فقال لى : يابنَ عباس ، أشكو إليك ابنَ عَمّك ، سألتُه أن يخرُج معى فلم يفْعل ، ولم أزل أراه واجدا ، فيمَ تظنّ موجدته ؟ قلت : ياأمير المؤمنين ، إنّك لَتعلم ، قال : أظنه لا يزال كئيبا لفوت الخلافة(١) ، قلت : هو ذاك ، إنّه يزعُم أنّ رسول الله أراد الأمر له ، فقال : يابن عباس ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أمرًا(٢) ، وأراد

---

(١) كذا ى ، وفى ا : « على الخلافة » .   (٢) ا : « ذلك » .

الله غيرَه ، فنفذ مراد الله تعالى ولم ينفذ مرادُ رسوله ، أوَ كلَّما أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم كان ! إنّه أرادَ إسلامَ عمّه ولم يُرِدْه الله فلم يسلمْ !

وقد رُوِى معنى هذا الخبر بغير هذا اللفظ ، وهو قوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يذكره للأمر فى مرَضِه ، فصددتُه عنه خوفا من الفتنة ، وانتشار أمر الإسلام ، فعلم رسول الله مافى نفسى وأمسك ، وأبى الله إلا إمضاء ما حتم .

* * *

وحدثنى الحسين بن محمد السينىّ ، قال : قرأتُ على ظهر كتاب ، أنّ عمر نزلت به نازلة ، فقام لها وقعد ، وترنّح لها وتقطّر[١] ، وقال لمن عنده : معشرَ الحاضرين ، ما تقولون فى هذا الأمر ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمنزع ، فغضب وقال : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾[٢] ، ثم قال : أما والله إنى وإيّاكم لنعلم ابن بَجْدَتِها والخبيرَ بها ، قالوا : كأنّك أردت ابن أبى طالب ! قال : وأنّى يعدَل بى عنه ، وهل طفحت حرّة مثله ! قالوا : فلو دعوتَ به يا أمير المؤمنين ! قال : هيهات ! إنّ هناك شمَخا من هاشم ، وأثَرةً من علم ، ولحمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُؤتَى ولا يأتِى ، فامضو بنا إليه . فانقصَفُوا نحوه[٣] وأفْضَوْا إليه ، فألفَوْه فى حائط له ، عليه تُبّان[٤] ، وهو يتركّل[٥] على مسحاته ، ويقرأ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾[٦] إلى آخر السورة ، ودموعه تهمِى على خدّيه ، فأجهش النّاس لبكائه فبكوْا ، ثمّ سكت وسكتوا ، فسأله عمر عن تلك الواقعة فأصدرَ جوابها ، فقال عمر : أما

---

(١) تقطر : شمخ برأسه كبراً .
(٢) سورة الأحزاب ٧٠ .
(٣) انقصفوا نحوه : اجتمعوا .
(٤) التبان : سراويل صغير .
(٥) يتركل على مسحاته : أى يضربها برجله لتغيب فى الأرض . والمسحاة : ما يسحى به الطين عن الأرض ؛ أى يجرف .
(٦) سورة القيامة ٣٦ .

والله لقد أرادك الحقّ ، ولكن أبى قومُك ، فقال : يا أبا حفص ، خَفِّضْ عليك من هنا ومن هنا ﴿ إنّ يَوْمَ الفَصْلِ كان مِيقَاتاً ﴾[1] ، فوضع عمر إحْدَى يديْه على الأخرى ، وأطرق إلى الأرض ، وخرج كأنما ينظر فى رماد .

قلت : أجدر بهذا الخبر أن يكون موضوعا ، وفيه ما يدلُّ على ذلك ، من كَوْنِ عمر أتى عليا يستفتيه فى المسألة ، والأخبار كثيرة بأنّه ما زال يدعوه إلى منزله وإلى المسجد ، وأيضاً فإنّ عليا لم يخاطب عمر منذ وَلِىَ الخلافة بالكُنْية ، وإنما كان يخاطبه بإمرة المؤمنين ، هكذا تنطق كتب الحديث وكتب السِّيَر والتواريخ كلّها .

وأيضاً فإنّ هذا الخبر لم يُسْنَد إلى كتاب معيّن ، ولا إلى راوٍ معيّن ، بل ذكر ذلك أنه قرأه على ظهر كتاب ، فيكون مجهولا ، والحديث المجهول غيرُ الصحيح .

فأمّا ثناء عمر على أمير المؤمنين فصحيحٌ غيرُ منكَرٍ ، وفى الروايات منه الكثير الواسع ، ولكنا أنكرنا هذا الخبر بعينه خاصة ، وقد روى عن ابن عباس أيضاً ، قال : دخلتُ على عمرَ يوماً فقال : يابن العباس ، لقد أجهدَ هذا الرّجلُ نفسَه فى العبادة حتى نحلته ، رياء . قلت : مَنْ هو ؟ فقال : هذا ابنُ عمّك — يعنى عليا — قلت : وما يقصد بالرّياء أميرَ المؤمنين ؟ قال : يرشّح نفسَه بين الناس للخلافة ، قلت : ومايصنع بالتّرْشيح ! قد رشّحه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصُرِفَتْ عنه . قال : إنّه كان شابًّا حَدَثاً ، فاستصغرتِ العرب سنَّه ، وقد كَمَل الآن ، ألم تعلم أنّ الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلا بعد الأربعين ! قلت : يا أمير المؤمنين ، أمّا أهلُ الحجى والنُّهى فإنهم ما زالوا يعدُّونه كاملا منذ رفع الله منارَ الإسلام ، ولكنّهم يعدونه محروماً مَجْدوداً ، فقال : أما إنه سيليها بعد هِياط ومِياط[2] ، ثم تزلّ فيها قدمه ، ولا يقضى منها أرَبه ، ولتكونَنّ شاهدا ذلك يا عبد الله ، ثم يتبيّن الصُّبح لذى عينين ، وتعلم العرب صحّة رأى المهاجرين الأوّلين

(١) سورة النبأ ١٧ .

(٢) فى اللسان ، عن اللحيانى : « الهياط : الإقبال ، والمياط الإدبار » . وقال غيره : « الهياط : اجتماع الناس للصلح ، والمياط : التفرق عن ذلك » .

الّذِينَ صرفوها عنه بادئ بدء ؛ فليتنى أراكم بعدى يا عبد الله ! إنّ الحِرْص محرَمة ، وإنّ دُنياك كظلّك ، كلّما هممت به ازداد عنك بعدا .

نقلت هذا الخبر من " أمالى أبى جعفر محمد بن حبيب " ، رحمه الله .

ونقلتُ منه أيضاً ما رواه عن ابن عبّاس ، قال : تبرّم عمرُ بالخلافة فى آخر أيامه ، وخاف العجز ، وضجِر من سياسة الرعيّة ، فكان لا يزال يدعو الله بأن يتوفّاه . فقال لكعب الأحبار يوما وأنا عنده : إنّى قد أحببتُ أن أعهد إلى مَنْ يقوم بهذا الأمر ؛ وأظنّ وفاتى قد دنتْ ، فما تقول فى علىّ ؟ أشِرْ علىّ فى رأيك واذْكرْنى ما تجدونه عندكم ، فإنّكم تزعمون أنّ أمرَنا هذا مسطورٌ فى كتبكم ، فقال : أما من طريق الرأى فإنّه لا يصلح ؛ إنه رجل متين الدّين ، لا يُغضى على عَوْرة ، ولا يحلُم عن زلّة ، ولا يعمل باجتهاد رأيه ، وليس هذا من سياسة الرعيّة فى شىء ، وأمّا ما نجدُه فى كتبنا فنجده لا يلِى الأمر ولا ولدُه ، وإن وليَه كان هَرْجٌ شديد ، قال : كيف ذاك ؟ قال : لأنه أراق الدماء ، فحرمه الله الملك . إن داود لما أراد أن يبنىَ حيطان بيت المقدس أوْحَى الله إليه : إنك لا تبنيه ، لأنك أرقت الدماء ، وإنما يبنيه سليمان . فقال عمر : أليس بحقٍّ أراقها ؟ قال كعب : وداود بحقّ أراقها يا أميرَ المؤمنين . قال : فإلى مَنْ يُفضى الأمر تجدونه عندكم ؟ قال : نجدُه ينتقل بعد صاحب الشريعة والاثنين من أصحابه ، إلى أعدائه الّذِين حاربهم وحاربوه ، وحاربهم علَى الدّين . فاسترجع عمر مرارا ، وقال : أتسمع يابنَ عباس ! أما والله لقد سمعتُ من رسول الله ما يشابه هذا ، سمعته يقول : « ليصعدَنّ بنو أميّة على مِنْبَرِى ، ولقد أُريتهم فى منامى ينزون عليه نَزْوَ القردة » . وفيهم أُنزل : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ﴾[1] .

***

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

وقد روى الزبير بن بكار فى " الموفّقيّات " ما يناسب هذا عن المغيرة بن شعبة ، قال : قال لى عمر يوما : يا مغيرةُ ، هل أبصرتَ بهذه عينك العوراء منذ أصيبتْ ؟ قلت : لا ، قال : أما والله ليُعْوِرَنّ بنو أميّة الإسلام كما أعْوِرَتْ عينك هذه ، ثم ليُعميَنّه حتى لا يدرى أين يذهب ولا أين يجىء ؟ قلت : ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟ قال : ثم يبعث الله تعالى بعْد مائة وأربعين أو بعد مائة وثلاثين وفداً كوفد الملوك ، طيّبة ريحهم ، يعيدون إلى الإسلام بصَره وشتاته . قلت : مَنْ هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : حجازىّ وعراقىّ ، وقليلا ما كان ، وقليلا ما دام .

***

وروى أبو بكر الأنبارىّ فى " أماليه " أنّ عليًّا عليه السلام جلَس إلى عمر فى المسجد ، وعنده ناس ، فلمّا قام عرض واحد بذكره ، ونسبه إلى التّيه والعُجْب ، فقال عمر : حقّ لمثله أن يتيه ! والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام ، وهو بعدُ أقضَى الأمّة وذو سابقتها وذو شرَفها ؛ فقال له ذلك القائل : فما منعكم يا أميرَ المؤمنين عنه ؟ قال : كرهناهُ على حداثة السّن وحبّه بنى عبد المطب .

***

قلت : سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد ــ وقد قرأت عليه هذه الأخبار ــ فقلت له : ما أراها إلّا تكاد تكون دالّةً على النصّ ، ولكنى أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على شخص بعينه ، كما استبعدنا من الصحابة على رد نصّه على الكعبة وشهر رمضان وغيرهما من معالم الدّين ، فقال لى رحمه الله : أبيتَ إلّا مَيلاً إلى المعتزلة ! ثم قال : إن القوم لم يكونوا يذهبون فى الخلافة إلى أنّها من معالم الدين ، وأنّها جارية مجرى العبادات الشرعية ، كالصلاة والصوم ، ولكنهم كانوا يُجرونها مجرى الأمور الدنيويّة ، ويذهبون لهذا[1] ، مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعيّة ، وما كانوا يبالون فى أمثال هذا من مخالفة نصوصه صلى الله عليه وآله إذا رأوا المصلحة فى

(١) ا : « هذا » .

غيرها ؛ ألا تراه كيف نصّ على إخراج أبى بكر وعمر فى جيش أسامة ، ولم يخرُجا لمّا رأيا أنّ فى مقامهما مصلحةً للدولة[1] وللملّة ، وحفظا للبيْضة ، ودفعاً للفتنة ، وقد كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله يخالَف وهو حىّ فى أمثال ذلك فلا ينكره ، ولا يرى به بأسا . ألستَ تعلم أنّه نزَل فى غزاة بدرٍ منزلًا على أن يحارب قريشاً فيه ، فخالفته الأنصار وقالت له : ليس الرّأىُ فى نزولك هذا المنزل فاتركه ، وانزل فى منزَل كذا ، فرجع إلى آرائهم ! وهو الذى قال للأنصار عام قَدِم إلى المدينة : « لا تُؤَبِّروا النخل » ، فعملوا على قوله فحالت نخلهم فى تلك السنة ولم تُثْمِر حتى قال لهم : « أنتم أعرف بأمر دنياكم وأنا أعرف بأمر دينِكم » ، وهو الّذِى أخذ الفِدَاء من أسارى بدْر ، فخالفه عمر ، فرجع إلى تصويب رأيه بعد أن فات الأمر وخلَص الأسرى ورجعوا إلى مكّة ، وهو الذى أراد أن يصالح الأحزاب على ثُلث تَمْر المدينة ليرجعوا عنه ، فأتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فخالفاه ، فرجع إلى قولهما ، وقد كان قال لأبى هريرة : اخرُج فناد فى الناس : « من قال لا إله إلا الله مخلصا بها قلبه دخل الجنة » ، فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك فدفعه فى صدره ، حتى وقع على الأرض ، فقال : لا تقلْها ، فإنّك إنْ تقلْها يتّكلوا عليها ، ويدَعُوا العمل ، فأخبر أبو هريرة رسولَ الله صلى الله عليه وآله بذلك ، فقال : « لا تقلها وخلّهم يعملون » ، فرجع إلى قول عمر !

وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحدا على ترك كثير من النّصوص لمّا رأوا المصلحة فى ذلك ، كإسقاطهم سهم ذوى القربى وإسقاط سهم المؤلّفة قلوبهم ، وهذان الأمران أدخلُ فى باب الدّين منهما فى باب الدنيا ، وقد عملوا بآرائهم أمورا لم يكن لها ذكْرٌ فى الكتاب[2] والسنّة ، كحدّ الخمر فإنّهم عملوه اجتهادا ، ولم يحدّ رسول الله صلى الله عليه وآله شاربى الخمر ، وقد شربها الجمّ الغفير فى زمانه بعد نزول آية التحريم ، ولقد كان أوصاهم فى مرضه

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « لله » .　　(٢) ساقطة من : ب .

أن أخرِجوا نصارى نجْرانَ من جزيرة العرب فلم يخرجوهم ، حتى مضى صدرٌ من خلافة عمر، وعملوا فى أيام أبى بكر برأيهم فى ذلك باستصلاحهم ، وهم الذين هدموا المسجد بالمدينة، وحوّلوا المقام بمكّة ، وعمِلوا بمقتضى مايغلب فى ظنونهم من المصلحة ، ولم يقِفُوا مع موارد النصوص ، حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعـدُ ، فرجّح كثير منهم القياس على النّصّ ، حتى استحالت الشريعة ، وصار أصحاب القياس أصحابَ شريعة جديدة .

قال النقيب: وأكثر مايعملون بآرائهم، فيما يجرى مَجْرى الولاياتِ والتّأميروالتّدبير وتقرير قواعد الدّولة ، وما كانوا يقفون مع نصوص الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيراته إذا رأوا المصلحة فى خلافها ، كأنّهم كانوا يقيّدون نصوصه المطلقة بقيْد غير مذكور لفظا، وكأنّهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله ، وتقدير ذلك القيـد : « افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة » .

قال : وأمّـا مخالفتهم له فيما هو محض الشّرع والدّين ، وليس بمتعلّق بأُمور الدنيا وتدبيراتها ،فإنه يقلُّ جدًّا ، نحو أن يقول: « الوضوء شرط فى الصلاة »، فيجمعوا على ردّ ذلك ويجيزوا الصلاة من غير وضوء ، أو يقول: «صوْم شهر رمضان واجب»،فيطبِقوا على مخالفة ذلك ويجعلوا شوّالًا عَوضا عنه ،فإنه بعيد ، إذ لاغرض لهم فيه ، ولا يقدِرون على إظهار مصلحة عثروا عليها خَفِيَتْ عنه صلى الله عليه وآله. والقوم الذين كانوا قد غلب على ظنونهم أنّ العرب لاتطيع عليًّا عليـه السلام ، فبعضها للحسَد ، وبعضها للوتْر والثأر ، وبعضها لاستحداثهم سِنّه ،وبعضها لاستطالته عليهم ورفعه عنهم ، وبعضها كراهة اجتماع النبوّة والخلافة فى بيت واحدٍ ، وبعضها للخوف من شدّة وطأته وشدّته فى دين الله ، وبعضها خوفا لرجاء تداوُلِ قبائل العرب الخلافة إذا لم يقتصَر بها على بيت مخصوص عليه، فيكون رجاء كل حىّ لوصولهم إليها ثابتا مستمرًّا ، وبعضها ببغضه ، لبغضهم من قرابته

لرسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهم المنافقون من النّاس، ومَنْ فى قلبه زيغٌ من أمر النبوّة ـ فأصفق الكلّ إصفاقاً واحداً على صرفِ الأمر عنه لغيره، وقال رؤساؤهم : إنّا خفنا الفتنة ، وعلمنا أنّ العربَ لا تطيعه ولا تتركه ، وتأوّلوا عند أنفسهم النصّ ، ولا ينكر النصّ ، وقالوا : إنه النصّ ، ولكنّ الحاضر يرَى مالا يرى الغائب ، والغائب قد يُترك لأجل المصلحة الكليّة، وأعانهم عَلَى ذلك مسارعةُ الأنصار إلى ادّعائهم الأمرَ، وإخراجهم سعد بن عُبادة من بيته وهو مريض ، لينصِّبوه خليفة ـ فيما زعموا ـ واختلط الناس ، وكثر الخَبْط، وكادت الفتنة أن تشتعِل[1] نارُها ، فوثب رؤساء المهاجرين، فبايعوا أبا بكر وكانت فَلْتة ـ كما قال قائلهم ـ وزعموا أنّهم أطفئوا بها نائرة الأنصار ، فمن سكت من المسلمين ، وأغضى ولم يتمرّض ، فقد كفاهم أمرَ نفسه ، ومن قال سرًّا أو جهرا : إنّ فلانا قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذكَره، أو نصّ عليه أو أشار إليه، أسكتوه فى الجواب؛ بأنّا بادرنا إلى عَقْد البيعة مخافة الفتنة ، واعتذروا عنده ببعض ماتقدّم ، إمّا أنّه حديث السنّ أو تبغِضه العرب، لأنه وترها وسفك دماءها ، أو لأنه صاحب زَهْوٍ وتيهٍ ، أو كيف تجتمع النبوّة والخلافة فى مغرِس واحد ! بل قد قالوا فى العذر ماهو أقوى من هذا وأوكد، قالوا : أبو بكر أقوَى على هذا الأمر منه ، لا سيما وعمر يعضُده ويساعده ، والعرب تحبّ أبا بكر ويعجبها لينُه ورفقه ، وهو شيخ مجرِّب للأمور لا يحسده أحدٌ ، ولا يحقد عليه أحد ، ولا يبغِضه أحد ، وليس بذى شرف فى النّسب فيشمَخ على النّاس بشرفه، ولا بذى قُربى من الرّسول صلى الله عليه وآله فيدِلّ بقربه ، ودعْ ذا كلّه ، فإنه فضل مستغنًى عنه. قالوا: لو نصبنا عليًّا عليه السلام، ارتد النّاس عن الإسلام وعادت الجاهليّة كما كانت، فأيّما أصلح فى الدين ؟ الوقوف مع النصّ المفضِى إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهليّة أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدّين ، وإن كان فيه مخالفة النصّ !

---

(١) ا : « يضطرم » .

قال رحمه الله : وسكت الناس عن الإنكار ، فإنّهم كانوا متفرّقين ، فمنهم من هو مبغض شانئ لعليّ عليه السلام ، فالذى تمّ من صرف الأمر عنه هو قرّة عينه ، وبَرْد فؤاده ، ومنهم ذو الدّين وصحّة اليقين ، إلّا أنه لمّا رأى كُبَراء الصحابة قد اتّفقوا على صرف الأمر عنه، ظنّ أنهم إنّما فعلوا ذلك لنصٍّ سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله ينسخ ما قد كان سمعه من النصّ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام ، لا سيّما مارواه أبو بكر من قول النبى صلى الله عليه وآله : « الأئمة من قريش » ، فإنّ كثيرا من الناس توهّموا أنّه ناسخٌ للنصّ الخاصّ ، وأنّ معنى الخبر أنّكم مباحون فى نصْب إمامٍ من قريش ، من أىّ بطون قريش كان ، فإنّه يكون إماما .

وأكّد أيضا فى نفوسهم رفضَ النصّ الخاصّ ماسمعوه من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن »، وقوله عليه السلام : « سألت الله ألّا يجمع أمّتى على ضلال ، فأعطانيها ، فأحسِنوا الظنّ بعاقدى البيعة » .

وقالوا : هؤلاء أعرف بأغراض رسول الله صلى الله عليه وآله من كلّ أحدٍ ، فأَمسكوا وكفّوا عن الإنكار، ومنهم فرقة أخرى — وهم الأكثرون — أعراب وجُفاة، وطَغام أتباعُ كلّ ناعق ، يميلون مع كلّ ريح ، فهؤلاء مقلّدون لا يسألون ولا ينكرون ، ولا يبحثون ، وهم مع أمرائهم وولاتهم، لو أسقطوا عنهم الصلاة الواجبة لتركوها، فلذلك أُمحِق النصّ ، وخفى ودَرَس، وقويَت كلمة العاقدين لبيعة أبى بكر ، وقوّاها زيادة على ذلك اشتغالُ علىّ وبنى هاشم برسول الله صلى الله عليه وآله ، وإغلاقُ بابهم عليهم ، وتخليتهم الناسَ يعملون ماشاءوا وأحبّوا ، من غير مشاركة لهم فيما هم فيه، لكنّهم أرادوا استدراكَ ذلك بعد ما فات ، وهيهات الفائت لا رجعة له !

وأراد علىّ عليه السلام بعد ذلك نقْضَ البيعة، فلم يتمّ له ذلك ، وكانت العرب لا ترى

الغَدْر ،ولا تنقض البيعة صوابا كانت أو خطأ ، وقد قالت له الأنصاروغيرها:أيّها الرجل، لو دعوتَنا إلى نفسك قبل البَيْعة لما عدَلنا بك أحداً ، ولكنّا قد بايعنا ، فكيف السبيل إلى نقض البيعة بعد وقوعها !

* * *

قال النقيب : وممّا جرّأ عمرعلى بيعة أبي بكر والعدول عن عليّ — معما كان يسمعه من الرّسول صلى الله عليه وآله في أمره — أنّه أنكر مراراً عَلَى الرسول صلى الله عليه وآله أموراً اعتمدها فلم ينكِر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله إنكارَه ، بل رجع في كثير منها إليه ، وأشارعليه بأمور كثيرة نزل القرآن فيها بموافقته، فأطمعه ذلك في الإقدام عَلَى اعتماد كثير من الأمور التي كان يرى فيها المصلحة ، ممّا هي خلاف النصّ ، وذلك نحو إنكاره عليه في الصّلاة عَلَى عبد الله بن أُبيّ المنافق ، وإنكاره فداء أسارى بدْر ، وإنكاره عليه تبرّجَ نسائه للناس ، وإنكاره قضية الحديبيَة ، وإنكاره أمانَ العبّاس لأبي سفيان ابن حرب ، وإنكاره واقعة أبي حُـذيفة بن عتبة ، وإنكاره أمره بالنداء : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ، وإنكاره أمره بذبح النّواضح ، وإنكاره عَلَى النّساء بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله هيبتهنّ له دون رسول الله صلى الله عليه وآله ... إلى غير ذلك من أمور كثيرة تشتمِلُ عليها كتبُ الحديث ، ولو لم يكن إلّا إنكاره قول رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه :«ائتوني بدَواة وكَتِفٍ أكتبْ لكم مالا تضلّون بعدي»، وقوله ماقال، وسكوت رسول الله صلى الله عليه وآله عنه . وأعجب الأشياء أنّه قال ذلك اليوم : حسبنا كتاب الله ، فافترق الحاضرون من المسلمين في الدّار ، فبعضهم ، يقول : القول ماقال رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبعضهم يقول : القول ماقال عمر ، فقال رسول الله وقد كثر اللّغط ،وعلت الأصوات : «قوموا عنّي فما ينبغي لنبيّ أن يكون عنده هذا التنازع»! فهل بقي للنبوّة مزيّة أو فضل إذا كان الاختلاف قد وقع بين القولين ،وميّل

المسلمون بينهما ، فرجّح قوم هذا ، وقوم هذا ! فليس ذلك دالًّا على أن القوم سوّوا بينه وبين عمر ، وجعلوا القولين مسألة خلاف ، ذهب كلّ فريق إلى نصرة واحد منهما ، كما يختلف اثنان من عُرْض المسلمين فى بعض الأحكام ، فينصر قوم هذا وينصر ذاك آخرون ، فمن بلغت قوّته وهمّته إلى هذا ، كيف ينكر منه أنّه يبايع أبا بكر لمصلحة رآها ، ويعدل عن النصّ ! ومَن الذى كان ينكر عليه ذلك ، وهو فى القول الذى قاله للرسول صلى الله عليه وآله فى وجهه غير خائف من الأنصار ، ولا ينكر عليه أحدٌ ، لا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غيره ، وهو أشدّ من مخالفة النصّ فى الخلافة وأفظع وأشنع .

قال النقيب : على أنّ الرجل ما أهمل أمر نفسه ، بل أعدّ أعذاراً وأجوبة ، وذلك لأنه قال لقوم عرّضوا له بحديث النص: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر فى الصلاة مقامه ، وأوهمهم أنّ ذلك جارٍ مجرى النصّ عليه بالخلافة، وقال يوم السقيفة : أيّكم يطيب نفسا أن يتقدّم قدَمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى الصلاة ! ثم أكّد ذلك بأن قال لأبى بكر ، وقد عرض عليه البيعة : أنت صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى المواطن كلها ، شدّتها ورخائها ، رضيَك لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا!

ثم عاب عليًّا بخطبته بنت أبى جهل ، فأوهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كرهه لذلك ووجَد عليه ، وأرضاه عمرو بن العاص ، فروى حديثا افتعله واختلقه على رسول الله ، قال سمعته يقول : «إنّ آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء ، إنّما وليّيَ الله وصالح المؤمنين» ، فجعلوا ذلك كالناسخ لقوله صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فهذا مولاه » .

قلت للنقيب : أيصح النّسخ فى مثل هذا ؟ أليس هذا نسخاً للشىء قبل تقضّى وقت فعله ؟ فقال : سبحان الله ! مِن أينَ تعرف العرب هذا ؟ وأنّى لها أن تتصوّره فضلا عن أنه تحكم بعدم جوازه ! فهل يفهم حُذّاق الأصوليّين هذه المسألة ، فضلاً عن حَمْقى العرب ! هؤلاء قوم ينخدعون بأدنى شبهة ، ويُستمالون بأضعف[1] سبب ، و تُبنَى الأمور معهم على ظواهر

(١) ا : « بأدنى » .

النصوص وأوائل الأدلة ، وهم أصحاب جهل وتقليد ، لا أصحاب تفضيل ونظر !

قال : ثم أكّد حسنَ ظنّ الناس بهم أنّهم أطلقوا أنفسهم عن الأموال، وزهِدوا فى متاع الدنيا وزخرفها ، وسلكوا مسلك الرّفض لزينتها ، والرغبة عنها والقناعة بالطّفيف النّزْر منها ، وأكلوا الخشِن ، ولبسوا الكرابيس ، ولمّا ألقت إليهم الدنيا أفلاذ كبدها، وفرّقوا الأموال على الناس، وقسّموها بينهم، ولم يتدنّسوا منها بقليل ولا كثير، فمالت إليهم القلوب ، وأحبّتهم النفوس ، وحسُنت فيهم الظنون ، وقال من كان فى نفسه شبهة منهم، أو وقفة فى أمرهم : لو كان هؤلاء قد خالفوا النصّ لهوى أنفسهم لكانوا أهلَ الدنيا ، ولظهر عليهم الميل إليها ، والرغبة فيها، والاستئثار بها . وكيف يَجمعون على أنفسهم مخالفة النصّ ، وترك لذات الدنيا ومآربها، فيخسروا الدنيا والآخرة ! وهذا لا يفعله عاقل، والقوم عقلاء ذوو ألباب وآراء صحيحة ؛ فلم يبق عند أحدٍ شكٌّ فى أمرهم ولا ارتياب لفعلهم ، وثبتت العقائد على ولايتهم ، وتصويب أفعالهم ، ونسوا لذّة الرياسة ، وإن أصحاب الهِمم العالية لا يلتفون إلى المآكل والمشرب والمنكح ، وإنما يريدون الرياسة ونفوذ الأمر ، كما قال الشاعر :

وقد رغبَتْ عن لَذّة المال أنفسٌ ... وما رغبت عن لذّة النّهى والأمرِ

قال رحمه الله : والفرق بين الرجلين وبين الثالث ، ما أُصِيب به الثالث ، وقُتل تلك القِتْلة، وخلَعه الناس وحَصَروه ، وضيّقوا عليه، بعد أن توالَى إنكارهم أفعالَه ، وجبّهوه فى وجهه وفسّقوه ، وذلك لأنّه استأثر هو وأهله بالأموال ، وانغمسوا فيها واستبدُّوا بها ، فكانت طريقته وطريقتهم مخالفةً لطريق الأولين ، فلم تصبر العرب على ذلك ، ولو كان عثمان سلك طريق عمر فى الزهد ، وجمع الناس، وردَع الأمراء والولاة عن الأموال، وتجنّب استعمال أهل بيته ، ووفّر أعراض الدّنيا وملاذّها وشهواتها على الناس ، زاهداً فيها، تاركا لها ، معرِضاً عنها ، لما ضرّه شىء قطّ ، ولا أنكر عليه أحد قطّ ، ولو حوّل الصلاة من

الـكعبة إلى بيت المقدس ، بل لو أسقط عن الناس إحدى الصلوات الخمس ، واقتنع منهم بأربع، وذلك لأنّ همم الناس مصروفة إلى الدنيا والأموال، فإذا وجدوها سكتوا، وإذا فقدوها هاجوا واضطربوا ، ألست ترى رسول الله صلى الله عليه وآله كيف قسّم غنائم هوازن على المنافقين ، وعلى أعدائه الذين يتمنّون قتله وموته، وزوال دولته ، فلمّا أعطاهم أحبّوه، إمّا كلّهم أو أكثرهم، ومَنْ لم يحبّه منهم بقلبه جامله وداراه ، وكفّ عن إظهار عداوته، والإجلاب عليه ولو أنّ عليا صانع أصحابه بالمـال ، وأعطاه الوجوه والرؤساء ، لـكان أمره إلى الانتظام والاطّراد أقربَ ، ولـكنه رفض جانبَ التدبير الدنيوى ، وآثر لزومَ الدّين ، وتمسّك بأحكام الشريعة ، والمُلْك أمر آخر غير الدين ، فاضطرب عليه أصحابه ، وهرب كثير منهم إلى عدوّه .

وقد ذكرت فى هذا الفصل خلاصة ماحفظته عن النقيب أبى جعفر ، ولم يكن إماميَّ المذهب ، ولا كان يبرأ من السَّلَف، ولا يرتضى قول المسرِفين من الشيعة ، ولـكنه كلام أجراه على لسانه البحثُ والجدل بينى وبينه ، على أن العلوىّ لو كان كرّاميًّا ، لابدّ أن يكون عنده نوعٌ من تعصّب وميل على الصحابة وإن قلّ .

* * *

ولنرجع إلى ذكر كلام عمر من خطبته وسيرته .

كتب عمر إلى أبى موسى ، لمّا استعمله قاضياً ، وبعثه إلى العراق :

من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى عبد الله بن قَيْس . سلام عليك ، أمّا بعدُ ، فإنّ القضاء فريضـة محـكمة وسنّة متبعـة ، فافهم إذا أُدْلِىَ إليك ، فإنه لا ينفع تـكلُّم بحقٍّ لا نفادَ له . آسِ [1] بين الناس فى وَجْهك وعدلِك ومجلِسك ، حتى لا يطمَع شريفٌ فى

(١) قال أبو العباس المبرد : « قوله : آس بين النـاس فى وجهك وعدلك ومجلسك ؛ أى سو بينهم ، وتقديره : اجعل بعضهم أسوة بعض » .

حيفك[1]، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عَدْلك . البيّنة علَى مَن ادّعى واليمين على مَنْ أنكر، والصُّلح جائز بين المسلمين ، إلّا صُلحاً أحلّ حراما ، أو حرّم حلالًا . لا يمنعنّك قضاء قضيته اليومَ فراجعت فيه عقلَك ، وهُديتَ فيه لرشدِك ، أن ترجعَ إلى الحقّ ، فإنّ الحقّ قديم ، ومراجعةُ الحق خيْرٌ من التمادِى فى الباطل . الفهمَ الفهمَ فيما تلجْلَج[2] فى صدرك ممّا ليس فى كتابٍ ولا سنّة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقِسِ الأمور عند ذلك ، واعمِدْ إلى أقربها إلى الله عزّ وجلّ ، وأشبهِها بالحقّ ، واجعل لمن ادّعى حقا غائباً أو بيّنة أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذتَ له بحقّه ، وإلّا استحْلَلْتَ عليه القضيّة ، فإنه أنْفَى للشكّ وأجْلَى للعمى . المسلمون عدولٌ بعضُهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حدّ أو مجرّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً[3] فى ولاء أو نسب ، فإنّ الله عزّ وجلّ تولّى منكم السرائر ، ودَرَأَ عنكم[4] بالبيّنات والأيمان الشُّبُهات . إيّاكَ والغَلَقَ[5] والضّجَرَ والتأذّىَ بالخصوم ، والتنكّرَ عند الخصومات ، فإنّ الحقّ فى مواطن الحقّ يُعظِم الله به الأجر ، ويحسن به الذّخر ، فمن صحّت نيّته ، وأقبَلَ على نفسه كفاه الله ما بينَهُ وبين الناس ، ومَنْ تخلّق للنّاس بما يعلم الله عزّ وجلّ منه أنّه ليس من نفسِه ، شانَهُ الله ، فما ظنُّك بثواب الله فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ! والسلام .

ذكر هذه الرّسالة أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب "الكامل[6]" وأطراها ، فقال : إنه جمع فيها جُمَل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتّخذونه ، إماما فلا يجد مُحقٌّ عنها مَعْدِلا ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً .

* * *

(١) حيفك : ميلك.
(٢) تلجلج : تردد .
(٣) الظنين : المتهم .
(٤) درأ بالبينات : دفع .
(٥) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر .
(٦) الكامل ١ : ١٢ ـ ١٤ (طبعة نهضة مصر) .

وكتب عمرُ إلى عمّاله يُوصيهم ، فقال في جملة الكتاب: ارتدُوا ، وائتزرُوا، وانتعلوا وألقوا الخفاف والسّراويلات والقوا الركب[1]، وانزُوا نزواً على الخيل، واخشوشنوا، وعليكم بالمعدّية ـ أو قال: وتمعددوا ـ وارموا الأغراض، وعلّموا فتيانكم العوْم والرّماية، وذَرُوا التّنعم وزيّ العجم، وإيّاكم والحريرَ ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عنه، وقال: « لاتلبسوا من الحرير إلا ما كان هكذا » ، وأشار بأصبعه .

***

وكتب إلى بعض عماله : إنّ أسعد الرُّعاة مَنْ سعدت به رعيّته ، وإنّ أشقى الرُّعاة من شَقِيتْ به رعيّته، فإياك أن تَزِيغ فتزيغ رعيّتك ، فيكون مَثَلُك عندَ الله مثلَ البهيمة رأت الخُضْرة في الأرض فرعتْ فيها تبغي السِّمَن ، وحتْفُها في سِمَنها .

***

وكتب إلى أبي موسى وهو بالبَصْرة : بلغَنِي أنَّك تأذَنْ للنّاس الجمّاء[2] الغفير، فإذا جاءك كتابي هذا فأْذَنْ لأهل الشرف وأهل القرآن والتّقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأْذَنْ للعامّة ، ولا تؤخّر عمل اليوم لغد ، فتتداكُّ عليك الأعمال فتضيع . وإيّاكَ واتّباعَ الهوى ، فإنّ للناس أهواءً متّبعة ، ودنيا مؤثرة ، وضغائن محمولة. وحاسب نفسَك في الرّخاء قبل حساب الشّدّة ، فإنّه مَنْ حاسب نفسَه في الرخاء قبل حساب الشدّة كان مرجعُه إلى الرضا والغِبْطة ، ومن ألهتْه حياته ، وشغلتْه أهواؤه ، عاد أمرُه إلى النّدامة والحَسْرة ، إنّه لايقيم أمر الله في النـاس إلا خَصِيف العُقْدة[3] بعيـد القرارة لايحنق على جِرّة ، ولايطلع الناس منه على عورة، ولايخاف في الحق لومة لائم . الزم أربع خصال يسلْم لك دينك وتحيط بأفضل حظّك: إذا حضر الخصمان فعليك بالبيّنات العُدول والأيمان القاطعة، ثم ائذن

(١) الركب : جمع ركاب ؛ وهو للسرج كالغرز للرحل .
(٢) أي القوم مجتمعين . (٣) أي الذي يحكم أمره .

للضّعيف حتى ينبسط لسانُه ، ويجترئ قلبه ، وتعاهد الغَريب ، فإنه إذا طال حبسُه ترك حاجته وانصرف إلى أهله ، واحرص على الصُّلْح مالم يبن لك القضاء ، والسلام عليك .

* * *

وكان رجلٌ من الأنصار لا يزال يهدى لعمر فخِذَ جزور إلى أن جاء ذات يوم مع خَصْم له،فجعل فى أثناء الكلام يقول : ياأميرَ المؤمنين،افصِل القضاء بينى وبينه كما يفصل فَخِذ الجزور .

قال عمر : فما زال يردّدها حتى خِفت على نفسى.فقضيت عليه ، وكتبت إلى عمّالى: أمّا بعد،فإيّاكم والهدايا ، فإنها من الرِّشا . ثم لم أقبل له هديّة فيما بعد ، ولا لغيره .

* * *

وكان عمر يقول : اكتبوا عن الزاهدين فى الدنيا مايقولون،فإنّ الله عزّ وجلّ وكّل بهم ملائكة ، واضعة أيديَهم على أفواههم ، فلا يتكلّمون إلا بما هيّأه الله لهم .

* * *

وروى أبو جعفر الطبرىّ فى تاريخه ، قال : كان عمر يقولُ : جرّدُوا القرآن ولا تفسِّروه ، وأقلّوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا شريككم .

وقال أبو جعفر : وكان عمر إذا أراد أن ينهى النّاسَ عن شىء جمع أهله ، فقال : إنى عسِيت أن أَنْهَى النّاس عن كذا ، وإنّ الناس ينظرون إليكم نظر الطّير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجدُ أحداً منكم يفعل إلا أضعفت عليه العقوبة .

قال أبو جعفر :وكان عمر شديداً علىأهل الرّيَب،وفى حقّ الله،صليبا حتىيستخرجه، ولّينا سهلا فيما يلزمه حتى يؤدّيه ، وبالضعيف رحيما .

* * *

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه أنّ نفرا من المسلمين كلّموا عبد الرحمن بن عوف ، فقالوا : كلّمْ لنا عمر بن الخطاب ، فقد والله أخشانا حتى لانستطيع أن نديم إليه أبصارَنا ، فذكر عبدالرحمن له ذلك ، فقال : أو قد قالوا ذلك ! والله لقد لِنْتُ لهم حتى تخوّفت الله فى أمرهم ، وقد تشدّدت عليهم حتى خفت الله فى أمرهم ، وأنا والله أشدّ فرَقاً لله منهم لى !

***

وروى جابر بن عبدالله ، قال : قال رجلٌ لعمر : ياخليفةَ الله ،قال : خالف الله بك، قال : جعلنى الله فداك ! قال : إذن يهينك الله .

***

وروى أبو جعفر ، قال : استشار عمر فى أمر المال كيف يقسمه ، فقال له على بن أبى طالب عليه السلام:تقسِم كلّ سنة مااجتمع معك من المال،ولا تمسِكْ منه شيئاً،وقال عثمان ابن عفان : أرى مالًا كثيرا يسعُ الناس،وإن لم يُحْصَوْا حتى يعرفَ من أخذ ممّن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر . فقال الوليد بن هشام بن المغيرة : ياأميرَ المؤمنين ، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً، وجنّدوا جنودا ، وفرضوا لهم أرزاقا . فأخذ بقوله؛ فدعا عَقِيل بن أبى طالب ومَخْرمة بن نَوْفل وجُبير بن مطعِم –وكانوا نسّاب قريش– وقال: اكتبوا النّاس على منازلهم،فكتبوا فبدءوا ببنى هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه،ثم عمر وقومه،على ترتيب الخلافة ؛ فلما نظر إليه قال:وددت أنّه كان هكذا ، لكن أبدأ بقرابة النبى صلى الله عليه وآله ، الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمرَ حيث وضعه الله .

قال أبو جعفر : جاءت بنوعدىّ إلى عمر ، فقالوا له : ياعمر ، أنت خليفةُ رسول الله

صلى الله عليه وسلم . قال : أو خليفة أبى بكر ، وأبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وذاك ، فلو جعلت نفسَك حيث جعلك هؤلاء القوم ! فقال : بخ بخ يا بنى عدىّ ! أردتم الأَكْلَ على ظهرى ، وأنْ أذهِب حسناتى لكم ! لا والله ولو كتِبتم آخر الناس ، إنّ لى صاحبيْن سلكا طريقا ، فإن أنا خالفتُهما خُولف بى ، والله ما أدركنا الفضلَ فى الدنيا إلا بمحمد ، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا ، وقومه أشرف العرب ثم الأقرب منه فالأقرب ، وما بيننا وبين أن نلقاه ثم لا نفارقه إلى آدم إلّا آباء يسيرة ، والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عملٍ فإنّهم أولى بمحمد صلى الله عليه وآله منّا يوم القيامة . لا ينظرَنَّ رجلٌ إلى قَرابته ، وليعمل بما عند الله ؛ فإنّ مَنْ قصر به عمله لم يُسْرِع به نسبُه .

* * *

وروى السائب بن يزيد ، قال : سمعتُ عمر بن الخطاب ، يقول : واللهِ ما من أحدٍ إلا له فى هذا المال حقّ أعطيَه أو مُنِعه ، وما أحدٌ أحقّ به من أحدٍ إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلّا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله ، وقَسْمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيتُ ليأتينّ الراعى بجبل صَنْعاء ، حظُّه من المال وهو مكانه .

* * *

وروى نافع مولى آل الزُّبير ، قال : سمعتُ أبا هريرة يقول : رحم الله ابن حَنْتمة[١] ، لقد رأيته عامَ الرّمادة ، وإنّه لَيحمِلُ على ظهره جِرابين ، وعُكّة زيت فى يده ، وإنه ليعتقِب[٢] هو وأسلم ، فلما رآنى قال : مِن أين يا أبا هريرة ؟ قلت : قريبا ، فأخذت

(١) حنتمة ، بفتح الحاء ، أم عمر بن الخطاب ، وبنت عبد الرحمن بن الحارث (القاموس) .

(٢) يعتقب ؛ أى يركب هذا عقبة وهذا عقبة ، والعقبة : النوبة .

أعقِبُه ، فحملناه حتى انتهينا إلى ضرار فإذا صِرْم[1] من نحو عشرين بيتا من محارب ، فقال عمر : ما أقدمَكم ؟ قالوا : الجَهْد ، وأخرجوا لنا جِلْدَ الميتة مشويًّا كانوا يأكلونه ، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يستفّونها ، فرأيت عمر طرح رداءه ثم برز ، فما زال يطبخ لهم حتى شَبِعُوا ، وأرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبعِرة فحملهم عليها ، ثم أنزلهم الجَبّانة ، ثم كساهم ، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى كفى الله ذلك .

***

وروى راشد بن سعد أنّ عمر أُتِيَ بمال ، فجعل يقسِم بين الناس ، فازدحموا عليه ، فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلَص إليه ، فعلاه عمر بالدِّرة ، وقال : إنّك أقبلت ، لا تهابنّ سلطان الله فى الأرض ، فأحببتُ بأن أعلِمك أنّ سلطانَ الله لا يهابُك .

***

وقالت الشّفاء ابنة عبد الله — ورأت فتيانا من النّساك يقتصدون فى المشى ، ويتكلّمون رويدا : ما هؤلاء ؟ فقيل : نُسّاك ، فقالت كان عمرُ بن الخطّاب هو الناسك حقا ، وكان إذا تكلّم أسمَع ، وإذا مشى أسْرع ، وإذا ضرب أوْجَع .

***

أعان عمرُ رجلاً على حَمْلِ شىء ، فدعا له الرّجل ، وقال : نفعك بنوك يا أمير المؤمنين ! قال : بل أغنانى الله عنهم .

ومن كلامه : القوّة فى العمل ألاّ يؤخِّر عمل اليوم لغد ، والأمانة ألّا تخالف سريرتُك علانيتَك ، والتّقْوَى بالتوقّى ، ومن يتق الله يقِهِ .

---

(١) الصرم ، بالكسر : الجماعة .

وقال عمر : كنا نعد المُقرِض بخيلا ؛ إنما كانت المواساة .

* * *

أتى رهطٌ إلى عمر ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، كَثُر العيال ، واشتدّت المؤونة ، فزِدْنا فى أُعطياتِنا(١) ، فقال : فعلتموها ! جمعتم بين الضَّرائر ، واتخذتم الخدَم من مال الله ! أما وددت أنّى وإياكم فى سفينتين فى لُجّة البحر ، تذهب بنا شرقاً وغرباً ، فلن يعجز النّاسَ أن يولُّوا رجلاً منهم ، فإن استقام اتّبعوه ، وإن جَنَف قتلوه . فقال طلحة : وما عليك لو قلت : وإن اعوجّ عزلوه ! فقال : القتلُ أرهبُ لمن بعده ، احذروا فتى قريش ، فإنّه كريمها الذى لا ينام إلا على الرّضا ، ويضحك عند الغضب ، ويتناول ما فوقه من تحته .

* * *

وكان يقول فى آخر أيامه عند تبرّمه بالأمر وضَجَره من الرعيّة : اللهمّ ملّونى ومللتهم ، وأحسستُ من نفسى وأحسّوا منّى ! ولا أدرى بأيّنا يكون اللَّوْت(٢) ، وقد أعلم أنّ لهم قتيلا منهم فاقبضنى إليك .

* * *

وذكر قومٌ من الصّحابة لعمر رجلا ، فقالوا : فاضلٌ لا يعرف الشرّ ، قال : ذاك أوقع له فيه .

* * *

وروى الطبرىّ فى التاريخ ، أن عمرَ استعملَ عُتْبة بن أبى سفيان على عملٍ(٣) فقدِم منه بمال ، فقال له : ماهذا ياعتبة ؟ قال : مالٌ خرجت به معى وتجرت فيه ، قال : ومالك تُخرج المال معك إلى هذا الوجه ؟ فأخذ المال منه فصيّره فى بيت المال ، فلما قام عثمان قال لأبى سفيان :

(١) ب : إعطائنا » (٢) اللوت : النقص .
(٣) الطبرى : « على كنانة » .

إنّك إن طلبت ماأخذه عمر من عُتْبة رددتُه عليك[1] ، فقال له أبوسفيان : إيّاك وماهممتَ به ، إنّك إن خالفت صاحبك قبْلك ساء رأيُ الناس فيك . إياك أن تردّ على مَنْ كان قبْلك فيردّ عليكَ من بعدك[2] .

* * *

وروى الطبريّ أيضاً أنّ هندا بنت عتبة بن ربيعة قامت إلى عمر ، فسألته أن يُقرِضها من بيت المال أربعة آلاف درهم تتّجر فيها وتضمنها . فخرجت بها إلى بلاد كلب ، فباعت واشترت ، وبلغها أنّ أبا سفيان قد أتى معاوية يستميحه ومعه ابنة عمرو بن أبى سفيان ، فعدلت إليه من بلاد كلْب — وكان أبو سفيان قد طلّقها — فقال معاوية: ماأقدَمك يأمّــه ؟ قالت : النظر إليك يابنىّ ، إنه عمر ، وإنّما يعمل لله ، وقد أتاك أبوك فخشيت أن تُخرج إليه من كلّ شىء ، وأهلُ ذلك هو ! ولـكن لا يعلم عمر من أين أعطيتَه، فيؤنّبوك ويؤنّبك ، ولا تستقبلها أبدا . فبعث معاوية إلى أبيه وأخيه مائة دينار ، وكساهما وحملهما. فسخطها عمر ، فقال أبوسفيان : لا تسخطها ، فإنها عطاء لم تغب عنه هند ، ورجع هو وابنه إلى المدينة ، فسأله عمر : بكم أجازك معاوية ؟ فقال : بمائة دينار ، فسكت عمر[3] .

* * *

وروى الأحنف ، قال : أتى عبد الله بن عمير عمرَ ، وهو يُقرض الناس ، فقال: ياأميرَ المؤمنين ، أقرِضْ لى ، فلم يلتفت إليه ، فنخسه ، فقال عمر : حَسِّ[4] ، وأقبل عليه، فقال: مَنْ أنت ؟ فقــال : عبد الله بن عمــير — وكان أبوه استُشهِــدَ يوم حُنين — فقــال : يايَرْفأ ، أعطــه ستمائة ، فأعطــاه ستمائة فلم يقبلها ، ورجع إلى عمر فأخبره فقال : يايرفأ ، أعطــه

---

(١) الطبرى : « عليه »
(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٢٧٦٦ (طبع أوربا)
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ٢٧٦٧
(٤) حس : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما أمضه .

ستمائة حُلّة ، فأعطاه ، فلبس الحُلّة التى كساه عمر ، ورمى ما كان عليه ، فقال له : خذ ثيابك هذه ، فلتكن فى مِهْنَة أهلك ، وهذه لزينتك .

***

وروى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : مرّ عمر فى السُّوق ، ومعه الدِّرة ، فخفقنى خَفْقةً ، فأصاب طرف ثوبى ، وقال: أمِطْ[1] عن الطريق ، فلمّا كان فى العام المقبل لقينى ، فقال : ياسلمة ، أتريد الحجّ ؟ قلت : نعم ، فأخذ بيدى وانطلق بى إلى منزله ، فأعطانى ستمائة دِرْهم ، وقال : استعِنْ بها على حَجّك ، واعلم أنّها بالخفقة التى خَفَقْتُك ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، ماذكرتها ، قال : وأنا مانسيتُها .

***

وخطب عمرُ فقال : أيّتُها الرعيّة ، إنّ لنا عليكم حقًّا ، النّصيحة بالغيْب ، والمعاونة على الخيْر . إنّه ليس مِن حلم أحبّ إلَى الله ولا أعمّ نفعا من حِلْم إمامٍ ورِفْقِه ، وليس من جهل أبغض إلى الله من جهل إمامٍ وخَرَفه[2] ؛ أيّها الرعية إنّه مَنْ يأخذ بالعافية من بين ظهرانيْه فوّته الله العافية من فوقه .

وروى الرّبيع بن زياد ، قال : قدِمْتُ على عمر بمالٍ من البَحْرين ، فصلّيت معه العشاء ثم سلّمت عليه ، فقال : ماقدمت به ؟ قلت : خمسمائة ألف ، قال : ويحك ! إنما قدمت بخمسين ألفا ، قلت : بل خمسمائة ألف ، قال : كم يكون ذلك ؟ قلت : مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف ، حتى عددت خمساً ، فقال : إنك ناعس ؛ ارجع إلى بيتك ، ثم اغدُ علىّ ، فغدوت عليه . فقال : ما جئت به ؟ قلت : ما قلتُه لك ، قال : كم هو ؟ قلت : خمسمائة ألف ، قال : أطيّب هو ؟ قلت : نعم ، لا أعلم إلّا ذلك ، فاستشار الصّحابة فيه ، فأشير عليه بنصْب الديوان فنصبَه ، وقسّم المالَ بين المسلمين ، ففضَلت عنده فَضْلة ،

(١) أمط : تنح .
(٢) الخرف : فساد العقل . وفى ا : « وخرقه » .

فأصبح تجمع المهاجرين والأنصار ، وفيهم عليّ بن أبي طالب ، وقال للناس: ماترون فى فَضْلٍ فَضَل عندنا من هذا المال ؟ فقال الناس . ياأمير المؤمنين ؛ إنّا شغلناك بولاية أمورنا عن أهلك وتجارتك وصنعتك ، فهو لك . فالتفت إلى عليّ فقال : ماتقول أنت ؟ قال : قد أشاروا عليك ، قال : فقل أنت ، فقال له : لم تجعلُ يقينَك ظنًّا ؟ فلم يفهم عمر قوله ، فقال : لتخرُجَنّ مما قلت ، قال : أجل والله ، لأخرجَنّ منه ، أتذكر حين بعثك رسول الله صلى الله عليه وآله ساعيا[1] ، فأتيت العبّاس بن عبد المطلب ، فمنعك صدَقته ، فكان بينكما شيء ، فجئتما إليّ وقلتما : انطلق معنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فجئنا إليه ، فوجدناه خاثراً[2] فرجعنا ، ثم غدونا عليه ، فوجدناه طيِّب النفس ، فأخبرته بالذى صنع العباس ، فقال لك : ياعمر ، أما علِمْت أنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه ! فذكرنا له مارأينا ، من خُثوره فى اليوم الأول ، وطيب نفسه فى اليوم الثانى ، فقال : إنّكم أتيتمْ فى اليوم الأول ، وقد بقيَ عندى من مال الصّدقة ديناران ، فكان مارأيتم من خُثُورى لذلك ، وأتيتم فى اليوم الثانى وقد وجّهتهما ، فذاك الذى رأيتم من طِيب نفسى . أشيرُ عليك ألّا تأخذ من هذا الفضل شيئا ، وأن تفضّه على فقراء المسلمين ، فقال : صدقت والله لأشكرنّ لك الأولى والأخيرة .

***

وروى أبو سعيد الخدريّ قال : حَججْنا مع عمر أوّل حجة حَجّها فى خِلافته ، فلمّا دخل المسجدَ الحرام ، دنا من الحجر الأسود فقبّله واستلمه ، وقال : إنى لأعلم أنّك حَجَر لا تضرّ ولا تنفعُ ، ولولا أنى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قبّلك واستلَمك ، لما قبّلتك ولا استلمتُك ، فقال له عليّ : بلَى ياأمير المؤمنين ، إنه ليضرُّ وينفع ، ولو علمتَ تأويل ذلك من كتاب الله لعلمتَ أنّ الذى أقول لك كما أقول قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ

(١) الساعى : من يجمع الزكاة . (٢) خاثراً : فاتراً .

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ (١) . فلمّا أشهدهم وأقرّوا له أنه الربّ عزّ وجلّ ، وأنّهم العبيدُ ، كتبَ ميثاقهم فى رَقّ ، ثم ألقمه هـذا الحجر ، وإن له لعينين ولسانا وشفتين ، تَشهد لمن وافاه بالموافاة،فهو أمين الله عزّ وجلّ فى هذا المكان.فقال عمر : لاأبقانى الله بأرض لستَ بها ياأبا الحسن .

قلت : قد وجَدْنا فى الآثار والأخبار فى سِيرة عمر أشياء تناسب قوله فى هذا الحجر الأسود ، كما أمرَ بقطْع الشّجرةالّتى بويع رسولُ الله صلى الله عليه وآله تحتَها بيْعة الرضوان فى عُمْرة الحديبِيَة ، لأنّ المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله كانُوا يأتونها ، فيَقِيلون تحتها ، فلمّا تكرّر ذلك أوعدهم عمر فيها ، ثم أمر بها فقطعت .

وروى المُغيرة بن سُويد ، قال : خرجْنا مع عمر فى حَجّة حجها ، فقرأ بنا فى الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (٢) ،و﴿لإيلاف قُرَيش﴾ (٣) ،فلمّا فرغ رأى الناس يبادِرُون إلىمسجدٍ هناك،فقال : مابالهم؟قالوا : مسجدٌ صلّى فيه النبى صلى الله عليه وسلّم والنّاس يبادرون إليه،فناداهم فقال:هكذا هَلَكَ أهلُ الكتابقبلكم ! اتّخذوا آثار أنبيائهم بِيَعاً . مَنْ عَرَضتْ له صلاة فى هـذا المسجـد فليُصَلِّ ، ومَنْ لم تعرِضْ له صلاة فلْيمضِ .

* * *

وأتى رجل من المسلمين إلى عمر ، فقال : إنّا لما فتحنا المدائن أصبنا كتاباً فيه علْمٌ من علوم الفرس ، وكلام معجِب ، فدعا بالدِّرّة فجعل يضربه بها ، ثم قرأ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (٤) ،ويقول : ويلك!أقصَصٌ أحسنُ من كتاب الله ! إنّما هلك

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .
(٢) سورة الفيل : ١ .
(٣) سورة قريش : ٢
(٤) سورة يوسف ٣ .

مَنْ كان قبلكم ، لأنّهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم ، وتركوا التوراة والإنجيل حتى دَرَسا ، وذهب مافيهما من العلم .

* * *

وجاء رجلٌ إلى عمر ، فقال : إن ضُبَيعا التميميّ لقيَنا ياأميرَ المؤمنين،فجعل يسألنا عن تفسير حرُوف من القرآن ، فقال : اللهمّ أمكنّي منه ، فبينا عمر يوما جالس يغدِّى الناس إذ جاءه الضُّبيع ، وعليه ثياب وعمامة،فتقدّم فأكل ، حتى إذا فرغ ، قال:ياأمير المؤمنين، مامعنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً ﴾[1]؟قال : ويحك أنت هو! فقام إليه فحسَر عن ذراعيه ، فلم يزل يجلِدُه حتى سقطت عمامته ، فإذا له ضفيرتان ، فقال: والذى نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسَك ، ثم أمر به فجعل فى بيت ، ثم كان يُخرجه كلّ يوم فيضربه مائة ، فإذا برأ أخرجه فضربه مائة أخرى ، ثم حمله على قَتَبٍ وسيّره إلى البصرة . وكتب إلى أبىموسى يأمره أن يحرِّم على الناس مجالسته،وأن يقوم فى الناس خَطيبا ، ثم يقول : إنّ ضُبيعا قد ابتغى العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعا فى قومه وعند الناس حتى هلك ، وقد كان من قبل سيّد قومه .

وقال عمر على المنبر:ألَا إنّ أصحاب الرأىأعداء السنن،أعيتهم الأحاديثأن يحفظوها، فأَفتوْا بآرائهم،فضلّوا وأضلّوا.ألَا إنّا نقتدى ولا نبتدى ، ونتّبع ولا نبتدع ، إنه ماضَلَّ متمسِّكٌ بالأثر .

* * *

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : سمعتُ عمر يقول فى الحجّ : فيم الرّمَلَان[2] الآنَ والكَشْف عن المناكب ، وقد أظهر الله الإسلام ، ونفى الكفر وأهله ! ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

(١) سورة الذاريات : ١ ، ٢ .
(٢) الرملان : الهرولة حول البيت .

مرّ عمرُ برجل فسلّم عليه ، فردّ عليه ، فقال : مااسْمُك؟ قال : جمرة ، قال : أبو من؟ قال : أبو شهاب ، قال: مِمّن ؟ قال : من الُحرَقة، قال : وأين مسكنُك ؟ قال : بحرّة النار، قال : بأيّها ؟ قال : بذات لَظَى ، فقال : ويحك ! أدرِكْ أهلَك فقد احترقوا . فمضى عليهم فوجدهم قد احترقوا .

***

وروَى اللّيثُ بنُ سعد ، قال : أُتِيَ عمرُ بفتًى أمرَد ، قد وجِد قتيلا ملقًى على وجه الطريق ، فسأل عن أمره واجتهد ، فلم يقف له على خبر ، فشقّ عليه ، فكان يدْعُو ويقول : اللهمّ أظفِرْنى بقاتله ، حتى إذا كان رأسُ الحول أو قريبا من ذلك ، وُجِدطفلٌ مولود ملقًى فى موضع ذلك القتيل ، فأُتِيَ به عمر ، فقال : ظفرت بدم القتيل ، إن شاء الله تعالى ! فدفع الطّفل إلى امرأة ، وقال لها : قومى بشأنه ، وخذى مِنّا نفقته، وانظرى مَنْ يأخذه منك ، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمّه إلى صدرها فأعلمينى مكانَها ، فلمّا شبّ الصبيّ جاءت جارية ، فقالت للمرأة : إنّ سيّدتى بعثتْنى إليك لتبعثِى إليها بهذا الصبيّ ، فتراه وتردُّه إليك ، قالت : نعم ، اذهبى به إليها ، وأنا معك ، فذهبتْ بالصبيّ ، حتى دخلت على امرأة شابّة ، فأخذت الصبيّ ، فجعلت تقبّله وتُفَدّيه وتضمّه إليها ، وإذا هى بنت شَيْخٍ من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المرأة وأخبرت عمر ، فاشتمل على سيفه وأقبل إلى منزلها ، فوجد أباها متّكِئًا على الباب ، فقال له : ماالّذى تعلم من حال ابنتك ؟ قال : أعرَفُ النّاس بحق الله وحقِّ أبيها ، مع حسن صلاتها وصِيامها والقيام بدينها ، فقال : إنّى أحبّ أن أدخل إليها وأزيدَها رغبة فى الخير، فدخل الشيخ ، ثم خرج فقال : ادخل ياأمير المؤمنين ، فدخل وأمر أن يخرُج كلُّ مَنْ فى الدار إلا أبَاها ، ثم سألها عن الصبيّ ، فلجْلَجَت ، فقال : لَتَصدُقِينى ، ثم انتضى السيف ، فقالت : عَلَى رِسْلك ياأمير المؤمنين! فوالله لأصدقنّك ! إنّ عجوزاً كانت تدخل علىّ فاتخذتها أمّا ، وكانت تقوم فى أمرى بما تقوم به الوالدة ، وأنا لها بمنزلة البنت ،

فمكثت كذلك حينا ، ثم قالت : إنه قد عرض لى سفر ، ولى بنت أتخوّف عليها بعدى الضّيْعة ، وأنا أحبّ أن أضمّها إليك حتى أرجعَ من سفرى ، ثم عمدَت إلى ابنٍ لها أمْرد فهيّأته وزيّنته كما تزيَّن المرأة وأتتنى به ، ولا أشك أنه جارية ، فكان يرى منّى ماترى المرأة من المرأة ، فاغتفلنى يوما وأنا نائمة فما شعرت به حتى عَلَانى وخالطنى ، فمددت يدى إلى شَفْرَةٍ كانت عندى فقتلتُه ، ثم أمرت به فألقِىَ حيث رأيت ، فاشتملتُ منه على هذا الصبىّ ، فلمّا وضعته ألقيته فى موضع أبيه ، هذا والله خبرهما على ماأعلمتُك !

فقال عمر : صدقتِ ، بارك الله فيك ! ثم أوصاها ووعظها وخرج .

وكان عمر يقول : لوأدركت عُروة وعَفْراء لجمعت بينهما .

* * *

ذكر عمرو بن العاص يوما عمر فترحّم عليه ، وقال : مارأيتُ أحداً أتقى منه ، ولا أعمَلَ بالحقّ منه ، لايبالى عَلَى مَنْ وقع الحقّ ، من ولدٍ أو والدٍ ، إنّى لفى منزلى بمصر ضحًى ، إذ أتانى آتٍ ، فقال : قدم عبد الله وعبد الرحمن ابنا عمر غازيَيْن ، فقلت : أين نزلا ؟ قال : فى موضع كذا — لأقصى مصر — وقد كان عمر كتب إلىّ : إياك وأن يقدُم عليك أحدٌ من أهل بيتى فتجيزه أو تحُبوَه بأمرٍ لاتصنعه بغيره ، فأفعلُ بك ماأنت أهلُه. فضقتُ ذَرْعاً بقدومهما ، ولا أستطيع أن أهدِىَ لهما ، ولا أن آتيَهما فى منزلهما ، خوفاً من أبيهما ، فوالله إنّى لَعلى ماأنا عليه ، وإذا قائلٌ يقول : هذا عبد الرحمن بن عمر بالباب وأبو سروعة يستأذنان عليك ، فقلت : يدخلان ، فدخلا وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حدّ الله ، فإنّا أصبْنا اللّيلة شرابا فسكِرْنا ، فزبرتهما وطردتهما ، وقلت : ابن أمير المؤمنين وآخر معه من أهل بدر ! فقال عبد الرحمن : إنْ لم تفعلْ أخبرتُ أبى إذا قدمت عليه أنّك لم تفعل ، فعلمت أنى إن لم أقِمْ عليهما الحدّ غضب عمر وعزلنى ، فنحن عَلَى مانحن عليه ،

إذ دخل عبد الله بن عمر ، فقمت إليه ورحّبت به ، وأردت أن أجلسه فى صدر مجلسى ، فأبى علىّ وقال : إنّ أبى نهانى أن أدخُلَ عليك إلاّ ألاّ أجدَ من الدخول بُدًّا ، وإنى لم أجد من الدخول عليك بُدًّا ، إن أخى لا يحلَق عَلَى رءوس الناس أبدا ، فأمّا الضّرب فاصنع ما بدا لك — قال : وكانوا يحلِقون مع الحدّ — فأخرجتُهما إلى صحن الدّار وضربتهما الحدّ ، ودخل عبد الله بن عمر بأخيه عبد الرحمن إلى بيت من الدارِ فحلَق رأسه ، وحلق أبا سروعة ، والله ما كتبتُ إلى عمر بحرفٍ ممّا كان ، وإذا كتابه قد ورد :

من عبد الله عمر أميرَ المؤمنين ، إلى العاصى ابن العاصى ، عجبتُ لك يابن العاصى ولجراءتك علىّ ومخالفتك عهدى ! أما إنى خالفت فيك أصحابَ بدر ومَنْ هو خير منك ، واخترتُك وأنت الخامِل ، وقدّمتُك وأنت المؤخّر ، وأخبرَنى الناس بجراءتك وخلافك ، وأراك كما أخبروا ، وما أرانى إلّا عازلك فمسىء عزلَك . ويحك ! تضرب عبد الرحمن ابن عمر فى داخل بيتك ، وتحلق رأسَه فى داخل بيتك ، وقد عرفتَ أنّ فى هذا مخالفتى ! وإنما عبد الرحمن رجل من رعيّتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ، ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفتَ ألّا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عزّ وجلّ ، فإذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة عَلَى قَتَب ، حتى يعرف سوءَ ماصنع . قال : فبعثت به كما قال أبوه ، وأقرأت أخاه عبد الله كتاب أبيهما ، وكتبت إلى عمر كتابا أعتذر فيه وأخبرته أنّى ضربته فى صَحْن الدار ، وحلفت بالله الّذى لا يُحْلَف بأعظم منه ، أنه الموضع الذى أقيم فيه الحدود على المسلم والذّمىّ ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر . فذكر أسلم مولى عمر قال :

قدم عبدُ الله بأخيه عبد الرحمن على أبيهما ، فدخل عليه فى عَباءة ، وهو لا يقدِر على المشى من مَرْكبه ، فقال : يا عبد الرحمن ، فعلت وفعلت ! السِّياط السّياط ! فكلّمه

عبد الرحمن بن عوف ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد أقيم عليه الحدّ مرّة ، فلم يلتفت إليه وزبَره ، فأخذتْه السِّياط ، وجعل يصيح : أنا مريض وأنت والله قاتلى ! فلم يرقّ له ، حتى استوفى الحدّ وحبسه . ثم مرض شهرا ومات .

* * *

وروى الزبير بن بكار ، قال : خطب عمرُ أمّ كلثوم بنت علىّ عليه السلام ، فقال له : إنّها صغيرة ، فقال زوِّجْنيها يا أبا الحسن ، فإنى أرصد من كرامتها مالا يرصده أحد ، فقال : أنا أبعثها إليك ، فإنْ رضيتَها زوّجتكها . فبعثها إليه ببُرْد ، وقال لها قولى : هذا البُرْد الذى ذكرتُه لك . فقالت له ذلك ، فقال : قولى له : قد رضيتُه رضى الله عنك ـ ووضع يده على ساقها ـ فقالت له : أتفعل هذا ! لولا أنّك أمير المؤمنين لكسرت أنفَك ، ثم جاءت أباها فأخبرته الخبر ، وقالت : بعثتنى إلى شيخ سوء ! قال : مهلا يا بنيّة ، إنه زوْجك ، فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين فى الروْضة ، وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون ، فقال : رفِّئونى (١) ، رفئونى ، قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزوّجت أمّ كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « كلّ سببٍ ونسب وصهر ينقطعُ يوم القيامة إلا سَبَبى ونسبى وصهرى » .

* * *

وكتب عثمان إلى أبى موسى : إذا جاءك كتابى هذا فأعْطِ النّاس أعطياتِهم ، واحمل مابقى إلىّ . ففعل ، وجاء زيد بن ثابت بالمال ، فوضعه بين يدى عثمان ، فجاء ابنٌ لعثمان ، فأخذ منه أستاندانة من فضّه ، فمضى بها فبكى زيد ، قال عثمان : مايبكيك ؟ قال : أتيت عمر مثل ما أتيتك به ، فجاء ابنٌ له فأخذ دِرْهما فأمر به فانتزع منه ، حتى أبكى

(١) رفأه : إذا قال له : بالرفاء والبنين .

الغلام ، وإنّ ابنك قد أخذ هذه فلم أرَ أحداً قال شيئاً . فقال عثمان : إنّ عمر كان يمنعُ أهلَه وقرابته ابتغـاء وجه الله ، وأنا أعطِى أهلِي وأقاربى ابتغاء وجه الله ، ولن تلقَى مثل عمر .

* * *

وروى إسماعيل بن خالد،قال : قيل لعثمان : ألَا تـكون مثل عمر ! قال : لاأستطيع أن أكون مثل لقمان الحـكيم .

* * *

ذكرت عائشـة عمرَ ، فقالت : كان أجودَنا ؛ نَسيجَ وحْـدِه ، قد أعَـدَّ للأمور أقرانَها .

* * *

جاء عبد الله بن سَلاَم بعد أن صلّى النّاس على عمر، فقال : إن كنتم سبقتمونى بالصلاة عليـه فلا تسبقونى بالثّناء عليه ، ثم قال : نعم أخو الإسلام كنتَ ياعمر ! جواداً بالحقّ بخيلاً بالباطل ، ترضَى حين الرّضا ، وتسخَط حين السّخط ؛ لم تـكن مدّاحاً ولا مِغْياباً، طيّب الطَّرَف ، عفيفَ الطَّرْف .

* * *

وروى جُويرِية بن قُدامة ، قال : دخلتُ مع أهل العراق على عمرَ حين أصيب ، فرأيتُه قد عَصَب بطنَه بعمامة سوداء ، والدّم يسيل ، فقال له الناس : أوصِنا ، فقال عليكم بكتاب الله ، فإنّـكم لنْ تضلّوا ما اتّبعتموه . فأعدنا القول عليه ثانية:أوْصِنا، قال : أوصيكم بالمهاجرين ، فإنّ الناس سيكثُرون ويقلّون ، وأوصيكم بالأنصار ، فإنهم شِعْب الإسلام الذى لجأ إليه ، وأوصيكم بالأعراب ، فإنهم أصلـكم الذى لجأتم إليه ومأواكم .وأوصيكم بأهل الذمّة ، فإنّهم عهد نبيّـكم ورزق عيالـكم ؛ قوموا عنّى .

فلم أحفظ من كلامه إلا هذه الـكلمات .

* * *

وروى عمرو بن ميمون، قال : سمعتُ عمر وهو يقول ـ وقد أشار إلى الستّة، ولم يكلم أحدا منهم إلّا عليّ بن أبى طالب وعثمان ، ثم أمرهم بالخروج ، فقال لمن كان عنده : إذا اجتمعوا عَلَى رجل فمن خالف فلتضربَ رقبته ، ثم قال : إن يولّوها الأجلح[1] يسلك بهم الطريق ، فقال له قائل : فما يمنعك من العهد إليه ؟ قال : أكره أن أتحمّلها حيًّا وميتا .

* * *

[خطب عمرَ الطِّوال]

وقال الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين " : لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال، وكان كلامه قصيرا ، وإنما صاحب الخطب الطوال عليّ بن أبى طالب عليه السلام .

وقد وجـدتُ أنا لعمر خطبا فيهـا بعض الطُّول ، ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ فى التاريخ .

* * *

فمنهـا خطبة خَطب بهـا حين ولىَ الخلافة ، وهى بعـد حَمْد الله والثّناء عليـه وعَلَى رسوله :

أيُّها الناس، إنّى ولِّيتُ عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيرَكم لـكم ، وأقوا كم عليكم، وأشدّكم استضلاعا بما ينوب من مهمّ أموركم ، ماتولّيت ذلك منكم ، ولـكنى عمر فيها مجزى[2] العطاء موافقة الحساب ، بأخـذ حقوقـكم كيف آخذها ووضْعِها أين أضعها ،

(١) الجلح : انحسار الشعر عن جانبى الرأس ، ويريد بالأجلح على بن أبى طالب .
(٢) الطبرى : « ولـكنى مهماً محزناً انتظار موافقة الحساب » .

وبالسَّيْر فيكم كيف أسير ! فربِّى المستعان ، فإنّ عُمَر لم يصبح يثق بقوّة ولا حيلة ، إنْ لم يتداركْه الله برحمته وعونه (١) ..

أيّها الناس إن الله قد ولّانى أمرَكم ، وقد علمت أنفع مالكم ، وأسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يحرسَنى عنده ، كما حرسنى عند غيره ، وأن يلهمنى العدْل فى قَسْمكم كالذى أمر به ، فإنى امرؤ مسلم ، وعبد ضعيف إلّا ما أعان الله ، ولن يغيّر الّذى وليت من خلافتكم من خُلُقى شيئاً إن شاء الله . إنما العظمةُ لله ، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولنّ أحدُكم إن عمر تغيّر منذ وَلِىَ ، وإنّى أعقِلُ الحقَّ من نفسى ، وأتقدّم وأبيّن لكم أمرِى ، فأيّما رجلٍ كانت له حاجة أو ظلِم مظلمة أو عتب علينا فى خلق ، فليُؤْذِنّى ، فإنّما أنا رجلٌ منكم . فعليكم بتقوَى الله فى سرّكم وعلانيتكم وحُرُماتكم وأعراضكم ، وأعطُوا الحقَّ من أنفسكم ، ولا يحمِلْ بعضُكم بعضاً علىّ ألّا تتحاكموا إلىّ ، فإنّه ليس بينى و بين أحد هَوادة ، وأنا حبيب إلىّ صلاحكم ، عزيز علىّ عَنَتُكم ، وأنتم أناس عامّتكم حضَر فى بلاد الله وأهل بلدٍ لا زرع فيه ولا ضَرْع إلّا ماجاء الله به إليه ، وإنّ الله عزّ وجلّ قد وعدكم كرامة كبيرة ، وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ، ومطّلع عَلَى مايحضرنى بنفسى إن شاء الله ، لا أَكِلُه إلى أحدٍ ، ولا أستطيع مابَعُد منه إلّا بالأمناء وأهل النّصح منكم للعامة ، ولست أحمل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله (٢) .

***

وخطب عمر مرة أخرى ، فقال بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صلّى الله عليه و آله :

---

(١) الطبرى ٥ : ٢٥ ، وهى آخر الخطبة هنا ، وما يليها خطبة أخرى .

(٢) تاريخ الطبرى ٥ : ٢٥ ، ٢٦ .

أيّها النّاس ، إنّ [بعض][١] الطّمع فقْر ، وإنّ بَعْض اليأس غنًى ، وإنكم تجمعون مالا تأكلون ، وتؤمّلون مالا تدركون ،وأنتم مؤجّلون فى دار غرور ، وقد كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله تؤخذون بالوحْى ،ومن أسرّ شيئاً أخِذ بسريرته ،ومَنْ أعلن شيئاً أخِذ بعلانيته ، فأظهرُوا لنا حسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فإنه مَنْ أظهر لنا قبيحاً ، وزعم أن سريرته حسنة لم نصدّقه ،ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننّا [به حسنا][١] . واعلموا أنّ بعض الشحّ شُعبة من النّفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومَنْ يوقَ شحّ نفسِه فأولئك هم المفلحون .

أيّها الناس ، أطيبوا مثواكم ، وأصلحوا أموركم ، واتّقوا الله ربّكم ، ولا تُلبِسُوا نساءكم القُباطىّ[٢] ، فإنّه إنْ لم يشفّ[٣] فإنه يَصِف .

أيّها الناس ، إنى لوددت أن أنجوَ كفافا لالى ولا علىّ ، إنّى لأرجو إن عُمِّرت فيكم يسيرا أو كثيرا ، أن أعمل فيكم بالحقّ إن شاء الله ، وألّا يبقى أحدٌ من المسلمين – وإن كان فى بيته – إلا أتاه حقّه ونصيبه من مال الله ، وإن لم يعمِل إليه نفسَه ، ولم ينصِبْ إليه بدَنه ، فأصلِحوا أموالكم التى رزقكم الله ، فقليلٌ فى رفق خير من كثير فى عنف .

واعلموا أنّ القتلَ حتْفٌ من الحتوف يصيب البَرّ والفاجر – والشهيد من احتَسب نفسَه ، وإذا أراد أحدُكم بعيراً فليعمِدْ إلى الطّويل العظيم فليضربه بعصاه ، فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره[٤] .

* * *

وخطب عمر مرّة أخرى فقال :

---

(١) تكملة من تاريخ الطبرى

(٢) القباطى : ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل فى مصر .

(٣) يشف : يرق حتى يحكى ما تحته .

(٤) تاريخ الطبرى ٦ : ٢٦ .

إنّ الله سبحانه قد استوجبَ عليكم الشكر ، واتّخذ عليكم الحجج فيما أتاكم من كرامة الدنيا والآخرة من غير مسألة منكم ، ولا رغبةٍ منكم فيه إليه ، فخلقكم — تبارك وتعالى — ولم تكونوا شيئاً لنفسِه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعلكم عامّة خلقه ، ولم يجعلكم لشيء غيره ، وسخّر لكم مافى السّموات والأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ، وحملكم فى البرّ والبحر ، ورزقكم من الطيّبات لعلّكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومِنْ نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمّ بها بنى آدم ومنها نعمٌ اختصّ بها أهلَ دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصُّها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النِّعم نعمةٌ وصلت إلى امرىء خاصّة إلا لو قسمتم ماوصل منها بين الناس كلّهم أتعبهم شكرُها ، وفدحهم حقّها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مستخلَفون فى الأرض قاهرون لأهلها ، قد نصرَ الله دينَكم فلم تصبح أمّة مخالفة لدينكم ، إلاّ أمتين أمّة مستعبدة للإسلام وأهلِه ، يتّجرون لكم ، تستصفون[1] معايشهم وكدائحهم ، ورشح جباههم ، عليهم المؤنة ، ولكم المنفعة ، وأمّة تنتظر وقائع الله وسطواته فى كلّ يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رُعْباً ، فليس لهم معقل يلجئون إليه ، ولا مهرب يتقون به ، قد دهمتهم جنودُ الله ونزلت بساحتهم ، مع رفاغة[2] العيش واستفاضة المال ، وتتابع البعوث وسدّ الثغور بإذن الله ، فى العافية الجليلة العامّة التى لم تكن الأمّة على أحسن منها منذ كان الإسلام ، والله المحمود مع الفتوح العظام فى كلّ بلد ، فما عسى أن يبلغ شكر الشاكرين ، وذكر الذاكرين ، واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النِّعم التى لا يحصَى عددُها ، ولا يقدر قدرُها ، ولا يستطاع أداء حقّها إلا بعون الله ورحمته ولطفه ! فنسأل الله الذى أبلانا هذا أن يرزقَنا العملَ بطاعته ، والمسارعةَ إلى مرضاته . واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم ، واستتمّوا نعمة الله عليكم وفى مجالسكم مثنَى وفرادى ؛ فإنّ الله تعالى قال لموسى :

(١) استصفى الشيء : أخذ منه صفوه .   (٢) الرفاغة : سعة العيش وطيبه .

﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾(١) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلّم : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾(٢) فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله وبدينه ، وترجون الخير فيما بعد الموت ؛ ولكنكم كنتم أشدَّ الناس عيشة وأعظم الناس بالله جهالة ، فلو كان هذا الذى ابتلاكم به لم يكن معه حظٌّ فى دنياكم غير أنه ثقةٌ لكُمْ فى آخرتكم التى إليها المعادُ والمنقلَب ، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه كنتم أحرياء أن تشحّوا على نصيبكم منه ، ون تظهروه على غيره فَبَلْه(٣). أما إنه قد جمع لكم فضيلة الدّنيا وكرامة الآخرة ، أو لمن شاء أن يجمع ذلك منكم ، فأذكّركم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم إلّا ماعرفتم حقّ الله وعملْتم له ، وسيّرتم أنفسكم على طاعته ، وجمعتم مع السرور بالنِّعم خوفاً لزوالها وانتقالها ، ووجلا من تحويلها ، فإنه لاشىء أسلبُ للنعمة مِنْ كفرانها ، وإنّ الشكر أمنٌ للغيَر ، ونماء للنّعمة ، واستجلاب للزّيادة ، وهذا علىّ فى أمركم ونهيكم واجب إن شاء الله .

* * *

وروى أبو عبيدة معمر بن المثّنى فى كتاب " مقاتل الفرسان " قال: كتب عمر إلى سلْمان بن ربيعة الباهلىّ — أو إلى النّعمان بن مقرّن :

إنّ فى جندك رجليْن من العرب : عمرو بن معديكرب وطُلَيْحة بن خويلد ، فأحضِرْهما النّاس وأدّبهما وشاوِرْهما فى الحرب ، وابعثهما فى الطّلائع ، ولا تولّهما عملا من أعمال المسلمين ، وإذا وضعت الحرب أوزارها ، فضعهما حيث وضعا أنفسهما. قال : وكان عمرٌو ارتدّ ، وطليحة تنبّأ .

* * *

(١) سورة إبراهيم : ٥ (٢) سورة الأنفال : ٢٦ (٣) بله : اسم فعل بمعنى دع واترك .

وروى أبو عُبيدة أيضاً فى هذا الكتاب ، قال : قدِم عمرو بن معد يكرب والأجْلَح بن وقّاص الفهمىّ على عمر ، فأتيـاه وبين يديْه مالٌ يوزَنُ ، فقال : متَى قدمتما ؟ قالا : يومَ الخميس ، قال : فما حَبَسكما عنّى ؟ قالا : شغلنا المنزل يوم قدِمْنا ، ثم كانت الجمعة ، ثم غدوْنا عليك اليوم . فلمّا فرَغ من وزن المال نحّاه ، وأقبل عليهما ، فقال : هيهِ ! فقال عمرو بن معد يكرب : ياأميرَ المؤمنين ، هـذا الأجلح بن وقّاص ، الشديد المِرّة ، البعيد الغرّة ، الوشيك الكَرّة ؛ والله ما رأيت مثله حين الرجال صارعٌ ومصروع ! والله لكأنّه لا يموت. فقال عمر للأجلح ـ وأقبل عليه ، وقد عرف الغضب فى وجهه : هِيهِ ياأجْلَح ! فقال الأجلح : ياأميرَ المؤمنين ، تركتُ الناس خلفى صالحين ، كثيراً نسلُهم ، دارّة أرزاقهم ، خِصْبَةً بلادهم ، أجرياء على عدوّهم ، فأكلأُ عدوّهم عنهم ، فسيمتّع الله بك ، فما رأينا مثلك إلّا مَنْ سبقك ، فقال : ما منعك أن تقول فى صاحبك مثل ما قال فيك ؟ قال : ما رأيتُ من وجهك ، قال : أصبْت ، أما إنّك لو قلت فيه مثل الذى قال فيك لأوجعتُكما ضرباً وعقوبة ، فإذ تركتك لنفسك فسأتركه لك ، والله لوددت لو سَلِمَتْ لكم حالكم ، ودامت عليكم أمورُكم . أما إنّه سيأتى عليك يوم تعضّه وينهشك ، وتهرّه وينبَحُك ، ولستَ له يومئذ وليس لك ، فإن لا يكن بعهدكم ، فما أقربَه منكم !

* * *

لما أُسِرَ الهُرمُزان صاحب الأهواز وتُسْتَر وحمِل إلى عمرَ ، حُمل ومعه رجال من المسلمين ، فيهم الأحنف بن قيس وأنس بن مالك ، فأدخلوه فى المدينة فى هيئته ، وعليه تاجُه الذهب وكسوته ، فوجدوا عمر نائماً فى جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهَه ، فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ، قال : وأين حُرّاسه وحُجّابه ؟ قالوا : لا حارس له ولا حاجب ، قال : فينبغى أن يكون هذا نبيًّا ! قالوا : إنّه يعمل عمل الأنبياء .

فاستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ! قالوا : نعم ، قال : لا أكلِّمه حتى لا يبقى عليه من حليته شيء ، فرمَوْا بالحلية وألبسوه ثوباً ضعيفاً ، فقال عمر : ياهرمزان ؛ كيف رأيتَ وبال الغدر ؟ — وقد كان صالَح المسلمين مرة ثم نكث — فقال : ياعمر ، إنّا وإيّاكم في الجاهلية كنّا نغلبكم إذْ لم يكن الله معكم ولا معنا ، فلمّا كان الله معكم غلبتمونا ، قال : فماعذرك في انتقاضك مرّةً بعد مرة ؟ قال : أخاف إن قلتُ أن تقتلَني ، قال : لا بأس عليك ! فأخبرني ، فاستسقى ماء ، فأخذه وجعلتْ يده تُرْعَد ، قال : مالك ؟ قال: أخاف أن تقتلَني وأنا أشرب ، قال : لا بأس عليك حتى تشرَبه، فألقاه من يده ، فقال : مابالك ! أعيدوا عليه الماء ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : كيف تقتلني وقد أمّنتني ؟ قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، فقال أنس : صدَق ياأمير المؤمنين ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أؤمّن قاتل مَجْزَأة بن ثور والبَراء بن مالك ! والله لتأتيني بالمخرج أو لأعاقبنّك ! قال : إنّك قلت : « لا بأس عليك حتى تخبرَني ولا بأْس عليك حتى تشرَب »!وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس ، فأقبل على الهُرمزان ، فقال : تخدعُني ! والله لا تخدعني إلّا أن تسلِم ، فأسلم ، ففرَض له ألفين ، وأنزله المدينة .

***

بعث عمرُ عميرَ بن سعيد الأنصاريّ عاملًا على حِمْص ، فمكث حولًا لا يأتيه خبره، ثم كتب إليه بعد حول : إذا أتاك كتابي هذا فأقبِلْ واحمل ماجبيْتَ من مال المسلمين ، فأخذ عمير جرابه ، وجعل فيه زاده وقَصْعته ، وعلّق أداته ، وأخذ عَنَزَته[1] ، وأقبل ماشياً من حِمْص حتى دخل المدينة ، وقد شحَب لونُه ، واغبرّ وجهُه ، وطال شعره . فدخل على عمر فسلّم ، فقال عمر : ماشأنك ياعمير ؟ قال : ماترَى من شأني ، ألستَ تراني صحيح البدن ، ظاهر الدّم ، معي الدنيا أجرّها بقرنَيْها ؟ قال : وما معك — فظنّ عمر أنّه قد جاء

(١) العنزة : عصا مثل الحربة .

بمالٍ ، قال : معى جرابى أجعل فيه زادى،وقَصْعتى آ كل فيها وأغسل منها رأسى وثيابى، وأداتى أحمل فيها وَضوئى وشرابى،وعَنَزتى أتوكّأ عليها وأجاهد بها عدوًّا إن عَرَض لى . قال عمر:أفجئت ماشيا ؟ قال : نعم ، لم يكن لى دابّة ، قال : أفما كان فى رعيّتك أحد يتبرّع لك بدابّة تركبها ؟ قال : مافعلوا،ولا سألتُهم ذلك ، قال عمر : بئس المسلمون خرجتَ من عندهم ! قال عمير : اتّق الله ياعمر،ولا تقُلْ إلّا خيراً ، قد نهاك الله عن الغِيبة،وقد رأيتُهم يصلّون ! قال عمر:فماذا صنعت فى إمارتك ؟ قال : وماسؤالك ؟ قال : سبحان الله ! قال : أما إنّى لولا أخشى أن أعمل ما أخبرتك.أتيت البلد ، فجمعت صُلَحاء أهله فولّيتهم جبايته، ووضَعَه فى مواضعه،ولو أصابك منه شىء لأتاك،قال : أفما جئت بشىء ؟ قال : لا ، فقال: جدِّدُوا لعميرٍ عهدا،قال : إنّ ذلك لشىء لا أعمله بَعْدُ لك،ولا لأحد بعدك،والله ما كدت أسْلَمَ — بل لم أسلَمْ،قلت لنصرانىّ معاهَد : أخزاك الله ، فهذا ماعرّضتنى له ياعمر ! إنّ أشقى أيّامى ليوم صحبتُك ! ثم استأذنه فى الانصراف ، فأذن له ، ومنزله بقُباء بعيداً عن المدينة، فأمهله عمر أياما ثمّ بعث رجلا يقال له الحارث ، فقال : انطلِق إلى عمير بن سعد وهذه مائة دينار ، فإنْ وجدتَ عليه أثرا فأقبل علىّ بها،وإن رأيت حالًا شديدة فادفع إليه هذه المائة،فانطلق الحارث فوجد عُميراً جالساً يفلّى قميصاً له إلى جانب حائط،فسلم عليه،فقال عمير: انزل رحمك الله ! فنزل فقال:مِنْ أين جئت؟قال:من المدينة،قال : كيف تركتَ أمير المؤمنين؟ قال : صالحا ، قال : كيف تركت المسلمين ؟ قال : صالحين ، قال : أليس عمرُ يقيم الحدود؟ قال : بلَى ، ضرب ابناً له على فاحشة فمات من ضَرْبه ، فقال عمير : اللهمّ أعِنْ عمر ، فإنى لا أعلمُه إلّا شديداً حبُّه لك ! قال : فنزل به ثلاثة أيام ، وليس لهم إلا قرصٌ من شعير كانوا يخصّونه كلّ يوم به ويطوون ، حتى نالهم الجهد ، فقال له عمير : إنّك قد أجعتنا ، فإن رأيت أن تتحوّل عنّا فافعل ، فأخرج الحارث الدنانير فدفعها إليه ، وقال : بعث بها أمير المؤمنين ، فاستغنِ بها ، فصاحَ وقال : ردّها ، لاحاجة لى فيها ، فقالت المرأة : خذها

ثم ضعها فى موضعها ، فقال : مالى شىء أجعلها فيه ! فشقّت أسفلَ درعها[1] فأعطته خِرْقة فشدّها فيها، ثم خرج فقسّمها كلّها بين أبناء الشهداء و الفقراء، فجاء الحارث إلى عمر فأخبره، فقال : رحم الله عميرا ! ثم لم يلبث أن هَلَكَ ، فعظم مهلكُه على عمر، وخرج مع رهط من أصحابه ماشين إلى بقيع الغرْقد، فقال لأصحابه : ليتمنّينَّ كلّ واحد منا أمنيته، فكلّ واحد تمنى شيئاً، وانتهت الأمنيّة إلى عمر ؛ فقال: وددت أن لى رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أمور المسلمين !

***

[نُبذ من كلام عمر]

ومن كلام عمر : إيّاكم وهذه المجازرَ ، فإن لها ضَراوةً كضراوة الخمر .

وقال : إيّاكم والراحةَ فإنها غفلة .

وقال : السِّمَن غَفْلة .

وقال : لا تُسكِنُوا نساءكم الغُرَف، ولا تعلّموهنّ الكتابة، واستعينوا عليهنّ بالعُرْى، وعوّدوهنّ قول « لا » ، فإنّ « نعم » تجرّئهنّ على المسألة .

وقال : تبيَّنْ عقلَ المرء فى كلّ شىء ، حتى فى عِلّته، فإذا رأيتَه يتوقّى على نفسه الصبر عن شهوته ، ويحتمى من مطعمه ومشربه ، عرفتَ ذلك فى عقله ؛ وما سألنى رجلٌ عن شىء قطّ إلا تبيَّن لى عقله فى ذلك .

وقال : إنّ للناس حدوداً ومنازل، فأنزلوا كلّ رجلٍ منزلته ، وضعوا كلّ إنسان فى حدّه ، واحملوا كلَّ امرئٍ بفعله على قدره .

وقال : اعتبروا عزيمة الرّجُل بحميّته ، وعقله بمتاع بيته . قال أبو عثمان الجاحظ: لأنه

(١) الدرع : القميص .

ليس من العقل أن يكون فرشه لِبْدا ومرقعتهُ طَبَرِيّة .

وقال : مَنْ يئِسَ من شيء استغنى عنه ، وعزُّ المؤمن استغناؤه عن النّاس .

وقال : لايقوم بأمر الله إلّا مَنْ لا يصانع ، ولا يصارع ، ولا يتبع المطامع .

وقال : لا تُضْعِفُوا هِمّتكم ، فإنّى لم أر شيئاً أقعدَ برجل عن مكرُمةٍ مِنْ ضعف هِمّته .

ووعظ رجلاً فقال : لا تلهكَ النّاس عن نفسك ، فإنّ الأمور إليك تصلُ دونهم ، ولا تقطع النّهارَ سادِراً ، فإنه محفوظ عليك ، فإذا أسأت فأحسِنْ ، فإنى لم أرَ شيئا أشدّ طلبا ، ولا أسرع إدراكا من حسنةٍ حديثة لذنب قديم .

وقال : احذَرْ من فَلَتاتِ السّباب ، وكلّ ما أورثك النّبْز (١) ، وأعلَقك اللقب ، فإنه إن يعظم بعده شأنك يشتدّ على ذلك ندمك .

وقال : كلّ عمل كرهتَ من أجله الموت فاتركه ، ثم لا يضرّك متى مِتّ .

وقال : أقلِلْ من الدَّيْن تعش حرًّا ، وأقلل من الذّنوب يهَنُ عليك الموت ، وانظر فى أىّ نصاب تضع ولدك ، فإنّ العِرْق دسّاس .

وقال : تركُ الخطيئة أسهلُ من معالجة التوبة .

وقال : احذروا النّعمة حذرَكم المعصيةَ ، وهى أخفُّهما عليكم عندى .

وقال : احذروا عاقبة الفَراغ ، فإنه أجمع لأبواب المكروه من السّكر .

وقال : أجودُ النّاس مَنْ يجود عَلَى من لا يرجو ثوابه ، وأحلمُهم مَنْ عفا بعد القدرة ، وأبخلهم مَنْ بخل بالسّلام ، وأعجزهم من عجز فى دعائه .

وقال : ربَّ نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة أورثت حزنا دائما .

---

(١) النبز : اللقب المعيب ؛ ومنه قوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » .

وقال : ثلاث خصالٍ مَنْ لم تكنّ فيه لم ينفعه الإيمان : حِلْم يردّ به جهل الجاهل ، وورَعٌ يحجُزه عن المحارم ، وخُلُق يدارِى به الناس .

***

[أخبار عمر مع عمرو بن معد يكرب]

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب " مقاتل الفرسان " أنّ سعد بن أبى وقاص أوفَد عمرو بن معديكرب بعد فتح القادسيّة إلى عمر ، فسأله عمر عن سعد: كيف تركتَه ، وكيف رضا الناس عنه ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هو لهم كالأب يجمع لهم جمْع الذّرّة ، أعرابى فى نَمِرته[1] ، أسد فى تامورته[2] ، نَبَطِىٌّ فى جِبايته ، يقسِم بالسويّة ، ويعدل فى القضيّة ، وينفِر فى السريّة .

وكان سعد كتب يُثْنِى على عمرو ، فقال عمر : لكأنما تعاوضْتما الثناء ! كتبَ يُثنى عليك ، وقدِمْتَ تثنى عليه ! فقال : لم أُثْنِ إلّا بما رأيت ، قال : دَعْ عنك سعدا ، وأخبرنى عن مَذْحِج قومك .

قال : فى كلٍّ فضلٌ وخيْر ، قال : ما قولُك فى عُلَة بن خالد ؟ قال : أولئك فوارس أعراضنا ، أحثُّنا طلبا ، وأقلنا هرَبا ، قال : فسعد العشيرة ؟ قال : أعظمنا خَمِيساً[3] ، وأكبرنا رئيسا ، وأشدّنا شَرِيساً[4] . قال : فالحارث بن كعب ؟ قال : حَسَكَةٌ لا ترام ، قال : فمراد ؟ قال : الأتقياء البررَة ، والمساعير الفجَرة ، ألزمُنا قرارا ، وأبعدنا آثارا .

---

(١) النمرة : بردة من صوف يلبسها الأعراب .

(٢) قال فى اللسان : «وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معد يكرب عن سعد فقال : أسد فى تامورته ، أى فى عرينه ، وهو بيت الأسد الذى يكون فيه، وهى فى الأصل الصومعة . فاستعارها للأسد»

(٣) الخميس : الجيش .

(٤) شريساً ، أى شراسة .

قال : فأخبِرْنى عن الحرب ، قال : مرّة المذاق ، إذا قلّصتْ عن ساق ، مَنْ صبر فيها عرف ، ومن ضعف عنها تلِف ، وإنّها لكما قال الشاعر :

الحَرْبُ أوّل ما تَكُونُ فَتيّـةً   تَسْعَى بزِينَتِها لِكلِّ جَهُولِ(١)
حتى إذا استعرَتْ وشَبَّ ضِرامها   عادتْ عجوزاً غير ذاتِ حليلِ
شَمْطاء جَزَّتْ رأسَها وتنكّرتْ   مَكْرُوهةً للشّم والتّقبيـــل

قال : فأَخبِرْنى عن السّلاح ، قال : سلْ عمّا شئت منه ، قال : الرّمْح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال النّبل ؟ قال : منايا تُخْطِئُ وتصيب ، قال : التُّرس ؟ قال : ذاكَ المِجنّ ، وعليه تدور الدوائر ، قال : الدرع ؟ قال : مشغَلةٌ للراكب(٢)، متعَبةٌ للراجل ، وإنها لحِصْنٌ حَصين . قال : السيف ؟ قال : هناك قارعت أمّك الهَبَل ، قال : بل أمّك ، قال : بل أمّى ، والحمّى أضْرَعَتْنى(٣) لك(٤) .

***

عرض سليمان بن ربيعة الباهلىّ جنده بأرمينيّة ، فكان لا يقبل من الخيل إلّا عتيقا ، فمرّ عمرو بن معد يكرب بفرس غليظ ، فردّه وقال : هذا هجين ، قال عمرو : إنه ليس بهجين ، ولكنه غليظ ، قال : بل هو هجين ، فقال عمرو : إنّ الهجين ليَعْرِفُ الهجين . فكتب بكلمته إلى عمر ، فكتب إليه : أمّا بعد يابن معد يكرب ، فإنّك القائل لأميرك ما قلت ، فإنه بلَغنى أنّ عندك سيفا تسمّيه الصَّمْصامة ، وأنّ عندى سيفا أسمّيه مصمّما ، وأقسم بالله لئن وضعتُه بين أذنيك لا يقلع حتى يبلغ قحفَك .

---

(١) تنسب هذه الأبيات لامرئ القيس ، ديوانه ٣٥٣ .
(٢) فى العقد : « مثقلة للراكب متعبة للفارس » .
(٣) أراد أن الإسلام قيده ، ولو كان فى الجاهلية ما استطاع عمر أن يكلمه بهذا الكلام .
(٤) الخبر فى العقد ١ : ٢١٠ ، عيون الأخبار ١ : ١٣٠ .

وكتب إلى سليمان بن ربيعة يلومُه فى حِلمه عنه ، فلما قرأ عمرو الكتاب ، قال : مَنْ ترونه يعنى ؟ قالوا : أنت أعلم ، قال : هدّدنى بعلىّ والله ، وقد كان صَلِىَ بناره مَرّةً فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأفلت من يده بجُرَيْعة[1] الذّقَن ، وذلك حين ارتدّت مذحِج ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله أمّر عليها فَرْوة بن مسيك المرادىّ ، فأساء السيرة ، ونابذ عمرو بن معد يكرب ففارقه فى كثير من قبائل مَذْحِج ، فاستجاش فَرْوة عليه وعليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأرسل خالد بن سعيد بن العاص فى سريّة وخالد بن الوليد بعده فى سريّة ثانية ، وعلىّ بن أبى طالب عليه السلام فى سريّة ثالثة ، وكتب إليهم : كلّ واحد منكم أمير من معه ، فإذا اجتمعتم فعلىٌّ أميرٌ عَلَى الكلّ ، فاجتمعوا بموضع من أرض اليمن يقال له « كسر » ، فاقتتلوا هناك ، وصَمَد عمرو بن معديكرب لعلىّ عليه السلام — وكان يظنّ أن لا يثبت له أحدٌ من شجعان العرب — فثبت له ، فعلا عليه ، وعاين منه مالم يكن يحتسبه ، ففرّ من بين يديْه هاربا ناجياً بحُشاشة نفسه ، بعد أن كاد يقتله ، وفرّ معه رؤساء مذحِج وفرسانهم ، وغَنِم المسلمون أموالَهم ، وسُبِيت ذلك اليوم ريحانة بنت معد يكرب أخت عمرو ، فأدّى خالد بن سعيد بن العاص فِداءها من ماله ، فأصابه عمرو أخوها الصّمْصامةَ ، فلم يزل ينتقل فى بنى أميّة ويتداولونه واحداً بعد واحدٍ حتى صار إلى بنى العباس فى أيام المهدىّ محمد بن المنصور أبى جعفر .

***

[فصل فيما نقل عن عمر من الكلمات الغريبة]

فأما مانقل عن عمر من الألفاظ الغريبة اللّغوية التى شرحها المفسرون ، فنحن نذكر من ذلك مايليق بهذا الكتاب .

---

(١) أى قرب الموت منه كقرب الجريعة من الذقن ، وذلك إذا أشرف على التلف ثم نجا ، وهذا مثل يضرب فى إفلات الجبان . والجريعة : بقية الروح . وانظر الميدانى ٢ : ٦٩ .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى تاريخه : روى عبد الرحمن بن أبى زيد ، عن عمران بن سودة الليثىّ ،قال : صلّيت الصبح مع عمر ، فقرأ « سبحان » وسورة معها، ثم انصرف ، فقمت معه ، فقال : أحاجة ؟ قلت : حاجة ، قال : فالحق ، فلحقت ، فلمّا دخل أذِن ، فإذا هو عَلَى رمال[1] سرير ، ليس فوقه شىء ، فقلت : نصيحة ! قال : مرحباً بالناصح غدوًّا وعشيًّا ، قلت : عابت أمّتك ـ أو قال رعيّتك ـ عليك أربعا ، قال : فوضع عود الدِّرة ثم ذقَن عليها ـ هكذا روى ابن قتيبة ـ وقال أبو جعفر : «فوضع رأس دِرّته فى ذَقْنه » ووضع أسفلها على فخذه ، وقال : هات ـ قال: ذكروا أنّك حرّمت المُتعة فى أشهر الحج ـ وزاد أبو جعفر : « وهى حلال » ـ ولم يحرّمها[2] رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أبو بكر ، فقال: أجل ! إنّكم إذا اعتمرتم فى أشهر حجّكم رأيتموها مجزئة عن حجّكم ، فقَرِع حجُّكم ، وكانت قابيَة قوْب عامها والحجّ بهاء من بهاء الله ، وقد أصبتَ . قال : وذكروا أنّك حرّمت مُتْعة النساء ، وقد كان رُخصة من الله نستمتع بقُبضة ، ونفارق عن ثلاث ، قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أحلّها فى زمان ضرورة ، ورجع النّاس إلى السعة ، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عاد إليها ، ولا عمل بها ، فالآن مَنْ شاء نكح بقُبْضة ، وفارق عن ثلاثٍ بطلاق وقد أصبت .

وقال: ذكروا أنك أعتقْتَ الأمَة إذا وضعتْ ذا بطنها بغير عَتاقة سيّدها .قال:ألحقتُ حرمة بحرمة ، وما أردت إلّا الخير ، واستغفر الله .

قال : وشكَوْا منك عُنْف السّياق ، ونَهْرَ الرعية . قال : فنَزَعَ الدِّرَّة ثم مسحَها حتى أتى على سُيُورها ، وقال : وأنا زميل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة قرقرة

---

(١) ساقطة من تاريخ الطبرى .

(٢) الطبرى : «ولم يفعل ذلك» .

الكُدْر ، فوالله إنى لأُرْتِع فَأُشْبِع ، وأسقى فأروى ، وإنى لأضرب العَرُوضَ ، وأزجر العَجُول ، وأُؤدّب قَدْرِى ، وأسوق خَطْوتى ، وأردّ اللَّفُوت ، وأضُمّ العَنود ، وأُكثر الضّجر ، وأقلّ الضرب ، وأشهر بالعصا ، وأدفع باليد ، ولولا ذلك لأعذرت .

قال أبو جعفر : فكان معاويةُ إذا حدّث بهذا الحديث يقول : كان والله عالما برعيّته(١) .

قال ابن قتيبة : رَمَلْت السّرير وأرملتُه ، إذا نسجتَه بشريط من خُوصٍ أو ليف .

وذقّن عليها ، أى وضع عليها ذقنه يستمع الحديث .

وقوله : فقَرِع حَجُّكم ، أى خلَتْ أيّام الحجّ من الناس ، وكانوا يتعوذون من قَرَع الفِناء ، وذلك ألّا يكون عليه غاشية وزوّار ، ومِن قَرَع المراح ، وذلك ألّا يكون فيه إبل

والقابية : قشر البيضة إذا خرج منها الفرخ .

والقُوبُ : الفَرْخ ، قال الكُميت :

لهنّ وللمشيب ومَنْ علاه   من الأمثال قابيـة وقُوبُ

أراد أنّ النساء ينفرنَ من ذى الشيب ويفارقنه كما يفارق الفرخ البيضة ، فلا يعود إليها بعد خُروجِه منها أبدا . وروى عن عمر : إنكم إذا رأيتم العُمرة فى أشهر الحجّ كافية من الحجّ خلت مكة من الحجّاج ، فكانت كبيضةٍ فارقها فرخها .

قوله : « إنّى لأُرتِعُ فأُشْبِع ، وأسقى فأروى » مثلٌ مستعار من رعيت الإبل ، أى إذا أرتعت الإبل ، أى أرسلتها ترعى تركتها حتى تشبع ، وإذا سقيتها تركتها حتى تروى .

وقوله : « أضرب العَرُوض » ، العروض : النّاقة تأخذ يمينا وشمالا ، ولا تلزم المحجّة ، يقول : أضربها حتى تعود إلى الطريق . ومثله قوله : « وأضم العنود » .

والعجول : البعير يندّ عن الإبل ، يركب رأسه عجلا ويستقبلها .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٥ (طبعة المعارف) .

قوله : « وأؤدّب قَدْرِى » ، أى قدر طاقتى .

وقوله : « وأسوق خَطْوتى » أى قدر خَطْوتى .

واللَّفُوت : البعير يلتفت يميناً وشمالا ويروغ ،

وقوله : وأكثِر الزَّجْر وأقلّ الضرب » أى أنه يقتصر من التأديب فى السياسة على مايكتفى به ، حتى يضطر إلى ماهو أشدّ منه وأغلظ .

وقوله : « وأشهر بالعصا وأدفع باليد» ، يريد أنّه يرفع العصا يُرْهب بها ولا يستعملها، ولكنّه يدفع بيده .

قوله : « ولولا ذلك لأعْذَرْت » أى لولا هذا التدبير وهذه السياسة لخلفت بعض ما أسوق ، ويقال : أعْذَر الرّاعى الشاة والناقة إذا تركها ، والشاة العذيرة وعذرتْ هى ، إذا تخلّفَتْ عن الغنم .

قال ابن قتيبة ، وهذه أمثال ضربها ، وأصلها فى رِعْيَة الإبل وسوقها ، وإنّما يريد بها حُسْن سياسته للناس فى الغزَاة التى ذكرها ، يقول : فإذا كنتُ أفعل كذا فى أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله مع طاعةِ الناس له ، وتعظيمهم إياه ، فكيْفَ لاأفعله بعده!

وعندى أنّ ابنَ قتيبة غالطٌ فى هذا التأويل ، وليس فى كلام عمر ما يدلّ على ذلك وليس عمر فى غزاة قرقرة الكُدْر يسوسُ الناس ولا يأمرهم ولا ينهاهم ، وكيف ورسول الله صلى الله عليه وآله حاضرٌ بينهم ! ولا كان فى غزاة قرقرة الكدر حرب ، ولا مايُحتاج فيه إلى السّياسة ، وهل كان لعمر أو لغير عمر ورسول الله صلى الله عليه وآله حىّ أن يُرْتِع فيشبع، ويسقى فيروِى ! وهل تكون هذه الصّفات وما بعدها إلا للرئيس الأعظم ا والذى أراده عمر ذكر حاله فى خلافته رادًّا على عمران بن سوادة فى قوله : « إنّ الرعيّة يشكُون منك عُنْف السِّياقِ وشدة النَّهر » ، فقال : لَيشكون ! فوالله إنىّ لرفيق بهم ، ومستقصٍ فى سياستهم،

ولا ناهكٍ لهم عقوبة ، وإنى لأقنع بالهيبة والتهويل عليهم ، ولا أعمِلُ العصا حيث يمكننى الاكتفاء باليد ، وإنى أردّ الشارد منهم وأعدل المائل . . . ، إلى غير ذلك من الأمور ، التى عدّدها وأحسن فى تعديدها .

وإنما ذكر قوله : « أنا زميل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى غزاة قرقرة الكدر » ، على عادة العرب فى الافتخار وقت المنافرة وعندما تجيش النفس ويحمى القلب ، كما كان على عليه السلام يقول وقت الحاجة: «أنا عبد الله وأخو رسوله» ، فيذكر أشرف أحواله ، والمزيّة التى اختصّ بها عن غيره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله فى غزاة قَرْقرة الكدر أردفَ عمر معه على بعيره ، فكان عمر يفتخرُ بها ويذكرها وقت الحاجة إليها .

***

وفى حديث عمر أنه خرَج من الخلاء ، فدعا بطعام فقيل له : ألا تتوضّأ ؟ فقال: لولا التّنطس ماباليت ألّا أغسل يدى[1] .

قال أبو عبيد القاسم بن سلّام : قال ابن عُلَيَّة : التنطّس التقذُّر . وقال الأصمعىّ : هو المبالغة فى التطّهر ، فكلّ من أدقّ النظر فى الأمور فاستقصى علمها فهو متنطّس ، ومنه قيل للطبيب : النِّطاسىّ والنِّطِّيس لدقّة علمه بالطب .

***

وفى حديث عمر حين سأل الأسقفَّ عن الخلفاء ، فحدّثه ، حتى إذا انتهى إلى الرابع ، فقال : صَدْع من حديد ، وقال عمر : وادفْراه[2] !

قال أبو عبيدة ، قال الأصمعىّ : كان حمّاد بن سلمة يقول : «صدأ من حديد» ، وهذا أشبه بالمعنى ، لأنّ الصّدأ له دَفَرٌ وهو النتن ، والصّدْع لا دَفَرله ، وقيل للدنيا أمّ دَفْرٍ ، لما فيها من الدواهى والآفات ، فأمّا الذّفَر بالذّال المعجمة وفتح الفاء فهو الريح الذكيّة من طيب أو نَتْن .

(١) الفائق ٣ : ١٠٤ (٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ٢٦ .

وعندى فى هذا الحديث كلام ، والأظهر أن الرواية المشهورة هى الصحيحة، وهى قوله: « صدَع من حديد » ، ولكن بفتح الدال ، وهو ما كان من الوعول ؛ بين العَظِيم والشَّخْت ، فإن ثبتت الرواية بتسكين الدّال فغير ممتنع أيضاً ، يقال : رجل صَدْع ، إذا كان ضَرْباً من الرّجال ، ليس برَهْلٍ ولا غليظ .

ورابع الخلفاء هو علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وأراد بالأسقُفّ مدحه .

وقول عمر : « وادَفْراه! » إشارة إلى نفسه ، كأنه استصغرَ نفسه وعابها بالنسبة إلى ما وصفه الأسقُفّ من مدح الرابع وإطرائه .

فأمّا تأويلُ أبى عُبيدة فإنه ظنَّ أنّ الرابع عثمان، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله معدودا من الجملة ليصحَّ كون عثمان رابعاً، وجعل الدَّفَر والنتن له، وصرف اللفظ عن الرواية المشهورة إلى غيرها ، فقال : « صَدَأ حديد » ، ليطابق لفظة النَّتْن على ما يليق بها، فغير خاف ما فيه من التعسّف ، ورفض الرواية المشهورة .

وأيضاً فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز إدخالُه فى لفظ الخلفاء ، لأنه ليس بخليفة ، لأن الخليفة من يخلفُ غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وآله مستخلِف الناس كلهم وليس بخليفة لأحد .

* * *

وفى حديث عمر ، قال عند موته : « لو أنّ لى ما فى الأرض جميعاً لافتديتُ به من هول المُطَّلَع » (١) .

قال أبو عُبيد: هو موضع الاطّلاع من إشراف إلى انحدار، أو من انحدار إلى إشراف، وهو من الأضداد ، فشبّه ما أشرف عليه من أمر الآخرة .

* * *

(١) الفائق ٢ : ٨٨ .

وفى حديث عمر ، حين بعث حذيفة وابن حُنَيف إلى السّواد ففلَجا الجزْية على أهله [١].

قال أبو عبيد : فلجا أى قَسَما بالفِلْج ، وأصله من الفِلْج، وهو المكيال الذى يقال له الفِلْج لأنّ خراجهم كان طعاماً .

* * *

وفى حديث عمر حين قال له حذيفة: إنّك تستعين بالرّجُل الذى فيه — وبعضهم يرويه بالرجل الفاجر ، فقال : « استعمله لأستعين بقوته ، ثم أكون على قُفّانه » [٢] .

قال أبو عبيد عن الأصمعىّ: قُفّان كلّ شىء جُمّاعه واستقصاء معرفته، يقول : أكونُ على تتبُّع أمره حتى أستقصِىَ عمله وأعرفه .

قال : أبو عُبيد : ولا أحسِب هذه الكلمة عربية ، وإنما أصلها «قَبّان»، ومنه قول العامة : فلان قَبّان على فلان ، إذا كان بمنزلة الأمين عليه والرئيس الذى يتتبّع أمره ويحاسبه ، وبه سمِّىَ هذا الميزان الذى يقال له القَبّان .

* * *

وفى حديث عمر حين قال لابن عباس وقد شاوره فى شىء فأعجبه كلامه: نِشْنشة [أعرفها] من أخشن ، هكذا الرواية ، وأما أهل العلم فيقولون : « شنشنة أعرفها من أخزم » [٣] .

والشّنشنة فى بعض الأحوال قد تكون بمعنى المُضْغة أو القطعة تُقطع من اللحم، والقول المشهور أنّ الشّنشنة مثل الطبيعة والسجيّة ، فأراد عمر إنى أعرف فيك مشابه من أبيك فى رأيه ، ويقال : إنّه لم يكن لقرشىّ مثل رأى العباس .

قال : وقد قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يجوز « شنشنة » و « نشنشة » ، وغيره ينكر « نشنشة » .

* * *

(١) الفائق ٢ : ٢٦٩ .
(٢) النهاية ٣ : ٢٩٦ . والفائق ٢ : ٣٦٥
(٣) النهاية ٢ : ٢٣٨ .

وفى حديث عمر يوم السقيفة ، قال : « وقد كنت زوّرت فى نفسى قالةً ، أقومُ بها بين يدى أبى بكر ، فلم يترك أبو بكر شيئاً مما زوّرته إلّا تكلّمَ به » .

قال أبو عُبيد : التّزوير إصلاح الكلام وتهيئته كالتزويق [1] .

* * *

وفى حديث عمر حين ضرب الرجل الذى أقسم على أمّ سلمة ثلاثين سوطا كلّها تَبْضَع وتحْدُرُ [2] .

قال أبو عبيد : أى تشقّ وتورم ، حَدَر الجلد يحدُره وأحدره غيرُه .

* * *

وفى حديثه أنه قال لمؤذّن بيت المقدس: «إذا أذّنت فترسَّلْ» ، وإذا أقمت فاحذم [3] .

قال أبو عُبيدة: الحذْم بالحاء المهملة الحدر فى الإقامة ، وقطع التّطويل، وأصله فى المشى، وهو الإسراع فيه ، وأن يكون مع هذا كأنه يهوِى بيده إلى خلفه ، والجذْم بالجيم أيضاً القطع ، وكذلك الخَذْم بالخاء المعجمة .

* * *

وفى حديثه أنّه قال : « لا يقرّ رجل أنه كان يطأ جاريتَــه إلا ألحقتُ به ولدها ، فمن شاء فليُمْسِكها ومن شاء فليُرْسلها » .

قال أبو عبيد: هكذا الرواية بالسّين المهملة والمعروف أنه : «الإرشال» بالشين المعجمة، ولعله حوّل الشين إلى السين كما يقال سَمّتُّ العاطش ، أى شمّتّه :

* * *

وفى حديثه : « كذب عليكم الحجّ ، كذب عليكم العمرة ، كذب عليكم الجهاد، ثلاثة أسفار ، كذبتْ عليكم [4] » .

(١) النهاية ٢ : ١٣٤ (٢) النهاية ٢ : ٨٣ (٣) النهاية ١ : ٢١٠ .
(٤) الفائق ٢ : ٤٠١ ، نهاية ابن الأثير ٤ : ١٢ ، اللسان (كذب) .

قال أبو عبيد : معنى كذب عليكم الإغراء ، أى عليكم به ، وكان الأصل فى هذا أن يكون نصباً ، ولكنه جاء عنهم بالرفع شاذا على غير قياس ، ومما يحقق أنه مرفوع قول الشاعر :

كذبت عليك لا تزالُ تقُوفنِي ‏ ‏ كما قاف آثار الوثيقة قائفُ

فقوله : « كذبت عليك » ، إنّما أغراه بنفسه ، أى عليكَ بِى ؛ فجعل « نفسه » فى موضع رفع ، ألا تراه قد جاء بالباء فجعلها اسمه .

وقال معقّر بن حمار البارقىّ :

وُذْبيانيّة وصّتْ بنيها ‏ ‏ بأنْ كذب القراطفُ والقُروف[1]

فرفع ، والشعر مرفوع ، ومعناه عليكم بالقراطف والقروف ، والقراطف : القطف واحدها قُرْطُف . والقروف : الأوعية .

ومما يحقِّق الرفع أيضاً قول عمر « كذبت عليكم » ، قال أبو عبيد : ولم أسمع النّصب فى هذا إلّا حرفا ، كان أبو عبيد يحكِيه عن أعرابىّ نظر إلى ناقةٍ نضو[2] لرجل ، فقال : كذب عليك البزرُ والنّوى[3] لم أسمع فى هذا نصبا غير هذا الحرف .

قال : والعربُ تقول للمريض : كذبَ عليك العسلُ[4] ، بالرفع ، أى عليك به .

***

وفى حديثه : « مايمنعكم إذا رأيتم الرّجُلَ يخرق أعراض النّاس ألا تعرّبوا عليه » ؟ قالوا : نخاف لسانه ، قال : « ذاك ألّا تكونوا شهداء »[5] .

قال أبو عبيد : « ألّا تعرِّبوا » ، أى ألّا تُفْسِدوا عليه كلامه وتُقبّحوه له .

***

وفى حديثه : أنّه نهى عن القَرْس فى الذبيحة[6] .

(١) الفائق ٢ : ٤٠١ ، اللسان ٢ : ٢٠٥
(٢) نضو : هزيلة .
(٣) اللسان (كذب) .
(٤) اللسان (كذب) .
(٥) الفائق ٢ : ١٣٤
(٦) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

قال أبو عُبيد : قيل فى تفسيره : أن ينتهىَ بالذّبح إلى النّخاع وهو عَظْم فى الرقبة ، وربّما فسّر النّخاع بأنّه المخّ الذى فى فقَار الصُّلب متّصلا بالقفا ، فنَهى أن ينتهىَ بالذبح إلى ذلك .

وقيل فى تفسيره أيضا : أن يكسر رقبة الذّبيحة قبل أن تبرد ، ويؤكّدهذا التفسير قوله فى تمام الحديث : « ولا تعجّلوا الأنفس حتى تَزْهَق » .

* * *

وفى حديثه حين أتاه رجلٌ يسأله أيّام المَحْل ، فقال له : هَلَكْت وأهْلَكتُ ، فقال عمر : « أهلَكْتَ وأنت تَنِثّ نَثيثَ الحَميت ؛ أعطوه رُبَعة من الصّدقة » ، فخرجت يتبعها ظئْراها [(1)] .

قال أبو عبيد : قد روى : « تمُثّ » ، بالميم [(2)] والمحفوظ بالنون . وتنِثّ ، أى ترشَح وتعرَق من سِمَنِك وكثرة لحمك .

والحَمِيت : النِّحْى وفيه الرُّبّ أو السَّمْن أو نحوها . والرُّبَعة : ماولد فى أول النِّتاج ، والذّكر رُبَع .

* * *

وفى حديثه أنَّه خرَج إلى المسجد للاستسقاء فصعِد المنبر ، فلم يزدْ على الاستغفار حتى نزل فقيل : إنّك لم تَسْتَسْقِ ، فقال : « لقد استسقيتُ بمجاديح السماء » [(3)] .

قال أبو عبيد : جعل الاستغفَار استسقاء ، تأوّل فيه قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ [(4)] . والمجاديح : جمع مِجْدَح وهو النّجم الذى كانت العرب تزعم أنها تُمْطَر بِهِ ، ويقال : مُجْدَح بضم الميم ، وإنّما قال عمر ذلك ، على أنّها كلمةٌ جارية على ألسنة العرب ، ليس على تحقيق الأنواء ، ولاالتصديق بها

---

(١) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٢٥ ، الفائق ٣ : ٢١٠
(٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٧٧ .
(٣) نهاية ابن الأثير ١ : ١٤٦
(٤) سورة نوح ١٠ ، ١١ .

وهـذا شبيه بقول ابن عبّاس فى رجل جعل أمرَ امرأته بيدها ، فقالت له : أنتَ طالق ثلاثا ، فقال : خطّأ الله نوءها ! ألّا طلّقت نفسها ثلاثا ! ليس هـذا دُعاء منه ألّا تُمطِر ، إنّما ذلك على الكلام المقول .

ومما يبيّن أنّ عمر أراد إبطالَ الأنواء والتّكذيب بها قوله :« لقد استسقيتُ بمجاديح السماء » ؛ التى يستسقى بها الغيث ، فجعل الاستغفار هو المجاديح لا الأنواء .

***

وفى حـديثه ، وهو يذكر حال صِباه فى الجاهليّة : لقد رأيتُنى مرةً وأختاً لى نرعى على أبوينا ناضحاً لنا ، قد ألبستنا أمّنا نُقْبتها ، وزوّدتنا يُمَيْنَتَيْها من الهَبيدِ ، فنخرجُ بناضحنا ، فإذا طلعت الشمس ، ألقيت النُّقْبة إلى أختى ، وخرجت أسعى عُريان فنرجع إلى أمّنا ، وقد جعلتْ لنا لفيتَةً من ذلك الهبيد ؛ فياخِصْباه ![1] .

قال أبو عُبَيد : النَّاضِح : البعير الذى يُسْنَى عليه فيسقى به الأرض ، والأنثى ناضحة ، وهى السانية أيضاً ، والجمع سوانٍ ، وقد سَنَتْ تَسْنُو ، ولا يقال : ناضحٌ لغير المستسقى .

والنُّقْبة أن تُؤخذ القطعة من الثوب قدْرالسراويل فيجعل لها حُجْزة مخيطة من غير نَيْفق[2] ، وتُشَدُّ كما تشدّ حَجْزة السراويل ، فإن كان لها نَيْفَق وساقان ، فهى سراويل .

وقال : والذى وَرَدَتْ به الرّواية « زَوّدتْنا يُمَيْنَتَيْهَا » ، والوجه فى الكلام أن يكون « يُمَيِّنَتَيْهَا » بالتشديد ، لأنه تصغير « يمين » بلا هاء ؛ وإنما قال : « يمينتيها » ولم يقل : يديها ولا كفيها لأنه لم يرد أنها جمعت كفّيها ثم أعطتنا بهما ، وإنما أراد أنها أعطت كلّ واحدٍ كفًّا كفًّا بيمينها ، فهاتان يمينان .

الهبيد : حبّ الحنظل ، زعموا أنه يعالج حتّى يمكن أكله ويطيب .

---

(١) الفائق ٣ : ٢١١ .   (٢) نيفق السراويل : المتسع منها .

واللَّفِيتة : ضرب من الطّبيخ كالحُساء .

* * *

وفى حديثه : « إذا مرّ أحدكم بحائط فليأ كل منه ، ولا يتخذ ثِبانا »(١) .

قال أبو عبيد : هُو الوعاء الّذِى يحمَل فيه الشىء ؛ فإن حملتَه بين يديك فهو ثِبان ، وإن جعلتَه فى حُضْنك فهى خُبْنة .

* * *

وفى حديثه : «لو أشاء لدعوت بصِلَاء وصِنَابٍ وصلائق وكراكرة وأسْنِمة وأفلاذ»(٢) .

قال أبو عبيد : الصِّلاء: الشّواء. والصِّناب: الخردل بالزبيب. والصَّلائق: الخبْز الرقيق، ومن رواه «سلائق» بالسين أراد ما يسلَق من البقول وغيرها . والكراكر، كراكر الإبل. والأفلاذ : جَمع فِلْذ وهو القطْعة من الكبد .

* * *

وفى حديثه : « لو شئتُ أن يُدَهْمَق لى لفعلت »(٣) .

قال أبو عبيد : دهمقتُ الطعام ، إذا ليَّنْتَه ورققته وطيّبته .

* * *

وفى حديثه : « لئن بقيتُ لأسَوِّيَنّ بين الناس ، حتى يأتىَ الرّاعىَ حقُّه فى صُفْنه لم يعرق جبينه »(٤) .

الصُّفْن : خريطة للرّاعى فيها طعامُه وما يحتاج إليه . وروى بفتح الصّاد ، ويقال أيضا « فى صَفِينه » .

* * *

(١) الفائق ١ : ١٤٢ (٢) الفائق ٢ : ٣٤ (٣) الفائق ١ : ٤٢١ (٤) النهاية ٢ : ٢٦٨

وفى حديثه: « لئن بقيتُ إلى قابل ، ليأتينّ كلَّ مسلمٍ حقُّه ، حتى يأتىَ الراعى بسَرْوِ حِمْير ، لم يعرَق جبينه[١] ».

السّرو مثل الخَيْف ، وهو ماانحدرَ عن الجبل وارتفع عن المسيل .

***

وفى حـديثه : « لئِنْ عشتُ إلى قابل ، لأُلحِقَنَّ آخر الناس بأوّلهم ، حتى يـكونوا ببّاناً واحداً[٢] » .

قال أبو عبيد: قال ابنُ مهدىّ : يعنى شيئاً واحداً ، ولاأحسب هذه الـكلمَةعربيّة، ولم أسمْعها فى غير هذا الحديث .

***

وفى حديثه : أنّه خطب، فقال :« ألا إنّ الأُسَيْفِعَ[٢] ـ أُسَيْفِع جُهينة[٣] ـ رضىَ من دينه وأمانتهِ بأن يقال : سابق الحاجّ ـ أو قال : سَبَق الحاجّ ـ فادّان مُعْرِضاً فأصبح قدْ رِينَ به ؛ فمن كان له عليه دَيْنٌ فليغدُ بالغداة ، فلنقْسم ماله بينهم بالحصص»[٤] .

قوله : « فادّان مُعْرِضاً » أى استدان مُعْرِضاً ، وهو الّذِى يعترض الناس فيستدين ممّن أمكنه، وكلّ شىء أمكنك من عرضِهِ فهو معرِض لك ، كقوله : « وَالْبَحْرِ مُعْرِضاً والسَّدِير »[٥].

ورين بالرّجل ، إذا وقع فيما لا يمـكنه الخروج منه .

***

(١) النهاية لابن الأثير ؛ والخبر هناك : « لولا أن أترك الناس ببّاناً واحداً ما فتحت على قرية إلا قسمتها » ؛ أى أتركهم شيئاً واحداً .

(٢) قال الزمخشرى : « الأسيفع تصغير الأسفع ، صفة وعلما » .

(٣) جهينة : من بطون قضاعة .

(٤) الفائق ١ : ٦٠٠ .

(٥) قطعة من بيت لعدى بن زيد ، والبيت بتمامه :

سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْـــلِكُ وَالْبحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّدِيرُ

وفى حديثه : أنّه قال لمولاه أسلم — ورآه يحمل متاعه على بعير من إبل الصدقة — فقال : « فهلاّ ناقة شَصُوصاً أو ابنَ لبون بوّالًا ! »(١) .

الشَّصُوص : التى قد ذهب لبنُها ، ووصف ابن اللّبون بالْبول ، وإن كانت كلُّها تبولُ ، إنما أرادَ : ليس عنده سوى البول ، أى ليس عنده ممّا يُنتفع به من ظَهْرٍ ولا له ضَرْعٌ فيحلب، لا يزيد على أنه بوّال فقط .

***

وفى حديثه حين قيل له : إنّ النساء قد اجتمعنَ يبكين على خالد بن الوليد ، فقال : « وما على نساء بنى المغيرة أن يسْفِكن من دموعهنّ على أبى سليمان ، ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَة ! »(٢) .

قيل : النقع ها هنا طعام المأتم ، والأشبه أنّ النَّقْع رفع الصوت ، واللّقلقة مثله .

***

وفى حديثه : أنّ سلْمان بن ربيعة الباهلىّ شكا إليه عاملاً من عماله ، فضربه بالدّرّة حتى أنْهج(٣) .

قال أبو عبيد : أى أصابه النَّفس والبُهْر من الإعياء .

***

وفى حديثه حين قَدِم عليه أحدُ بنى ثوْر ، فقال له : هلْ مِنْ مغرِّبَةٍ خبر ؟ فقال : نعم أخذنا رجلا من العرب ، كَفَر بعد إسلامه فقدّمناه فضرْبنا عنقه ، فقال : « فهلا أدخلتموه جَوْف بيتٍ فألقيتُم إليه كل يوم رغيفاً ثلاثة أيام ، لعله يتوب أو يراجع ! اللهمّ لم أشهد ولم آمر ، ولم أرض إذْ بلغنى »(٤) .

(١) الفائق ١ : ٦٥٨ . (٢) نهاية ابن الأثير ٤ : ٦٤ ، ١٧٢ .
(٣) نهاية ابن الأثير ٤ : ١٨٥ ، وقال فى شرحه : « أى وقع عليه الربو — يعنى عمر » .
(٤) الفائق ٢ : ٢٢١ .

يقال : هل من مغرِّبةِ خبرٍ بكسر الراء ، ويروى بفتحها ، وأصله البُعْد ، ومنه شأوٌ مُغرِّب .

* * *

وفى حديثه أنه قال : آللهِ ليضربنّ أحدكم أخاه بمثل آكلة اللحم ، ثم يرى أنه لا أُقيدُه ، واللهِ (١) لأُقيدنّه (٢) » .

قال أبو عبيد : آكلة اللحم : عصا محدّدة .

* * *

وفى حديثه : « أعضَل بى (٣) أهلُ الكوفة ، مايرضوْن بأمير ، ولايَرْضاهم أمير (٤) » . هو من العُضَال ، وهو الدّاء والأمر الشديد الذى لا يقوم له صاحبه (٣) .

* * *

وفى حديثه : أنه خطب فذكر الرّبا ، فقال : « إنّ منه أبواباً لا تخفى على أحد ، منها السَّلَمَ فى السّنّ ، وأن تباع الثمرة وهى مغضِفة ولمّا تطب ، وأن يباع الذهب بالورِق نَساءً (٥) » .

قال أبو عبيد : السَّلَمَ فى السّنّ أن يسلف الرجل فى الرّقيق والدّواب وغيرها من الحيوان ، لأنه ليس له حدّ معلوم .

والمغضِفة : المتدلّية فى شَجَرها ، وكلّ مسترخٍ أغضَف ، أى تكون غير مدرِكة .

* * *

وفى حديثه : أنّه خطب ، فقال : ألا لا تغالُوا فى صَدَاق النّساء ، فإنّ الرجل يغالِى بصدَاق المرأة ، حتى يكون ذلك لها فى قلبه عداوة ، تقول : جشِمت إليك عرَق القربة (٦) .

(١) فى الفائق : « اللهِ » بالجر ، قال : وأصله : « أبالله » ، فأضمر الباء .
(٢) الفائق ١ : ٣٨ .
(٣) وفى رواية نقلها الزمخشرى : « غلبنى أهل الكوفة » .
(٤) الفائق ٢ : ١٦٣ ، وتمام الرواية : « أستعمل عليهم المؤمن فيضعف ، وأستعمل عليهم الفاجر فيفجر » . (٥) نهاية ابن الأثير ٣ : ١٦٤ ، والفائق ١ : ٦١٨ . (٦) الفائق ٢ : ١٣٥ .

قال : معناه تكلّفت لك حتى عرِقتَ عرَقَ القربة ، وعرقُها : سَيَلان مائها .

***

وفى حديثه : أنه رفِع إليه غلام ابتهر جارية فى شِعْره ، فقال : « انظروا إليه ، فلم يوجد أنبت ، فدرأ عنه الحدّ»[١] .

قال أبو عبيد : ابتهرها ، أى قذَفها بنفسه ، فقال : فعلت بها.

***

وفى حديثه : أنه قضَى فى الأرنب بحُلّانٍ إذا قتلها المحرم[٢] .

قال : الُحلّان : الجدى .

***

وفى حديثه : أنه قال : « حَجّةً هاهنا ، ثم احْدِجْ هاهنا حتى تَفْنَى»[٣] .

قال : يأمر بحجة الإسلام لا غير ، ثم بعدها الغزو فى سبيل الله .

حتى تفنى أى حتّى تهرم .

***

وفى حديثه : أنه سافر فى عَقِب رمضان ، وقال : « إنّ الشهر قد تسعْسَع ، فلوصمنا بقيّته »[٤] .

قال أبو عبيد : السين مكرّرة مهملة ، والعين مهملة ، أى أدبر وفَنِى .

وفى حديثه ـ وقد سمع رجلا خطب فأكثر ـ فقال : « إنّ كثيراً من الخطب من شَقاشِق الشيطان »[٥] .

الواحدة شِقْشقة ، وهو مايخرج من شِدقْ الفحل عندنزوانه، شبيهةبالرئة . والشيطان

---

(١) النهاية ١ : ١٠٠

(٢) الفائق ١ : ٢٨٦ .

(٣) النهاية ١ : ٢٠٨

(٤) الفائق ٢ : ١٧٥ .

(٥) الفائق ١ : ٦٧١ .

لا شقشقة له ، إنّما هذا مِثل لما يدخل فى الخطب من الكلام المكذوب وتزوير الباطل

***

وفى حديثه : أنه قدم مكّة ، فأذَّن أبو محذورة ، فرفع صوتَه فقال له : « أما خشيت يا أبا محذورة أن ينشقّ مُرَيْطاؤك[(١)] ! » .

قال : المُرَيطاء : مابين السرّة إلى العانة ، ويروى بالقصر .

***

وفى حديثه : أنه سئل عن المذْى ، فقال هو الفَطْر ، وفيه الوضوء[(٢)] .

قال : سمّاه فَطرا[(٣)] من قولهم : فَطرْت الناقة فَطْرا ، إذا حلبتَها بأطراف الأصابع فلا يخرج اللّبن إلا قليلا ، وكذلك المَذْى ، وليس المَنِىّ كذلك ، لأنه يخرج منه مقدار كثير .

***

وفى حديثه : أنه سئل عن حدّ الأمة الزانية ، فقال : « إنّ الأمَة ألقت فَرْوة رأسها من وراء الدّار[(٤)] » .

قال : الفَرْوة : جلدة الرأس ، وهذا مثل ، إنما أراد أنها ألقت القناع وتركت الحجاب ، وخرجت إلى حيث لا يمكنها أن تمتنع من الفجور ، نحو رعاية الغنم ؛ فكأنّه يرى أن لا حدّ عليها .

***

وفى حديثه ، أنّه أُتِىَ بشاربٍ ، فقال لأبعثنّك إلى رجل لا تأخذه فيك هَوادة ، فبعث به إلى مطيع بن الأسْوَد العَدَوِىّ[(٥)] ، فقال : إذا أصبحتَ غداً فاضربه الحدّ ، فجاء عمر

---

(١) الفائق ٣ : ٢٠

(٢) الفائق ٢ : ٢٨٦ .

(٣) قال الزمخشرى : وروى « الفطر » بالضم

(٤) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

(٥) الفائق : « العبدى » .

وهو يضرِبه ضرباً شديدا ، فقال : قتلتَ الرجل ! كم ضربته ؟ قال : ستين ، قال : « أقِصَّ عنه بعشرين [١] » .

قال : معناه اجعل شِدّة هـذا الضرب قِصاصاً بالعشرين التى بقِيَت من الحـدّ فلا تضربه إياها .

***

وفى حديثه أنّ رجلا أتاه فذكر له أنّ شهادة الزور قد كثُرت فى أرضهم ، فقال : « لا يؤسَرُ أحدٌ فى الإسلام بشهادة [٢] الزور ، فإنّا لا نقبل إلاّ العدول » [٣] .

قال : لا يؤسَرُ : لا يحبس ، ومنه الأسير : المسجون .

***

وفى حديثه : أنه جَدَب السّمر بعدَ عَتمة [٤] .

جَدَبه [٥] ، أى عابه ووَصمه .

ومثل هذا الحديث فى كراهيته السّمر حديثـه الآخر ؛ أنه كان ينُشّ الناس بعـد العشاء بالدِّرّة ، ويقول : انصرفو إلى بيوتـكم [٦] .

قال : هكذا روى بالشين المعجمة ، وقيل : إنّ الصحيح « ينُسّ » بالسين المهملة ، والأظهر أنه ينوش النّاس بالواو ، من التّناوش ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ [٧] .

***

وفى حديثه : « هاجروا ولا تَهَجَّروا ، واتقوا الأرنب أن يحذِفها أحدُكم بالعصا ، ولـكن ليذكّ لـكُم الأسلُ ؛ الرماحُ والنَّبْل » [٨] .

(١) الفائق ٣ : ٢٢٩
(٢) الفائق : « لشهداء السوء » .
(٣) الفائق ١ : ٣١
(٤) الفائق : « الثمر » .
(٥) الفائق ١ : ١٦٤
(٦) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٤٥ .
(٧) سورة سبأ ٥٢
(٨) الفائق ٢ : ٤٤٥ .

قال : رواه زِرّ بن حُبيش ، قال : قدمت المدينَة ، فخرجت فى يوم عيدٍ ، فإذا رجل متلبّب أعسرُ أيْسَر ، يمشى مع النّاس كأنه راكب ، وهو يقول : كذا وكذا ، فإذاهو عمر ، يقول : هاجِروا وأخلصوا الهِجْرة ولا تَهَجَّرُوا .

ولا تشبّهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم ، كقولك : تحلّم الرجل ، وليس بحليم ، وتشجّع وليس بشجاع .

والذّكاة : الذبح . والأسَلُ أعمّ من الرماح ، وأكثر مايستعمل فى الرّماح خاصّة .

والمتلبّب : المتحزّم بثيابه .

وفلان أعسر يَسَر : يعمل بكلتا يديه ، والذى جاء فى الرواية « أيسر » بالهمزة .

***

وفى حديثه : أنّه أفطر فى رمضان ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم نظر فإذا الشمس طالعة ، فقال : « لا نقضيه ؛ ماتجانفنا فيه الإثم » (١) .

يقول : لم نتعمّد فيه الإثم ، ولا مِلْنا إليه ، والجَنَف : الميل .

***

وفى حديثه : أنّه قال لما مات عثمان بن مَظْعون على فراشه : « هَبَتَهُ الموتُ عندى منزلة حين (٢) لم يمت شهيدا ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على فراشه وأبو بكر ، علمت أنّ موت الأخيارِ على فُرُشهم (٣) .

هَبَتَه ، أى طأطأه وحطّ من قدره .

***

وفى حديثه : أنّ رجلاً من الجنّ لقيَه ، فقال : هل لك أن تصارِعَنِى ، فإن صرعتَنى

---

(١) الفائق ١ : ٢١٨

(٢) اللسان : « حيث لم يمت شهيدا » .

(٣) الفائق : ٣ : ١٨٩ .

علّمتك آيةً إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخلْه شيطان . فصارعه فصرعه عمر، وقال له : إنّى أراك ضئيلا شَخِيتاً ، كأنّ ذراعيك ذراعا كلب ، أفهكذا أنتم كلُّكم أيها الجنّ، أم أنت من بينهم ؟ فقال: إنّى من بينهم لضليع ، فعاوِدْنى ، فصارعه فصرعه الإنسىّ، فقال: أتقرأ آية الكرسىّ ؟ فإنّه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيتَه إلّا خرج الشيطان منه، وله خَبَجٌ كخَبَجِ الحمار [1] .

قال : رواه عبدُ الله بن مسعود ، وقال : خرج رجلٌ من الإنس ، فلقيَه رجلٌ من الجنّ . . . ثم ذكر الحديث ، فقيل له : هو عمر ، فقال : ومَنْ عسى أن يكون إلا عُمَر!

الشَّخِيت : النّحيف الجسم ، ومثله الشَّخْت .

والضّليع : العظيم [2] الخَلْق .

والخَبَج : الضّراط .

* * *

وفى حديثه : أنّه كان يطوف بالبيت ، وهو يقول: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [3] ؛ ماله هِجّيرَى غيرها [4] .

قال : هِجّيرَى الرجل : دأْبُه ودَيْدَنه وشأنه [5] .

ومثلها من قول عمر : لو أُطِيقُ الأذان مع الخِلِّيفَى لأذنت .

ومثلها من قول عمر بن عبد العزيز : لا رِدِّيدَى فى الصدقة [6] ، أى لا تردّ .

ومثلها قول العرب : كانت بينهم رِمّيّا، أى مراماة ، ثم حجزت بينهم حِجّيزَى، أى محاجزة .

* * *

(١) الفائق ٢ : ٤٨ ، ٤٩

(٢) فى الفائق : « والضليع : المجفر الجنبين، الوافر الأضلاع ، وقد ضلع ضلاعة .

(٣) سورة البقرة ٢٠١ .

(٤) الفائق ٣ : ١٩٥

(٥) ٣ : ١٩٤ .

(٦) الفائق ١ : ٤٧٥ .

وفى حـديثه حين قال للرجل الذى وُجـد منبوذاً فأتاه به ، فقال : عسى الغوَير أبؤسا[(١)]! قال عريفه : ياأميرَ المؤمنين، إنّه وإنه...[(٢)]فأثنى عليه خيرا ، وقال:فهو حُرٌّ ، ولاؤه لك[(٣)] .

الأبؤس: جمع بأس[(٤)] والمثل قديم مشهور ، ومراد عمر : لعلك أنت صاحب هـذا المنبوذ ! كأنّه اتّهمه وساء ظنّه فيه،فلمّا أثنى عليهعَريفه ـ أى كفيله ـ قال له : هذا المنبوذ حُرٌّ وولاؤه لك ، لأنّه بإنقاذه إيّاه من الهَلـكة كأنه أعتقه .

***

وفى حديثه : إنّ قريشا تريد أن تـكونَ مُغْوِياتٍ لمال الله[(٥)] .

هكذايروى بالتّخفيف والـكسر،والمعروف «مغويّاتٌ» بتشديدالياءوفتحها،واحدتها مُغوّاة ، وهى حُفرة كالزُّبية تحفر للذئب ، ويجعل فيها جَدْىٌ ؛ فإذا نظر إليها الذئب سقَط يريده فيُصاد ، ولهذا قيل : لـكلِّ مَهْلَـكة مُغَوّاة .

***

وفى حديثه : « فَرّقوا عن المنيّة ، واجعلوا الرأس رأسيْن ، ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجَزة، وأصلحوا مثاوِيَـكم ، وأخيفوا الهوامّ قبل أن تخيفَـكم ، واخشوشنوا ، واخشوشبوا وتمعددوا[(٦)] » .

---

(١) الفائق : « الغوير : ماء لـكلب ؛ وهذا مثل ، أول من تـكلم به الزباء الملـكة حين رأت الإبل عليها الصناديق ، فاستنـكرت شأن قصير إذ أخذ على غير الطريق ؛ أرادت : عسى أن يأتى ذلك الطريق بشر ، ومراد عمر رضى الله عنه اتهام الرجل بأن يكون صاحب المنبوذ ، حتى أثنى عليه عريفه خيراً » .

(٢) قال فى الفائق : « إنه إنه ؛ أراد أنه أمين وعفيف ؛ وما أشبه ذلك فحذف .

(٣) الفائق ٢ : ٢٣٩

(٤) الفائق : « وانتصابه بعسى على أنه خبره على ما عليه أصل القياس » .

(٥) الفائق ٢ : ٢٤٠

(٦) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

قال: «فرّقوا عن المنيّة ، واجعلوا الرأس رأسين»، أى إذا أراد أحدكم أن يشترىَ شيئا من الحيوان كمملوك أو دابّة فلا يغالينّ به، فإنّه لايدرى مايحدث فيه ، ولكن ليجعل ثمنه فى رأسيْن ، وإن كان كلٌّ واحد منهما دون الأول ، فإن مات أحدهما بقى الآخر .

وقوله : « ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجَزة » ، فالإلثاث الإقامة ، أى لاتقيموا ببلد يعجزكم فيه الرّزق ، ولكن اضطرِبُوا فى البلاد للكَسْب .

وهذا شبيه بحديثه الآخر : « إذا اتّجر أحدُكم فى شىء ثلاث مرّات فلم يرزَق منه فليَدَعْه » .

والمثاوِى : المنازل ، جمع مَثْوَى .

وأخيفوا الهوامّ ، أى اقتلوا مايظهر فى دوركم من الحيّات والعقارب لتخافكم ، فلا تظهر .

واخشوشنوا: أمر بالخشونة فى العَيْش ، ومثله «اخشوشبوا» بالباء؛ أراد ابتِذَال النّفس فى العمل والاحتفاء فى المشى ليغلظ الجلد ، ويجسو .

وتمعددوا ، قيل إنه من الغِلَظ أيضا ، يقال للغلام إذا أنبت وغلُظ : قد تمعدد .

وقيل : أراد تشبّهوا بمعدّ بن عدنان ، وكانوا أهل قشف وغِلَظٍ فى المعاش ، أى دعوا التّنعُّم وزىّ العجم .

وقد جاء عنه فى حديث آخر مثله : « عليكم باللُّبْسة المعدّيّة » .

* * *

وفى حديثه: أنّه كتب إلى خالد بن الوليد: «إنّه بلغنى أنّك دخلت حمّاما بالشام، وأنّ مَنْ بها من الأعاجم أعدّوا لكم دَلُوكاً عُجِن بخمر ، وإنّى أظنّكم آل المغيرة ذَرْوُ النار »(١).

---

(١) الفائق ١ : ٤٠٧ .

الدَّلُوك : مايتدلّك به كالسَّحُور والقَطُور ونحوها .

وذَرْو النار : خلق النار . ويروى : « ذرء النار » بالهمزة ، من ذرأ الله الناس ،أى صوَّرَهم وأوْجَدهم .

* * *

وفى حديثه : « املكوا العجين ؛ فإنّه أحد الرَّيْعين »(١) .

ملكت العجين : أجدت عَجْنه .

والرّيع : الزيادة ، والريع الثانى مايزيدُ عند خَبْزِه فى التَّنُّور .

* * *

وفى حديثه حين طُعِن ، فدخل عليه ابن عباس فرآه مغتماًّ بمن يستخلف بعده ،فذكر عثمان فقال : كَلِفٌ بأقاربه(٢) ، قال : فعليّ ؟ قال : فيه دُعَابة ، قال : فطلحة ؟ قال : لولا بَأْوٌ فيه(٣) ، قال : فالزبير ؟ قال : وَعْقة لقِس(٤) . قال : فعبد الرحمن ؟ قال : أوَّه ! ذكرت رجلا صالحاً ولكنّه ضعيف ، وهذا الأمر لايصلُح له إلّا اللّين من غير ضَعْف ، والقويّ من غير عنف(٥) ، قال : فسعْد(٦) ؟ قال : ذاك يكون فى مِقْنَبٍ من مقانبكم(٧) .

قوله : « كلِف بأقاربه » أى شديد الحبّ لهم .

والدّعابة : المزاح .

---

(١) الفائق ١ : ٥١٨ .

(٢) الفائق : « وروى أخشى حقده وأثرته » .

(٣) الفائق : وروى أنه قال : « الأكنع له إن فيه بأوا أو نخوة » .

(٤) الفائق : « وروى ضرس ضبيس أو قال : ضميس » .

(٥) الفائق : وروى لا يصلح أن يلى هذا الأمر إلا حصيف العقدة ، قليل الغرة ، الشديد فى غير عنف ، اللين فى غير ضعف ، الجواد فى غير سرف ، البخيل فى غير وكف » .

(٦) ابن أبى وقاص .

(٧) الفائق ٤ : ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

والبأو : الكِبْر والعظمة .

وقوله : « وعْقة لقِس » ويروى « ضبيس » ، ومعناه كلّه الشراسة ؛ وشدّ الُخلق وخُبْث النفس .

والمِقْنب : جماعة من الفرسان .

***

وفى حديثه : أنه قال عامَ الرمادة : لقد هممتُ أن أجعلَ مع كلّ أهل بيتٍ من المسلمين مثلَهم ، فإنّ الإنسان لا يهلك على نِصْف شِبَعه ، فقال له رجل : لو فعلتَ ياأمير المؤمنين ما كنتَ فيها ابن ثأداء .

قال : يريد أنّ الإنسان إذا اقتصر على نصفِ شبعه ، لم يهلِكْ جوعا . وابن ثأداء[1] بفتح الهمزة : ابن الأمَة[2] .

***

وفى حديثه : أنه قرأ فى صلاة الفجر بالناس سورة يوسف ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ،[3] ، بكى حتى سُمع نشيجُه[4] .

النّشيج : صوت البكاء ، يردّده الصبى فى صَدْره ولا يخرجه .

***

وفى حديثه أنّه أُتى فى نِساء — أو إماء — ساعياتٍ[5] فى الجاهليّة ، فأمر بأولادهنّ أن يقوّموا على آبائهم ، فلا يُسْتَرقُّوا[6] .

(١) فى الفائق بسكون الهمزة ، وقال : الثأداة : الأمة ؛ سميت بذلك لفسادها لوما ومهانة ، من قولهم ثئد المبرك على البعير ، إذا انتل وفسد حتى لم يستقر عليه .

(٢) الفائق ١ : ١٤١ ، وفيه رواية أخرى : « إن رجلا قال له عام الرمادة : لقد انكشت وما كنت فيها ابن ثأداء ، فقال : ذلك لو أنفقت عليهم من مال الخطاب » .

(٣) سورة يوسف : ٨٦

(٤) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٤٣ .

(٥) الفائق : « ساعين » .

(٦) الفائق ١ : ٥٩٥ .

المسآعاة : زنا الإماء خاصّة[١] . قضى عمر فى أولادهنّ فى الجاهليّة أن يسوَّمن على آبائهم ، بدفع الآباء قيمتهم إلى سادات الإماء ، ويصير الأولاد أحراراً لاحقى النسب بآبائهم .

* * *

وفى حديثه : « ليس على عربىّ مِلْك ، ولسنا بنازعين من يد رجلٍ شيئاً أسلمَ عليهم، ولكنا نقوّمهم المِلّة خَمْساً من الإبل »[٢] .

قال : كانت العرب تَسبى بعضُها بعضاً فى الجاهلية ، فيأتى الإسلام والمسبىّ فى يدِ الإنسان كالمملوك له ؛ فقضى عمر فى مثل هذا أن يردّ حُرًّا إلى نسبه ، وتكون قيمته على نفسه يؤدّيها إلى الذى سباه ، لأنه أسلم وهو فى يده ، وقيمته كائناً ما كان خمسٌ من الإبل[٣] .

قوله : « والمِلّة » أى تقوم ملّة الإنسان وشرعها .

* * *

وفى حديثه لمّا ادّعى الأشعث بن قيس رقابَ أهلِ نجران ، لأنه كان سباهم فى الجاهليّة واستعبدهم تغلّبا فصاروا كماليكه ، فلما أسلموا أبوْا عليه، فخاصموه عند عمر فى رقابهم، فقالوا: ياأميرَ المؤمنين ، إنّما كنّا له عبيدَ مملكة ، ولم نكن عبيد قِنّ . فتغيّظ عمر عليه ، وقال: « أردت أن تَتَغَفّلنى ! »[٤] .

يعنى أردت غَفْلتى .

---

(١) الفائق : « ساعاها فلان ، إذا فجر بها ، وهو من السعى ، كأن كل واحد منهما يسعى لصاحبه » .

(٢) النهاية : ٤ : ١٩ .

(٣) فى النهاية عن الأزهرى : « كان أهل الجاهلية يطئون الإماء ويلدن لهم ، فكانوا ينسبون إلى آبائهم ، وهم عرب ، فرأى عمر أن يردهم على آبائهم ، فيعتقون ، ويأخذ من آبائهم لمواليهم عن كل واحد خمساً من الإبل » .

(٤) الفائق ٢ : ٣٨٠ ، وقال : « وروى أن تعنتنى » ، والتعنت طلب العنت .

وعبدٌ قِنٌّ مُلِكَ ومُلِكَ أبواه ، وعبد مَمْلَكَة بفتح اللام وضمها : من غلِب عليه واستعبِد ، وكان فى الأصل حُرًّا ، فقضى عمر فيهم أن صيّرهم أحراراً بلا عِوَض ، لأنه ليس بسباء على [1] الحقيقة .

* * *

وفى حديثه : أنه قضى فى ولد المغْرور بغُرّة [2] .

قال : هو الرجل يزوّج رجلا آخر مملوكةً لإنسان آخر على أنّها حُرّة ، فقضى عمر أن يغرَم الزوج لمولى الأمَة غُرّة ، أى عبدا أو أمَة ، ويكون ولده حُرّاً ، ثم يرجع الرجل الزوج على مَنْ غرّه بما غرِم .

* * *

وفى حديثه : أنه رأى جارية متكمكمة ، فسأل عنها فقالوا : أمَة آل فلان ، فضرَبَها بالدِّرّة ضربات ، وقال : يالكعاء ! أتَشبَّهين بالحرائر [3] !

قال : متكَمْكِمة : لابسةُ قناع ، أصله من الكُمّة ، وهى كالقنسوة ، والأصل مكممّة ، فأعاد الكاف ، كما قالوا : كفكف فلان عن كذا ، وتصرصر الباب .

ولكعاء ولَكَاعِ بالكسر والبناء : شتْمٌ للأَمَة ، وللرجل يقال : يالُكَع .

* * *

وفى حديثه : « وَرِّع اللّص ولا تُراعه » [4] .

يقول : ادفعه إذا رأيته فى منزلك واكْفُفْه بما استطعت ، ولا تنتظر فيه شيئا ، وكلُّ

---

(١) ا : « فى الحقيقة » .
(٢) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٥٦
(٣) الفائق ٢ : ٤٢٩
(٤) نهاية ابن الأثير ٤ : ٢٠٥

شىء كفف نه فقد ورّعته ، وكلّ ماتنتظره فأنت تراعيه ؛ والمعنى أنّه رخّص فى الإقدام على اللصّ بالسلاح ، ونهى أن يمسك عنه نائما .

* * *

وفى حديثه : أنّ رجلا أتاه ، فقال : إنّ ابنَ عمّى شُجّ مُوضِحة ، فقال : أمن أهل القُرى أم من أهل البادية ؟ قال : من أهل البادية ، فقال عمر : إنالانتعاقل المُضَّغ بيننا(١) .

قال : سمّاها مُضَغًا ، استصغاراً لها ولأمثالها كالسنّ والإصبع .

قال: ومثل ذلك لاتحمله العاقلة عند كثير من الفقهاء ، وكذلك كلّ ما كان دون الثُّلُث .

* * *

وفى حديثه : أنه لمّا حَصّب المسجد ، قال له فلان : لم فعلت ؟ قال: هو أغفر للنُّخامة ، وألينُ فى الموطىء (٢) .

أغفر لها : أستَرُ لها .

وحَصّب المسجد: فرَشه بالحَصْباء ؛ وهى رمل فيه حصًى صغار .

* * *

وفى حديثه : أنّ الحارث بن أوْس سأله عن المرأة تطوف بالبيت ، ثم تنفِر من غير أن تطوفَ طوَافَ الصّدَر إذا كانت حائضا ، فنهاه عمر عن ذلك ، فقال الحارث : كذلك أفتانى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال عمر : أرِبَتْ يداك ! أتسألنى ؛ وقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كى أخالفَه (٣) !

قال : دعا عليه بقطع اليديْن ؛ من قولك : قطعت الشاة إرْبا إرْبا(٤) .

* * *

(١) الفائق ٣ : ١٦٨ ، ومضغ الأمور ـ كسكر ـ صغارها. (٢) الفائق ١ : ٢٦٥ .
(٣) الفائق ١ : ٢٣ . (٤) الإرب : العضو .

وفى حديثه أنّه سمع رجلا يتعوَّذ من الفِتَن ، فقال عمر : اللهمَّ إنّى أعوذ بك من الضَّفَاطة ، أتسأل ربّك ألّا يرزقك مالا وولدا (١) !

قال : أراد قوله تعالى : ﴿ إنّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٢). والضَّفَاطة: الحُمْق وضَعْف العقل ، رجل ضَفيط ، أى أحمق .

* * *

وفى حديثه : « مابالُ رجالٍ لايزال أحدُهم كاسراً وسادة عندامرأة مُغْزِية، يتحدّث إليها وتتحدّث إليه ! عليكم بالجَنَبة فإنّها عَفَاف ، إنّما النساء لَحَمٌ على وَضم إلا ماذُبّ عنه (٣) » .

قال : مُغزِية ، قد غزا زوجها ، فهو غائب عنها ، أغزَت المرأة ، إذا كان بعلها غازياً، وكذلك أغابَتْ فهى مُغيبة .

وعليكم بالجَنَبة ، أى الناحية ، يقول: تنحَّوْا عنهنّ وكلّموهن من خارج المنزِل .

والوضَم : الخشبة أو البارِيّة يُجعل عليها اللّحم .

قال : وهذا مثل حديثه الآخر : « ألاَ لايدخلنّ رجلٌ على امرَأة وإن قيل حَمُوها، ألاَ حَمُوها الموت » (٤) .

قال : دعا عليها . فإذا كان هذا رأيه فى أبى الزوج وهو مَحْرَمٌ لها فكيف بالغَرِيب!

* * *

وفى حديثه : « إنّ بيعَة أبى بكر كانت فَلْتة وَقَى الله شرّها ، فلا بيعة إلّا عن مشورة؛ وأيُّما رجل بايع رجلا عن غير مشورة فلا يؤمَّر واحدٌ منهما تَغرّة أن يُقتلا (٥) .

قال : التغرّة : التغرير ، غرَّرت بالقوم تَغْريرا وتغرّة ، كقولك : حلّلت اليمين تحليلاً

---

(١) النهاية ٣ : ٢٢
(٢) سورة التغابن : ١٥ .
(٣) الفائق ٢ : ٤١١
(٤) الفائق ١ : ٢٩٥ .
(٥) الفائق ٢ : ٢٩٧ .

وتحِـلّة ، ومثله في المضاعف كثير ، أي أنّ في ذلك تغريرا بأنفسهما وتعريضاً لهما أن يُقتلا.

* * *

وفي حديثه : « إنّ العبد إذا تواضع لله رفع اللهُ حَكَمَتَه ، وقال : انتعشْ نَعَشك الله ، وإذا تـكبّر وعَدا طوْرَه وَهَصَه الله إلى الأرض » (١) .

قال : وهَصه أي كسره . وعدَا طورَه ، أي قدْره .

* * *

وفي حديثه : « حجّوا بالذّرّية ، لاتأ كلوا أرزاقَها ، وتَذَروا أرْبَاقها في أعناقها » (٢) .

قال : أراد بالذّرِيّة هنا النساء ولم يرد الصبيان ، لأنه لاحَجّ عليهم .

والأرباق : جمع رِبْق ، وهو الحبل .

* * *

وفي حديثه : أنّه وقف بين الحَرّتيْن – وهما داران لفلان – فقال: « شَوّى (٣) أخُوك ، حتى إذا أنضج رَمّد » (٤) .

هذا مثل يضرَب للرجل يصنع معروفاً ثم يفسده .

* * *

وفي حديثه : « السائبة والصّدقة ليومهما » (٥) .

قال : السّائبة : المعتَق .

---

(١) الفـائق ١ : ٢٧٩ ، وقال : « الحكمة من الإنسان : أسفل وجهه ، ورفع الحكمة ، كناية عن الإعزاز ، لأن من صفة الذليل أن ينكس ويضرب بذقنه وصدره . وقيل : الحكمة : القدر والمنزلة من قولهم : لا يقدر على هذا من هو أعظم حكمة منك » .

(٢) الفائق ١ : ٤٢٨ .

(٣) في الأصول : « ثوى » ، وما أثبتـه من الفـائق ، وشوى ، أي ألقى الشواء في النـار ، قال الزمخشري : « وهذا مثل ، نحوه قولهم : « المنة تهدم الصنيعة » .

(٤) رمد : ألقاه في الرماد ، والخبر في الفائق ١ : ٥٠٧

(٥) الفائق ١ : ٦٣٠ .

وليومهما : ليوم القيامة الذى فعل مافعله لأجله .

* * *

وفى حديثه : « لاتشترُوا رقيق أهلِ الذّمّة ، فإنّهم أهل خراج يؤدّى بعضهم عن بعض : وأرضَهم فلا تتنازعوها ، ولا يقرّنّ أحدكم بالصَّغَار بعد إذ نجّاه الله » .

قال : كره أن يشترىَ أرضَهم المسلمون وعليها خراج ، فيصير الخراج منتقلاً إلى المسلم ، وإنّما منع من شراء رقيقهم ، لأنّ جزَيتهم تكثر على حسب كثرة رقيقهم ، فإذا ابتيع رقيقُهم قَلّت جزيتُهم ، وإذا أقلّت جزيتهم يقلّ بيت المال .

* * *

وفى حديثه فى قنوت الفَجْر : « وإليك نسعى ونحفِد ، نرجو رحمتَك ، ونخشى عذابك ، إنّ عذابك بالكفار ملحِق » (١) .

قال : حَفَد العبد مولاه يحفِد أى خدم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (٢) أى خدَماً .

وملحِق : اسم فاعل بمعنى لاحق من ألحق ، وهو لغة فى لَحِق ، يقال : لحقت زيداً ، وألحقتُه بمعنى .

* * *

وفى حديثه : « لاتشتروا الذّهب بالفضّة إلّا يداً بيد ، هاء وهاء ، إنّى أخاف عليكم الرَّمَاء » (٣) .

قال : الرَّمَاء : الزيادة وهو بمعنى الرّبا ، يقال : أرميتُ على الخمسين ، أى زدت عليها .

* * *

---

(١) النهاية ١ : ٢٣٩ (٢) سورة النحل ٧٢ .
(٣) النهاية ٢ : ١٠٧ هاء وهاء : صوت بمعنى خذ .

وفى حديثه : مَنْ لَبَّدَ أو عَقَص أو ضَفَّر ، فعليه الحلْق »[١] .

قال : التلبيدُ أن تجعل فى رأسك شيئاً من صَمْغ أو عَسل يمنع من أن يقمل .

والعَقْص والضَّفر : فَتْل الشعر ونَسْجُه .

* * *

وفى حديثه : « ماتصعّدتْنى خِطْبة[٢] كما تصعّدتْنى خِطْبة النـكاح »[٣] .

قال : معناه ماشقّ علىّ ، وأصلُه من الصَّعود ، وهى العقبة المنـكرة ، قال تعـالى : ﴿ سأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾[٤] .

* * *

وفى حديثه أنه قال لمالك بن أوْس : « يامالك ، إنَّه قد دفّت علينا من قومك دافّة ، وقد أمرنا لهم برضْخٍ فاقسمه فيهم »[٥] .

قال : الدافّة : جماعة تسير سيراً ليس بالشديد .

* * *

وفى حديثه : أنّه سأل جيشاً ، فقال : « هل ثبت لـكم العدوّ قدرَ حَلْب شاة بكيئة[٦] ؟ »

قال : البَـكيئة : القليلة اللّبن .

* * *

وفى حديثه أنه قال فى مُتْعة الحجّ : « قد علمت أن رسول الله صلى الله عليـه وسلّم فعلها وأصحابه ، ولـكن كرهت أن يظلّوا بهنّ مُعرِسين تحت الأراك ، ثم يلبُّون بالحجّ تقطر رءوسهم »[٧] .

---

(١) الفائق ٢ : ٤٤٦ .

(٢) الفائق : « شيء » ، وفى اللسان : « ما تـكاءدنى شيء ما تـكاءدنى خطبة النكاح » .

(٣) الفائق ٢ : ٢٤

(٤) سورة المدثر ١٧ .

(٥) الفائق ١ : ٤٠٢

(٦) نهاية ابن الأثير ١ : ٩٠ .

(٧) الفائق ٢ : ١٣٦ .

قال : المعرِّس : الذى يَغْشَى امرأته . قال : كره أن يحلّ الرجل من عُمْرته ، ثم يأتى النّساء ، ثم يهلّ بالحج .

* * *

وفى حديثه : « نعم المرء صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » .

قال : المعنى أنّه لا يتركُ المعصية خوفَ العقاب ، بل يتركُها لقبْحها، فلو كان لا يخاف عقوبة الله لترك المعصية .

* * *

وفى حديثه : أنه أُتِىَ بسكران فى شهر رمضان، فقال : للمنخرَيْن للمنخرَيْن، أصبيانُنا صيام وأنت مفطر ! .

قال : معناه الدعاء عليه ، كقولك : كبَّه الله للمنخرَيْن ! وكقولهم : لليدين وللفم !

* * *

وفى حديثه أنه قال لما توفِّىَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، قام أبو بكر فتلا هـذه الآية فى خطبته : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[١] . قال عمر : فعقِرْتُ حتى وقَعْتُ إلى الأرض[٢] .

قال : يقال للرجل : إذا بُهِتَ وبقِىَ متحيِّرا دهشا : قد عقر، ومثله بعِل وخرِق .

* * *

وفى حديثه أنّه كتَب إلى أبى عبيدة وهو بالشام حين وقع بها الطاعون: « إنّ الأُردنّ أرض غَمِقة ، وإنّ الجابية أرض نزِهة ، فأظهِرْ بمن معك من المسلمين إلى الجابية »[٣]

(١) سورة الزمر ٣٠
(٢) النهاية ٣ : ١١٤
(٣) الفائق ٢ : ٢٣٦ .

قال : الغَمِقة : الكثيرة الأنداء والوباء ، والنَّزِهة : البعيدة من ذلك .

***

وفى حديثه : أنه قال لبعضهم فى كلام كلّمه به : « بل تحُوسُك فتنة » (١) .

قال : معناه تخالطك وتحثُّك على ركوبها . قال : وتحُوس مثل : تجوس،بالجيم ؛ قال، تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ (٢) .

***

وفى حديثه حين ذكر الجراد ، فقال : « وددتأن عندنا منه قَفْعة أو قَفْعتَين » (٣) .

قال : القفعة : شىء شبيه بالزّنبيل ، ليس بالكبير،يعمل من خوصٍ ليس له عُرًى ؛ وهو الذى يسمّى القُفّة .

***

وفى حديثه:أن أذينة العبدىّأتاه يسأله ، فقال:إنّى حَجَجْت من رأس هزاوخازِك ، أو بعض هذه المزالف ، فمن أين أعتمر ؟ فقال : ائت عليا ، فاسأله ، فسألته ، فقال : من حيث ابتدأت (٤) .

قال : رأس هزا وخازِك موضعان من ساحل فارس ، والمزالف : كلّ قرية تكون بين البرّ وبلاد الريف ، وهى المزارع أيضا ، كالأنبار وعين التّمر والحيرة .

***

وفى حديثه : أنّه نَهى عن المكايلة (٥) .

قال : معناه مكافأة الفعل القبيح بمثله !

***

---

(١) النهاية ١ : ١٧٠ .
(٢) سورة الإسراء ٥ .
(٣) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٦٨ .
(٤) الفائق ١ : ٤٤٣ .
(٥) النهاية لابن الأثير ٤ : ٤٢ .

وفى حديثه : « ليس الفقير الذى لامال له ، إنما الفقير الأخلق الـكسب »[١].

قال : أرادالرجل الذى لا يُرزأ فى ماله ،ولا يصاب بالمصائب ، وأصله أن يقال للجبل المصمَت الذى لا يؤثّر فيه شىء : أخلَق . وصخرة خلْقاء ، إذا كانت كذلك ، فأراد عمر أنّ الفقر الأكبر إنّما هو فَقْر الآخرة ، لمن لم يقدّم من ماله لنفسه شيئاً يثاب عليه هناك . وهـذا نحو قول النبى صلى الله عليـه وآله : « ليس الرّقوب[٢] الذى لايبقى له ولد ، إنماالرّقوب الذى لم يقدم من ولده أحداً » .

فهذا مالخصته من غريب كلام عمر من كتاب أبى عبيد .

***

فأمّا ما ذكره ابن قتيبة من غريب حديثه فى كتابه ، فأنا ألخّص منه ماأنا ذاكره .

قال ابنُ قُتيبة : فمن غريب حـديث عمر أنّه خطب ، فقال : إنّ أخوَف ما أخاف عليـكم أن يؤخذ الرّجل المسـلم البرىء عند الله فيُدْسَر كمَا يدْسر الجزور ، ويشاط لحمه كما يُشاط لحم الجزور ، يقال : عاصٍ وليس بعاص . فقال علىٌّ عليه السلام : فـكيف ذاك ولمّا تشتدّ البليّة ، وتظهر الحميّة ، وتسبى الذرّية ، وتدقّهم الفتن دقّ الرحى بثفالها[٣]!

قال ابن قتيبة : يُدْسَر أى يُدْفع ، ومنه حديث ابن عباس : ليس فى العنبر زكاة ، إنما هو شىء يدْسُره البحر[٤].

ويُشاط لحمه، أى يقطع ويُبَضَّع، والأصل فى الإشاطة الإحراق ، فاستعير ،وفى الحديث « إنّ زيد بن حارثة قاتل يوم مُؤتة حتى شاط فى رماح القوم » .

والثِّفَال : جلْدةٌ تبسط تحت الرّحى فيقع عليها الدقيق .

***

(١) الفائق ١ : ٣٦٦ (٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ٩٥ .

(٣) الفائق ١ : ٣٩٧ . (٤) الفائق ١ : ٣٩٧ وفيه : « سره البحر » .

وفى حديث عمر : « القَسامة[١] تُوجِب العَقْل ، ولا تُشيط الدم »[٢].

قال ابن قتيبة : العَقْل : الدية ، يقول: إذا حلفتْ فإنما تجب الدِّية لا القَوَد ، وقد روى عن ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز أنّهما أقادا بالقَسامة .

***

وفى حديثه : « لا تفطروا حتى تروا الليل يغسق على الظِّراب »[٣].

قال : يغسِق ، أى يظلم .

والظِّراب : جمع ظَرِب ، وهو ما كان دون الجبل ، وإنما خَصّ الظِّراب بالذِّكْر لقصرها ، أراد أنّ ظلمة الليل تقربُ من الأرض .

***

وفى حديثه : أنّ رجلا كُسِرَ منه عظْم فأتى عمر يطلب القَوَد ، فأبى أن يقتصّ له ، فقال الرجل : فكاسِرُ عظمى إذن كالأرقم ، إن يقتل يَنْقَم ، وإن يترك يَلْقم ، فقال عمر : « هو كالأرقم »[٤].

قال : كانت الجاهلية تزعم أنّ الجن يَتصوّر بعضهم فى صُورة الحيّات ، وأنّ من قتل حيّة منها طلبت الحيّة بالثأر ، فربّما مات أو أصابه خبَل ، فهذا معنى قوله : « إن يقتل ينقم ». ومعنى « يلقم » يقول : إن تركتَه أكلك ، وهذا مثل يضرب للرجل يجتمع عليه أمران من الشرّ لا يدرى كيف يصنع فيهما ، ونحوه قولهم : هو كالأشقر إن تقدّم عَقَر وإن تأخر نحر .

---

(١) فى الفائق : « القسامة مخرجة على بناء الغرامة والحمالة لما يلزم أهل المحلة إذا وجد قتيل فيها لا يعلم قاتله من الحكومة بأن يقسم خمسون منهم ، ليس فيهم صبي ولا مجنون ولا امرأة ولا عبد ؛ يتخيرهم الوالى وقسمهم أن يقولوا : بالله ما قتلنا ولا علمنا له قاتلا ، فإذا أقسموا قضى على أهل المحلة بالدية ، وإن لم يكملوا خمسين كررت عليهم الأيمان حتى تبلغ خمسين يميناً » .

(٢) الفائق ٢ : ٣٤٥

(٣) الفائق ٢ : ٢٢٦ .

(٤) النهاية ٤ : ٦٤ ، ١٧٣ .

قال : وإنما لم يقده لأنه يخاف من القصاص فى العظم الموتَ ، ولكن فيه الدِّيَة .

***

وفى حديثه : أنه أتى مسجد قُباء ، فرأى فيه شيئاً من غُبار وعنكبوت، فقال لرجل: « ائتنى بجريدةٍ واتّقِ العوَاهِن » ، قال : فجئته بها، فربط كمّيه بوذَمة ، ثم أخذ الجريدة، فجعل يتتبّع بها الغبار (١) .

قال : الجريدة : السَّعفة ، وجمعها جريد .

والعواهن : السعَفات التى يلينَ القِلَبة ، والقِلَبة جمع قُلْب ، وأهل نجد يسمّون العواهن الخَوانِي ، وإنما نهاه عنها إشفاقا على القلْب أن يضرَّ به قطعُها .

والوَذَمة : سيرٌ من سيور الدلو يكون بين آذان الدّلو والعَراقى .

***

وفى حديثه : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفّروهم ، ولا تجمِّروهم فتفتنوهم » (٢) .

قال : التّجْمير : ترك الجيش فى مغازيهم لا يقفُلون .

***

وفى حديثه : أنه أتِىَ بِمُرُوط ، فقسّمها بين نساء المسلمين ، ورفع مِرْطاً بقِىَ إلى أمِّ سَليط الأنصاريّة ، وقال : « إنها كانت تزْفِر القِرَب يوم أُحُد تسقى المسلمين » .

قال : تزْفِرُها : تحملها ، ومنه زُفَر ، اسم رجل كان يحمِل الأثقال .

***

---

(١) الفائق ١ : ١٨٥ .

(٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ١٢٧ .

وفى حديثه أنه قال : « أعطُوا من الصَّدَقة مَنْ أبقت له السَّنَة غنما ، ولا تعطوا مَنْ أبقت له السّنة غنمين » (١) .

قال : السنة : هاهنا الأزمنـة ، ومنه قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ (٢) .

قال : وكان عمر لايجيز نـكاحا فى عام سنة ، يقول : « لعلّ الضَّيْعة تحمِلُهم على أن ينـكحوا غيرَ الأكفاء » .

وكان أيضاً لايقطع سارقاً فى عام سنة .

وقوله : « غنما » أى قطعة من الغنم ، يقال لفلان : غَنَمان ، أى قطعتـان من الغنم ، وأراد عمر أنّ مَنْ له قطعتان غَنِيّ لايعطَى من الصدقة شيئاً ؛ لأنها لم تـكن قطعتـين إلا لـكثْرتها .

***

وفى حديثـه أنه انـكفأ لونُه فى عام الرَّمادة حين قال : « لا آكل سمنا ولا سمينا » ، وأنّه اتّخذ أيامَ كان يطعِم النَّاس قِدْحاً فية فرْض ، فـكان يطوف على القِصَاع فيغمز القِدْح ، فإن لم تبلغ الثريدة الفَرْض قال : فانظر ماذا يفعل (٣) بصاحب الطعام (٤) .

قال : انـكفأ : تغيّر عن حاله ، وأصله الانقلاب ، من كَفأْتُ الإناء .

وسمِّيَ عام الرّمادة من قولهم : أرمَد الناس ، إذا جُهدوا ، والرمد : الهلاك .

والقِدْح : السّهم . والفَرْض : الحزّ ، جعـل عمر هـذا الحزّ علامة لِعُمْق الثّريد فى الصّحفة .

***

(١) الفائق ١ : ٦١٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٣٠ .

(٣) الفائق : « بالذى ولى الطعام » .

(٤) الفائق ٢ : ٤١٧ ، ٤١٨ .

وفى حديثه : أنّ عطاء بن يسار ، قال : قلت للوليد بن عبد الملك : رُوِى لى أنّ عمر بن الخطاب قال : وددْتُ أنّى سلمت مَن الخلافة كَفافاً لا علىّ ولالى ، فقال : كذبت[1] ! الخليفة يقول هذا ! فقلت : أو كُذِبتُ ؟ فأفلَتُّ منه بُجرَيعة الذَّقَن[2] .

قال يقال خلص من خصمه كَفافا ، أى كفّ كلّ واحد منهما عن صاحبه ، فلم ينل أحدهما من الآخر شيئاً[3] .

وأفلتَ فلان بجُرَيعة ذَقَن ، أى أنّ نفسه قد صارت فى فيه . وجُرَيْعة : تصغير جُرْعة .

قلت : وإنما استعظم الوليد ذلك ، لأن بنى أميّة كانوا يروْن أنّ مَنْ ولِىَ الخلافة فقد وجبت له الجنّة ، ولهذا خطب هشام يوم ولِىَ ، فقال : الحمد لله الذى أنقذنى من النّار بهذا المقـام .

***

وفى حديثه : أنّ سِماك بن حرْب ، قال : رأيت عمر ، فرأيت رجلا أَرْوَح كأنّه راكبٌ ، والنّاس يمشون كأنه من رجال بنى سَدُوس[4] .

قال : الأرْوَح الذى تتدانى عقِباه ، وتتباعد صدورُ قدميْه ، يقال : أروح : بيّن الرّوح ، والأفحج : الذى تتدانى صدور قدميْه ، وتتباعد عَقِباه وتتفحّج ساقاه ، والأوْكع : الذى يميل إبهام رجله على أصابعه حتى يزول ، فيرى شخص أصلها خارجا ، وهو الوكَع ، ومنه أمةٌ وكْعاء .

وبنو سَدُوس : فخِذ من بنى شيبان ، والطّول أغلب عليهم .

***

(١) الأصول : « كذب » ، وصوابه ما فى الفائق .

(٢) الفائق ٢ : ٤٢١

(٣) فسره صاحب الفائق ، وقال : « أى لا بأساً برأس لا أرزأ منك ولا ترزأ منى وحقيقته ، أكف عنك وتكف عنى » .

(٤) النهاية لابن الأثير ٢ : ١١٠ .

وفى حديثه عن ابن عبّاس ، قال : دعانى فإذا حصير بين يديه ، عليه الذهب منثور نثر الحَثا ، فأمرنى بقسمه (١) .

قال : الحثا : التِّبْن (٢) مقصور ، قال الراجز يهجو رجلا :

ويأكل التمر ولا يلقى النَّوَى   ولا يوارى فَرْجَه إذا اصطلَى
* كأنّه غرارةٌ ملأى حَثا *

* * *

وفى حديثه أنه قال : « النّساء ثلاث ، فهيِّنة ليِّنة عفيفة مسلمة ، تعين أهلَها على العيش ، ولا تعينُ العيشَ على أهلها ، وأخرى وعاء للولَد ، وأخرى غُلٌّ قَمِل يضعُه الله فى عنق من يشاء ، ويفكّه عمّن يشاء . والرجال ثلاثة : رجل ذو رأى وعقل ، ورجل إذا حَزَبهُ أمر أتى ذَا رأيٍ فاستشاره ، ورجل حائر بائر ، لا يأتمر رَشَدا ، ولا يطيع مرشدا » (٤) .

قال البائر : الهالك ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُوراً ﴾ (٥) . والأصل فى قوله : « غُلّ قَمِل » ، أنهم كانوا يغلّون بالقِدّ وعليه الشعر ، فيقمُل على الرّجال .

ولا يأتمر رشدا ، أى لا يأتى برشْدٍ من ذات نفسه ، يقال لمن فعل الشىء من غير مشاورة : قد ائتمر ، وبئس ما ائتمرت لنفسك ، قال النِّمر بن تَوْلب :

واعلمنْ أنّ كلّ مؤتمرٍ   مخطئٌ فى الرأى أحيانا

* * *

وفى حديثه أنه خرج ليلةً فى شهر رمضان ، والنَّاس أوزاع ، فقال : « إنى لأظنّ لو جمعناهم على قارئٍ واحد كان أفضلَ » ، فأمر أبىّ بن كعب فأمّهم ، ثم خرج ليلة وهم

---

(١) النهاية ١ : ٢٠١ .

(٢) النهاية : « دقاق التبن » .

(٣) اللسان ١٨ : ١٧٩ ، وذكر قبله :

تَسْأَلُنِي عَنْ زَوْجها أىّ فَتَى   خبٌّ جروزٌ وإذا جاعَ بَكَى

(٤) الفائق ٣ : ٢٢٤

(٥) سورة الفتح ١٢ .

يصلّون بصلاته ، فقال : «نعم البدعة هذه ! والتى ينامون عنها أفضلُ من التى يقومون»[١] .

قال : الأوزاع : الفرَق ، يريد أنهم كانوا يصلّون فرادى[٢] ، يقال : وزعتُ المال بينهم ، أى فرّقته .

وقوله : « والتى ينـامون عنها أفضل » ، يريد صلاة آخر الليل ، فإنها خير من صلاة أوّله .

***

وفى حديثه أنّ أصحابَ محمّد صلى الله عليه وآله تذاكروا الوِتْر ، فقال أبو بكر : أمّا أنا فأبدأ بالوِتْر ، وقال عمر : لـكنّى أوتِر حين ينام الضَّفَنْطَى[٣] .

قال : هو جمع ضَفِيط ، وهو الرّجُل الجاهل الضعيف الرأى .

ومنه ماروِى عن ابن عباس ، أنّه قال : لو لم يطلب النّاس بدمِ عثمان لرُمُوا بالحجارة من السماء ، فقيل : أتقول هذا وأنت عامل لفلان ؟ فقال: إن فىّ ضَفَطات ، وهذه إحدى ضَفَطاتى[٤] .

***

وفى حديثه أنه قال فى وصيته : « إن تُوُفِّيت وفى يدى صِرْمة ابن الأ كْوع ؛ فسنَّتُها سنّة ثَمَغ[٥] .

---

(١) الفائق ٣ : ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) فى الفائق : « يريد أنهم كانوا يتنفلون بعد صلاة العشاء فرقاً » ، قال المسيب بن علس :

أحْلَلْتَ بيتَك بالجميع وبعضُهُمْ متفرّق ليَحُلَّ فى الأوزاعِ

(٣) الفائق ٣ : ٦٧ (٤) الفائق ٣ : ٦٧ .

(٥) الفائق ٢ : ٢١

قال : الصِّرْمة هاهنا : قطعة من النخل ، ويقال للقطعة الخفيفة من الإبل : صِرْمة ، ويقال لصاحبها مُصْرِم ، ولعله قيل المقلّ ، مُصْرِم من هذا .

وثَمْغ : مال كان لعمر ، ووقفه .

* * *

وفى حديثه : أنه لما قدم الشام تفحّل له أمراء الشام(١) .

قال : أى اخشوشنوا له فى الزّى واللباس والمطعم تشبّها به ، وأصله من الفحْل ، لأنّ التصنّع فى اللباس والقيام على النفس ، إنما هو عندهم للإناث لا للفحول .

* * *

وفى حديثه : أنه قدم مكّة ، فسأل من يعلم موضع المقام ـ وكان السَّيْل احتمله من مكانه ـ فقال المطّلب بن أبى ودَاعة السهمىّ : ياأميرَ المؤمنين ، قد كنت قدّرته وذرعته بِمِقاطٍ عندى(٢) .

قال : المِقاط : الحبل ، وجمعه مُقُط .

* * *

وفى حديثه أنه قال للذى قتل الظبى وهو محرِم : « خذ شاةً من الغَنَمِ فتصدّق بلحمها ، وأسق إهابها »(٣) .

قال : الإِهاب : الجلد .

وأَسقه ، أى اجعله سِقَاء لغيرك ، كما تقول : أسقِنِى عسلا ، أى اجعله لى سِقاءوأقِدْ بى خيلًا ، أى أعطنى خيلا أقودها ، وأسقنى إبلا : أعطنى إبلا أسوقها .

---

(١) الفائق ٢ : ٢٥٠

(٢) الفائق ٣ : ٤١ .

(٣) النهاية ٢ : ١٧٠ .

وقالت بنو تميم للحجّاج : أقبِرْنا صالحاً ، يعنون صالح بن عبد الرحمن ، وكان قتله وصلبه ، فسألوه أن يمكّنهم من دفنه .

* * *

وفى حديثه : أنَّه ذُكِر عنده التّمر والزبيب : أيّهما أفضل ؟ ويروى أنه قال لرجل من أهل الطائف : الَحبْلة أفضل أم النخلة ؟ فأرسل إلى أبى حَثْمة الأنصاريّ، فقال: إن هؤلاء اختلفوا فى التّمر والزبيب أيّهما أفضل .

وفى رواية أخرى : وجاء أبو عمرة عبد الرحمن بن محصن الأنصاريّ، فقال أبو حَثْمة: ليس الصَّقْر فى رءوس الرَّقْل ، الراسخات فى الوحْل ، المطعمات فى المحْل ، تعلّة الصبىّ ، وقِرَى الضيف ، وبه يُحترَش الضبّ فى الأرض الصلعاء ، كزبيب إن أكلته ضرست ، وإن تركته غرثْت .

وفى الرواية الأخرى : فقال أبو عَمْرة : الزّبيب إن آكلْه أضرَس ، وإن أتركه أغرث ، ليس كالصقر فى رءوس الرّقل ، الراسخات فى الوحْل ، والمطعمات فى المحْل ، خُرفة الصائم ، وتحفة الكبير ، وصُمْتة الصغير ، وخُرْسة مريم ، ويُحْتَرش به الضِّباب من الصّلعاء (١) .

قال: الحبْلة ، بفتح الحاء وتسكين الباء : الأصل من الكَرْم ، وفى الحديث: إنّ نوحا لمّا خرج من السفينة غَرَس الحَبْلة ، وكانت لأنس بن مالك حَبْلة تحمل كذا ، وكان يسمّيها أمّ العيال ؛ فأما الُحبْلة بالضم فثمر العضاه ، ومنه الحديث : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومالنا طعام إلا الُحبْلة ، وورق السَّمُر . والُحبلة بالضم أيضاً : ضرب من الَحلْى يجعل فى القلائد ، شبّه بورق العضاه ، لأنه يصاغ على صورته .

وأغرث : أجوع ، والغرْث : الجوع .

(١) الفائق ١ : ٢٣١ .

والصَّقْر : عسل الرُّطَب .

والرَّقْل : جمع رَقْلة ، وهى النخلة الطويلة .

وقوله : « خرْفة الصائم » اسم لما يختَرف ، أى يجتنَى ، ونسبها إلى الصائم ، لأنهم كانوا يحبُّون أن يفطروا على التمر .

وقوله : « وصُمْتة الصغير » ؛ لأنّ الصغير كان إذا بكى عندهم سكّتُوه به . وتعـلّة الصبيّ نحوه ، من التّعليل .

وخُرْسة مريم ، الخُرْسة ما تطعَمه النُّفَساء عنـد ولادتها ، أشار إلى قوله تعـالى : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾(١)، فأما الخُرْس بغيرهاء فهو الطعام الذى يصنع لأجل الولادة ، كالإعذار للختان ، والنّقيعة للقادم ، والوكِيرة للبناء .

ويُحترَش به الضَّبّ أى يصطـاد ، يقال إنّ الضبّ يعجب بالتمر ، والحـارش : صائد الضباب .

والضَّلْعاء : الصحراء التى لانبات بها كرأس الأصلع .

***

وفى حديثه أنه قال للسائب : « وَرِّع عنِّى بالدرهم والدرهمين » (٢) .

قال : أى كفّ الخصوم عنّى فى قدر الدرهم والدرهمين بأن تنظر فى ذلك ، وتقضىَ فيه بينهم ، وتنوب عنّى . وكلّ مَنْ كففتَه فقد ورّعته ، ومنه الوَرَع فى الدين ، إنّمـا هو الـكفّ عن المعاصى . ومنه حديث عمر : لاتنظروا إلى صلاة الرَّجُل وصيامه ، ولـكن من إذا حَدّث صدق ، وإذا ائتُمن أدّى ، وإذا أشفى ورّع ، أى إذا أشرف على المعصية كَفّ عنها .

***

---

(١) سورة مريم : ٢٥

(٢) الفائق ٣ : ١٥٦

وفى حديثه أنّه خطب الناس ، فقال : « أيّها النّاس ؛ لينكح الرّجل منكم لُمَتَه من النّساء ، ولتنكح المرأة لُمَتَهَا من الرجال » (١) .

قال : لُمَة الرجل من النساء مثله فى السنّ ، ومنه ماروىَ أنّ فاطمة عليها السلام خرجت فى لُمَة من نسائها [تتوطّأ ذيلها] (٢) ، حتى دخلت على أبى بكر (٣) .

وأراد عمر بن الخطاب : لاتنكح الشابّة الشيخ الكبير ، ولا ينكح الشابّ العجوزَ ، وكان سبب هذه الخطبة أنّ شابّة زوّجها أهلُها شيخاً فقتلته .

***

وفى حديثه: أنّ رجلًا أتاه يشكو إليه النِّقْرِس، فقال : كذبتك الظهائر (٤) .

قال : الظهائِر : جمع ظَهِيرة ، وهى الهاجرة ، ووقت زوال الشمس .

وكذبتك ، أى عليك بها ، وهى كلمة معناها الإغراء ، يقولون : كذبك كذا ، أى عليك به .

ومنه الحديث المرفوع : [الحجامة على الريق فيها شفاء وبركة] ، فمن احتجَم فى يوم الخميس ويوم الأحد ، كذباك ! (٥)

أى عليك بهما ، وإنما أمر عمر صاحب النّقرس أن يبرز للحرّ فى الهاجرة ويمشى حافياً ، ويبتذل نفسه ، لأن ذلك يُذهب النِّقرس .

***

وفى حديثه أنه قال : « مَنْ يدلّنى على نسيج وحده ؟ » ، فقال أبو موسى : مانعلمه غيرك ، فقال : ماهى إلا إبل مُوَقَّعٌ ظهورها (٦) .

قال : معنى قولهم : « نسيج وحده » أى لاعيب فيه ، ولا نظير له . أصله من الثوب النفِّيس ، لاينسج على منواله غيره .

---

(١) الفائق ٢ : ١٥٦
(٢) من الفائق .
(٣) الفائق ٢ : ٤٧٦
(٤) الفائق ٢ : ٤٠٠ .
(٥) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٢ والتكملة من هناك .
(٦) الفائق ٣ : ٨٦ .

والبعير الموقّع الذى يكثر آثار الدَّبَر بظهره ، لكثرة ما يركب ، وأراد عمر أنّا كلّنا مثل ذلك فى العيب .

* * *

وفى حديثه : إن الطبيب الأنصارىّ سقاه لبنا حين طُعِن ، فخرج من الطعنة أبيضَ يصلِد (١) .

قال : أى يبرق ولم يتغيّر لونه .

* * *

وفى حديثه أنّ نادبة عمر ، قالت : واعمراه ! أقام الأوَد ، وشفَى العمَد . فقال علىّ عليه السلام : أما والله ماقالته ولكن قُوِّلَتْهُ (٢) .

والعمَد : ورم ودَبَر يكون فى ظَهْر البعير ، وأراد علىٌّ عليه السلام أنه كأنما ألقى هذا الكلام على لسانها لصحّته وصدقه .

* * *

وفى حديثه : أنَّه استعمل رجلًا على اليمن ، فوفد إليه ، وعليه حلّة مُشَهَّرة ، وهو مرجَّل دَهِين ، فقال : أهكذا بعثناك ! ثم أمر بالحُلَّة فنزِعت عنه ، وألبِس جُبّة صوف ، ثم سأل عن ولايته فلم يذكر إلَّا خيراً فردّه على عمله ، ثم وفد إليه بعد ذلك ، فإذا أشعث مغبّر عليه أطلاس ، فقال : ولا كلّ هذا ، إن عاملنا ليس بالشّعث ولا العافى ، كلوا واشربوا وادّهنوا ؛ إنّكم لتعلمون الذى أكره من أمركم (٣) !

قال : ثياب أطلاس ، أى وسخة ، ومنه قيل للذئب : أطلس .

---

(١) الفائق ٢ : ٣٥ (٢) الفائق ١ : ٥٠

(٣) الفائق ١ : ٦٨٣

والعافى : الطويل الشَّعر ؛ يقال : عَفَى وبرُ البعير ، إذا طال ، ومنه الحديث المرفوع : « أمر أن تُعْفَى اللّحى وتُحْـفَى الشّوارب » .

* * *

وفى حديثه أنه قال للرجل:أمَا ترانى لو شئت أمرت بشاة فتيّة سمينة [أو قنيّة] [(١)] فألقى عنها صوفها ، ثم أمرت بدقيق فنخِل فى خرقة،فجعِل منه خبز مرقّق ، وأمرت بصاع من زبيب فجعل فى شُعُن حتى يكون كدم الغزال [(٢)] .

قال : الشُّعُن : قربة أو إداوة ينتبَذ فيها وتعلّق بجِذْع .

* * *

وفى حديثه : أنه رأى رجلا يأنِح ببطنه ، فقال : ماهذا ؟ قال : بركة من الله ، قال: بل هو عذاب من الله يعذّبك به [(٣)] .

قال:يأنح : يصوّت،وهو مايعترى الإنسان السمين من البُهْر إذا مشى،أنَح يأنِح أنوحا

* * *

وفى حديثه أنّه لما دنا من الشام ولَقِيَه الناس ، جعلوا يتراطنون ، فأشكَعَهُ ذلك وقال لأسلم مولاه : إنّهم لم يروا على صاحبك بِزّة قوم غضب الله [(٤)] عليهم .

قال : أشكَعه : أغضبه،قال : أراد أنّهم لم يتحاموا عنه اللغط ، والكلام بالفارسية والنّبطية بحضرته ، لأنهم لم يَرَوْه بعين الإمارة والسلطان ، كما يرون أمراءهم ، لأنهم لم يروا عليه بزّة الأمراء وزيّهم .

* * *

---

(١) من الفائق ، قال : « القنية : ما اقتنى من شاة أو ناقة »

(٢) الفائق ٢ : ٣٧٩

(٣) النهاية ١ : ٤٦

(٤) الفائق ١ : ٤٨

وفى حديثه : أنّ عاملا على الطائف كتب إليه: إن رجالا منهم كلّمونى فى خلايا لهم، أسلموا عليها ، وسألونى أن أحميَها لهم . فكتب إليه عمر : « إنها ذُباب غَيْث ؛ فإنْ أدَّوْا زكاته فاحِمه لهم » (١) .

قال : الخلايا موضع النَّحل التى تعسل ، الواحدة خليّة ، وأراد بقوله : « إنّها ذُباب غيث » أنها تعيش بالمطر؛ لأنّها تأكل ماينبت عنه ، فإذا لم يكن غيث فقدتْ ماتأكل ، فشبّهها بالسَّائم من النّعم لا مؤنة على صاحبها منها ، وأوجب فيها الزكاة .

***

وفى حديثه : أنّ سعد بن الأخْرَم،قال : كان بين الحىّ وبين عدىّ بن حاتم تشاجُرٌ فأرسلونى إلى عمر فأتيته وهو يطعم الناس من كسور إبل ، وهو قائم متوكّئٌ على عصا ، مؤتزر إلى أنصاف ساقيه ، خِدَبّ من الرجال كأنه راعى غنم ، وعلىّ حلة ابتعتُها بخمسمائة درهم ، فسلّمت عليه ، فنظر إلىّ بذنَب عينه ، وقال لى : أمالك مِعْوز ؟ قلت : بلى ، قال: فألقها ، فألقيتُها وأخذت مِعْوزاً ، ثم لقيته فسلّمت ، فردّ علىّ السلام (٢) .

قال : كُسور (٣) الإبل : أعضاؤها .

والخِدَبّ : العظيم الجافى وكأنّه راعى غنم ، يريد فى الجفاء والبذاذة وخشونة الهيئة واللّبسة .

والمِعْوز : الثوب الخلَق ، والميم مكسورة؛وإنّما ترك ردّ السلام عليه أولا،لأنه أشهر الحُلّة ، فأدّبه بترك ردّ السلام ، فلمّا خلعها ولبس المِعْوز ردّه عليه .

***

(١) الفائق ١ : ٣٦٦ . (٢) الفائق ٢ : ٤١١ .
(٣) واحده كسر ، بالفتح والكسر .

وفى حديثه : أنه ذكر فتيان قريش وسَرَفهم فى الإنفاق ، فقال : لَحِرْفة أحدهم أشدّ علىّ من عَيْلته(١) .

قال : الحرْفة ها هنا، أن يكون الرّجل لا يتّجر ولا يلتمس الرّزق، فيكون محدودا لا يرزق إذا طلب ، ومنه قيل : فلان محارَف . والعَيْلة : الفقر .

وفى حديثه : أنّه قال لرجل : ما مالُك ؟ قال : أقرُنٌ لى وآدمةٌ فى المَنيئة ، قال : قوِّمْها وزكّها(٢) .

قال : الأقرن : جمع قرْن ، وهى جعبة من جُلُود تكون للصيّادين يشقّ منها جانب ليدخلها الريح فلا يفسد الريش .

وآدمة : جمع أديم ، كجريب وأجْرِبة .

والمَنيئة : الدّباغ ، وإنما أمره بتزكيتها ، لأنها كانت للتجارة .

***

وفى حديثه أنّ أبا وجْزة السعدىّ ، قال : شهدته يستقى ، فجعل يستغفر ، فأقول : لا يأخذ فيما خرج له ! ولا أشعر أنّ الاستسقاء هو الاستغفار ، فقلَدتنا السماء قِلْدا كلّ خمس عشرة ليلة ، حتى رأيت الأرنبة يأكلها صغار الإبل من وراء حِقاق العُرْفط(٣) .

قال : فقلِدتنا : مطرتنا لوقت معيّن، ومنه قِلْد الحمَّى ، وقلْد الزرع ، سقيه لوقت وهو وقت الحاجة .

وقال : رأيت الأرنب يحتملها السّيل حتى تتعلق بالعُرْفط ، وهو شجر ذو شوك ، زاد فى الأرنب هاء ، كما قالوا:عقرب وعقربة ، وحِقاق العُرفط:صغارها ، وقيل : الأرنب

---

(١) الفائق ١ : ٢٥٢ (٢) الفائق ٢ : ٣٣٢

(٣) الفائق ٢ : ٣٧١

ضرب من النبت ، لا يكاد يطول ، فأراد أنه طال بهذا المطر حتى أكلته صغار الإبل من وراء شجر العُرْفط .

* * *

وفى حديثه : أنه قال : ما وَلِىَ أحدٌ إلّا حامَى[١] على قَرابته ، وقَرَى فى عيبته ، ولن يلىَ الناس قرشِىٌّ عضّ على ناجذه[٢] .

قال : حامىَ عليهم: عطف عليهم ، وقَرَى فى عيبته ، أى اختان ، وأصل قَرَى : جمع .

* * *

وفى حديثه : لن تخور قوًى ما كان صاحبها ينزع وينزو[٣] .

يخور : يضعف . والنّزْع فى القوس ، والنَّزْو على الخيل .

وروى أن عمر كان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليسرى ، ثم يجمع جراميزه ويثِب ، فكأنما خلِق على ظهر فرسه .

* * *

وفى حديثه : « تعلَّموا السنّة والفرائض واللَّحن ، كما تتعلمون القرآن »[٤] .

قال : اللّحن ها هنا : اللغة والنحو .

* * *

وفى حديثه : أنه مرّ على راعٍ ، فقال : يا راعى ، عليك بالظَّلِف [من الأرض][٥] لا ترمِّض ، فإنّك راعٍ وكلّ راعٍ مسئول[٦] :

قال : الظّلف : المواضع الصلبة ، أمره أن يرعى غنمه فيها ، ونهاه أن يرمّض ، وهو أن يرعى غنمه فى الرّمضاء وهى تشتدّ جدا فى الدّهاس والرمل ، وتخفّ فى الأرض الصلبة .

* * *

---

(١) الفائق : « حام » .

(٢) الفائق ١ : ٣١١ .

(٣) الفائق ١ : ٣٧٦ .

(٤) الفائق ٢ : ٤٥٧ .

(٥) من الفائق .

(٦) الفائق ٢ : ١٠١

وفى حديثه : أنّ رجلا قرأ عليه حرفا ، فأنكره ، فقال : مَنْ أقرأك هذا ؟ قال : أبو موسى ، فقال : إنّ أبا موسى لم يكن من أهل البَهْش(١) .

قال : البَهْش المُقْل الرطب ، فإذا يبس فهو الخَشْل ، وأراد أنّ أبا موسى : ليس من أهل الحجاز ، لأنّ المُقْل بالحجاز نبت ، والقرآن نزل بلغة الحجاز .

* * *

وفى حديثه : أنّ عقبة بن أبى مُعَيط ، لمّا قال للنبيّ صلى الله عليه وآله : أأقتل مَن بين قريش ؟ فقال عمر : حَنّ قِدْح ليس منها(٢) .

قال : هذا مثل يضرب للرجل يُدخل نفسَه فى القوم وليس منهم ، والقِدْح : أحد قِداح الميسر ، وكانوا يستعيرون القِدْح يدخلونه فى قِدَاحهم يتيمّنون به ويثقون بفوزه .

* * *

وفى حديثه : أنّ أهل الكوفة لمّا أوفدوا العِلْباء بن الهيثم السّدوسىّ إليه ، فرأى عمر هيئته رثّة ، وأعجبه كلامه وعمله ، قال : لكلّ أناس فى جميلهم خير .

قال : هذا مثل ، والمراد أنهم سوّدوه على معرفةٍ منهم بما فيه من الخلال المحمودة ، والمعنى أن خُبْره فوق منظره .

* * *

وفى حديثه : أنّه أخذ من القِطْنيّة الزكاة(٣) .

قال : هى الحبوب كالعدس والحِمّص ، وفى أخذ الزكاة منها خلاف بين الفقهاء .

---

(١) الفائق ١ : ١١٨ (٢) الفائق ١ : ٣٠٠ .

(٣) النهاية ٣ : ٢٦٥ .

وفى حديثه : أنّه كان يقول للخارص(١) : «إذا وجدْت قوماً قد خرَفوا فى حائطهم، فانظر قدْر ماترى أنّهم يأكلونه ، فلا تخرِصه» (٢) .

قال : خَرفُوا فيه ، أى نزلوا فيه أيام اختراف الثّمرة .

* * *

وفى حديثه : « إذاأجريت الماء على الماء جَزَى عنك » (٣) .

قال : يريدصبّ الماءعلى البوْل فى الأرض ، فإنه يطهّر المكان ، ولا حاجة إلى غسله. وجَزى : قضى وأغنى ، من قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾(٤) ، فإن أدخلت الألف قلت : « أجزأك » وهمزت ، ومعناه كفاك .

* * *

وفى حديثه أنه قال : « لا يعطى من المغانم شىء حتى تقسّم ؛ إلا لراع ؛ والدليل غيرُ مُولِيه »(٥) .

قال : الراعى هاهنا الطليعة ، لأنه يرعَى القوم ؛ أى يحفظهم .

وقوله : « غير مُولِيه » ، أى غير مُعْطِيه شيئا لا يستحقه .

* * *

وفى حديثه : « إنّ من الناس مَنْ يقاتل رياءوسمعة ،ومنهم مَنْ يقاتل وهوينوى الدّنيا ، ومنهم مَنْ ألجمه القتال فلم يجد بدًّا ، ومنهم مَنْ يقاتل صابرا محتسبا ، أولئك هم الشهداء».

قال : ألجمه القتال ، أى رهقه وغشِيه ، فلم يجد مخلصاً .

* * *

(١) خرص النخلة : إذا حزر ما عليها من الرطب ؛ من الخرص ؛ وهو الظن .
(٢) الفائق ١ : ٣٣٧ (٣) النهاية لابن الأثير ١ : ١٦٢ .
(٤) سورة البقرة ١٢٣ (٥) النهاية ٢ : ٨٨ ، ٤ : ٢٣٢ .

وفى حديثه : أنه أرسل إلى أبى عبيدة رسولا فقال له حين رجع : فكيف رأيتَ أبا عبيدة ؟ قال : رأيتُ بللا من عيش فقصّرَ من رزقه ، ثم أرسل إليه ، وقال للرسول حين قدم : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيته حَفُوفًا ، قال : رحم الله أبا عبيد ، بسطْنا له فبَسط، وقبضنا له فقبض[1].

قال : الحَفُوف والحَفَف واحد ، وهو ضِيق العيس وشدّته ، يقال : ماعليهم حَفَفٌ ولا ضَفَف ، أى ماعليهم أثر عوَزٍ ، والشَّظَف : مثل الحَفَف .

***

وفى حديثه : أنه رُئى فى المنام ، فسئل عن حاله ، فقال : « ثُلَّ عَرْشى[2] لولا أنى صادفت ربّى رحيما » .

قال : ثُلّ عرشُه ، أى هدم .

***

وفى حديثه :أنه قال لأبى مريم الحنفىّ: « لأنا أشدُّ بغضاً لك من الأرض للدم »،قالوا: كان عمر عليه غليظًا ، كان قاتلَ زيد بن الخطاب أخيه ، فقال : أينقُصُنِى ذلك من حقّى شيئا ؟ قال : لا ، قال : فلا ضَيْر[3].

قال : هذا مثل ، لأن الأرض لايغوص فيها الدم كما يغوص الماء ، فهذا بغض الأرض له ، ويقال : إنّ دم البعير تنشِفه الأرض وحده .

***

وفى حديثه : « إنّ اللبن يشبّه عليه »[4].

---

(١) الفائق ١ : ١١١ .

(٢) فى النهاية : « كاد يثل عرشى » .

(٣) النهاية ١ : ٣٢ .

(٤) الفائق ١ : ٦٣٤ .

قال : معناه أنّ الطّفل ربما نزع به الشَّبَه إلى الظِّئر من أجل لبنها ، فلا تسترضعوا إلّا مَنْ ترضون أخلاقها .

* * *

وفى حديثه : « اغزوا ، والغَزْو حلْو خضِر ، قبل: أن يكون ثُماما ، ثم يكون رُماما ، ثم يكون حُطاما »[١] .

قال: هذا مثل، والثُّمام : نبت ضعيف .

والرُّمام ، بالضم والرميم واحد ، مثل طُوال وطويل .

والحُطام : يبس النبت إذا تكسّر ، ومعنى الكلام أنه أمرهم بالغزو حين عزائمهم قويّة ، وبواعثهم إليه شديدة ، فإنّ مع ذلك يكون الظفر قبل أن يَهِى ويضعُف ، فيكون كالثُّمام الضعيف ، ثم كالرميم ، ثم يكون حُطَاما فيذهب .

* * *

وفى حديثه : « إذا انتاطت المغازى ، واشتدّت العزائم ، ومنعت الغنائم أنفسها ، فخير غزوكم الرّباط » .

قال : انتاطت : بعدت ، والنّطِىء : البعيد .

واشتدّت العزائم : صعبت ومنعت الغنائم أنفسَها ، فخير غزوكم الرّباط فى سبيل الله .

* * *

وفى حديثه أنه وضع يده فى كُشْية[٢] ضبّ ، وقال : إنّ النبى صلى الله عليه وآله لم يحرّمه ، ولكن[٣] قذّره .

قال : كُشْية الضّبّ : شحم بطنه .

---

(١) الفائق ١ : ٣٥٢ .

(٢) ويروى : « كشة » .

(٣) الفائق ١ : ١٦٩ .

وقوله : « وضع » أى أ كل منه .

***

وفى حديثه : « لأوتَى بأحدٍ انتقص من سبل المسلمين إلى مثاباته شيئا إلّا فعلت به كذا »[١] .

قال : المثابات هاهنا : المنازل يثوب أهلها إليها ، أى يرجعون ، والمرادُ مَنْ اقتطعَ شيئا من طريق المسلمين وأدخله فى داره .

***

وفى حديثه : أنه كره النِّير[٢] .

قال : هو عَلَمَ الثوب ، وأظنه كرهه إذا كان حريرا .

***

وفى حديثه : أنه انكسرت قَلُوص من إبل الصدقة فجَفَنها[٣] .

قال : اتّخذ منها جَفْنة من طعام ، وأجمع عليه[٤] .

***

وفى حديثه : « عجبت لتاجر هَجَر ، وراكب البحر »[٥] !

قال : عجب كيف يختلف إلى هَجَر مع شدّة وبائها ، وكيف يركب البحر مع الخطار بالنفس !

***

وفى حديثه : أنه قال ليلةً لابن عباس فى مسيرله :أنشِدْنا لشاعر الشعراء ،قال : ومَنْ

---

(١) الفائق ١ : ١٦٣

(٢) الفائق ٣ : ١٣٩ .

(٣) النهاية ١ : ١٦٨ .

(٤) النهاية : « وجمع الناس عليه » .

(٥) نهاية ابن الأثير ٤ : ٢٤٠ .

هو ؟ قال : الذى لم يعاظِلْ بين القول ، ولم يتّبع حُوشِيّ الـكلام ، قال : ومَنْ هو ؟ قال: زهير ، فجعل يُنشِد إلى أن برَق الصبح (١) .

قال : هو مأخوذٌ من تعاظُل الجراد ، إذا ركب بعضُه بعضا .

وحُوشِيّ الـكلام : وحشيُّه .

***

وفى حديثه أنّ نائلاً مولى عثمان ، قال : سافرتُ مع مولاىَ وعمر فى حَجّ أو عُمرة، فـكان عمر وعثمان وابن عمر لِفًّا ، وكنت أنا وابنُ الزّبير فى شَبَبةٍ معنا لِفًّا ، فـكنّا نمازَح ونترامَى بالحنظل ، فما يزيدنا عمر على أن يقول لنـا ؛ كذاك لاَ تذْعَرُوا علينا ، فقلنا لرَياح بن المعترف (٢) : لو نصَبْتَ لنا نصْب العرب ! فقال : [أقول] (٣) مع عمر فقلنا : افعل وإن نَهاك فانته ، ففعل ولم يقل عمر شيئا ، حتى إذا كان فى وجه السَّحر ناداه : يارَياح ، إيهاً ، اكفُفْ فإنها ساعة ذكْر (٤) !

قال : لِفًّا ، أى حزبا وفِرْقة .

وشَبَبة : جمع شابّ ، مثل كاتب وكَتَبة ، وكاذب وكَذَبة ، وكافر وكَفَرة .

وقوله : « كذاك » أى حَسْبُـكم .

وقوله : « لاتذْعَرُوا علينا » ، أى لاتنفروا إبلنا .

ونصْب العرب : غناء لهم يشبه الُحداء ، إلاّ أنه أرقّ منه .

***

وفى حديثه : أنه كتب فى الصّدقة إلى بعض عمّاله كتابا فيه:«ولا تحبِس الناس أوّلهم على آخرهم ، فإنّ الرّجْن للماشية عليها شديد ، ولها مُهلِك ،وإذاوقف الرّجل عليكَ غَنَمه فلا تَعْتَمْ من غنمِه ، ولا تأخذ من أدناها ، وخذ الصدقة من أوسطها ، وإذا وجَبَ على

(١) الفائق : ١٦٥

(٢) الفائق : المقترف.

(٣) من الفائق .

(٤) الفائق ٢ : ٤٦٩ .

الرّجل سنٌّ لم تجدها فى إبله فلا تأخذ إلا تلك السنّ من شَرْوى إبله أو قيمةعدْل،وانظر ذوات الدَّرّ والماخِض ، فـتنكّب عنها ؛ فإنها ثمال حاضِرِيهم »[١] .

قال : الرَّجْن : الحبس ؛ رجَن بالمـكان : أقام به ، ومثله دَجَن ، بالدّال .

ولا تعتَمْ : لاتختر ،اعتام اعتياما،أى اختار .

من شَرْوى إبله ، أى من مِثْلهـا

وذوات الدّرّ : ذوات اللَّبن .

والماخِض : الحامل .

وثمال حاضريهم : عصمتهم وغياثهم ، وحاضريهم : مَنْ يسكن الحضَر .

* * *

وفى حديثه : أنه كان يلقط النوّى من الطريق والنِّكْث ؛ فإذا مرّ بدار قوم ألقاها فيها ، وقال : « ليأ كل هذا داجنتكم وانتفعوا بباقيه »[٢] .

قال: الداجنة مايعلفه الناس فى منازلهم ، من الشّاة والدّجاج والطّير.

والنِّكْث : الخيوط الخلَق من صوف أو شعر أو وَبر .

* * *

وفى حديثه : « ثلاثٌ من الفَواقر : جار مُقامة ؛ إن رأى حسنةً دَفنها ، وإن رأى سيّئة أذاعها ، وامرأة إن دخلْتَ عليها لَسَنَتْك ، وإن غِبت عنها لم تأمنها ، وإمام إن أحسنتَ لم يرضَ عنك ، وإن أسأت قتلك »[٣] .

* * *

(١) الفائق ١ : ٤٦٦ .

(٢) الفائق ٣ : ١٣٤ .

(٣) الفائق : ٢٩٠ .

قال : الفواقر : الدواهِي ، واحدتها فاقِرة ، لأنها تـكسر فقار الظّهر .

ولسنتك : أخذتك بلسانها .

* * *

وفى حديثه فى خطبة له : « مَنْ أتى هذا البيت لا ينهره إليه غيره، رجع وقدغفر له».

قال : ينهره : يدفعه ، يريد من حَجّ لا ينوى بالحجّ إلا الطاعة غفر له .

* * *

وفى حديثه : « اللبن لا يموت » .

قال : قيل فى معناه : إن اللبن إذا أخذ من ميتة لم يحرم ، وكلّ شىء أخذ من الحىّ فلم يحرم فإنه إن أخذ من الميت لم يحرم .

وقيل فى معناه : إنْ رَضَع الطّفل من امرأة ميّتة حَرُم عليه من أولادها وقرابتهـا مَنْ يحرم عليها منها لو كانتْ حيّة .

وقيل: معناه : إنّ اللبن إذا انفصل من الضّرع فأوجر به الصبىّ أو أدم به أو دِيف له فى دواء وسُقِيَه ، فإنه إن لم يسمّ فى اللغة رضاعا، إلا أنّه يحرم به مايحرم بالرضاع ؛ فقال: اللبن لا يموت ، أى لا يبطل عمله بمفارقة الثدى .

* * *

وفى حديثه : « من حظّ المرء نَفَاق أيّمه وموضع خُفِّه»[1] .

قال : الأيّم التّى لا بعل لها، والخفّ : الإبل، كما تُسمّى الحمر والبغال حافراً، والبقر والغنم ظِلْفا ، يريد من حظ الإنسان أن يخطب إليه ويتزوّج بناتُه وأخواته وأشباهُهنّ ، فلا يَبُرْن ،

(١) النهاية ١ : ٢٧٠ ، وفيـه : « موضع حقه » ، وقال فى شرحه : « وأن يكون حقه فى ذمة مأمون جحوده وتهضمه » .

ومن حظه أيضاً أن ينفق إبله، حتى ينتابه التّجار وغيرهم فيبتاعوها فى مواضعها، يستطرقونه لا يحتاج أن يعرضها عليهم .

* * *

وفى حـديثه : أنّ العباس بن عبد المطلب سأله عن الشعراء ، فقال : امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عَيْن الشعر ؛ فافتقر عن معانٍ عُورٍ أصحّ بَصَرٍ (١) .

قال : خسف لهم ، من الخسِيف ، وهى البئر تحفر فى حجارة ، فيخرج منها ماء كثير، وجمعها خُسُف .

وقوله : « افتقر » أى فتح ، وهو من الفقير ، والفقير : فم القناة .

وقوله : « عن معانٍ عور » يريد أنّ امرأ القيس من اليمن، واليمن ليست لهم فصاحة نزار ، فجعل معانيهم عُوراً ، وفتح امرؤ القيس عنها أصحّ بصر .

* * *

[ذكر الأحاديث الواردة فى فضل عمر]

فأما الحديث الوارد فى فضل عمر ، فمنه ماهو مذكور فى الصّحاح ، ومنه ماهو غير مذكور فيها . فممّا ذكر فى المسانيد الصحيحة من ذلك، ماروت عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « كان فى الأمَم محدَّثون، فإن يكن فى أمّتى فعمر ». أخرجاه فى الصحيحين.

وروى سعْد بن أبى وقّاص ، قال : استأذن عُمر على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعنده نساء من قريش يكلّمْنه ، عالية أصواتهنّ ، فلمّا استأذن قُمْنَ يبتدِرْن الحجاب ، فدخل ورسول الله صلى الله عليه وآله يضحَك، قال : أضحَكَ الله سِنَّكَ يارسول الله ! قال: عجبتُ مِنْ هؤلاء اللّواتِى كنّ عندى فلمّا سَمِعْنَ صوتَك ابتدرْنَ الحجاب. فقال عمر: أنت

(١) الفائق ٦ : ٣٤٣ .

أحقّ أن يهبْنَ ، ثم قال : أى عَدُوّاتِ أنفسهنّ ، أتهبْنَنى ولا تهبْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قلن : نعم ، أنت أغلظ وأفظّ ،فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « والذى نفسى بيده ، مالقيَكَ الشّيطان قطّ سالكاً فَجًّا إلا سلك فَجًّا غير فَجّك » ، أخرجاه فى الصحيحين .

وقد روى فى فضله من غير الصحاح أحاديث :

منها : « إنّ السكينة لتنطِق على لسان عمر » .

ومنها : « إنّ الله تعالى ضرب بالحقّ على لسان عمر وقلبه » .

ومنها : « إنّ بين عينىْ عمر مَلَكا يسدّده ويوفّقه »

ومنها : « لو لم أُبْعَثْ فيكم لبعِث عمر » .

ومنها : « لو كان بعدى نبىّ لكان عمر » .

ومنها : « لو نزل إلى الأرض عذابٌ لما نجا منه إلّا عمر » .

ومنها : « ما أبطأ عنّى جبريل إلّا ظَننت أنه بعِث إلى عمر » .

ومنها : « سراج أهل الجنّة عمر » .

ومنها : أن شاعراً أنشدَ النبىّ صلى الله عليه وآله شعرا ، فدخل عمر ، فأشار النبىّ صلى الله عليه وآله إلى الشاعر أن اسكُتْ ، فلمّا خرج عمر ،قال له : عُدْ فعاد ، فدخل عمر فأشار النبى صلى الله عليه وآله بالسكوت مرّة ثانية ، فلما خرج عمر سأل الشاعرُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله عن الرّجل ، فقال : « هذا عمر بن الخطاب ، وهو رجل لا يحبّ الباطل » .

ومنها : أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال : « وُزِنتُ بأمّتى فرجَحْت،ووزن أبو بكر بها فرجح ، ووزن عمر بها فرجح ، ثم رجح ، ثم رجح » .

***

وقد رووْا فى فضله حديثا كثيرا غير هذا ، ولـكنّا ذكرنا الأشهر. وقد طعن أعداؤه ومبغضوه فى هذه الأحاديث ، فقالوا : لو كان محدَّثا وملهَما لما اختار معاوية الفاسقَ لولاية الشام ، ولـكان الله تعالى قد ألهمه وحدّثه بمـا يُواقِـع من القبائح والمنـكرات والبَغْى والتغلّب على الخلافة ، والاستئثار بمال الفىء ، وغير ذلك من المعاصى الظاهرة .

قالوا : وكيف لايزال الشّيطانُ يسلك فجّا غير فجّه ، وقد فرّ مراراً من الزحف فى أُحُدٍ وحُنَين وخَيْبر ، والفِرار من الزَّحْف من عمل الشيطان وإحدى الـكبائر الموبقة !

قالوا : وكيف يُدْعى له أنّ السكينة تنطِق على لسانه ! أترى كانت السّـكينةُ تَلاحِىَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الُحديبية ، حتى أغضبه !

قالوا : ولو كان ينطق على لسانه ملَكٌ أو بين عينيه مَلَكٌ يسدّده ويوفّقه ،أوضرب الله بالحقّ على لسانه وقلبه ، لـكان نظيرا لرسول الله صلى الله عليه وآله ، بل كان أفضلَ منه ؛ لأنّه صلى الله عليه وآله كان يؤدّى الرسالة إلى الأمّة عنْ مَلك من الملائـكة ، وعمر قد كان ينطق على لسانه مَلَك ، وزيدَ ملَـكا آخر بين عينيه يسدّده ويوفقه ، فهـذا الملك الثانى ممّا قد فضّل به على رسول الله صـلى الله عليه وآله ، وقد كان حكم فى أشياء فيخطئ فيها حتى يُفهمه إياها علىٌّ بن أبى طالب ومُعاذ بن جبل وغيرهما ، حتى قال : لولَا علىّ لهلكَ عمر ، ولولا معاذ لهلك عمر . وكان يُشْـكل عليه الحـكم ، فيقول لابن عباس : غُصْ ياغوّاص ، فيفرّج عنه ، فأين كان المَلَك الثانى المسدّد له ! وأين الحقّ الذى ضُرب به على لسان عمر ؟ ومعلوم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر فى الوقائع نزولَ الوحى . وعمر على مقتضَى هـذه الأخبار لاحاجة به إلى نزولِ ملَك عليـه ، لأنّ الملَـكين معه فى كلّ وقت وكلّ حال ، ملَك ينطق على لسانه وملك آخر بين عينيه يسدّده ويوفقه . وقدْ عزّزا بثالث وهى السكينة ، فهو إذاً أفضلُ من رسول الله صلى الله عليه وآله!

وقالوا : والحديث الذى مضمونه : لو لم أبعث فيكم لبعث عمر ، فيلزم أن يكون رسولُ الله صلى الله عليه وآله عذابا على عمر ، وأذًى شديدا له ، لأنه لو لم يبعث لبعث عمر نبيًّا ورسولا ، ولم تعلم رتبةٌ أجلّ من رتْبة الرساله ، فالمزيل لعمر عن هذه الرّتبةالتى ليس وراءها رتبة ، ينبغى ألاّ يكون فى الأرض أحدٌ أبغض إليه منه !

قالوا : وأمّا كونه سراج أهل الجنّة ؛ فيقتضى أنّه لو لم يكن تجلّى عمر لـكانت الجنّة مظلمة لاسراجَ لها .

قالوا : وكيف يجوز أن يقـال : لو نزل العذابُ لم ينجُ منْه إلا عمر ، والله تعـالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (١) .

قالوا : وكيف يجوز أن يقال : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله كان يسمع الباطل ويحبّه ويشهده ، وعمر لا يسمع الباطل ولا يشهده ولا يحبّه ! أليس هذا تنزيهاً لعمر عمّا لم ينزّهْ عنه رسول الله صلى الله عليه وآله !

قالوا : ومن العَجَب أنْ يكون النبي صلى الله عليه وآله أرجحَ من الأمة يسيرا ، وكذلك أبو بكر ، ويكون عمر أرجح منهما كثيرا ! فإن هذا يقتضى أن يكون فضلُه أبينَ وأظهرَ من فضل أبى بكر ومن فَضْل رسول الله صلى الله عليه وآله !

والجواب أنه ليس يجب فيمن كان محدَّثا ملهماً أن يكون محدَّثا ملهَماً فى كلّ شىء بل الاعتبار بأكثر أفعاله وظنونه وآرائه ، ولقد كان عمر كثيرَ التوفيق ، مصيبَ الرأى فى جمهور أمرِه ، ومَنْ تأمّل سيرتَه علم صحّة ذلك ، ولا يقدَح فى ذلك أن يختلف ظنُّه فى القليل من الأمور .

وأما الفرار من الزَّحْف ، فإنه لم يفرّ إلّا متحيّزاً (٢) إلى فئة ، وقد استثنى الله تعالى ذلك فخرج به عن الإثم .

---

(١) سورة الأنفال ٣٣

(٢) هو قوله تعالى فى سورة الأنفال ١٦ : ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾

وأمّا باقى الأخبار فالمراد بالملك فيها الإخبار عن صحة ظنّه، وصدْق فراسته، وهو كلام يجرى مجرى المثل ، فلا يَقْدح فيه ماذكروه .

وأما قوله صلى الله عليه وآله: «لو نزل إلى الأرض عذابٌ لما نجا منه إلّا عمر»، فهو كلام قاله عَقِيب أخذ الفدية من أسارى بدْر، فإنّ عمر لم يُشِرْ عليه، ونهاه عنه ، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) . وإذا كان القرآن قد نطق بذلك وشهد ، لم يُلتفتْ إلى طعن مَنْ طعن فى الخبر .

وأما قوله عليه السلام: « سراج أهل الجنّة عمر »، فمعناه سراج القوم الذين يستحقّون الجنّة من أهل الدنيا أيّام كونهم فى الدّنيا مع عمر ، أى يستضيئون بعلمه ، كما يستضاء بالسراج .

وأما حديث مَنْع الشّاعر ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله خاف أن يذكر فى شعره مايقتضى الإنكار فيعنُف به عمر، وكان شديد الغلْظة ، فأراد النبيّ صلى الله عليه وآله أن ينكر هو على الشّاعر إن قال فى شعره مايقتضى ذلك على وجه اللّطف والرّفق، وكان عليه السلام رءوفا رحيما ، كما قال الله تعالى (٢) .

وأما حديث الرجحان، فالمراد به الفتوح ومُلْك البلاد ، وتأويله أنّه عليه السلام أُرِىَ فى منامه مايدلّ على أنه يفتح الله عليه بلاداً وعلى أبى بكر مثله ، ويفتح على عمر أضعاف ذلك ، وهكذا وقع .

واعلم أن مَنْ تصدّى للعيب وجَده ، ومن قصَر همّته على الطّعن على الناس انفتحت

---

(١) سورة الأنفال ٦٨ .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة التوبة ١٢٨ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

له أبواب كثيرة ، والسعيد مَنْ أنصف من نفسه ، ورفض الهوى ، وتزوّد التقوى ، وبالله التوفيق !

***

[ذكر ماورد من الخبر عن إسلام عمر]

وأمّا إسلام عمر ، فإنه أسلم، فكان تمام أربعين إنساناً فى أظهر الروايات ، وذلك فى السنة السادسة من النبوة، وسنّه إذ ذاك ست وعشرون سنة، وكان عمر ابنِه عبدالله يومئذ ستّ سنين .

وأصحّ ماروِىَ فى إسلامه رواية أنس بن مالك عنه ، قال : خرجتُ متقلّداً سيفِى ، فلقيت رجلاً من بنى زُهْرة ، فقال : أين تعمد ؟ قلت : أقتل محمدا ، قال : وكيف تأمنُ فى بنى هاشم وبنى زهرة ؟ فقلت : ماأراك إلا صَبَوْت ! قال : أفلا أدلُّك على العَجَبِ ! إنّ أختك وزوجها قد صَبَوَا . فمشى عمر فدخل عليهما ذامراً، وعندهما رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقال له : خبّاب بن الأرتّ ، فلما سمع خَبّاب حِسّ عمر توارَى ، فقال عمر : ماهذه الهينمة [1] التى سمعتها عندكم ؟ وكانوا يقرءون « طه » على خَبّاب، فقال: ماعندنا شىء، إنّما هو حديثٌ كنّا نتحدّثه بيننا، قال: فلعلّكما قد صَبوتما[2] فقال له خَتَنُه: أرأيت ياعمر إن كان الحق فى غير دينك ! فوثب عمر على ختنه فوطِئه وطئا شديدا ، فجاءت أخته فدفعتْه عن زوجها ، فنفحها بيده ، فأدمى وجهها ، فجاهرته، فقالت : إنّ الحقّ فى غير دينك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فاصنع مابدا لك! فلما يئس قال: أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرؤه ـ وكان عمر يقرأ الخطّ ـ

---

(١) الهينمة : الصوت الخفى .

(٢) صبا ، أى خرج عن دينه .

فقالت له أخته : إنك رجْس ؛ وإنّ هذا الكتاب لا يمسّه إلّا المطهرون،فقمْ فتوضّأ،فقام فأصاب ماء ، ثم أخذ الكتاب ،فقرأ ﴿طَهَ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ، فقال عمرُ : دُلّونِي على محمّد ، فلما سمع خبّابٌ قول عمر ، ورأى منه الرّقة ، خرج من البيت ، فقال : أبشِرْ ياعمر ، فإنّى لأرجو أن تكون دعوةُ رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلَة الخميس لك ،سمعته يقول : « اللهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » — قال : ورسول الله صلى الله عليه وآله فى الدّار التى فى أصْلِ الصّفَا — فانطلق عمر حتى أتى الدّار ، وعلى الباب حمزة بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وناس من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا رأى النّاس عمرَ قد أقبلَ ، كأنهم وجِدوا ، وقالوا : قد جاء عمر ، فقال حمزة : قد جاء عمر ، فإن يرد الله به خيْرا يُسْلِم ، وإن يرد غير ذلك كان قتلُه علينا هيّناً ، قال : والنبى صلى الله عليه وآله مِنْ داخل البيت يُوحَى إليه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله كلامَ القوم ، فخرج مسرعا حتى انتهى إلى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : ما أنت منتهيا ياعمر حتى ينزل الله بك — يعنى من الخزى والنّكال — ما أنزل بالوليد بن المغيرة . ثم قال: اللّهم هذا عمر، اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر ! فقال : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله . فكبّر أهل الدار ،ومن كان على الباب ، تكبيرةً سمعها مَنْ كان فى المسجد من المشركين[(١)] .

وقد روى أن عمر كان موعوداً ومبشّرا بما وصل إليه من قبل أن يظهر أمر الإسلام. قرأت فى كتاب من تصانيف أبى أحمد العسكرى رحمه الله ، أنّ عمر خرج عَسِيفاً[(٢)] مع الوليد ابن المغيرة إلى الشام فى تجارة للوليد ، وعمر يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، فكان يرعى

---

(١) الرياض النضرة ١ : ١٩١ ، ١٩٢ (٢) العسيف : الأجير .

للوليد إبلَهُ ، ويرفع أحماله ، ويحفظ مَتاعه ، فلما كان بالبَلْقاء لقيَه رجلٌ من علماء الرّوم ، فجعل ينظر إليه ، ويطيل النظر لعمر ، ثم قال : أظنّ اسمك ياغلام « عامرا » أو « عمران » أو نحو ذلك ؟ قال : اسمى « عمر » ، قال : اكشف عن فَخِذيك ، فكشف فإذا عَلَى أحدهما شامة سوداء فى قَدْر راحة الكفّ ، فسأله أن يكشف عن رأسه ، فكشف فإذا هو أصْلَع ، فسأله أن يعتمل بيده ، فاعتمل فإذا أعسر أيْسَر ، فقال له : أنت ملك العرب ، وحقّ مريم البتول ! قال : فضحك عمر مستهزئا ، قال : أو تضحك ! وحقّ مريم البتول إنك ملك العرب ، وملك الروم ، وملك الفرس ! فتركه عمر وانصرف مستهيناً بكلامه ، وكان عمر يحدّث بعد ذلك ، ويقول : تبعنى ذلك الرومىّ وهو راكب حمارا ، فلم يزل معى حتى باع الوليد متاعه ، وابتاع بثمنه عِطْراً وثياباً ، وقَفَل إلى الحجاز ، والرومىّ يتبعنى ، لا يسألنى حاجة ، ويقبّل يدى كلّ يوم إذا أصبحت كما تُقَبّل يد الملك ، حتى خرجنا من حدود الشام ، ودخلنا فى أرض الحجاز راجعين إلى مكة ، فودّعنى ورجع . وكانَ الوليد يسألنى عنه فلا أخبره ، ولا أراه إلا هلَك ، ولو كان حيًّا لشخص إلينا .

***

[تاريخ موت عمر والأخبار الواردة فى ذلك]

فأمّا تاريخ موته ، فإنّ أبا لؤلؤة طعنه يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذى الحجّة من سنة ثلاث وعشرين ، ودُفِن يوم الأحد صباح هلال المحرّم سنة أربع وعشرين ، وكانت ولايته عشر سنين وستّة أشهر ، وهو ابن ثلاث وستين فى أظهر الأقوال ، وقد كان قال على المِنْبر يوم جُمعة ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وأبا بكر : إنّى قد رأيتُ رؤيا ، أظنّها لحضور أجلى ، رأيت كأنّ ديكا نقرنى نَقْرتين ، فقصصتُها على أسماء

(١) الأعسر : الذى يعمل بيده اليسرى ، وفى النهاية لابن الأثير : ٤ : ٢٦٥ : « كان عمر أعسر أيسر » ، هكذا يروى ، والصواب «أعسر يسر» وهو الذى يعمل بيديه جميعا ، ويسمى الأضبط » .

بنت عميس، فقالت: يقتلك رجل من العَجَم ؛ وإنى أفكرت فيمن أستخلف ، ثم رأيت أنّ الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته التى بعث بها رسوله .

وروى ابن شهاب ، قال : كان عمر لا يأذن لصبىّ قد احتلم فى دخول المدينة ، حتى كتب المغيرة ، وهو على الكوفة ، يذكر له غلاما صنعا عنده، ويستأذنه فى دخول المدينة، ويقول : إنّ عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس ، إنه حداد نقاش نجار . فأَذِن له أن يرسل به إلى المدينة ، وضربَ عليه المغيرة مائة دِرْهمٍ فى كل شهر ، فجاء إلى عمر يوما يشتكى إليه الخراج ، فقال له عمر : ماذا تحسن من الأعمال ؟ فعدّ له الأعمال التى يحسن ، فقال له: ليس خراجُك بكثير فى كُنْه عملك .

هـذا هو الذى رواه أكثر الناس من قوله له ، ومن النـاس مَنْ يقول : إنّه جَهَر بكلام غليظ ، واتفقوا كلُّهم على أنَّ العبد انصرف ساخطاً يتذمّر ، فلبث أياماً ثم مرّ بعمر فدعاه ، فقال : قد حُدّثت أنّك تقول : لو أشاء لصنعتُ رحاً تطحَنُ بالريح ، فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر ، ومع عمر رهط من الناس ، فقال : لأصنعنّ لك رحاً يتحدّث الناس بها ، فلمّا ولّى أقبل عمر على الرّهط ،فقال : ألا تسمعون إلى العبد! ما أظنّه إلا أوعدنى آنفا ! فلبث ليالى ، ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خِنْجَرٍ ذى رأسين ، نصابُه فى وسَطه ، فكَمَن فى زاوية من زوايا المسجد فى غلَس السّحر ، فلم يزل هنالك حتى جاء عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر ، كما كان يفعل، فلمّا دنا منه وثبَ عليه ؛ فطعنه ثلاثَ طعنات : إحداهنّ تحت السّرّة ، قد خرقت الصّفاق[1] — وهى التى قتلتْه — ثم انحاز إلى أهل المسجد ، فطعن فيهم مَنْ يليه حتى طعن أحدَ عشر رجلا سوى عمر ، ثم انتحر بخِنْجره ، فقال عمر حين أدركه النّزف: قولوا لعبد الرحمن بن عوف؛ فليصلّ بالناس ، ثم غلبه النّزف فأغمِىَ عليه،

---

(١) الصفاق : الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر .

فاحتُمل حتى أدخل بيته ، ثم صلّى عبد الرحمن بالنّاس ، قال ابن عباس : فلم أزلْ عنــد عمر وهو مغمًى عليه لم يزل فى غَشْيةٍ واحدة ،حتى أسفر ، فلمّا أسفر أفاق ، فنظر فى وجوه مَنْ حوله ، وقال : أصلّى الناس ؟ فقيل : نعم ، فقال : لا إسلام لمن ترَكَ الصلاة ، ثم دعا بوضوء فتوضّأ وصلّى ، ثم قال: اخرج يابنَ عباس ، فاسأل مَنْ قتلنى ؟ فجئت حتى فتحت باب الدار ، فإذا النّاس مجتمعون ،فقلت : مَنْ طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة ، قال ابن عباس : فدخلتُ فإذا عمر ينظر إلى الباب يستأنى خبرَ ما بعثنى له ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، زعم الناس أنه عدوّ الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وأنّه طعن رهطاً ثم قتل نفسه ، فقال: الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجّنى عند الله بسجْدة سجدها له قطّ ، ما كانت العرب لتقتُلَنى ،ثم قال: أرسلوا إلى طبيب ينظر جَرْحى،فأرسلوا إلى طبيب من العرب ، فسقاه نبيذاً فخرج من الجرح ، فاشتبه عليهم الدم بالنبيذ ، ثم دَعَوْا طبيبا آخر فسقاه لبنا ، فخرج اللبن من الطعنة صَلْداً أبيض ، فقال الطّبيب : اعْهَد ياأمير المؤمنين عهدَكَ ، فقال :لقد صدقنى ، ولو قال غير ذلك لكذب ،فبكى عليه القوم حتى أسمعوا مَنْ خارج الدار ، فقال : لاتبكوا علينا ، ألَا ومَنْ كان باكيا فليخرج ، فإن النبى صلى الله عليه وآله قال : « إن الميّت ليعذّب ببكاء أهله عليه » .

وروى عن عبد الله بن عمر ، أنه قال :سمعتُ أبى يقول: لقد طعننى أبو لؤلؤة طعنتيْن، وما أظنّه إلّا كابّاً حتى طعننى الثالثة .

وروى أن عبد الرحمن بن عوف طارح على أبى لؤلؤة بعد أن طعن الناس خَميصة(١) كانت عليه، فلما حصل فيها نحر نفسه ، فاحتزّ عبد الرحمن رأسه واجتمع البدريّون وأعيان المهاجرين والأنصار بالباب ، فقال عمر لابن عباس : اخرج إليهم ، فاسألهم أعن ملأٍ منكم

---

(١) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان ، فإن لم يكن معلماً فليس بخميصة .

كان هذا الذى أصابنى ؟ نخرج يسألهم ، فقال القوم : لا والله ، ولوددنا أنّ الله زاد فى عمره من أعمارنا !

وروى عبد الله بن عمر ، قال : كان أبى يكتبُ إلى أمراء الجيوش : لا تجلبُوا إلينا من العلوج أحداً جرَتْ عليه المواسى ، فلمّا طعنه أبو لؤلؤة ، قال : منْ بى ؟ قالوا : غلام المغيرة ، قال : ألم أقل لكم : لا تجلبوا إلينا من العُلوج أحدا ، فغلبتمونى !

وروى محمد بن إسماعيل البخاريّ فى صحيحه عن عمرو بن ميمون ، قال : إنّى[1] لقائم ما بينى و بين عمر إلا عبدُ الله بن عباس غداةَ أصيب ، وكان إذا مرَّ بين الصّفّين ، قال : استوُوا ؛ حتى إذا لم ير بيننا[2] خَلَلاً تقدم فكبّر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل فى الرّكعة الأولى [أو نحو ذلك فى الركعة الثانية][3] حتى يجتمع الناس ، فما هو إلّا أنْ كبّر ، فسمعته يقول : قتلنى — أو أكلنى — الكلب ؛ وذلك حين طعنه العِلْجُ بسكّين ذات طرفين ؛ لا يمرُّ على أحد يمينا ولا شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، مات منهم ستّة[4] ، فلمّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه بُرْنساً ، فلما ظنّ العِلْج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر بيده عبد الرحمن بن عوف ، فقدّمه ، فمن يلى عمر ، فقد رأى الذى رأى ، وأمّا نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر ، فهم يقولون : سبحان الله ! فصلّى عبد الرحمن صلاة خفيفةً ، فلمّا انصرفوا قال : يابن عباس ، انْظُر مَنْ قتلنى ؟ فجال ساعةً ؛ ثم جاء فقال : غلام المغيرة ؛ قال : الصَّنَع ! قال : نعم ،

---

(١) صدر الحديث كما فى البخارى « رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف ؛ قال : كيف فعلتما ؟ أتخافان أن تكونا قد حملتهما الأرض مالا تطيق ؟ قالا : حملناها أمراً هى له مطيقة ، ما فيها كبير فضل ؛ قال : انظرا أن تكونا حملتهما الأرض ما لا تطيق ؟ قالا : لا ؛ فقال عمر : لئن سلمنى الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبداً . قال : فما أتت عليه رابعة حتى أصيب ؛ قال : إنى لقائم . . . » .

(٢) البخارى : « فيهن » .

(٣) من رواية البخارى .

(٤) البخارى : « سبعة » .

قال : قاتله الله ؛ لقد أمرتُ به معروفاً ، الحمد لله الذى لم يجعل منيّتى[1] بيد رجل يدّعى الإسلام ، وقد كنت أنت وأبوك تحبّان أن يكثر العُلوج ـ وكان العباس أكثرهم رقيقاً ـ فقال : إن شئت فعلنا[2] ؛ أى قتلناهم ، قال : كذبت بعد أن تكلّموا بلسانكم وصلّوْا قبلتكم ، وحجّوا حجكم ! فاحتُمِل إلى بيته ، وانطلقنا معه ، وكأنّ الناس لم تصبْهم مصيبة قبلَ يومئذ ، فقائل : يقول : لا بأس عليه ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فأُتِىَ بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أُتِىَ بلبَن فشربه فخرج من جَوْفه ، فعلموا أنه ميّت ، فدخل الناس يثنون عليه ، وجاء [رجل][3] شابٌّ ؛ فقال : أبشر يا أميرَ المؤمنين ببشرى الله ، لك صحبة برسول الله وقدمٌ فى الإسلام ما قد علمت ، ثم ولِّيت فعدلْت ، ثم الشهادة . فقال عمر : وددت أنّ ذلك كلّه كان كفافاً ، لا علىّ ولالى ، فلمّا أدبر إذا رداؤه[4] يمسّ الأرض ، فقال : ردُّوا علىّ الغلام ، فردوه ، فقال : يابن أخى ، ارفع ثوبك ، فإنه أبقى لثوبك ، وأتقَى لربك ؛ ياعبد الله بن عمر ، انظر ماعلىّ من دَيْن ؛ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، فقال : إن وَفَى به مال آل عمر فأدِّه من أموالهم ، وإلّا فَسَلْ فى بنى عدىّ بن كعب ، فإن لم تَفِ به أموالهم ، فسلْ فى قريش ولا تعدُهم إلى غيرهم ؛ وأدِّ عنّى هذا المال ، انطلق إلى عائشة ، فقل لها : يقرأ عليك السّلام عمر ـ ولا تقل « أمير المؤمنين » ، فإنى اليومَ لستُ للمؤمنين أميرا ـ وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفَن مع صاحبيه ، فمضى وسلّم ، واستأذنَ ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر السّلام ويستأذن أن يدفَن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ـ يعنى الموضع ـ ولأوثرنّه اليوم على نفسى . فلمّا أقبل قيل : هذا عبد الله قد جاء ، قال : ارفعونى ، فأسندوه إلى رجل منهم ، قال : ياعبد الله مالديك ؟ قال : الذى تحبّ يا أميرَ المؤمنين ، قد أذنتْ ، قال : الحمد لله ، ما كان شىء أهم إلىّ من

---

(١) البخارى : « ميتتى » .
(٢) البخارى : « فعلت » .
(٣) من صحيح البخارى .
(٤) البخارى : « إزاره » .

ذلك ، إذا أنا قبِضت فاحملني ، ثم سلِّم عليها ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإنْ أذنَتْ لى فأدخلونى ، وإن ردّتنى فردُّونى إلى مقابر المسلمين ، وادفنونى بين المسلمين .

وجاءت ابنته حفصة ، والنّساء معها ، قال : فلمّا رأيناها قُمْنا ، فولجت عليه فبكتْ عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجتْ بيتا داخلاً لهم ، فسمعنا بكاءها من البيت الدّاخل فقال : أوصِ ياأمير المؤمنين واستخلِفْ ، فقال : ما أجِدُ أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر — أو قال : الرهط — الّذين توفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عنهم راضٍ ، فسمَّى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن ، وقال : يَشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء — كهيئة التعزية له — فإن أصابت الإمارة [(١)] سعداً ، فهو أهلٌ لذلك ، وإلّا فليستعِنْ به أيّكم أُمِّر ، فإنى لم أعزِلْه عن عَجْز ولا عن خيانة ، ثم قال : أوصِي الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين ؛ أن يعرف لهم حقّهم ، ويحفظ لهم حُرْمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدّار والإيمان من قبلهم ؛ أن يقبَل من محسنهم وأن يعفوَ عن مسيئهم ، وأوصيه بأهْلِ الأمصار خيراً ، فإنّهم رِدْء الإسلام وجباة الأموال ، وغَيْظ العدوّ ؛ ألّا يأخذ منهم إلا فضلهم ، عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنّهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ؛ أن يؤخذ من حواشى أموالهم ، ويردّ على فقرائهم ، وأوصيه بذمّة الله وذمّة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل مَنْ وراءهم ، وألّا يكلفوا إلا طاقتهم .

قال : فلما قبِض خرجنا به فانطلقنا نمشى ، فسلّم عبد الله بن عمر ، وقال : يستأذن عمر ابن الخطاب ، فقالت : أدخلوه ، فأدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه [(٢)] .

***

(١) البخارى : « الإمرة » .

(٢) صحيح البخارى ٢ : ٢٩٧ــ٢٩٩ ، وبقية الحديث: « فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : جعلت أمرى إلى علىّ ؛ فقال طلحة : قد جعلت أمرى إلى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا فنجعله إليه والله عليه ، والإسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه ؟ فأسكت الشيخان ؛ فقال =

وقال ابنُ عباس : أنا أوّل مَنْ أتى عمر حين طُعِن ، فقال : احفظ عنّى ثلاثا ، فإنّى أخاف ألّا يدركنى الناس ، أمّا أنا فلم أقض فى الكلالة ، ولم أستخلف على الناس ، وكلّ مملوك لى عتيق ، فقلت له : أبشر بالجنة ، صاحبتَ رسول الله صلى الله عليه وآله فأطلت صحبتَه ، ووليت أمر المسلمين فقويت عليه ، وأدّيت الأمانة .

قال : أما تبشيرك لى بالجنّة،فوالله الذى لا إله إلا هو،لو أن لى الدنيا بمافيها لافتديت به من هَوْل ما أمامى قبل أن أعلم ما الخبر ، وأمّا ماذكرت من أمر المسلمين فلودِدتُ أنّ ذلك كان كَفافا لا علىّ ولا لى ، وأما ماذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله فهو ذلك .

وروى معمر ، عن الزهرىّ،عن سالم عن عبد الله ، قال : دخلتُ على أبى ، فقلت : سمعتُ الناس يقولون مقالة ـ وآليت أنْ أقولها لك ـ زعموا أنك غير مستخلِف ، وأنه لو كان لك راعى إبل أو غنم ثم جاءك وتركها رأيت أنه قد ضيّع ، فرعاية الناس أشدّ ، فوضع رأسه ثم رفعه ، فقال : إنّ الله تعالى يحفظ دينَه ؛ إن لم أستخلِف فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يستخلِفْ ، وإن استخلفتُ فإن أبا بكر قد استخلف . فوالله ماهو إلا أن ذكر رسول الله وأبا بكر ، فعلمت أنه لم يكن يعدِل برسول الله صلى الله عليهوآله أحداً ، وأنه غير مستخلِف .

وروى أنه قال : وقد أذِنَتْ لهعائشة فى أن يدفن فى بيتها : إذا متّ فاستأذنوهامرّةً ثانية ، فإن أذنت ، وإلا فاتركوها ، فإنّى أخشى أن تكونَ أذنت لى لسلطانى ، فاستأذنوها بعد موته فأذنت .

= عبدالرحمن : أفتجعلونه إلىّ ، والله علىّ ألا آلوا عن أفضلكم ؟ قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدهمافقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم فى الإسلام ما قد علمت ؛ فالله عليك لئن أمرتك لتعدلنّ ! وإن أمرت عثمان لتسمعنّ ولتطيعن ! ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك ؛ فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له علىّ ، وولج أهل الدار فبايعوه » .

وروى عمر بن ميمون ، قال : لما طعن عمر ، دخل عليه كعب الأحبار ، فقال : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١) ، قد أنبأتك أنك شهيد ، فقال : من أين لى بالشهادة وأنا بجزيرة العرب !

وروى ابنُ عبّاس ، قال : لما طُعِن عمر وجئته بخبر أبي لؤلؤة أتيته والبيت ملآن ، فكرهت أن أتخطّى رقابهم ـ وكنت حديث السنّ ـ فجلست وهو مسجًّى ، وجاء كعب الأحبار ، وقال : لئن دعا أمير المؤمنين ليبقيَه الله لهذه الأمّة حتى يفعل فيها كذا وكذا ! حتى ذكر المنافقين فيمن ذكر ، فقلت : أبلغه ماتقول : قال : ماقلت إلاوأنا أريد أن تبلغه ، فتشجّعت وقمت ، فتخطّيت رقابَهم ، حتى جلست عند رأسه ، وقلت : إنّك أرسلتنى بكذا ، إنّ عبد المغيرة قتلك وأصاب معك ثلاثة عشر إنسانا ، وإن كعبا هاهنا وهو يحلف بكذا ، فقال : ادعو إلى كعبا ، فدُعِيَ فقال :ماتقول؟قال:أقول كذا ، قال : لاوالله لاأدعو ، ولكن شَقِيَ عمر إن لم يغفر الله له .

وروى المِسْوَرِين مخرَمة ، أن عمر لما طعن أُغْمِيَ عليه طويلا ، فقيل إنكم لم توقظوه بشيء مثل الصّلاة إن كانت به حياة ! فقالوا ! الصلاة : ياأمير المؤمنين ، الصلاة قد صُلّيت ! فانتبه ، فقال : الصّلاة ، لاها اللهِ لا أتركها ، لاحظّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ! فصلّى ، وإن جرحه لينثعب (٢) دما .

وروى المِسْور ابن مخرمة ، أيضا ، قال : لما طُعِن عمر ، جعل يألم ويجزَع ، فقال ابن عباس : ولا وكلّ ذلك ياأمير المؤمنين ، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راضٍ ، وصحبت أبا بكر وأحسنت صحبتَه ، وفارقك وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت إليهم وفارقتهم وهم عنك راضون .

---

(١) سورة البقرة ١٤٧

(٢) ينثعب : يسيل .

قال : أمّاماذكرتَ من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر فذلك ، ممّامنّ الله به علىّ ، وأما ما ترى من جزعى فوالله لوأنّ لى بما فى الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه — وفى رواية لافتديت به من هوالمطلع . وفى رواية :المغرورمَنْغررتموه! لو أنّ لى ماعلى ظهرها من صفراء و بيضاء لافتديت به من هول المطلع . وفى رواية : فى الإمارة على تثنى يابن عباس ! قلتُ : وفى غيرها،قال:والذى نفسى بيده لوددتأنّى خرجت منها كما دخلت فيها ، لا حَرَج ولا وزْر . وفى رواية : لو كان لى ماطلعت عليه الشمس لافتديتُ به من كَرْب ساعة — يعنى الموت — كيف ولم أرد النّاس بعد ! وفى رواية : لو أن لى الدنيا وما فيها لافتديت به من هَوْل ماأمامى ، قبل أن أعلم ما الخبر .

قال ابن عباس : فسمعنا صوت أمّ كلثوم : واعمَراه ! وكان معهانسوةيبكين،فارتجّ البيت بكاء ، فقال عمر : ويلمّ عمر ، إن الله لم يغفر له ! فقلت : والله إنى لأرجو ألّا تراها إلا مقدار ماقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُها ﴾ [1]؛ إن كنتَ — ماعلمنا — لأميرَ المؤمنين ، وسيّدَ المسلمين ، تقضِى بالكتاب ، وتقسم بالسويّة .

فأعجبه قولى ، فاستوى جالسا فقال : أتشهد لى بهذا يابن عباس ؟ فكَعَعْت — أى أى جبنت — فضرب علىّ عليه السلام بين كتفى ، وقال : اشهد . وفى رواية لِمَ تجزع ياأمير المؤمنين ؟ فوالله لقد كان إسلامك عزّا وإمارتك فتحاً ، ولقد ملأْت الأرض عدلا فقال : أتشهد لى بذلك يابن عباس ؟ قال : فكأنه كَرِه الشهادة ، فتوقّف ، فقال له علىّ عليه السلام : قل: نعم ، وأنا معك ، فقال : نعم .

وفى رواية أنه قال : مسست جلده وهو ملقًى ،فقلت:جلدلا تمسّه النّارأبدا، فنظر إلىّ نظرة جعلت أرثِى له منها ، قال : وما علمك بذلك ؟ قلت : صحبت رسولَ الله صلى الله عليه وآله فأحسنتَ صحبته . . . الحديث ، فقال : لو أنّ لى مافى الأرض لافتديت

---

(١) سورة مريم ٧١ .

به من عذاب الله قبل أن ألقاه أو أراه .

وفى رواية ، قال : فأنكرنا الصّوت ، وإذا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل : طُعِن أمير المؤمنين . فانصرف الناس وهو فى دمه مسجًّى ، لم يصلّ الفجر بعد ، فقيل : ياأمير المؤمنين : الصّلاة ! فرفع رأسَه ،وقال: لاهاالله إذنْ، لاحظّ لامرئٍ فى الإسلام ضيّع صلاته. ثم وثب ليقوم فانثعب جرحُه دما ، فقال : هاتوا لى عمامة ، فعصب بها جُرحه، ثم صلّى وذكر، ثم التفت إلى ابنه عبد الله ، وقال : ضع خدّى إلى الأرض ياعبد الله ، قال عبد الله : فلم أَعُجْ بها ، وظننت أنّها اختلاس من عقله ، فقالها مرة أخرى : ضع خدّى إلى الأرض يابنىّ فلم أفعل ، فقال الثالثة : ضَعْ خدّى إلى الأرض ، لا أمّ لك ! فعرفت أنه مجتمع العقل ، ولم يمنعه أن يضعه هو إلّا مابه من الغَلبة ، فوضعت خدّه إلى الأرض، حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجةً من أضعاف التراب ، وبكى حتى نظرت إلى الطّين قد لصق بعينه ، فأصغيت أذنى لأسمع ما يقول ، فسمعته يقول : ياويلَ عمر ! وويل أمّ عمر ، إن لم يتجاوز الله عنه !

وقد جاء فى رواية ، أنّ عليا عليه السلام جاء حتى وقف عليه ، فقال: ماأحدٌ أحبَّ إلىّ أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجَّى !

ورُوِى عن حفصة أم المؤمنين ، قالت : سمعت أبى يقول فى دعائه : اللهمَّ قتلًا فى سبيلك ، ووفاة فى بلد نبيّك ! قلت : وأنَّى يكون هذا ؟ قال : يأتى به الله إذا شاء .

ويروَى أن كعبا كان يقول له : نجدُك فى كتبنا تموت شهيدا ؛ فيقول : كيف لى بالشهادة وأنا فى جزيرة العرب !

وروى المِقْدام بن مَعْدِ يكرب ، قال : لما أصيب عمر دخلتْ عليه حفصة ابنُته ، فنادتْ : ياصاحبَ رسول الله ، وياصهرَ رسول الله ، ويا أميرَ المؤمنين ! فقال لابنه عبدالله: أجلِسْنى ، فلا صبرَ لى على ما أسمع ، فأسنده إلى صدره ، فقال لها : إنِّى أحرِّج عليك

بمالِي عليكِ من الحقّ أن تندبيني بعد مجلسك هذا ، فأما عينك فلنْ أملكَها ، إنه ليس من ميّت يُندب عليه بما ليس فيه ، إلا الملائكة تمقته !

وروى الأحنف ، قال : سمعت عمر يقول : إن قريشاً رءوس الناس، ليس أحد منهم يدخل من باب إلا دخل معه طائفة من الناس ، فلمّا أصيب عمر أمر صُهيباً أن يصلّيَ بالناس ثلاثة أيام ويُطعمهم ، حتى يجتمعوا على رجلٍ ، فلما وُضِعت الموائد كفّ الناس عن الطعام ، فقال العباس بن عبد المطلب : أيّها الناس ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات فأكلْنا بعده ، ومات أبو بكر فأكلْنا بعده ، وإنه لابدّ للناس من الأكل ، ثم مدّ يده فأكل من الطعام ، فعرفت قول عمر .

ويروى كثير من الناس الشّعر المذكور فى الحماسة ، ويزعم أن هاتفا من الجنّ هتف به وهو :

جُزِيتَ عن الإسلام خيراً وباركتْ ... يدُ الله فِي ذاكَ الأديم الممزَّقِ (١)

فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ ... ليدركَ ماقدّمت بالأمس يُسْبَقِ

قضيتَ أموراً ثم غادرت بعدَهَا ... بوائقَ فى أكمامها لم تُفَتَّقِ (٢)

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ ... له الأرض تهتزّ العضاه بأسوُقِ ! (٣)

وما كنتُ أخشى أن تكون وفاتُه ... بكَفَّيْ سَبَنْتَى أزرق العين مُطْرِقِ (٤)

تظلّ الحَصان البِكْر يُلقِي جنينَها ... نَثَا خبرٍ فوق المطيّ مُعلّقِ

والأكثرون يروونها لمزرّد أخى الشّماخ ، ومنهم من يرويها للشماخ نفسه .

***

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوق ٣ : ١٠٩٠ ونسبها إلى الشماخ .

(٢) البوائق : الدواهي العامة . (٣) العضاه : شجر .

(٤) السبنتى ، أصله فى النمر ، ويستعمل فى الجرىء المقدم . والمطرق : الغليظ الجفن الثقيله .

[فصل فى ذكر ماطعن به على عمر ، والجواب عنه]

ونذكر فى هذا الموضع ماطعن به على عمر فى " المُغنى " من المطاعن ، وما اعترض به الشريف المرتضى على قاضى القضاة ، وما أجاب به قاضى القضاة ، فى كتابه المعروف " بالشافى "، ونذكر ماعندنا فى البعض من ذلك .

* * *

الطعن الأول

قال قاضى القضاة : أول ماطعِن به عليه قول من قال : إنّه بلغ من قلّة علمه أنه لم يعلم أنّ الموت يجوز على النبى صلى الله عليه وآله ، وأنه أسوة الأنبياء فى ذلك ، حتى قال : والله ما مات محمد ، ولا يمُوت حتى تُقطع أيدى رجال وأرجلهم ، فلما تلا عليه أبو بكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [١] ، وقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ... ﴾ [٢] الآية ، قال: أيقنت بوفاته ؛ وكأنّى لم أسمع هذه الآية ، فلو كان يحفظ القرآن أو يفكّر فيه لماقال ذلك ، وهذا يدلُّ على بعده من حفظ القرآن وتلاوته ، ومَنْ هذا حاله لايجوز أن يكون إماما .

قال قاضى القضاة : وهذا لايصحّ لأنّه قد روى عنه أنه قال : كيف يموت ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [٣] وقال : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [٤] ؛ ولذلك نفى موتَه عليه السلام ، لأنّه حمل الآية على أنها خبر عنه فى حال حياته

---

(١) سورة المؤمنين ١٥
(٢) سورة آل عمران ١٤٤ .
(٣) سورة التوبة ٣٣
(٤) سورة النور ٥٥ .

حتى قال له أبو بكر : إنّ الله وعده بذلك وسيفعله ، وتلا عليه ماتلا ، فأيقن عنـد ذلك بموته ، وإنما ظنّ أن موته يتأخرُ عن ذلك الوقت ؛ لا أنَّه منعٌ من موته .

ثم سأل (١) قاضى القضاة نفسَه ، فقال : فإنْ قيل : فلم قال لأبى بكر عند قراءة الآية: كأنى لم أسمعْها ، ووصف نفسه بأنه أيقن بالوفاة !

وأجاب بأن قال : لمّا كان الوجه فى ظنّه ماأزال أبو بكر الشّبهة فيه ، جاز أن يتيقّن.

ثم سأل نفسه عن سبب يقينه فيما لا يُعلم إلا بالمشاهدة .

وأجاب بأنّ قرينة الحال عند سماع الخبر أفادته اليقين ، ولو لم يكن فى ذلك إلّا خبر أبى بكر وادّعاؤه لذلك ، والناس مجتمعون ؛ لحصل اليقين .

وقوله : كأنّى لم أقرأ هذه الآية ، أو لم أسمعها ، تنبيه على (٢) ذهوله عن الاستدلال بها، لا أنّه على الحقيقـة لم يقرأها ولم يسمعهـا ، ولا يجب فيمن ذهب عن بعض أحـكام الـكتـاب ألا يعرف القرآن ، لأن ذلك لو دلّ ، لوجب ألا يحفظ القرآن إلا من يعرف جميع أحكامه . ثم ذكر أنّ حفظ القرآن كلّه غير واجب ، ولا يقدح الإخلال به فى الفضل.

وحكى عن الشيخ أبى علىّ أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يُحطْ علمُه بجميع الأحكام، ولم يمنع ذلك من فضله ، واستدلّ بما روى من قوله : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليـه وآله حديثاً نفعنى الله به ماشاء أنْ ينفعنى ، وإذا حـدّثنى غيره أحلفته ، فإن حلف لى صدّقته ، وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر. وذكر أنه لم يعرف أىّ موضع يدفن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى رجع إلى مارواه أبو بكر ، وذكر قصة الزبير فى موالى صفيّة ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأخذ ميراثَهم ، كما أن عليه أن يحمل عقلَهم حتى أخبره عمر بخلاف ذلك من أنّ الميراث للأب ، والعقل على العصبة .

(١) الشافى : « ثم قال » . (٢) الشافى : « تنبيه عن ذهابه عن الاستدلال » .

ثم سأل نفسه فقال : كيف يجوز ماذكرتم على أمير المؤمنين عليه السلام ، مع قوله : « سَلُونى قبل أن تفقدونى » ، وقوله : إن هاهنا علما جمًّا » ، يومىء إلى قلبه ، وقوله : « لو ثنيت لى الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل الزَّبور بزبورهم ، وبين أهل القرآن بقرآنهم » . وقوله : « كنت إذا سئلت أجبت وإذا سكت ابتديت » .

وأجاب عن ذلك بأنّ هذا إنّما يدلّ على عظم المحلّ فى العلْم ، من غير أن يدلّ على الإحاطة بالجميع .

وحكى عن أبى علىّ استبعاده ماروى من قوله : « لو ثنيت الوسادة » ، قال : لأنه لا يجوز أن يصف نفسَه بأنّه يحكم بما لا يجوز ، ومعلوم أنه عليه السلام لا يحكم بين الجميع إلا بالقرآن ، ثنيت له الوسادة أو لم تُثْن ، وهذا يدلّ على أن الخبر موضوع .

***

فاعترض الشريف المرتضَى ، فقال : ليس يخلُو خلاف عمر فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كلّ حال ، والاعتقاد بأنّ الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه ، أو يكون منكرا لموته فى تلك الحال ، من حيث لم يُظْهر دينَه على الدّين كله ، وما أشبه ذلك مما قال صاحب الكتاب : إنّها كانتْ شبهة فى تأخّر موته عن تلك الحال .

فإن كان الوجه الأوّل ، فهو ممّا لا يجوز خلاف العقلاء فى مثله ، والعلم بجواز الموت على سائر البشر لا يشكّ فيه عاقل ، والعلم من دينه عليه السلام بأنّه سيموت كما مات مَن قبله ضرورىّ ، وليس يحتاج فى مثل هذا إلى الآيات التى تلاها أبو بكر ، من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، وما أشبهها .

وإن كان خلافه على الوجه الثانى ، تأوّل مافيه أنّ هذا الخلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ؛ لأنه لم ينكر على هذا جواز الموت ، وإنما خالف فى تقدّمه ، وقد كان يجب أن يقول له : وأى حُجّة فى هذه الآيات عَلَى

مَنْ جوّز عليه صلى الله عليه وآله الموت فى المستقبل ، وأنكره فى هذه الحال !

وبعد ، فكيف دخلت الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق ! ومن أين زعم أنه لا يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلهم ! وكيف حمل معنى قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ على أنّ ذلك لا يكون فى المستقبل بعد الوفاة ! وكيف لم يخطر هذا إلّا لعمر وحده ، ومعلوم أنّ ضعف الشبهة إنما يكون من ضعف الفكرة ، وقلّة التأمل والبصيرة ! وكيف لم يوقن بموته لمّا رأى ما عليه أهل الإسلام من اعتقاد موته ، وما ركبهم من الحزن والكآبة لفقده ! وهلّا دفع بهذا اليقين ذلك التأويل البعيد ، فلم يحتج إلى مُوقف ومعرِّف ! وقد كان يجب ـ إن كانت هذه شبهة ـ أن يقول فى حال مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد رأى جزع أهله وأصحابه وخوفهم عليه من الوفاة ، حتى يقول أسامة بن زيد معتذرا من تباطئه[1] عن الخروج فى الجيش الذى كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرّر ويردّد الأمر حينئذ بتنفيذه : لم أكن لأسأل عنكَ الرّكب ـ : ماهذا الجزع والهلع ، وقد أمنكم الله من موته بكذا فى وجه كذا ! وليس هذا من أحكام الكتاب التى يعذر من لا يعرفها على ماظنّه صاحب الكتاب[2] .

***

قلت : الذى قرأناه وَرَوَيْناه من كتب التواريخ ، يدلّ على أن عمر أنكر موت رسول الله صلى الله عليه وآله من الوجهين المذكورين ؛ أنكر أوّلاً أنْ يموت إلى يوم القيامة ، واعتقد عمر أنه يعمّر كما يعتقد كثير من الناس فى الخضر ، فلمّا حاجّه أبو بكر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[3] ، وبقوله : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾[4] . رجع عن ذلك الاعتقاد .

وليس يَرِدُ على هذا ما اعترض به المرتَضى ؛ لأن عمر ما كان يعتقد استحالة الموت عليه كاستحالة الموت على البارئ تعالى ـ أعنى الاستحالة الذاتية ـ بل اعتقد استمرار حياته إلى يوم

(١) الشافى : « من تأخره » .
(٢) الشافى ٢٥٢ .
(٣) سورة الزمر ٣٠
(٤) سورة آل عمران ١٤٤ .

القيامة ، مع كون الموت جائزاً فى العقل عليه ، ولا تناقض فى ذلك ، فإنّ إبليس يبقى حيًّا إلى يوم القيامة ، مع كونِ موتِهِ جائزا فى العقل ، وما أورده أبو بكر عليه لازم على أن يكون نفيه الموت على هذا اوجه .

وأما الوجه الثانى ، فهو أنه لمّا دفعه أبو بكر عن ذلك الاعتقاد وقف مع شبهة أخرى ، اقتضت عنده أنّ موته يتأخّر ، وإن لم يكن إلى يوم القيامة ، وذلك أنّه تأوّل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (١) ، فجعل الضمير عائدا على الرسول لا على الدين ، وقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يظهر بعدُ على سائر الأديان ، فوجب أن تستمرّ حياته إلى أن يظهر على الأديان بمقتضى الوعد الذى لا يجوز عليه الخلف والكذب ، فحاجّه أبو بكر من هذا المقام ، فقال له : إنّما أراد : ليظهر دينَه وسيظهِره فيما بعد ، ولم يقل : « ليظهره الآن » ، فمن ثَمَّ قال له : ولو أراد ليظهر الرسولَ صلى الله عليه وآله على الدين كلّه لكان الجواب واحداً ، لأنّه إذا ظهر دينه فقد أظهره هو .

فأمّا قولُ المرتضَى رحمه الله : « وكيف دخلت هذه الشُّبْهة على عمر من بين الخلق؟ » ، فهكذا تكون الخراطر والشُّبَه ! والاعتقادات تسبق إلى ذهن واحد دون غيره ، وكيف دخلت الشُّبهة على جماعة منعوا الزكاة ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (٢) دون غيرهم من قبائل العرب ! وكيف دخلت الشبهة على أصحاب الجمل وصِفِّين دون غيرهم ! وكيف دخلت الشبهة عَلَى خوارج النّهْروان دون غيرهم ! وهذا باب واسع .

فأمّا قوله : « ومِنْ أين زعم أنه لا يموت حتى تُقطع أيدى رجال وأرجلهم » ، فإنّ الذى

---

(١) سورة التوبة ٢٣ (٢) سورة التوبه ٩٦ .

ذكره المؤرخون أنه قال : ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّما غاب عنّا كما غاب موسى عن قومه ، وسيعود فتُقطع أيدِى رجال وأرجلهم ممّن أرجف بموته ، وهذه الرواية تخالف ماذكره المرتضَى .

فأمّا قوله : وكيف حمل معنى قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [1] على أنّ ذلك لا يكون فى المستقبل ! فقد بينّا الشّبهة الداخلة عليه فى ذلك ، وكونه ظنّ أن ذلك ، يكون معجّلا على الفور ، وكذلك قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [1] ، فإنه ظنّ أنّ هذا العموم يدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه سيّد المؤمنين ، وسيّد الصالحين ، أو أنّه لفظٌ عام ، والمراد به رسول الله وحده ، كما ورد فى كثير من آيات القرآن مثل ذلك ، فظنّ أنّ هذا الاستخلاف فى جميع الأرض ، وتبديل الخوف بالأمن إنّما هو على الفور لا على التراخى ، وليست هذه الشبهة بضعيفة جدًّا كما ظنّ المرتضى ، بل هى موضع نظر .

فأمّا قوله : « كيف لم يؤمن بموته لما رأى من كآبة النّاس وحزنهم! » فلأنّ النّاس يبنون الأمْر على الظّاهر ، وعمر نظر فى أمرٍ باطن دقيق ، فاعتقد أن الرسول لم يمُتْ ، وإنما ألقى شبهَه على غيره ، كما ألقى شبَه عيسى على غيره ، فصلِبَ ، وعيسى قد رفع ولم يصلب .

واعلم أنّ أوّل مَنْ سنّ لأهلِ الغيبة من الشيعة القول بأنّ الإمام لم يمُت ولم يقتل ، وإنْ كان فى الظاهر وفى مرأى العين قد قتل أو مات ؛ إنّما هو عمر ؛ ولقد كان يجب على المرتضَى وطائفته أن يشكروه على ما أسّس لهم من هذا الاعتقاد .

---

(١) سورة النور ٥٥ .

فأمّا قوله : فهلّا قال فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا رأى جزعهم لموته: « قدأمّنكم اللهمن موته» ! فغيرلازم ،لأنّ الشبهة لاتجبأن تخطر بالبال فى كلّ الأوقات ، فلعلّه قدا كان فى ذلك الوقت غافلًا عنها مشغول الذهن بغيرها ، ولو صحّ للمرتضى هـذا لوجب أن يدفع ويبطل كلّ مايتجدّد ويطرأ على الناس من الشبهة فى المذاهب والآراء ، فنقول : كيف طرأت عليهم هـذه الشبهات الآن ، ولم تطرأ عليهم من قبل ؟ وهذا من اعتراضات المرتضى الضعيفة ، على أنا قد ذكرنا نحن فى الجزء الأول من هـذا الكتاب ماقصده عمر بقوله : « إنّ رسول الله لم يمُتْ » ، وقلنافيه قولاشافيا لمنسبَق إليه،فليعاوَد.

ثم قال المرتضى : فأمّا مارُوِىَ عن أمير المؤمنين عليــه السلام من خَبر الاستحلاف فى الأخبار ، فلا يدلّ على عدم عِلْم أمير المؤمنين بالحـكم ، لأنه يجوز أن يكون استحلافه ليرهب المخبِر ويخوّفه من الـكذب على النبى صلى الله عليه وآله ، لأنّ العلم بصحّةالحـكم الذى يتضمّنه الخبر لايقتضى صدق المخبر ، وأيضاً فلا تاريخ لهذا الحديث [1] ، ويمكن أن يكون استحلافه عليه السلام للرّواة [2] إنما كان فى حياة رسول اللهصلى اللهعليهوآله،وفى تلك الحال لم يكن محيطا بجميع الأحكام .

فأمّا حديثُ الدّفن وإدخاله فى باب أحكام الدين التى يجب معرفتهـا فطريف ، وقد يجوز أن يكون أميرُ المؤمنين عليه السلام سمِـع من النبى صلى الله عليه وآله فى باب الدّفن مثل ماسمعه أبو بكر ، وكان عازما على العمل به ، حتى روىأبو بكر مارواه فعمِل بمـا كان يعلمه لامن طريق أبى بكر ، وظنّ الناس أنّ العمل لأجله . ويجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله خيّر وصيّه عليه السلام فى موضع دفنه ، ولم يعيّن له موضعا بعينه ، فلمّا روى أبو بكر مارواه رأى موافقته ، فليس فى هذا دلالة على أنّه عليه السلام استفاد حكما لم يكن عنده .

---

(١) الشافى : « الخبر » .　(٢) الشافى : « فى الأخبار » .

وأمّا موالى صفيّة فحكم الله فيهم ما أفتى به أمير المؤمنين عليه السلام، وليس سكوته حيث سكت عند عمر رجوعاً عمّا أفتى به ، ولكنه كسكوته عن كثير من الحقّ تقيّةً ومداراة للقوم .

وأما قوله عليه السلام : « سلونى قبل أن تفقدونى » ، وقوله : « إنّ هاهنا لعلماً جمًّا » ، إلى غير ذلك ، فإنه لايدلّ على عِظَم المحلّ فى العلم فقط ، على ماظنّه صاحب الكتاب ، بل هو قول واثق بنفسه ، آمن من أن يُسأل عمّا لايعلمه ، وكيف يجوز أن يقول مثله على رءوس الأشهاد وظهور المنابر : « سلونى قبل أن تفقدونى » ، وهو يعلم أنّ كثيرا من أحكام الدين يعزب عنه [1] ! وأين كان أعداؤه والمتهزون لفرصته وزلّته عن سؤاله عن مشكل المسائل ، وغوامض الأحكام ! والأمر فى هذا ظاهر .

فأمّا استبعاد أبى علىّ لما روى عنه عليه السلام من قوله : « لو ثُنيت لى الوسادة » للوجه الذى ظنّه فهو البعيد ، فإنه لم يفطن لغرضه عليه السلام ، وإنما أراد : أنّى كنت أقاضيهم إلى كتبهم الدالة على البشارة بنبيّنا صلى الله عليه وآله وصحّة شرعه ، فأكون حاكما حينئذ عليهم بما تقتضيه كتبهم من هذه الشريعة وأحكام هذا القرآن ، وهذا من جليل الأغراض وعظيمها [2] .

* * *

الطعن الثانى

أنه أمَرَ برجْم حاملٍ حتّى نبّهه مُعاذ ، وقال : إن يكن لك عليها سبيلٌ فلا سبيلَ لك على مافى بطنها ، فرجع عن حكمه ، وقال : لولا مُعاذ لهلك عمر . ومَنْ يجهل هذا القدر لايجوز أن يكون إماماً ، لأنه يجرى مجرى أصول الشرع ، بل العقل يدلّ عليه ؛ لأنّ الرّجم عقوبة ، ولا يجوز أن يعاقب من لايستحقّ .

(١) الشافى : « يغرب » . (٢) الشافى ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

اعتذر قاضى القضاة عن هذا ، فقال : إنّه ليس فى الخبَر أنه أمر برْجمها ، مع علمه بأنّها حامل ، لأنه ليس ممّن يخفى عليه هذا القدر ، وهو أنّ الحامل لا تُرْجَم حتى تضع ، وإنما ثبت عنده زناها ، فأمر برجمها على الظاهر ، وإنما قال ماقال فى معاذ لأنه نبّهــه على أنها حامل .

ثم سأل[١] نفسه فقال : فإن قيل : إذا لم تكن منه معصية، فكيف يهلك لولا مُعاذ! وأجاب بأنه لم يرد : لهلك من جهة العــذاب ، وإنّما أراد : أنه كان يجرى بقوله قتل من لا يستحقّ القتل . ويجوز أن يريد بذلك تقصيره فى تعرّف حالها ، لأنّ ذلك لا يمتنع أن يكون بخطيئة وإن صغرت .

اعترض المرتَضى على هذا الاعتذار ، فقال : لو كان[٢] الأمر على ماظننتم لم يكن تنبيه معاذ له على هذا الوجه ، بل كان يجب أن ينبّهه بأن يقول له : هى حامل ، ولا يقول له : إن كان لك سبيلٌ عليها فلا سبيل لك على مافى بطنها ؛ لأنّ هذا قول من عنده أنه أمر برجمها مع العلم بحملها ، وأقلّ مايجب لو كان الأمر كما ظنّه صاحب الكتاب أن يقول لمعاذ: ماذهب علىّ أن الحامل لا تُرجم ، وإنما أَمَرْت برجمها لفقد علمى بحمْلها ، فكان ينفى بهذا القول عن نفسه الشبهة ! وفى إمساكه عنه مع شدّة الحاجة إليه دليل على صحّة قولنا. وقد كان يجب أيضا أن يسأل عن الحمْل ، لأنه أحدُ الموانع من الرَّجْم ، فإذا علم انتفاءه وارتفاعه أمَرَ بالرجم ، وصاحب الكتاب قد اعترف بأن ترك المسألة عن ذلك تقصير وخطيئــة ، وادعى أنها صغيرة ، ومن أين له ذلك ولا دليل يدلّ عنده فى غير الأنبياء عليهم السلام أن معصيةً بعينها صغيرة .

فأمّا إقراره بالهلاك لولا تنبيه مُعاذ ، فإنه يقتضى التعظيم والتفخيم لشأن الفعل ، ولا يليق ذلك إلا بالتقصير الواقع ؛ إمّا فى الأمر برجمها مع العلم بأنّها حامل ؛ أو ترك البحث عن ذلك

(١) الشافى : « قال : « فإن قيل » . (٢) الشافى : « يقال له : ما تأولت به فى الخبر من التأويل البعيد ؛ لأن لو كان الأمر على ما ظنه . . . » .

والمسألة عنه ، وأىّ لوم عليه فى أن يجرى بقوله قتل من لا يستحق القتل إذا لم يكن ذلك عن تفريط منه ولا تقصير(١) !

***

قات : أمّا ظاهر لفظ مُعاذ فيشعر بما قاله المرتضَى؛ ولم يمتنع أن يكون عمر لم يعلَم أنّها حامل وأنّ معاذا قد كان من الأدب أن يقول له : حامل يا أمير المؤمنين ، فعدَل عن هذا اللفظ بمقتضى أخلاق العرب وخشونتهم ، فقال له : إنْ كان لك عليها سبيل فلا سبيل لك عَلَى مافى بطنها ؛ فنبّهه على العلة والحكم معا ، وكان الأدب أن ينبّهه على العلّة فقط .

وأمّا عدول عمر عن أن يقول : أنا أعلم أنّ الحامل لا تُرْجَم ، وإنما أمرت برجمها، لأنى لم أعلم أنها حامل ، فلأنه إنما يجب أن يقول مثل هذا مَنْ يخاف من اضطراب حاله ، أو نقصان ناموسه وقاعدته إن لم يقله ، وعمر كان أثبتَ قدماً فى ولايته ، وأشد تمكّنا من أن يحتاج إلى الاعتذار بمثل هذا .

وأما قول المرتَضى : كان يجب أن يَسأل عن الحمْل ، لأنه أحدُ الموانع من الرَّجْم ، فكلام صحيح لازم ، ولا ريب أنّ ترك السؤال عن ذلك نوع من الخطأ ، ولكن المرتضى قد ظلم قاضى القضاة ، لأنه زعم أنه ادّعى أنّ ذلك صغيرة ، ثم أنكر عليه ذلك، ومن أين له ذلك! وأىّ دليل دلّ على أنّ هذه المعصية صغيرة ؛ وقاضى القضاة ما ادّعى أنّ ذلك صغيرة ! بل قال : لا يمتنع أن يكون ذلك خطيئة وإن صَغُرت . والعجب أنّه حكَى لفظ قاضى القضاة بهذه الصورة ، ثم قال : إنّه ادّعى أنّها صغيرة ، وبين قول القائل : « لا يمتنع أن يكون صغيرة » ، وقوله : « هى صغيرة » لا محالة فرق عظيم .

وأما قول عمر : لولا مُعاذ لهلَكَ عمر ، فإنّ ظاهر اللفظ يُشعِر بما يريده المرتَضى، وينحو إليه ؛ ولا يمتنع أن يكون المقصود به ماذكره قاضى القضاة وإن كان مرجوحا؛ فإن القائل خطأً

---

(١) الشافى ٣٥٣ .

قد يقول : هلكت،ليس يعنى به العقاب يوم القيامة،بل لوم النّاس وتعنيفهم إيّاه على ترك الاحتراس وإهمال التثبّت .

***

الطعن الثالث

خبر المجنونة التى أمر برجْمها ، فنبّهه أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : إنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يُفِيق . فقال : لولا علىّ لهلكَ عمر[1]!وهذا يدلّ على أنه لم يكن يعرف الظّاهِرَ من الشريعة .

أجاب قاضى القضاة فقال : ليس فى الخبر أنّه عرف جنونها ؛ فيجوز أن يكون الذى نبّه عليه هو جنونها دون الحكم،لأنه كان يعلم أنّ الحدّ لا يقام فى حال الجنون؛وإنما قال:لولا علىّ لهلك عمر ، لا من جهة المعصية والإثم ، لكن لأنّ حكمه لو نفذ لعظُم غمُّه ، ويقال فى شدّة الغمّ:إنه هلاك ، كما يقال فى الفقر وغيره،وذلك مبالغة منه لما كان يلحقه من الغمّ الذى زال بهذا التنبيه . على أنّ هذا الوجه ممّا لا يمتنع فى الشرع أن يكون صحيحا ، وأن يقال: إذا كانت مستحقّة للحدّ ، فإقامته عليها تصح ، وإن لم يكن لها عقل ؛ لأنّه لا يخرج الحدّ من أن يكون واقعاً موقعه،ويكون قوله عليه السلام:« رفع القلم عن ثلاث » ، يراد به زوالُ التكليف عنهم دون زوال إجراء الحكم عليهم،ومن هذه حالُه لا يمتنع أن يكونَ مشتبها، فرجع فيه إلى غيره ، ولا يكون الخطأ فيه ممّا يعظم فيمنع من صحّة الإمامة .

***

اعترض الشريف المرتضى هذا فقال : لو كان أَمر برجْم المجنونة من غير علمٍ بجنونها لمّا قال له أمير المؤمنين: أما علمت أنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يفيق ! بل كان يقول له بدلا من ذلك:هى مجنونة ؛ وكان ينبغى أن يقول عمر متبرّئاً من الشبهة:ما علمت بجنونها؛ ولست ممن يذهب عليه أن المجنون لا يرجم ، فلمّا رأيناه استعظم ما أمر به ، وقال : لولا

(١) بعدها فى الشافى : « ويروى ذلك لمعاذ » .

عليٌّ لهلك عمر؛دلّنا على أنه كان تأثّم وتحرّج بوقوع الأمر بالرجم،وأنّه مما لايجوز ولايحلّ؛ وإلّا فلا معنى لهذا الكلام . وأمّا ذكر الغمّ،فأى غمٍّ كان يلحقه إذا فعل ماله أن يفعله ! ولم يكن منه تفريط ولا تقصير؛لأنّه إذا كان جنونها لم يعلم به ؛ فكانت المسألة عن حالها والبحث لا يجبان عليه؛فأىّ وجه لتألمه وتوجّعه واستعظامه لما فعله ! وهل هذا إلّا كرجْم المشهود عليه بالزّنا فى أنّه : لو ظهر للإمام بعد ذلك براءة ساحته لم يجب أن يندَم على فعله ويستعظمه ؛ لأنه وقع صوابا مستحقا .

وأما قوله : إنّه كان لايمتنع فى الشرع أن يقام الحدّ عَلَى المجنون،وتأوّله الخبر المروىّ على أنه يقتضى زوال التكليف دون الأحكام ؛ فإنْ أراد أنّه لايمتنع فى العقل أن يقام على المجنون ماهو من جنس الحدّ بغير استخفاف ولا إهانة ، فذلك صحيح ، كما يقام على التائب وأمّا الحدّ فى الحقيقة،وهو الذى تضمّنه الاستخفاف والإهانة فلا يجوز إلّا على المكلّفين ومستحقِّى العقاب ، وبالجنون قد أزيلَ التكليف ، فزال استحقاقُ العقاب الذى تبعه الحدّ .

وقوله : لايمتنع أن يرجع فيما هذه حاله من المشتَبه إلى غيره ، فليس هذا من المشتَبه الغامض ، بل يجبُ أن يعرفَه العوّام فضلا عن العلماء ، عَلَى أنّا قد بيّنّا أنه لا يجوز أن يرْجع الإمام فى جَلِىٍّ ولا مشتَبه من أحكام الدين إلى غيره .

وقوله : إنّ الخطأ فى ذلك لا يعظم فيمنع من صحّة الإمامة ، اقتراح بغير حُجّة لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيلَ للقطع على أنه صغير (١) .

* * *

قلت:لو كان قد نُقل أنّ أمير المؤمنين قال له:« أماعلمت »،لكان قول المرتضى قويًّا ظاهرا،إلا أنه لم ينقل هذه الصيغة بعينها،والمعروف المنقول:أنه قال له:قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «رُفِع القلم عن ثلاث» ؛ فرجع عن رَجْمها،ويجوز أن يكون أشعَره بالعلّة

(١) الشافى ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

والحُكْم معاً ، لأنّ هذا الموضع أكثر اشتباها من حديث رَجْم الحامل ، فغلب على ظنّ أمير المؤمنين أنه لو اقتصر على قوله : إنها مجنونة لم يكن ذلك دافعاً لرجمها ، فأكّده برواية الحديث . واعتذار قاضى القضاة بالغمّ جيّد ، وقول المرتضى : أىّ غمٍّ كان يلحقه إذا فعل ماله أن يفعله ! ليس بإنصاف ، ولا مثل هذا يقال فيه إنه فعل ماله أن يفعله ، ولا يقال فى العرف لمن قتل إنسانا خطأ : إنه فعل ماله أن يفعله ، والمرجوم فى الزنا إذا ظهر للإمام بعد قتله براءة ساحته قد يغتمّ بقتله غمًّا كثيرا بالطبع البشرىّ ، ويتألم وإنْ لم يكن آثما ، وليس من توابع الإثم ولوازمه .

وقول المرتضى : لم يجب أن يندم على مافعلَهُ كلامٌ خارج عمّا هو بصدده ؛ لأنّه لم يجرِ ذكر للنّدم ، وإنما الكلام فى الغمّ ولا يلزم أن يكون كلّ مغتمٍّ نادما .

وأمّا اعتراضُه على قاضى القضاة فى قوله : لا يمتنع فى الشّرع أن ترجم المجنونة ، فلما اشتبه على عمر الأمر سأل غيره عنه بقوله : « إن أردت الحدّ الحقيقى فمعلوم ، وإن أردت ما هوجنسُ الحدّ فمسلَّم » فليس بجيّد ، لأن هذا إنّما يكون طعناً على عمر بتقدير ثلاثة أمور : أحدها أن يكون النبي صلى الله عليه وآله قد قال : « أقيموا الحد على الزانى » بهذا اللفظ ، أعنى أن يكون فى لفظ النصّ ذكر الحدّ ، وثانيها أن يكون الحدّ فى اللغة العربية أو فى عرف الشرع الذى يتفاهمه الصّحابة هو العقوبة المخصوصة التى يقارنها الاستخفاف والإهانة . وثالثها ألا يصحّ إهانة المجنون والاستخفاف به ، وأنْ يعلم عمر ذلك ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة ثم أمر عمر بأن يقام الحدّ على المجنونة فقد توجّه الطعن ، ومعلوم أنه لم تجتمع هذه الأمور الثلاثة ، فإنه ليس فى القرآن ولا فى السنّة ذكر الحدّ بهذا اللفظ ، ولا الحد فى اللغة العربية هو العقوبة التى يقارنها الاستخفاف والإهانة ، ولاعُرْف الشرع ومواضعة الصّحابة يشتمل على ذلك ، وإنما هذا شيء استنبطه المتكلّمون المتأخرون بأذهانهم وأفكارهم ؛ ثم بتقدير تسليم هذين المقامين لم قال : إن المجنون

لا يصحّ عليه الاستخفاف والإهانة ؟ فمن الجائز أن يصحّ ذلك عليه وإنْ لم يتألم بالاستخفاف والإهانة كما يتألم بالعقوبة ، وإذا صحّ عليه أن يألم بالعقوبة صح عليه أن أن يألم بالاستخفاف والإهانة ؛ لأنّ الجنون لا يبلغ – وإن عظم – مبلغاً يبطل تصوّر الإنسان لإهانته ولاستخفافه ؛ وبتقدير ألا يصح على المجنون الاستخفاف والإهانة ، من أين لنا أن عمر علم أن ذلك لا يصحّ عليه ! فمن الممكن أن يكون ظنّ أنّ ذلك يصحّ عليه ، لأن هذا مقام اشتباه والتباس .

فأمّا قوله : « قد بينا أنه لا يجوز أن يرجع الإمام أصلا إلى غيره » ، فهو مبنيٌّ على مذهبهم وقواعدهم . وقوله معترضاً على كلام قاضى القضاة : إن الخطأ فى ذلك قد لا يعظُم ليمنع من صحّة الإمامة إنّ هذا اقتراح بغير حجة ، لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيل إلى القطع على أنّه صغير غير لازم ، لأن قاضى القضاة لم يقطع بأنه صغير ، بل قال : لا يمتنع ، وإذا جاز أن يكون صغيراً لم نكن قاطعين على فساد الإمامة به .

فإن قال المرتضى : كما أنكم لا تقطعون على أنه صغير ، فتكون الإمامة مشكوكاً فيها ؛ قيل له : الأصل عدم الكبير ، فإذا حصل الشكّ فى أمر : هل هو صغير أم كبير ؟ تساقط التعارضُ ، ورجعْنا إلى الأصل ؛ وهو عدم كون ذلك الخطأ كبيرا ، فلا يمنع ذلك من صحّة الإمامة .

* * *

الطعن الرابع

حديث أبى العجفاء ، وأنّ عمر منع من المغالاة فى صدُقات النّساء ، اقتداء بما كانَ من النبى صلى الله عليه وآله فى صَدَاقِ فاطمة ، حتى قامت المرأة ونبهته بقوله تعالى : ﴿ وآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنّ قِنطَاراً ﴾ [1] ؛ على جواز ذلك ، فقال : كلّ النساء أفقه من عمر !

(١) سورة النساء ٢٠ .

وبما روِىَ أنه تسوّر على قوم ، ووجدهم على منــكَر ، فقالوا له : إنّك أخطأت من جهات: تجسّست ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [1] ، ودخلت بغير إذن ، ولم تسلِّم [2] .

أجاب قاضى القضاة ، فقال : علْمنا بتقدّم عمر فى العلم وفضله فيه ضرورىّ ، فلا يجوز أن يقدَح فيه بأخبار أحاديث غير مشهورة ، وإنما أراد فى المشهور أنّ المستحبّ الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ المغالاة فيها ليس بمكرُمة ، ثم عند التنبيه، علِم أنّ ذلك مبنىٌّ على طيب النفس ، فقال ما قاله على جهــة التّواضع ، لأنّ مَنْ أظهر الاستفادة من غيره ـ وإن قلّ علمُه ـ فقد تعاطَى الخضوع ، ونبَّه على أنّ طريقَه أخذ الفائدة أينما وجدها؛ وصيّر نفسَه قدوةً فى ذلك وأسْوة ، وذلك حَسَن من الفضلاء . وأما حديث التجسّس فإن كان فعله فقد كان له ذلك ، لأنّ للإمام أن يجتهد فى إزالة المنــكَر بهذا الجنس من الفعل، وإنّما لحقه ـ على ما [3] يروى فى الخبر ـ الخجل ، لأنه لم يصادف الأمر على ما أُلقِىَ إليه فى إقدامهم على المنــكر .

***

اعترض المرتضَى على هذا الجواب ، فقال له : أمّا تعويلُك على العلْم الضرورىّ بكونه من أهل العلم والاجتهاد ؛ فذلك إذا صحّ لم ينفعْك ، لأنّه قد يذهب على مَنْ هو بهذه الصفة كثيرٌ من الأحكام حتى ينبه عليها ويجتهد فيها ، وليس العلم الضرورىُّ ثابتاً بأنّه عالم بجميع أحكام الدّين ، فيكون قاضياً على هذه الأخبار . فأما تأوّله الحديث وحمْله على الاستحباب فهو دفْع للعيان ، لأن المروىّ أنه مَنَع من ذلك وحَظره حتى قالت المرأة ما قالت، ولو كان غيرَ حاظرٍ للمغالاة لما كان فى الآية حُجّة، ولا كان لكلام المرأة موقع، ولا كان يعترف لها بأنّها أفقهُ منه ، بل كان الواجب أن يردَّ عليها ويوبّخها ويعرفها أنه ما حظر لذلك، وإنما تكون

(١) سورة الحجرات ١٢ .

(٢) ا : « ودخلت ولم تسلم » .

(٣) ا : « روى » .

الآية حُجّةً عليه لو كان حاظر مانعاً ، فأمّا التواضع فلا يقتضى إظهارَ القبيح وتصويب الخطأ. ولو كان الأمر على ماتوهّمه صاحبُ الكتاب لـكان هو المصيب والمرأة مخطئة ، فكيف يتواضع بكلام يُوهِم أنّه المخطئ ، وهى المصيبة ! فأمّا التجسّس فهو محظور بالقرآن والسّنّة ، وليس للإمام أن يجتهد فيما يؤدّى إلى مخالفة الكتاب والسنّة ، وقد كان يجب إن كان هذا عذرا صحيحا أن يعتذر به إلى من خَطّأه فى وجهه وقال له : إنك أخطأت السنّة من وجوه ؛ فإنه بمعاذير نفسه أعلم من صاحب الكتاب ، وتلك الحال حال تدعو إلى الاحتجاج وإقامة العُذْر [(١)] .

* * *

قلت : قُصارى هذا الطعن أنّ عمر اجتهد فى حُكْم أو أحكام فأخطأ ، فلمّا نُبِّه عليها رجع ، وهذا عند المعتزلة وأكثر المسلمين غير منكَر ، وإنّما ينكر أمثال هذا من يبطِلُ الاجتهاد ، ويوجِب عصمة الإمام ، فإذن هذا البحث ساقط على أصول المعتزلة ، والجواب عنه غير لازم علينا .

* * *

الطعن الخامس

أنه كان يعطِى من بيت المال مالا يجوز ، حتّى إنه كان يعطى عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم فى كلّ سنة ، ومنَع أهل البيت خمسَهم الذى يجرى مجرى الواصل إليهم من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وآله . وأنّه كان عليه ثمانون ألف درهم من بيت المال على سبيل القَرْض .

أجاب قاضى القضاة ، بأنّ دفعه إلى الأزواج جائز من حيث إنّ لهنّ حقًّا فى بيت

---

(١) الشافى ٢٥٤ ، وزاد بعدها : « وكل هذا تلزيق وتلفيق » .

المال، وللإمام أن يدفع ذلك على قَدْر مايراه ،وهذا الفعل قد فعلَه مَنْ قبله ومن بعده،ولو كان منكرا لما استمرّ عليه أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد ثبت استمرارُه عليه ، ولو كان ذلك طعنًا لوجب ـ إذا كان يدفع إلى الحسن والحسين وإلى عبد الله بن جعفر وغيرهم من بيت المال شيئًا ـ أن يكونَ فى حكم الخائن ، وكلّ ذلك يبطِل ماقالوه ، لأنّ بيت المال إنما يُراد لوضع الأموال فى حُقوقها ثمّ الاجتهاد وإلى المتولّى للأمر فى الكثرة والقلّة .

فأمّا أمر الخمس فمن باب الاجتهاد ، وقد اختلف النّاس فيه ، فمنهم مَنْ جعله حقًّا لذوى القربى وسهما مفرداً لهم على مايقتضيه ظاهر الآية ، ومنهم مَنْ جعله حقًّا لهم من جهة الفقر، وأجراهم مجرَى غيرهم ،وإن كانوا قد خُصّوا بالذكر ، كما أجرى الأيتام ـ وإن خُصّوا بالذكر ـ مجرى غيرهم فى أنهم يستحقّون بالفقر . والكلام فى ذلك يطول ، فلم يخرجْ عمر بما حَكَم به عن طريقة الاجتهاد ، ومَنْ قَدَح فى ذلك فإنّما يقدح فى الاجتهاد الذى هو طريقة الصحابة .

فأمّا اقتراضُه من بيت المال ، فإنْ صحّ فهو غير محظور ؛ بل ربّما كان أحوَط، إذا كان على ثقةٍ من ردّه بمعرفة الوجه الذى يمكنه منه الردّ ، وقد ذكر الفقهاء ذلك ، وقال أكثرهم : إنّ الاحتياط فى مال الأيتام وغيرهم أن يجعَل فى ذمّة الغنىّ المأمون ، لبعده عن الخطر، ولا فرق بين أن يقرض الغير أو يقترضه لنفسه .ومَنْ بلغ فى أمره أن يطعن على عمر بمثل هذه الأخبار ـ مع مايعلم من سريرته وتشدّده فى ذات الله واحتياطه فيما يتّصل بملك الله ، وتنزّهه عنه ؛حتى فعل بالصبىّ الذى أكل من تمر الصدقة واحدة مافعل ،وحتى كان يرفع نفسه عن الأمر الحقير ويتشدّد على كلّ أحد ، حتى على ولده ـ فقد أبعدَ فى القول.

* * *

اعترض المرتَضَى ، فقال : أمّا تفضيلُ الأزواج ، فإنه لا يجوز ، لأنه لاسبب فيهنّ

يقتضي ذلك ، وإنما يفضّل الإمام في العطاء ذوي الأسباب المقتضية لذلك ، مثل الجهاد وغيره من الأمور العامّ نفعها للمسلمين .

وقوله : إنّ لهنّ حقاً في بيت المال صحيح ، إلا أنه لا يقتضي تفضيلهنّ على غيرهنّ ، وما عِيبَ بدفع حقهنّ إليهنّ ، وإنما عِيب بالزيادة عليه ، وما يُعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استمرّ على ذلك — وإن كان صحيحاً كما ادّعى — فالسّبب الداعي إلى الاستمرار عليه ، هو السبب الداعي إلى الاستمرار على جميع الأحكام ، فأمّا تعلّقه بدفع أمير المؤمنين إلى الحسن والحسين وغيرهما شيئاً من بيت المال فعَجَب ! لأنه لم يفضّل هؤلاء في العطيّة فيشبه ماذكرناه في الأزواج ، وإنما أعطاهم حقوقَهم ، وسوّى بينهم وبين غيرهم .

فأما الخمس ، فهو للرّسول ولأقربائه ، على مانطق به القرآن ، وإنما عنى تعالى بقوله : ﴿ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1] من كانَ مِنْ آلِ الرسول خاصّة ؛ لأدلّة كثيرة لاحاجةَ بنا إلى ذكرها هاهنا . وقد رَوَى سُلَيم بن قيس الهلاليّ ، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : نحن والله الذين عَنَى الله بذي القربى ، قَرَنَهم الله بنفسه ونبيّه صلى الله عليه وآله ، فقال : ﴿ مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2] ؛ كلّ هؤلاء منّا خاصّة ، ولم يجعل لنا سهماً في الصدقة ، أكرم الله تعالى نبيّه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخَ مافي أيدي الناس . وروى يزيد بن هرم ، قال : كتب نَجْدة إلى ابن عباس ، يسأله عن الخمس لمن هُو ؟ فكتب إليه : كتبت تسألني عن الخمس لمن هُو ؟ وإنّا كنا نزعم أنّه لنا ، فأبى قومُنا علينا ذلك ، فصبرنا عليه .

قال : وأمّا الاجتهاد الذي عوّل عليه ، فليس عذراً في إخراج الخمس عن أهله فقد أبطلناه .

---

(١) سورة الأنفال ٤١ (٢) سورة الحشر ٧ .

وأما الاقتراض من بيت المال فهو ممّا يدعو إلى الريبة ، ومَنْ كانَ من التشدّدو التحفّظ والتقشّف على الحدّ الذى ذكره ؛ كيف تطيب نفسه بالاقتراض من بيت المال ، وفيه حقوق وربّما مسّت الحاجة إلى الإخراج منها، وأىّ حاجة لمن كان جَشِبَ المأكل ، خشنَ الملبس، يتبلّغ بالقوت إلى اقتراض الأموال !

فأمّا حكايته عن الفقهاء ؛ أنّ الاحتياط أن يحفَظ مال الأيتام فى ذمّة الغَنىّ المأمون ؛ فذلك إذا صحّ لم يكن نافعا له ، لأن عمرَ لم يكن غنيًّا ، ولو كان غنيًّا لما اقترض ، فقد خرج اقتراضهُ عن أن يكون من باب الاحتياط ، وإنّما اشترط[1] الفقهاء مع الأمانة الغِنَى ، لئلا تمسّ الحاجة إليه ، فلا يمكن ارتجاعه ، ولهذا قلنا : إنّ اقتراضَه لحاجته إلى المال لم يكن صوابًا وحسنَ نظر المسلمين[2] .

***

قلت : أما قوله : لا يجوز للإمام أن يفضّل فى العطاء إلا لسبب يقتضى ذلك كالجهاد ؛ فليست أسبابُ التفضيل مقصورةً على الجهاد وحدَه ، فقد يستحقّ الإنسان التفضيل فى العطاء على غيره لكثرة عبادته ، أو لكثرة علمه ، أو انتفاع النّاس به ، فلِمَ لا يجوز أن يكونَ عمر فضَّل الزوجات لذلك !

وأيضا : فإنّ الله تعالى فرضَ لذوِى القربى مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله نصيباً فى الفىء والغنيمة ، ليس إلا لأنهم ذوو قرابته فقط ، فما المانع من أن يقيس عمر عَلَى ذلك مافعله فى العطاء ، فيفضّل ذوِى قرابة رسول فى ذلك عَلَى غيرهم، ليس إلّا لأنهم ذوُو قرابته، والزوجاتُ وإن لم يكن لهنّ قُربى النّسب فلهنّ قُربى الزوجيّة ! وكيف يقول المرتضَى : ما جاز أن يفضّل أحدا إلا بالجهاد ! وقد فضّل الحسن والحسين على كثير من أكابر المهاجرين والأنصار وهما صبيّان ، ماجاهدا ولا بلغا الحُلم بعد ، وأبوهما أمير المؤمنين

(١) الشافى : « شرط » .
(٢) الشافى ٢٥٥ ، وبعدها : « وفيه كفاية » .

موافق على ذلك ، راضٍ به ، غير منكِرٍ له ! وهل فعل عمرُ ذلك إلا لقُربهما من رسول الله صلى الله عليه وآله !

ونحن نذكر مافعله عمر فى هذا الباب مختصَراً نقلناه من كتاب أبى الفرج عبد الرحمن ابن على بن الجوزى المحدّث فى « أخبار عمر وسيرته » .

روى أبو الفَرج ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ،قال : استشار عمر الصحابة بمن يبدأ فى القَسْم والفريضة ، فقالوا : ابدأ بنفسك ، فقال : بل أبدأ بآل رسول الله صلى الله عليه وآله وذَوِى قرابته ، فبدأ بالعباس .

قال ابن الجوزىّ : وقد وقع الاتّفاق على أنّه لم يفرِضْ لأحدٍ أكثر مما فرَض له .

وروى أنه فرَض له اثنى عشر ألفا ، وهو الأصحّ ، ثم فرض لزوجاتِ رسول الله صلى الله عليه وآله لكلٍّ واحدة عشرة آلاف ، وفضّل عائشة عليهن بألفين فأبت ، فقال : ذلك بفضل منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإذا أخذتِ فشأنك . واستثنى من الزوجات جُويرِيَة وصفيّة وميمونة ، ففرض لكلّ واحدةٍ منهنّ ستة آلاف ، فقالت عائشة : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعدِل بيننا ، فعدَل عمر بينهنّ ، وألحق هؤلاء الثلاث بسائرهنّ ، ثم فرض المهاجرين الّذين شهدوا بدرا لكلّ واحد خمسة آلاف ، ولمن شهدها من الأنصار لكلّ واحد أربعة آلاف(١) .

وقد روى أنه فرض لكلّ واحدٍ ممّن شهد بدراً من المهاجرين أو من الأنصار أو من غيرهم من القبائل خمسة آلاف ، ثم فرض لمن شهد أحُدا وما بعدها إلى الحديبية أربعة آلاف ، ثم فرض لكلّ مَنْ شهد المشاهد بعد الحديبية ثلاثة آلاف ، ثم فرضَ لكلّ مَنْ شهد المشاهد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ألفيْن وخمسمائة ، وألفين ، وألفا

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ٨٠ .

وخمسمائة ، وألفا واحدا إلى مائتين ، وهم أهل هَجَر ؛ ومات عمر على ذلك [١] .

قال ابن الجوزىّ : وأدخل عمر فى أهلِ بدر ممّن لم يحضر بدراً أربعة ، وهم الحسن ، والحسين ، وأبو ذَرّ ، وسلْمان ، ففرض لكلّ واحد منهم خمسة آلاف .

قال ابن الجوزىّ : وروى السّدىّ أن عمَر كسا أصحابَ النبى صلى الله عليه وآله ، فلم يرتضِ فى الكُسوة مايستصلحه للحسن والحسين عليهما السلام ، فبعث إلى اليمن ، فأتِىَ لهما بكسوة فاخرة ، فلمّا كساهما قال : الآن طابتْ نفسى .

قال ابن الجوزى : فأمّا مااعتمده فى النّساء فإنه جعل نساء أهلِ بدر على خمسمائة ، ونساء مَنْ بعد بدر إلى الحديبية على أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك على ثلاثمائة ، وجعل نساء أهل القادسيّة على مائتين مائتين ، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك .

ولو لم يدلّ على تصويب عمر فيما فعلَه إلا إجماع الصحابة واتفاقهم عليه وترك الإنكار لذلك كان كافيا .

فأما الخمس والخلاف فيه فإنها مسألة اجتهادية ، والذى يظهر لنا فيه ويغلب [٢] عندنا من أمرها ؛ أنّ الخمس حقٌّ صحيح ثابت ، وأنّه باقٍ إلى الآن على مايذهب إليه الشافعىّ ، وأنّه لم يسقط بموت رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولكنّا لا نرى مايعتقده المرتضَى مِنْ أنّ الخمس لآل الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّ الأيتام أيتامهم ، والمساكين مساكينهم وابن السبيل منهم ، لأنه على خلاف مايقتضيه ظاهر الآية والعطف ، ويمكن أن يحتجّ على ذلك بأن قوله تعالى فى سورة الحشر : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ يبطل هذا القول ، لأن هذه اللام لابدّ أن تتعلق بشىء ، وليس قبلها ما تتعلّق به أصلا ، إلا أن تجعل بدلا من اللام التى قبلها فى قوله : ﴿ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب ٨١ (٢) ب : « يتغلب » .

وَلِذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ ﴾[1] . وليس يجوز أن تكون بدلا من اللام فى «لله» ، ولا من اللام فى قوله : «وللرسول» فبقىَ أن تكون بدلا من اللام فى قوله « ولذى القربى » ، أما الأول فتعظيما له سبحانه ، وأما الثانى فلأنه تعالى قد أخرج رسولَه من الفقراء بقوله : ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ولأنه يجب أن يرفع رسول الله صلى الله عليه وآله عن التّسمية بالفقير . وأمّا الثالث ، فإمّا أن يفسّر هذا البدَل وماعطف عليه البدل منه ، أو يفسّر هذا البدل وحده دون ماعُطِف عليه البدل منه، والأوّل لا يصحّ لأنّ المعطوف على هـذا البدل ليس من أهل القرى وهم الأنصار ، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجوا مِنْ دِيَارِهِمْ ... ﴾[2] الآية، ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[3] وهم الأنصار . وإنْ كان الثانى صار تقدير الآية أنّ الخمس لله وللرسول ولذى القربى الذينَ وصفهم الله ونَعتَهم بأنّهم هاجروا وأخرِجوا من ديارهم ، وللأنصار ؛ فيكون هذا مبطِلاً لما يذهب إليه المرتضَى فى قَصْر الخُمُس عَلَى ذوى القربى .

ويمكن أن يعترضَ هذا الاحتجاج ، فيقال : لم لايجوز أنْ يكون قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ ﴾ ، ليس بعطف ، ولكنّه كلام مبتدأ ، وموضع « الَّذِينَ » رفع بالابتداء وخبره « يحبون » ؟

وأيضا فإنّ هـذه الحجّة لا يمكن التمسّك بها فى آية الأنفال ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ ﴾[4] .

فأما رواية سُلَيم بن قيس الهلالىّ ، فليست بشىء ، وسُليم معروف المذهب ، ويكفى فى ردّ روايته كتابه المعروف بينهم المسمى « كتاب سُلَيم » .

---

(١) سورة الحشر ٧
(٢) سورة الحشر ٨ .
(٣) سورة الحشر ٩
(٤) سورة الأنفال ٤١ .

على أنّى قد سمعت من بعضهم مَنْ يذكر أنّ هـذا الاسم على غير مسمّى ، وأنه لم يكن فى الدنيا أحدٌ يعرَف بسليم بن قيس الهلالىّ ، وأن[1] الكتاب المنسوب إليه منحول موضوع لا أصل له ، وإن كان بعضُهم يذكره فى اسم الرجال ، والرواية المذكورة عن ابن عباس فى كتابه إلى نَجْدة الحرورىّ صحيحة ثابتة ، وليس فيها ما يدلّ على مذهب المرتضى من أن الخمس كلّه لذوى القربى ، لأنّ نجدة إنما سأله عن خمس الخمس لا عن الخمس كله .

وينبغى أن يذكر فى هذا الموضع اختلافُ الفقهاء فى الخُمس :

أمّا أبو حنيفة فعنده أنّ قسمة الخُمس كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وسهم لذوى قرباه من بنى هاشم وبنى المطلب دون بنى عبد شمس ونوفل ، استحقُّوه حينئذ بالنّصرة والمظاهرة ، لما روى عن عثمان بن عفّان وجُبَير بن مطعِم أنّهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وآله : هؤلاء إخوتُك من بنى هاشم لا ننكر فضلهم ، لمكانك الّذِى جعلك الله منهم ؛ أرأيت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا ! وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة . فقال صلى الله عليه وآله : « إنّهم لم يفارقونا فى جاهليّةٍ ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبَّك بين أصابعه . وثلاثة أسهم ليتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم ، وأمّا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فسهْمه ساقط بموته ، وكذلك سَهْم ذوى القربى ، وإنما يُعطَوْن لفقرهم ، فهم أسوة سائر الفقراء ، ولا يعطى أغنياؤهم ؛ فيقسَّم الخمس إذن على ثلاثة أسهم : اليتامى ، والمساكين وابن السبيل .

وأما الشافعىّ فيقسّم الخمس عنده بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على خَمْسَةِ أسهم : سهم للرسول الله صلى الله عليه وآله يُصْرف إلى ما كان يصرفه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أيّام حياته من مصالح المسلمين ، كعُدّة الغزاة من الكُراع والسلاح

(١) ب : « فإن » .

ونحو ذلك ، وسهمٌ لذوى القُرْبَى من أغنيائهم وفقرائهم ، يقسّم بينهم للذّكَر مثل حظّ الأنثيين من بنى هاشم وبنى المطلب ، والباقى للفرق الثلاث .

وأمّا مالك بن أنس ، فعنده أنّ الأمر فى هذه المسألة مفوّض إلى اجتهاد الإمام ، إن رأى قَسَمه بين هؤلاء ، وإن رأى أعطاه بعضَهم دون بعض ، وإن رأى الإمام غيرَهم أولى وأهمّ ، فغيرهم.

وبقِيَ الآن البحث عن معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، وما المراد بسهم الله سبحانه ؟ وكيف يقول الفقهاء : الخمس مقسوم خمسة أقسام ، وظاهر الآية يدلّ على ستّة أقسام ؟ فنقول :

يحتمل أن يكون معنى قوله سبحانه : ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ لرسول الله ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [١] ، أى ورسول الله أحقّ ؛ ومذهب أبى حنيفة والشافعىّ يجىء على هذا الاحتمال .

ويحتمل أن يريد بذكره إيجاب سهم سادس يصرَف إلى وجهٍ من وجوه القُرَب ، ومذهب أبى العالية يجىء على هذا الاحتمال ، لأنّه يذهب إلى أنّ الخمس يقسّم ستة أقسام : أحدها سهمه تعالى يُصْرَف إلى رتاج الكعبة ، وقدرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه قَبْضة فيجعلها للكعبة ، ويقول : سهم الله تعالى ، ثم يقسم ما بقى على خمسة أقسام .

وقال : قوم سهم الله لبيتِ الله .

ويحتمل احتمالا ثالثاً ، وهو أن يراد بقوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أنّ من حقّ الخمس أن يكون متقرَّبا به إليه سبحانه لاغير ، ثم خصّ من وجوه القُرَب هذه الخمسة ، تفضيلا لها

---

(١) سورة التوبه ١٣ .

على غـيرها ، كقوله : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ (١) . ومذهب مالك يجيء على هـذا الاحتمال .

وقد رُوِيَ عن ابن عبّاس رضى الله عنه أنّه كان على ستّة : لله وللرّسل سهمان ، وسهم لأقاربه ، وثلاثة أسهم للثّلاثة ، حتى قبض عليه السلام ، فأسقط أبو بكر ثلاثة أسهم ، وقسّم الخمس كلّه على ثلاثة أسهم ، وكذلك فعل عمر .

ورُوِيَ أنّ أبا بكر مَنَع بنى هاشم الخمس،وقال : إنّما لـكم أن نعطىَ فقيرَكم ،ونزوِّج أيِّمَـكم ، ونخدُم من لا خادم له منكم ، وأمّا الغنيُّ منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنيّ،لا يعطى شيئاً ، ولا يتيم مُوسر .

وقد روى عن زيد بن علىّ عليـه السلام مثل ذلك ، قال : ليس لنا أن نبنىَ منـه القصور ، ولا أنْ نركب منه البراذين . فأمّا مذهب الإماميّة ، فإنّ الخمس كلّه للقرابة .

ويروون عن أمير المؤمنين عليـه السلام ، أنه قال : أيتامنا ومساكيننا ! فإنْ صحّ عنه ذلك ، فقوله عندنا أوْلَى بالاتّباع ، وإنما الـكلام فى صحته .

فأما اقتراض عمر من بيت المال ثمانين ألفاً،فليس بمعروف،والمعروف المشهور أنه كان يَظلِف (٢) نفسه عن الدّرهم الواحد منه .

وقد روى ابن سعد فى كتاب " الطبقات " أنّ عمر خطب ، فقـال : إنّ قوما يقولون : إنّ هذا المال حلال لعمر،وليس كما قالوا ، لاها اللهِ إذن ! أنا أخبركم بما أستحلّ منه ؛ يحل لى منه حُلّتان : حُلّة فى الشتاء ، وحُلّة فى القَيْظ ، وما أحجّ عليه وأعتمر من الظَّهر ، وقوتِى وقوتُ أهلى كقوتِ رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين يُصِيبُنى ما أصابهم (٣) .

---

(١) سورة البقرة ٩٨ . (٢) يظلف نفسه يمنعها .

(٣) نقله ابن الجوزى فى كتابه سيرة عمر ص ٧٥ ، ٧٦ .

وروى ابنُ سعد أيضاً أنّ عمر كان إذا احتاج أتى إلى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربّما عسر عليه القضاء، فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه، فيحتال له، وربما خرج عطاؤه فقضاه، ولقد اشتكى مرّةً فوصف له الطبيبُ العسَل، فخرج حتّى صعد المنبر، وفى بيت المال عُكّة [١]، فقال: إن أذنتم لى فيها أخذتُها، وإلّا فهى علىّ حرام، فأذنوا له فيها، ثم قال: إنّ مَثَلِي وَمَثَلَكم كقومٍ سافروا، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم لينفق عليهم، فهل يحلّ له أن يستأثر منها بشىء!

وروى ابن سعد أيضاً، قال: مكث عمر زماناً لا يأكل من مال المسلمين شيئاً، حتى أصابته خَصَاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فاستشارهم فقال لهم: قد شَغلْتُ نفسِى بأمركم، فما الذى يصلح أن أصيبه من مالكم؟ فقال عثمان: كلْ واطعم، وكذلك قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فتركهما وأقبل على علىّ عليه السلام، فقال: ماتقول أنت؟ قال: غداء وعشاء، قال: أصبت، وأخذ بقوله [٢].

وروى أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب "سيرة عمر" عن نائلة عن ابن عمر، قال: جمع عمر النّاس لما انتهى إليه فتح القادسيّة ودمشق، فقال: إنّى كنتُ امرأ تاجرا يغنى الله عيالى بتجارتى، وقد شغلتمونى عن التّجارة بأمركم، فما ترون أنه يحلّ لى من هذا المال؟ فقال القوم فأكثروا، وعلىٌّ عليه السلام ساكت، فقال عمر: ماتقول أنت ياأبا الحسن؟ قال: ماأصلحَك وأصلَح عيالك بالمعروف، وليس لك من هذا المال غيره، فقال: القول ماقاله أبو الحسن؛ وأخذ به [٢].

وروى عبد الله بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدّه أنّ عبد الله وعبيد الله ابنىْ عمر مَرّا بأبى موسى، وهو على العراق وهما مقبلان من أرض فارس، فقال: مرحبا بابْنَىْ أخى،

---

(١) العكة: زقيق صغير.

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى ٧٦.

لو كان عندى شىء ، وبلى قد اجتمع هذا المال عندى : فخذاه واشتريا به متاعاً ،فإذا قدمتما فبيعاه ولكما ربحه ، وأدّيا إلى أمير المؤمنين رأس المال ، ففعلا ، فلمّا قدما على عمر بالمدينة أخبراه ، فقال : أكلّ أولاد المهاجرين يصنع بهم أبو موسى مثل ذلك ! فقالا : لا،قال: فإنّ عمر يأبى أن يجيز ذلك وجعل قرضاً .

وروِىَ عن قتادة ، قال : كان معيقيب على بيت المال لعمر ، فكسح عمر بيت المال يوماً ، وأخرجه إلى المسلمين ، فوجدَ معيقيب فيه درهماً ، فدفعه إلى ابن عمر ، قال معيقيب : ثم انصرفت إلى بيتى ، فإذا رسول عمر قد جاء يدعونى ، فجئت فإذا الدّرهم فى يده ، فقال : ويحك يامعيقيب ! أوجَدْتَ علىّ فى نفسك شيئاً ! قلت : وما ذاك ؟ قال : أردت أن تخاصِمَنى أمّة محمد فى هذا الدرهم يوم القيامة [١] !

وروى عمر بن شبّة ، عن عبد الله بن الأرقم — وكان خازن عمر — فقال : إنّ عندنا حِلْيَةً من حلية جلولاء وآنية من فضة ، فانظر ماتأمر فيها ؟ قال : إذا رأيتنى فارغا فآذنّى ، فجاءه يوما فقال : إنى أراك اليوم فارغا ، فما تأمر بتلك الحلية ؟ فقال : ابسط لى نِطَعاً ، فبسطة ثم أتى بذلك المال ، فصبّ عليه ، فرفع يديه وقال : اللهمّ إنك ذكرت هذا المال ،فقلت : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ (١) ثم قلت : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (٢) اللهمّ إنا لانستطيع إلّا أن نفرح بما زيّنت لنا. اللهمّ إنى أسألك أن تضعه فى حقه ، وأعوذ بك من شرّه ، ثم ابتدأ فقسّمه بين الناس ، فجاءه ابن بنت له ، فقال: ياأبتاه! هب لى منه خاتما ، فقال : اذهب إلى أمّك تَسْقِك سَوِيقاً ، فلم يعطه شيئاً (٣) .

وروى الطبرىّ فى تاريخه أنّ عمرَ خطبَ أمّ كلثوم بنت أبى بكر ، فأرسل فيها إلى

---

(١) سورة آل عمران ١٤ (٢) سورة الحديد ٢٣ .
(٣) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ٧٨ .

عائشة ،فقالت : الأمر إليها، فقالت أمّ كلثوم : لاحاجة لى فيه ، قالت لهاعائشة : ويلك ! أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إنّه يغلِق بابه ، ويمنع خيره ، ويدخل عابسا ، ويخرج عابسا ، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص ، فأخبرته ، فقال : أنا أكفيك ، فأتى عمر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، بلغنى خبرٌ أعيذكِ بالله منه ! قال:ماهو؟ قال: خطبتَ أمّ كلثوم بنت أبى بكر ؟ قال : نعم ، أفترغب بى عنها أم ترغبُ بهاعنّى؟قال:لاواحدة، ولكنها حَدَثة ، نشأتْ تحت كنَف أمّ المؤمنين فى لينٍ ورفق ،وفيك غلظةونحن نهابُك، ولا نستطيع أن نردّك عن خُلُقٍ من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها ! كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير مايحقّ عليك ، قال : فكيف لى بعائشة وقد كلّمتها فيها ؟ قال : أنا لك بها ، وأدلّك على خيرٍ منها ، أمّ كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب، تعلّقْ منها بسببٍ من رسول الله . فصرَفه عنها إلى أم كلثوم بنت فاطمة .

وروى عاصم بن عمر ، قال : بعث إلىّ عمر عند الهاجرة ــ أو قال عند صلاة الصبح ــ فأتيتهُ ، فوجدته جالساً فى المسجد فقال : يابنىّ ،إنى لم أكن أرى شيئاً من هذا المال يحلّ لى قبل أن ألِيَ إلّا بحقه ، وما كان أحرم علىّ منه حين وليته ،فعاد أمانتى،وإنى كنت أنفقت عليك من مال الله شهرا ، ولست بزائدك عليه ، وقد أعطيتك تمْرى بالعالية ، فبعه وخذ ثمنه ، ثم ائت رجلا من تجّار قومك ، فكن إلى جانبه ، فإذا ابتاع شيئاً فاستشركه ، وأنفق ماتربحه عليك وعلى أهلك . قال : فذهبت ففعلت [1] .

وروى الحسن البصرىّ أنّ عمر كان يمشى يوماً فى سكّة من سِكك المدينة ، إذ صبيّة تَطِيش على وجه الأرض ، تقعد مرّة ، وتقوم أخرى من الضّعف والجهد ، فقال عمر : ما بال هذه ؟ قال عبد الله ابنه : أما تعرف هذه ؟ قال : لا ، قال إنّها إحدى بناتِك،

---

(١) سيرة عمر ٧٨ .

فأنكر عمر ذلك، فقال : هذه ابنتي من فلانة ! قال : ويحك وما صيّرها إلى ماأرى؟ قال: منعك [ماعندك][١] ، قال : أنا منعتُك ماعندى ،فما الذى منعك أن تطلب لبناتك مايكسب الأقوام [٢] لبناتهم ! إنّه والله مالكَ عندى غيرُ سهمك فى المسلمين ؛وسعَك أو عجزعنك، وكتاب الله بينى و بينك [٣] .

وروى سعيد بن المسيّب ، قال: كتب عمر لما قسم العطاء وفضل مَنْ فضّل المهاجرين الذين شهِدُوا بدراً خمسة آلاف ، وكتب لمن لم يشهد بدرا أربعة آلاف ؛ فكان منهم عمر بن أبى سلمة المخزومىّ ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، ومحمد بن عبد الله بن جحش ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب . فقال عبد الرحمن بن عوف ـ وهو الذى كان يكتبُ: ياأميرَ المؤمنين ، إنّ عَبد الله بن عمر ؛ ليس من هؤلاء ، إنّه وإنه ...يُطريه ويُثنى عليه ،فقال له عمر : ليس له عندى إلا مثل واحد منهم ، فتكلّم عبد الله وطلب الزيادة، وعمر ساكت، فلمّا قضى كلامَه ، قال عمر لعبد الرحمن : اكتبه على خمسة آلاف ،واكتبنى على أربعة آلاف ، فقال عبد الله : لاأريد هذا ، فقال عمر : والله لاأجتمع أنا وأنت على خمسة آلاف ، قمْ إلى منزلك ؛ فقام عبد الله كئيبا .

وقال أبو وائل : استعملنِى ابنُ زياد على بيت المال بالكوفة ، فأتانى رجلٌ بصكّ يقول فيه : أعطِ صاحب المطبخ ثمانمائة درهم ، فقلت له : مكانكَ. ودخلتُ على ابن زياد، فقلت له : إنّ عمر استعمل عبد الله بن مسعود بالكوفة على القضاء و بيت المال، واستعمل عثمان بن حُنَيف على سِقْى الفرات ، واستعمل عمّار بن ياسر على الصلاة والجند ،فرزقهم كلّ يوم شاة واحدة ، فجعل نصفها وسقطها وأكارعها لعمّار ؛لأنه كان على الصلاة والجند، وجعل لابن مسعود رُبعها ، ولابنُ حُنيف ربعها ، ثم قال : إنّ مالًا يؤخذ منه كلّ يوم شاة، إنّ ذلك فيه لسريع، فقال ابن زياد : ضع المفتاح فاذهب حيث شئت .

---

(١) من سيرة عمر . (٢) سيرة عمر : « الأقوياء » . (٣) سيرة عمر ٧٧ ، ٧٨ .

وروى أبو جعفر الطبرى فى التاريخ ، أنّ عمر بعث سلَمة بن قيس الأشجعىّ إلى طائفة من الأكراد ، كانوا على الشرك ، فخرج إليهم فى جيش سَرّحه معه من المدينة ، فلمّا انتهى إليهم ، دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية ، فأبوا ، فقاتلهم ، فنصره الله عليهم؛ فقتل المقاتلة وسَبى الذريّة ، وجمع الرِّثّة [1] ، ووجد حلية وفصوصا وجواهر ، فقال لأصحابه: أتطيب أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين ؟ فإنه غير صالح لكم ، وإنّ عَلَى أمير المؤمنين لمؤنة وأثقالا ! قالوا : نعم ، قد طابت أنفسنا ، فجعل تلك الجواهر فى سَفَط ، وبعث به مع واحد من أصحابه ، وقال له : سِرْ ، فإذا أتيتَ البصرة ، فاشترِ راحلتين فأوْقِرْهما زاداً لك ولغلامك ، وسِرْ إلى أمير المؤمنين. قال : ففعلت، فأتيت عمر وهو يغدّى الناس ، قائما متكئا على عصا كما يصنع الراعى ، وهو يدور على القِصاع ، فيقول: يا يرْفأ زِدْ هؤلاء لحماً ، زد هؤلاء خبزاً ، زد هؤلاء مَرَقة ، فجلست فى أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة ، طعامى الذى معى أطيَب منه ، فلمّا فرغ أدبر فاتّبعته ، فدخل داراً فاستأذنت ، ولم أعلِم حاجبه مَنْ أنا ، فأذن لى ، فوجدته فى صُفّة جالسا على مِسْح ، متّكئا على وسادتين من أَدَم محشوّتين ليفاً ، وفى الصُّفة عليه سِتْر من صوف ، فنبذ إلىّ إحدى الوسادتين ، فجلست عليها ، فقال : يا أمّ كلثوم ، ألا تغدّوننا ! فأخرج إليه خُبْزة بزيت فى عرضها ملح لم يدقّ ، فقال : يا أمّ كلثوم ، ألا تخرُجين إلينا تأكلين معنا ؟ فقالت : إنّى أسمع عندك حِسّ رجل ، قال : نعم ، ولا أراه من أهل هذا البلد ـ قال : فذاك حين عرفت أنّه لم يعرفنى ـ فقالت : لو أردت أن أخرج إلى الرّجال لكسوتَنى كما كسا الزّبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته ، قال : أو ما يكفيك أنّك أمّ كلثوم ابنة علىّ بن أبى طالب وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ! قالت : إنّ ذاك عَنّى لقليل الغَناء ، قال : كلْ ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيبَ من هذا ، فأكلتُ قليلا ، وطعامى الذى معى أطيب منه،

---

(١) الرثة : المتاع .

وأكل ، فَما رأيت أحداً أحسنَ أكلاً منه ، مايتلبَّس طعامه بيده ولا فمه . ثم قال : اسقونا ، فجاءوا بعُسٍّ من سُلْت[1] ، فقال : أَعط الرّجُل ، فشربت قليلاً ، وإنّ سَويقى الذى معى لأطيبُ منه ، ثم أخذه فشربه حتى قَرَع القَدَحُ جبهته ، ثم قال : الحمد لله الذى أطعمنا فأشبعنا ، وسقانا فأروانا ، إنّك ياهذا لضعيف الأكل ، ضعيف الشرب، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ لى حاجة ، قال : ماحاجتُك ؟ قلت : أنا رسول سلمة بن قيس، فقال : مرحباً بسلمة ورسوله ! فكأنما خرجتَ من صُلْبه ، حَدِّثْنى عن المهاجرين كيف هم ؟ قلت : كما تحبُّ ياأميرَ المؤمنين ؛ من السلامة والظَّفر والنَّصر على عدوّهم ، قال : كيف أسعارهم ؟ قلت : أرخص أسعار ، قال : كيف اللّحم فيهم ، فإنه شجرة العرب، ولا تصلح العرب إلّا على شَجَرتِها ؟ قلت : البقرة فيهم بكذا ، والشاة فيهم بكذا ، ثم سِرْنا ياأميرَ المؤمنين حتى لقِينا عدوَّنا من المشركين ، فدعوناهم إلى الّذى أَمَرْت به من الإسلام فأبوْا ، فدعوناهم إلى الخراج فأبوْا ، فقاتلناهم فنصرَنا الله عليهم ، فقتلنا المقاتِلة ، وسبيْنا الذرّيّة وجمعنا الرِّثّة[2] ، فرأى سلمة فى الرِّثّة حِلْية ، فقال للناس : إنّ هذا لا يبلغُ فيكم شيئاً ، أفتطيب أنفسكم أن أبعثَ به إلى أمير المؤمنين ؟ قالوا : نعم ، ثم استخرجت سَفَطِى[3] ففتحته . فلمّا نظر إلى تلك الفُصوص، من بين أحمر وأخضر وأصفر، وثب وجعل يده فى خاصرته يصيح صياحا عاليا ، ويقول : لا أشبع الله إذنْ بطن عمر ! يكرّرها، فظنّ النّساء أنى جئت لأغتالَه ؛ فجئن إلى السِّتر فكشفنه ، فسمعنه يقول : لفّ ماجئت به يايرفأ جأْ عنقه[4] ، قال : فأنا أصْلِحُ سفَطِى ، ويرفأ يَجأُ عنقى . ثم قال : النّجاء النّجاء ! قلت : ياأمير المؤمنين انزعْ بى فاحملنى ، فقال : يايرفأ ، أعطه راحلتين من إبل الصدقة ،

---

(١) السلت : شعير لا قشر له ، يتبرد بسويقه .

(٢) الطبرى : « الرشة » .

(٣) السفط : وعاء كالجوالق .

(٤) جأ : اضرب .

فإذا لقيت أفقر إليهما منك فادفعهما إليه ، وقال : أظنّك ستبطئ ، أما والله لئن تفرّق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يُقسم هذا فيهم ، لأفعلنّ بك وبصاحبك الفاقرة [1] .

قال : فارتحلت حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس ، فقلت : مابارك الله فيما اختصصْتَنى به، اقسِمْ هذا فى الناس قبل أن تصيبنى وإياك فاقرة ، فقسمه فيهم . فإنّ الفصّ ليباع بخمسة دراهم وبستّة ، وهو خير من عشرين ألفا [2] .

وجملة الأمر أنّ عمر لا يجوز أن يُطعَن فيه بمثل هذا ، ولا ينسب إلى شَرَهٍ وحبٍّ للمال ، فإنّ طريقته فى التعفّف والتقشّف وخشونة العيش والزهد أظهرُ من كلّ ظاهر ، وأوضح من كلّ واضح ،وحاله فى ذلك معلومة ، وعلى كلّ تقدير ؛ سواء كان يفعل ذلك ديناً أو ورعا ـ كما هو الظاهر من حاله ـ أو كان يفعل ذلك ناموساً وصناعة ورياء وحيلة، ـ كما تزعم الشّيعة ـ فإنه عظيم ،لأنه إمّا أن يكون على غاية الدّين والتّقى ، أو يكون أقوى النّاس نفساً ، وأشدّهم عزماً ؛ وكلا الأمرين فضيلة .

والّذى ذكره المحدّثون وأرباب السِّيَر أنّ عمر لما طُعِن واحتُمل فى دمه إلى بيته ، وأوصَى بما أوصَى ، قال لابنه عبد الله : انظروا ماعلىّ من دَيْن ، فحسبوه فوجدوه ستمائة وثمانين ألف درهم ، هكذا ورد فى الأخبار أنهـا كانت ديونا للمسلمين ، ولم تكن من بيتِ المال . فقال عمر : انظرْ ياعبدَ الله ، فإن وفّى به مالُ آل عمر ، فأدّهِ من أموالهم ، وإلّا فسَلْ فى بنى عدىّ بن كعب ، فإن لم تفِ به أموالُهم ، فسلْ فى قريش ، ولا تعدُهم إلى غيرهم . فهكذا وردت الرواية ، فلذلك قال قاضى القضاة : فإنّ صحّ فالعذر كذا وكذا ، لأنه لم يثبت عنده صحّة اقتراضه هذا المقدار من بيت المال .

وقد رُوِىَ أنّ عمر كان له نَخْل بالحجاز غَلّته كلّ سنة أربعون ألفا ، يُخرجها فى

---

(١) الفاقرة : الداهية . (٢) تاريخ الطبرى ١ : ٢٧١٣ـ٢٧٢١ (طبع أوربا) مع اختلاف فى الرواية .

النّوائب والحقوق، ويصرِفها إلى بنى عدىّ بن كعب إلى فقرائهم وأراملهم وأيتامهم، روى ذلك ابن جرير الطبرى فى التاريخ .

فأما قولِ المرتَضى : أىّ حاجة بخشن العيش وجَشِب المأكل إلى اقتراض الأموال؟

فجوابه أنّ المتزهّد المتقشّف قد يضيّق على نفسه ويوسّع على غيره ، إمّا من باب التكرّم والإحسان، أو من باب الصدقة وابتغاء الثواب ، وقد يصل رحِمه وإنْ قتّر على نفسه .

وقد روى الطبرىّ أنّ عمر دفع إلى أمّ كلثُوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام صداقها يوم تزوّجها أربعين ألف درهم ؛ فلعلّ هذا الاقتراض من الناس كان لهذا الوجه ولغيره من الوجوه التى قلّ أن يخلوَ أحد منها .

* * *

الطعن السادس

إنه عطّل حدّ الله فى المغيرة بن شعبة ، لما شُهِد[١] عليه بالزّنا ، ولقّنَ الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة ، اتّباعا لهواه ، فلما فعل ذلك عاد إلى الشهود فحدّهم وضربهم[٢] ، فتجنّب أن يفضح المغيرة ، وهو واحد ، وفضح الثلاثة مع تعطيله لحكم الله ، ووضعه فى غير موضعه .

أجاب قاضى القضاة ، فقال : إنه لم يعطّل الحدّ إلّا من حيثُ لم تكمل الشهادة وبإرادة الرابع ، لئلا يشهد لا تكمل البيّنة ، وإنما تكمل بالشهادة .

وقال : إن قوله : « أرى وجهَ رجل لا يفضحُ الله به رجلا من المسلمين » ، يجرى فى أنه سائغ صحيح مجرَى ما روِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وآله من أنّه أُتى بسارقٍ، فقال: «لا تُقِرّ».

---

(١) الشافى : « شهدوا » .
(٢) كذا فى الشافى ، وفى الأصول : « فضحهم » .

وقال عليه السلام لصفوان بن أميّة لما أتاه بالسارق ، وأمر بقطعه ، فقال : هوله – يعنى ماسرق : هلاّ قبل أن تأتيَنى به ! فلا يمتنع من عمر ألّا يحبّ أن تكمل الشهادة وينبه الشاهد على ألّا يشهد ، وقال : إنه جلد الثلاثة من حيث صارُوا قَذَفة ، وإنه ليس حالهم – وقد شهدُوا – كحالِ مَنْ لم تتكامل الشهادة عليه ، لأنّ الحيلة فى إزالة الحدّ عنه – ولمّا تتكامل الشهادة عليه – ممكِنة بتلقين وتنبيه غيره ، ولا حيلة فيما قد وقع من الشهادة ، فلذلك حدّهم .

قال : وليس فى إقامة الحدّ عليهم من الفضيحة مافى تكامل الشّهادة على المغيرة ، لأنه يتصوّر بأنه زانٍ ، ويحكم بذلك ، وليس كذلك حال الشهود ، لأنهم لايتصوّرون بذلك ، وإن وجبَ فى الحُكْم أن يُجعَلُوا فى حُكْم القَذَفة .

وحكى عن أبى علىّ أنّ الثلاثة ، كان القذف قد تقدّم منهم للمغيرة بالبصرة ، لأنهم صاحوا به من نواحى المسجد : بأنّا نشهد أنك زانٍ ، فلو لم يعيدوا الشهادة لكان يحدّهم لا محالة ، فلم يمكن فى إزالة الحدّ عنهم ماأمكن فى المغيرة .

وحكى عن أبى علىّ فى جواب اعتراضه عن نفسه بما روى عن عُمر أنه كان إذا رآه يقول : لقد خفتُ أن يرميَنى الله عزّ وجلّ بحجارة من السماء ؛ أنّ هذا الخبر غيرصحيح، ولوكان حقًّا لكان تأويله التخويف ، وإظهار قوة الظّن ؛ لصدق القوم الذين شهدوا عليه ، ليكون ردعاً له . وذكر أنّه غيرُ ممتنع أن يحبّ ألّا يفتضح لماكان متوليا للبصرة من قِبَلِه .

ثم أجاب عن سؤال مَنْ سأله عن امتناع زياد من الشهادة ، وهل يقتضى الفسق أم لا؟ فإن قال : لا نعلم أنّه كان يتمّ الشهادة ؛ ولو علمنا ذلك لكان حيث ثبت فى الشرع أنّ له

السكوت ؛لا يكون طعنا ، ولو كان ذلك طعنا، وقد ظهر أمرُه لأمير المؤمنين عليه السلام لمّا ولاه فارس ، ولمّا ائتمنه على أموال الناس ودمائهم .

* * *

اعترض المرتَضى فقال : إنّما نسِب إلى تعطيل الحدّ من حيث كان فى حكم الثابت ، وإنما بتلقينه لم تكمُل الشهادة ، لأن زيادا ماحضر إلا ليشهد بما شهد به أصحابه ، وقد صرّح بذلك كما صرّحوا قبل حضورهم ، ولو لم يكن هذا لما شهد القوم قبلَه وهم لايعلمون: هل حاله فى ذلك الحكم كحالهم ، لكنّه أحجم فى الشّهادة لمّا رأى كراهَية متولّى الأمر لكمالها ، وتصريحه بأنّه لايريد أن يعمل بموجبها .

ومن العجائب أن يطلبَ الحيلة فى دفع الحدّ عن واحدٍ ، وهو لايندفع إلّا بانصرافه إلى ثلاثة ، فإن كانَ درْء الحدّ والاحتيال فى دفعه من السُّنن المتّبعة ، فدرؤُه عن ثلاثة أوْلَى من درئِه عن واحد !

وقوله : إنّ دفع الحدّ عن المغيرة ممكِنٌ ودفعه عن ثلاثة ـ وقد شهدوا ـ غيرُ ممكن ، طَريف ، لأنّه لو لم يلقّن الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة لاندفع الحدّ عن الثلاثة ، وكيف لاتكون الحيلة ممكنة فيما ذكره!

وقوله : إن المغيرة يُتصوّر بصورة زانٍ لو تكاملت الشهادة ، وفى هذا من الفضيحة ماليس فى حدّ الثلاثة غيرُ صحيح ، لأنّ الحكم فى الأمرين واحدٌ ، لأنّ الثلاثة إذا حُدُّوا يُظَنّ بهم الكذب ، وإن جُوّز أن يكونوا صادقين ، والمغيرة لو تكاملت الشهادة عليه بالزّنا لظُنّ به ذلك مع التجويز لأنْ يكون الشُّهود كَذَبة ، وليس فى أحدٍ إلّا مافى الآخر.

وما روى عنه عليه السلام من أنّه أُتِىَ بسارق ، فقال له : «لاتقُرّ» إن كان صحيحا لايشبه مانحن فيه ، لأنه ليس فى دفع الحدّ عن السارق إيقاع غيره فى المكروه .

وقصّة المغيرة تخالف هذا لما ذكرناه .

فأما قوله عليه السلام : « هلاّ قبل أنْ تأتينى به ! » فلا يشبه كلّ مانحن فيه ، لأنّه بيّن أن ذلك القول يُسْقط الحدّ لو تقدّم ، وليس فيه تلقين يوجب إسقاطَ الحدّ .

فأمّا ماحكاه عن أبى علىّ من أنّ القذف من الثلاثة كان قد تقدّم ، وأنّهم لو لم يُعيدوا الشهادة لكان يحدّهم لامحالة ، فغير معروف ، والظاهر المروىّ خلافُه ، وهو أنه حدّهم عند نُكُول زيادٍ عن الشهادة ، وأنّ ذلك كان السّبب فى إيقاع الحدّ بهم . وتأوّله[1] عليه : لقدخفتُ أن يرميَنى اللهُبحجارة من السّماء، لايليق بظاهر الكلام ،لأنّه يقتضى التندّم والتأسّف على تفريطٍ وقع ، ولِمَ يخافُ أن يرمَى بالحجارة وهو لم يدْرأ الحدّ عن مستحق له !ولو أراد الرّدْع والتخويف المغيرة لأتى بكلام يليق بذلك ، ولا يقتضى إضافة التّفريط إلى نفسه . وكونه والياً من قبَله لايقتضى أن يدرأَ عنه الحدّ ، ويعدِل به إلى غيره .

وأما قوله : إنّا ما كنّا نعلم أنّ زياداً كان يتمّ الشهادة ، فقد بيّنا أنّ ذلك كان معلوماً بالظاهر ، ومَنْ قرأ ماروِى فىهذه القصّة علم بلا شكٍّ أن حال زياد كحال الثلاثة، فى أنّه إنّما حضر للشهادة ، وإنما عدل عنها لكلام عمر .

وقوله : إنّ الشّرع يبيح السكوت ، ليس بصحيح ، لأنّ الشّرع قد حظَر كتمان الشهادة .

فأمّا استدلالُه على أنّ زيادا لم يفسَّق بالإمساك عن الشهادة بتولية أمير المؤمنين عليه السلام له فارسَ ، فليس بشىء يُعتمَد ، لأنه لايمتنع أن يكون قد تاب بعد ذلك ، وأظهر توبتَه لأمير المؤمنين عليه السلام ، فجاز أن يولّيَه . وقد كان بعضُ أصحابنا يقول فى قصّة المغيرة شيئاً طيّبا ، وإن كان معتمِلاً فى باب الحجّة ، كان يقول : إنّ زيادا إنّما امتنع من التصريح بالشهادة المطلوبة فى الزنا ، وقد شهد بأنه شاهدَه بين شُعَبها الأربع ، وسمع نَفَساً عاليا ، فقد صحّ على المغيرة بشهادة الأربع جلوسهُ منها مجلس الفاحشة ، إلى غيرذلك

(١) الشافى : « وما تأول عليه » .

من مقدّمات الزنا وأسبابه . فهلّا ضمّ عمر إلى جلْد الثلاثة تعزيرَ هذا الذى قد صحّ عنده بشهادة الأربعة ماصحّ من الفاحشة ، مثل تعريك أذنه ، أو مايجرى مجراه من خفيف التّعزيز ويسيره ! وهل فى العدول عن ذلك — حتّى عن لومه وتوبيخه والاستخفاف به إلّا ماذكرُوه من السّبب الذى يشهد الحال به (١) !

* * *

قلت : أمّا المغيرة فلا شكّ عندى أنه زنَى بالمرأة ، ولكنّى لست أخطِّئ عمرَ فى دَرْء الحدّ عنه ، وإنّما أذكر أولا قصّته من كتابىْ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، وأبى الفرج على بن الحسن الأصفهانىّ ، ليعلم أنّ الرجل زَنَى بها لامحالة ، ثم أعتذر لعمر فى درء الحدّ عنه .

قال الطّبرى فى تاريخه (٢) : وفى هذه السّنة — يعنى سنة سبع عشرة — ولّى عمر أبا موسى البصرة ، وأمره أن يُشخص إليه المغيرة بن شعبة ، وذلك لأمر بلغه عنه. قال الطبرىّ: حدّثنى محمد بن يعقوب بن عتبة ؛ قال : حدثنى أبى ، قال : كان المغيرة يخالف إلى أمّ جميل ، امرأة من بنى هلال بن عامر ، وكان لها زوج من ثقيف هلك قبل ذلك ، يقال له الحجاج بن عبيد ، وكان المغيرة — وكان أميرَ البصرة — يختلف إليها سرًّا ، فبلغ ذلكَ أهلَ البصرة ، فأعظموه ، فخرج المغيرة يوماً من الأيام إلى المرأة ، فدخل عليها وقد وضعوا عليهما الرَّصَد ، فانطلق القوم الذين شهدوا عند عمر فكشفوا السِّتر ، فرأوْه قد واقعها ؛ فكتبوا بذلك إلى عمر ، وأوفدوا إليه بالكتاب أبا بَكْرة . فانتهى أبو بكرة إلى المدينة ، وجاء إلى باب عمر فسمع صوتَه وبينه وبينه حجاب ، فقال : أبو بكرة ! فقال : نعم ، قال : لقد جئت لشَرّ ! قال : إنما جاء به المغيره ، ثم قصّ عليه القصة ، وعرض عليه الكتاب ، فبعث أبا موسى عاملًا ، وأمره

(١) الشافى ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٢٥٢٩ — ٢٦١ (طبع أوربا) .

أن يبعث إليه المغيرة ، فلمّا دخل أبو موسى البصرة ، وقعد فى الإمارة ، أهدى إليه المغيرة عقيلَة ، وقال : إنّنى قد رضيتها لك ، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر.

قال الطبرىّ : وروى الواقدىّ ، قال : حدّثنى عبدالرحمن بن محمدبن أبى بكر بن عمرو ابن حزم الأنصارى ، عن أبيه ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قدم المغيرة على عُمر ، فتزوّج فى طريقه امرأةً من بنى مُرّة ، فقال له عمر : إنّك لفارغ القلْب ، شديد الشَّبَق ، طويل الغُرمول ، ثم سأل عن المرأة فقيل (١) له ـ يقال لها الرقطاء: كان زوجها من ثَقيف وهى من بنى هلال .

قال الطبرىّ : وكتب إلىّ السرىّ ، عن شعيب ، عن سيف ، أنّ المغيرة كان يُبغِض أبا بَكْرة وكان أبو بكرة يُبغضه ، ويناَغى (٢) كلّ واحد منهما صاحبَه وينافره عند كلّ مايكون منه ، وكانا متجاورين بالبصرة ، بينهما طريق ، وهما فى مشربَتيْن متقابلتين ، فهما فى داريهما فى كلّ واحدة منهما كُوّة مقابلة الأخرى ، فاجتمع إلى أبى بكْرة نفَرٌ يتحدّثون فى مَشْربته ، فهبّت ريح ففتحت باب الكُوّة ، فقام أبو بكْرة ليُصْفِقه (٣) ، فبصر بالمغيرة وقد فتَحت الرّيح باب الكُوّة التى فى مَشْرَبته ، وهو بين رِجْلَى امرأة ، فقال للنّفر: قوموا فانظروا ، فقاموا فنظروا ، ثم قال : اشهدوا ، قالوا : ومَنْ هذه ؟ قال : أمّ جميل ، إحدى نساء بنى عامر بن صعصعة ، فقالوا : إنما رأينا أعجازا ولا ندرى الوجوه! فلمّا قامت صَمّموا ، وخرج المغيرة إلى الصلاة ، فحال أبو بكْرة بينه وبين الصلاة ، وقال : لاتصلّ بنا . وكتبوا إلى عمر بذلك ، وكتب المغيرة إليه أيضا ، فأرسل عمر إلى أبى موسى ، فقال : ياأبا موسى ، إنّى مستعمِلك ، وإنى باعثُك إلى الأرض التى قد باضَ بها الشيطان وفرّخ ، فالزمْ ماتعرِف ، ولا تستبدلْ فيستبدل الله بك . فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أعنىّ بعدّة من

---

(١) الطبرى : « فقال » . (٢) كذا فى الطبرى ، ويناغيه : يباريه . وفى الأصول : « يباغيه » .
(٣) أصفق الباب : رده .

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من المهاجرين والأنصار ، فإنّى وجدتهم فى هـذه الأمّة وهـذه الأعمال كالمِلْح لا يصلح الطعام إلّا به . قال عمر : فاستعِنْ بمن أحببتَ ، فاستعان بتسعة وعشرين رجلا ، منهم أنس بن مالك ، وعمران بن حصين ، وهشام بن عامر . وخرج أبو موسى بهمْ حتى أناخ بالبصرة فى المِرْبد ، وبلغ المغيرةَ أنّ أبا موسى قد أناخ بالمِرْبد ، فقال : والله ماجاء أبو موسى زائراً ، ولا تاجرا ، ولـكنّه جاء أميرا .

فإنّهم لَفِى ذلك إذْ جاء أبو موسى ، حتى دخَل عليهم ، فدفع إلى المغيرة كتاباً من عمر، إنه لأوجز كتابٍ كتب به أحدٌ من الناس ؛ أربع كَلِم ، عزل فيها وعاتب ، واستحثّ وأمّر : « أما بعدُ ، فإنه بلَغنى نبأٌ عظيم ، فبعثتُ أبا موسى ، فسلِّم مافى يديك إليه ، والعَجَل » .

وكتب إلى أهل البَصْرة : « أمّا بعد ، فإنّى قد بعثتُ أبا موسى أميراً عليكم ، ليأخذ لضعيفـكم من قويّـكم ، وليقاتل بكم عدوّكم وليدفع عن ذِمّتِـكم ، وليجْبِى [(١)] لـكم فيئَـكم ، وليقسم فيكم ، وليحمىَ [(٢)] لـكم طُرقـكم » .

فأهدى إليه المغيرةوليدةً من مولّدات الطائف تدعى عَقيلة، وقال : إنى قدرضيتُها لك ـ وكانت فارهةـ وارتحل المغيرة ، وأبو بكْرة ، ونافع بن كَلَدَة، وزياد، وشِبْل بن معبَد البَجَلِيّ، حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، فقال المغيرة : ياأميرَ المؤمنين ، سَلْ هؤلاء الأعبد : كيف رأوْنى ؟ مستقبلَهم أم مستدبرهم ! وكيف رأوا المرأة وعرفوها فإن كانوا مستقبلىّ فـكيف لم أستتر ! وإن كانوا مستدبرىّ فبأىّ شىء استحلّوا النّظر إلىّ فى منزلى على امرأتى ! والله ما أتيتُ إلّا امرأتى ، فبدأ بأبى بَـكْرة فشهد عليه أنّه رآه بين رجلىْ أمّ جميل ، وهو يدخِله ويخرجه ، قال عمر : كيف رأيتَهما ؟ قال : مستدبرَهما ، قال : كيف استثبتَّ رأسها ؟ قال : تجافيتُ. فدعا بِشِبْل بن معبد ، فشهد مثل ذلك، وقال : استقبلتُهما واستدبرتُهما . وشهد نافع بمثل شهادة أبى بَـكْرة ، ولم يشهد زياد بمثل شَهادتهم . قال :

---

(١) الطبرى : « ليجبى » .   (٢) الطبرى : « لينقى » .

رأيته جالساً بين رجلي امرأة ، ورأيت قدمين مرفوعتين تخفقان ، واستين مكشوفتين ؛ وسمعت حفزاً شديداً [١] ، قال عمر : فهل رأيته فيها كالميل في المكحلة ؟ قال : لا ، قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال: لا ، ولكن أشبهها ، فأمر عمر بالثلاثة فجُلدوا الحدّ، وقرأ : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [٢]. فقال المغيرة : الحمد لله الذى أخزاكم ! فصاح به عمر : اسكتْ أسكت الله نأمتك ! أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك . فهذا ماذكره الطبرى .

وأمّا أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانىّ ، فإنه ذكر فى كتاب الأغانى [٣] أنّ أحمد بن عبد العزيز الجوهرى، حدّثه عن عمر بن شبّة، عن علىّ بن محمد ، عن قتادة ، قال: كان المغيرةُ بن شُعبة ــ وهو أمير البصرة ــ يختلف سرًّا إلى امرأة من ثقيف ، يقال لها الرقطاء ، فلقيَه أبو بَكْرة يوماً ، فقال له : أين تريد ؟ قال : أزور آل فلان ، فأخذ بتلابيبه ، وقال : إن الأمير يُزار ولا يزور .

قال أبو الفرج : وحدّثنى بحديثه جماعة ــ ذكر أسماءهم بأسانيد مختلفة ، لا نرى الإطالة بذكرها ــ أنّ المغيرة كان يخرج من دار الإمارة وَسَط النهار ، فكان أبو بَكْرة يلقاه ، فيقول له : أين يذهب الأمير ؟ فيقول له : إلى حاجة ، فيقول : حاجة ماذا ؟ إنّ الأميرَ يُزار ولا يزور !

قالوا : وكانت المرأة التى يأتيها جارةً لأبى بَكْرة ، فقال : فبينا أبو بكْرة فى غُرفةٍ له مع أخويه : نافع وزياد ورجل آخر يقال له شِبْل بن معبد ــ وكانت غرفة جارته تلك محاذيةً غرفة أبى بكْرة ــ فضربت الريح باب غرفة المرأة، ففتحته ؛ فنظر القوم فإذا هم بالمغيرة يَنكحها ، فقال أبو بكرة : هذه بليّة قد ابتليتم بها ، فانظروا ، فنظروا حتى أثبتُوا [٤]،

---

(١) الطبرى : « حفزانا » . (٢) سورة النور ١٣ .

(٣) الأغانى ١٦ : ٧٧ ــ ١٠٠ (طبع دار الكتب) .

(٤) أثبتوا : تيقنوا .

فنزل أبو بكْرة ، فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة ؛ فقال له أبو بَكْرة : إنه قد كان من أمرك ماقد علمت ، فاعتزلْنا . فذهب المغيرة وجاء ليصلّى بالناس الظهر ، فمنعه أبو بَكْرة وقال : لا والله لا تصلِّى بنا ، وقد فعلت مافعلت ! فقال الناس : دعوه فليصلِّ ، إنه الأمير ! وا كتبوا إلى عمر ، فكتبوا إليه ، فورد كتابه أن يقدَموا عليه جميعاً ؛ المغيرة والشهود.

قال أبو الفرج : وقال المدائنىّ فى حديثه : فبعث عمر بأبى موسى ، وعزم عليه ألّا يضع كتابه من يده حتى يرحّل المغيرة .

قال أبو الفرج : وقال علىّ بن هاشم فى حديثه : إنّ أبا موسى قال لعمر لما أمره أن يرحّل المغيرة من وقته : أوَ خَيْرٌ من ذلك ياأمير المؤمنين ؟ نتركه فيتجهّز ثلاثاً ثم يخرج .

قالوا : فخرج أبو موسى حتى صلّى صلاة الغداة بظهر المِرْبد ، وأقبل إنسان فدخل على المغيرة ، فقال : إنّى رأيتُ أبا موسى قد دخل المسجد الغداة ، وعليه بُرنس ؛ وهاهو فى جانب المسجد ، فقال المغيرة : إنه لم يأت زائراً ولا تاجراً .

قالوا : وجاء أبو موسى ، حتى دخل على المغيرة ومعه صَحيفة ملء يده ، فلمّا رآه قال : أمير ! فأعطاه أبو موسى الكتاب ، فلمّا ذهب يتحرّك عن سريره قال له : مكانك! تجهّز ثلاثاً .

قال أبو الفرج : وقال آخرون : إنّ أبا موسى أمره أن يرحَل من وقته ، فقال المغيرة : قد علمت ماوجِّهت له ، فألّا تقدمت وصلّيت ! فقال : ماأنا وأنت فى هذا الأمر إلّا سواء ، فقال المغيرة : إنّى أحبّ أن أقيم ثلاثاً لأتجهّز ، فقال أبو موسى : قد عزم علىّ أمير المؤمنين ألّا أضع عهدى من يدى ، إذا قرأته حتى أرحّلك إليه . قال : إن شئت شفّعتنى ، وأبررت قَسَم أمير المؤمنين بأن تؤجّلنى إلى الظّهر ، وتمسِك الكتاب فى يدك .

قالوا : فلقد رُئىَ أبو موسى مقبلا ومدبراً ، وإنّ الكتاب فى يده معلّق بخيط ، فتجهّز المغيرة ، وبعث إلى أبى موسى بعَقيلة ؛ جارية عربية من سَبْى اليمامة ، من

بنى حنيفة ، ويقال : إنها مولّدة الطائف ، ومعها خادم ، وسار المغيرة حين صلّى الظهر ، حتى قدم على عمر .

قال أبو الفرج : فقال محمد بن عبد الله بن حزم فى حديثه : إنّ عمر قال له لما قدم عليه : لقد شُهِد عليك بأمرٍ ، إن كان حقًّا لَأَنْ تكون متَّ قبل ذلك كان خيراً لك!

قال أبو الفرج : قال أبو زيد عُمر بن شبّة : فجلس له عمر ، ودعا به وبالشهود ، فتقدّم أبو بَكْرة ؛ فقال: أرأيته بين فخذيها ؟ قال : نعم والله ؛ لكأنّى أنظر إلى تَشْريم جدرىّ بفخذيها ، قال المغيرة : لقد ألطفت النَّظر . قال أبو بَكْرة : لم آلُ أن أثبت ما يخزيك الله به ! فقال عمر : لا والله حتى تشهد : لقد رأيته يلجُ فيها كما يلج المِرْود فى المكحلة؛ قال: نعم أشهد على ذلك ، فقال عمر : اذْهب عنك مغيرة ، ذهب رُبْعك .

قال أبو الفرج : ويقال إن عليًّا عليه السلام هو قائل هذا القول . ثم دعا نافعاً فقال: علام تشهد ؟ قال : على مثل شهادة أبى بكْرة ، فقال عمر : لا حتّى تشهد أنّك رأيته يَلِج فيها ولوجَ المِرْود فى المكحلة ، قال : نعم ، حتى بلغ قُذَذه (١) فقال: اذهب عنك مغيرة، ذهب نصفُك ، ثم دعا الثالث وهو شِبْل بن معبد ، فقال : علام تشهد ؟ قال : عَلَى مثل شهادة صاحبىّ ، فقال : اذهب عنك مغيرة ، ذهب ثلاثةُ أرباعك .قال :فجعل المغيرة يبكى إلى المهاجرين ، وبكى إلى أمّهات المؤمنين حتى بكيْن معه ، قال : ولم يكن زيادٌ حضر ذلك المجلس ، فأمر عمر أن ينحَّى الشهود الثلاثة ، وألّا يجالسهم أحدٌ من أهل المدينة ، وانتظر قدومَ زياد ، فلمّا قدم جلس فى المسجد ، واجتمع رءوس المهاجرين والأنصار . قال المغيرة : وكنت قد أعددت كلمةً أقولها ، فلمّا رأى عمر زيادا مقبلاً ،قال: إنّى لأرَى رجلاً لن يخزىَ الله على لسانه رجلاً من المهاجرين .

---

(١) قذذه : جمع قذة ؛ وهى جانب الخباء.

قال أبو الفرج : وفى حديث أبى زيد بن عمر بن شبّة ؛ عن السرىّ ، عن عبد الكريم ابن رشيد ، عن أبى عثمان النّهدىّ ، أنه لما شهد الشاهد الأول عند عمر ؛ تغيّر الثالث لذلك لونُ عمر ، ثم جاء الثانى فشهد ، فانكسر لذلك انكساراً شديدا ، ثم جاء فشهد ، فكأنّ الرّماد نُثر على وجه عمر ، فلمّا جاء زياد ، جاء شابٌّ يخطِر بيديه ، فرفع عمر رأسه إليه وقال : ما عندك أنت ياسَلْح العُقاب - وصاح أبو عثمان النهدىّ صيحةً تحكى صيحة عمر - قال عبد الكريم بن رشيد : لقد كدتُ أن يُغشى علىّ لصيحته .

قال أبو الفرج : فكان المغيرة يحدّث ، قال : فقمتُ إلى زياد ، فقلت : لا مخبأ لعِطْرٍ بعد عَرُوس يازياد ، أذكّرك اللهَ وأذكّرك موقفَ القيامة وكتابه ورسوله ، أن تتجاوز إلى مالم ترَ !! ثم صحت : ياأمير المؤمنين إنّ هؤلاء قد احتقروا دمى فاللهَ اللهَ فى دمى ! قال : فترنّقت عينا زياد واحمرّ وجهه ، وقال : ياأمير المؤمنين ، أما إنّ أحقّ ما حقّ القوم ، فليس عندى ، ولكنى رأيت مجلساً قبيحا ، وسمعت نَفَساً حثيثا ، وانبهارا ، ورأيته متبطّنها ، فقال عمر : أرأيته يدخِل ويخرج كالميل فى المكحلة ؟ قال : لا !

قال أبو الفرج : وروى كثير من الرواة أنه قال : رأيته رافعاً برجليها ، ورأيت خُصيتيه متردّدتين بين فخذيها ، وسمعت حَفْزاً شديداً ، وسمعت نفَساً عاليا ؛ فقال عمر : أرأيتَه يدخله ويخرجه كالميل فى المكحلة ؟ قال : لا ، فقال عمر : الله أكبر ! قم يامغيرة إليهم فاضْربهم ، فجاء المغيرة إلى أبى بكْرة فضربه ثمانين وضرب الباقين .

وروى قومٌ أن الضارب لهم الحدّ لم يكن المغيرة ، وأعجب عمر قولُ زيادٍ ، ودرأ الحدّ عن المغيرة ، فقال أبو بكرة بعد أن ضُرِب : أشهد أنّ المغيرة فَعَل كذا وكذا ! فهمّ عمر بضربه ، فقال له علىّ عليه السلام : إنْ ضربته رجمت صاحبَك ! ونهاه عن ذلك .

قال أبو الفرج : يعنى إنْ ضربه تصير شهادته شهادتين ، فيوجب بذلك الرّجمَ على المغيرة .

قال : فاستتاب عمر أبا بكْرة ، فقال : إنّما تستتيبنى لتقبل شهادتى ، قال : أجل ! قال : فإنّى لاأشهد بين اثنين مابقيتُ فى الدنيا ! قال : فلمّا ضُرِبوا الحدّ قال المغيرة : اللهأكبر ، الحمد لله الذى أخزاكم ! فقال عمر : اسكت أخزى الله مكانا رأوْكَ فيه !

قال : وأقام أبو بكْرة على قوله ، وكان يقول : والله ماأنسى قط فخذيْها ، وتاب الاثنان ، فقبل شهادتهما ، وكان أبو بَكْرة بعد ذلك إذا طُلب إلى شهادة قال : اطلبوا غيرى ، فإنّ زياداً أفسد علىّ شهادتى .

وقال أبو الفرج : وروى إبراهيم بن سعيد ، عن أبيه ، عن جده ، قال : لما ضُرِب أبو بكرة أمرت أمّه بشاة فذبحت وجعل جِلْدَها على ظهره ، قال إبراهيم : فكان أبى يقول : ماذاك إلّا من ضربٍ شديد .

قال أبو الفرج : فحدّثنا الجوهرىّ ، عن عمرِ بن شبّة ، عن علىّ بن محمد عن يحيى بن زكريا ، عن مجالد ، عن الشعبىّ ، قال : كانت الرقطاء التى رُمِى بها المغيرة تختلف إليه فى أيّام إمارته الكوفة ، فى خلافة معاوية فى حوائجها ، فيقضيها لها .

قال أبو الفرج : وحجّ عمر بعد ذلك مَرّةً ، فوافق الرقطاء بالموسم ، فرآها ، وكان المغيرة يومئذ هناك ، فقال عمر للمغيرة : ويحك ! أتتجاهل علىّ ! والله ماأظنّ أبا بكْرة كَذَب عليك ، وما رأيتكَ إلّا خفت أن أرمى بحجارة من السماء !

قال : وكان علىّ عليه السلام بعد ذلك يقول : إن ظفرتُ بالمغيرة لأتبعتُه الحجارة.

قال أبو الفرج : فقال حَسّان بن ثابت يهجو المغيرة ويذكر هذه القصّة :

لو انّ اللؤمَ ينسَبُ كان عبداً ... قبيحَ الوجه أعورَ من ثقيفِ

تركتَ الدين والإســلام لمّا بدت لك غُدْوة ذاتُ النّصيفِ
وراجعت الصِّبا وذكرت لهواً[1] مع القَيْنات فى العُمْرِ اللّطيف

قال أبو الفرج : وروى المدائنىّ أنّ المغيرة لمّا شخص إلى عمر فى هذه الوقعة ، رأى فى طريقه جاريةً فأعجبتــه ، نخطبها إلى أبيها ، فقال له : وأنت على هــذه الحال ! قال : وما عليك ! إن أبْقَ[2] فهو الذى تريد ، وإن أقتل ترِثْنِي . فزوّجه .

وقال أبو الفرج : قال الواقدىّ : كانت امرأة من بنى مُرّة ، تزوّجها بالرَّقم[3] ، فلمّا قدِم بها على عُمر ، قال : إنك لفارغ القلب ، طويل الشَّبَق .

فهذه الأخبــار كما تراها تدلّ متأمّلها على أنّ الرجل زَنَى بالمرأة لامحالة ، وكلّ كتب التواريخ والسِّيَر تشهد بذلك ، وإنما اقتصرنا نحنُ منها على مافى هذين الكتابين .

وقد روى المدائنىّ أنّ المغيرة كان أزنى الناس فى الجاهليّة ، فلمّا دخــل فى الإسلام قيّده الإسلام ، وبقيتْ عنده منه بقية ظهرت فى أيام ولايته البصرة .

وروى أبو الفرج فى كتاب الأغانى عن الجاحظ أبى عثمان عمرو بن بحر ، قال : كان المغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وجَرير بن عبد الله البجَلىّ يوما متواقفين بالكُناسة فى نفر ، وطلع عليهم أعرابىّ ، فقال لهم المغيرة : دعونى أحرّكه ، قالوا : لاتفعل ، فإنّ للأعراب جواباً يُؤْثَر ، قال : لابدّ ، قالوا : فأنت أعلم ، فقال له : ياأعرابىّ ، أتعرف المغيرة ابن شعبة ؟ قال : نعم أعرفه ، أعورَ زانيا ، فوجَم ثمّ تجلّد ، فقال : أتعرف الأشعث بن قيس ؟ قال : نعم ذاك رجــل لايعْرَى قومه ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّهم حاكة . قال : فهل تعرف جرير بن عبد الله ؟ قال : كيف لاأعرف رجلاً لولاه ماعرفت عشيرته ! فقالوا : قبّحك الله ، فإنك شرّ جليس ، هل تحبّ أن يُوقَر لك بعيرُك هذا مالًا وتموت

(١) الأغانى : « عهد » . (٢) الأغانى : « أعف » .
(٣) الرقم : موضع بالحجاز قريب من وادى القرى .

كرم العرب موتة ؟ قال : فمن يبلّغه إذن أهلي ؟ فانصرفوا عنه فتركوه [١] .

قال أبو الفرج : وروى عليّ بن سليمان الأخفش ، قال : خرج المغيرة بن شعبة وهو يومئذ على الكوفة ، ومعه الهيثم بن التّيهان النّخَعِيّ غِبّ مطر يسير ، في ظهر الكوفة والنّجَف ؛ فلقي ابن لسان الحُمّرة ، أحد بني تيم الله بن ثعلبة ، وهو لا يعرف المغيرة ولا يعرفه المغيرة ، فقال له : من أينَ أقبلت يا أعرابيّ ؟ قال : من السّماوة ؟ قال : كيف تركتَ الأرض خلفك ؟ قال : عريضة أريضة [٢] ، قال : فكيف كان المطر ؟ قال : عَفّى الأثر ، وملأ الحُفَر ، قال : فمن أنتَ ؟ قال : من بكر بن وائل ، قال : كيف علمك بهم ؟ قال : إن جهلتهم لم أعرف غيرَهم ، قال : فما تقول في بني شيبان ؟ قال : سادتنا وسادة غيرنا ، قال : فما تقول في بني ذُهْل ؟ قال : سادة نَوْكَى ، قال : فقيس بن ثعلبة ؟ قال : إن جاورتَهم سرقوك ، وإن ائتمنتهم خانوك ، قال : فبنو تَيْم الله بن ثعلبة ؟ قال : رعاء النَّقَد [٣] وعراقيب الكلاب ، قال فبني يَشْكُر ؟ قال : صريح تحسبُه مولًى .

قال هشام بن الكلبي : لأنّ في ألوانهم حُمرة . قال : فعِجْل ؟ قال : أحلاس [٤] الخيل ، قال : فعبد [٥] القيس ؟ قال : يطعمون الطّعام ويضربون الهام ، قال : فعَنَزة ؟ قال : لا تلتقي بهم الشفتان لؤما ، قال : فضُبَيعة أضجَم ؟ قال : جَدْعاً وعَقْرا [٦] ! قال : فأخبرني عن النّساء ، قال : النساء أربع : ربيع مُرْبِع ، وجميع مجمع ، وشيطان سَمَعْمَع ، وغلّ لا يخلَع ، قال فَسِّر ، قال : أما الربيع المربع ، فالّتي إذا نظرتَ إليها سرّتك ، وإذا أقسمْت عليها برّتك ، وأما التي هي جَميع مجمع ، فالمرأة تتزوّجها ولها نسب فيجتمع نسبها إلى نسبك ، وأما الشيطان السَّمعمع فالكالحة في وجهك إذا دخلْت ، المولولة في أثرك

---

(١) الأغاني ١٦ : ٨٩ .
(٢) الأريضة : المعشبة .
(٣) النقد : صغار الغنم ، وفي الأغاني : « البقر » .
(٤) أحلاس الخيل : شجعان فرسان ملازمون لركوب الخيل .
(٥) الأغاني : « لحنيفة » .
(٦) دعا عليهم بالجدع والعقر ؛ يريد أصابهم الاستئصال .

إذا خرجت ، وأما الغُلّ الذى لا يُخلع ؛ فبنت عمّك السّوداء القصيرة ، الفوهاء الدّميمة ، التى قد نثرت لك بطنها ، إن طلقتها ضاع ولدُك ، وإن أمسكتها فعلى جَدْع أنفك. قال(١) المغيرة : بل أنفُك . قال : فما تقول فى أميرك المغيرة بن شعبة ؟ قال : أعور زانٍ ، فقال الهيثم بن الأسود : فضّ الله فاك ! ويلك إنه الأمير المغيرة ! قال : إنها كلمة تقال . فانطلق به المغيرة إلى منزله ، وعنده يومئذ أربع نسوة وستّون ـ أو سبعون ـ أمَة ، وقال : ويحك! هل يزنى الحرّ وعنده مثل هؤلاء ! ثم قال لهنّ : ارمين إليه بحُليكنّ(٢) ، ففعلن؛ فخرج بملء كسائه ذهبا وفضة(٣) .

وإنما أوردنا هذين الخبرين ليعلم السامع أنّ الخبر بزناه كان شائعاً مشهورا مستفيضاً بين الناس ، ولأنهما يتضمّنان أدبا ، وكتابنا هذا موضوع للأدب .

وإنما قلنا : إن عمر لم يخطئ فى دَرْء الحدّ عنه ، لأن الإمام يستَحبُّ له ذلك ، وإن غلب على ظنّه أنه قد وجب الحدّ عليه ، روى المدائنىّ أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السلام أتِىَ برجلٍ قد وجب عليه الحدّ ، فقال : أهاهنا شهود ؟ قالوا : نعم ، قال : فأتونى بهم إذا أمسيتم ، ولا تأتونى إلّا معتمين ، فلمّا أعتموا جاءوه ، فقال لهم : نشدت الله رجلاً مالى عنده مثل هــذا الحدّ إلا انصرف ! قال : فما بَقِىَ منهم أحدٌ . فدرأ عنه الحدّ

ذكر هذا الخبر أبو حيّان فى كتاب "البصائر" فى الجزء السادس منه .

والخبر المشهور الّذى كاد يكون متواتراً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ادرءوا الحدود بالشبُهات » . ومَنْ تأمّل المسائل الفقهيّة فى باب الحدود ، علم أنها بنيتْ على الإسقاط عند أدنى سببٍ وأضعفه ، ألا ترى أنه لو أقرّ بالزنا ثم رجع عن إقراره قبل إقامة الحدّ ، أو فى وسطه قُبِل رجوعه وخلّى سبيله !

---

(١) الأغانى : «فقال» (٢) الأغانى : « بحلاكنّ » (٣) الأغانى ١٦ : ٩٠ ، ٩١ .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يستحبّ للإمام أن يلقّن المقرّ الرجوع ، ويقول له : تأمّل ماتقول ، لعلك مَسَسْتها ، أو قبّلتها . ويجب على الإمام أن يسأل الشهود : ماالزنا؟وكيف هو ؟ وأين زنى ؟ وبمن زنى ؟ ومتى زنى ؟ وهل رأوه وطئها فى فَرْجها كالميل فى المكْحُلة؟ فإذا ثبت كلّ ذلك سأل عنهم ، فلا يقيم الحدّ حتى يعدّلهم القاضى فى السرّ والعلانية، ولا يقام الحدّ بإقرار الإنسان على نفسه ، حتى يقرّ أربعَ مرات فى أربعة مجالس ، كلما أقرّ ردّه القاضى ، وإذا تمّ إقراره سأله القاضى عن الزّنا ؟ ماهو ؟ وكيف هو ؟ وأين زنى؟ وبمن زنى ؟ ومتى زنى ؟

قال الفقهاء : ويجب أن يبتدئ الشهود برجمه إذا تكاملت الشهادة ، فإن امتنعوا من الابتداء برجْمه سقط الحدّ .

قالوا : ولا حدّ على مَنْ وطِئ جارية ولده ، أو ولد ولده ، وإن قال : علمت أنها علَىّ حرام ، وإن وطئ جارية أبيه أو أمّه أو أخته ، وقال : ظننت أنها تحلّ لى فلا حدّ عليه، ومَنْ أقرّ أربعَ مرات فى مجالسَ مختلفة بالزّنا بفلانة ، فقالت هى : بل تزوّجنى ، فلا حدّ عليه ، وكذلك إن أقرّت المرأة بأنّه زنى بها فلانٌ ، فقال الرجل: بل تزوّجتها ، فلا حدّ عليهما ، قالوا : وإذا شَهِد الشهود بحدّ متقادم من الزّنا لم يمنعهم عن إقامته بعدُهم عن الإمام ، لم تقبل شهادتهم إذا كان حدّ الزنا ، وإن شهدوا أنه زنى بامرأة ولا يعرفونها لم يحدّ ؛ وإن شهد اثنان أنّه زنى بامرأة بالكوفة ، وآخران أنه زنَى بالبصرة دُرِئ الحدُّ عنهما جميعاً ، وإن شهد أربعة على رجل أنه زنى بامرأة بالنُّخَيلة عند طلوع الشمس من يوم كذا وكذا ، وأربعة شهدُوا بهذه المرأة عند طلوع الشمس ذلك اليوم بدير هند دُرِئ الحدّ عنه وعنها وعنهم جميعا ، وإن شهد أربعة على شهادة أربعة بالزنا لم يحدّ المشهود عليه .

وهذه المسائل كلُّها مذهب أبي حنيفة ، ويوافقه الشافعيّ فى كثير منها ،ومَنْ تأمّلها علم أنّ مبنى الحدود على الإسقاط بالشبهات ، وإن ضعفت .

فإن قلت : كلّ هذا لا يلزم المرتضى ، لأن مذهبه فى فروع الفقه مخالف لمذهب الفقهاء. قلت : ذكر محمد بن النعمان — وهو شيخ المرتضَى ، الذى قرأ عليه فقه الإماميّة — فى كتاب «المقنعة» ، أن الشهود الأربعة إن تفرقوا فى الشهادة بالزنا ولم يأتوا بها مجتمعين فى وقت فى مكانٍ واحد ، سقط الحدّ عن المشهود عليه ، ووجب عليهم حدّ القذف .

قال : وإذا أقرّ الإنسان على نفسه بالزنا أربعَ مرات على اختيارٍ منه للإقرار وجب عليه الحدّ ، وإن أقرّ مرّة أو مرّتين أو ثلاثا لم يجبْ عليه الحدّ بهذا الإقرار ، وللإمام أن يؤدّبه بإقراره على نفسه حسب مايراه ، فإن كان أقرّ على امرأة بعينها جُلد حدّ القذف .

قال : وإن جعل فى الحفرة ليرجَم وهو مقرٌّ على نفسه بالزنا ففرّ منها ، ترك ولم يردّ ، لأن فِراره رجوعٌ عن الإقرار ، وهو أعلم بنفسه .

قال : ولا يجب الرّجم على المحصَن الذى يعدّه الفقهاء محصَنًا ، وهو من وطىء امرأة فى نكاحٍ صحيح ، وإنما الإحصان عندنا مَنْ له زوجة أو مِلْك يمينٍ يستغنِى بها عن غيرها ، ويتمكّن من وطئها ، فإن كانت مريضَة لا يصل إليها بنكاح ، أو صغيرة لا يوطأ مثلها ، أو غائبة عنه أو محبوسة لم يكن محصَنًا بها ، ولا يجب عليه الرّجم .

قال : ونكاح المتْعة لا يحصِّن عندنا ، وإذا كان هذا مذهب الإماميّة ؛ فقد اتّفق قولهم وأقوال الفقهاء فى سقوط الرّجم بأدنى سبب ، والذى رواه أبو الفرج الأصفهانى : إن زيادا لم يحضر فى المجلس الأول ، وأنه حضر فى مجلس ثانٍ ، فلعلّ إسقاط الحدّ كان لهذا .

ثم نعود إلى تصفّح مااعترض به المرتضى كلام قاضى القضاة .

أما قوله : كان الحدّ فى حكم الثابت ، فإن الله تعالى لم يوجب الحدّ إلا إذا كان ثابتا ،ولم يوجبه إذا كان فى حكم الثابت ، ويسأل عن معنى قوله: «فى حكم الثابت» :هل المراد بذلك أنه قريب من الثّبوت ، وإن لم يثبت حقيقة ، أم المراد أنه قد ثبت وتحقق ؟ فإن أراد الثانى ،قيل له : لا نُسلّم أنه ثبت ، لأن الشهادة لم تتمّ ، وقد اعترف المرتضى بذلك،وأقرّ بأن الشهادة لم تـكمُل ، ولـكنه نسب ذلك إلى تلقين عمر ، وإن أراد الأوّل قيل له : ليس يكفى فى وجوب الحدّ أن يكون قريباً إلى الثبوت ؛ لأنه لو كفى ذلك لحـدّ الإنسانُ بشهادة ثلاثة من الشهود .

وأما قوله : إنّ عمر لقّنه وكره أن يشهد ، فلا ريب أنّ الأمر وقع كذلك،وقد قلنا: إنّ هذا جائز بل مندوب إليه ، وروينا عن أمير المؤمنين ما رويناه ، وذكرنا قول الفقهاء فى ذلك وأنهم استحبُّوا أن يقول القاضى المقرّ بالزنا : تأمّل ماتقوله ، لعلك مسستَهـا أو قبّلتها !

فأما قول المرتضى :إنه درأ الحدّ عن واحد ، وكان درؤه عن ثلاثة أوْلى ؛ فقد أجاب قاضى القضاة عنه بأنّه ما كان يمكن دفعه عنهم .

فأما قول المرتضى : بل قد كان يمكن دفعه عنهم ، بألّا يلقّن الرّابع الامتناع من الشهادة ، فقد أجاب قاضى القضاة عنه : بأنّ الزّنا ووسْم الإنسان به أعظم وأشنعُ وأفحشُ من أن يوسَم بالـكذب والافتراء ، وعقوبة الزانى أعظم من عقوبة الـكاذب القاذف عند الله تعالى فى دار التّـكليف ، يبيّن ذلك أنّ الله تعالى أوجبَ جلْد ثلاثة من المسلمين ، لتخليص واحد شهد الثلاثةُ عليه بالزّنا ، فلو لم يكن هذا المعنى ملحوظاً فى نظر الشّارع لما أوجبه ، فـكيف يقول المرتَضى : ليس لأحدِ الأمرين إلّا مافى الآخر !

وأما خبرُ السارق الذى رَواه قاضى القضاة ، وقول المرتَضى فى الاعتراض عليه: ليس فى دفع الحدّ عن السارق إيقاع غيره فى المـكروه ، وقِصّة المغيرة تخالف هذا ، فليس بجيّد

لأنّ فى دفع الحدّ عن السارق إضاعة مال المسلم الذى سرق السارق فى زمانه . وفيه أيضاً إغراء أهل الفساد بالسَّرِقة ؛ لأنّهم إذا لم يقم الحدّ عليهم لمكان الجحود أقدموا على سرِقة الأموال ، فلو لم يكن عناية الشارع بالدماء أكثر من عنايته بغيره من الأموال والأبشار لما قال المكلّف : لاتقرّ بالسرقة ولا بالزنا ، ولما رجّح واحدا على ثلاثة ، وهان فى نظره أن تضرَب أبشارهم بالسّياط ، وهم ثلاثة حفظا لدم واحد .

وأمّا حديثُ صَفْوان وقول المرتضَى فلا يشبه كلّ مانحن فيه ، لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله بيّن أن ذلك القوْل يسقط الحدّ لو تقدم ، وليس فيه تلقين يوجب إسقاط الحدّ.

فجوابه أنّ قاضى القضاة لم يقصد بإيراد هذا الخبر إلّا تشييدَ قول عمر : أرى وجهَ رجلٍ لايفضح الله به رجلاً من المسلمين ؛ لأن عمر كرِه فضيحة المغيرة ، كما كره رسول الله صلى الله عليه وآله فضيحة السارق الذى قال صفوان : « هو له » ، وقال عليه السلام : « هلّا قبل أن تأتينى به ! » أى هلاّ قلتَ ذلك قبل أن تحضره ، فلم يفتضح بين الناس ! فإنّ قولك : « هو له » ، وإن درأ الحدّ إلّا أنّه لايدرأ الفضيحة !

فأمّا ماحكاه قاضى القُضاة عن أبى علىّ ، من أن القذف قد كان تقدّم منهم وهم بالبصرة ، فقد ذكرنا فى الخبر مايدلّ على ذلك ، فبطل قول المرتضى : إن ذلك غير معروف ، وإنّ الظاهر المروىّ خلافه .

وأما قول عمر المغيرة : مارأيتُكَ إلّا خفت أن يرميَنى الله بحجارة من السماء ؛ فالظاهر أنّ مراده ماذكره قاضى القضاة من التّخويف وإظهار قوة الظنّ بصدق الشهود ، ليكونَ ردْعاً له ؛ ولذلك وَرَد فى الخبر : ماأظنّ أبا بَكْرة كذب عليك ، تقديره : أظنّه لم يكذب ، ولو كان كما قال المرتضى ندما وتأسّفا على تفريط[1] وقع ، لأقام الحدّ عليه ، ولو بعد حين ؛ ومَن الّذى كان يمنعه من ذلك لو أراده !

---

(١) ساقطة من : ب .

وقوله : لِمَ يخافُ أن يرمَى بالحجارة وهو لم يدرأ الحدّ عن مستحق له ؟ جوابه أنّ هـذا القول يجرى مجرى التّهويل والتخويف للمغيرة ، كيلا يقدم على أن يعرّض نفسه لشبهة فيما بعد .

فأما قول قاضى القضاة : إنّه غيرُ ممتنع أن يحبّ ألّا يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قِبَله ، وقول المرتضى معترضا عليه : إن كونه والياً من قِبَله لا يقتضى أن يدرأ عنه الحدّ ، فغير لازم ، لأنّ قاضى القضاة ماجعل كونه واليا من قِبَله مقتضيا أن يدَرأ عنه الحدّ ؛ وإنما قاله فى جواب مَنْ أنكر على عمر محبّته لدرء الحدّ عنه ، فقال : إنه غير قبيح ، ولا يحرم محبّة درء الحدّ عنه لأنه والٍ من قِبَله ! فجعل الولاية للبصرة مسوّغة لمحبّة عمر لدفع الحدّ عنه ، لا مسوّغة لدفع الحدّ عنه ، وبين الأمرين فرق واضح .

وأما قول المرتضَى : إنّ الشرع حَظَر كتمان الشهادة ؛ فصحيح فيما عدا الحدود ، فأما فى الحدود فلا ، وقد وَرَد فى الخبر الصحيح : « مَنْ رأى على أخيه شيئا من هذه القاذورات وستر ، ستره الله يوم يفتضح المجرمون » .

فأما قول المرتضَى : هب أنّ الحدّ سقط ، أمَا اقتضت الحال تأديبَ المغيرة بنوع من أنواع التعزير وإن خفّ ! فكلام لازم لا جواب عنه ، ولو فعله عمر لبرِئ من التّهمة براءة الذئب من دم يوسف ، وما أدرى كيف فاته ذلك مع تشدّده فى الدين وصلابته فى السياسة ! ولعله كان له مانع عن اعتماد ذلك لا نعلمه !

***

الطعن السابع

أنه كان يتلوّن فى الأحكام ، حتى رُوِى أنّه قضَى فى الجدّ بسبعين قضيّة — ورُوِى

مائة قضيّة ــ وأنّه كان يفضّل في القسمة والعطاء وقد سوّى الله تعالى بين الجميع ، وأنه قال في الأحكام من جهة الرأى والحدْس[1] والظنّ .

أجاب قاضي القضاة عن ذلك ، فقال : مسائل الاجتهاد يسوغ فيها الاختلاف والرجوع عن رأى إلى رأى ، بحسَب الأمارات وغالب الظنّ ، وقد[2] ذكر أنّ ذلك طريقة أمير المؤمنين عليه السلام في أمّهات الأولاد ، ومقاسمة الجدّ مع الإخوة ، ومسألة الحرام .

قال : وإنما الكلام في أصل القياس والاجتهاد ، فإذا ثبت ذلك خرج من أن يكون طعناً ، وقد ثبت أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يولّى من يرى خلاف[3] رأيه ، كابن عباس وشُريح ، ولا يمنع زيدا وابن مسعود من الفُتْيا مع الاختلاف بينه وبينهما .

فأما ما رُوِى من السبعين قضيّة ، فالمراد به في مسائل من الجدّ ، لأنّ مسألة واحدة لا يوجَد فيها سبعون قضيّة مختلفة ؛ وليس في ذلك عيْب، بل يدلّ على سعَة علمه .

وقال : قد صحّ في زمانِ الرسول صلى الله عليه وآله مثلُ ذلك ، لأنّه لمّا شاور في أمر الأسرى أبا بكر أشار ألّا يقتلهم ، وأشار عمر بقتلهم ، فمدحهما جميعا ، فما الذى يمنع من كون القولين صوابا من المجتهديْن ، ومن الواحد في حالَيْن ؟

وبعد ، فقد ثبت أنّ اجتهاد الحسن عليه السلام في طلب الإمامة كان بخلاف اجتهاد الحسين عليه السلام ، لأنّه سلّم الأمر وتمكُّنه أكثرُ من تمكّن الحسين عليه السلام ، ولم يمنع ذلك من كونهما عليهما السلام مُصيبيْن .

---

(١) في الأصول : « الحدّ » ، والصواب ما أثبته من الشافى .

(٢) الشافى : « وادّعى أن ذلك طريقة أمير المؤمنين » .

(٣) الشافى : « خلافه » .

اعترض المرتضَى هذا الجواب ، فقال[1] : لا شكّ أنّ التلوّن فى الأحكام والرجوع من قضاء إلى قضاء ، إنما يكون عَيْباً وطعنا إذا أبطِل الاجتهاد الذى يذهبون إليـه فأمّا لو ثبت لم يكن ذلك عيبا ، فأما الدعوى على أمير المؤمنين عليه السلام أنه تنقّل فى الأحكام ورجع مِنْ مذهب إلى آخر ، فإنها غيرُ صحيحة ، ولا نسلّمه ،[2] ونحن ننازعه فيها[2]، وهو لا ينازعنا فى تلوّن صاحبِه وتنقّله ؛ فلم يشتبه الأمران .

وأظهرُ مارُوِى فى ذلك خَـبَرَ أمّهات الأولاد ، وقد بينا فيما سلف من الـكتاب مافيه ؛ وقلنا : إنّ مذهبه فى بيعهنّ كان واحدا غير مختلف ، وإن كان قد وافق عمر فى بعض الأحوال لضربٍ من الرّأى ، فأمّا توليتُه لمن يرى خلاف رأيه ، فليس ذلك لتسويغه الاجتهاد الذى يذهبون إليه ، بل لما بينّاه من قبل ؛ أنّه عليه السلام كان غير متمكّن من اختياره ، وأنّه يجرى أكثر الأمور مجراها المتقدّم للسياسة والتدبير ، وهذا السّبب فى أنّه لم يمنع مَنْ خالفه فى الفُتيا .

فأما قوله : إنّ السّبعين قضيّة لم تـكن فى مسألة واحدة ، وإنّما كانت فى مسائل من الجدّ ؛ فـكلا الأمرين واحد فيما قصدناه ، لأنّ حكم الله تعالى لا يختلِف فى المسألة الواحدة والمسائل ، فأمّا أمرُ الأسارَى فإنْ صحّ فإنّه لا يشبه أحكام الدين المبنية على العلم واليقين ، لأنّه لا سبيلَ لأبى بكر وعمر إلى المشورة فى أمر الأسارى إلّا من طريق الظنّ والحُسْبان، وأحكامُ الدين معلومة وإلى العلم بها سبيل .

وما ادّعاه من اجتهاد الحسن بخلاف اجتهاد الحُسين ليس على ماظنّه ، لأنّ ذلك لم يكن عن اجتهاد وظنّ ، بل كان عن علمٍ ويقين ، فمن أين له أنهما عملا على الظّن ! فما نراه اعتمد على حُجّة ! ومن أينَ له أنّ تمكُّنَ الحسَن كان أكثر من تمـكّن الحسين!

---

(١) الشافى : « يقال له » .   (٢-٢) الشافى : « ونحن ننازعه فى ذلك كلّ النزاع ، وندفعه إلى دفعه أشدّ الدفع ؛ وهو لا ينازعنا فى تلون صاحبه فى الأحكام ، فلم يشتبه الأمران » .

عَلَى أنّ هذا لو كان عَلَى ماقاله لم يحسن من هذا التّسليم ومن ذاك القتال، لأنّ المقاتل قد يكون مغرّرا مُلقياً بيديْه إلى التّهلكة، والمسالم مضيّعا للأمر مفرّطا، وإذا كان عند صاحب الكتاب التّسليم والقتال إنّما كانا عن ظنّ وأمارات فليس يجوز أن يغلب على الظنّ بأنّ الرأى فى القتال مع ارتفاع أمارات التّمكين، ولا أن يغلب فى الظنّ المسالمة مع قوّة أمارات التمكن (١).

* * *

قلت : أمّا القولُ فى صحّة الاجتهاد وبطلانه، فله مواضع غير هذا الموضع، وكذلك القول فى تقيّة الإمام واستصلاحه وفعله مالا يسوغ لضرب من السّياسة والتدبير.

وأمّا مسائل الجدّ فلم يعترض المرتضى قولَ قاضى القضاة فيها، وأمّا قاضى القُضاة فقد استبعد، بل أحال أن تكون مسألة واحدة بعينها تحتمل سبعين حُكْما مختلفة، فحمل الحديث على أنّ عُمر أفتى فى باب ميراث الأجداد والجدّات بسبعين فتيا فى سبعين مسألة مختلفة الصّور، وذلك دليل على علمه وفقهه، وتمكّنه من البحث فى تفاريع المسائل الشرعية.

هذا هو جواب قاضى القضاة، فكيف يعترض بقوله : كلا الأمرين واحد فيما قصدناه ؛ لأن حكم الله لا يختلف فى المسألة الواحدة والمسائل المتعددة ؟ أليس هذا اعتراض مَنْ ظَنّ أنّ قاضى القضاة قد اعترض بتناقص أحكامه، ولكن لافى مسألة بعينها، بل فى مسائل من باب ميراث الجدّ ! ولم يقصد قاضى القضاة ماظنّه، والوجه أن يعترض قاضى القضاة فيقال : إنّ الرّواة كلّهم اتفقوا على أنّ عمر تلوّن تلونا شديدا فى الجدّ مع الإخوة كيف يقاسمهم ؟ وهى مسألة واحدة، فقضى فيها بسبعين قضيّة، فأخرجوا الرواية مخرج التعجّب من تناقض فتاويه، ولم يخرج أحدٌ من المحدّثين الرواية مخرج المدح له بسعة تفريعه فى الفقه والمسائل، فلا يجوز صرفُ الرّواية عن الوضع الذى وردت عليه.

---

(١) الشافى ٣ : ٢٥٤ .

وقول قاضى القضاة : كيف تحتمل مسألة واحدة سبعين وجها ! جوابه أنّه لم يقع الأمر بموجب ماتوهّمه ، بل المراد أنّ قوماً تحا كموا إليه فى هذه المسألة مثلا اليوم ، فأفتى فيها بفُتيا ، نحو أن يقول فى جدّ وبنت وأخت : للبنْت النّصف والباقى بين الجدّ والأخت ؛ للذّكر مثل حظ الأنثيين ، وهو قول زيد بن ثابت ، ثم يتحاكم إليه بعد أيام فى هـذه المسألة بعينها ، قد وقعت لقوم آخرين ، فيقول : للبنت النصف وللجدّ السدس ، والباقى للأخت ، وهوالمذهب المحكىّ عن علىٍّ عليه السلام ، وذلك بأن يتغلّب على ظنّه ترجيحُ هذه الفُتيا على ما كان أفتى به من قبل ، ثم تقع هـذه المسألة بعينها بعد شهر آخر ، فيفتى فيها بفتيا أخرى ، فيقول : للبنت النصف والباقى بين الجدّ والأخت نصفيْن ، وهو مذهب ابن مسعود ، ثم تقع المسألة بعينها بعد شهر آخر ، فيقضى فيها بالفُتْيا الأولى ، وهى مذهب زيد ، بأنْ يعود ظنّه مترجّحاً متغلّبا لمذهب زيد ، ثم تقع المسألة بعينها بعد وقت آخر ، فيفتى فيها بقول علىٍّ عليه السلام ، وهكذا لاتزال المسألة بعينها تقع ، وأقواله فيها تختلف ، وهى ثلاثة لامزيد عليها ، إلّا أنه لايزال يفتى فيها فتاوَى مختلفة ، إلى أن توفّىَ فأحصيت ؛ فكانت سبعين فتيا .

فأمّا احتجاجُ قاضى القضاة بقصّة أسرى بدر فجّيد ، وأمّا ما اعـترض به المرتضى فليس بجيّد ؛ لأن المسألة من باب الشّرع ، وهو قتل الأسرى أو تخليتهم بالفداء ، والقتْل وإراقة الدّم من أهم المسائل الشرعية ، وقد علم من الشّارع شدّة العناية بأمر الدّنيا ، فإن كانت أحكام الشرع لايجوز أن تتلقّى ، وأن يفتى فيها إلا بطريق معلومة ، وأنّ الظنّ والاجتهاد لامدخلَ له فى الشّرع — كما يذهب إليه المرتَضى — فكيف جازَ مِن رسول الله صلى الله عليه وآله أنْ يشاورَ فى أحكام شرعيّة مَنْ لاطريق له إلى العلم ، وإنّما قصارَى أمره الظنّ والاجتهاد والحسبان ! وكيف مدحهما جميعاً ، وقد اختلفا ، ولابد أن يكون أحدهما مخطئاً !

وأما قول المرتضَى : مِنْ أينَ لقاضى القُضاة أنّ ما اعتمدَه الحسنُ والحسين من الكفّ والإقدام كان عن الاجتهاد ! فجيّد ، وجواب صحيح على أصول الإماميّة؛ لأنه ليس بمستحيل أن يعتمدا ذلك بوصيّة سابقة من أبيهما عليهما السلام .

وأما قوله لقاضى القضاة : كلامُك مضطرب ، لأنك أسندت ما اعتمداه إلى الاجتهاد، ثم قلت : وقد كان تمكُّن الحسن أكثر من تمكن الحسين عليه السلام ، وهذا يؤدِّى إلى أنّ أحدهما غرّر بنفسه والآخر فرّط فى تسليم حَقِّه؛ فليس بجيّد. والذى أراده قاضى القضاة الدلالة على جواز الاجتهاد ، وأنه طريقة المسلمين كلهم ؛ وأهل البيت عليهم السلام ، وأومَأ إلى ما اعتمده الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية ، وما اعتمده الحسين من مُنازعة يزيد الخلافة ، فعمِلا فيها بموجب اجتهادهما ، وما غلَب على ظنونهما من المصلحة ؛ وقد كان تمكن الحسن عليه السلام فى الحال الحاضرة أكثر من تمكن الحسين عليه السلام فى حالِه الحاضرة ، لأن جند الحسن كان حوله ومُطيفاً به — وهم كما روى مائة ألف سيف — ولم يكن مع الحسين عليه السلام ممّن يحيط به ويسير بمسيره إلى العراق إلا دون مائة فارس؛ ولكن ظنهما فى عاقبة الأمر ومستقبل الحال كان مختلفاً ، فكان الحسن يظنّ خذلان أصحابه عند اللقاء والحرب ، وكان الحسين عليه السلام يظنّ نُصرة أصحابه عند اللقاء والحرب، فلذلك أحجم أحدهما وأقدم الآخر ؛ فقد بان أنّ قول قاضى القضاة غيرُ مضطرب ولا متناقض .

***

الطعن الثامن

ما روى عن عمر من قوله: «مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما » ؛ وهذا اللفظ قبيح لو صحّ المعنى ، فكيف إذ فسَد ! لأنه ليس ممّن

يشرّع فيقول هذا القول ، ولأنّه يُوهم مساواة الرسول صلى الله عليه وآله في الأمر والنّهى ، وأنّ اتّباعه أوْلى من اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله .

أجاب قاضى القضاة ، فقال : إنه إنما عَنَى[1] بقوله : «وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما» كراهَته لذلك ، وتشدّده فيه ، من حيث نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما بعد أن كانتا فى أيامه ، منبِّهاً بذلك على حصول النَّسْخ فيهما وتغيُّر الحكْم ، لأنّا نعلم أنه كان متبعاً للرّسول ، متديّناً بالإسلام ، فلا يجوز أن نحمل قوله على خلاف ما تواتر من حاله. وحكى عن أبى علىّ أنّ ذلك بمنزلة أن يقول : إنى أعاقب مَنْ صلَّى إلى بيت المقدس ، وإن كان صُلِّىَ إلى بيت المقدس فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله . واعتمد فى تصويبه على كفّ الصحابة عن النّكير عنه . وادّعى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أنكر على ابن عباس إحلال المُتعة ، وروى عن النبى صلى الله عليه وآله تحريمها ؛ فأمّا مُتْعة الحج فإنما أراد ما كانو يفعلون من فَسْخ الحجّ ، لأنه كان يحصل لهم عنده التمتع ، ولم يرد بذلك التمتع الّذى يجرى مجرى تقدّم العمرة وإضافة الحجّ إليها بعد ذلك ، لأنه جائز لم يقع فيه قبح .

***

اعترض المرتضى هذا الكلام[2] فقال : ظاهر الخبر المروىّ عن عمر فى المتعتَيْن يبطل هذا التأويل ، لأنه قال : « مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما » ، فأضاف النّهى إلى نفسه ، ولو كان الرسول نَهَى عنهما لأضاف النّهى إليه ، فكان آكد وأوْلَى ، فكان يقول : فنهى عنهما أو نسخهما وأنا من بعده أنهى عنهما وأعاقب عليهما . وليس يشبه ما ذكره من الصّلاة إلى بيت المقدس ، لأنّ نسخ

(١) الشافى : « وهذا غير لازم ، لأنه عنى بقوله : أنا انهى عنها » .
(٢) الشافى : « يقال له : ظاهر الخبر المروى . . . » .

الصلاة إلى بيت المقدس معلومٌ ضرورةً من دينه صلى الله عليه وآله ، وليس كذلك المتعة ، على أنّه لو قال : إنّ الصلاة إلى بيت المقدس كانت فى أيام النبى صلى الله عليه وآله جائزةً وأنا الآن أنهى عنها لكان قبيحاً شنيعاً ، مثل ما استقبحنا من القول الأوّل ، وليس هذا القول منه ردًّا على الرسول صلى الله عليه وآله ، لأنه لا يمتنع أن يكون استحسن حَظْرها فى أيّامه لوجهٍ لم يكن فيما تقدم ، واعتقد أنّ الإباحة فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله كان لها شرط لم يوجَد فى أيامه ، وقد روى عنه أنّه صرّح بهذا المعنى ، فقال : إنما أحلَّ الله المتعةَ للنّاس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والنساء يومئذ قليلة ، ولذلك روى عنه فى مُتْعة الحجِّ أنّه قال : قد علمت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله فعلَها وأصحابه ، ولكن كرهت أن يظلُّوا بها معرِسين تحت الأراك ، ثم يرجعوا بالحجّ تقطر رءوسهم .

وأمّا[1] اعتمادُه على الكفّ عن النكير ، فقد تقدّم أنه ليس بحجّة إلا على شرائط شرحناها ؛ عَلَى أنّه قد رُوِى أنّ عمر قال بعد نهيه عن المتعة : لا أوتَى بأحدٍ تزوّج متعة إلا عذّبته بالحجارة ، ولو كنت تقدمت فيها لرجمت . وما وجدنا أحداً أنكر عليه هذا القول ، لأنّ المتمتّع عندهم لا يستحقّ الرّجم ، ولم يدل ترك النّكير على صوابه .

فأما ادّعاؤه على أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أنكر على ابن عباس إحلالها ؛ فالأمر بخلافه وعكسه ، فقد روى عنه عليه السلام من طرق كثيرة أنّه كان يفتى بها ، وينكر على محرِّمها والناهى عنها ، وروى عمر بن سعد الهمدانىّ ، عن حُبيش بن المعتمر ، قال : سمعتُ عليًّا عليه السلام يقول : لولا ما سبق من ابن الخطاب فى المُتعة مازنى إلا شقىّ . وروى أبو بصير ، قال : سمعتُ أَبا جعفر محمد بن علىّ الباقر عليه السلام يروى عن جدّه أميرَ المؤمنين عليه السلام : لولا ماسبقنى به ابن الخطاب مازنى إلا شقّى . وقد أفتى بالمتعة

(١) الشافى : « فأما » .

جماعة من الصحابة والتّابعين كعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وسلَمة بن الأكوع ، وأبي سعيد الُخدريّ ، وسعيد بن جُبَير ، ومجاهد ، وغير ما ذكرناه ممّن يطول ذكره ، فأمّا سادةُ أهلِ البيت عليهم السلام وعلماؤهم فأمرُهم واضح فى الفُتْيا بها ، كعليّ بن الحسين زين العابدين ، وأبى جعفر الباقر عليه السلام ، وأبى عبد الله الصادق عليه السلام ، وأبى الحسن موسى الكاظم ، وعليّ بن موسى الرضا عليهما السلام . وما ذكرنا من فُتْيا مَنْ أشرنا إليه من الصحابة بها يدلّ على أوضح بطلان ما ذكره صاحب الكتاب من ارتفاع النَّكير لتحريمها ؛ لأنّ مقامهم على الفُتْيا بها نكير .

فأمّا مُتعة الحجّ فقد فعلها النبى صلى الله عليه وآله والنَّاس أجمع من بعده ، والفقهاء فى أعصارنا هذه لا يرونها خطأ بل صواباً .

فأمّا قول صاحب الكتاب : إنَّ عمر إنما أنكر فسخ الحجّ فباطل ؛ لأن ذلك أوّلا لا يسمى مُتْعة ، ولأن ذلك ما فعِل فى أيام النبى صلى الله عليه وآله ، ولا فعله أحدٌ من المسلمين بعده ، وإنما هو من سُنَن الجاهليّة ، فكيف يقول عمر : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وكيف يغلظ ويشدد فيما لم يفعل ، ولا فعل[1] !

***

قلت : لا شبهة أنّ الظاهر من كلام عمر إضافة النّهى إلى نفسه ، لكنّا يجب علينا أن نتركَ ظاهر اللفظ إذا علمنا من قائله مايوجب صرف اللفظ عن الظاهر كما يعتمده كلٌّ أحد فى القرائن المقترنة بالألفاظ ، والمعلوم من حال عمر أنّه لم يكن يدَّعى أنه ناسخ لشريعة

(١) الشافى ٢٥٧ ، وفيه : « ولا يفعل » .

الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّه كان متديّناً بالإسلام وتابعاً للرسول الذى جاء به ، فوجب أن يحمَل كلامُه على أنّه أراد أنهما كانتا ثم حُرِّمتا ، ثم أنا الآن أعاقب مَنْ فعلهما ، لأنه قد كان بلَغه عن قوم من المسلمين بعد علمهم بالتّحريم . وقول المرتضى : لعلّه كان اعتقدَ أنّ الإباحة أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله كانت مشروطةً بشرط لم يُوجد فى أيامه ، قولٌ يبطل طعنه فى عمر ، ويمهّد له عذراً ويصيّر المسألة اجتهاديّةً .

وأمّا طعنُه فى الاحتجاج على تصويب عمر بترك الإنكار عليه وقوله:فهلاّ أنكروا عليه قوله : لا أرى أحداً يستمتع إلّا رجمته ، فليس بطعن مستقيم ، وإنما يكون طعناً صحيحا لو كان أُتِىَ بمتمتّع فأمر برجمه ، فأمّا أن ينكروا عليه وعيدَه وتهديده ، لا لإنسان معيّن ، بل كلاما مطلقا ، وقولا كليًّا يقصد به حَسْم المادة فى المتعة ، وتخويف فاعلها ، فإنه ليس بمحلّ للإنكار عليه ، وما زالت الأئمة والصالحون يتوعّدون بأمرٍ ليس فى نفوسهم فعله، على طريق التأديب والتهذيب ؛ على أنّ قوما من الفقهاء قد أوجبوا إقامة الحدّ على المتمتّع ، فلا يمتنع أن يكون عمر ذاهبا إلى هذا المذهب .

فأما مارواه عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن الطّاهرين من أولاده ، من تحليل المتعة ، فلسنا فى هذا المقام نناكره فى ذلك وننازعه فيها،والمسألة فقهيّة من فروع الشريعة، وليس كتابنا موضوعا لذكره ، ولا الموضع الذى نحن فيه يقتضى الحِجاج فيها،والبحث فى تحليلها وتحريمها ، وإنّما الموضع موضع الكلام فى حال عمر ، ومانقل عنه من الكلمة؛ هل يقتضى ذلك الطعن فى دينه أم لا ؟

فأمّا متعة الحجّ فقد اعتذر لنفسه ، وقال ماقدّمنا ذكره ، من أن الحجّ بهاء من بهاء الله ، وأن التمتّع يكسفه ويذهب نوره ورونقه ، وأنهم يظلون معرِسين تحت الأراك ،ثم

يُهلون بالحجّ ورءوسهم تقطر ، وإذا كان قد اعتذر لنفسه فقد كفانا مؤنة الاعتذار .

* * *

الطعن التاسع

ماروى عنه من قصّة الشورى ، وكونه خرج بها عن الاختيار والنصّ جميعاً ، وأنه ذمّ كلّ واحد ، بأن ذكر فيه طعنا ثم أهّله للخلافة بعد أنْ طَعن فيه ، وأنّه جعل الأمر إلى ستّة ، ثم إلى أربعة (١)؛ ثم إلى واحد ، قد وصَفَه بالضعف والقُصور ، وقال : إن اجتمع علىّ وعثمان فالقول ماقالاه ، وإن صاروا ثلاثة وثلاثة فالقولُ للذين فيهم عبد الرحمن ، وذلك لعلْمه بأن عليا وعثمان لا يجتمعان ، وأنّ عبد الرحمن لا يكاد يعدل بالأمر عَنْ خَتَنه وابن عمه ، وأنه أمر بضرب أعناقهم إن تأخروا عن البيعة فوق ثلاثة أيام ، وأنْه أمر بقتل مَنْ يخالف الأربعة منهم أو الذين فيهم عبد الرحمن .

أجاب قاضى القضاة عن ذلك ، فقال : الأمور الظاهرة لا يجوز أن يعترَض عليها بأخبارٍ غيرِ صحيحة ، والأمر فى الشّورى ظاهرٌ ، وإنّ الجماعة دخلتْ فيها بالرّضا ، ولا فرْق بين من قال فى أحدهم : إنّه دخل فيها لا بالرضا وبين من قال ذلك فى جميعهم، ولذلك جعلنا دخولَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الشّورى أحد مايعتمد عليه فى أن لا نصّ يدل عليه ، أنه المختصّ بالإمامة ، لأنه قد كان يجب عليه أن يصرّح بالنصّ على نفسه ، بل يحتاج إلى ذكر فضائله ومناقبه ، لأنّ الحال حالُ مناظرة ، ولم يكن الأمر مستقرّاً لواحد ، فلا يمكن أن يتعلّق بالتقيّة ، والمتعالَم من حاله أنّه لو امتنع من هذا الأمر فى الشورى أصلاً لم يلحقه الخوف فضلا عن غيره ، ومعلوم أنّ دلالة الفعل أحسنُ من دلالة القول ، من حيث كان الاحتمال فيه أقلّ،والمرویّ أن عبدالرحمن(٢) أخذ الميثاق على الجماعة

(١) الشافى : « ثم جعل الأمر إلى ستة ، ثم إلى أربعة » .
(٢) فى الأصول : « عمر » ، والصواب ما أثبته من الشافى .

بالرضا بمن يختاره ، ولا يجب القدح فى الأفعال بالظّنون ، بل يجبُ حملُها على ظاهر الصحّة دون الاحتمال ، كما يجب مثله فى غيرها ، ويجب إذا تقدمت للفاعل حالةٌ تقتضى حسنَ الظنّ به ، أن يُحمل فعلُه على مايطابقها ، وقد علمنا أن حالَ عمر وما كان عليه من النّصيحة للمسلمين ، منع من صَرْف أمره فى الشورى إلى الأغراض التى يظنّها أعداؤه ، فلا يصحّ لهم أن يقولوا : كان مراده فى الشورى بأن يجعل الأمر إلى الفِرقة التى فيها عبد الرحمن عند الخلاف ، أن يتم الأمر لعثمان ؛ لأنه لو كان هذا مرادَه لم يكن هناك مايمنعه من النصّ على عثمان ، كما لم يمنع ذلك أبا بكر ، لأنّ أمره إن لم يكن أقوَى من أمر أبى بكر لم ينقص عنه ؛ وليس ذلك بدعة ، لأنه إذا جاز فى غير الإمام إذا اختار أن يفعل ذلك ، بأن ينظر فى أماثل القوم فيعلم أنهم عشرة ، ثم ينظر فى العشرة ؛ فيعلم أنّ أمثلَهم خمسة ، ثم ينظر فى واحد من الخمسة ؛ فما الذى يمنع من مثله فى الإمام ؛ وهو فى هذا الباب أقوى اختياراً ، لأنّ له أن يختار واحداً بعينه !

ثم ذكر أنّه إنما حصره فى الجماعة الذين انتهى إليهم الفضْل ، وجعله شورى بينهم ، ثم بيّن أنّ الانتقال من السّتة إلى الأربعة ، ومن الأربعة إلى الثلاثة ، لا يكون متناقضاً ، لأنّ الأقوال مختلفة ؛ وليست واحدة ، ولو كانت أيضاً واحدة لكان كالرجوع ؛ وللإمام أن يرجع فى مثل ذلك ، لأنّه فى حكم الوصيّة .

قال : وقولهم : إنّه كان يعلم أنّ عثمان وعليا لا يجتمعان ، وأنّ عبد الرحمن يميل إلى عثمان ، قلّةُ دين ، لأنّ الأمور المستقبلة ، لا تُعلَم وإنما يحصل فيها أمارة . قال : والأمارات توجب أنه لم يكن فيهم حرص شديد على الإمامة ، بل الغالب من حالهم طلب الاتفاق والائتلاف والاسترواح إلى قيام الغير بذلك . وإنما جعل عمر الأمر إلى عبد الرحمن عند الاختلاف ، لعلمه بزهده فى الأمر ؛ وأنّه لأجل ذلك أقرب أن يتثبّت ، لأنّ الراغب

عن الشيء يحصل له من التثبُّت مالا يحصل للراغب فيه ، ومَنْ كانت هذه حاله كان القوم إلى الرضا به أقرب .

وحكى عن أبى علىّ أنَّ المخادعة إنما تظنّ بمن قصْده فى الأمور طريق الفساد ، وعُمر برىء من ذلك .

قال : والضعف الذى وُصِف به عبدالرحمن ، إنما أراد به الضّعف عن القيام بالإمامة ، لا ضَعف الرأى ؛ ولذلك ردّ الاختيار والرأى إليه . وحكى عن أبى علىّ ضَعْف ماروى من أمره بضرب أعناق القوم إذا تأخَّروا عن البيعة ، وأنّ ذلك لو صحّ لأنكره القوم ، ولم يدخلوا فى الشورى بهذا الشرط ؛ ثم تأوّله إذ سلم صحّته ، على أنَّهم إن تأخّروا عن البَيْعة على سبيل شقّ العصا وطلب الأمر من غير وجهه . وقال : ولا يمتنع أن يقول ذلك على طريق التَّهديد ، وإن بَعُدَ عنده أن يقدموا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

* * *

اعترض المرتضى هذا الكلام ، فقال : إنّ الذى رتّبه عمر فى قصّة الشورى ، من ترتيب العدد واتفاقه واختلافه ، يدلّ أوّلا على بُطْلان مذهب أصحاب الاختيار فى عدد العاقدين للإمامة ، وأنه يتمّ بعقد واحد لغيره برضا أربعة ، وأنه لا يتمّ بدون ذلك ؛ فإنّ قصّة الشُّورى تصرّح بخلاف هذا الاعتبار ؛ فهذا أحد وجوه المطاعن فيها .

ومن جملتها أنه وصف كلّ واحد منهم بوصفٍ زعم أنه يمنع من الإمامة ، ثم جعل الأمر فيمن له تلك الأوصاف ، وقد روى محمد بن سعد ، عن الواقدىّ ، عن محمد بن عبدالله الزهرىّ ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، عن ابن عباس ، قال : قال عمر : لا أدرى ما أصنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وذلك قبل أن يُطعَن ، فقلت : ولِمَ تهتمّ وأنت تجد مَن تستخلفه

عليهم ؟ قال : أصاحبُكم ؟ يعنى عليًّا ، قلت : نعم ؛ هو لها أهل ، فى قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصهره وسابقته وبلائه ، قال : إنَّ فيه بَطالة [(١)] وفكاهة ، فقلت : فأين أنت من طلحة ؟ قال : فأين الزَّهو والنَّخوة ! قلت : عبد الرحمن ؟ قال : هو رجل صالح على ضَعْفٍ فيه ، قلت : فسعد ، قال : ذاك صاحب مِقْنَب [(٢)] وقتال لا يقوم بقرْية لو حمل أمرها ، قلت : فالزبير ، قال : وعْقَة لَقِس [(٣)] مؤمن الرِّضا ، كافر الغضب ، شحيح ؛ وإنّ هذا الأمر لا يصلح إلّا لقوىّ فى غير عنف ، رفيق فى غير ضعف ، وجواد فى غير سرَف ، قلت : فأين أنت عن عثمان ؟ قال : لو وليها لحمل بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس ، ولو فعلها لقتلوه [(٤)] .

وقد يُروَى من غير هذا الطَّريق أنَّ عمر قال لأصحاب الشورَى : رُوحوا إلىَّ ؛ فلمَّا نظر إليهم قال : قد جاءنى كلٌّ واحدٍ منهم يهزّ عِفْرِيتَه ، يرجو أن يكون خليفة ، أما أنت يا طلْحة ؛ أفلست القائل : إنْ قُبِض النبى صلى الله عليه وآله أنكح أزواجَه من بعده ؟ فما جعل الله محمداً أحقَّ ببنات أعمامنا منّا ، فأنزل الله تعالى فيك : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ﴾ [(٥)]. وأمَّا أنت يا زُبير ، فوالله ما لَانَ قلبُك يوماً ولا ليلةً . وما زلت جِلْفاً [(٦)] جافيا ؛ وأمَّا أنت يا عثمان ، فوالله لَرَوثةٌ [(٧)] خير منك ، وأمَّا أنت يا عبد الرحمن ، فإنَّك رجل عاجز تحبُّ قومك جميعاً ، وأما أنت يا سعد ، فصاحب عصبيّة وفتنة ، وأمَّا أنت يا علىّ ، فوالله لو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لرجَحهم ، فقام علىٌّ مولِّيا يخرج ، فقال عمر : والله إنِّى لأعلم مكان رجلٍ لو ولِّيتموه

---

(١) الفائق : « ذاك رجل فيه دعابة » . (٢) المقنب من الخيل : الأربعون أو الخمسون .
(٣) فى الفائق : « رجل وعقة ولعقة » ، إذا كان فيه حرص ووقوع فى الأمر ، بجهل وضيق نفس وسوء خلق » .
(٤) خبر ابن عباس مع عمر فى الفائق ٢ : ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، مع اختلاف فى العبارة .
(٥) سورة الأحزاب ٥٣ (٦) الجلف : الرجل الجافى الغليظ .
(٧) الروثة : واحدة الروث ، وهو سرجين الفرس .

أمرَكم لحكم على المحجّة البيضاء ، قالوا : مَنْ هو ؟ قال : هذا المولّى من بينكم ، قالوا : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : ليس إلى ذلك سبيل .

وفى خبر آخر ؛ رواه البلاذرىّ فى تاريخه ؛ أنّ عمر لمّا خرج أهل الشورى من عنده ؛ قال : إنْ ولّوْها الأجلحَ [(١)] سلك بهم الطريق ، فقال عبدالله بن عمر : فما يمنعك منه ياأمير المؤمنين ؟ قال : أكره أن أتحمّلها حيًّا وميّتا .

فوصف كما ترى كلّ واحد من القوم بوصف قبيح يمنع من الإمامة ؛ ثم جعلها فى جملتهم ، حتى كأنّ تلك الأوصاف تزول فى حال الاجتماع ؛ ونحن نعلم أنّ الذى ذكره إن كان مانعا من الإمامة فى كلٍّ واحد على الانفراد ، فهو مانع من الاجتماع ؛ مع أنّه وصف عليا عليه السلام بوصفٍ لايليق به ، ولا ادّعاه عدُوٌّ قطّ ، بل هو معروف بضدِّه ، من الرّكانة والبعد عن المُزاح والدُّعابة ، وهذا معلوم ضرورة لمن سمع أخباره عليه السلام ؛ وكيف يُظنّ به ذلك ؛ وقد رُوِى عن ابن عبّاس أنه قال : كان أمير المؤمنين علىّ عليه السلام إذا أتى هِبْنا أن نبتدئه بالكلام ؛ وهذا لايكون إلا من شدّة التزمّت والتوقُّر ؛ ومايخالف الدُّعابة والفكاهة .

ومما تضمّنَتْه قصّة الشورى من المطاعن ، أنه قال : لاأتحمّلها حيًّا وميتا ، وهذا إن كان علّة عدوله عن النصّ إلى واحدٍ بعينه ؛ فهو قول متلمس متخلّص ، لايفتات على الناس فى آرائهم ، ثم نقض هذا بأن نصّ على ستّة من بين العالم كلّه ، ثم رتّب العدد ترتيبا مخصوصاً ، يؤول إلى أنّ اختيار عبدالرحمن هو المقدّم ؛ وأىّ شىء يكون من التحمّل أكثر [(٢)] من هذا ! وأىّ فرق بين أن يتحمّلها ، بأنْ ينصّ على واحدٍ بعينه ، وبين أن يفعل مافعله من الحصر والترتيب !

---

(١) الجلح : ذهاب الشعر من مقدم الرأس .   (٢) ب : « أكبر » .

ومن جملة المطاعن أنَّه أمر بضرب الأعناق إن تأخَّروا عن البيعة أكثر من ثلاثة أيام ؛ ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقُّون القتل ، لأنهم إذا كانوا إنما كُلِّفُوا أن يجتهدوا آراءهم فى اختيار الإمام ، فربما طال زمان الاجتهاد ، وربما قصر بحسب ما يعرض فيه من العوارض ، فأىّ معنًى للأمر بالقتل إذا تجاوزوا الأيَّام الثلاثة ! ثم إنه أمر بقتل مَنْ يخالف الأربعة ، ومَنْ يخالف العدد الذى فيه عبد الرحمن ، وكلُّ ذلك مما لا يستحقّ به القتــل .

فأما تضعيف أبى علىٍّ لذكر القَتْل فليس بحجَّة ، مع أنَّ جميع مَنْ روى قصة الشورى روى ذلك ؛ وقد روى الطبرى [ذلك] (١) فى تاريخه وغيره .

فأمّا تأوّله الأمر بالقتل على أنّ المراد به إذا تأخَّروا على طريق شقّ العصا ، وطلب الأمر من غير وجهه ، فبعيد من الصواب ، لأنه ليس فى ظاهر الخبر ذلك ، ولأنهم إذا شقُّوا العصا ، وطلبوا الأمر من غير وجهه من أوّل يوم ، وجب أن يُمنَعوا ويقاتلوا ، فأىّ معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً !

فأما تعلّقه بالتهديد ، فكيف يجوز أن يتهدّد الإنسان على فعل بما لا يستحقّه ، وإن علم أنه لا يعزم عليه !

فأما قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (٢) ، فيخالف ما ذكر ؛ لأنّ الشرك يستحقّ به إحباط الأعمال ، وليس يستحقّ بالتأخير عن البيعة القتل .

فأمّا ادّعاء صاحب الكتاب أنّ الجماعة دخلوا فى الشّورى على سبيل الرضا ، وأنّ عبد الرحمن أخذ عليهم العهد أن يرضوْا بما يفعله ، فمن قرأ قصّة الشورى على وجهها ، وعدَل عمّا تُسَوِّله النفس من بناء الأخبار على المذاهب ؛ علم أنّ الأمر بخلاف ما ذكر . وقد روى الطبرىّ فى تاريخه عن أشياخه من طرق مختلفة ، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال حين خرج من عند عمر بعد خطابه للجماعة بما تقــدّم ذكره لقوم كانوا معه من بنى هاشم : إنْ طمع فيــكم قومــكم لم تؤمَّرُوا أبدا . وتلقّاه العبّاس بن عبد المطلب ،

(١) من الشافى . (٢) سورة الزمر ٦٥ .

فقال : يا عمّ عدلت عنّا ! قال : وما علمك ؟ قال : قُرِن بى عثمان ، وقال : كونوا مع الأكثر ، وإن رضى رجلان رجلاً ، ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ؛ فسعد لا يخالف ابنَ عمّه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيوليها عبدُ الرحمن عثمان ، أو يوليها عثمانُ عبد الرحمن ، فلو كانَ الآخران معى لم ينفعانى بَلْهَ أنى لا أرجو إلا أحدهما . فقال له العباس : لم أدفعْك عن شىء إلّا رجعتَ إلىّ مستأخراً ! أشرتُ عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن تسأله فيمن هذا الأمر ؟ فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أن تعاجِل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سمّاك عمر فى الشورى ألّا تدخل معهم ، فأبيت ! فاحفظ علىّ واحدة ؛ كلّما عرَض عليك القوم فقلْ : لا ؛ إلا أن يولّوك ، واحذر هؤلاء الرهط ، فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر ، حتى يقوم لنا به غيرنا وغيرهم ، وايمُ الله لا تناله إلا بشرٍّ لا ينفع معه خير . فقال علىّ عليه السلام : أما والله لئن بقىَ عمر لأذكّرنه ما أتى إلينا ، ولئن مات ليتداوَلُنّها بينهم ، ولئن فعلوا ليجدُنّنِى حيث يكرهون ، ثم تمثّل :

حلفتُ بربّ الرّاقصاتِ عَشيّةً ... غَدَوْنَ خِفافاً فابتدرن المحصّبا
ليَحتلبنْ رهــط ابن يعمرَ مارئاً ... نجيعا ، بنو الشُّدَّاخ وردا مصلّبا

فالتفت فرأى أبا طلحة الأنصارىّ فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لا تُرَع أبا حسَن (١) .

قال المرتضى : فإن قال قائل : أىّ معنى لقول العبّاس : إنى دعوتُك إلى أنْ تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن هذا الأمر من قبل وفاته ؟ أليس هذا مبطلا لما تدعونه من النص !

قلنا : غير ممتنع أن يريد العباس سؤالَه عمّن يصير الأمر إليه ، وينتقل إلى يديه ،

(١) تاريخ الطبرى ٥ : ٣٥ (المطبعة الحسينية) .

لأنه قد يستحقّه من لايصل إليه ، وقد يصل إلى مَنْ لايستحقه ، وليس يمتنع أن يريد : إنما كنّا نسأله صلى الله عليه وآله إعادة النّصّ قبل الموت ، ليتجدّد ويتأكّد ، ويكونَ لقرب العهد إليه بعيداً من أن يُطْرح .

فإن قيل : أليس قد أنكرتُم على صاحب الكتاب من التأويل بعينه فيما استعمله من الرّواية عن أبى بكر من قوله : ليتنى كنت سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم هل للأنصار فى هذا الأمر حق ؟

قلنا : إنما أنكرناه فى ذلك الخبر ، لأنه لايليق به من حيث قال ؛ فكنّا لاننازعه أهلَه ، وهذا قول مَنْ لاعلم له بأنه ليس للأنصار حقٌّ فى الإمامة ، ومن كان يرجع فى أن لهم حقًّا فى الأمر أو لاحقّ لهم فيه ، إلى مايسمعه مستأنفا ، وليس هذا فى الخبر الذى ذكرناه [1] .

وروى العباس بن هشام الكلبيّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، فى إسناده ، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام شكا إلى العباس ماسمع من قول عمر : كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف ، وقال : والله لقد ذهب الأمر منّا ، قال : وكيف قلت ذلك يابن أخى ! قال: إنّ سعدا لايخالف ابن عمّه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره ، فأحدهما يختار لصاحبه لا محالة ، وإن كان الزُّبير وطلحة معى ، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابن عوف فى الثلاثة الآخرين .

قال ابن الكلبيّ : عبد الرحمن زوج أمّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وأمّها أرْوَى بنت كريز ، وأرْوَى أمّ عثمان ، فلذلك قال : صهره .

وفى رواية الطبرىّ أنّ عبد الرحمن دعا عليا عليه السلام ، فقال : عليك عهدُ الله

---

(١) الشافى ٢٥٩ .

وميثاقه لتعملنَّ بكتاب الله وسنّة رسوله ، وسيرة الخليفتين ؟ فقال : أرجو أن أفعلَ وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى [١] .

وفى خبر آخر عن أبى الطفّيل ، أنّ عبد الرحمن قال لعلىّ عليه السلام : هلمّ يدَك خذها بما فيها ، على أن تسير فينا بسيرة أبى بكر وعمر ، فقال : آخذها بما فيها، عَلَى أن أسيرَ فيكم بكتاب الله وسنة نبيّه جهدى . فترك يده ، وقال : هلمّ يدكَ ياعثمان ، أتأخذها بما فيها على أن تسير فينا بسيرة أبى بكر وعمر ؟ قال : نعم ، قال : هى لك ياعثمان .

وفى رواية الطبرىّ أنه قال لعثمان مثل قوله لعلىٍّ ، فقال : نعم ، فبايعه ، فقال علىّ عليه السلام : خُتونة حنّت دهرا [٢] .

وفى خبر آخر : نفعت الختونة يابن عوف ! ليس هذا أوّل يوم تظاهرتُمْ فيه علينا ! ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ، والله ما ولَّيتَ عثمان إلا ليردّ الأمر إليك ، واللهُ كلَّ يوم هو فى شأن .

وفى غير رواية الطبرىّ أنّ عبد الرحمن قال له : لقد قلتَ ذلك لعمر ، فقال عليه السلام : أوَ لَمْ يكُن ذلك كما قلت !

وروى الطبرىّ أن عبد الرحمن قال : لاتجعلنّ ياعلىّ عَلَى نفسك سبيلا ، فإنّى نظرتُ وشاورت النّاس ، فإذا هم لايعدِلون بعثمان ، فقام علىٌّ عليه السلام ، وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجَله [٣] .

وفى رواية الطبرىّ أنّ الناس لمّا بايعوا عثمان تلكَّأ علىٌّ عليه السلام ، فقال عثمان: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً

---

(١) تاريخ الطبرى ٥ : ٣٦ (الحسينية) .
(٢) الطبرى : « حبوته حبوة دهر » ، والختونة المصاهرة .
(٣) تاريخ الطبرى ٥ : ٣٧ (الحسينية) .

عَظِيماً ﴾ [1] . فرجع علىّ عليه السلام حتى بايعه ، وهو يقول : خُدْعة وأىّ [2] خدعة [3] !

وروى البلاذرىّ فى كتابه ، عن ابن الكلبىّ ، عن أبيه ، عن أبى مِخْنف ، فى إسناد له ، أن عليا عليه السلام لما بايع عبدُ الرحمن عثمان كان قائما ، فقال له عبد الرحمن : بايع وإلّا ضربتُ عنقَك ، ولم يكن يومئذ مع أحد سيف غيره ، فخرج علىّ مغضباً ، فلحقه أصحاب الشورى ، فقالوا له : بايع وإلّا جاهدناك . فأقبل معهم يمشى حتى بايع عثمان .

قال المرتضَى : فأىّ رضاً هاهنا ، وأىّ إجماع ! وكيف يكون مختارا من تهدّد بالقتل وبالجهاد ! وهذا المعنى وهو حديث ضرب العنق لو روتْه الشّيعة لتضاحك المخالفون منه وتغامزوا ، وقالوا : هذا من جملة ماتدّعونه من المحال ، وتروونه من الأحاديث ، وقد أنطق الله به رواتهم ، وأجراه على أفواه ثقاتهم ، ولقد تكلّم المِقداد فى ذلك اليوم بكلام طويل ، يفنّد فيه مافعلوه من بَيْعة عثمان ، وعدولهم بالأمر عن أمير المؤمنين إلى أنْ قال له عبد الرحمن : يامقداد ، اتّق الله ، فإنّى خائف عليك الفتنة . ثم إنّ المقداد قام فأتى عليًّا ، فقال : أتقاتل فنقاتل معك ؟ فقال علىّ : فبمن أقاتل ! وتكلّم أيضا عمّار - فيما رواه أبو مخنف - فقال : يامعشرَ قريش ، أين تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيّكم ؟ تحوّلونه هاهنا مرة وهاهنا مرة ! أما والله ماأنا بآمن أن ينزعه الله منكم فيضعَه فى غيركم كما انتزعتموه من أهله ، ووضعتموه فى غير أهله . فقال له هشام بن الوليد : يابن سميّة ، لقد عدوت طورَك ، وما عرفت قدرَك ، وما أنت وما رأته قريش لأنفسها إنّك لست فى شىء من أمرها وإمارتها ، فتنحّ عنها . وتكلّمت قريش بأجمعها ، وصاحت بعمّار وانتهرته ، فقال : الحمد لله مازال أعوانُ الحقّ قليلا .

روى أبو مخنف أيضا أن عمّاراً قال هذا البيت ذلك اليوم :

---

(١) سورة الفتح ١٠

(٢) الطبرى : « أيما » .

(٣) تاريخ الطبرى ٥ : ٤١ .

ياناعىَ الإســـلام قُمْ فانْعَهُ   قَدْ مات عُرْفٌ وأتى منـكَرُ !

أما والله لو أنّ لى أعواناً لقاتلتهم ، وقال أمير المؤمنين عليـه السلام : لئن قاتلتَهم بواحدٍ لأكونَنّ ثانيـا ، فقال : والله ما أجدُ عليهم أعواناً ، ولا أحبّ أن أعرّضـكم لما لا تطيقون .

وروى أبو مخنف ، عن عبد الرحمن بن جُندَب ، عن أبيه ، قال : دخلت على علىٍّ عليـه السلام ، وكنت حاضراً بالمدينة يوم بويـع عثمان ، فإذا هو واجم كئيب ، فقلت : ما أصاب قوم صَرَفوا هذا الأمر عنـكم ! ، فقال صَبْرٌ جَميلٌ ! فقلت : سبحان الله !إنك لصبور ! قال : فأصنع ماذا ؟ قلت : تقوم فى النّاس خطيبا فتدعوهم إلى نفسك ،وتخبرُهم أنك أوْلى بالنبىّ صلى الله عليه وآله بالعمل والسابقة ، وتسألهم النّصر علىهؤلاءالمتظاهرين عليك ، فإنْ أجابَك عشرة من مائة شددت بالعشرة على المـائة ، فإن دانُوا لك كان ماأحببت ، وإنْ أبوْا قاتلتهم ، فإنْ ظهرت عليهم فهو سلطان الله آتاه نبيّه صلى الله عليه وآله ، وكنتَ أوْلَى به منهم إذْ ذَهَبُوا بذلك ، فردّه الله إليك ، وإن قتِلتَ فى طلبـه فقتلتَ شهيدا ، وكنت أولى بالعذر عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة . فقال عليه السلام: أوَ تراه كان تابعى من كلّ مائة عشرة ! قلت : لَأَرجو ذلك ، قال : لـكنّى لا أرجـو ولا والله من المائة اثنين ، وسأخبرك من أين ذلك ! إنّ الناس إنّما ينظرون إلىقريش ؛ فيقولون : هم قوم محمد صـلى الله عليـه وآله وقبيلته ، وإنّ قريشا تنظر إلينا فتقول : إنّ لهم بالنبوّة فضلا عَلَى سائر قريش ، وإنّهم أوليـاء هـذا الأمر دون قريش والناس ، وإنّهم إن ولّوه لم يخرج هـذا السلطان منهم إلى أحـدٍ أبدا ، ومتى كان فى غيرهم تداولتمُوه بينـكم ، فلا والله لاتدفع قريش إلينا هذا السلطان طائعة أبدا.قلت: أفلا أرجع إلى المِصر فأخبر الناس بمقالتك هذه ، وأدعو النّاس إليك! فقال : ياجندَب ؛ ليس هـذا زمان ذلك ، فرجعت فـكلّما ذكرت للناس شيئـاً من فضل علىٍّ زبرُونى

ونهرونى ، حتى رفع ذلك من أمرى للوليد بن عُقْبة ، فبعث إلىّ فحبسنى .

قال : وهذه الجملة التى أوردناهاقليل من كثير ،فى أن الخلاف كان واقعاً ،والرضا كان مرتفعا ، والأمر إنّما تمّ بالحيلة والمكر والخداع ؛ وأوّلُ شىء مكَر به عبد الرحمن أنّه ابتدأ فأخرَج نفسه من الأمر ، ليتمكّن من صَرْفه إلى من يريد ، وليقال : إنّه لولا إيثاره الحقّ ، وزهده فى الولاية لما أخرج نفسه منها ، ثم عرض على أمير المؤمنين عليه السلام مايعلم أنه لايجيب إليه ، ولا تلزمه الإجابة إليه ؛ من السَّيْر فيهم بسيرة الرجلين ، وعلم أنه عليه السلام لايتمكّن من أن يقول : إنّ سيرتهما لاتلزمنى، لئلا ينسَب إلى الطعن عليهما. وكيف يلزم سيرتهما ، وكلّ واحدمنهما لم يسِرْ بسيرة الآخر ! بل اختلفا وتباينا فى كثير من الأحكام ، هذا بعد أنْ قال لأهل الشورى : وثّقوا إلىّ من أنفسكم بأنّكم ترضوْن باختيارى إذا أخرجت نفسى ،فأجابوه —على مارواه أبو مخنف بإسناده— إلى ماعرض عليهم، إلّا أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه قال : أنظر ، لعلمه بما يجرّ هذا المكر ، حتى أتاهم أبو طلحة ، فأخبره عبد الرحمن بما عرض وماجاء به القوم إياه إلا عليًّا ، فأقبل أبو طلحة على علىٍّ عليه السلام ، فقال : ياأبا الحسن ، إنّ أبا محمد ثقة لك وللمسلمين ، فما بالك تخافه وقد عَدَل بالأمر عن نفسه ، فلن يتحمّل المأثم لغيره ! فأحلَف علىٌّ عليه السلام عبدَ الرحمن بما عرض ألّا يميل إلى الهوى وأن يؤثر الحقّ ويجتهد للأمة ، ولا يحابى ذا قَرابة ، فحلَف له ، وهذا غاية مايتمكّن(1) منه أمير المؤمنين عليه السلام فى الحال ،لأنّ عبد الرحمن لمّا أخرج نفسه من الأمر ،وظنّت به الجماعة الخير ، وفوّضت(2) إليه الاختيار لم يقدر أمير المؤمنين عليه السلام على أن يخالفهم وينقض مااجتمعوا عليه ، فكان أكثر ماتمكّن منه أن أحلفَه ، وصرّح بما يخافه من جهته ، من الميل إلى الهوى ، وإيثار القرابة ،غير أنّ ذلك كلّه لم يغْنِ شيئًا !

---

(1) الشافى : « تمكن » .
(2) الشافى : « وفوضوا » .

قال : وأما قولُ صاحب الكتاب: إنَّ دخولَه فى الشُّورى دلالة على أنَّه لانصّ عليه بالإمامة ، ولو كان عليه نصٌّ لَصرّح به فى تلك الحال ، وكان ذِكرُه أوْلَى من ذكر الفضائل والمناقب ، فإنّ المانع من ذكْر النصّ كونه يقتضِى تضليل مَنْ تقدّم عليه وتفسيقهم ،وليس كذلك تعديد المناقب والفضائل .

وأما دخوله عليه السلام فى الشُّورى ، فلو لم يدخل فيها إلّا ليحتجّ بما احتجّ به من مقاماته وفضائله ودرايته(١) ووسائله إلى الإمامة وبالأخبار الدالة عندنا عليها على النصّ والإشارة بالإمامة إليه ، لكان غرضاً صحيحاً ، وداعيا قويًّا . وكيف لايدخل فى الشُّورى وعندَهم أن واضعها قد أحسن النَّظر المسلمين ، وفعل مالم يسبَق إليه من التحرز للدِّين !

فأوّلُ ما كان يقال له لو امتنعَ منها : إنّك مصرّح بالطعن على واضعها وعلى جماعة المسلمين بالرّضا بها ، وليس طعنُك إلا لأنّك ترى أنّ الأمر لك ، وأنك أحقُّ به ! فيعود الأمر إلى ما كان عليه السلام يخافُه ، من تفرّق الكلمة(٢) ووقوع الفتنة(٣) .

قال : وفى أصحابنا القائلين بالنصّ مَنْ يقول : إنه عليه السلام إنّما دخل فى الشّورى لتجويزه أن ينال الأمر منها ، وعليه أنْ يتوصّل إلى مايلزمه القيامُ به من كلّ وجهٍ يظن أن يوصّله إليه .

قال : وقولُ صاحب الكتاب إنّ التقيّة لايمكن أن يتعلّق بها ،لأنّ الأمر لم يكن استقرّ لواحد طَريف ، لأنّ الأمر وإن لم يكن فى تلك الحال مستقرًّا لأحد ، فمعلوم أنّ الإظهار بما يطعن فى المتقدمين من ولاة الأمر لايمكن منه ، ولا يرضى به ، وكذلك

---

(١) الشافى : « وذرائعه » . (٢) الشافى : « الأمة » .
(٣) ... ها فى الشافى : « وتشتت الكلمة » .

الخروج مما يتفق أكثرهم عليه ، ويرضى جمهورهم به ، ولا يقرّون أحداً عليه ، بل يعدّونه شذوذاً عن الجماعة ، وخلافا على الأمّة .

فأمّا قوله : إنّ الأفعال لا يقدح فيها بالظنون ، بل يجب أن تحمل على ظاهر الصحّة ، وإنّ الفاعل إذا تقدّمت له حالة تقتضى حسنَ الظنّ به ، يجب أن تحمَل أفعاله على ما يطابقها ، فإنّا متى سلّمنا له بهذه المقدّمة لم يتمّ قصدُه فيها ، لأنّ الفعل إذا كان له ظاهر وجب أن يحمَل على ظاهره ، إلّا بدليل يعدل بنا عن ظاهره ، كما يجب مثلُه فى الألفاظ ، وقد بيّنا أنّ ظاهر الشّورى وما جَرى فيها ؛ يقتضى ماذكرناه للأمارات اللائحة ، والوجوه الظاهرة ، فما عدلْنا عن ظاهر إلى محتمَل ، بل المخالف هو الذى يسومُنا أن نعدِل عن الظاهر ، فأمّا الفاعل وما تقدّم له من الأحوال ، فمتى تقدّم للفاعل حالة تقتضى أن يُظنّ به الخير من غير علم ولا يقين ، فلا بدّ أن يؤثّر فيها ، ويقدح أن يرى له حالة أخرى تقتضى ظنّ القبيح به ، لدلالة ظاهرها على ذلك . وليس لنا أن نقضِىَ بالأولى على الثانية ، وهما جميعا مظنونتان ، لأنّ ذلك بمنزلة أن يقول قائل : اقضوا بالثانية على الأولى ؛ وليس كذلك إذا تقدّمت للفاعل حالة تقتضى بالخير منه ، ثم تليها حالة تقتضى ظنّ القبيح به ، لأنّا حينئذ نقتضى بالعلم على الظنّ ، ونبطل حكمه لمكان العلم ، وإذا صحّت هـذه الجملة فما تقدّمت لمن ذكر حالة تقتضى العلم بالخير ، وإنما تقدم ما يقتضى حسن الظنّ ، فليس لنا ألّا نسىء الظنّ به عند ظهور أمارات سوء الظنّ ، لأنّ كلّ ذلك مظنون غير معلوم .

وقوله : لو أراد ذلك مامنَعه من أن ينصّ على عثمان مانع ، كما لم يمنع ذلك أبا بكر من النصّ عليه ، فليس بشىء ؛ لأنّه قد فعل ما يقوم مقام النصّ على مَنْ أراد إيصاله إليه ، وصرفه عمّن أراد أن يصرفه عنه ، من غير شناعة التصريح ، وحتى لا يقال فيه ما قيل فى أبى بكر ، ويراجَع فى قصّته كما رُوجع أبو بكر ، ولِمَ يتعسّف أبعد الطريقين وغرضه يتمّ من أقربهما !

قال : فأمّا بيانُ صاحب الكتاب أنّ الانتقال من الستّة إلى الأربعة فى الشورى ، ومن الأربعة إلى الثلاثة ، لا يكون تناقضا ، فهو ردٌّ على مَنْ زعم أنّ ذلك تناقض، وليس من هذا الوجه طعنًا ، بل قد بينّا وجوه المطاعن وفصّلناها .

وأمّا قوله : إنّ الأمور المستقبلة لا تعلم ، وإنما يحصُل فيها أمارة ردًّا على من قال : إنّ عمر كان يعلم أن عليًّا عليه السلام وعثمان لا يجتمعان ، وأنّ عبد الرحمن يميل إلى عثمان، فكلام فى غير موضعه ، لأنّ المراد بذلك الظنُّ لا العلم ، وإنّ عُبّر عن الظنِّ بالعلم على طريقةٍ فى الاستعمال معروفة ، لا يتنا كرها المتكلمون . ولعلّ صاحب الكتاب قد استعمل العلم فى موضع الظنِّ فيما لا يحصى كثرة من كتابه هذا وغيره ، وقد بينّا فيما ذكرناه من رواية الكلبىّ عن أبى مخنف ، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أوّل مَنْ سبق إلى هذا المعنى فى قوله للعباسِ شاكيًا إليه: ذهبَ والله الأمر منّا ، لأن سعدا لا يخالف ابنَ عمّه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان ، فأحدهما مختار لصاحبه لا محالة ، وإن كان الزُّبير وطلحة معى ، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابنُ عوف فى الثلاثة الآخرين .

فأما قوله : إن عبد الرحمن كان زاهداً فى الأمر ، والزاهد أقربُ إلى التثبّت ؛ فقد بينّا وجه إظهاره الزهد فيه ، وإنهُ جعله الذريعة إلى مراده .

فأمّا قولُ صاحبِ الكتاب : إنّ الضعفَ الّذى وصفه به إنّما أراد به الضّعف عن القيام بالإمامة لا ضعف الرأى ؛ فهب أنّ الأمر كذلك ، أليس قد جعله أحد مَنْ يجوِّز أن يُختار للإمامة ، ويفوّض إليه مع ضعفه عنها ! وهذا بمنزلة أن يصفَه بالفسق ، ثم يدخله فى جملة القوم ؛ لأنّ الضعف عن الإمامة مانع منها ، كما أنّ الفِسْق كذلك .

***

قلت : الكلامُ فى الشُّورى والمطاعن فيها طويل جدًّا ، وقد ذكرت من ذلك فى كتبى الكلامية وتعليقاتى ماقاله النَّاسُ ومالم أسبَق إليه ، ولا يحتمل هذا الكتاب الإطالة باستقصاء ذلك ، لأنه ليس بكتاب حِجَاج ونظر ؛ ولكنى أذكر منه نُكتاً يسيرة ، فأقول :

إن كانت أفعالُ عمر وأقواله قد تناقضتْ فى واقعة الشورى ـ كما زعم المرتضى رحمه الله ـ فكذلك أفعال أمير المؤمنين ـ إن كان منصوصاً عليه كما تقولُه الإمامية ـ قد تناقضت أيضاً . أمَّا أوَّلًا فإن كان منصوصا عليه ، فكيف أدخل نفسه فى الشورى المبنية على صحة الاختيار وعدم النصّ ! أليس هذا إيهاماً ظاهرا لأكثر المسلمين ، خصوصا الضَّعَفَة منهم ، ومَنْ لا نظر له فى دقائق الأمور عنده أنه غير منصوص عليه ! فكيف يجوز له إضلال المكلَّفين وأن يوقع فى نفوسهم عدم النصِّ مع كون النصِّ كان حاصلا !

وأمَّا عذر المرتَضى عن هذا ، بأنَّه دخل فى الشورى ، ليتمكّن من الاحتجاج على أهل الشورى بمقاماته وفضائله ، فيقال له : قد كان الدَّهرَ الأطول مخالطاً لأهل الشورى وغيرهم ، مجتمعاً معهم فى المسجد وغيره من مواطن كلّ يوم بل كلّ ساعة ؛ فلا يجوز أن يقال : دخل ليضمّه وإيّاهم أو يظلّهم سقف ، فيتمكّن بذلك من ذكر مقاماته وفضائله بينهم ؛ لأنَّ العاقل لا يجوز أن يرتكبَ أمراً يُوهم القبيح ، ليفعل فعلا قد كان من قبله بثلاث عشرة سنة متمكّنا من أن يفعله من غير أن يرتكب ذلك الأمر الموهم للقبيح ؛ وليت شعرى مَن الَّذِى كان يمنعه أيَّام أبى بكر وعمر من أن يذكر مقاماته وفضائله ويفتخر بها ! وَلِمَ انفك عليه السلام من ذكر فضائله والفخر بمناقبه فى تلك المدة الطويلة وقد كان عمر وهو المعروف المشهور بالغلظة والفظاظة يذكر فضائله ويعترف بها ! فلست أرى لعذر المرتضى أصلًا بهذا الوجه أو معنى !

فأما عـذره الثانى عن دخوله فى الشورى بقوله : لو لم يدخل فيها لقيل له : إنك قد طعنت على واضع الشورى ، وليس ذلك إلا لأنّك ترى الأمر لك ، فليس بعذر جيّد ؛ لأنه لو امتنعَ من الدخول فيها على وجه الزُّهد وقلّة الالتفات إلى الولاية والإعراض عن السلطان والإمرة لما نسبَه أحدٌ إلى ماذكره المرتَضَى أصلا ، ولقال الناس : رجلٌ زاهـد لايريد الدنيا ، ولا يرغب فى الرّياسة ؛ ثم ما المانع من أن يقول لعمر وهو حىٌّ : نشدتُك الله لا تدخِلْنى فيها ؛ فإنِّى لا أريدها ولا أوثرها ! أتراه كان فى جواب هـذا الـكلام يأمر بقتله ، ويقول له : إنما امتناعك لأنَّك تدّعى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصَّ عليك ؛ فلا ترى أخذ الأمر من جهتى وتولّيه من طريقى ، وإنَّما تريده بمحض النصّ الأول لاغير ! ما أظنُّ أن عاقلًا يخطر له أنّ ذلك كان يكون ، فهذا العذر بارد لامعنى له كالعذر الأول .

فأما عذرُه الثالث ، وهو قوله : إنَّه كان يجب عليـه أن يتوصَّل إلى القيام بالأمر بكلِّ طريق ، لأنه يلزمه القيام به ، فعذرٌ جيّد لا بأس به .

وأما ثانيا فيقال للمرتَضَى : هب أنَّا نزلنا عن الدخول فى الشورى ، هـلّا عرض للجماعة وهم مجتمعون ، وهو يعدُّ لهم مناقبَه وفضائله بذكر النصِّ ؛ وذلك بأن يكنِّى عنه كنايةً لطيفة، فيقول لهم : قد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس فى حقِّى ما تعلمون! أتراهم كانوا فى جواب هـذه الـكلمة يقتلونه ! ما أظنُّ أنهم كانوا يجتمعون على ذلك . ولا بدّ لو عرّض بشىء من ذلك كان من كلام يدور بينهم فى المعنى ، نحو أن يقولوا : إنّ ذلك النصَّ رجع عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو يقولوا : رأى المسلمون تركه للمصلحة ، أو يجرى بينه وبينهم جدال ونزاع ؛ ولم يكن هناك خليفة يخاف جانبَه ؛ وإنما كان مجلس مناظرة وبحث ، ولم يستقرّ الأمر لأحد .

وقول المرتضى : إنه وإن كان كذلك ؛ إلا أنّهم كانوا لا يرضون أن يطعن فى المتقدّمين

منهم، ويكرهون منه ذلك ، ولا يُقِرّونه عليه ، ويعدّونه شذوذاً له عن الجماعة، وخلافاً للأُمّة قول صحيح ، إذا كان القائل يقوله على وجه شقّ العصا والمنابذة، وكشف القناع، وإذا قاله على وجْه الاستعطاف لهم ، والادّكار بما عساهم نسُوه ، وحسن التلطّف والرفق بهم ، والاستمالة لهم ، وتذكيرِهم حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله ، وميثاقه الذى واثقهم به، فإنه لا يقع منهم فى مقابلة ذلك قتله ، ولا قطع عضو من أعضائه ، ولا إقامة الحدّ عليه . وأقصى ما فى الباب أنّهم كانوا يردّون ذلك عليه بكلامٍ مثل كلامه ، ويجيبونه بجواب يناسب جوابَه ، ويدفعونه عمّا يرومُه بوجهٍ من وجوه الدفع ، إن كانوا مقيمين على الإصرار على غصب الحقّ منه .

وأما ثالثا ، فإن كان عليه السلام – كما تقوله الإماميّة – منصوصا عليه ، فما الذى منَعه لمّا قال له عبد الرحمن : أبايعك على أن تسيرَ فينا بسيرة الشيخين ، أن يقول : نعم ! فإنه لو قال: نعم ، لبايعه عبدُ الرحمن ، ووصل إلى الأمر الّذى يلزمه القيام به ؛ وإلى الحال التى كان يتوصّل بكلّ طريق إلى الوصول إليها .

وقول المرتضى : إن سيرتَيهما كانت مختلفة ، لأنّ أحدهما حكَم بكثير ممّا حكم الآخر بضدّه ليس بجيّد ، لأنّ السيرة التى كان عبد الرحمن يطلبُها ذلك اليوم ، هو الأمر الكلّىّ فى إيالة الرعيّة وسياستهم ، وجباية الفىء ، وظَلَف الوالى نفسَه وأهلَه عنه وصرفِه إلى المسلمين، ورمّ الأمور ، وجمْع العمّال؛ وقهر الظلَمة وإنصاف المظلومين، وحماية البَيْضة، وتسريب الجيوش إلى بلاد الشّرك ، هذه هى السيرة التى كان عبد الرحمن يشترِطها ، وهى التى طلبها الناس بعد ذلك ، فقالوا لمعاوية فى آخر أيامه ، ولعبد الملك ولغيرهما وصاحوا بهم تحت المنابر : نطلب سيرة العُمَرَيْن ؛ ولم يريدوا فى الأحكام والفتاوى الشرعية ، نحو القول فى الجدّ مع الإخوة،

والقول فى الكَلالة ، والقول فى أمّهات الأولاد ؛ فما أعلم الذى منَع أمير المؤمنين عليه السلام من أن يقول لعبد الرحمن : نعم ، فيأخذها ! ثم كان إذا أخذها أقدر الناس على هذه السّيرة ، وأقوامهم عليها . فواعجبا ! بيناهو يطلب الخلافة أشدّ الطلب ، فإذا هو ناكص عنها ، وقد عرضت عليه على أمرٍ هو قيّم به ! ولهذا كان الرأى عندى أن يدخل فيها حينئذ ، ومَن الذى كان يناظره بعد ذلك ويجادله ، فيقول : قد أخللتَ بشىء من سيرة أبى بكر وعمر ! كلّا إن السّيف لِضاربه ، والأمر لمالكه ، والرعيّة أتباع ، والحُكم لصاحب السلطان منهم !

ومن العجَب أنْ يقول المرتضَى : إنه لأجل التقيّة وافق عَلَى الرّضا بالشّورى ! فهلّا اتّقى القوم ، وقد ذكروا له سيرة الشيخين فأباها وكرهها ! ومَنْ كان يخاف على نفسه أن لو أظهر الزّهد فى الخلافة والرغبة عن الدخول فى أمر الشورى ! كيف لم يخفْ على نفسه ، وقد ذكرت له سيرة الشيخين فتركها ، ولم يوافق عليها ، وقال : لا بل عَلَى أن أجتهد رأيى !

وأما قول المرتضى : إنه وصف القوم بصفاتٍ تمنع من الإمامة ، ثم عيّنهم للإمامة ، فنقول فى جوابه : إنّ تلك الصفات لا تمنع من الإمامة بالكلّيّة ، بل هى صفاتٌ تنقص فى الجملة ، أى لو لم تكن هذه الصفات فيهم ، لكانوا أكمل ، ألَا ترى أنه قال فى عبد الرحمن : رجل صالح عَلَى ضعف فيه ! فذكر أنّ فيه ضعفاً يسيرا ، لأنه لو كان يرى ضعفه مانعاً من الإمامة لقال : ضعيف عنها جدًّا ، أو لا يصلح لها لضعفه . وكذلك قوله فى أمير المؤمنين : فيه فُكاهة ، لأن ذلك لا يمنع من الإمامة ، ولا زهو طلحة ونخوته ، ولا ماوصف به الزبيرُ من أنه شديد السّخط وقت غضبه ، وأنه بخيل ، ولا توليّه الأقارب عَلَى رقاب الناس إذا لم يكونوا فسّاقا. وأقوى عيب ذكره ماعاب به سعداً فى قوله : صاحب

مِقْنب وقتال ، لا يقوم بقرْيةٍ لو حَمَل أمرها . ويجوز أن يكون قال ذلك عَلَى سبيل المبالغة فى استصلاحه ، لأن يكون صاحب جيش يقاتل به بين يدى الإمام ، وأنه ليس له دُرْبة ونظر فى تدبير البلاد والأطراف ، وجباية أموالها ؛ ألا تراه كيف قال : لا يقوم بقرْيةٍ ! ويجوز أن يلىَ الخلافة مَنْ هذه حاله ، ويستعين فى أمر العباد والبلاد وجباية الأموال بالكُفاة الأمناء .

فأما الرواية الأخرى التى قال فيها لعثمان : لَروْثة خير منك ! فهى من روايات الشّيعة ، ولسنا نعرفها من كتب غيرهم .

فأما قوله : كيف قال : لا أتحمّلها حيًّا وميّتا ؛ لحصر الخلافة فى العدد المخصوص ، ثم رتّبها ذلك الترتيب ، إلى أن آلت إلى [اختيار] عبد الرحمن وحدَه ! فنقول فى جوابه : إنه كان يحبّ ألّا يستقلّ وحده بأمر الخلافة ، وأن يشاركه فى ذلك غيرُه من صلحاء المهاجرين ، ليكون أعذرَ عند الله تعالى وعند الناس ، وإذا كان قد وضع الشورى عَلَى ذلك الوضع المخصوص ، فلم يتحمَّلها استقلالا ، بل شرَكه فيها غيره ، فهو أقلّ ؛ لتحمله أمرها لو كان عيّن عَلَى واحد بعينه .

وأما حديث القتل ، فليس مراده إلّا شقّ العصا ، ومخالفة الجماعة ، والتوثُّب على الأمر مغالبة .

وقول المرتضَى : لو كان ذلك من أوّل يوم لوجب أن يمنع فاعله ويقاتل ، فأىّ معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً ! فإنه يقال له : إنّ الأجل المذكور لم يضرَبْ لقتل مَن يشقّ العصا ، وإنما ضُرِب لإبرامهم الأمر وفصله قبل أن تتطاول الأيام بهم ؛ ويتسامع مَنْ بَعُدَ عن دار الهجرة أن الخليفة قد قتل ، وأنهم مضطربون إلى الآن ، لم يقيموا لأنفسهم خليفةً بعده ، فيطمع أهل الفساد والدّعارة[1] ، ولا يؤمَن وقوع الفتن ،

---

(١) الدعارة (بالفتح والكسر) : الخبث والفسق .

ولا يؤمَن أيضا أن يستردّ الروم وفارس بلاداً قد كان الإسلام استولَى عليها ، لأنّ عدم الرئيس مطمِعٌ للعدوّ فى ملكه ورعيّته .

***

فأمّا الأخبار والآثار التى ذكرها المرتضَى فى مبايعة علىّ عليه السلام لعثمان ، وأنّه كان مكرَهاً عليها أو كالمكرَه ، وأنّ الرّضا كان مرتفعاً ، والخلاف كان واقعا ، فكلام فى غير موضعه ، لأنّ قاضى القضاة لم ينحُ بكلامه هذا النّحو ، ولا قصد هذا القصد ، ليناقضه بما رواه وأسنده من الأخبار والآثار ، ولا هذا الموضع من كتاب " المغنى " موضع الكلام فى بيعة عثمان وصحّتها ووقوع الرّضا بها ، فيطعن المرتضى فى ذلك بما رواه من الأخبار والآثار الدّالة على تهضّم القوم لأمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه وشيعته وتهدّدهم ، وإنما الرضا الذى أشار إليه قاضى القضاة ، فهو رضا أمير المؤمنين عليه السلام بأن يكون فى جملة أهل الشورى ، لأن هذا الباب من كتاب " المغنى " هو باب نفى المطاعن عن عمر ، وقد تقدّم ذكر كثير منها .

ثم انتهى إلى هذا الطّعن ، وهو حديث الشورى ؛ فذكر قاضى القضاة أنّ الشورى ممّا طُعِن بها عليه ، وادّعِى أنّها كانت خطأً من أفعاله ، لأنها لا نصّ ولا اختيار ، ألا تراه كيف قال فى أوّل الطعن : تخرج بها عن النصّ والاختيار ! فنقول فى الجواب :

لو كانت خطأً لما دخَل علىٌّ عليه السلام فيها ، ولا رَضِىَ بها ، فدخوله فيها ورضاه بها دليل عَلَى أنها لم تكن خطأً ، وأين هذا من بَيْعة عثمان ، حتى يخلط أحد البابين بالآخر !

فأمّا دعواه أنّ عمر عمل هذا الفعل حيلةً ، ليصرف الأمر عن علىّ عليه السلام من حيث علم أنّ عبد الرحمن صهرُ عثمان ، وأنّ سعداً ابنُ عمّ عبد الرحمن فلا يخالفه ؛ فجعل

الصواب فى الثلاثة الذين يكون فيهم عبد الرحمن ، فنقول فى جوابه :

إنّ عمر لو فعل ذلك وقَصَده لكان أحمق النّاس وأجهلَهم ، لأنه من الجائز ألّا يوافق سعدٌ ابنَ عمّه لعداوة تكون بينهما ، خصوصا من بنى العمّ ، ويمكن أن يستميل علىٌّ عليه السلام سعداً إلى نفسه ، بطريق آمنة بنت وهب ، وبطريق حمزة بن عبد المطلب ، وبطريق الدّين والإسلام ، وعهد الرسول صلى الله عليه وآله ؛ ومن الجائز أن يعطف عبدُ الرحمن عَلَى علىٍّ عليه السلام لوجهٍ من الوجوه ، ويعرض عن عثمان ، أو يبدوَ من عثمان فى الأيام الثلاثة أمرٌ يكرهه عبد الرحمن ، فيتركه ويميل إلى علىٍّ عليه السلام . ومن الجائز أن يموتَ عبد الرحمن فى تلك الأيام ، أو يموت سعد ، أو يموت عثمان ، أو يقتل واحد منهم فيخلص الأمر لعلىّ عليه السلام ، ومن الجائز أن يخالف أبو طلحة أمرَه له أن يعتمِد عَلَى الفِرْقة التى فيها عبد الرحمن ، ولا يعمل بقوله ، ويميل إلى جهة علىٍّ عليه السلام ، فتبطل حيلتُه وتدبيره !

ثم هب أنّ هذا كلّه قد أسقطناه، مَن الذى أجبر عمر وأكرهَه وقَسرَهُ عَلَى إدخال علىّ عليه السلام فى أهل الشورى ؟ وإن كان مراده ـ كما زعم المرتضى ـ صرفَ الأمر بالحيلة ، فقد كان يمكنه أن يجعل الشورى فى خمسة ، ولا يذكر عليا عليه السلام فيهم ، أتراه كان يخاف أحداً لو فعل ذلك ! ومَنِ الذى كان يجسر أن يراجعه فى هذا أو غيره ! وحيث أدخله مَنِ الذى أجبره عَلَى أن يقول : إن وليَها ذلك لحمَلهم عَلَى المحجّة البيضاء ، وحمَلهم عَلَى الصراط المستقيم ، ونحو ذلك من المدح ! قد كان قادرا ألّا يقول ذلك ؛ والكلام الفثّ البارد لا أحبّه .

فأما قوله : إنّ عبدالرحمن فَعل مافعَل من إخراج نفسه من الإمامة حيلة ليسلّم الأمر إلى عثمان ، ويصرفه عن علىٍّ عليه السلام ؛ فكلام بعضُه صحيح وبعضه غير صحيح . أما الصحيح منه فميلُ عبد الرحمن إلى جهة عثمان ، وانحرافُه عن علىٍّ عليه السلام قليلا ،

وليس هـذا بمخصوص بعبد الرحمن ، بل قريش قاطبة كانت منحرفةً عنه .

وأمّا الذى هو غير صحيح ، فقوله : إنه أخرج نفسَه منها لذلك ؛ فإنّ هذا عندى غيرُ صحيح ، لأنه قد كان يمكنه ألّا يخرج نفسه منها ، ويبلغ غرضه ، بأن يتجاوز هو وابن عمّه إلى عثمان ، ويَدَع عليا وطلحة والزبير طائفة أخرى ، فيولّى المسلمون الأمر الطائفة التى فيها عبد الرحمن ، بمقتضى نصّ عمر عَلَى ذلك ، ثم يعتمد عبد الرحمن بعد ذلك مايشاء ، إن شاء وليَها هو أو أحد الرجلَيْن ؛ فأى حاجةٍ كانت به إلى أن يخرج نفسه منهـا ليبلغ غرضا قد كان يمكنه الوصول إليه بدون ذلك !

وأيضا فإن كان غرضه ذلك ، فإنه من رجال الدنيا قد كان لا محالة ، ولم يـكن من رجال الآخرة ، ومَنْ هو من رجال الدنيا ومحبِّيها كيف تسمح نفسه بترك الخلافة ليعطيها غيره ! وهلاّ واطأ سعداً ابن عمّه ، وطلحة صديقه ، على أن يولّياه الخلافة،وقد قال عمر : كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن ، لا سيّما وطلحة منحرفٌ عن علىٍّ عليه السلام وعثمان ، لأنهما ابنا عبد مناف ، وكذلك سعد وعبدالرحمن منحرفان عنهما لذلك أيضا ، ولما اختصّا به من صِهْر رسول الله صلى الله عليه وآله . والصّحيح أنّ عبد الرحمن أخرج نفسَه منها ، لأنه استضعف نفسه عن تحمّل أثقالها وكُلَفها ، وكرِه أن يدخل فيها،فيقصّر عن عمر ، ويراه الناس بعين النقص ، ولا يستطيع أن يقوم بما كان عمر يقوم به ، وكان عبد الرحمن غنيًّا موسراً كثير المـال ، وشيخاً قد ذهب عنه ترفُ الشّباب ، فنفض عنها يده ، استغناء عنها ، وكراهيَة لخلل يدخل عليه إن وليَها .

وأما ميله عن علىٍّ عليه السلام ، فقد كان منه بعضُ ذلك ، والطباع لا تملَك ، والحسد مستقرٌّ فى نفوس البشر ، لا سيّما إذا انضاف إليه مايقتضى الازدياد فى الأمور .

فأما تنزيه المرتضَى لعلىٍّ عليه السلام عن الفُـكاهة والدّعابة فحقّ ، ولقد كان عليه

السلام على قَدَمٍ عظيمة من الوقار والجدّ والسَّمْت العظيم، والهدى الرّصين، ولـكنّه كان طَلْق الوجهِ، سمْحَ الأخلاق، وعمر كان يريد مثلَه من ذوى الفظاظة والخشونة، لأنّ كلّ واحد يستحسن طبعَ نفسِه، ولا يستحسن طبع مَنْ يباينه فى الُخلق والطبع. وأنا أعجب من لفظة عمر — إن كان قالها: « إنّ فيه بَطالة[1] »؛ وحاش لله أن يوصفَ علىٌّ عليه السلام بذلك! وإنّما يوصَف به أهل الدُّعابة واللهو، وما أظنّ عمر — إن شاء الله — قالها، وأظنّها زيدت فى كلامه، وإنّ الـكلمة هاهنا لدالّةٌ على انحراف شديد.

فأما قول أمير المؤمنين عليـه السـلام للعبّاس ولغـيره: ذهب الأمر منّا؛ إنّ عبـد الرحمن لا يخـالِف ابن عمّه، فليس معـناه أنّ عمر قصد ذلك، وإنما معناه أنّ من سوء الاتفـاق أن وقع الأمر هكذا، ويوشك ألّا يصل إلينا حيث قد اتّفق فيه هذه النـكتة.

فأما قول قاضى القضاة: إذا تقدّمت للفاعل حالة تقتضى حسنَ الظّنّ، وجب أن يحمَل فعله على مايطابقها، واعتراض المرتضَى عليه بقوله: إن ذلك إنما يجب إذا كان الخـير معلوما منه فيما تقدّم لا مظنونا، ومتَى كان مظنونا ثم وجدْنا له فعلا يظنّ به القبيح لم يكن لنا أن نقضِىَ بالسابق على اللاحق؛ فنقول فى جوابه: إنّ الإنسان إذا كان مشهوراً بالصّلاح والخير، وتـكرّر منه فعل ذلك مدّة طويلة، ثم رأيناه قد وقعت منه حركة تنافِى ذلك فيما بعد، فإنه يجب علينا أن نحمِلها على مايطابق أحواله الأولى ماوجدنا لها محمَلا، لأن أحواله الأولى كثيرة؛ وهذه حالة مفردة شاذّة؛ وإلحاق القليل بالـكثير وحمله عليه أولى من نقض الـكثير بالقليل، وقد كانت أحوال عمر مدّة عشرين سنة منتظمة فى إصلاح الرعيّة ومناصحة الدّين، وهذا معلوم منه ضرورة — أعنى ظاهرَ أحواله — فإذا وقعت عنه حالةٌ واحدة، وهى

(١) البطالة (بفتح الباء): التعطل والتفرغ من العمل.

قصة الشُّورى فيهــا شبهةٌ ما ، وجب أن نتأوّلها ماوجدنا لها فى الخيْر محملا ، ونلحقها بتلك الأحوال الكثيرة التى تكرّرت منــه فى الأزمان الطويلة ، ولا يجوز أن نضع اليدَ عليها ونقول : هذه لاغيرها ، ونقبّحها ، ونهجّنها ، ونسدّ أبواب هذه التأويلات عنها، ثم نحمل أفعاله الكثيرة المتقدمة كلَّها عليها فى التقبيح والتهجين ؛ فهذا خلاف الواجب ، فقد بان صحّة ماذكره قاضى القضاة ، لأنه لا حاجة بنَا فى القضاء بالسّابق على اللاحق ؛ إلاّ أن يكون خيرُه معلوماً ، وعلِم علمــا يقينا ؛ فإنّ الظنّ الغالب كافٍ فى هذا المقام على الوجــه الذى ذكرناه .

وأما قوله عن عمر : إنّه بلغ مافى نفسه من إيصال الأمر إلى مَنْ أراد ، وصرْفه عمّن أراد ؛ من غير شناعة بالتصريح ، وحتى لا يقال فيه ماقيل فى أبى بكر ، أو يراجع فى نصّه كما روجع أبو بكر ، ولأى حالٍ يتعسّف أبعد الطريقين ، وغرضه يتمّ من أقربهما ؛ فقد قلنا فى جوابه ما كفى ، وبيّنا أنّ عمر لو أراد ما ذُكر لصرَف الأمر عمّن يريد صرفَه عنه ، ونصّ على مَنْ يريد إيصال الأمر إليه ، ولم يبال بأحدٍ ، فقد عرف النّاس كلُّهم كيف كانت هيبته وسطْوته وطــاعة الرعيّة له ؛ حتى إنّ المسلمين أطاعوه أعظَم من طــاعتهم رسول الله صلى الله عليه وآله فى حياته ، ونفوذ أمره فيهم أعظم من نفوذ أمره عليه السلام ، فمن الذى كان يجسُر أو يقدر أن يراجعَه فى نصّه ، أو يرادّه ، أو يلفظ عنــده أو غائباً عنه بكلمة تنافى مراده ! وأىّ شىء ضرّ أبا بكر من مراجعة طلحة له حيث نصّ ؛ ليقول المرتضى : خاف عمر من أن يراجَع كما روجع أبو بكر ، وقد سمــع الناس ماقال أبو بكر لطلحة لمــا راجعه ، فإنّه أخزاه وجبّهه ، حتى دخل فى الأرض ، وقام مِنْ عنــده وهو لايهتدى إلى الطريق ! وأين كانت هيبةُ الناس لأبى بكر من هيبتهم لعمر ! فلقد كان أبو بكر وهو خليفة يهابُه وهو رعيّة وسُوقة بين يديه ، وكلُّ أفاضل الصحابة كان يهابه ، وهو بعدُ لم يل الخلافة ، حتى إن الشّيعة تقول : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله يهابه ، فمن

كانت هذه حاله وهو رعيّة وسُوقة ، فكيف يكونُ وهو خليفة ، قد ملك مشارق الأرض ومغاربها ، وخُطب له على مائة ألف منبر ! ولو أراد عمر أن يخطُب بالخلافة لأبي هريرة لما خالفه أحدٌ من الناس أبدا ! فكيف يقول المرتضى : لماذا يتعسّف عمر أبعدَ الطريقين ، وغرضه يتمّ من أقربهما !

والعجَب منه كيف يقول : خاف شناعةَ التصريح ، فمن لم يخَفْ عندهم شناعة المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو يعلم أنّ المسلمين يعلمون أنه مخالف لله تعالى ولرسوله قائم في مقام لم يجعله الله تعالى له ، كيف يخاف شناعة التصريح باسم عثمان لو كان يريد استخلافه ! إنّ هذا لأعجبُ من العجَب !

***

الطعن العاشر

قولهم : إنه أبدع في الدين ما لا يجوز ، كالتّراويح ، وما عمله في الخراج الذي وضعه على السّواد ، وفي ترتيب الجزْية ، وكلُّ ذلك مخالف للقرآن والسّنّة ، لأنه تعالى جعَل الغنيمة للغانمين ، والخمس منها لأهل الخُمُس ، فخالف القرآن ، وكذلك السنّة تنطق في الجزية أنّ على كلّ حالم دينارا ، فخالف في ذلك السنة ، وأنّ الجماعة لا تكون إلّا في المكتوبات ، فخالف السنة .

أجاب قاضي القضاة عن ذلك ، بأنّ قيام شهر رمضان ، قد رُوِي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه عمله ثم تركه ، وإذا علِم أن الترك ليس بنسْخ ، صار سنّة يجوز أن يعمل بها ، وإذا كان مالأجله تركه[1] من التنبيه بذلك على أنه ليس بفرض ، ومِنْ تخفيف التعبد

---

(١) الشافي : « ترك » .

ليس بقائم فى فعل عمر لم يمتنع أن يدوم عليه ، وإذا كان فيه الدّعاء إلى الصلاة والتشدّد فى حفظ القرآن ، فما الذى يمنع أن يعمل به !

فأمّا أمر الخراج ، فأصله السّنّة ، لأنّ النبىّ صلى الله عليه وآله بيّن أنّ لمن يتولّى الأمر ضرباً من الاختيار فى الغنيمة ، ولذلك فصّل بين الرجال والأموال ، فجعل الاختيار فى الرجال إلى الإمام فى القتل والاسترقاق والمفاداة ؛ وفصّل بينه وبين المال ، وإن كان الجميع غنيمةً .

ثم ذكر أنّ الغنيمة لم تُضَف إلى الغانمين إضافة الملك ، وإنما المراد أنّ لهم فى ذلك من الاختصاص والحقّ ماليس لغيرهم ؛ فإذا عرض ما يقتضى تقديم أمرٍ آخر ،جاز للإمام أن يفعله ، ورأى عمر فى أمر السّواد الاحتياط للإسلام ، بأن يقرّ فى أيديهم على الخراج الذى وضَعه ، وإن كان فى النّاس مَن يقول : فعل ذلك برضا الغانمين ، وبأن عوّض . ويدلّ على صحّة فعله إجماع الأمة ورضاهم به ، ولمّا أفضى الأمرُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام تركه على جملته ، ولم يغيّره .

ثم ذكر فى الجزية أن طريقها الاجتهاد ؛ فإن الخبر المروىّ فى هذا الباب ليس بمقطوع به ، ولا معناه معلوم .

* * *

اعترض المرتَضى هذا الجواب ، فقال : أمّا التراويح فلا شبهة أنها بِدْعة ، وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « أيها الناس ، إنّ الصلاة باللّيل فى شهر رمضان من النافلة جماعة بدعة وصلاة الضحى بدعة ، ألّا فلا تجتمعوا ليلا فى شهر رمضان فى النافلة ، ولا تصلّوا صلاة الضحى فإنّ قليلا فى سنّة خير من كثير فى بِدْعة ، ألا وإنّ كلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ضلالة سبيلها فى النار » .

وقد روى : أنّ عمرَ خرج فى شهر رمضان ليلاً ، فرأى المصابيح فى المسجد ، فقال : ماهذا ؟ فقيل له : إنّ الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوّع ، فقال : بِدْعة ، فنعمتِ البِدْعة ! فاعترف كما ترى بأنّها بِدعة ، وقد شهد الرسول صلى الله عليه وآله أنّ كل بدعةٍ ضلالة .

وقد رُوِىَ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا اجتمعوا إليه بالكوفة ، فسألوه أن ينصب لهم إماما يصلِّى بهم نافلة شهر رمضان ، زجرهم وعرّفهم أنّ ذلك خلاف السنّة ، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم، وقدّموا بعضهم،فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام،فدخل عليهم المسجد ، ومعه الدِّرّة ؛ فلمّا رأوْه تبادروا الأبواب ، وصاحوا : واعمراه !

قال : فأمّا ادّعاؤه أنّ قيام شهر رمضان كان فى أيّام الرسول صلى الله عليه وآله ، ثم تركه فمغالطة منه،لأنّا لا ننكر قيام شهر رمضان بالنّوافل على سبيل الانفراد ، وإنّما أنكرنا الاجتماع على ذلك ، فإن ادّعى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله صلاّها جماعةً فى أيامه ، فإنّها مكابَرة ما أقدم عليها أحدٌ ، ولو كان كذلك ماقال عمر : إنّها بدعة،وإن أراد غير ذلك فهو ممّا لا ينفعه ، لأنّ الذى أنكرناه غيره .

قال : والذى ذكره من أنّ فيه التشدّد فى حفظ القرآن ، والمحافظة على الصّلاة؛ليس بشىء ، لأنّ الله تعالى ورسوله بذلك أعلم ، ولو كان كما قاله لكانا يسنّان هذه الصلاة، ويأمران بها ، وليس لنا أن نبدع فى الدِّين بما نظنّ أنّ فيه مصلحة ، لأنه لا خلاف فى أنّ ذلك لا يسوغ ولا يحلّ .

وأمّا أمر الخراج فهو خلاف لنصِّ القرآن ؛ لأن الله تعالى جعل الغنيمة فى وجوهٍ مخصوصة ، فمَنْ خالفها فقد أبدع ،وليس للإمام ولا لغيره أن يجتهد فيخالف النصّ،فبطل قوله : إنه رأى من الاحتياط للإسلام أن يقرّ فى أيديهم على الخراج ؛ لأنّ خلاف النصّ

لا يكون من الاحتياط ورسوله أعلم بالاحتياط منه ؛ ولو كان لرضا الغانمين عن ذلك أو عِوَضهم منه على ما ادّعاه صاحب الكتاب لوجب أن يظهر ذلك ويُعْلَمَ ، وما عرفنا فى ذلك شيئا ، ولا نقله الناقلون .

وأما ما ادّعاه من الإجماع ، فمعوّله فيه على ترك النكير ، وقد تقدم الكلام عليه وتكرّر ، وكذلك قد تقدّم الكلام فى وجه إقرار أمير المؤمنين عليه السلام ماأقرّه من أحكام القوم ، وما ادّعاه أنّ خبر الجزية غير معلوم ولا مقطوع به ، فهبْ أنّ ذلك مسلّم على مافيه ، أليس من مذهبه أنّ أخبار الآحاد فى الشريعة يعمل بها ، وإن لم تكن معلومة ! فهلّا عمل عمرُ بالخبر المرويّ فى هذا الباب ، وعدل عن اجتهاده الذى أدّاه إلى مخالفة الله تعالى(١) !

***

(٢)أما كونُ صلاة التّراويح بدعة وإطلاق عمر عليها هذا اللفظ ؛ فإنّ لفظ البدعة يطلق على مفهومين :

أحدهما ماخولف به الكتاب والسّنّة ، مثل صوم يوم النحر وأيام التّشريق ، فإنه وإن كان صوماً إلّا أنه منهيٌّ عنه .

والثانى مالم يردْ فيه نصٌّ ، بل سُكِت عنه ، ففعله المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله . فإن أريد بكون صلاة التراويح بدعةً المفهوم الأوّل ، فلا نسلّم أنّها بدعة بهذا التفسير ، والخبر الذى رواه المرتضى غير معروف ، ولا يمكنه أن يسنده إلى كتاب من كتب المحدّثين ، ولو قدَر على ذلك لأسنده ، ولعلّه من أخبار أصحابه من محدّثى الإماميّة والأخباريين منهم ، والألفاظ التى فى آخر الحديث ، وهى : « كلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ضلالة

---

(١) الشافى ٢٦٢ .

(٢) من هنا بدء رد المؤلف على قول المرتضى .

فى النار » مروية مشهورة ، ولكنْ على تفسير البدعة بالمفهوم الأول . وقول عمر : « إنها لَبِدعة » خبر مروىٌّ مشهور ، ولكن أراد به البدعة بالتفسير الثانى؛ والخبر الذى رواهُ أمير المؤمنين عليه السلام ينفرد هو وطائفته بنقله ، والمحدّثون لا يعرفون ذلك ولا يثبتونه .

فأمّا إنكاره أن تكون نافلة شهر رمضان صلّاها رسول الله صلى الله عليه وآله فى جماعة ، فإنكارٌ لست أرتضيه لمثله ؛ فإنّ كتبَ المحدّثين مشحونة برواية ذلك ، وقد ذكره أحمد بن حنبل فى مسنده غير مرّة بعدة طرق ، ورواه الفقهاء ، ذكره الطّحاوى فى كتاب "اختلاف الفقهاء" ؛ وذكره أبو الطيب الطبرىّ الشافعىّ فى شرحه كتاب المزنىّ ، وقد ذكره المتأخرون أيضاً ؛ ذكره الغزالى فى كتاب "إحياء علوم الدين" وقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى التراويح فى شهر رمضان فى جماعة ليلتين أو ثلاثا ، ثم ترك ، وقال : أخاف أن يوجب عليكم . وأجاز لى الشيخُ أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزىّ ، برايته عن شيخه محمد بن ناصر ، عن شيوخه ورجاله ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلَّى نافلة شهر رمضان فى جماعة يأْتمّون به ليالى ثم لم يخرج وقام فى بيته ، وصلَّى الناس فرادَى بقيّة أيامه وأيام أبى بكر وصَدْراً من خلافة عمر ، فخرج عمر ليلة ، فرأى الناس أوزاعاً يصلّون فى المسجد ، فقال : لو جمعتهم على إمام ! فأَمر أبىّ بن كعب أن يصلِّىَ بهم ، فصلَّى بهم تلك الليلة ثم خرج ، فرآهم مجتمعين إلى أبىّ بن كعب يصلِّى بهم ، فقال : بدعة ونعمة البدعة ! أما إنها افضلُ ، والتى ينامون عنها أفضل .

قال : يعنى قيام آخر الليل ، فإنه أفضل من قيام أوله .

وأما قول قاضى القضاة إنّ فى التراويح فائدة وهى التشدّد فى حفظ القرآن والدعاء إلى الصلاة ، واعتراض المرتضى إياه بقوله : الله أعلم بالمصلحة ؛ وليس لنا أن نسنّ مالم يسنّه

الله ورسوله ، فإنه يقال له : أليس يجوز للإنسانٍ أن يخترع من النّوافل صلواتٍ مخصوصة بكيفيّاتٍ مخصوصة، وأعدادٍ ركعاتٍ مخصوصة، ولا يكون ذلك مكروهاً ولا حراماً، نحو أن يصلّى ثلاثين ركعة بتسليمة واحدة ، ويقرأ فى كلّ ركعة منها سورةً من قِصار المفصّل أفيقول أحدٌ : إنّ هذا بدعة ، لأنه لم يرد فيه نصّ ولا سبق إليه المسلمون من قبل !فإن قال: هذا يسوغ ؛ فإنه داخل تحت عموم ماورد فى فضْل صلاة النافلة ، قيل له : والتراويح جائزة ومسنونة لأنها داخلة تحت عموم ماورَد فى فضل صلاة الجماعة .

فإن قال : كيف تكون نافلة ، وهى جماعة !قيل له :قد رأينا كثيرا من النّوافل تصلّى جماعة ، نحو صلاة العيد ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستسقاء ، وصلاة الجنازة ،إذا لم يتعيّن للمصلّى بأن يقوم غيره مقامه فيها .

فأمّا ما أشار إليه قاضى القضاة من التشدّد فى حفظ القرآن ، فهو أنّه روى أنّ عمر أُتِىَ بسارق ، فأمر بقطعه ، فقال : لم أعلم أنّ الله أوجب القطع فى السَّرِقة ، ولو علمت لم أسرق ، فأحلفه على ذلك . وسنّ التراويح جماعة ليتكرّر سماع القرآن على أسماع المسلمين.

وقد اختلف الفقهاء أيّما أفضل فى نافلة شهر رمضان ؟ الاجتماع عليها أم صلاتها فرادى ؟ فقال قوم : الجماعة أفضل لأنّ الاجتماع بركة وله فضيلة ، ولولا فضيلته لم يسنّ فى المكتوبة ، ولأنه ربّما يكسل فى الانفراد ، وينشط عند مشاهدة الجمع.

وقال قوم : الانفراد أفضل،لأنّها سنّة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بتحيّة المسجد أوْلَى ، وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معا ، ثم لم يصلّوا التحيّة بالجماعة .

وروى القائلون بهذا القول عن النبى صلى الله عليه وآله أنّه قال : «فضل صلاة المتطوّع فى بيته على صلاة المتطوّع فى المسجد ، كفضلِ صلاة المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت » .

وقد روى عنه عليه السلام ؛ أنّ أفضل النوافل ركعتان يصلّيهما المسلم فى زاوية بيته لا يعلمهما إلا الله وحده .

قالوا : ولأنّها إذا صلّيت فرادَى كانت الصلاة أبعَد من الرّياء والتصنّع . وبالجملة الاختلاف فى أيّهما أفضل ، فأما تحريم الصلاة ولزوم الإثم بفعلها ، فمّا لم يذهب إليه إلّا الإمامية ، وقد روى الرواة أن عليًّا عليه السلام خرج ليلًا فى شهر رمضان فى خلافة عثمان بن عفان ، فرأى المصابيح فى المساجد ، والمسلمون يصلّون التراويح ، فقال : نوّر الله قبر عمر كما نوّر مساجدنا ! والشّيعة يروون هذا الخبر ، ولكن يحمل اللفظ على معنى آخر .

فأما حديث الخراج فقد ذكره أرْبابُ علم الخراج والكتّاب ، وذكره الفقهاء أيضا فى كتبهم ، وذكره أرباب السيرة وأصحاب التاريخ . قال قدامة بن جعفر فى كتاب " الخراج " : اختلف الفقهاء فى أرض العَنْوة ، فقال بعضهم : تخمّس ، ثم تقسّم أربعة أخماس على الّذين افتتحُوها ، وقال بعضهم : ذلك إلى الإمام ، إن رأى أن يجعلَها غنيمة ليخمّسها ويقسم الباقى كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر فذلك إليه ؛ وإن رأى أن يجعلَها فيئا فلا يخمّسها ولا يقسمها ، بل تكون موقوفةً على سائر المسلمين ، كما فعل عمر بأرض السّوَاد وأرض مصر وغيرها ، ممّا افتتحه عَنْوةً ، فعلى الوجهين جميعا ؛ فيهما قدوة ومتّبع ، لأن النبيّ صلى الله عليه وآله قسّم خيبر وصيّرها غنيمة ، وأشار الزُّبير بن العوام على عُمر فى مصر وبلاد الشام بمثل ذلك ، وهو مذهب مالك بن أنس ، وجعل عمر السواد وغيره فيئًا موقوفًا على المسلمين ، مَنْ كان منهم حاضرا فى وقته ، ومَنْ أتى بعده ولم يقسمه ، وهو رأْىٌ رآه علىّ بن أبى طالب عليه السلام ومعاذ ابن جبل ، وأشارا عليه ، وبه كان يأخذ سُفيان بن سعيد ، وذلك رأى مَنْ جعل الخيار إلى الإمام فى تصيير أرض العَنْوة غنيمة أو فيئا راجعا للمسلمين فى كل سنة .

قال قدامة رحمه الله : فأمّا مافعله رسول الله صلى الله عليه وآله من تصييره خَيْبر غنيمة، فإنه عليه السلام اتّبع فيه آيةً محكمة، وهى قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ ﴾(١) فهذه آية الغنيمة وهى لأهلها دون الناس ، وبها عمل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأمّا الآية التى عمل بها عمر وذهب إليها على عليه السلام ومعاذ بن جبل فيما أشارا عليه به ، فهى قوله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ ﴾ إلى قوله :﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِم ﴾(٢). انتهت ألفاظ قدامة .

وروى محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، أنّ عمر همّ أن يقسّم أرضَ السّواد بين الغانمين، كما يقتسم الغنائم ، ثم قال :فكيف بالآجام ومناقع المياه والغياض والهضب المرتفع والغائط المنخفض ؟ وكيف يصنع هؤلاء بالماء وقسمته بينهم ؟ أخاف أن يضرب بعضهم وجوهَ بعض! ثم جمع الغانمين فقال لهم :ذلك ،فرضُوا أن تقرّ الأرض حبيساً لهم يولونها مَنْ تراضوْا عليه ، ثم يقتسمون غلّتها كلّ عام ، فقال عمر : اللهمّ إنّى قد اجتهدت ، وقد قضيت ما علىّ ، اللهم إنى أشهدُك عليهم فاشهد .

فأما قول قاضى القضاة : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله جعل لمتولى أمر الأمّة ضرباً من الاختيار فى الغنيمة ، وما ذكره من الفرق بين الرّجال والأموال ، وماذكره من أنّ الغانمين ليسوا مالكِى الغنيمة ملكاً صريحا ، وإنما هو ضرب من الاختصاص ، فكلّه جيّد لا كلام عليه ، ولم يعترضه المرتضى بشىء ولا تعرّض له .

وأما قول قاضى القضاة : إنه رُوِىَ أنّ عمر فعل مافعل برضا الغانمين، وبأن عوّضهم

---

(١) سورة الأنفال ٤١ (٢) سورة الحشر ٧ ــ ١٠ .

عنه ، وإنكار المرتضى وقوعَ ذلك ، وقوله : إنه لم ينقل ، فقد بينا أن الطبرىّ ذكر فى تاريخه أنّ عمر فعل ذلك برضا الغانمين ، وبعد أن جمعهم وقال لهم مااستصلحه ، وما أدّى إليه اجتهاده ، فرضُوا به ، وأشهدوا الله عليهم والحاضرين.

وقد ذكر كثير من الفقهاء أنّ عمر عوّض الغانمين عن أرض السّواد ، ووقفه على مصالح المسلمين ، وهذا مارواه الشافعىّ ، وذكر حديث التّعويض أبو الحسن علىّ بن حبيب الماوردىّ فى كتاب " الحاوى " فى الفقه ، وذكره أيضا أبو الطّيب طاهر بن عبد الله الطبرىّ فى " شرح المزنىّ " .

وأما تعلّق قاضى القضاة بإجماع المسلمين ، فتعلّقٌ صحيح ، وطعن المرتضى فيه بالتقيّة وموافقة الإمام المعصوم عَلَى الباطل طعنٌ يسمُج التعلّق به ، وللبحث فيه سبْح طويل .

وأمّا أمر الجزية ، فطريقه الاجتهاد ، وللإمام أن يرى فيه رأيه بمشاورة الصلحاء والفقهاء ، وقد قال قاضى القضاة : إنّ الخبر الذى ذكره المرتضى ، وذكر أنه مرفوع ، وهو « عَلَى كلّ حالمٍ دينار » خبر مظنون غير معلوم ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : هب أنّ الأمر كذلك ، ألستم تزعمون أنّ خبر الواحد معمول عليه فى الفروع ! فهلّا عمِل عمر بهذا الخبر ، وإن كان خبر واحد – اعتراض ليس بلازمٍ ، لأنه إذا كان خبرَ واحد عندنا لم يلزم أن يكون أيضا خبر واحد عند عمر ، بل من الجائز أن يكون مفتَعلا بعد وفاة عمر ، ولو كان قد ثبت أن عمر سمع هذا الخبر من واحدٍ أو اثنين من الصحابة ، ثم لم يعمل به ، كان الاعتراض لازماً ، ولكنّ ذلك ممّا لم يثبت .

تم الجزء الثانى عشر من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثالث عشر

فهرس الموضوعات